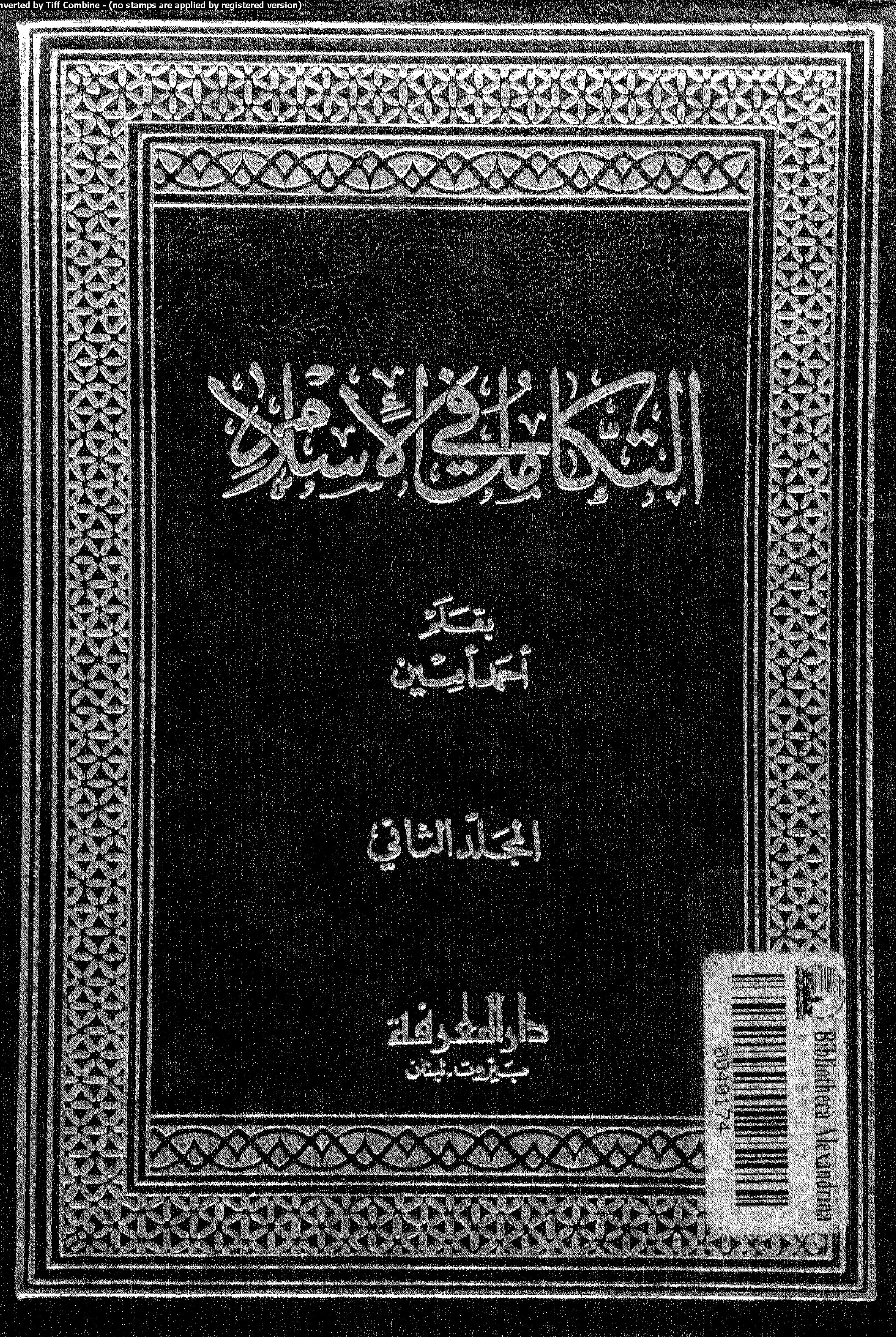


التكامل في الإسلام

بقلم
أحمد أمين

المجلد الثاني

دار المعرفة
بيروت . لبنان







التكامل في الإسلام

الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م



دار المعرفة
DAR EL-MAREFAH
للطباعة والنشر والتوزيع
Publishing & Distributing

مستديرة المطار - شارع البرجاوي ص.ب ٧٨٧٦ تلفون: ٨٣٤٣٠١ - ٨٣٤٣٣٢ - برقياً معرفكار بيروت - لبنان

التكامل في الإسلام

بقلم

أحمد أمين
خريج كلية التربية وجامعة استنبول

الجزء الرابع

دار المعرفة
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي انحسرت الأوصافُ عن كُنه معرفته[1] ورَدَعَت عظمته العقول فلم تجد مساغاً إلى بلوغ غَاية ملكـوته. هـو الله الملك الحقُّ المبين. أحقُّ وأبينُ مما تراه العيون. لم تبلغْهُ العقـول بتحديـدٍ فيكونَ مشبَّهاً، ولم تقع عليه الأوهام بتقدير فيكون مُمثَّلاً. خلقِ الخلقَ على غير تمثيل ولا مشورةِ مُشير، ولا معونة معين. فتمَّ خَلقُه بأمره. وأذعن لطاعته فأجاب ولم يدفع وانقاد ولم ينازع.

(١) من كلام لعلي أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام. انحسرت: تقطعت وكلَّت واعيت.

الدين أمر فطري

منذ أن وجد الإنسان على وجه الأرض كان يدين بما يمليه عليه عقله من أن لهذا الكون موجداً وخالقاً مدبراً، خلق الانسان بهذا الشكل الخارق العجيب، وخلق قبلاً الهواء والماء والنبات لاستقرار حياته. فكما أن الله تعالى ألهم الانسان أن يستفيد من تجاربه لادامة حياته، فيأوي إلى الكهف لاتقاء البرد أو يلبس من جلود الحيوانات ويجرب الأمور البسيطة من الزراعة والصناعة، كذلك ألهمه أن يفكر في تلك القدرة العظيمة، قدرة الله التي لا تتناهى وعظمته التي لا تحد. وقد قال تعالى: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾[1].

وقد أثبتت الحفريات والآثار أن الدين قد رافق الانسانَ منذ بدء الخليقة. يقول الأثري الدكتور سليم حسن: «دلت البحوث العلمية البحتة حتى الآن على أن لكل قوم من أقوام العالم عامة مهما كانت ثقافتهم منحطة ديناً يسيرون على هديه ويخضعون لتعاليمه».

يقول الفيلسوف اليوناني الكبير سوقراط: «يشعر الانسان بحاجته الماسة إلى الهواء والماء والطعام، وكذلك تشعر روحه أنها في حاجة مبرمة أيضاً إلى غذاء روحي. وهذا الشعور هو في عرفنا: الدين الذي اهتدى إليه أول إنسان. يدلك على ذلك: أننا إذا تتبعنا حياة طفل أتينا به من أقاصي البلاد المتوحشة وتركناه يترعرع بدون أن نلقنه عقيدة دينية مهما كان نوعها، فانك لتجده عندما يصبح رجلاً كامل الشعور يتحرى في أعماق تفكيره عن شيء مجهول، ويظل باحثاً منقباً تحت تأثير عامل نفسي وغريزي حتى يعثر على بادرة تكون في أول أمرها مائعة اللون تتمركز في دماغه، ثم لا تلبث حتى تتجسم وتتخذ شكلاً صوفياً بارزاً يأخذ في التطور رويداً رويداً إلى الشيء

---

(١) سورة الروم: ٣٠.

الذي نسميه (عقيدة) أو (ديناً) لأن هنالك ضرورة خفية وقوية تدفعه إلى هذا التدرج، حتى يصل إلى النوع الذي يحلو له للعبادة».

يقول المؤرخ الاغريقي الشهير (بلوتارك) منذ نحو ٢٠٠٠ سنة: «من الممكن أن نجد مدناً بلا أسوار ولا ملوك ولا ثروة ولا آداب ولا مسارح، ولكن لم ير الانسان قط مدينة بلا معبد أو لا يمارس أهلها عبادة».

فنحن نقرأ في أسفار الهند المعروفة بالكتب الفيدية: «إن الاله الأكبر قد خلق الأرض بكلمة ساحرة، فأمرها بأن توجد، فبرزت على الفور إلى حيز الوجود».

ونقرأ في كتب الصين واليابان القديمة جداً: «أن إله السماء هو الذي يصرف الأكوان ويدبر أمور الانسان».

ونقرأ في كتب الفرس القديمة ما نصه: «هو أقوى القوى في عالم الملكوت، وهو واهب الانعام المكين، الكامل القدس، الحكيم الخبير، الغني المغني السيد المنعم، القهار، محق الحق، البصير، الشافي، الخلاق، العليم بكل شيء ».

ونجد عند الفراعنة من النصوص التي تدل على الابتهال إلى الله العلي القدير والتي تثير في النفس شعوراً فياضاً بالايمان والتوحيد. منها

«أيها الاله الأوحد الذي ليس لغيره سلطان كسلطانه، يا خالق الجرثومة في المرأة، ويا صانع النطفة في الرجل، ويا واهب الحياة للابن في جسم أمه، ويا من يهدئه فلا يبكي، ويا من يغذيه حتى وهو في الرحم... يا من خلقت الأرض كما يهوى قلبك حين كنت وحيداً... ألا ما أعظم تدبيرك يا رب الأبدية».

إقرأوا وصية الملك (آني) من ملوك مصر القدماء لابنه (خنسو حوتب) «لا تأثم، خفِ الله واتقِ غضبه، وإذا صليت لله فمن العبث أن تجهر أو تصيح، صلِّ بقلب مؤمن يخاطب الله في غير إعلان يقض الله حاجتك ويستجب دعاءك».

ولسائل أن يسأل: كيف عبد الناس الأوثان والهـوام والبقر والشمس وتسافلوا حتى صاروا يتبركون ببول البقر!.

انه تعالى يقول: ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون﴾[1] فجعل الله تعالى تقابلاً بين الايمان والفسق. ومعنى ذلك أن الفسق يضاد الايمان ويعاكسه، فلو تلوثت النفس الانسانية بالفسق فر الايمان من وجهه فلا يعود حتى تطهر النفس من فسوقها وإجرامها.

انـه تعـالى يقـول: «أفنجعـل المسلمين كـالمجـرمين مـالكم كيف تحكمون»[2] وفي آية أخرى: ﴿ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به، وربك أعلم بالمفسدين﴾[3]. ومعنى ذلك أن طريق الايمان قد سد على المفسدين. وفي آية أخرى: ﴿ان الله لا يهدي من هو كاذب كفـار﴾، فالكذب يزيل الايمان. وفي آية أخرى: «ولقد أنزلنا اليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾. فالفاسق يكفر بآيات الله بصورة طبيعية.

كان الناس بالفطرة يؤمنون بالله، يوحدونه، حتى غلبت عليهم شياطينهم ففسقوا وفجروا وظلموا وأساؤوا، فانسحب الايمان وسوَّل لهم الأبالسة عبادة الأصنام والحيوان على حد قوله تعالى: ﴿ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾.

فالالحاد أو الوثنية أمر عارض يناقض الفطرة ويعـاكسها. إنـه تعالى يقول: ﴿وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾.

فالله تبارك وتعالى قد غرس أصول التوحيد والايمان في النفس الانسانية

(١) سورة السجدة: ١٨.
(٢) سورة القلم: ٣٥، ٣٦.
(٣) سورة يونس: ٤٠.

في عـالم الذر، في عـالم الأرواح إتمامـاً للحجة: ﴿قـل فلله الحجـة البالغة﴾[1].

فهناك رسولان، رسول باطني، وهو العقل، جعل الله الانسان مسؤولاً تجاهه. فـ﴿العقـل ما عبـد به الرحمـن واكتسب بـه الجنان﴾ ورسـول ظاهري: وهم الأنبياء سلام الله عليهم أجمعين.

فالناس كانوا في قديم الزمان، في وقت لا يحدده التاريخ مؤمنين بالله يوحدونه ويقدسونه، ولكن الشيطان قد سول لهم فأطاعوه بتلويث نفوسهم بالفسق والظلم، فأظلمت نفوسهم وزاغت عن الصراط: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهـدي القوم الفـاسقين﴾[2]، فصاروا يشـركون بـالله ويعبدون غير الله تعالى أو أمسوا ماديين... وقد قال تعالى:

﴿كان الناس أمة واحدة، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾.

وإتماماً للفائدة نذكر هذا الحديث:

عن زرارة عن أبي جعفر (ع) قال: سألته عن قول الله عز وجل: ﴿حنفاء لله غير مشركين به﴾؟ قال: «الحنيفية من الفطرة التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ثم قال: فطرهم على المعرفة به...».

نرى أن من (٢٩٠) فيلسوفاً ٩١٪ منهم مؤمنون و ٥٪ منهم لا أدريون (لا يعلمون) و ٤٪ منهم ملاحدة. ذلك لأن العلم وما أودع الله من دقيق الصنع وشتى المعادلات في تكوين هذا الكون يجر الانسان الباحث إلى الاعتقاد بالله العلي القدير. كان يقول (باستور): «لا تنافي بين العلم والايمان بالله، وكلما زاد علم الانسان زاد إيمانه بالله». ويقول الكيميائي الشهير الدكتور

---

(١) سورة الأنعام: ١٤٩.
(٢) سورة الصف: ٥.

(ولتز): «وإذا أحسست في حين من الأحيان أن عقيدتي بالله تزعزعت وجهت وجهي إلى أكاديمية العلوم لتثبيتها».

فلا يلوث النفس الانسانية ولا يزيل هذا الاتجاه الطبيعي وأعني به: التوجه نحو الخالق المتعال، إلا متابعة هوى النفس على حد قوله تعالى: ﴿كذلك حقّت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾.

وقد جاء في الحديث: «أغلب الناس من تغلب على هواه».

ويقول الله تعالى بالنسبة إلى المنحرفين من الناس: ﴿إن يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾.

وأما قول (روبرت هتشنس): «ولقد بلغ العالم في آن واحد إلى الأوج في المعرفة والتكنولوجيا والتحكم في الطبيعة وإلى الحضيض في حياته الأخلاقية والسياسية، فذلك لتركهم التعاليم الدينية والأخلاقية التي هي من الدين وإنغماسهم في الشهوات وأنواع الترف.

فالعلم المادي يقوى الاعتقاد بالله إن لم تتلوث النفس بفسوقها وإجرامها وإلا فتتخذ النفس الملوثة هذا العلم على سبيل التمويه آلة لإثبات صحة ما سلكت من مسالك معوجة، وهيهات!.

فيجدر بدعاة الاسلام أينما كانوا أن يستفيدوا من هذه الغريزة التي أودعها الله النفوس البشرية وهي توجهها بصورة فطرية إلى الخالق المتعال لنشر الاسلام والتوحيد في أرجاء الأرض وإبعاد الناس عما يلوث نفوسهم من معاصٍ وآثام، كي تكون قمينة لحلول معرفة الله فيها، فتقبل الاسلام كدين عالمي خالد: فيه سعادة الدنيا ونعيم الآخرة. فقد قال علي (ع) معظماً أمر الدعوة إلى الاسلام والارشاد الديني أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: «وما أعمال البر كلها والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا كنفثة[1] في بحر لجي»[2]....

---

(١) نفثة: (المره من نفث). وهي ما تلقيه من فيك من بصاق.
(٢) بحر لجي: واسع اللج. واللج: معظم الماء.

علة بعث الرسل (ع)

إن نظرة واحدة إلى هذا الكون الرحيب تجعلنا نجزم أن هناك دقة متناهية وانتظاماً رائعاً وقوانين رصينة ودساتير متقنة لا يمكن أن تستقصى في كل جزء من أجزاء هذا العالم، دقة يحار فيها أكبر رياضي وأعظم فيزياوي وأفطن كيماوي وأذكى عالم بالطبيعيات.

كيف لا، وهو يرى أن الكواكب تسير حول الشمس على شكل اهليلجي (قطع ناقص) بحيث تقع الشمس في إحدى بؤرتي هذا المنحني المغلق. ومعلوم أن رسم الشكل الاهليلجي من الصعوبة بمكان. ذلك لأنك يجب أن تعين نقاطاً تبعد عن البؤرتين بحيث يكون مجموع البعدين مساوياً للقطر الطويل لهذا الشكل: أي عليك أن ترسم منحنياً يكون محلاً هندسياً لنقاط يكون بعدُ كل منها من البؤرتين مساوياً إلى بعد معلوم (أي إلى قطر الشكل). ومن المعلوم أن موضوع المحل الهندسي من المواضيع الهامة التي يفهمها الطلاب بعد جهد جهيد في موضوع المنحنيات. ففي الرياضيات العالية في أبحاث الهندسة التحليلية يصعب على الطالب الجامعي حل مسائل تتعلق بالمحل الهندسي إلا إذا كان من الأذكياء. فأي عقل جبار رسم هذا المحل الهندسي وأعني به مدار الأرض حول الشمس بهذا النمط البديع عن حكمة فائقة؟ ومَن الذي وضع هذه الدساتير الرياضية الثابتة في حركات الأرض حول الشمس وحركات القمر حول الأرض وفي الوقت نفسه حول الشمس، حتى تمكن العالم الفلكي الرياضي من أن يحصل على معادلة الكسوف (وما أصعبها) بعد عناء شديد؟.

وأصعب من رسم المنحنى الاهليلجي، رسم المنحنى اللولبي، وهو مسار الشمس في الفضاء مع كواكبها بسرعة سبعين ألف كيلومتر في الساعة متجهةً نحو نجمة في الفضاء تعد لبعدها الشاسع من الثوابت! وهي النسر

الواقع. هذا ما اكتشفه العلم الحديث قبل خمسين عاماً ليبرهن مرة أخرى على الاعجاز القرآني. وهو قوله تعالى قبل أربعة عشر قرناً: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾.

كيف لا يحار الانسان ولا يندهش عندما يشاهد هذا الاتقان الذي أودعه الله في ما خلق من مخلوقات، حتى جعل سطح ذرات الثلج المتساقط من السماء مشكلاً من مخمسات منتظمة أو مثلثات متساوية الاضلاع بحيث لو وضعت ذرة من هذا الثلج تحت المجهر (الميكروسكوب) لرأيت عالماً عجيباً وشكلاً في غاية الانتظام!.

ومعلوم أن رسم المخمس المنتظم من الصعوبة بمكان. ذلك لأن على من يحاول رسم ذلك أن يرسم أولاً معشراً منتظماً ثم يصل بين رأسين غير متجاورين من هذا المعشر للحصول على مخمس منتظم، وأما رسم المعشر فأمر عسير وما أعسره! عليه أن يقسم نصف قطر الدائرة إلى قسمين تكون نسبة الكل (نصف القطر) إلى القسم الأكبر كنسبة القسم الأكبر إلى القسم الأصغر، أي عليه أن يجعل القسم الأكبر وسطاً هندسياً بين الكل والقسم الأصغر، وهذا التقسيم أيضاً من الصعوبة بمكان، وهكذا دواليك.

فسبحان الذي رسم هذه المخمسات المنتظمة على سطح أجزاء الثلج بحيث كانت الأضلاع متساوية والزوايا كذلك متساوية، ومقدار كل منها ١٠٨ه (درجة).

نرى هذا الكمال المحير للعقول متجلياً في الذرة وفي المعادن وفي شبه المعادن أي في (١٠٣) عنصر حسبما اكتشف لحد الآن وفي النبات والحيوان على كثرة تنوعهما وتصانيفهما المختلفة، وفي الانسان نراه متجلياً كذلك في هذا العقل الانساني الذي منح هذا المنطق الجبار: التعميم، التجريد، الاستقراء، الاستنتاج، وهذا التقدم في العلوم الرياضية العالية دون استناد إلى تجربة مادية سابقة على حد قول (اينشتاين) أعلم علماء القرن العشرين.

كيف لا يحار الانسان في عظمة خالقه حينما يرى أنه توجد في المادة

السنجابية التي في تلافيف الدماغ ٦٠٠٠٠٠٠ خلية وتتألف كل خلية من ألوف الدقائق الظاهرة وكل دقيقة تتألف من ملايين الجواهر.

كيف لا يحار الانسان عندما يرى أن دقة الصنع قد بلغت منتهاها في حركة عضو من أعضاء البدن الانساني، فهي تفوق دقة الصنع في القنبلة الذرية التي هي نتاج العقل الانساني بلطف من الله خلال ٢٥٠٠ سنة.

* * *

إن العقل الانساني، هذا العقل الموهوب من جانب الله تعالى، هذا العقل الذي لا يعلم هذا الانسان كيف منَّ الله به عليه وكيف ركب فيه على حد تعبير (دكارت)، يرشد الانسان بصورة فطرية: أن منظم هذا الكون لا يلهو ولا يلعب[1]. ذلك لأن التنظيم يخالف اللهو وينافي اللعب فلا يخلق هذا المنظم العظيم شيئاً عبثاً وإن غايته في الخلق تتناسب مع عظمته وان هدفه في الصنع ليتناسب مع كماله المطلق.

يرشد هذا الانسان أن يقول جازماً: لا بد لخلقه من غاية ولا بد لإيجاده من هدف سام رفيع. فأنه بعد تفكر بسيط يجزم قائلاً: بما أن كل ما في هذا الكون المادي قد بلغ الحد الأقصى من الكمال، إذن وجب أن لا يشذ هذا الانسان، وهو من مخلوقات الله تعالى ـ على حد تعبير دكارت ـ عن سنّة الكمال، فعليه أن يتكامل.

ذلك لأن الكامل على الاطلاق وهو الله تعالى لا يريد أن يرى في ما خلق شيئاً ناقصاً[2] فهو يريد الكمال لكل ما خلق ولو بصورة تدريجية، يرى ذلك أمراً طبيعياً.

يرى أن الطفل يولد وأن تشكيلات أعضائه من الكمال بحيث لو كتبت آلاف الصفحات في وصف خواصها وقوانينها ودساتيرها لاحتيج أيضاً إلى آلاف الصفحات وأكثر لاستيعاب هذا الكمال المودع في النواحي المادية من بدنه وقد لا ينتهي إلى نهاية البحث: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة

(١) ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾.
(٢) ﴿ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ سورة طه: ٥٢.

أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾.

لكنه يرى أن هذا الطفل فيه صفة البطش والغش والكذب والخيانة والحرص والبخل وصفات كثيرة أخرى تضاد الكمال. وفيه في الوقت نفسه بعض الصفات الطيبة، فهو أشبه شيء بخليطة من المعادن: فيها معادن خسيسة كـ(السيليسيوم) والكالسيوم والحديد والنحاس... إلى ما هنالك، وفيها الذهب الخالص. فيقول في نفسه: إن هذه الصفات الذميمة تخالف الكمال الذي يريده الله لمخلوقاته. فيجب أن تزول وأن يدخل في دور الكمال كما يعمل الكيماوي في تلك الخليطة من المعادن: يضعها في محاليل مختلفة لازالة المعادن الخسيسة والظفر بالذهب الخالص. فإذن يجب أن تزول هذه الصفات الذميمة في الطفل وفي كل انسان كي يظهر الذهب الخالص فيه.

فما هو هذا الذهب الخالص يا ترى؟ ومن هو ذلك الكيماوي الذي يعرف هذا الانسان المخلوط من صفات خسيسة وقابليات طيبة معرفة حقيقية فيعرِّفه الحق والواقع، يعرفه إلى خالقه وبارئه، يقربه إليه تعالى بدساتيره القيمة وتعاليمه الالهية ويبلغ بهذا الانسان مراتب الكمال الانساني، يوصله إلى درجات من عوالم القدس حتى يصبح أعلى مرتبة من الملائكة.

مَن هو هذا الكيماوي الذي يتفضل على هذا الانسان بدساتير الكمال دونما أجر (إلا المودة في القربى) ومن أين يجب أن يستقى سنن الكمال التي يتحقق بها الكمال الانساني

إن الكيماوي (دونما تشبيه) هو النبي المرسل والذي يوحي سنن الكمال إنما هو الله جلّت عظمته. ذلك لأن الله هو خالق الأرواح ومنشئها وهو العالم بخواصها وصفاتها وقابلياتها وطرق تكاملها.

فليس لهذا الانسان الناقص - مهما سمى نفسه فيلسوفاً - أن يأتي بسنن تكامل النفس، إلا إذا كان مغروراً بعيداً عن إلهام الفطرة جاهلاً غراً ملوثاً بما اجترحت يداه. كـ(كارل ماركس) وأضرابه. فقد كان يقول مغروراً برأيه: «آرائي... أفكاري». ويقول لمن يخالفه في الرأي: برجوازي...

كان أنانياً يختلق التهم، حسوداً يعامل من يخالفه في الرأي معاملة ملؤها التحقير والازدراء، كان فيه شهوة الهدم والتخريب وقد استخدم الأسلحة النارية وسيق إلى الشرطة لافراطه في السكر والعربدة! كان ينقطع عن الجامعة ويذهب إلى السكر والدعارة، يترك (بون) مقر الجامعة ويذهب إلى (كولون) في جوارها ويبتغي فيها ملاهي السمر.

كان (كارل ماركس) مسلوب العاطفة فلم يذهب إلى بلده حين مات أبوه وبقي في برلين وهو عميد الأسرة بعد والده. واسترسل في الطلب حتى نفد نصيبه من الميراث فمال إلى نصيب أمه واخواته. وكان قبلاً قد أرهق أباه في طلب المال. وقد انتحرت بنتاه (لورا وأختها).

عقد (كارل ماركس) مقاولة مع الجرائد وأخذ مبلغاً ولم يف بمنطوق العقد. وعقد اتفاقية مع (ألكسي) على كتابة نظرياته الاقتصادية هذه التي لم تنل نصيباً من التطبيق لكونها بعيدة عن واقع (الحياة) وقبض (١٥٠٠) فرنك وعقد في نفس الموضوع اتفاقية أخرى مع شخص آخر ولم يف بكلتيهما.

نعم، إن رجلاً هذا ديدنه وتلك صفاته حقيق أن تترشح منه هذه الأباطيل بأن يقول: «إن الديانات والعقائد جميعاً إنما هي انعكاسات الضرورات الاقتصادية». إن لم يكن قد قصد وراء ذلك الانتصار للصهيونية عن طريق الهدم والافساد!.

وكم رأينا من الفلاسفة جاؤا بنظريات مضلة تبعد البشر عن جادة الصواب، فكان بعضهم يقول في مقتبل العمر شيئاً ثم إذا بلغ الخمسين قال شيئاً يناقض ما قاله أولاً حتى إذا ناهز السبعين خالف ما قاله أولاً وثانياً مع ما هنالك من اختلاف في الآراء فيما بينهم!.

(أوكوست كنت) فيلسوف فرنسي، كان قد بلغ من الذكاء مرتبة مرموقة، كان إذا طالع كتاباً مرة واحدة استوعب ما فيه. كان يحضر في مجلس درسه (في بيته) علماء من الدرجة الأولى لاستماع محاضراته وألّف كتاباً ضخماً في ٦ مجلدات في تحقيق الفلسفة. إلا أنه مع ذلك كان ناقصاً من نواحٍ شتى، كان سيِّء العشرة لا يأتلف بالناس. ثم إنه عشقِ فتاة في أواخر أيام

حياته وماتت هذه الفتاة قبل الوصال فتأثر وبنى معبداً ورتب له عبادات وأسس ديناً جديداً أسماه «دين الانسانية» وتفرق عنه تابعوه وأخذ الناس يسخرون منه.

وكان الفيلسوف الدكتور (جود) ملحداً فأصبح موحداً وكان يقول إني كنت لا أفهم شيئاً عن الكون عند تخرجي في الجامعة بل كنت حيواناً على شكل إنسان.

كما كان الفيلسوف الانكليزي (جيمس جانيس) ملحداً فغدا موحداً.

وكم من فلاسفة تبنوا النظرية المادية! لظلمات في نفوسهم وقالوا بأزلية المادة (دون دليل وبرهان) قالوا: إن المادة هي التي تخلق العقل وتنظم العالم أيما تنظيم وتضع قوانين فيزياوية وكيمياوية ودساتير فلكية ومعادلات رياضية دقيقة إلى ما هنالك. وقالوا إن المادة هي العقل الجبار المنظم لهذه العوالم المختلفة بهذه الدقة المتناهية التي لم يصل إلى حقائقها العقل البشري ولا يزال يعترف أنه «لا يعلم شيئاً»، من هؤلاء الماديين أبيكور، كارل ماركس، بوخنر، فورباخ. إنهم خالفوا الفطرة وتجليات العقل البشري ودنسوا العالم بترويجهم نبذ الفضائل وسحقها والانحلال الخلقي والاباحية والشذوذ الجنسي كفرويد وغيره.

حتى قال بعضهم: إن الفيلسوف إذا كان فقيراً فان فقره وعجزه يجعلانه أن يعتقد باله خلاق. ولكن لو كان ثرياً فأنه لا يؤمن بذلك ويكون مادياً، ذلك لأن فكرة الآله إنما أتت من النواحي الاقتصادية من الفقر والاضطرار؟.

انهم كذبوا في ما قالوا. فان (دكارت) الفيلسوف الفرنسي كان موحداً وكانت له أملاك في فرنسا وعاش طيلة حياته عيشة هنيئة وكذلك أفلاطون.

أبيقور كان فيلسوفاً مادياً وقد تربى في بيت فقر وبؤس وعاش كذلك ومثله: روسو.

فليس الفقر والغنى والبيئة عوامل تؤثر في توجيه الفرد نحو المادية أو التوحيد كما يدعي الماديون وإنما العامل الحقيقي عمل الانسان وما يترشح

منه من حسنات وسيئات: ﴿ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾.

* * *

فالله تبارك وتعالى وهو معطي الكمال لا يترك هذا الانسان سدى: ﴿أيحسب الانسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾.

فالله يهيىء لهذا الانسان من يتصدى إلى تكميله وتقريبه إلى ربه ومعرفة خالقه وتلك غاية الغايات. فقد جاء في حديث قدسي، أنه تعالى يقول: ﴿كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرف فخلقت الخلق لكي أُعرف﴾.

وإن باب المعرفة هو العبادة فبالعبادة بما فيها من أعمال صالحات وتجنب المحرمات وتطهير النفوس، تصبح النفس قمينة لمعرفة خالقها، كي تنال الحب الآلهي وذلك أسمى الغايات. لذلك حصر الله تعالى علة خلق الجن والانس في العبادة، ذلك لأن العبادة هي سبيل معرفة الخالق ووسيلة التكامل الانساني في الحياة الدنيا، بقوله جل من قائل: ﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون﴾.

الانسان مريضٌ نفسياً في هذه الدنيا لما يحمل من صفات ذميمة وخصال مذمومة وبطش وطيش. فالأنبياء (ع) هم معدلو هذا الانسان ومانعوه عن طيشه وغوايته لذلك يقول علي (ع): «أرسل رسولاً ليزيل به علتهم» ويقول (ع) في مقام آخر: «أرسل أنبياء ليثيروا في الناس دفائن عقولهم، ويهدوهم إلى معايش تحييهم».

فالأنبياء لم يمنعوا الناس عن تعلم العلوم! بل أثاروا فيهم دفائن العقول حتى كانت هذه المكتشفات في شتى النواحي العلمية من فلك ورياضيات وطبيعيات وطب وكيمياء إلى ما هناك في الحضارة الاسلامية، وأصبحت أوربا مدينة في مكتشفاتها للحضارة الاسلامية الزاهرة في القرون الوسطى. وبقوله عليه السلام: «ويهدوهم إلى معايش تحييهم» أراد أن الأنبياء (ع) هم

منظمو الحياة الاقتصادية بدساتيرهم العادلة وتعاليمهم الخالدة.

فالأنبياء هم مطهرو هذا الانسان مما ألم به من دنس ورجس وموصلوه إلى أقصى مراتب الكمال. لذلك يقول الله تعالى:

﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾.

وبقوله: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾.

وبقوله: ﴿قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى﴾.

وبقوله: ﴿قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾.

وبقوله: ﴿ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم ولعلكم تشكرون﴾.

وبقوله: ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾.

وبقوله: ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين﴾.

وهكذا سنَّ الله تعالى وهو العارف بحقيقة هذه النفوس التي خلقها وصفاتها وطرق تكاملها، سنن التزكية والتطهير لهذا الانسان وأوصى بها أنبياءه (ع)، وأمرهم أن يبلغوا رسالاته حتى جعل الحجر المغصوب في الدار سبب خرابها. فقد جاء في الحديث: (الحجر المغصوب في الدار رهن خرابها).

وكل ما جاء في الدين الاسلامي من واجبات ومحرمات ومستحبات ومكروهات كلها ترمي إلى تطهير النفوس وتزكيتها وإبلاغها أسمى مراتب الكمال لتزداد معرفة بالله. ذلك لأن الله قد سخر كل شيء من شمس وقمر وغيرها لهذا الانسان ﴿وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر﴾. ﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾.

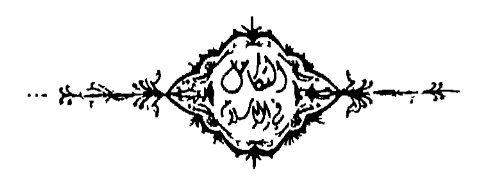
وخلق الانسان لمعرفته تعالى كما جاء في حديث قدسي: ﴿خلقت الأشياء لأجلك وقد خلقتك لأجلي﴾.

ولذلك جعل الله أول منِ خلق من الأناسي ـ وهو آدم (ع) ـ نبياً، اهتماماً

بأمر التكامل الانساني وتحقيقاً لسنة الكمال في الكون.

فطوبى لنفوس عرفت أسرار الخلق فتقربت إلى ربها بعبادات يتخللها خشوع وخضوع[1] وأعمال صالحات وإيثار وتفانٍ في هداية الناس إلى الدين الاسلامي الحنيف.

فقد قال تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين﴾.



(١) لا بأس بذكر هذا الحديث، فالعمل به مزيل للأدران النفسية والهواجس الشيطانية في مثل هذه الظروف الحالكة:

«إذا جمع الله الأولين والآخرين نادى منادٍ: ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً. فيقومون وهم قليل ثم يحاسب مَن بعدهم».

هل الاسلام سير تقدمي أم رجعي

تدور كثيراً على الألسن كلمة (الرجعية) بمناسبة ودون مناسبة. فلو أن رجلاً حمد الله تعالى وشكره تجاه نعمه التي لا تعد ولا تحصى بصلاة يصلّيها لربه بإخلاص، قيل إنه رجعي، يجترّ ما أنتجته العصور الأولى! حين أن شكر المنعم أمر ضروري يحكم به الفطرة والعقل، ذلك العقل الذي لم يلوث بالذنوب من الآثام. فقد جاء في الحديث: «العقل ما عُبِد به الرحمن واكتُسِبَ به الجنان».

حتى إني لأتذكر جيداً عندما كنت أدرس في النجف الأشرف قبل حوالي ٣١ عاماً أبى قسمٌ كبير من الطلاب المصلين من أداء صلاتهم عند الظهر في سفرة مدرسية إلى الكوفة، خوفاً من أن يوصموا بالرجعية والخرافة وكم رأيت من مدرسين ومدراء معارف كانوا يخفون صلاتهم عمن يصمونهم بالرجعية حفظاً لمراكزهم وابتعاداً عن هذه الوصمة: وهي عدم مواكبة مفاهيم التقدم في القرن العشرين.

وإني لأتذكر أيضاً أن شاباً من أسرة مرموقة كان قد رجع قبل حوالي ٢٧ عاماً من الجامعة الأمريكية ببيروت، (وهي جامعة أسسها قسٌ من القسيسين بعد أن جمع مالاً كثيراً في أمريكا) كان يصم جميع الأعمال الدينية من صلاة وصوم وزكاة... بالخرافة والرجعية، وكان يقول بضرس قاطع: «إن بلاء الشرق دينه، فلو أزيح هذا الدين فهناك التقدم وهناك الازدهار!».

ولكن يقول بعض الشباب لمن يحضر مجالس البالو ويرقص مع الفتيات ويحتك بهنَّ من طريق غير مشروع إنه تقدمي قد واكب الحضارة الراهنة وإذا قبّل فتاة أجنبية في الترام أو في الشارع العام قيل له أنه عصري خرج عن المفاهيم البالية. وهذا ما نشاهده في الغرب.

* * *

علينا أن نحلل مفهوم الرجعية تحليلاً دقيقاً على ضوء العقل والعلم الصحيح.

للانسان جنبتان: جنبة مادية بحتة: الأكل والشرب ووسائل النقل والاستضاءة ووسائل النسج والحياكة ووسائل التكلم من بعيد إلى ما هنالك، ومنها الجنبة العلمية وهي العلم بالعلوم المادية التي تدعمها التجارب والعلوم الرياضية. فهي أيضاً مادية.

وهناك جنبة روحية، نفسية بعيدة عن عوالم المادة سوف نأتي عليها بعد قليل.

ومما لامراء فيه أن الانسان بفضلٍ من الله تعالى وإلهامه صار يتقدم منذ آلاف بل ملايين السنين، (على ما اكتشفه علم الاشعاع) في العلم المادي أي في تطوير وسائل الزراعة ونوع الزراعة وتطوير وسائل النسج والحياكة والاضاءة... الخ. حتى بلغ مرتبة صار يستفيد من تحطيم الذرة وما عبأ الله تعالى فيها من طاقات هائلة والاشعاع الذري... إلى ما هنالك.

فلو أن رجلاً آثر أن يستضيء بنور المصباح الزيتي (دون ضرورة طبية) في وقت تتوفر فيه الكهرباء فهو رجعي في تطبيق هذه الوسيلة المادية.

ولو أن رجلاً أراد أن يسافر في عصرنا هذا إلى بلد ما، في عصر تتوفر فيه السيارات والطائرات وآثر أن يركب البغال والحمير فهو رجعي في استعمال وسائط أكل عليها الدهر وشرب دون مبرر عقلي.

وهكذا في النواحي العلمية وأعني بها (العلم المادي). فلو أن رجلاً بقي يعتقد بعد إطلاق الصواريخ والأقمار الصناعية وسير رجال الفضاء حول الكرة الأرضية مرات ومرات، صار يعتقد: أن الأرض لا تزال تستند على قرن ثور والثور على بطن حوت: هذه الخرافة التي جاءتنا من بين الأساطير اليونانية فهو رجعي في اتجاهه العلمي في النواحي المادية من هذا الكون الرحيب.

ذلك لأن العلم الحديث في النواحي المادية قد خرج عن طريقة الحدس والتخمين والظن إلى الطرق التجريبية والمشاهدة والاستنتاج.

كان العالم اليوناني أو الفيلسوف الاغريقي يعتقد أن أكمل الأشكال الدائرة، ولذلك صار يقول: (دون أي حساب أو مشاهدة) إن الأفلاك دائرية، أي: أن الشمس مثلاً تدور حول الأرض على شكل دائري. وصار يقول: إن أكمل الأشكال المجسمة هو: الكرة، ولذلك يجب أن تكون الكرة الأرضية على شكل كرة! حين أن الأرض (على ما ثبت، بعد اكتشاف التلسكوب وتقدم الرياضيات)، تدور حول الشمس على شكل اهليليجي (قطع ناقص) وإن الشمس هي إحدى بؤرتي هذا المنحنى المقفل. وإن شكل الأرض ليس بكروي تماماً، وإنما يقرب من الكرة وبحث ذلك يطول.

وأما في عوالم تكامل النفس وأعني بها الناحية النفسية، فهل اتباع ما أمر الله تعالى به ورسوله من الرجعية في شيء. وهل اتباع ما أمر الله من دساتير أخلاقية في دائرة العفاف وصيانة شرف الأسرة وصيانة المجتمع من الفساد والانحلال الخلقي سير رجعي، يجب أن ننبذه ونفكر في شيء جديد.

فإذا كان ينهانا رسول الله (ص) عن النظرةالشهوانية الخبيثة إلى المرأة الأجنبية، هذه النظرة التي تجلب معها الفساد في الأرض، فتؤدي إلى تلويث النفس ومن ثمَّ إلى تلويث العقل، فتلويث العقيدة على حد قوله تعالى: ﴿كذلك حقَّت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾ إذا كان ينهانا صلوات الله عليه من نظرات السوء بقوله: «الأولى لك والثانية عليك» فهل اتباع هذا الأمر سير رجعي، يجب أن تقوم مقامه مراقص راقية تكون المرأة فيها نصف عارية، يحتضنها رجل أجنبي عنها، وتحتك جميع أجزاء جسمه بجميع أجزاء جسمها ويضمها إلى صدره ويراقصها، وقد تطفأ الأنوار عمداً من حين لآخر ليتمكن الراقصان مما لا تسمح به الأضواء. وقد تجد زوجها قابعاً في ناحية من المرقص وكله إعجاب بما تؤديه زوجته ويؤديه زميلها من حركات رشيقة، ولا يفوته أن يهنئهما بعد فراغهما تهنئة حارة لنجاحهما في رقصتهما.

هذا في المراقص الراقية. وأما في المراقص الشعبية، في مراقص العاملات والخادمات والعمال والمسيطرين على النساء، المتاجرين

بـأعراضهن، فحـدث عنها ولا حـرج، فـانـه لا يكـاد يكـون فيـه شيء محظوراً[1].

وقد يعلم الزوج أن هناك لزوجته خَدناً أو أخداناً وقد تعلم الزوجة أن لزوجها خليلة أو خليلات، ولكن يسمح كل منهما للآخر بما يرتكبه من فسق وفجور، وقد يخرج الرجل من بيته ويدع ضيفه الكريم يفعل ما يشاء!.

وقد يكون للزوجة زوج وعشيق ويعيش الثلاثة في بيت واحد دونما اكتراث. وهذا ما يُدعى بالتعايش الثلاثي(Le menage a trois) والكاتب الإفرنسي الكبير (أناتول فرانس) كان عشيقاً من هذا النوع.

وقد بلغ الاستهتار بالأعراض في أمريكا حتى أنك لا تجد فتاة بلغت سن الرابعة عشرة إلا ولها خدن يظل يعاشرها معاشرة الزوج لزوجته. حتى بلغ التسافل إلى درجة: أن الفتاة إن لم تكن قد اتخذت قبل الزواج خدناً يذهب بعرضها لا تُعد فتاة اجتماعية قد عركت الحياة!!.

فلا رجعية عندما ترتكب الفاحشة علناً على الأرصفة في بعض أزقـة باريس أو أزقة لندن، وترتكب أيضاً في حدائق الجزيرة في القـاهرة عـلى الحشائش وخلف الأشجار كما تفعل البهائم! ولا رجعية في لبس المرأة (المايوه) وأخذ تصويرها من قبل المصورين بشكل مخزٍ منافٍ للآداب والفضيلة على مرأى من العابرين! ولا رجعية حين يرتكب وكيل وزارة الخارجية الانكليزية الفاحشة علناً مع جندي من جنود الحرس الملكي في أثناء تأدية هذا الجندي لوظيفته في منتزه عام وعلى قارعة الطريق.

كل ما هو من هذا النوع يمثل الرجعية أجلى تمثيل، لأنه رجوع إلى الحالة البدائية الأولى قبل بعث الرسل (ع) كما يحدثنا التاريخ وهو رجوع إلى ما يقوم به بعض القبائل المتوحشة في يومنا هذا في آلاسكا وأواسط أفريقيا. مع العلم أن ما نراه في بعض الأمم المتحضرة في هذا اليوم من تقدم مرموق في صقع

---

(١) من مجلة حضارة الاسلام، السنة الثالثة.

هتك الأعراض هو تقدم لم تبلغ الأمم البدائية الأولى ولا الأمم المتوحشة في هذا العصر شأوَه.

إن اختراع السينما من مفاخر العصر وكذا الراديو والتلفزيون. كل ذلك من النواحي العلمية: (العلم المادي). ولكن لو استعمل كل أولئك في تعليم الشباب طرقَ المغازلة وهتك الأعراض والانغماس في الشهوات، فقد استعملت في إرجاع البشر إلى رجعية مُهلكة أو (ارتجاع مميت) وإلى حيوانية بدائية. نعم تتجلى التقدمية في هذه الآلات وغيرها من الناحية العلمية: (العلم المادي)، إلا أن الرجعية كذلك تتجلى فيها بأعمق مظاهرها حين تستعمل للافساد في الأرض: ﴿والله لا يحب الفساد﴾.

انه تعالى يقول: ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾[١].

﴿وإن الفجار لفي جحيم﴾[٢]. ﴿ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة﴾[٣].

* * *

فكل ما يؤدي إلى الافساد في الأرض وتلويث النفوس وإزالة العقائد التي يدعمها العقل والمنطق الصحيح عمل رجعي يأخذ بهذا الانسان المسكين إلى أسفل السافلين وإن سماه البعض تقدماً!.

وإن الدساتير الأخلاقية الاسلامية التي بها تتكامل النفس الانسانية هي دساتير ثابتة لا تقبل التجديد والتحريف. حتى تكون في زمن ما من النوع التقدمي وفي زمن آخر من النوع الرجعي. ذلك لأن الله تبارك وتعالى أعرف بحقيقة النفس الانسانية وطرق تكاملها: ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾[٤]. ذلك لأن النفس من صقع ما وراء الطبيعة، وليست من المادة في

(١) سورة ص: ٢٨.
(٢) سورة الانفطار: ١٤.
(٣) سورة عبس: ٤٢.
(٤) سورة الملك: ١٤.

شيء، والله الذي خلق الأرواح يعلم طرق تكاملها والدساتير التي تؤدي إلى تطهيرها وتزكيتها ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾.

والفيلسوف بصفته فرداً من الأفراد مملوء بالنقائص. فمهما وضع من دساتير في النواحي الأخلاقية والتكاملية لا يأتي بشيء كامل لا نقص فيه، لنقائص في نفسه ولتأثره ببيئته ومحيطه، وإن تاريخ الفلسفة يؤيد ما أقول. فقد تضاربت آراء الفلاسفة ومشاربهم ونوازعهم وكلها بشرية بعيدة عن معالجة الأرواح المريضة. فبعد أن كانت نفس الفيلسوف مريضة بأنواع المرض وشتى النقائص، أنىّ له أن يصلح نفوساً أخرى مريضة، وقد قالوا: «فاقد الشيء لا يُعطيه».

فالاسلام يشجع كل جديد في مجالات العلوم المادية على اختلاف أنواعها سواء في العلوم الرياضية أو الفيزيائية أو الكيميائية أو الفلكية أو الطبيعية أو الطبية أو غيرها فقد كانت مكتبة (دار الحكمة) ببغداد في العهد العباسي تحوي ٤٠٠٠٠٠٠ كتاب وان مكتبة أحد الخلفاء الفاطميين بمصر: (العزيز بالله) كانت تحوي مليوناً ونصف مليون كتاب. وقد اكتشف المسلمون الفوسفور وطريقة استحضار الأوكسيجين والهيدروجين وحامض الآزوت وحامض الكبريت. وهم مؤسسو أول مرصد فلكي في أشبيلية باسبانيا، وهم واضعو نظام الامتحانات في كلية الطب.

وما نراه من عدم اعتناء بعض المسلمين اليوم بالنظافة لا يدل على أن الاسلام سير رجعي، فقد جاء في الحديث: النظافة من الايمان.

وقد قال الطبيب المؤرخ الأمريكي (ويكتور روبنسن): «إن أوربا كانت في ظلام حالك بعد غروب الشمس، بينما كانت (قرطبة) تضيئها المصابيح العامة، كانت أوربا قذرة، بينما شيدت في قرطبة ألف حمّام. كانت أوربا تغطيها الهوام، بينما كان أهل قرطبة مثال النظافة. كانت أوربا غارقة في الوحل، بينما كانت قرطبة مرصوفة بالشوارع. كانت سقوف القصور في أوربا مملوءة بثقوب المداخن، بينما كانت قصور قرطبة (في الأندلس) تزينها الزخرفة العربية العجيبة. كان أشراف أوربا لا يستطيعون كتابة أسمائهم، بينما كان أطفال

قرطبة يذهبون إلى المدارس. وكان رهبان أوربا يلحنون في تلاوة سِفر الكنيسة، بينما كان مسلمو قرطبة قد أسسوا مكتبة تضارع في ضخامتها مكتبة الاسكندرية العظيمة».

ومن عجائب الرهبان في القرون الوسطى أن البعض منهم كان يعذب جسمه كمثل كامل في الدين والأخلاق! فالراهب (ماكاريوس) نام ستة أشهر في مستنقع ليقرص جسمه العاري ذباب سام. وكان يحمل دائماً قنطاراً من حديد، وصاحبه الراهب (يوسيبيس) كان يحمل نحو قنطارين من حديد، وقد أقام ثلاثة أعوام في بئر.

وقف عبد الراهب (يوحنا) ثلاث سنين قائماً على رجل واحدة وكان بعض الرهبان لا يكتسون دائماً وإنما يستترون بشعرهم الطويل ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام وكان أكثرهم يسكنون في مغارات السباع والآبار النازحة والمقابر. ويأكل كثير منهم الكلأ والحشيش. وكانوا يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح ويتأثمون عن غسل الأعضاء. وأزهد الناس وأتقاهم أبعدهم عن الطهارة وأوغلهم في النجاسات والدنس.

يقول الراهب (اتهينس): إن الراهب (انتوني) لم يقترف إثم غسل الرجلين طول عمره. وكان الراهب (ابراهرام) لم يمس وجهه ولا رجله الماء خمسين سنة وقد قال الراهب الاسكندري بعد زمن متلهفاً: واأسفاه! لقد كنا في زمن نعد غسل الوجه حراماً، فإذا بنا الآن ندخل الحمامات!.

وكان الرهبان يتجولون في البلاد ويختطفون الأطفال ويهربونهم إلى الصحراء والأديار وينتزعون الصبيان من حجور أمهاتهم ويربونهم تربية رهبانية والحكومة لا تملك من الأمر شيئاً[1].

يقول العلامة (سديو): «كان المسلمون في القرون الوسطى منفردين في العلم والفلسفة والفنون، وقد نشروها أينما حلّت أقدامهم، وتسربت عنهم إلى أوربا، فكانوا هم سبباً لنهضتها وارتقائها».

---

(١) من كتاب: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين.

يقول الأستاذ (بيري): «لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا عدة قرون».

* * *

فلا بد لهذه النفس الانسانية بصفتها من عالم المجردات من غذاء يتناسب وواقعها. وغذاؤها الروحي هو توجهها إلى الحق المتعال بعبادة وأخلاق ملكوتية وأعمال صالحات. وهذا الغذاء سبب لاحيائها، على حد قوله تعالى:

﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زيّن للكافرين ما كانوا يعملون﴾[1].

﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يُحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تُحشرون﴾[2].

إن الاسلام بصفته دين العقل والمنطق الصحيح يعطينا هذا الغذاء الروحي الذي عليه يتوقف حياة النفوس وإحياؤها. وإن هذا الغذاء لا يتنافى مع الغذاء المادي الذي تحققه المكتشفات الحديثة بل إن هذه المكتشفات تؤيد عظمة الله في أرضه وسمائه، وكلها على ما فيها من دقة نوع تسبيح لله تعالى إذ أن التسبيح إنما هو تنزيه الله تبارك وتعالى عن كل نقص وكل عيب وإسناد كل كمال إليه.

ففي المخترعات تتجلى ما أودع الله من عظيم الصنع وهندسة دقيقة رائعة في هذا الكون الواسع الأرجاء. ولولا ذلك لما تمكن المخترع من جمع هذه الشتات وتركيبها بفكر وتدبُّر وحسابات رياضية. وما الفكر إلا موهبة ربانية لا دخل لجسامة المادة وصغرها في تقويته وتضعيفه.

كان يقول (باستور) الموحِّد: «لا تنافي بين العلم والايمان، وكلما زاد علم الانسان زاد إيمانه».

واني أضيف على كلام (باستور) قائلاً: شريطة أن لا تتلوث النفس

(١) سورة الانعام: ١٢٢.

(٢) سورة الأنفال: ٢٤.

الانسانية بفسوقها وآثامها. فان الفسوق والآثام تحجب العقل الفطري من أن يعمل عمله: وهو توجيه الفرد إلى الله المتعال. إنه تعالى يقول: ﴿ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾[1].

فالشاب الذي يريد تلويث نفسه إنما يتخذ كلمة (الرجعية) وسيلة للانفلات عن كل فضيلة، ولكي يُدخل نفسه في زمرة المثقفين، فيبرر موقفه مما هو فيه من انحلال خلقي! حين أن الفضيلة هي هي لا تتبدل بصياغة كلمات فارغة تأبى الانطباق مع واقع الاسلام وما جاء به الدين الاسلامي من قوانين ودساتير تكاملية للنفوس البشرية التائهة في شتى الحقول.

فلو رجعنا إلى ديننا وما أمرنا بالتمسُّك به من أخلاق وفضائل وأعمال صالحات ومن تجدد في العلوم المادية ومواكبة الحضارة الحاضرة في المخترعات والمكتشفات ولفظنا ما جاء به الغرب المادي في حقول الفلسفة والأخلاق والاجتماع لعلمنا إذ ذاك أننا تقدميون بأسلوب إيجابي، غير رجعيين إلى جاهلية جهلاء.

ولو كان سير التدريس سيراً يقرب الفرد إلى الله تعالى ويذكره عظمة الله ويخوفه من عذاب الله، لرجع العالم الاسلامي إلى ما كان عليه من حضارة زاهرة، لا في عوالم النفس فحسب بل في عالم المادة أيضاً.

﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾[2].

ولا بأس بذكر هذه الأحاديث، ليُعلم أن الاسلام سير تقدمي لا في حقل المادة فحسب بل في حقل تكامل النفس أيضاً وذلك لابلاغها أسمى مراتب الكمال وإلى الهدف الذي أوجد الله النفس في أرضه لأجله.

فقد جاء في الحديث: «ليس منا من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه»[3]... وجاء أيضاً: «من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة

---

(١) سورة الروم: ١٠.
(٢) سورة التحريم: ٦
(٣) من لا يحضره الفقيه ٣/٩٤.

فعليه بالعلم، ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم».

وورد عنه (ص) أنه قبل يداً ورمت من كثرة العمل وقال: «إن هذه يد يحبُّها الله ورسوله».

وعن النبي (ص): «اتجروا في مال اليتيم حتى لا تأكله الصدقة».

وعن جعفر بن محمد عليهما السلام[1]: «إزرعوا واغرسوا، فلا والله ما عمل الناس عملاً أحب ولا أطيب منه». وأيضاً عنه (ع): «لا تكسل عن معيشتك فتكون كلاً على غيرك».

وفي خبر آخر: «ملعون من ألقى كلّه على الناس».

في الوسائل في الجزء الثاني ص ٥٧٤ في حديث عن علي (ع): «يا معشر التجار، اتقوا الله... إلى أن قال: «تناهوا عن اليمين وجانبوا الكذب وتجافوا عن الظلم وأنصفوا المظلومين ولا تقربوا الربا وأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين».

وقد قال علي (ع) كما في نهج البلاغة في كتابه (ع) للأشتر النخعي: «فامنع من الاحتكار، فان رسول الله (ص) منع منه. وليكن البيع بيعاً سمحاً بموازين عدل وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع».

وعن علي (ع): «أعلموا أن أبواب الرزق مقفلة، فافتحوها بالحركات فان في الحركات بركات».

وعن رسول الله (ص): «من وَلِيَ لنا عملاً وليس له منزل فليتخذ منزلاً، أو ليست له زوجة فليتخذ زوجة، أو ليس له خادم فليتخذ خادماً، أو ليست له دابة فليتخذ دابة».

«من كان معه فضلُ ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومَن كان له فضلُ زاد فليعد به على من لا زاد له».

---

(١) في الكافي ص ٤٠٤.

ولا بأس بذكر ما قاله: (أرثر هاملتون) عن الاسلام. إنه يقول:

«لو توخّى الناس الحق، لعلموا أن الدين الاسلامي هو الحل الوحيد لمشاكل الاشتراكية، هو الذي يتسع للغني والفقير والقوي والضعيف جنباً إلى جنب».



لا رجعية في الاسلام

الرجعية هي الرجوع إلى الوراء في الوسائل المادية للحضارة والبقاء على النمط القديم في فن الزراعة والصناعة ووسائل النقل والتنوير إلى ما هناك من الوسائل المادية. أما ما يتعلق بتكميل الروح الانسانية وتهذيبها أو توجيهها إلى خالقها وصانعها فذلك ما ليس للبشر أن تناله يده، ذلك لأن اليد البشرية مهما كانت سليمة ونظيفة، فهي في واقع الأمر ملوثة بميول شتى وشهوات ونزوات وغرائز لا مفر منها. ولقد شاهدنا ذلك فيما كتبه الفلاسفة في الأخلاق والمثل العليا وما تبنوا من فلسفات زائفة، متضاربة، إن كانت قد أصلحت جانباً فقد أفسدت جوانب شتى لا تعد.

فوجب بحصر عقلي أن تأتي السنن والنواميس الكمالية والخلقية من منبع فياض نمير، من خالق هذه النفوس، من الله العلي القدير، لتهدي الناس إلى سبل السلام.

يقول آينشتاين: «العلم يخبرنا بما هو كائن، ولكن الوحي وحده هو الذي يخبرنا بما ينبغي أن يكون»، ويريد آينشتاين هنا بالعلم: العلم المادي...

فلا رجعية في الرجوع إلى ما سنَّ الله تعالى من قوانين ونظم في شتى الحقول التكاملية لهذا البشر الذي دأب أن يفسد في الأرض، ﴿والله لا يحب الفساد﴾[1]. وهو القائل: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد اصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾[2]. فسن قوانين في حقل الكمال البشري، في الأخلاق والشؤون الاجتماعية والعائلية من قبل

(١) سورة البقرة: ٢٠٥.

(٢) سورة الأعراف: ٥٦.

الفلاسفة وغيرهم إنما هو مخالفة لما أراده الله من كمال للناس في هذه الأرض، إنما هو إفساد وعُتُوٌّ في الأرض، والله تعالى يقول: ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾[١]. ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾[٢]. ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويُشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويُهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾[٣].

نعم، لعلماء الدين أن يسنوا بعض القوانين على ضوء القرآن والسنة النبوية مستخدمين في ذلك علم الأصول فيما يستجد من حوادث، شريطة أن لا تعارض النصوص السماوية الصريحة في شيء.

وللبشر أهواء، تتغير من حين لآخر، فيرى ما أمر الله به، في يوم، صحيحاً، وفي يوم آخر، غير صحيح، فيتبادر له أن لكل زمان قانوناً خاصاً به ويجب أن تتبدل القوانين حسب الأزمنة.

ليت شعري، هل الفضيلة، في يوم من الأيام، يجب أن تنقلب إلى رذيلة؟ حتى يقوم مقام الزواج الشرعي الزواج الحر[٤]، كل ذلك لأن هناك تطوراً يجب اتباعه، والجمود هو الموت بعينه!.

أو يقوم مقام الزواج الشرعي الزواج الثلاثي:

وهو أن يعيش الزوج مع زوجته في بيت ورجل ثالث معهما كما بينا سابقاً. أي تكون الزوجة خليلة لرجل آخر غير الزوج، وهم يعيشون معاً في دار واحدة.

---

(١) سورة البقرة: ٦٠.

(٢) سورة الرعد: ٢٥.

(٣) سورة البقرة: ٢٠٥.

(٤) الزواج الحر: هو الزواج دون أي عقد أو ميثاق. ويقول المتطرفون الحب أفضل دافع للزواج، فموته سبب الطلاق. وقد أخذ يتفشى، ومع الأسف، هذا النوع من الزواج في المجتمعات الغربية لا سيما في الولايات المتحدة.

وهل من التقدم تعاطي الخمور وقد نهى عن ذلك الدين الاسلامي والطب الحديث، فقد جاء في الحديث: «شارب الخمر كعابد وثن».

وهل أكل الربا من التقدم في شيء وإن درهماً منه يعادل (من حيث الاثم) سبعين زنية مع المحارم في بيت الله الحرام، كما هو مؤدى حديث نبوي.

وهل ترك الصلاة من التقدم في شيء، وهي مناجاة بين العبد والمعبود وشكر تجاه نعم المنعم جل جلاله، تلك النعم التي لا تعد ولا تحصى: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار﴾[1]، وهي خير وسيلة لإزالة القلق والاضطراب النفسي ومنع الانتحار[2].

وهل الصوم يعارض التقدم، وهو لاذابة المادية في نفس الانسان كي يشعر بجوع البائس المسكين، وهو نوع اقتصاد للتوفر على قوت الفقير، لو طبق تطبيقاً صحيحاً.

وهل الحج رجوع إلى الوراء، وهو مؤتمر اسلامي رفيع لو أستفيد منه وعروج إلى مقامات القدس في تلك المواقف القدسية الرهيبة في بيت الله الحرام.

وهل الوضوء أو الغسل خرافة من الخرافات وهي طهارة معنوية يستقبل بها العبد مولاه، يستقبله بهذه النظافة الظاهرية التي تؤثر في طهارة النفس، ذلك لأن العبد لا يأتي بهما إلا تقرباً إلى الله تعالى.

وهل الذهاب إلى المساجد يناقض التقدم؟ وهو كسب إفاضات ربانية ينشط بها العبد كي يستقبل أمور الدنيا استقبالاً لا جشع فيه ولا بغيٍ ولا فساد.

---

(١) سورة ابراهيم (ع): ٣٤.

(٢) في كل ثانية تقع حادثة انتحار في أمريكا. فالغرب مصاب بقلق نفسي وأمراض عصبية وجنون من جراء فقدان الايمان أو ضعفه.

وهل قطيعة الرحم من التقدم في شيء، حين أن صلة الرحم خير وسيلة للتساند الاجتماعي، وهل تحقير الأبناء آباءهم، لأنهم لا يعلمون شيئاً عن العلم الحديث، أمر تقدمي، أم دليل على الخبث ونكران الحق وعدم الوفاء وتكبر وتجبر على من أولاه أنواع العطف من نفسه وماله؟.

وهكذا نرى، ليس في الاسلام ما يؤدي إلى التأخر الخلقي والتسافل النفسي، بل كل ما فيه تقدم في حقول شتى، في حقل النفس والأخلاق والتقرب إلى الله المتعال وفي حقل الاجتماع والقضاء والسياسة والاقتصاد وفي حقل العلوم المادية.

* * *

الاسلام دين التقدم والازدهار، فقد كان للمسلمين الأوائل الفضل الأكبر في التقدم العلمي في مختلف مجالاته، سواء في ذلك: المجال العقلي والفلسفي والمجال الأدبي والاجتماعي ومجال العلوم الكونية كالطب والكيمياء والفيزياء والعلوم الطبيعية والرياضية، إلى ما هنالك.

فقد ظلّ العالم العربي المحصور ضمن حدود شبه الجزيرة العربية عالماً غُفلاً لم يبدِ أي ازدهار ثقافي أو ما يدل على ذلك إلى أن تم انتشار الاسلام. تشهد بذلك الجامعات في بغداد و(سالرنو) و(القاهرة) بل وفي (قرطبة) من بلاد الأندلس.

فقد أشاد رسول الله (ص) بنيان العلم أيما إشادة، وهو القائل: «أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد المدينة فليأت الباب». وقد سئل علي (ع) عن مواضيع شتى في شتى العلوم فأجاب بالبديهة وهو المكتشف لقانون (أرخميدس) وقانون الأجسام الطافية. يظهر ذلك مما حل من مسائل[1] لذلك كله، يحق لمؤرخ غير متعصب من مؤرخي فرنسا أن يقول:

«لو لم يكن حادث اغتيال علي لكان العالم الاسلامي قد شهد تحقق تعاليم محمد في المزاوجة بين العقل والشرع وفي تجسيد المبادىء الأولى للفلسفة الحقة والعمل الايجابي الخلاق».

(١) راجع كتاب: التكامل في الاسلام، الجزء الثاني ص ٤١٩ ـ ٤٢٢

لاحظوا الروح التقدمية في كلمات الصادق (ع)[1]، فقد قال ما مؤداه: «إن استنارة القلب هي روح العلم»، ثم يقول بالنسبة إلى العلم نفسه: «الصدق هدفه، والالهام دليله، والعقل مستقره، والله موجهه».

حقاً، إن المكتشفات الحديثة قد تجلت فيها ما أبانه الصادق سلام الله عليه في بيانه: فإن تاريخ العلوم يذكر لنا أنه قد كان للالهام أثر بالغ في الاكتشافات والمخترعات.

ومما لا مراءَ فيه: أنه قد كان لأهل بيت الرسول (ص) الفضل الأكبر في تدعيم قواعد الفلسفة الحقة وتفهيم الناس حقائق القرآن كما يريده الله تعالى.

نعم، إن الفلاسفة كـ (غالينوس) و (ديموقراطيس) و (ثمستيـوس) و (أرسطوطاليس) و (أفلاطون) و (أقليدس) و (بطليموس) و (أبولونبوس) قد بُعثوا بفضل علماء الاسلام من جديد: وان علماء الاسلام قـد صححوا أخطاء هؤلاء الفلاسفة بالنسبة إلى المبدأ والمعاد على ضوء فلسفة القرآن الحقة وعلم الكلام، كي لا يتسرب الالحاد والفلسفة البشرية الحالكة إلى معالم الاسلام.

كان المسيحيون يؤمون الكليات الاسلامية من أقاصي أوروبا ويرجعون إلى بلادهم حاملين مشاعل العلم والمعارف. وكانت المدارس والأكاديميات زهرات زكية الرائحة تنتشر في أكثر المدن الاسلامية، فتؤتي أكلها كل حين، وقد كانت مزودة بمكتبات عامرة تضم عدداً كبيراً من الكتب.

كـان في مكتبة القاهرة أكثر من مليون مجلد، ستة آلاف منها تبحث في الرياضيات والفلك.

نعم، قد سبق المسلمون (روكر بيكون) في الطريقة التجريبية عـدة قرون. فقد قال علي (ع): «في التجارب علم مستأنف» وقد قال رسول الله (ص) مخاطباً علياً (ع): «لا فقر أشد من الجهل، ولا مال أعود من

---

(١) هو الامام السادس: الامام جعفر بن محمد (ع).

العقل ولا وحدة أوحش من العُجب، ولا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكف عن محارم الله، ولا حسب كحسن الخلق، ولا عبادة مثل التفكير». وكانت الطريقة التحليلية والاستقرائية والاستنتاجية معروفة في التحقيقات العلمية لدى المسلمين.

أما في أوروبا، في القرون الوسطى، فقد أغلقت معاهد الدراسة إلى الأبد من قبل قسطنطين وأحرقت المكتبات العامة التي أسسها الأباطرة الوثنيون، وكانت العلوم تعتبر نوعاً من السحر ويُعاقب من يتعاطاها بتهمة الخيانة. كانت النزعة الدينية تعارض العلم، في أوروبا، كل المعارضة، وكانت هذه النزعة تتمثل في قولهم: «الجهل أبو الاخلاص لله». حين أن علياً (ع) كان يقول منذ قرون: «بالعلم يُعرف الله ويوحد».

لقد نفت الكنيسة من روما جميع المشتغلين بالدراسات العلمية وأحرقت مكتبة (بلاتين) وأعدمت عشرات الآلاف من العلماء الكونيين.

ولقد سبق أبو الحسن (كاليلة) في اختراعه التلسكوب أو المرقب، واستعمل كل من مرصد القاهرة ومرصد مراغة التلسكوب بنجاح.

إن المسلمين قد نبغوا نبوغاً مرموقاً في الفلك وجاؤوا بجداول هامة، وإن نصف أسماء الأنجم لا تزال عربية، وقد أدخل المسلمون (علم المثلثات) في الفلك وأخذ علم الفلك طوراً رياضياً دقيقاً.

وقد تمكن المسلمون من حساب حجم الأرض وتصحيح أخطاء (بطليموس) في الفلك.

وللمسلمين اكتشافات هامة في انكسار الضوء وتعيين موقع النجم الصحيح، وكذلك في علم الميكانيك.

لقد بنى العرب المسلمون أول مرصد في أوروبا، وها هو جابر بن عافية العالم الرياضي الكبير يضع تصميماً، فيبني برج أشبيلية ليراقب منه أفلاك السماء، فيحوله الاسبان بعد طرد المسلمين إلى حظيرة العجول!.

وكذلك كانت حواضر غرب أفريقيا: طنجة، فاس ومراكش تنافس قرطبة وأشبيلية وغرناطة في كلياتها وتخريج علماء متضلعين.

لقد أقامت أوروبا المسيحية الدنيا وأقعدتها لمجرد اتهام باطل: ذلك أن المسلمين هم الذين أحرقوا مكتبة الاسكندرية أيام الفتح، حين أن حرق هذه المكتبة قد تم زمن (يوليوس القيصر). إلا أن الكتّاب الأوروبيين لا يتلفظون بشيء عما قام به الصليبيون بعد خمسة قرون!.

لقد اكتشف المسلمون المثلثات الكروية وطريقة حل المعادلات من الدرجة الرابعة (في الجبر) وعلم تخطيط البلدان وطريقة تسطيح الأرض. وقد طبقوا علم الجبر على الهندسة، وهو فتح جديد للهندسة التحليلية.

وكانت أوروبا تعتقد أن الأرض منبسطة. بينما كان العلماء المسلمون يعتقدون بكروية الأرض وكروية المدارات الفلكية وعلى هذا الأساس بنوا علم الفلك.

وأما العلوم الطبيعية فقد بُذل في ترقيتها جهد كبير وطبقت الطريقة التجريبية. وكانوا يستعملون حدائق تجريبية (مستنبتات) في كليات الزراعة وكليات العلوم الطبيعية (فرع النبات)، فكان الأساتذة يستعينون بها.

أما الكيمياء، فالمسلمون هم المخترعون لها، ذلك لأن تلميذ الصادق عليه السلام وأعني به جابر بن حيان، هو الأب الأصيل لعلم الكيمياء الحديثة ولا يزال اسمه خالداً في حقل الكيمياء في دائرة معارف العلوم في لغات مختلفة ولا تقل أهميته عن (برسلي) و(لاووازية)، وقد صنف جابر ألفي صفحة في الكيمياء من إملاء الصادق (ع) على ما ذكره ابن خلكان في تاريخه.

أما اشتهار المسلمين في علم الطب وعلم الجراحة فحدث ولا حرج، فقد بلغوا شأواً قاصياً في هذين الفرعين.

لقد ظل المسلمون طوال قرون عديدة يتدارسون الجسم البشري بموضوعية مثالية وانكباب عظيم. وكانت دراسة المواد الطبية، تلك الفكرة التي ارتاع لها (ايوكريدس) في مدرسة الاسكندرية ابداعاً اسلامياً محضاً.

إن المسلمين هم الذين اخترعوا علم الصيدلة وهم أول من أسسوا

مخازن لتوزيع الأدوية، فكانت توزع الأدوية مجاناً دونما عوض والموزعون يتقاضون رواتبهم من الدولة الاسلامية. وإن أسعار الأدوية وأصنافها كانت محدودة من قبل الدولة الاسلامية. وكان على مَن يروم أن يعمل في حقل الصيدلة أن ينال إجازة رسمية، تقابل الشهادة الجامعية في يومنا هذا.

كما أن المسلمين أسسوا مستشفيات عامة (دور الشفاء) وكان المرضى يعالجون فيها مجاناً.

وها هو أبو جعفر: (أحمد بن محمد الطالب) يؤلف كتاباً في الماء الأزرق في العين.

وأما ابن سينا فكان أبرع أطباء عصره، كان ذا عقل موسوعي فهو فيلسوف ورياضي وفلكي وشاعر وطبيب. فليس بمستغرب أن يسميه رجال الفكر في أوروبا (أرسطو طاليس) الشرق.

وكتاب (حياة الحيوان) للدميري مشهور. فهو تاريخ الحيوانات، سبق مؤلفه (بوفون) بسبعة قرون.

وكان (الجيولوجيا)[١]: علم طبقات الأرض يدرس باسم (علم تشريح الأرض).

وقد نبغ المسلمون في الفن المعماري وان آثارهم تتجلى فيما بنوا من مساجد وقصور وجسور وما هنالك من زخرفة ونحت جميل في حدود الشرع الشريف.

وللمسلمين اليد الطولى في البحث والتنقيب التاريخي والجغرافية وكذلك في الزراعة والتجارة وكثير من الصنائع.

أما العمل فمقدس في الاسلام أيما تقديس، انه تعالى يقول. ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾. وفي آية أخرى: ﴿ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش، قليلاً ما تشكرون﴾. وفي آية أخرى: ﴿فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾. وهو القائل جل جلاله:

(١) Geologic

﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾(١).

واقرأ معي أحاديث أهل البيت (ع) في الحث على العمل:

فعن الصادق: جعفر بن محمد (ع) كما في أصول الكافي ص ٣٥١ «إن الله عز وجل يبغض كثرة النوم وكثرة الفراغ». وعن موسى بن جعفر عليه السلام: «إياك والكسل والضجر، فانهما يمنعانك حظك من الدنيا والآخرة». وفي الوسائل في الجزء الثاني ص ٥٣٤ عن جعفر بن محمد (ع): «لا تكسلوا في طلب معايشكم، فإن آباءنا كانوا يركضون فيها ويطلبونها». وعن النبي (ص): «ملعون من ألقى كلّه على الناس».

وفي الكافي ص ٣٥٠ عن جعفر بن محمد (ع): «إقرؤوا من لقيتم من أصحابكم السلام، وقولوا عليكم بتقوى الله عز وجل وبما ينال به عند الله. اني والله ما آمركم إلا بما نأمر به أنفسنا. فعليكم بالجد والاجتهاد. وإذا صليتم الصبح فانصرفتم فبكروا في طلب الرزق واطلبوا الحلال، فان الله عز وجل سيرزقكم ويعينكم عليه».

وفي الكافي الجزء الثاني ص ٤١٥ عن جعفر بن محمد (ع): «لا تدع طلب الرزق من حلّه واعقل راحلتك وتوكل».

وفي الوسائل ج ٢ ص ٥٣١. عن فضل بن أبي قرة قال: دخلنا على أبي عبد الله (ع) وهو يعمل في حائط له. فقلنا: جعلنا الله فداك، دعنا نعمله لك أو تعمله الغلمان. قال: «لا، دعوني، فإني اشتهي أن يراني الله عز وجل أعمل بيدي وأطلب الحلال في أذى نفسي».

وعن علي بن أبي حمزة(٢) قال: «رأيت أبا الحسن (ع) يعمل في أرض له، قد استنقعت قدماه في العرق. فقلت: جعلت فداك أين الرجال؟ فقال: «يا علي، قد عمل باليد من هو خير مني ومن أبي في أرضه. فقلت ومن هو؟ فقال: رسول الله وأمير المؤمنين وآبائي كلهم كانوا قد عملوا بأيديهم

(١) سورة القصص: ٧٣

(٢) الكافي: جـ ٢ ـ ص ـ ٥٣١.

وهو من عمل النبيين والمرسلين والأوصياء والصالحين».

بمثل هذه الأحاديث، وجد نشاط عديم النظير في العالم الاسلامي في حقل التجارة والزراعة. وإن الحكام والقواد ما كانوا ليأنفوا من أن يلقبوا أنفسهم بأسماء المهن التي كان يتعاطاها أجدادهم. كيف لا، وان الرسول الأمين (ص) يقول: «إن الله يحب عبداً يتخذ المهنة ليستغني بها عن الناس، وإن الله يحب العبد المحترف».

وفي الوقت الذي يحث الدين الاسلامي الناس على العمل المثمر يريد بهم أن لا يشذوا عن طريق الحق والصواب. وان تكون الفضيلة هي الحاكمة في المعاملات.

فعن النبي (ص): «ليس منا من غش مسلماً أو ضره أو ماكره». وعن أبي عبد الله (ع): «غبن المؤمن حرام».

وفي حديث عن جعفر بن محمد (ع): عليك بصدق اللسان في حديثك ولا تكتم عيباً يكون في تجارتك ولا تغبن المسترسل فإن غبنه لا يحل، ولا ترض للناس إلا ما ترضى لنفسك وأعط وخذه ولا تحف.. إلى أن قال: «التاجر فاجر إلا من أعطى الحق وأخذه».

وفي الوسائل ج٢ ص ٥٦٢: عن النبي (ص : «من غش مسلماً في شراء أو بيع فليس منا، ويحشر يوم القيامة مع اليهود، لأنهم أغش الخلق للمسلمين».

وقد حث الاسلام الناس على تشغيل أموالهم وعدم تجميدها. ففي الوسائل، عن زرارة عن أبي عبد الله (ع)... قال: «ما يخلف الرجل بعده شيئاً أشد عليه من المال الصامت. قال: قلت له عليه السلام، كيف يصنع به؟ قال: يجعله في الحائط والبستان والدار».

يقول الراوي سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «لا خير في من لا يحب جمع المال من حلال: يكف به وجهه ويقضي به دينه ويصل به رحمه».

واسمع ماذا يقول معلّى بن خنيس عن أبيه. قال: سأل أبو عبد الله عليه

السلام عن رجل وأنا عنده. فقيل له: أصابته الحاجة. قال: فما يصنع اليوم؟ قيل: في البيت يعبد ربه. قال: فمن أين قوته؟ قيل: من عند بعض إخوانه. فقال أبو عبد الله عليه السلام: «والله، الذي يقوته أشد منه عبادة». وعن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام. قال: «من طلب الرزق في الدنيا استعفافاً من الناس وتوسيعاً على أهله وتعطفاً على جاره لقي الله عز وجل يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر».

وعن جعفر الصادق (ع): مكتوب في التوراة: «أنه من باع أرضاً أو ماء ولم يضعه في أرض أو ماء ذهب ثمنه محقاً: (أي بطل ثمنه وذهبت بركته)». وعنه (ع): «مشترى العقدة مرزوق، وبائعها ممحوق». (العقدة أي العقار).

لقد أنشأ المسلمون كثيراً من قنوات الري في البلاد التي فتحوها، وخير دليل على ذلك: آثار القنوات في أسبانيا.

لقد حفَر المسلمون مناجم النحاس والحديد والزئبق والكبريت في أسبانيا، كما نشروا هنالك صناعة نسج الحرير واستخلاص الورق ووشي الخزف والفخار ودبغ الجلود.

ولا تزال الأواني الصينية التي عرفت بها (قرطبة) والمنسوجات الصوفية التي اشتهرت بها (مرسية) وحرائر (غرناطة) و(المرية) و(أشبيلية)[1] والحلى الذهبية من (طليطلة) والكاغذ في (سالبة) مضرب المثل حتى في أوروبا الحديثة.

وقد كان لحكام أسبانيا أسطول تجاري ينوف عل ألف سفينة كما كان لهم وكلاء ومصانع أقاموها على ضفاف الدانوب.

نعم، كان للمسلمين منجزات هامة في حقل الفكر، ذلك لأن تعاليم نبينا محمد (ص) كانت تعاليم تدعو الناس إلى التفكر والتدبر في أسرار الكون، كيف لا وان القرآن الكريم ينادي منذ أربعة عشر قرناً: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على

(١) روح الاسلام: للسيد أمير علي.

كل شيء قدير﴾[1]. ﴿فلينظر الانسان مم خلق﴾[2]، ﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾[3]، ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نُصبت وإلى الأرض كيف سطحت﴾[4]، ﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء﴾[5].

نعم، خلال قرون الجدب الأدبي والفكري في أوروبا كان الاسلام يحمل مشعل المدنية ويتقدم إلى الأمام، فهل الاسلام إذن دين رجعي أم تقدمي؟.

ومنذ القرن الرابع حتى القرن السابع عشر الميلادي ظلت سحب الضباب تنعقد في سماء أوروبا بعضها فوق بعض، وقد سادت طوال هذه العصور العصبية الدينية المقيتة في أوروبا، وكان الاسلام بثقافته الحرة ينفذ إلى مجاهيل العالم ليثير فيها حب الخالق والمخلوق وليدفع الانسانية إلى عتبة مرحلة جديدة في مضمار التقدم والارتقاء. وهكذا كانت تظهر معالم التقدم في أكاديميات سالرنو وبغداد ودمشق وقرطبة وغرناطة.

كان الحكام يساعدون على نمو الفكر الحر في الحقل العلمي ولم يتعرضوا إلى بقية الأديان، بل كان التسامح شعارهم، فازدهرت العلوم الطبيعية كنتيجة حتمية لحرية الفكر في الاسلام. ولكن الضغط على حرية الفكر في أوروبا كان قد بلغ أقصاه. وبعد أن كان المسلمون قد حولوا إسبانيا ألى حديقة غناء للعلوم والمعارف جاءت المسيحية فجعلتها صحراء مقفرة، فخلت الحواضر من الكليات والمدارس وحولت إلى كنائس وأحرقت الكنوز الأدبية والعلمية هناك.

* * *

لقد أخطأ (أرنست رنان) في كتابه: «الاسلام والعلم» حيث قال: «إن الاسلام قد حارب العلم والفلسفة» لعله في كلامه هذا أراد أن يقرن الاسلام

(١) سورة العنكبوت: ٢٠.

(٢) سورة الطارق: ٥.

(٣) سورة يونس: ١٠١.

(٤) سورة الغاشية: ١٧ ـ ٢٠.

(٥) سورة النحل: ٤٨.

بالمسيحية التي حاربت العلم في القرون الوسطى وأبادت كثيراً من العلماء الكونيين، حتى أنك ترى أن (لاروس) يستهزىء في قاموسه بالدين حين يريد أن يفسر كلمةReligion (١)، ويقول: «الدين إنما هو مجموعة مقررات تنافي العقل والفكر الحرا». حين أن الاسلام يقول: «لا دين لمن لا عقل له». ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾(٢) ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾(٣).

يقول علي (ع): «إنه أرسل أنبياء ليثيروا في الناس دفائن عقولهم يهدوهم إلى معايش تحييهم». وهذا دستور يحقق سعادة الدنيا في حقل الفكر والعلم والمخترعات وفي حقل الاقتصاد والاجتماع ويحقق سعادة الآخرة في حقل التوجه إلى الله وتزكية النفوس والفلسفة الحقة.

إن القرآن الكريم قد عظّم أمر العلماء في جملة آيات بقوله: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب﴾. ﴿يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتو العلم درجات﴾. ﴿شهد الله انه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط﴾. وندب إلى البرهان وأراد بالناس أن لا يتقبلوا مبدأ أو عقيدة أو مسلكاً من المسالك دونما دليل بقوله: ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾. وبقوله: ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم الا تخرصون﴾ (سورة الأنعام: ١٤٨).

وحظر عن الظن والعمل به في العقائد والمسالك بقوله: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾، وأراد بالناس اتباع العلم الصحيح لا الظنون والأهواء. فقال رداً على الدهريين: ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون﴾. وبقوله: ﴿وما لهم به من

(١) الدين.
(٢) سورة أسرى: ٣٦.
(٣) سورة الفرقان: ٤٤.

علم أن يتبعون إلا الظن وان الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ (سورة النجم: ٢٨).

* * *

كان العلم في القرون الوسطى منحصراً فيما كان قد قاله أرسطو أو افلاطون أو أحد الفلاسفة القدماء دون تمحيص أو تحقيق في أقوالهم. وإن أكبر برهان عندهم أن يقال: قال ماجستر[1] كذا وكذا... يقصد بذلك أفلاطون أو أرسطو أو غيرهما من الفلاسفة القدماء. حين أن نظريات فلاسفة اليونان عن الكون كانت تخيلية بحتة، ومن جملة أقوالهم: ان حركة الشمس حول الأرض يجب أن تكون دائرية، لأن الدائرة أكمل الأشكال! وهكذا...

ولكن القرآن كان ينادي قبل ذلك بعدم قبول شيء دونما دليل أو برهان. وأسس للناس أسس الفلسفة الوضعية (Positivisme) التي لم تعرف في أوروبا إلا في القرن التاسع عشر الميلادي، فلسفة تبتني على الحقائق العلمية الثابتة لا الظنون والتخيلات الواهية. لذلك كان يقول (بوانكاره) العالم الرياضي: «نحن الرياضيين إنما نعمل لأجل الفيزياء والفلسفة». كل ذلك لأن الفلسفة في القرن التاسع عشر صارت تستفيد من المكتشفات الحديثة لتقول كلمتها عن الكون والوجود.

وها هو (بركسون) صار من كبار الموحدين، وكان يستدل في توحيده تعالى بما أودع الله تعالى من نظام خارق دقيق في بطن الذرة، نظام محيِّر للعقول لا يتأتى إلا عن حكيم خبير. نظام دقيق الصنع ذي دساتير ثابتة وسرع معينة ومنحنيات عجيبة بعيد عن الصدفة كل البعد، نظام يذيب الشك ويفني كل تردد. إنه تعالى دعا إلى التوحيد بطريق برهاني بقوله: ﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه انه لا يفلح الكافرون﴾[2]. ﴿أم اتخذوا من دونه آلهة، قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون﴾[3] وفي آية أخرى: ﴿ونزعنا من كل

---

(١) ماجستر Magister

(٢) سورة المؤمنون: ١١٨

(٣) سورة الأنبياء: ٢٤

أمةٍ شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾[1].

وكفى الاسلام فخراً أنه دعا إلى حرية الفكر وتقبل أصح الآراء وأسدها وذلك بقوله: ﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾[2] ومنع من التقليد الأعمى بقوله: ﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولَو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾[3].

وكم من آيات في القرآن الكريم تحث الناس على التفكر والتعقل: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾[4]، ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون﴾[5]. ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابةٍ وتصريف الرياح والسحاب المسخَّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾[6] ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سَكراً ورزقاً حسناً إن في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾[7].

ولنذكر ما قاله بعض كبار الغربيين عن الاسلام: يقول (لواندر كوذرد) «ليس في الاسلام كهنوت ولا سلطة كنيسة، لكنه يضع للحكومات دستوراً» ويقول (جيبون): «الدستور الاسلامي دستور شامل موحد بين الجميع من الرأس المتوج إلى أبسط الأشخاص، لأنه يقوم على حكمة انتجها أوسع العقول معرفة وعلماً بهذه الحياة».

---

(١) سورة القصص: ٧٥
(٢) سورة الزمر: ١٨
(٣) سورة المائدة: ١٠٤.
(٤) سورة محمد (ص): ٢٤
(٥) سورة الروم: ٢١
(٦) سورة البقرة: ١٦٤
(٧) سورة النحل: ٦٧

ويقول (دافيد يوو): «القرآن دستور اجتماعي، مدني، تجاري حربي، قضائي وهو فوق ذلك كله قانون سماوي عظيم».

ويقول (كارليل): «من المسلم به أن محمداً لم يكتب ولم يقرأ، ولم يتلق تعليماً مدرسياً، لكنه عُرف منذ نشأته بالرجولة وسمو التفكير والأمانة واصالة الرأي في كل ما يقول وما يعمل. وتاريخ حياته يثبت أنه كان دائماً رجلاً اجتماعياً وصديقاً صدوقاً ومخلصاً ودوداً».

ويقول (وليم موير): «جميع حجج القرآن طبيعية ودالة على عناية الله بالبشر».

ويقول (برنارد شو): «لا بد ان تعتنق الامبراطورية البريطانية النظم الاسلامية قبل نهاية هذا القرن، ولو أن محمداً بُعث في هذا العصر وكانت له ديكتاتورية على هذا العالم الحديث لنجح تماماً في حل جميع المشكلات العالمية وقاد العالم إلى السعادة والسلام».

فإذا كانت الرجعية معناها: كل عائق عن التقدم أو الرجوع إلى الأصول البالية المانعة عن الارتقاء والازدهار فأي أمر من أوامر الاسلام أو أي نهي من نواهيه وأي تعليم من تعاليم القرآن أو السنة النبوية. يقف حجر عثرة دون التقدم في تفهم الانسان الحياة والكون والوجود تفهماً يعوقه عن الارتقاء في حقول التكامل النفسي والاجتماعي. أو حقول المكتشفات والمخترعات؟.

إذن: القضية ليست قضية الرجعية أو التقدمية بالمعنى الصحيح. وإنما مرض في النفس، يريد صاحبها أن ينفلت من دساتير وآيات بينات أرسلها الله تعالى لتكميل البشر على ألسنة أنبيائه (ع). إن الله تعالى يصف هؤلاء بمرض في القلب أو النفس. بقوله: «في قلوبهم مرض»[١].

والمرض النفسي لا بد من معالجته، معالجة روحية. وليس هذا المرض الروحي من النوع الذي يعالجه علماء النفس أو الأطباء النفسانيون. وإنما هو مرض روحي عقائدي جاء من جراء الذنوب والآثام: ﴿كذلك حقت كلمة

(١) سورة البقرة: ١٠

ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾(١). نعم، الاجرام هو الذي سد عليهم أبواب الايمان وجعلهم مرضى في النواحي النفسية: ﴿ومن أظلم ممن ذكّر بآيات ربه فأعرض عنها، إنا من المجرمين منتقمون﴾(٢). والفسق هو السبب الرئيسي للضلال بقوله تعالى: ﴿فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾(٣). وبقوله: ﴿وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين﴾(٤) وبقوله: ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾(٥).

إن أطباء هذا المرض النفسي هم الأنبياء (ع) وخاتمهم نبينا محمد (ص) فما لم يعالج هذا النوع من المرض بوصفات أو علاجات قد عينها نبينا محمد صلى الله عليه وآله لا يمكن أن يرجع المريض عن غيه، فيرى الحق حقاً والباطل باطلاً، يرى ما هو رجعي حقاً رجعياً وما هو تقدمي حقاً تقدمياً. ﴿فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾(٦).

فطوبى لأولئك الشبان الذين لم تخدعهم بهرجة الغرب بروائها وجمالها الخداع، فميزوا بين الباطل والحق، بين نظام يدعو إلى الشهوات ونظام يدعو إلى تساند اجتماعي فيه الكمال الانساني والفوز بسعادة النشأتين: الا وهو نظام الاسلام... فتمسكوا به تمسكاً ملؤه الاخلاص وصاروا يضحون من نفوسهم ونفائسهم لاعلاء كلمة الله في الأرض، لا تأخذهم في ذلك لومة لائم، محققين مصداق هذه الآية الشريفة: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سُبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾(٧). راجين في عملهم رحمة الله ومرضاته تعالى: جاعلين هذه الآية الشريفة هدفاً لهم: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد﴾(٨).

---

(١) سورة يونس: ٣٣
(٢) سورة الم ـ السجدة: ٢٢
(٣) سورة الأحقاف: ٣٥
(٤) سورة البقرة: ٢٦
(٥) سورةالبقرة: ٩٩
(٦) سورةالحج: ٤٦
(٧) سورة العنكبوت: ٦٩
(٨) سورة البقرة: ٢٠٧.

الزوجية في الكون

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾(١).

إن هذه الآية تتحقق أكثر من ذي قبل كلما تقدمت العلوم الحديثة وتعرف العلماء إلى باطن الذرة وما فيها من عالم عجيب: عالم قائم بذاته من حيث الأنظمة والقوانين، لا يعتريها أي تغير وانثلام.

فترى أن الله تعالى قد أودع في الذرة، (وهي ما لا ترى بالعين المجردة ولا بالمكبرات: المجاهر: ميكروسكوب)، ألكترونات في الأطراف وهي كهربائية سالبة: (-) تدور بصورة اهليليجية حول المركز بسرعة فائقة، بسرعة ألفي كيلومتر في الثانية، وهذه أعظم سرعة عرفت لحد الآن على وجه الأرض، وترى في مركز الذرة: (النواة) قد تكدست البروتونات وهي كهربائية موجبة (+).

وقد جعل الله في هذه الذرة خلاء يحير العقول وذلك بين الالكترون والبروتون، بحيث لو وقع هذا الخلاء لكانت الأرض بحجم البرتقالة ولكن وزنها وزن الأرض تماماً.

فالبعد بين الالكترون الذي يدور في أطراف الذرة والبروتون المستقر في مركز الذرة كالبعد بين الأرض والشمس في منظومتنا الشمسية تقريباً. فكأن كل ذرة من حيث التشكيلات والأبعاد والمسافات كالمنظومة الشمسية مع حفظ النسبة. ذلك لأن نواة الذرة تحتوي على ٩٩,٩ في المائة من الوزن الذري، كما أن الشمس تحوي ٩٩,٩ في المائة من وزن المجموعة الشمسية: ﴿الذي

(١) سورة حم - السجدة: ٥٣

خلق سبع سماوات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾[1] فأبسط الذرات، إنما هي ذرة (الايدروجين).

(الأيدروجين) غاز مشتعل (قابل للاشتعال) يشغل قسماً عظيماً من هذا الكون الرحيب!. ولذلك سمي: بالغاز الكوني. وهو أهم عنصر في الماء الذي نشربه. إذ أن دستور الماء في علم الكيمياء: $H\ 2O$. أي يوجد في كل جزيء من الماء حجمان من الايدروجين وحجم واحد من الأوكسجين وهو غاز نتنفسه، ولولاه لاستحالت الحياة..

يوجد في ذرة (الايدروجين) الكترون واحد (-) يدور حول بروتون واحد (+) في المركز. وهو أبسط العناصر.

ويأتي في ترتيب العناصر، بعد الايدروجين، العنصر المسمى بـ (هليوم) وهو غاز غير محترق تملأ به المناطيد (البالون).

يوجد في أطراف ذرة (الهليوم) الكترونان (-)، (-) يدوران حول المركز. أما في مركز الهليوم فيوجد بروتونان: (+)، (+) وبجنبهما نيوترونان: (∓)، (∓).

النيروترون، جسم صغير جداً مؤلف من شحنة كهربائية موجبة وشحنة كهربائية سالبة وهما متعادلتان. فالنيوترونات متعادلة من حيث الكهربائية.

وأما العنصر الثالث من حيث (العدد الذري) أو ترتيب العناصر. فهو: (ليثيوم). ففي نواته: أي في مركزه يوجد ٣ بروتوناته (+)، (+)، (+) وبجنبها ٤ نيوترونات: (∓)، (∓)، (∓) (∓)، وتدور في الأطراف (أي في أطراف عنصر الليثيوم) ٣ الكترونات: (-)، (-)، (-).

وأما ذرة الكالسيوم ففيها ٢٠ الكتروناً تدور في الأطراف في مدارات مختلفة وبسرع معينة وبنظام دقيق حول النواة: (المركز) وفي المركز: ٢٠ بروتوناً وبجنبها ٢٠ نيوتروناً.

ثم، نحن إذا جمعنا عدد النيوترونات مع عدد البروتونات في كل ذرة،

---

(١) سورة الملك٣.

يعطينا هذا المجموع: الوزن الذري(mass number)

إن ذرة الايدروجين يختلف بعضها عن بعض حسب عدد النيوترونات الموجودة في المركز.

فإذا كان في المركز (نيوترون واحد)، سمي هذا الايدروجين بـ (الايدروجين الثقيل). ففي نواة الايدروجين الثقيل يوجد نيوترون واحد. وان المعادلة الآتية توضح الوزن الذري للايدروجين الثقيل: ١ بروتون + ١ نيوترون = ٢. فيقال: الوزن الذري للايدروجين الثقيل = ٢.

وعند اتحاد الايدروجين الثقيل بالأوكسجين نحصل على ما يعرف الآن باسم: (الماء الثقيل).

فدستور الماءالخفيف الكيماوي هو H 2 O حين أن دستور الماء الثقيل: H2 O2 .

فالايدروجين تختلف طبيعة ذراته، منها ما هي خفيفة تبلغ كثافتها نصف كثافة الذرات الثقيلة. فإذا اتحدت الذرات الثقيلة من الايدروجين مع الأوكسجين كوَّنت ماءاً يختلف عن الماء العادي، ولهذا تأثير سام على الكائنات الحية، ويوقف نمو البذور ويميت أجنة الأحياء وهي في مهدها هذه هي صفات الماء الثقيل.

ثم هناك نوع ثالث من الايدروجين. فيوجد في مركز هذا النوع من الايدروجين: نيوترونان بجنب البروتون. ويسمى بالايدروجين الثلاثي. ووزنه الذري: ٣ ذلك لأن: ١ بروتون + ٢ نيوترون = ٣.

إذن هنالك ثلاثة أنواع من الايدروجين. وتسمَّى هذه بالنظائر العادية.

وقد تكون للعنصر الواحد عدة نظائر لاختلاف عدد النيوترونات في النواة لنفس العنصر. ومعنى ذلك: أنه قد يكون لعنصر واحد: (مثلاً كاربون) عدة أوزان ذرية، لاختلاف عدد النيوترونات في النواة في نفس العنصر.

وقد وجدوا (للأورانيوم) ١٢ نظيراً. وأما عدد النظائر التي وجدوها لمختلف العناصر فتتجاوز الألف. وان العلم يعمل اليوم لأجل كشف هذه

النظائر لمختلف العناصر. ويظفر العلم يوماً بعد يوم بما أودع الله تعالى في بطن الذرة، (هذه التي لو جمعت عشرة ملايين منها لما تجاوزت رأس الابرة) من خصائص ونظام. نظام محيِّر للألباب، نظام يجعل الفيلسوف الفرنسي بركسون: (Bergson) يؤمن بالله تعالى حينما يرى عالماً عجيباً في شيء بالغ في الصغر، بحيث لا يرى بأدق الآلات. عالماً يستدعي التفكير والبحث أبد الآبدين: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله، ان الله عزيز حكيم﴾(١).

وأما النشاط الاشعاعي فهو نشاط ينتج من اضطراب نواةالذرة بسبب اختلال النسبة التي أرادها الله تعالى أن تكون بين عدد النيوترونات وعدد البروتونات حال الاستقرار.

وإن هذا الاضطراب إنما ينتج بادخال بعض البروتونات أو النيوترونات في النواة. وذلك: بأن تواجه النواة بإدخال بروتونات جديدة أو نيوترونات جديدة فيها. فتختل النسبة التي كانت موجودة في النواة حالة الاستقرار بين البروتونات، ولهذا السبب تضطرب النواة وتضطر إلى محاولة لاصدار نوع خاص من الاشعاعات المختلفة حتى تصل إلى حالة الاستقرار.

هذا هو أساس تحطيم الذرة وتفتيتها. وهذا هو الأساس لتبديل العناصر بعضها الى بعض، وهذا هو أساس تحول المادة إلى الطاقة.

فإن الطاقة المتحررة من كتلة: ك تساوي مربع سرعة الضوء في الكتلة أي أن الطاقة أو ط   ط = ك س٢ .

وبما أن سرعة الضوء = ٣٠٠ ٠٠٠ كيلو متر في الثانية أي ٣٠٠ ٠٠٠ كم/ثانية إذن: الطاقة المتحررة عند تحطيم ذرة كتلتهاك من الغرامات، أي:

ط = ك × ٣٠٠ ٠٠٠ × ٣٠٠ ٠٠٠ = ك × ٩٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ = ٩ × $١٠^{١٠}$ ك.

فالمادة إذن صورة من صور الطاقة. وان الغرام الواحد من المادة يتحول إلى ألف مليون مليون وحدة من وحدات الطاقة. ووحدة الطاقة تسمى

---

(١) سورة لقمان: ٢٧.

بـ (أركت: Erg) أو أن الغـرام الواحـد من المادة يتحـول إلى ٢٥ مليـون كيلووات/ساعة من القوة الكهربائية. أي ما ثمنه نحو (٥٥٠) ألف دينار.

* * *

وقد علم مما سبق أن النظرية المادية قد فندت من أساسها بعد تحول المادة إلى طاقات هائلة. فيحكم العقل بصورة فطرية: ان الله تبارك وتعالى قد خلق طاقات هائلة في بادىء ذي بدء بقوله: (كُن)، ثم أمرها أن تتكدس تحت ترتيب خاص ونظام دقيق فتكون بإذنه تعالى سُدمـا (جمع سـديم)، فهذه العنـاصر، فـالأجسام، فـالمجـرّات، فـالأجـرام، فـالشمس، فـالكـواكب، فالأقمار. . الخ. .

يلاحظ أن العالم كله مشكل من نوعين من الكهربائية، كهربائية موجبة: (+)، وكهربائية سالبة: (-). وأما النيوترون الذي هو بجنب البروتون في نواة الذرة فهو خليط من كهربائية موجبة وسالبة متعادلة: (∓)، إذن العالم مشكل من نوعين من الطاقات: كهربائية موجبـة: (+) وكهربائية سالبة: (-) وواضح أن السالب غير الموجب، كما أن الأنثى غير الذكر. وهكذا نرى أن الـزوجية متـأصلة بـأمـر الله حتى في أدق الأشيـاء. فـالغـاز الكـوني: (الايدروجين) وهو من أبسط العناصر مشكل من الكترون واحد (-) وبروتون واحد (+). وهذا يفسر قوله تعالى: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾(١).

ونرى أن القوة أو الطاقات التي تتألف منها العوالم هي بالمآل أما كهربائية أو مغناطيسية. فالكهربائية أيضاً تحصل على مغناطيسية وذلك بلـف سلك حول قطعة من حديد وإمرار تيار كهربائي في هذا السلك. فتتمغنط قطعة الحديد ويحدث فيها قطبان: القطب الشمالي والقطب الجنوبي كقـطعة من مغناطيس طبيعي. وبتدوير ملف من الأسلاك في مجال مغناطيسي (كما في الداينامو) نحصل على الكهربـاء. (التيار الكهـربائي). لـذلك كـان يقول (آينشتاين): إنما العالم مجموعة قوى (كهربائية ـ مغناطيسية) أو (كهرطيسية). فأين المادة التي كان يتشدق بها لينين؟.

---

(١) سورة الذاريات: ٤٩.

نحن نشاهد الزوجية حتى في القوى والطاقات، وفي الجن أيضاً، كل ذلك، لتبقى الوحدانية خاصة بالله تعالى لا يشاركه فيها أحد.

وإن الزوجية معروفة في النباتات، ذلك لأن في الزهرة عضو التـذكير (الأعضاء الذكرية) وعضو التأنيث (العضو الأنثوي). وبعد أن تنضج الأعضاء الذكرية والأنثوية في الزهرة، يحصل التلقيح وتبدأ الثمرة بالتكوّن من الجزء الأنثوي.

وإن الزوجية متجلية في الحيوانات وكذلك في الانسان. إنه تعالى يقول: ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلّها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾ (سورة يس: ٣٦). فالله تبارك وتعالى أخبرنا قبل ١٤ قرناً أن هناك زوجيةً في ما لا نعلم من أشياء. وقد اكتشف حديثاً أن الزوجية متأصلة بأمر من الله تعالى حتى في الذرة التي لا ترى بالعين.

ويقول تعالى أيضاً: ﴿فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجـاً يذرؤكم فيـه ليس كمثله شيء وهو السميـع العليم﴾ (سورة الشورى: ١١). (يذرؤكم أي: يكثركم).

لذلك يقول (مونتني) الفيلسوف الفرنسي: إن أعظم دليل على وجود الله هو وجود المرأة (الأنثى) للرجل. فهل يعقل أن الرجل خلق لنفسه أثنى لادامة النسل البشري؟.

وإن الله تعالى تحقيقاً للزوجية وهذا الانجذاب الجنسي جعل تردد صوت المرأة: (٢٢٠) في الثانية كما هو معروف في الفيزياء وجعل تردد صوت الرجل (١١٠) في الثانية، ليكون صوت المرأة أرقّ وأجمل من صوت الرجل. فيتحقق الانجذاب الجنسي إدامةً للنسل البشري.

وبصورة عامة لا يكون التوالد وتوليد المثل إلا باختلاط وانضمام خليتين احداهما ذكر وتسمى (اسبرماتوزوئيد) والأخرى أنثى وتسمى: (أوول).

* * *

إن دراسة الطائر المسمى بـ(اكسبكلوب) وما يقوم به من عمل دقيق

لادامة نسله خير دليل على وجود الصانع وإيحاء الله تعالى الطائر الطريقة الناجحة لابقاء النسل. ذلك لأن هذا الطائر لا يرى نسله ويموت فور إلقائه البيض. كما أن الأفراخ لا ترى وجه الأم. ذلك لأن الأفراخ هي كالديدان بعد الخروج من البيض، لا تقوى على تهيئة غذائها والدفاع عن نفسها ودفع الطوارىء التي تهدد حياتها. وعليها أن تقضي سنة كاملة في مكان وادع رصين وأن يكون الغذاء بجنبها وفي متناولها. ولذلك، فإن الأم حين شعورها بأنه قد قرب أوان بيضها تحصل حالاً على قطعة من خشب وتحدث فيها ثقباً عميقاً. ثم تقوم فتفتش عن غذاء (لأفراخها التي لا تراها بعد موتها) من الأوراق والأوراد ما يكفى لسنة كاملة وتضع هذا الغذاء في منتهى الثقب وتضع فوق هذا الغذاء بيضة واحدة وتبني عليها سقفاً محكماً من عجين الأخشاب ثم تذهب لتجمع غذاء لسنة كاملة أيضاً، فتأتي به وتضعه في الثقب على ذلك السقف وتضع عليها بيضة وتبني عليها سقفاً ثانياً، وهكذا تصنع عدة طبقات وكل طبقة فيها غذاء لسنة كاملة وفوقه بيضة وهي تموت بعد إتمام العمل فوراً ولا ترى أفراخها. لا تقع للأم هذه الحادثة إلا مرة واحدة طوال عمرها وفي فصل الربيع فقط.

حقاً، لولا الالهام الالهي لما قامت الأم التي تموت حالاً بعد البيض، (الأم التي لا ترى أفراخها) بهذه العملية لادامة نسلها، فإن قلنا أنها تعلمت فكيف حدث هذا الحادث لأول مرة، دون تجربة سابقة؟.

ثم إن الله تعالى جعل شريكاً للانسان وهو الجن، فالانسان لا يُحشر وحده يوم القيامة وإنما يُحشر معه الجن أيضاً. يقول تعالى: ﴿ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الأنس﴾. وفي آية أخرى: ﴿يا معشر الجن والأنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا﴾. وقوله تعالى: ﴿قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس في النار كلما دخلت أمَّة لعنت أختها﴾. وفي آية أخرى: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس﴾... إلى ما هنالك من آيات أخرى، كلها تدل على أن الجن محاسبون يوم القيامة كالأنس وكلاهما مكلفان في هذه الدنيا بتكاليف وبأوامر ونواهٍ. وان محمداً (ص) قد

بُعث للانس والجن كافة: ﴿وإذا صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولَّوا إلى قومهم مُنـذرين﴾ وفي سورة الرحمن: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾، فهنا يخاطب الله تعالى الانس والجن معاً.

* * *

وقد عُلم أن الزوجية تتحكم حتى في النجوم. فهناك تزاوج ظاهري في النجوم.

ومع كثرة النجوم في هذه السماء الواسعة غاية الوسع فإن الفواصل بين النجوم فواصل هائلة وأبعاد شاسعة جداً. وان أقرب نجم إلى شمسنا هذه يبعد عنها ٢٦ مليون مليون ميل. إذن يحق لنا أن نقول: ما أفرغ هذه السماء وما أشد وحشة النجم الواحد في هذا الفراغ الهائل! ولكن شاء الله تعالى، أن يجعل الأشياء كلها حتى النجوم مزدوجة! تتحكم فيها الزوجية ليكون التفرد والوحدانية خاصة به تعالى «ليس كمثله شيء».

فإذا نظرت إلى السماء بالمنظار لرأيت نقطتين مضيئتين مقتربتين في السماء أشدَّ الاقتراب. واحدة زرقاء والأخرى برتقالية أو حمراء. انهما نجمان يشد بعضهما بعضاً ويدور أحدهما على الآخر. أي ينجذب أحدهما من قبل الآخر تحقيقاً للتزاوج. ونحن حيثما وجهنا المنظار (التلسكوب) إلى السماء وجدنـا أزواجاً من النجوم. أنها ألوف ألوف. انها الثنـائيات النجميـة، مداراتهـا اهليليجية ذات تفرطح عظيم. هذه هي هندسة الكون: مدارات اهليليجية وكم من الصعب رسم منحن اهليليجي في الفضاء ثم جعل النجوم تدور بموجبه دونما حيد. انها هندسة دقيقة تدل على عظمة واضعها وهو الله الواحد القهار.

ومن أشهر هذه الأزواج (الشعرى اليمانية) وصاحبتها بل صاحبها فإذا نظرت إلى الشعرى اليمانية في فصل الشتاء في أوسط السماء، قرب كوكبة الجبار لا ترى منها إلا نجماً واحداً لامعاً أشد اللمعان، وهكذا نرى الأزواج من الكـواكب رأي العين شيئـاً واحداً. حتى إذا وجهنـا نحوهـا المناظـير

(التلسكوبات) القوية رأيناها نجمين أو عدة نجوم. وقد نظر إلى (الشعرى اليمانية) صانع مناظير، يجرب منظاراً قد صنعه: قطره (١٨) إنجاً، فرأى صاحبها أول مرة وقد كان ذلك عام ١٨٦٢ م.

ويدرس العلماء (الشِعرىَ) وصاحبها، فيكشفان عن مدار اهليليجي لهما، شديد التفرطح، وهما يقطعانه في خمسين عاماً. والفرق بين حجميهما هائل. الشعرى أكبر من الشمس، وصاحبها قزم من أقزام النجوم أبيض أكبر من الأرض ٣ مرات أو أكثر. ولكنه شديد الكثافة، فإن كثافته تبلغ ٣٠٠٠٠ مرة مثل كثافة النجوم. فالوزن النوعي (للشعرى) يساوي عدة آلاف من الوزن النوعي للذهب الأبيض وهو من أثقل العناصر.

إن الله تعالى يعظم شأن نجمة (الشعرى) بقوله جل من قائل: ﴿وإنه هو أغنى وأقنى[1] وانه هو رب الشعرى وانه أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى﴾ (سورة النجم..).

وقد علم بأن نجمة (الشعرى) تبعد عنا ١٠ سنوات ضوئية، أي حوالي مائة مليون مليون كيلومتر. عل أن هناك ملايين المجرات في كل منها بلايين من النجوم تبعد عنا آلاف الملايين من السنين الضوئية. فما أعظم ما خلق الله من عوالم وما أكثرها وأوسعها.

فيحق للمسلم وكل عبد لم يذهب بعقله الفطري ما اجترحت يداه من آثام أن يستقبل القبلة بأذان أو اقامة قائلاً، ليل نهار: الله أكبر، الله أكبر.

والجاذبية قد تجمع بين أكثر من نجمين. فالنجمة القطبية هي في الحقيقة ثلاثة نجوم، وزوجان يدوران بعض حول بعض في نحو من ٤ أيام. وهما معاً يدوران حول نجم ثالث في أكثر من ٢٠ عاماً. ونحن لا نرى منها في السماء إلا شيئاً واحداً.

ومجمرعة أخرى تتشكل من أربعة نجوم وهي ترى كنجمة واحدة، إنها (راس التوأم المؤخر). وقد عرف أنه يتألف من زوج وزوج، ثنائيان اثنان في

---

(١) أقناه: اغناه وأعطاه ما يقتني، والقنية ما يؤثل من الأموال.

كل منها. ككل ثنائي يدور أحد نجميه حول صاحبه، ودورة الثنائي الأول ٣ أيام، ودورة الثنائي الثاني ٩ أيام، إلا أن الزوج الثاني يدور كذلك حول أخيه الزوج الثاني مرة في حدود ٣٠٠ عام.

وهكذا نرى أن قوله تعالى: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ متجل حتى في النجوم على بعدها وكثرتها. . فـ(سبحان الله باري النسم[1]، سبحان الله المصور، سبحان الله خالق الأزواج كلها، سبحان الله جاعل الظلمات والنور، سبحان الله فالق الحب والنوى، سبحان الله خالق كل شيء، سبحان الله خالق ما يرى وما لا يُرى، سبحان الله مداد كلماته، سبحان الله رب العالمين).

* * *

ونرى أن الله تعالى قد أودع الزوجية في (العناصر) أيضاً. فهناك نوعان من العناصر: النوع الأول هو هذه العناصر التي نراها في أرضنا هذه: كالايدروجين والحديد والأورانيوم... الخ. فكل ذرة منها مؤلفة من الكترونات سالبة تدور حول بروتونات موجبة في النواة.

ولكن عُلم أخيراً أن هناك: (بروتونا سالباً) منطلقاً في الفضاء حول الكرة الأرضية ومن شأنه إفناء جميع أنواع المادة التي تصطدم بها. كما اكتشف أخيراً: (الألكترون الموجَب) وهو الكترون يضاد الالكترون الذي نعرفه في أرضنا. ففي الوجود نوعان مختلفان من العناصر تُبنى منها النجوم والشموس والكواكب وسائر الأجسام. وإذا حدث أن التقى نوع منهما بالآخر أو تصادم معه تحدث عمليات إفناء ذرية تختفي معها معالم المادة من الوجود، بينما تنطلق طاقات هائلة منها تلك التي هي الأصل في ربط جسيمات ذريات وذرات تلك المواد.

وإن تحطيم بعض الذرات يؤدي إلى تحرير نيوترونات ذات سرعة كبيرة وان النيوترونات المتحررة حين التحطيم النووي تستطيع تحطيم ذرات أخرى فينتج من هذا تفاعل متسلسل مستمر.

---

(١) النسم: جمع النسمة: الانسان أو كل دابة فيها روح.

ولنرمز للنوع الأول من المادة ذات البروتونات الموجبة والالكترونات السالبة بالحرف (م) مثلاً، ولنرمز للنوع الثاني من المادة المضادة للأولى: أي ذات البروتونات والألكترونات الموجبة بالحرف (س). فعندما يتصادم (بروتون موجب) مع (بروتون سالب)، أو عندما يتصادم (الكترون سالب) مع (الكترون موجب) يعدم أحدهما الآخر من عالم الوجود. بينما تنطلق الطاقة الكلية حسب الدستور الآتي:

الطاقة المنطلقة = الكتلة المادية المختفية × مربع سرعة الضوء. وهكذا نرى عندما تدخل ذرة من نوع المادة (م) إلى عالم المادة (س) أو بالعكس تفنى الالكترونات أولاً، ثم تفنى البروتونات.

فاتضح مما ذكر أن الزوجية متأصلة بأمر الله تعالى في أصغر موجود في هذا الكون الرحيب وهو الذرة. ففيها الكترون (كهربائية سالبة) وبروتون (كهربائية موجبة). حتى ان المادة نفسها على نوعين أي أن الزوجية متأصلة فيها، فالبعض منها الكترون سالب وبروتونها موجب كما في العناصر المكتشفة لحد الآن وعددها (١٠٢) تبدأ بالايدروجين وتنتهي بـ (نوبليوم)(Nobelium) وفي (نوبليوم) ١٠٢ ألكترون (سالب) تدور حول ١٠٢ بروتون (موجب) وبجنب البروتونات توجد (١٥٥) نيوتروناً ويرمز اليه هكذا: $\frac{257}{102}$ No .... (٢٥٧ - ١٠٢ = ١٥٥ نيوتروناً).

والبعض الآخر: الكترونها موجب وبروتونها سالب؛

فسبحان من لا تبيد معالمه، سبحان من لا تنقص خزائنه، سبحان من لا اضمحلال لفخره، سبحان من لا ينفد ما عنده، سبحان من لا انقطاع لمدته، سبحان من لا يشارك أحداً في أمره، سبحان من لا إله غيره.

فيرى المتتبع في أحوال الكون: أن الله قد أودع الزوجية في كل شيء، كي يعتبر الانسان بهذه الزوجية ويعلم أن الله لا يُشبه ما خلق من جماد ونبات وحيوان وانسان وقوى وطاقات في شيء، هو الله الذي لا إله إلا هو.

ولنختم هذا المقال بهذه الآيات البينات، ليعلم أن لا متصرِّف في الكون إلا الله تعالى، وأن ليس هنالك إلا خالق ومخلوق، والاعتقاد بوحدة الوجود أو

وحدة الموجود بضاعة يونانية مُضلة جاءت من فلسفة بشرية حالكة تتنافى مع عظمة الله وقدسيته.

﴿أفرأيتم ما تُمنون، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾[1]. ﴿أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾[2]. ﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون﴾[3]. ﴿أفرأيتم النار التي تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون﴾[4]. صدق الله العظيم...



(١) سورة الواقعة: ٥٧، ٥٨.

(٢) سورة الواقعة: ٦٣, ٦٤.

(٣) سورة الواقعة: ٦٨، ٦٩ - المزن: السحاب.

(٤) سورة الواقعة: ٧١، ٧٢ - تورون: تقدحون.

الكون الرحيب

إن الله تعالى يأمرنا بأن نتتبّع السماء والأرض وأن ننظر إلى ما خلق من عوالمَ شتى: من كواكب وشموس ومجرات وسُدم، وكيف تتكون الأنجم وكيف تبيد. وذلك بقوله جل من قائل: ﴿أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض﴾... (سورة سبأ).

﴿ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾ (سورة آل عمران...).

﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نُصبت وإلى الأرض كيف سُطحت﴾. (سورة الغاشية).

إن الله تبارك وتعالى يريد منا أن نتوغل في عوالم السماء وما خلق من عوالم أخرى، لكي نزداد يقيناً به تعالى: ﴿الله الذي رفع السماء بغير عمدٍ ترونها، ثم استوى على العرش وسخّر الشمس والقمر كلٌ يجري إلى أجل مسمى يدبر الأمر يفصّل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾[1].

حقاً، إن علم الفلك اللاسلكي والميكانيك الرياضي فتحا على الانسان أبواب المعرفة بالنسبة إلى ما لا يتناهى من شموس ومجرات وسُدم ونيازك. إلى ما هنالك من عوالم تدهش الألباب.

فإن التلسكوب اللاسلكي يلتقط إشارات عن مسافة قدرها ثمانية آلاف مليون سنة ضوئية. والسنة الضوئية هي المسافة التي يقطعها الضوء (بسرعة ٣٠٠ ٠٠٠ كيلومتر في الثانية) خلال سنة كاملة، أي هي المسافة التي طولها ٩٤٦٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠كيلومتر، أو ٥٨٧٩ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ميل.

---

(١) سورة الرعد: ٣.

فإن القمر لا يبعد عنا إلا بقدر ثانية وثلث الثانية من السنة الضوئية، والشمس تبعد عنا ٨ دقائق و ٢٠ ثانية من السنة الضوئية. والشمس خلال هذه المدة: (أي ٨ دقائق و ٢٠ ثانية) وهي المدة التي يجب أن تنقضي لوصول شعاعها إلينا تقطع في الفضاء في سيرها الطبيعي المقرر من جانب الله تعالى خمسة ملايين كيلومتر، مع العلم أن الضوء يسير من أقصى الأرض إلى أقصاها خلال ١٤/١ من الثانية.

وإن أقرب نجمة منا وهي (بزوكسيما) الواقعة تقريباً بحذاء القطب الجنوبي من أرضنا تبعد عنا ٤ سنوات من السنين الضوئية.

ونجمة (جدّي) وهي التي تحاذي القطب الشمالي من أرضنا على وجه التقريب تبعد عنا (٥٠) سنة ضوئية ونجمة (عيوق) تبعد عنا تسعين سنة ضوئية ونجمة (ثريا) تبعد عنا ١٤٠ سنة ضوئية.

وإن قطر المجرة التي تعلونا عندما ننظر إلى السماء (وكأنها سحابة) يعادل ما يقطعه الضوء بسرعته الفائقة خلال (٠٠ ٨٠٠) سنة ضوئية. وإذا أردنا أن نسير من رأس هذه المجرة التي هي فوق رؤوسنا (تقريباً) إلى منتهاها علينا أن نقطع مسافة الضوء بسرعتها الهائلة خلال (٠٠٠ ٢٠٠) سنة ضوئية.

إنه تعالى يقسم بـ(الطارق) بقوله: ﴿والسماء والطارق﴾ ويُراد بها نجمة زحل.

ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿وأنه هو رب الشعرى﴾... وهي نجمة مضيئة تبعد عنا ١٠ سنوات من السنين الضوئية على وجه التقريب. والوزن النوعي لهذه النجمة: (الشعرى) أكبر من الوزن النوعي للذهب الأبيض عدة آلاف مرة ومعلوم أن الذهب الأبيض عنصر ثقيل جداً. ولنجمة (الشعرى) قمر خاص بها يدور حولها خلال خمسين سنة.

* * *

تختلف النجوم حسب درجات الحرارة، فمنها الأحمر الداكن ومنها الأحمر القاني ومنها البنفسجي والأصفر والأبيض وتتدرج من الداكن إلى الضعيف

وتتراوح درجاتها الحرارية من ١٤٠٠م (درجة مئوية) إلى ٣٩٠٠م.

وقد قيس وزن النجوم بالنسبة لشمسنا هذه ولم يعثر على نجمة وزنها أقل من ١/١٠ من وزن الشمس. وهناك نجوم وزنها ١٤٠ مرة بقدر وزن الشمس ولها حركاتها وقوانينها ومعادلاتها.

وقد علم أن سرعة الأمواج اللاسلكية تعادل سرعة الضوء تماماً. ولأجل أن نعلم مقدار معدل سرعة أقرب نجمة من هذه النجوم نقول: إن سارت الطائرة النفاثة دونما توقف مدة (٦) ملايين من السنين لها أن تصل إلى أقرب نجمة من كرتنا الأرضية.

وإذا نظرنا إلى السماء وتأملنا إحدى هذه النجوم القريبة، يجب أن نعلم أن الذي نراه في الواقع ليس إلا صورة متخلفة لما كان عليه هذا النجم منذ أربع سنوات. وإذا أردت أن تشاهد حفلة زواج والدك قبل ثلاثين سنة (مثلاً) عليك أن تركب صاروخاً يسبق سرعة الضوء[1] فينقلك إلى نجمة (النسر الواقع) لتشاهد هنالك حفلة زواج والدك وبعد سنة كيفية ولادتك أنت.

* * *

إن شمسنا هذه ما هي إلا نجم متوسط الحجم من نجوم مجرة (درب التبانة) التي يبلغ عددها مائة ألف مليون نجم تقريباً. وشمسنا هذه غير واقعة في منتصف المجرة وليست بمركز، ولكنها واقعة قرب الطرف في موقع مدحور ليس من العظمة في شيء.

ويوجد في هذا الكون الواسع الرحيب من المجرات بعدد النجوم الموجودة في مجرتنا: (درب التبانة). فإذا ما هي قيمة هذا الانسان بالنسبة لما خلق الله من عوالم لا تتناهى ولا تحد؟ لا سيما بعد أن عرفنا أن أرضنا هي هباءة بسيطة في حافة إحدى المجرات الكثيرة العدد التي لا تعد ولا تحصى. فليدع الانسان عنه هذا الغرور وليتوجه إلى عبادة ربه وتقديسه وتسبيحه. إنه تعالى يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً﴾ (٢).

---

(١) وهذا محال، إذ ليس هناك شيء أسرع من الضوء حسب النظرية النسبية لـ(البرت آينشتاين).

(٢) سورة الأحزاب: ٤١، ٤٢.

﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وأدبار السجود﴾(1).

يقول أحد الماديين: «أني طفت بالصاروخ حول الأرض سبع مرات فلم أر الله».

فأجابه الموحد قائلاً: ليس الله من الصغر بحيث تراه أنت. . .
حقاً، أنى للمتناهي والمحدود أن يحيط بالله الذي لا يحده شيء ولا يحيط به شيء.

يقول علي (ع) في وصف الله تعالى: «الأول الذي لم يكن له قبل فيكون شيء قبله، والآخر الذي ليس له بعد فيكون شيء بعده، والرادع أناسي الأبصار عن أن تناله أو تدركه».

وإن أعلم علماء القرن العشرين في الفيزياء وأعني به (آينشتاين) يقول: «يجب أن نتعرف إلى ألفباء عالم الوجود!».

ويقول في مقام آخر: «ليس من المعقول أن يقال: يمكن التعرف إلى العالم كله».

وكان يقول باسكال: (Blaise Pascal) قبل حوالي ٣٤٠ سنة: «ما هو هذا الانسان في هذه الطبيعة؟ إنه عدم «تجاه اللانهاية» قد قال هذا القول في يوم لم يكن قد إتسعت آفاق العلم هذا الاتساع الذي نلمسه اليوم، انه اتساع علمي موضوعي محير العقول، فما الذي يجب أن نقوله اليوم؟.

إن ما عثر عليه العلم الحديث من النجوم هو بمقدار من الكثرة بحيث يفوق عدد حروف نصف مليون كتاب في مكتبة ما. ولو كنا نعد النجوم كلها بسرعة ١٥٠٠ نجم في الدقيقة لاستغرق عدنا ٧٠٠ سنة. اما الأرض فهي أقل كثيراً جداً من نقطة على حرف في مكتبة تضم نصف مليون من الكتب من الحجم المتوسط. أو على الأصح يجب أن نشبهها بهباءة من التراب بين صفحتين في أي كتاب من كتب هذه المكتبة.

* * *

(١) سورة ق: ٣٩، ٤٠.

يبلغ حجم الواحدة من معظم الكواكب التي اكتشفت لحد الآن قدر حجم الأرض آلاف المرات في بعضها وملايين المرات في البعض الآخر وملايين الملايين في أكثرها. وان من النجوم أكثرية مطلقة يبلغ حجم الواحدة منها حجم عدة ملايين من الأرض وما يزال يتسع لملايين.

* * *

إن هذه النجوم على كثرتها لا تصطدم بعضها بالآخر وهي سائرة في أفلاكها ومنحنياتها. وإذا شبهنا النجوم بالسفن في المحيطات (كالمحيط الهادي) فان بعضها يبعد عن البعض الآخر ما يزيد على مليون من الأميال.

وفي سنة ١٠٠٠ الميلادية اقتربت نجمة من المذنبات من الأرض وأيقن الناس أنها ستصطدم بالأرض لا محالة، وتكون نهاية العالم ويحل اليوم الموعود: يوم القيامة. فاتجه الناس إلى الكنائس تائبة من ذنوبها وآثامها. ولكن مرت النجمة ذات الذنب بالقرب من الأرض دون أي اصطدام!.

ومجرة (درب التبانة) التي شمسنا هذه إحدى نجومها منطلقة في الفضاء كباقي المجرات وتتباعد عن أخواتها. وتختلف سرعة تباعد المجرات عنا ما بين (٦٠٠ - ٤٠٠٠) ميل في الثانية. وإذا وصلنا إلى هذه المرحلة فمن الصعب أن نقول: فيما إذا كانت المجرات الأخرى هي تهرب منا وتتباعد بهذه السرعة أو نحن نتباعد ونهرب منها بالسرعة نفسها أو أن كلامنا هارب من الآخر بنصف السرعة المذكورة. إننا هنا لا نستطيع أن نتكلم عن سرعات كهذه إلا بمفاهيم (النسبية). وهكذا نرى أن هذا الكون آخذ في الاتساع اتساعاً هائلاً حسب قوله تعالى:

﴿والسماء بنيناها بأيدٍ وانا لموسِعون﴾.

* * *

ليس هناك شيء ثابت أو ساكن في هذا الكون، فكل ما في الكون متحرك أما بحركة واحدة أو حركات متعددة. وهذا ما حدا بـ(آينشتاين) أن يؤسس معادلات النظرية النسبية.

فإن الانسان يتحرك مع سطح الأرض حين تدور الأرض حول نفسها وسرعة الانسان وهو على سطح الأرض باتجاه دوران الأرض: ربع الميل في الثانية، أو (٩٠٠) ميل في الساعة إذا كان هذا الانسان على خط الاستواء. وسرعته تكون أقل كلما قارب القطبين.

والانسان يتحرك مع هذه الأرض نفسها في دورتها السنوية حول الشمس. والأرض تسير في حركتها هذه بسرعة ١٨,٥ ميلاً في الثانية أو ٣٠/كم ثانية. والشمس وكواكبها سائرة بالنسبة إلى جاراتها من النجوم نحو نقطة ما بين مجموعة (هرقل: Hercules) ومجموعة القيثار: Lyra بسرعة ١٢ ميلاً في الثانية، ويراد بالجارات هنا: النجوم التي تبعد عنا بضع مئات من السنين الضوئية.

وأما الشمس فهي احدى نجوم مجرّة (درب التبانة) وهذه المجرة كالمجرات الأخرى تدور حول نفسها بسرعة هائلة، وشمسنا تدور حولها طبعاً وسرعتها في هذا الاتجاه ١٢٠ ميلاً في الثانية، أي (٤٣٢٠٠٠ ميل/ساعة).

وهكذا نشاهد هذه الحركات المنظمة وفق دساتير معينة ومعادلات رصينة في الأجرام السماوية بحكمة إلهية عالية لذلك يقول الفلكي الكبير: (فاي): من الخطأ أن نقول: بأن العلم يفضي بصاحبه إلى نكران وجود الله».

ذلك لأن نكران وجود الله تعالى إنما هو نتيجة الفسوق والفجور على حد قوله تعالى: ﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾. (سورة يونس: ٣٣). وفي آية أخرى: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون﴾. (سورة يونس: ١٧).

فالاسلام يضاد الاجرام وهو القائل: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون﴾.

يقول (باستور): «لا تنافي بين العلم والايمان، وكلما زاد علم الأنسان زاد إيمانه بالله». وأني أضيف إلى كلمة (باستور) قائلاً: شريطة أن لا تتلوث النفس بفسوقها ومجونها وآثامها وبغيها وظلمها.

يقول الدكتور (وتز Wets) الكيميائي وهو عضو أكاديمية العلوم وعميد كلية الطب: «إذا أحسست في حين من الأحيان أن عقيدتي بالله تـزعزعت وجهت وجهي إلى أكاديمية العلوم لتثبيتها».

وكذلك يقول الجيولوجي الذائع الصيت (أدموند هربرت) المدرس بجامعة (صوربون): «العلم لا يمكن أن يؤدي إلى الكفر ولا إلى المادية ولا يفضي إلى التشكيك».

وقد قال العلامة في التاريخ الطبيعي (فاير). «كل عهد له أهواء جنونية، فإني اعتبر الكفر بالله من الأهواء الجنونية وهو مرض العهد الحالي. وأيسر عندي أن ينزعوا جلدي من أن ينزعوا مني عقيدتي بالله».

لذلك جاء في إحصاء: أن بين (٢٩٠) فيلسوفاً ٩١٪ منهم مؤمنون و ٥٪ منهم لا أدريون و ٤٪ منهم ملاحدة؟!.

أنظروا إلى كلمة نابغة القرن العشرين: آينشتاين حين يقول معترفاً بالوحي أنه يقول: «العلم يخبرنا عما هو كائن إلا أن الوحي وحده هو الذي يخبرنا بما ينبغي أن يكون».

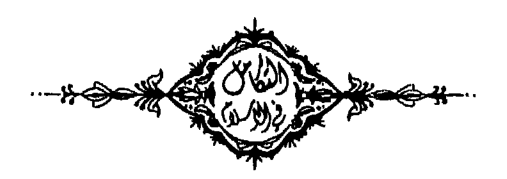
فالعلم لا ينافي الايمان بحال وإنما يؤيده ويقويه. ما لم تتلوث النفس بما حرم الله وما دامت هذه النفس قائمة بالتزكية والتطهير والانابة والاستغفار.

وقد يصل الرجل الأمي بمشاهدة سطحية لما أودع الله من عظيم الصنع في هذا الكون الرحيب إلى إيمان رصين قلّ ما يصل إليه عالم بـالحشرات أو الجراثيم، وذلك لقيامه بتزكية نفسه وتصفيتها عن الأدران ورده إلى الناس ما لهم عليه من حقوق ولتخلقه بالأخلاق الفاضلة وصلته رحمه وقيامه بقضاء حوائج الناس. يقول الله تبارك وتعالى في وصفهم: ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون وفي أموالهم حق للسائل والمحروم وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾[1].

---

(١) سورة الذاريات: ١٧ ـ ٢١.

فدين الاسلام دين إحياء القلوب بتعاليمه ودساتيره التي جاءت من قبل خالق النفوس وموجدها: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها، كذلك زيِّن للكافرين ما كانوا يعملون﴾[1].



(١) سورة الأنعام: ١٢٢.

حالات النفس مع الله تعالى

حقاً، إن للنفس الانسانية غذاءاً خاصاً بها تتناسب مع تجردها وبعدها عن المادية الحالكة. وهذا الغذاء روحي بحت ليس من نوع المآكل والمشارب وليس من متع الدنيا في شيء. إنه غذاء فيه تكامل النفس وبلوغها أسمى مراتب القرب إلى الله تعالى، وهو غاية الغايات من وجودنا في هذه الدنيا المؤقتة الناقصة في جميع مراحلها الفردية والاجتماعية، وذلك لنيل حياة أبدية كاملة في جميع مراحلها الاجتماعية والفردية، ألا وهي الخلود في ﴿جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين﴾.

إن هذا الغذاء روحي بحت لا مجال فيه للشهوات والنزوات وكل ما يفسد النفس مما حرم الله تعالى على لسان نبيه محمد (ص). فلا تضاهيه أنواع الموسيقى ومجالس الأنس، وليس من نوعه أوركسترا وما يترنم فيه من مزمار وعود وطنبور. إنه عروج إلى السماوات العلى، إلى عوالم القدس إنه ارتقاء نفسي عن حضيض المادة العمياء إلى حيث الصفاء المحض، إلى حيث الطمأنينة الكاملة: «ألا بذكر الله تطمئن القلوب».

فطوبى لنفوس وفقت أن تخلو بخالقها، وتناجي بكل خشوع وخضوع ربها، معترفة بذنوبها، مستغفرة عن آثامها، نادمة على ما كان منها من بغي وظلم، باكية على خطاياها، راجية رحمة بارئها: ﴿ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً﴾ تالية لأجزاء القرآن: ﴿إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سجداً وبكياً﴾.

وقد قال على (ع) في وصفهم: «أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن، يرتلونه ترتيلا، يحزنون به أنفسهم، ويستثيرون دواء دائهم، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً، وتطلعت نفوسهم اليها شوقاً، وظنوا أنها نصب أعينهم، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا اليها مسامع قلوبهم، وظنوا

أن زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم، فهم حانون على أوساطهم، مفترشون لجباههم وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم، يطلبون إلى الله في فكاك رقابهم، وأما النهار فحلماء علماء أبرار أتقياء. . .».

فأنك لو قمت في جوف الليل، والناس نيام، وقلت كما كان يقول رسول الله (ص): «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور». واستقبلت القبلة وصليت ركعات، محاسباً نفسك محاسبة دقيقة: «زنوا أنفسكم قبل أن توزنوا وحاسبوها قبل أن تُحاسبوا»[1] وعددت ذنوبك وخطاياك وتوجهت بكلك إلى الله الرحيم المتعال، لشعرت إذ ذاك بروحانية فائقة تفوق أعظم ما في الحياة المادية من ملاذ وشهوات ولأحسست بعروج نفسك هذه إلى عوالم القدس، حيث الراحة المطلقة والدعة المتناهية والفرح الكثير وارتياح لا يضاهي ما نحن فيه من ارتياح مادي بحال، وصرت ترى أنك تخف ساعة بعد ساعة عما أثقل كاهلك من ذنوب ذهبت لذاتها وأقامت تبعاتها. وإنك لترى جلياً في ذلك الوقت: حيث يسود العالم صمت وهدوء كيف يُقذف في قلبك من أنوار المعارف الإلهية، ما يزيل عنك الشكوك ووساوس الشيطان، أنوار توصلك إلى اليقين بل إلى حق اليقين: فـ(العلم نور يُقذفه الله في قلب من يشاء) كما جاء في حديث مشهور.

وإنك لو تلوت القرآن في وقت كهذا، في وقت هجعت فيه العيون في وقت فتح الله على العباد أبواب رحمته، لألهمت معاني سامية رفيعة، ما كنت لتتوصل اليهافي غير هذا الوقت ولأحطت بفلسفة هذا الكون والحياة، فلسفة لا يصل اليها فيلسوف عاش في أحضان المادية الهوجاء، فلسفة نيرة شرحها الله تعالى في كتاب ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾. بقوله جل من قائل: ﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب﴾.

فهذا العلم هو علم يترشح بإذن الله من نفس قد خضعت لربها وتجردت عن أدرانها، هذا العلم علم اليقين بالله وملائكته وكتبه ورسله، إنه العلم

---

(١) من كلام لعلي عليه السلام.

بالحقيقة التي يبحث عنها الانسان منذ آلاف السنين، هذا العلم هو معرفة النفس، ومعرفة النفس طريق إلى معرفة الله تعالى. فقد سألوا رسول الله (ص) كيف الطريق إلى معرفة الرب. فقال (ص): «معرفة النفس» وعن الصادق عليه السلام: «لو علم الناس ما في فضل معرفة الله ما مدوا أعينهم إلى ما متع الله به الأعداء من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها وكانت دنياهم عنده أقل مما يطأونه بأرجلهم. فليتنعموا بمعرفة الله تعالى وليتلذذوا بها تلذذ من لم يزل في روضات الجنات مع أولياء الله. إن معرفة الله أنس من كل وحشة وصاحب من كل وحدة ونور من كل ظلمة وقوة من كل ضعف وشفاء من كل سقم».

إن موضوع معرفة الله تبارك وتعالى وحالات النفس مع الله جل جلاله لموضوع هام خطير لا يمكن أن يعبر عنه تعبيراً يجلو غوره وحقيقته ما لم يدخل الانسان نفسه في هذه الحياة الروحية الرفيعة. ولعله يشبه من يريد أن يتصور للأشياء المادية بُعداً رابعاً وهو الزمان، وهو بعد لم يقطع شوطاً في الرياضيات العالية والنظرية النسبية، فان لغة الكلام لا تصلح أبداً لأن تجول في مثل هذه الأمور. وان موضوعاً عميقاً كهذا فوق متناولها، ولا يمكن للكلمات المشحونة بالصور الحسية أن تعبر عما يعنو على الحس ويسمو إلى التجريد المحض.

* * *

﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق﴾(١).

وكفى بما في القيام جوف الليل والمثول بين يدي رب العباد من تأثير قوي في سير الانسان التكاملي أمرُ الله تبارك وتعالى نبيه الكريم (ص) بقوله: ﴿يا أيها المزمل(٢) قم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً إن ناشئة الليل هي أشد وطأ (و ط ء أ) وأقوم قيلا﴾.

وقوله جل من قائل إلى الرسول الأمين (ص): ﴿وتهجد من الليل نافلة لك، عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾. فمن توخى مقاماً محموداً فليتأس

(١) سورة الحديد: ١٦

(٢) سورة المزمل.

بنبي الرحمة محمد (ص). وهكذا يمتدح الله تعالى المستغفرين بالأسحار بقوله: ﴿ان المتقين في جنات وعيون، آخذين ما آتاهم ربهم أنهم كانوا قبل ذلك محسنين كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾[1].

وبقوله: ﴿تتجافى[2] جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون﴾[3] وبقوله: ﴿الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار﴾[4].

* * *

وقد يستغرب البعض من ذكري صلاة الليل في ظرف لا يصلي فيه الفرائض كثير من الشبان المثقفين. ولكن هذا الشاب المصلي لو لم يكن له رادع في أوساط أوربا وأمريكا عن الولوج في الشهوات لترك الصلاة شيئاً فشيئاً وضعف إيمانه بصورة تدريجية ولعله يصبح بعد قليل من امستهزئين بالمقدسات. ولكن لو تسلح بسلاح يمنعه عن الولوج في المحرمات وهو القيام جوف الليل بتضرع بين يدي رب العباد لا تؤثر فيه الخلاعة وفسوق الفاسقين، فيرجع إلى وطنه ثابت العقيدة، متمسكاً بالمبدأ الاسلامي القويم ذلك لأن قوة (الايمان) تتناسب مع درجة ضبط النفس عن المحارم. وقال علي عليه السلام: «وأغلب الناس من تغلب على هواه». وان الايمان ليزول وترد على الانسان الشبهات بقدر ولوجه في المحارم. ﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾[5]. يقول علي (ع): «من قارف ذنباً فارقه عقل لم يعد إليه أبداً». وعن رسول الله (ص): «اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء، فان أول فتنة بني إسرائيل كانت من قبل النساء».

وروي أن الشيطان قال لموسى (ع): «لا تخل بامرأة لا تحل لك، فانه ما

(١) سورة الذاريات: ١٥ ـ ١٩.
(٢) تتجافى: ترتفع.
(٣) سورة ألم ـ السجدة: ١٦.
(٤) سورة آل عمران: ١٧.
(٥) سورة يونس: ٣٤.

خلا رجل بامرأة لا تحل له إلا كنت صاحبه دون اصحابي حتى أفتنه بها».

وعن رسول الله (ص): «لكل عضو من أعضاء بني آدم حظ من الزنا فالعينان تزنيان وزناهما النظر». وقال أيضاً: «لا تدخلوا على المغيبات التي غاب عنها زوجها، فان الشيطان يجري من أحدكم مجرى الدم». وقال عيسى (ع): «إياكم والنظرة، فانها تزرع في القلب شهوة، وكفى بها فتنة» وفي حديث نبوي: «المقيم على الزنا كعابد وثن». وفي حديث آخر: «إذا زنى الرجل خرج منه الايمان، فكان عليه كالظلة، فإذا أقلع رجع إليه الايمان».

نعم قد أصبحنا في زمان لا يستطيع الشاب أن يبقى محتفظاً بتقواه إلا بعصمة من الله تعالى. وما من شيء يعصم الشاب من الانزلاق في بيئات يكثر فيها الفحشاء صباح مساء وفي كل حين في شوارعها وأسواقها وغاباتها وعلى ضفاف الأنهر وسواحل البحار ويشجع المنكر في كثير من كتبها ومجلاتها وجرائدها ومناظرها وحدائقها العامة إلا المواظبة على صلاة الليل. ففي حياة الحيوان للدميري عن الرسول (ص): «يأتي على أمتي زمان يردون المساجد على المياثر[1] نساؤهم كاسيات عاريات. رؤوسهن كأسنمة الابل البخت، العنوهن فإنهن ملعونات».

وفي حديث آخر عن علي (ع): «يظهر في آخر الزمان واقتراب الساعة وهو شر الأزمنة نسوة كاشفات عاريات متبرجات، من الدين خارجات، داخلات في الفتن، مائلات إلى الشهوات، مسرعات إلى اللذات، مستحلات للمحرمات، في جهنم داخلات».

وقد شكا لي شاب جامعي قبل حوالي أربعين عاماً، أنه ابتلي بكبيرة من الكبائر، ولا يقوى على التخلي منها وقد أثرت في صحته كثيراً. فقلت له عليك بصلاة الليل. فسألني عن كيفيتها. فقلت له: أنها بسيطة جداً إنما هي ١١ ركعة، تصلى بعد منتصف الليل. وكلما كان قريباً من السحر كان أفضل. وللشاب أن يصليها قبل المنام إذا علم أنه لا يقوى على النهوض قبيل الفجر. وله أن يقضيها في النهار إذا لم يوفق لأدائها في الليل. ففي ذلك الأجر الكثير.

---

(١) جمع الميثرة: شيء كالمرفقة أو المخدة يجعل على السرج.

وهذه الصلاة تؤثر كثيراً في كف النفس عن المحرمات وفي جلب الرزق. وكان رسول الله (ص) مأموراً بأدائها طوال حياته.

ينوي: أصلي ركعتي النافلة قربة إلى الله تعالى. يصليها كصلاة الصبح وهكذا أربع مرات. فيكون قد صلى ٨ ركعات (وله أن لا يقرأ السورة إذا شاء).

ثم ينوي، فيقول: أصلي ركعتي الشفع قربة إلى الله تعالى.

ثم ينوي، فيقول: أصلي ركعة الوتر قربة إلى الله تعالى. فإذا رفع يده للقنوت قال في قنوته: ٧٠ مرة: استغفر الله ربي وأتوب اليه. ويستحب أن يقول ٧ مرات: هذا مقام العائذ بك من النار وأن يستغفر لأربعين مؤمناً. وان يقول بعد ذلك ٣٠٠ مرة العفو العفو. وان يقول بعد ذلك: رب اغفر لي وارحمني وتب علي، أنك أنت التواب الغفور الرحيم. ويستحب أن يقول في قنوته أيضاً: «رب اسأت وظلمت نفسي وبئس ما صنعت، وهذه يداي يا رب جزاءاً بما كسبت وهذه رقبتي خاضعة لما أتيت، وها أنا ذا بين يديك، فخذ لنفسك من نفسي الرضا حتى ترضى، لك العتبى، لا أعود».

فجاءني الشاب الجامعي بعد اسبوع قائلاً: رأيت شيئاً عجيباً، فقلت له: وما الذي رأيت؟

قال: رأيت كأن قوة سحرية عجيبة تمنعني عن ارتكاب المحرم. فلم أرتكبه!.

ثم جاءني بعد شهر وشكرني على تعليمي إياه صلاة الليل. وهكذا صلحت سريرته وتقدمت صحته ونجح في الامتحانات الجامعية.

* * *

فصلاة الليل تنير القلب وتبعد الشيطان وتقوي الايمان. فقد سئل علي بن الحسين(ع): ما بال المتهجدين بالليل من أحسن الناس وجهاً. قال: «إنهم خلوا بربهم، فكساهم من نوره».

وعن أبي عبد الله (ع): «صلاة الليل تحسن الوجه وتحسن الخلق وتطيب الريح وتدر الرزق وتقضي الدين وتذهب الهم وتجلو البصر» وفي مجمع البيان

عن النبي (ص) قال: «إذا أيقظ الرجل أهله وصليا من الليل كتبا من الذاكرين الله والذاكرات».

وعن علي (ع): «صلاة الليل مصحة للبدن ومرضاة للرب عز وجل وتعرض للرحمة وتمسك بأخلاق النبيين».

وقد قال رسول الله (ص): «ما اتخذ الله ابراهيم (ع) خليلاً إلا بإطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام».

وعن الصادق (ع): «إن العبد إذا تخلى بسيده في جوف الليل المظلم وناجاه أثبت الله النور في قلبه، فإذا قال: يا رب يا رب. ناداه الجليل جل جلاله: لبيك عبدي، سلني، اعطك، توكل علي أكفك... ثم يقول جل جلاله لملائكته: «أنظروا إلى عبدي، فقد تخلى بي في جوف هذا الليل المظلم والبطالون لاهون والغافلون نيام، اشهدوا أني قد غفرت له».

وعن الصادق (ع): «إن من روح الله ثلاثة: التهجد بالليل وإفطار الصائم ولقاء الاخوان».

وقد ورد أدعية عدة عن الأئمة عليهم السلام يناجي بها العبد ربه، مسطورة في كتب الأدعية. منها مناجاة التائبين لمولانا وإمامنا علي بن الحسين عليهما السلام وكذلك مناجاة الشاكين ومناجاة الخائفين ومناجاة الراجين ومناجاة الراغبين ومناجاة الشاكرين ومناجاة المطيعين ومناجاة العارفين[1] ومناجاة الذاكرين ومناجاة المعتصمين ومناجاة الزاهدين ومناجاة المريدين ومناجاة المتوسلين ومناجاة المفتقرين. فطوبى لمن وفق أن يناجي بها ربه ليرى كيف يتقرب إلى الله تعالى وذلك الفرح النفسي وتلك الحالات القدسية التي تجلُّ عن الوصف والتعريف.

---

(١) «إلهي قصرت الألسن عن بلوغ ثنائك كما يليق بجلالك وعجزت العقول عن إدراك كنه جمالك وانحسرت الأبصار دون النظر إلى سبحات وجهك ولم تجعل للخلق طريقاً إلى معرفتك إلا بالعجز عن معرفتك. إلهي فاجعلنا من الذين ترسخت أشجار الشوق اليك في حدائق صدورهم، وأخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم..».

يقول علي بن الحسين (ع) في مناجاة المخبتين: «إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلاً، ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حولا». إلى أن يقول: «أللهم اجعلنا ممن دأبهم الارتياح اليك والحنين ودهرهم الزفرة والأنين، جباههم ساجدة لعظمتك وعيونهم ساهرة في خدمتك ودموعهم سائلة من خشيتك وقلوبهم متعلقة بمحبتك...».

وانظروا كيف يخاطب علي (ع) ربه: «إلهي، كفى بي عزاً أن أكون لك عبداً وكفى بي فخراً أن تكون لي رباً، أنت كما أحب، فاجعلني كما تحب».

ومن مناجاة علي عليه السلام:

لك الحمد يا ذا الجود والمجد والعلى	تباركت تعطي من تشاء وتمنع
إلهي وخلّاقي وحرزي وموئلي	اليك لدى الأعسار واليسر أفزع
إلهي لئن أعطيت نفسي سؤلها	فها أنا في روض الندامة ارتع
إلهي أذقني برد عفوك يوم لا	بنون ولا مال هنالك ينفع
إلهي إذا لم تعف عن غير محسن	فمن لمسيء بالهوى يتمتع
إلهي ينحي ذكر طولك لوعتي	وذكر الخطايا العين مني يدّمع
إلهي حليف الحب في الليل ساهر	يناجي ويدعو والمغفل يهجع

إن هذه المناجاة بصوت رخيم خافت، بصوت ملؤه الحزن والفرح، حزن على ما فرط العبد في جنب الله وقدم من ذنوب، وفرح لهذا التوفيق العظيم وهو المثول بين يدي رب العباد والاستغفار، لتضفي على النفس الانسانية من الحبور والشغف والارتياح ما لا يمكن وصفه بهذه المقاييس المادية الحالكة في عالم الناسوت، أنه سرور لا يقاس بما يصيب الانسان المسكين من سرور تسافلي في مجالس الأنس والطرب بما فيها من موسيقى وأوركسترا، مهما كان هذا الموسيقي ساحراً أخاذاً للنفوس، ذلك لأن النفس مهما كانت متسافلة تؤنب الفرد بعد الفراغ من هذه المجالس وتوبخه. فإن الله تعالى قد أودع فيها شعوراً يدرك معه أصول المحرمات وأصول الحسنات على حد قوله جل من قائل:

﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾[1] وفي آية أخرى: ﴿وهديناه النجدين﴾[2].

إنها مناجاة يشعر الانسان معها كأنه يتطهر ثانية بعد ثانية ويتقرب إلى مقامات القدس آناً بعد آن. لا سيما إذا تخللها شيء من الدموع فقد جاء في الحديث عن النبي (ص):

«من بكى من ذنب غفر له، ومن بكى من خوف النار أعاذه الله منها، ومن بكى شوقاً إلى الجنة أسكنه الله فيها وكتب له أمان من الفزع الأكبر، ومن بكى من خشية الله حشره الله مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً».

وعن كتاب الغايات عن أبي عبد الله (ع) قال: قلت له: أخبرني جعلت فداك، أيّ ساعة يكون العبد أقرب إلى الله والله منه قريب. قال: »إذا قام في آخر الليل والعيون هادئة فيمشي إلى وضوئه حتى يتوضأ بأسبغ وضوء. ثم يجيء حتى يقوم في مسجده، فيوجه وجهه إلى الله. ويصفّ قدميه ويرفع صوته ويكبر، ويفتتح الصلاة، فيقرأ أجزاء، ويصلي ركعتين ويقوم ليعيد صلاته، ناداه منادٍ من عنان السماء، عن يمين العرش: «أيها العبد المنادي ربه، إن البر لينشر على رأسك من عنان السماء. والملائكة لمحيطة بك من لدن قدميك إلى عنان السماء. والله ينادي عبدي لو تعلم من تناجي إذن ما انفتلت».

وقد روي: «أن البيوت التي يصلي فيها بالليل ويتلى فيها القرآن، تضيء لأهل السماء كما يضيء الكوكب الدري لأهل الأرض».

وقال رسول الله (ص): «إن لله تعالى منادياً ينادي في السحر: هل من داع فأجيبه، هل من مستغفر فأغفر له، هل من طالب فأعطيه».

فطوبى لنفوس انقطعت إلى الله تعالى جوف الليل فنالت من الزلفى

---

(١) سورة الشمس: ٧ ـ ٨.
(٢) سورة البلد: ١٠.

والقربى ما يتحقق به العبودية والتخلق بالأخلاق التي يرتضيها الله تعالى لعباده، فأصبحت أنواراً يستضاء بها، ونبراساً للحق والواقع. وطوبى لنفوس وفقت إلى المناجاة خاضعة أمام عظمة الله التي لا تتناهى ونالت من الفيوضات الالهية ما لا يمكن وصفه. ففي المناجاة انجذاب نحو المبدأ الأعلى وخروج عن حضيض المادة إلى عوالم القدس.

فقد ذكر لي شاب جامعي أنه كان قد ترك صلاته وتسبيحه، وتأثر بالحضارةالمادية البحتة، حتى اتفق أنه بات ذات ليلة في قرية نائية، فسمع قبيل الفجر صوتاً رخيماً من أعلى منارة لجامع قريب يناجي فيها عبد من عباد الله ربه، ويعدد ما هو فيه من خطايا وذنوب ويرجو رحمة ربه تأثر بهذا الصوت الملكوتي، فرجع إلى صلاته وتسبيحه وأعمال صالحات.

* * *

ومن المستحب أن يجهد من يصلي صلاة الليل نفسه لتخرج من عينيه دمعة هي إمارة الحب والخشية والانجذاب إلى عوالم القدس. فقد جاء في الحديث: «البكاء من خشية الله مفتاح الرحمة وعلامة القبول وباب الإجابة». وقد قال الصادق (ع): «إذا اقشعر جلدك ودمعت عيناك ووجل قلبك فدونك دونك، فقد قصد قصدك».

وقد روي: «أن بين الجنة والنار عقبة لا يجوزها إلا البكاؤون من خشية الله».

وقال الصادق (ع): «كل عين باكية يوم القيامة إلا ثلاثة أعين: عين غضت عن محارم الله وعين سهرت في طاعة الله وعين بكت في جوف الليل من خشية الله».

ليس هذا النوع من البكاء بكاءاً يورث الذل والمسكنة، انه سرور محض وعروج إلى ساحات القدس وتطهير للنفس من كل رجس وخبث ومن ذمائم الأخلاق. أنه تزكية للنفوس وخروج عن الادران، فإن أقرب ما يكون العبد إلى الله المتعال حال كونه ساجداً يبكي. كما في مؤدى حديث.

وقد روى أبو حمزة عن أبي جعفر (ع): ما من قطرة أحب إلى الله من قطرة دمع في سواد الليل مخافة من الله لا يراد بها غيره.

وقد أوحى الله إلى موسى على نبينا وآله وعليه السلام: «إن عبادي لم يتقربوا إليّ بشيء أحب إليّ من ثلاث خصال». قال موسى: يا رب وما هن؟... قال يا موسى: «الزهد في الدنيا والورع عن المعاصي والبكاء من خشيتي...». قال موسى: يا رب، فما لمن صنع ذا؟ فأوحى الله عز وجل إليه: «يا موسى، أما الزاهدون في الدنيا ففي الجنة، وأما البكاؤون من خشيتي ففي الرفيع الأعلى لا يشاركهم فيه أحد، وأما الورعون عن معاصي فاني أفتش الناس ولا أفتشهم».

وإن البكاء من خوف الله يؤدي إلى معرفة الله وكسب مرضاته. فقد خاطب إبراهيم (ع) ربه قائلاً: «إلهي ما لعبد بلّ وجهه من الدموع من مخافتك؟ قال تعالى: جزاؤه معرفتي ورضواني يوم القيامة».

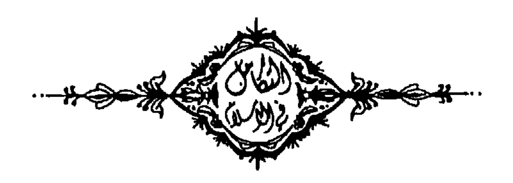
كما أن البكاء مكفر للذنوب، فقد قال الباقر (ع): «ما اغرورقت عين بمائها من خشية الله إلا حرّم الله وجه صاحبها على النار فإن سالت على الخدين دموعه لم يرهق وجهه قتر ولا ذلة، وما من شيء إلا وله جزاء إلا الدمعة، فإن الله تعالى يكفر بها بحور الخطايا...» إلى آخر الحديث.

* * *

وإني إذ أختم هذا المقال أسأله تعالى أن يوفق شبابنا الجامعيين وغيرهم أينما كانوا في البلاد الاسلامية وغيرها أن يواظبوا على صلاة الليل ولو قبل منامهم أو بقضائها في النهار وأن يناجوا ربهم فإن دمعة تنسكب على وجوههم تدفع عنهم مضلات الفتن وتعصمهم عن الانزلاق في أحضان المادية الهوجاء وتنجيهم عن الانجراف في هذا السيل الجارف من النزعات المضلة وتنقذهم من الويل والثبور في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. فقد ثبت أنه لا يحفظ إيمان الفرد شيء في هذا الجو المدلهم بالشهوات الجو الجامعي وغير الجامعي إلا المواظبة على بعض المستحبات: كصلاة الليل، وصلاة جعفر الطيار في يوم الجمعة وبعض الزيارات والأدعية فليجرب المجربون.

﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾.

﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين﴾[١].



(١) سورة آل عمران: ١٣٣ - ١٣٦.

المدرسة الاسلامية

المدرسة الاسلامية هي مدرسة تجعل هدفها الوحيد توجيه طلابها إلى توحيد الله تعالى وتطبيق تعاليم الاسلام والتربية الاسلامية الحقة.

فالطالب عندما يدخل هذه المدرسة يرى قطعاً قد كتب عليها: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. «إن الدين عند الله الاسلام» ﴿ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾. يرى طلاباً متخلقين بأخلاق إسلامية، فلا كذب ولا خديعة ولا غش، بل يجدهم متآخين، متراحمين فيما بينهم، عملاً بهذا الحديث: «الخلق كلهم عيال الله، فأقربهم إلى الله أحبهم لعلياله» وهم مصداق هذه الآية: ﴿إنما المؤمنون اخوة﴾.

يرى المدرسة في غاية النظافة والجمال. عملاً بالحديث النبوي القائل: «النظافة من الايمان». والطلاب متعاونون فيما بينهم، يعلم بعضهم البعض وكل يحب التقدم لصديقه، عملاً بالحديث النبوي: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه». فلا حسد ولا تباغض ولا تطاحن، بل حياة كلها دعة وطمأنينة وهناء. ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾.

يرى الطلاب جادين في دروسهم مجتهدين، ذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿وأن ليس للانسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى﴾.

ثم يرى أبدان الطلاب سالمة وهم يعملون في تقوية أبدانهم برياضات خاصة، عملاً بهذا الحديث: «إن لبدنك عليك حقاً» وتحقيقاً لأمر الله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾.

فإذا ذهبوا إلى بيوتهم، سلموا على آبائهم وأمهاتهم، وقبلوا أيديهم وقاموا

بمساعدتهم وخدمتهم في شؤون البيت وما يأمرونهم به، فهم يطيعون آباءهم وأمهاتهم إطاعة تامة لعلمهم أن: «الجنة تحت أقدام الأمهات».

يرى أن المعلم كلما شرح موضوعاً عن الحيوان أو النبات أو الكيمياء أو الفيزياء عزا ذلك إلى عظمة الله تعالى ودقيق صنعه، وجعل الطلاب يتوجهون بكلهم إلى الله العلي القدير، وتسبيحه تعالى وتقديسه، فهم يشاهدون عظمة الخالق في العلوم الطبيعية وما أودع الله تعالى من دقيق الصنع في هذا الكون الرحيب. وهكذا في علم الجغرافية وعلم الهيأة (وحركات النجوم)...

يرى الطلاب يتهيأون بكل جد ونشاط لحياة سعيدة حرة ويتسلحون بسلاح العصر ويتزودون من علوم مادية مفيدة لكي يستغنوا بها عن الناس أجمعين عاملين بهذا الحديث: «ليس منا من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه»...

يرى أن الطلاب بعد رجوعهم من تناول طعام الظهر، يتهيأون للصلاة، لأداء واجب الشكر تجاه الله تعالى. يراهم يتوضأون ويصطفون، وإذا بأحدهم، يؤذن بصوت عال رخيم، قائلاً: الله أكبر... الله أكبر... والطلاب كلهم يعلوهم خشوع وخضوع. فيركعون لربهم ويسجدون، منجذبين بكلهم إلى الخلاق العظيم الذي لا تحصى نعمه. ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾.

وبعد الانتهاء من هذه الصلاة المقبولة عند الله من أطفال معصومين يذهبون إلى الصفوف لتزود من علوم تجعلهم مسلحين بسلاح العصر للحصول على معيشة هنيئة وللتمكن من نصرة هذا الدين، دين الله القويم، تجاه تيارات الفكر والالحاد وللقيام لبث الدعوة الاسلامية في أرجاء هذا العالم. فما أحوج هذا العالم إلى دين الفطرة: «الاسلام». إنهم يستعدون ليكونوا دعاة حقاً لدين الله في أرضه، عملاً بقوله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾.

إن طلاب هذه المدرسة يترحمون على الطيور وأنواع الحيوانات، ديدنهم الرفق والعطف إلى كل ما خلق الله تعالى عملاً بالحديث النبوي. فقد قال

صلى الله عليه وآله: «إتقوا الله في ما خولكم وفي العجم من أموالكم. قيل وما العجم؟ قال (ص): الشاة والبقر والحمام وأشباه ذلك».

إن طلاب هذه المدرسة يعملون دوماً في مساعدة الأخرين عملاً بهذا الحديث: «الله في عون المؤمن ما دام المؤمن في عون أخيه». ويقومون في قضاء حوائج الجيران لأنه قد جاء في الحديث: «ما زال يوصي رسول الله بالجار حتى ظننا أنه سيورثه».

وقد بلغهم هذا الحديث عن رسول الله (ص): «من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم». وقد بلغهم قول رسول الله (ص): «من سمع رجلاً ينادي يا للمسلمين ولم يجبه فليس بمسلم». انهم يعطون من فضول أموالهم إلى الفقراء والمساكين بصورة سرية ومع احترام وتوقير. لأن الصادق (ع) يقول: «إن الله فرض للفقراء في أموال الأغنياء ما يسعهم ولو علم أن ذلك لا يسعهم لزادهم».

وهكذا نرى أن هذه المدرسة الاسلامية تبدأ في مفتتح أعمالها (عند الاصطفاف)، بتلاوة أي من الذكر الحكيم وهكذا عند الانتهاء من الدروس عند الانصراف، وهم يمتازون عن غيرهم باستظهارهم القرآن الكريم ومعاني الكلمات وكثيراً من الأحاديث. وفي أناشيدهم تحريض لخدمة الغير والتضحية لأجل رفع لواء الاسلام عالياً في أرجاء العالم. حتى يكون الاسلام ديناً عالمياً، فلا تسمع في أرجاء العالم كله إلا من ينادي أوقات الصلاة بصوت رفيع: الله أكبر... أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمداً رسول الله...

وفي المدرسة لجان شتى، لجنة الارشاد الديني ولجنة العلوم الاجتماعية ولجنة الرياضة البدنية ولجنة النظافة ولجنة تنظيم الحدائق ولجنة البر والاحسان إلى ما هنالك من لجان مفيدة أخرى.

أما لجنة الارشاد الديني فلها اجتماعاتها الخاصة، وبرامج معينة ووظائف موزعة على الأعضاء. فكلما اجتمعت اللجنة تقرأ المقررات السابقة ويقدم كل عضو تقريراً عما قام به من أعمال ارشادية داخل المدرسة وخارجها وتوزع الأعمال على الأعضاء من جديد.

وأما لجنة البر والاحسان فتقوم كل خميس بعد الظهر بتوزيع ما تمكنت من جمعه من نقود وثياب وأحذية وأفرشة وأوان إلى ما هنالك وذلك بالذهاب إلى بيوت الأرامل والأيتام والفقراء والمساكين، فتقدم ما جمعت اليهم بكل توقير واحترام وذلك بعد أداء التحية الاسلامية: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . . .

فهنيئاً لطلاب مؤمنين يتربون في هذه المدرسة الاسلامية تربية إسلامية حقة، فيكونون قد جمعوا بين سعادة النشأتين. سعادة الدنيا ونعيم الآخرة طوبى لهم وحسن مآب . . .



اعتراف ماركسية بعجزها

يقول علماء الذرة وكبار العلماء في العلوم الطبيعية وغيرها: أنه لا يوجد في كل ما اكتشف من قوانين وخواص في عالم الطبيعة شيء يدل على عدم وجود الخالق جل جلاله، بل كلما نزداد بحثاً وكشفاً للحقائق الكونية والمعادلات والدساتير والخواص المودعة في أجزاء هذا الكون وارتباط هذه الدساتير والخواص بعضهاببعض نزداد يقيناً بالخالق جل جلاله، بإله متناه في إتقانه الخلق بدقة وحكمة فائقتين. وقد قيل قبلاً:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وهكذا يخاطبنا الله تعالى بقوله: ﴿أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾. إنه تعالى يقول: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾.

إن الماديين، اليوم، قد اتخذوا (المادة) إلهاً من دون الله وقالوا بقدم المادة وأنها تعمل بحكمة فائقة لأجل تنظيم هذا العالم وتكوينه بدساتير متقنة ومعادلات رصينة وخواص مناسبة وتدرج وتسلسل وتوالد في أوقات معينة وإيجاد ظروف ملائمة إلى ما هنالك! وقالوا إن المادة هي التي تخلق الروح والنفس والعقل وهي فعالة لما تشاء ولكنها لا تحيد عن حكمة فائقة ومنطق رصين! وهي التي تودع في مخ الانسان أسس التفكير: من تعميم وتجريد واستنتاج واستقراء وحدس وإلهام . . .

فما أعظمها من مادة خلاقة بعقل جبار يفوق عقول من كانوا على وجه البسيطة من حكماء ومكتشفين، كآينشتاين ونيوتون وافلاطون ودالامبر وبون كاره، وبركسون وغيرهم . . .

لذلك يخاطب الله تعالى هؤلاء الذين اتخذوا إلههم من مادة وأصنام وحيوان وشمس إلى ما هنالك، دون الله تعالى يخاطبهم قائلاً: ﴿أم اتخذوا من

دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[1].

فالمؤمنون بالفلسفة المادية يطلبون من أتباعهم أن يكفروا بكل شيء غير المادة، وأن يعتقدوا أن الأكوان تنشأ من هذه المادة، في دورات متسلسلة تنحل كل دورة منها في نهايتها لتعود إلى التركيب في دورة جديدة، وهكذا دواليك، ثم دواليك إلى غير انتهاء...

ويطلبون منهم أن ينتظروا النعيم المقيم على هذه الأرض، متى صحت نبوءتهم عن زوال الطبقات الاجتماعية. فإذا زالت الطبقات الاجتماعية في هذه السنة أو بعدها ببضع سنوات فتلك بدايةالفردوس الأبدي، الذي يدوم ما دامت الأرض والسماوات وتنتهي اليه أطوار التاريخ.

ولكن لم يتحقق كل ما أرادوا، فسرعان ما رجعوا عن طيشهم بعد قليل وغيروا وبدلوا، رجعوا إلى الديانة يستجدونها ويتمسحون بها واجتمع رؤساء القساوسة في حضرة زعماء المذهب الشيوعي، ليعلنوا العودة بمجلس الكنيسة إلى نظامه القديم.

* * *

رأيت من المناسب أن أنقل صورة كتاب أرسله شاب مسلم عامل بنصوص الدين من ألمانيا الشرقية، كان يحضر مع إخوانه الشباب المتدينين في مجلس ديني في الكاظمية تلقى فيه محاضراتٍ دينية، وكان يعمل مجاهداً لبث حقائق الاسلام بين الطلاب في مدرسته وخارجها، لكي نقف على الجهود التي تبذل لغرس المبادىء المادية في تلك البلاد وكيف أن هذا الشاب لتشبعه بالروح الاسلامية الطاهرة ومطالعته بعض الكتب الدينية والفلسفية يجيب ويدافع عن الحق ويعمل لأجل خدمة الدين في تشكيل جمعية إسلامية وهو في أحضان المادية الصماء.

---

(١) سورة الأنبياء: ٢٤، ٢٥.

فجدير بشبابنا وهم في بلد إسلامي أن ينهجوا نهجاً يتناسب ومسؤولياتهم تجاه دينهم ومقدساتهم وأن يعملوا مجاهدين مخلصين لأجل تشكيل جمعيات ولجان، لتثقيف الشباب تثقيفاً إسلامياً على ضوء القرآن والسنة النبوية وتعاليم أهل بيت العصمة عليهم الصلاة والسلام.

فلا يمكن أن نغرس تعاليم الاسلام في النفوس ونبرهن للعالم، على أن الاسلام هو دين العصر ودين يستجيب لكل ما يحتاجه البشر من دساتير تؤدي به إلى سعادة الدارين في جميع الحقول، من اعتقادية وعبادية وقضائية واقتصادية وإدارية وسياسية وعمرانية وأخلاقية إلى ما هنالك إلا بتشكيل لجان وجمعيات طلابية تقوم بتوزيع نشرات دينية وإلقاء خطب وترتيب دعوات خاصة ودعوات عامة وترتيب نواد إسلامية للشباب، فيها مسجد صغير، تقام فيه الصلاة. ويا حبذا لو بنيت هذه النوادي بجنب الحسينيات التي قد بنيت وتبنى من وقت إلى آخر. تؤثث هذه النوادي الاسلامية بالأثاث المناسب وما يحقق راحة الشباب وتؤسس فيها مكتبات اسلامية يقضي الشاب المسلم فيها أوقات فراغه باستماع آي من الذكر الحكيم ومحاضرات دينية ومطالعة كتب ومجلات إسلامية وإقامة الصلاة والاشتراك في اجتماعات اللجان والمذاكرة في ما يجب أن يقام به لبث الدعوة الاسلامية ونجاحها بين الشباب في العراق وخارجه وإرسال وفود من الشباب وغيرهم إلى القرى والأرياف لتعليم الاسلام وتطبيقه في تلك الربوع بصورة عملية وتقديم تقارير عما قاموا به خلال أسبوع واحد أو شهر واحد، ثم الاتصال بالمدارس لالقاء محاضرات على الطلاب والعمل لأجل إقامة الصلاة بين جدران المدرسة إلى ما هنالك. أنه تعالى يقول: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين﴾.

* * *

إن هذا الشاب المؤمن الغيور على دينه يقول:

«اننا شكلنا جمعية إسلامية في ألمانيا الشرقية وسنعمل إن شاء الله على دمجها بالجمعية الاسلامية في ألمانيا الغربية، ثم نتصل بالجمعيتين الاسلاميتين في انكلترا والنمسا، لنّكون من جميع ذلك اتحاداً عاماً. ولا يخفى ما في ذلك من أثر في إطلاع الرأي الأوربي العام على التعاليم الاسلامية القويمة ونظرته

إلى الكون والحياة خاصة، لا سيما وان الأوروبيين شديدو الرغبة في حب الاستطلاع على الاسلام، ذلك لأن الاسلام يمثل ديناً رئيسياً في العالم أجمع».

«أدرس كما تعلمون هنا (التخطيط الاقتصادي). إلا أن ذلك لا يعني سوى: (الماركسية ـ اللينينية)، و(المادية الديالكتيكية)، والاقتصاد السياسي، ولا يخرج ذلك أبداً عن نطاق. قال: لينين، وقال ماركس، وانكلز... وإذا ناقشت أو طرحت رأياً آخر، أو سألت سؤالاً يدل على أنك لا تصدق بذلك، فإن ذلك يعني أنك تحتاج (إلى مراقبة أشد) وإلى اجتماعات معك أكثر»[1].

«المقدمة: إن لدينا أربعة طرق للدراسة»:

«١ ـ المحاضرات التي يلقيها البروفسور أوالدكتور في قاعات كبيرة تحوي ما لا يقل عن مائتي طالب. وهنا تلقى المحاضرة دون مناقشة أو سؤال أو اعتراض أو شيء آخر. إلا أننا نكتب عن ذلك ملاحظات في دفتر خاص وهذا ما يسمى: بـ(فورليزونك Vorlessung) ، تستغرق هذه عادة ساعتين، تتخللها فرصة واحدة أمدها ١٥ دقيقة».

«٢ ـ ما يسمى باجتماع الزمنار: Seminar ، وفيه ينبغي أن يسأل الطلبة

---

(١) ان الله تعالى يقول: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾. ويقول أيضاً: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ وفي آية أخرى: ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾.

فالاسلام لا يفرض تعاليمه على البشر فرضاً ولا يجبرهم على القبول جبراً، وإنما يخاطب العقل الفطري على ضوء المنطق الصحيح ويجعل العقل معياراً للقبول ويفسح المجال للنقاش والجدل بالتي هي أحسن. وكم من نقاش حدث بين الزنادقة والامام الصادق عليه أفضل الصلاة والسلام وكذا بين الملاحدة والامام علي بن موسى الرضا عليهما السلام.

ليس الاسلام بدين يقول: كن أعمى حتى تبصر الحق وكن أصم حتى تسمع الواقع. كما يصنع الماركسيون ومن يدعي النبوة زوراً وبهتاناً. وهذا ديدن من تعوزه الحجة وينقصه الدليل، ضغط ومراقبة شديدة وتجسس وسجن وتبعيد وتشريد وقتل وإبادة!..

عن مدى فهمهم للمادة وعن آرائهم بها، وعما إذا كان لديهم رأي آخر مناقض لذلك. إلا أن هذا لا يحدث بصورة عملية. إذ أن الطلبة الألمان قد اعتادوا على تقبل المادة دون مناقشة أو تمحيص. ثم إنهم يخافون إن ناقشوا، أن يؤثر ذلك على درجاتهم وعلى نظرات الأساتذة اليهم، وأنا حسب التنظيم الدراسي، مع كروب (جماعة) يتكون فقط من طلبة الألمان بينما أنا الوحيد أجنبي بينهم».

«وفي أول اجتماع لنا قدمت الأستاذة مقدمة، قائلة: إنهم يرومون تربية الطلبة اشتراكياً كيما يتكون لهم كادر (ملاك)[1] في المستقبل يخدم الحكومة عن وعي. وانهم سوف لا، ولن يدرسونا أي نظام أو مبدأ آخر لئلا تشوب الفكرة الاشتراكية من ذلك شائبة».

«أما عن الرأسمالية، فسوف لا ندرس إلا نقاط النقد التي ضرب ماركس على وترها... ثم استمرت في شرح الموضوع في ألمانيا وفي المقارنات بين الدولتين الألمانيتين».

«وملاحظتي على ذلك، أنني أتمكن من أن أقول: إن معظم بل جل دراستنا عن ذلك: كيف أن ألمانيا الغربية رأسماليةوإن الشرقيةاشتراكية وتستند إلى المعسكر الاشتراكي الجبار وعلى رأسه الاتحاد السوفيتي، وأنها لا تخاف ألمانيا الغربية التي سلحها حلف شمالي الأطلسي والرأسمالي الأمريكي».

«إن كان هذا صحيحاً أولاً، فأمر لا يهمني كما تهمني الدراسة، ان هذا لا يعطينا تجارب ومعارف إلا في حقل ضيق جداً، حين أنه يشغل أكثر من نصف دراستنا».

«وهكذا بدأ (الزمنار Seminar) الأول، وبدأنا نناقش المادية الديالكتيكية. فشرحت الأستاذة كيف أن العالم ينقسم إلى معسكرين من المفكرين: ماديين

---

(١) أي دخولهم في ملاك الدولة في عداد الموظفين.

وخياليين: Materialistes, Idealistes ثم هاجمت الكنيسة[1] لأكثر من ربع

---

(١) قد تكون الأستاذة محقة في مهاجمتها الكنيسة، فان الدكتور: (وولتر أوسكار لندبرج) أستاذ الفسلجة والكيمياء يقول: «إن جميع المنظمات الدينية المسيحية تبذل محاولات لجعل الناس يعتقدون منذ طفولتهم في إله هو على صورة انسان! بدلاً من الاعتقاد بأن الانسان قد خلق خليفة لله على الأرض على حد قوله تعالى: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف في الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم، إن ربك سريع الحساب وانه لغفور رحيم﴾... (سورة الأنعام: ١٦٥). وعندما تنمو العقول بعد ذلك وتتدرب على استخدام الطريقة العلمية، فإن تلك الصورة التي تعلموها منذ الصغر لا يمكن أن تنسجم مع أسلوبهم في التفكير أو أي منطق مقبول، وأخيراً عندما تفشل جميع المحاولات بين تلك الأفكار الدينية القديمة وبين مقتضيات المنطق والتفكير العلمي، نجد هؤلاء المفكرين يتخلصون من الصراع بنبذ فكرة الله كلية، وعندما يصلون إلى هذه المرحلة ويظنون أنهم قد تخلصوا من أوهام الدين وما ترتب عليها من نتائج نفسية، لا يحبون العودة إلى التفكير في هذه الموضوعات، بل يقاومون قبول أية فكرة جديدة تتصل بهذا الموضوع وتدور حول وجود الله».

ولكن الدكتور (وولتر)، قد فاته أن النفس الزكية التي لم تلج في الموبقات وبقيت نقية طاهرة أو وفقت إلى توبة واستغفار بعد التلوث: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ تصل بالفطرة إلى معرفة صحيحة عن الله تعالى فتصحح انطباعاته الخرافية بإلهام من الله تعالى وترجع إلى الفطرة من تقديس الله تعالى وتعظيمه وإطاعته، ولا تنبذ الدين. إنما ينبذ الدين من ربته المراقص ودور الخمور وتعاطي الربا ولحم الخنزير. وهم الأكثرية الساحقة في الغرب والشرق.

نعم، علينا أن نقول، ليس في الاسلام من (الأسرار) كما في المسيحية. تلك الأسرار التي لا يصل أحد من رجال المسيحية أنفسهم أن يدركها إدراكاً عقلياً صحيحاً، ولهذا يطلبون من أتباعهم الايمان بها دون محاولة فهمها.

كما أن فكرة (الحجاب) في المسيحية بين الله وعباده فكرة لا يستسيغها العقل. فلا حجاب بين الله وبين أحد من خلقه حتى يتحتم توسيط رجل بينه وبين خلقه. فالاسلام يرى أن لكل أحد الحق في أن يتجه إلى الله ويتوسل به ويرفع حاجته إليه. ﴿وإذا سألك عبادي عني، فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾.

وأما الشفاعة، فلا يراد منها سد الطريق بين الله وعباده، بل العبد يدعو ربه ويخلو به=

ساعة وكيف أن كل فكرة غير مادية تستخدمها الطبقة المستغلة بصورة مباشرة أو غير مباشرة، لتزيد من استغلالها للطبقة العاملة»(١).

= جاعلاً أعز خلقه اليه شفيعاً لديه. على أنه تعالى يقول: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون﴾، ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا باذنه﴾.

إن الاسلام يمنع أن يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله: ﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون﴾. ويقول عن الكتابيين: ﴿إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو، سبحانه وتعالى عما يشركون﴾.

فالمؤمن حينما يجعل أحد الأئمة شفيعاً عند الله تعالى في قضاء حاجته إنما يريد أن تقضى حاجته من جانب الله وحده دون غيره وهو يوحد الله في دعائه توحيداً ما بعده توحيد.

ثم لا يعلم معنى التثليث وسره في المسيحية وكذا القربان وتحوله إلى لحم المسيح ودمه ولا يعلم سبب اعتقادهم أن الانسان ولد وجاء إلى هذه الحياة مثقلاً بـ(الخطيئة الأصلية) التي لا يستطيع منها فكاكاً. ويعنون بها أن الانسان يولد وعليه وزر خطيئة آدم عليه السلام حين خالف أمر ربه وأكل من الشجرة التي حرمها الله عليه. حين أنه تعالى يقول: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾... ومن ثم تطلب المسيحية من الانسان أن يؤمن (بالصلب والفداء)، أي صلب (المسيح ـ الإله) تفدية للبشر مما لحقهم من هذه الخطيئة الأصلية.

هذه الخرافات وأمثالها التي ما أنزل الله بها من سلطان، لم تكن في الكتب المقدسة حين أوحى الله تعالى ما فيها إلى أنبيائه (ع)، إلا أن الكنيسة لابتعادها عن النصوص وانحرافها عما أنزل الله أوجدتها بهذا الشكل. فيأبى الشاب الذي مارس المنطق الصحيح بدراسة نظريات هندسية واشتغاله في المختبرات تقبلها، ويراها خرافات. فيمقت الدين لما يرى معتقدات تخالف الواقع إذا كان من أولئك الذين تلوثت نفوسهم بالموبقات. ولذلك من السهل جداً بث تعاليم الاسلام في أوساط الغرب العلمية لمطابقتها مع العلم الصحيح وخلوها من كل ما يخالف المنطق الصحيح ومن كل خرافة.

(١) أما الاسلام، فيهتم بالطبقة العاملة إلى أبعد حد، ولا يفرق بين العامل وصاحب =

«ثم بدأت تشرح المادة كأساس للمذهب المادي: «إن المادة كانت قبل كل شيء[1] ثم تطورت خلال ملايين السنين إلى هذا العالم. أما الانسان فقد تطور عن حيوان، وقد لعب بذلك العمل البشري دوراً كبيراً».

= المعمل إلا بالتقوى. فقد قال أبو عبد الله (ع): «من أراد أن يدخله الله في رحمته ويسكنه جنته، فليحسن خلقه وليعط النصف من نفسه، وليرحم اليتيم وليعن الضعيف وليتواضع لله الذي خلقه. (النصف: الانصاف والعدل)».

وعن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «سيد الأعمال: إنصاف الناس من نفسك ومواساة الأخ في الله وذكر الله على كل حال».

وعنه أيضاً: «من واسى الفقير من ماله وأنصف الناس من نفسه فذلكم المؤمن حقاً».

فعلى صاحب العمل أو المعمل أن يعطي العامل ما يسد به حاجته وحاجة بيته حتى بعض الكماليات منها كي يكون مصداق الحديث المتقدم.

(١) مما لا ريب فيه أن الكيمياء علم يبحث فيه عن التركيب والتغييرات التي تطرأ على المادة ويبحث فيه عن تحول المادة إلى طاقة (قوى) وتحول الطاقة إلى مادة. وإن الكيمياء من العلوم المادية والبحث عن موجد الكون عن الله تعالى بحث روحي بحت. فلا رابطة بين هذا البحث وبين الكيمياء (العلم المادي). فليس من شأن الكيمياء أن تبحث في أن هذا العالم بما فيه من نظم ثابتة ودساتير متنوعة وتدبير وحكمة فائقة قد وجد بمحض المصادفة وإن جميع ما يحدث فيه يتم بالطريقة العشوائية أو بطريقة أخرى

ولا يرى المتتبع في ما وجد من قوانين عند دراسة المادة والقوة محلاً للمصادفة، بل بعكس ذلك، يرى أن هنالك نظاماً ثابتاً وقانوناً لا تحيد عنه المادة والطاقة والتفاعلات الكيميائية والحوادث الفيزيائية ويرى أيضاً أن سلوك أي جزء من أجزاء المادة مهما صغر أو تضاءل حجمه ليس بسلوك أعمى بل يخضع لقوانين معينة دقيقة مترابطة.

ويرى أن في كثير من الأحيان يتم اكتشاف القانون قبل اكتشاف أسبابه أو فهم طريقة عمله بفترة غير طويلة من الزمن، حتى أنهم تمكنوا من العثور على كثير من الخواص الكهربائية نتيجة ما يجري من الأعمال الرياضية على المعادلات التفاضلية (في الرياضيات العالية). فأنى للمصادفة أن تضع دساتير وأن يظفر الانسان نتيجة إجراء أعمال رياضية بمكتشفات أخرى في حقل الكهرباء وغيرها. =

«وسألتها قائلاً: إنه من الأحسن لنا أن نبدأ من البداية ونتساءل من أي شيء تتكون المادة؟ ومن أي شيء تكونت وخلقت؟ وكم كان حجمها؟ وكيف بعثت لها الحياة؟».

= وإن الترتيب الدوري الذي اكتشفه (مانداليف) وهو الترتيب الذي أودعه الله تعالى في العناصر الكيميائية دليل قطعي على عدم وجود أية مصادفة هناك.

وإن اكتشاف تركيب الذرة(Atome) أثبت أن ما نشاهد من تفاعلات كيميائية وما نلاحظ من خواص تنتظم تحت قوانين خاصة وليست هنالك مصادفة عمياء. فالمصادفة لا تولد آلاف الدساتير في مختلف الحقول ثم تربط هذه الدساتير بعضها ببعض لانتظام الكون المادي ومن ثم الحياة.

فالعناصر بما فيها الملون وغير الملون والهش والصلب والخفيف والثقيل والمغناطيس وغير المغناطيس والباقي مدة والفاني بعد فترة محدودة إلى ما هنالك تابعة لنفس قانون (مانداليف) الدوري.

فمن الذي جعل هذه العناصر في غاية الاختلاف من حيث الخواص لما هنالك من حاجة ماسة لوجود وانتظام هذا الكون ثم اخضاعها لنفس القانون. هل للصدفة أن تقوم بهذا العمل المنظم المحير للألباب في ما لا يحصى من مراحل وأشياء.

ثم ماذا كانت هذه المادة في القديم؟ هل كانت طاقة ثم تكدست فكانت مادة؟ وماذا كانت هذه الطاقة، هل كهربائية موجبة أم سالبة؟ أم ماذا؟ ثم لماذا ولأي سبب وكيف تكدست تلك الطاقات الهائلة فكانت مادة... أي عناصر... ولماذا هذا الاختلاف في العناصر من حيث التركيب والخواص مع العلم أن كل ذلك لا بد من وجوده بهذا الترتيب لانتظام هذا الكون الرحيب.

ثم نحن إذا دخلنا في بناء الذرة نشاهد عالماً من الخواص والنظم والقوانين ما يحير العقول.

وهذه الذرة (ليست بذرة واحدة وعلى نمط واحد) كيف صارت أنواعاً مختلفة تحت قانون دوري، وكلها موجودة حتى اليوم: هايدروجين، هليوم، أورانيوم، الخ.

من أين جاءت الكهربائية السالبة (الكترون) وثم الكهربائية الموجبة (البروتون) وكلتاهما موجودتان في بنية الذرة مع تنافرهما.

فهل الذرة هي الله تعالى؟! فهي مركبة ومحتاجة إلى أجزائها، ثم من أين جاءت هذه الأجزاء ومن الذي ركبها بهذا التركيب المعقول تحت قوانين ثابتة معقولة. ثم لنحقق=

فتململت قليلاً، ثم أجابت: «إن المادة لا ترى ولا تفنى، إذ أنها تتشكل بأشكال مختلفة، في كل جسم شكل»، «أما من أي شيء خلقت المادة، فهذا ما لم يتوصل إليه العلم بعـد»!!... «ومن خواص المـادة أنها غير قـابلة للتصور، أي أن الانسان لا يتمكن أن يتصورها أو يلمسها».

كلاً من الأجزاء، فنراها مركبة أيضاً أم هي طاقات لا نعلم حقيقتها وهكذا دواليك، فلنتسلسل إلى الأخير فلا مناص من الاعتراف بالله الخالق المتعال، ذلك لأنا لا بد لنا إما أن نعترف بعقل جبار داخل الذرة أو أن نعترف بخالق حكيم، قد أوجد هذه الأجزاء المختلفة الخاصية والماهية ورتبها خير ترتيب، وبما أن المادة ليست من العقل في شيء إذن لا بد من الاعتراف بالصانع العظيم وهو الله تعالى.

ثم لا يعقل أن المادة توجيد نفسها بنفسها ثم تضع كل هذه الدساتير والقوانين، ذلك لأن المادة عندما تتحول إلى طاقة أو تتحول الطاقة إلى مادة، فان ذلك كله يتم طبقاً لقوانين معينة، والمادة الناتجة تخضع لنفس القوانين التي تخضع لها المادة المعروفة التي وجدت قبلها.

ومن الثابت علمياً أن الفرق بين ذرة عنصر معين كعنصـر الحديـد مثلاً وعنصر الرصاص يرجع إلى الفرق في عدد البروتونات والنيوترونات التي بالنواة وإلى عدد وطريقة تنظيم الالكترونات التي هي خارج النواة والتي تدور حول النواة بسرعة هائلة وتحت دساتير معينة وأبعاد محدودة. إذن كل ما في الكون من مواد مختلفة والتي تعد بالملايين أي كل ما في الكون من عناصر ومركبات، تتألف من جزيئات كهربائية ليست في الواقع إلا مجرد صور (أو مظاهر) من الطاقة أي طاقة الاشعاع المخزونة. إذن، المادة ليست إلا صورة من صور الاشعاع ولا يزال العلم يعمل لأجل تفهم حقيقة الطاقة والاشعاع وسوف يعمل إلى مئات السنين ولن يصل إلى حقيقة الطاقة أو القوة كما لم يصل لحد اليوم إلى حقيقة (الجاذبية) وحقيقة الروم. ﴿ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾.

لذلك يقول الفيلسوف والعالم الطبيعي الدكتور (ماريت استانـلي): اننا نحتـاج في محاولتنا لوصف الخالق (ومن يقوى على وصفه، هو كما وصف نفسه) ومعرفة صفاته إلى مصطلحات ومعانٍ تختلف اختلافاً بيناً عن تلك التي نستخدمها عندما نصف عالم الماديات. فالصفات المادية والتفسيرات الميكانيكية التي تقوم على نظريات السلوكيين تعجز أن تعيننا على تحقيق هذه الغاية، وبخاصة بعد أن تبين لنا أن هذا الكون الذي=

فابتسمت لذلك قائلة: إنكم (بصيغة الاحترام) تؤمنون بوجود شيء لا يمكن أن يتصوره أو يلمسه الانسان، ثم أنكم لا تعلمون من أي شيء يتركب هذا الشيء وكم حجمه... إن هذه هي الروحانية التي تسمونها

= نعيش فيه لا يمكن أن يكون مادة صرفاً وإنما هو مادة وروح، أو مادة وغير مادة، ولا نستطيع أن نصف الأشياء غير المادية بالأوصاف المادية وحدها».

ثم يقول الدكتور (ماريت استانلي): «كثيراً ما طلبت إلى تلاميذي أن يصفوا لي شيئاً غير مادي مثل (الفكرة)، وطلبت اليهم أن يبينوا لي التركيب الكيموي (للفكرة) وطولها بالسانتيمترات ووزنها بالغرامات ولونها وضغطها وأن يصفوا لي شكلها وصورتها. وقد عجزوا جميعاً عن تحقيق ذلك. وصار من الواضح أنه لكي نصف أمراً غير مادي لا بد من استخدام مصطلحات وأوصاف أخرى تختلف اختلافاً كبيراً عن المصطلحات التي نستخدمها في دائرة العلوم».

أنه يقول: «إننا لا نستطيع أن نسخر من هذه المشكلة أو نفر منها، فلو لم يكن هذا الكون ثنائياً (يعني المادة وغير المادة كالفكرة والروح) لاستطعنا أن نعرّف الفكرة تعريفاً مادياً صرفاً، وهو ما لم يحدث أبداً. والنظريات المادية التي قدمها ديموقراطيس وهوبز والسلوكيون، وكذلك النظريات المثالية الصرفة التي تفسر هذا الكون تفسيراً معنوياً خالصاً مما قدمه (ليبنتز) و(بيركلي) و(هيجل)، نقول إن هذه النظريات الآحادية جميعاً لا تعدو أن تكون مجرد افتراضات تقوم على التخمين ولا تستند إلى أي أساس من الوجهة التجريبية. ولا بد لأية فلسفة تحاول أن تفسر الطبيعة والكون من أن تختبر أولاً لمعرفة مدى قدرتها على تفسير سائر أنواع الحقائق والعوامل والعناصر التي يتألف منها هذا الكون أو تظهر فيه».

ويقول الفيلسوف (ماريت استانلي): «إن العلوم حقائق مختبرة، ولكنها مع ذلك تتأثر بخيال الانسان وأوهامه ومدى بعده عن الدقة في ملاحظاته وأوصافه واستنتاجاته. ونتائج العلوم مقبولة داخل هذه الحدود. فهي بذلك مقصورة على الميادين الكمية في الوصف والتنبؤ. وهي تبدأ بالاحتمالات وتنتهي بالاحتمالات كذلك وليس باليقين. ونتائج العلوم بذلك تقريبية وعرضة للأخطاء المحتملة في القياس والمقارنات ونتائجها اجتهادية وقابلة للتعديل بالاضافة والحذف وليست نهائية، وإننا نرى أن العالم عندما يصل إلى قانون أو نظرية يقول: إن هذا هو ما وصلنا إليه حتى الآن ويترك الباب مفتوحاً لما قد يستجد من التعديلات»[1] =

Idealisme: الخيال . . . إذ أننا نعتقد بوجود الله تبارك وتعالى. وهذه الصفات التي ذكرتموها هي بالضبط صفات الله. أي أنه غير قابل للتصور وغير قابل للمس أو المسك، لا يحويه مكان أو فراغ. وليس له شكل وهو خالد لا يفنى . . .

= وهناك من يقول بقدم المادة، لكن التجارب الكيميائية تدلنا على أن بعض المادة تزول وتفنى. وبعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة، فالمادة تفنى، فهي ليست بأبدية، إذن يجب أن لا تكون قديمة أو أزلية، فلها إذن بداية.

وتدل التجارب والشواهد من الكيمياء ومن علوم أخرى إن بداية المادة لم تكن بطيئة أو تدريجية، كما يقول به الماديون، بل وجدت بصورة فجائية حتى أن العلوم تستطيع أن تحد الوقت الذي نشأت فيه هذه المواد. وقد ثبت علمياً أن هذا الكون المادي لم يكن مخلوقاً ثم خلق وليس بقديم كما يظن الماديون جهلاً منهم أو مكابرة. وهو يسير تحت قوانين معينة ودساتير ثابتة أودعها الله هذا الكون: ﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكهما (أي ما أمسكهما) من أحد من بعده، انه كان حليماً غفوراً﴾. (سورة القاطر: ٤٠).

وبعد أن علمنا أن ليس لهذا العالم المادي أن يخلق نفسه ويسن لنفسه هذه القوانين الرياضية الدقيقة وهذه الخواص المتنوعة التي بها تتحقق الحياة، إذن وجب أن نؤمن أن هناك خالقاً غير مادي وهو الله تعالى. ثم أن ما نلمسه من حكمة فائقة في تنظيم هذا الكون يدلنا على أن خالقه عاقل حكيم. إلا أن العقل لا يوجد هذه الخوارق العظيمة اللانهائية ولا بد أن تكون هناك إرادة ومشيئة، إذن ثبت أن موجد هذا الكون عاقل، حكيم، مريد، فعال: ﴿كل يوم هو في شأن﴾ (سورة الرحمن: ٢٩).

وقد اعترف العلم الحديث الذي يحدد وقت حدوث المادة (أي الوقت الذي خلقها الله تعالى): أن حدوث الحياة وبدايتها حدث عجيب في تاريخ الكرة الأرضية واعترف بالعجز عن معرفة بداية (الحياة) وكيف كان ظهورها ويقول: العلم عاجز عن معرفة كل ذلك. ويعترف بشيء من التوكيد أن الحياة بدأت في المحيط الدافىء، الماء: وقد =

---

(١) قد أسهبنا القول في ما يقوله الدكتور (ماريت استانلي) في الجزء الأول من هذا الكتاب. قبل الظفر بمقاله هذا، فيرجى المراجعة.

«أما المادة التي تسبهونها (بالفواكه) مثلاً فهي غير موجودة، إذ أن شيئاً اسمه (الفواكه) لا يوجد. نعم، يوجد تفاح. فيه بعض خواص الفواكه وليس

= قال الله تعالى قبل أربعة عشر قرناً: ﴿أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً (أي متصلة) ففتقناهما، وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾.

قد حسب أحد علماء الفسلجة(Physio logiste) أن المادة السنجابية التي في تلافيف الدماغ فيها نحو: ٦٠٠٠٠٠٠ خلية وكل خلية تتألف من الوف الدقائق الظاهرة وكل دقيقة تتألف من ملايين الجواهر. ثم أن هذه الجواهر تتألف مما سيقف عليه العلم في مستقبل قريب وهكذا نرى أن العلم كلما تقدم خطوة أصبح أمام أودية من المجاهيل حتى يضطر بالاعتراف بالله الخالق المدبر القادر المتعال.

ثم نرى أن طبقات العين، فيها القرنية والعدسية، وطبقات العين المائية الزجاجية تنتهي في الشبكية وأن الطبقة الشبكية لا تزيد عن ثخن الورقة وتتألف مع ذلك من تسع طبقات، أبعدها يتألف من ثلاثة ملايين مخروط ونحو من ثلاثة ملايين اسطوانة.

فكيف يوفق المادي بين الصدفة وهذا النظام البالغ من الدقة أقصى المراحل. وإن حساب الاحتمالات ينفي إمكان وجود ملايين من الأجزاء في عضو بصورة مرتبة ومنظمة على سبيل الصدفة لتحقيق غاية معقولة. ولكن المادي لا يوافقه حساب الاحتمالات، Probabilite . وما فيه من دساتير. أو هو أقل من أن يستوعب حساب الاحتمالات أو يكتشف في موضوعه بعض القوانين. ﴿فلينظر الانسان مم خُلق﴾...

كيف يفسر المادي ما نرى من مظاهر في (الأظافر) وقل من يهتم بها. فقد كان يقول (أبقراط) مرجع الطب والحكمة منذ أكثر من الفي سنة: «إن الأظافر كالمرآة تنعكس فيها حالة الانسان الصحية». ولحد اليوم ترى أن الطبيب لو استعصى عليه تشخيص مرض فأنه يمسك بأظافر مريضه ومنها يشخص نوع المرض: فالأظافر الباهتة تدل على فقر الدم والمائلة للزرقة تؤكد مرض القلب وتقعر الأظافر يدل على اضطراب الدورة الدموية.

وقد وجد أن عدد الكائنات الحية في الغرام الواحد من التربة يصل إلى بضعة ملايين! فما أعظم هذه (المادة) التي خلقت كائناً حياً بالغاً في الصغر فوق تصور الانسان وفيه أعضاء وأجزاء ودقائق... سيظفر بها العلم في المستقبل. ولكن لن يصل العلم إلى حقيقة الحياة، إلا إذا فوض الأمر إلى موجد قادر متعال وهو الله تعالى، انه تعالى يقول: ﴿سأريكم آياتي فلا تستعجلون﴾.

كلها، نعم، يوجد برتقال، فيه قسم آخر من خواص الفواكه، وليس كلها. نعم يوجد (كمثري) فيه خواص أخرى من خواص الفواكه وليس كلها. أما شيء حسي فيه كل خواص الفواكه، فأمر لا يوجد. إلا أنه توجد كلمة (فواكه) في القاموس. على أن ذلك لا يعني وجودها في الحقيقية الواقعية. إن (مثال الفواكه) ليس مني ولست أنا الذي أتيت به، إنما الذي أتى به هو أنتم مع قولكم أن (الفواكه) في هذه الحالة تشبه المادة في حالتها. فإذا ثبت لنا عدم وجود (الفواكه) فإن ذلك يعني باعترافكم: عدم وجود المادة التي أبنتم خواصها قبل دقائق».

«هذا هو أساس دراستنا، واستمر النقاش مدة نصف ساعة أو أكثر بقليل، ثم قالت ما نصه: سيد...، (ذكرت اسم الطالب): إن لدينا برنامجاً خاصاً يجب تنفيذه خلال مدة (الزمنار Seminar)، واننا لا نريد أن ندخل البلبلة إلى أفكار طلابنا! أما إذا كان لديكم شيء من هذا القبيل، فبإمكانكم أن تذهبوا معي إلى البروفسور المختص بالمادية الديالكتيكية ونعمل اجتماعاً ثلاثياً نطلع فيه بمعزل عن الطلبة على نظرتكم الجديدة إلى الكون؟... فكان جوابي الموافقة طبعاً...

«أما الدراسات الأخرى: فتحضير مؤتمر الأحزاب الشيوعية، وأحزاب العمال في موسكو وتطبيقه على الوضع في ألمانيا، على سبيل المثال».

«والخلاصة أنا يجب أن ندرس في السنة الدراسية الأولى كتاب (رأس المال) لـ (كارل ماركس) بالألمانية بأجزائه الثلاثة، ثم كتاب الاقتصاد السياسي، ثم كتاب أسس الماركسية اللينينية، ثم كتاب (أسس الفلسفة الماركسية)، ثم كتاب: (التكنولوجي: Technologie)[1] ثم الرياضيات الاقتصادية».

«أما الشكل الدراسي الثالث: فتؤلف مجاميع من الطلبة، تدرس كل مجموعة على حدة خارج الوقت الدراسي المشترك ويعاون أفراد المجموعة بعضهم البعض».

---

(١) علم يوضح تاريخ وأصول البحث المتبعة في الفنون والصنايع.

«والطريقة الرابعة هي دراسة ذاتية داخل البيت أو المكتبات وقاعات المطالعة».

* * *

وهكذا نرى أن هذا الشباب المؤمن بإلهام رباني وإفاضات نفسه الطاهرة يحرج الأستاذة حتى لا تستطيع جواباً، فتقول وملؤها الشك والارتياب: «المادة لا ترى ولا تفنى وتتشكل بأشكال مختلفة» فإذا كانت المادة لا ترى (كما تقول الأستاذة الماركسية) فكيف علم المادي بوجودها مع أنه لا يعترف إلا بما يقع تحت إحدى حواسه الخمس التي لا يعلم كيف تكونت لديه وكيف جُهز بها.

ولعله يقول: إن العقل هوالذي دلنا على أن المادة لا ترى ولا تُلمس، فإذا كان العقل هو المدار للاعتراف بما لا يرى بالعين ولا يلمس، فبالعقل وبإرجاع السبب إلى المسبب يعترف الانسان السوي بإله مرّتب لهذا العالم أبدع ترتيب، إله تتجلى حكمته في كل جزيء من جزيئات هذا العالم، المنظور وغير المنظور. إله لا يشبه مخلوقاته في شيء، لافتقار هذه المخلوقات بما فيها المادة إلى أجزاء مختلفة لم تكن قبلاً (كما ثبت علمياً) رُتبت بتدبير فائق. فالله الذي لا يشبه مخلوقاته في شيء هو واجب الوجود وهو أزلي قديم، لم يسبقه شيء من الأشياء. وبغير هذا المنطق السليم لا يمكن أن تحل مشكلة هذا التنظيم المادي وخلق العقول والأرواح والملائكة والجن والحيوية إلى ما هنالك.

قد ثبت على أن التطور لا يحدث في الجسم عفواً ومن تلقاء نفسه، وإن العلم ليعترف أن هناك قصوراً ذاتياً في جميع الأجسام. ولولا إرادة فائقة ومشيئة ربانية لما حصل أي تطور وأية طفرة وأي تحول فجائي، ولما وجدت هذه الحيوية والخوارق التي نلمسها في أعضاء الجسم الانساني. إن التجارب في شتى العلوم تؤيد ما قلنا. إلا أن النفوس إذا تحجرت فرضت إرادتها الديكتاتورية على العلم، فأبادت العلماء، أولئك الذين خالفوها في الرأي على ضوء ما قاموا به من تجارب والمنطق الصحيح كما حدث ذلك في الاتحاد السوفيتي، مع الأسف الشديد.

تقول الماركسية: «وأما الانسان فقد تطور عن حيوان لعب بذلك العمل

البشري دوراً كبيراً جداً»، فهل لها أن تقول: كيف وجد الحيوان وكيف وجد الآميبا (الكائن الحي ذي الخلية الواحدة) بأسلوب علمي صحيح دونما مغالطة. لكنها تجيب حالاً: «إن العلم لم يصل بعد إلى مرحلة يتمكن معها من الاجابة على هذا السؤال».

فهل من المعقول التمسك بنظرية واهية وإزهاق النفوس من أجلها وهي بعد لم تتحقق علمياً.

إن العلم يؤكد بصورة قطعية: أن الحيوية إنما وجدت على وجه الأرض بإرادة الله تعالى ومشيئته، ذلك لأن التجارب تدل أن ليس في إمكان المادة أن تؤثر في نفسها وأن تكون من تلقاء نفسها نباتاً، فحيواناً فإنساناً.

إن العلم ليعترف أن الأرض كانت قطعة نارية في درجة عالية من الحرارة فهل كان بالامكان أن تعيش على سطحها خلية من الخلايا أو جرثومة من الجراثيم أو نبات أو حيوان، فماذا الهذيان؟ فالمادية هراء ما بعده هراء ودس ما بعده دس وتضليل ما بعده تضليل.

* * *

تقول الأستاذة الماركسية: «إن من خواص المادة أنها غير قابلة للتصور». فلسائل أن يسأل: كيف عرفنا أن عدم إمكان التصور من خواص المادة، فالمادة إذن ليست بشيء متصور ملموس، فهي إذن ليست بشيء يحس بالحواس الخمس ولا يمكن أن تتصور، فما هي المادة إذن؟ لعلهم يريدون أن يقولوا: إن المادة هي القوة، أو الطاقة. فإذا كانت المادة على ما يزعمون! هي القوة نفسها على ما ثبت في الفيزياء إذن: المادة، كما تؤيده التجارب، صورة من صور الطاقة: (القوى) ومظهر من مظاهر الاشعاع. فلم تبق المادية كما يفهمها الماديون، وإنما المادة كانت في الابتداء طاقات وقوى تكدست تحت نظام خاص حتى كانت هذه العناصر: (الحديد راديوم، أورانيوم..).

لقد قال (آينشتاين: (Einstein: «في الذرة طاقة كبيرة يمكن تسخيرها والافادة منها وإن المادة صورة من صور الطاقة. وإن الغرام الواحد من المادة يتحول إلى (ألف مليون مليون مليون) وحدة من وحدات الطاقة وهي

الأركث: (Erg) أو إلى ٢٥ مليون كيلوات/ساعة أي ما ثمنه ٥٥٠ ألف دينار كما قلنا سابقاً. فإذا استطاع الانسان أن يستخدم الذرة لتؤثر في الجو فيسقط مطراً حين يريد، فذلك لما أودع الله تعالى من نظام ودستور في تشكل الأمطار وحدوثها وتراكم السحب أو حدوثها عند انفلاق الذرة. فالسحب ليست إلا طاقة مكدسة في بطن الذرة، فإذا انفلقت الذرة تحررت، فأمطرت مطراً غزيراً بإذن الله تعالى على ضوء ما وضع من خواص ودساتير. فماذا الغرور؟.

«يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك، في أي صورة ما شاء ركبك كلا بل تكذبون بالدين﴾ (سورة الانفطار: ٦ - ٩).

ثم لنا أن نسأل ما هذا الاختلاف بين القوة التي تتألف منها المادة:
(١) الكترون: شحنة كهربائية موجبة. (٢) بروتون: شحنة كهربائية سالبة. (٣) نيوترون: كهربائية موجبة وكهربائية سالبة متعادلتان.

هل وجدت الكهربائية الموجبة قبلاً أم الكهربائية السالبة؟ وهو عين ما يقال في الأزواج كلها، من نبات وحيوان وإنسان... هل وجد الذكر قبلاً أم الأنثى؟.

انه تعالى يقول: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءاً﴾. وفي آية أخرى: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾. فالله يدعونا إلى التفكر في هذه المرحلة الخطيرة التي ترد النظرية المادية(Materialisme) في الصميم ولا يدع مجالاً للنقاش.

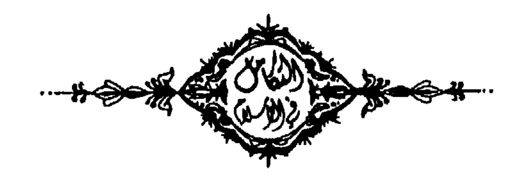
فالذي جعل بين الذكر والأنثى مودة ورحمة جعل بين قوتين مخالفتين: الكهربائية الموجبة والكهربائية السالبة بعد خلقهما مودة ورحمة وتوافقاً ووئاماً: ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾. (سورة يس: ٣٧). ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾. (سورة الذاريات: ٥٠).

فإن قلنا إن الكهربائية الموجبة كانت موجودة قبلاً، فكيف خلقت لنفسها

كهربائية سالبة وكيف أحست بهذه الحاجة لتكوين الذرة وهي أساس الموجودات المادية على اختلاف أنواعها.

فلا مفر من الاعتراف بخالق أوجد قوتين مخالفتين إما في وقت واحد (والله العالم) أو في زمنين متعاقبين... ووفق بينهما. وإن هذا التوفيق لهو أعظم دليل على وجود الله جلت عظمته. خلافاً لمنطوق نظرية الاضداد التي يتشدق بها الماديون: كارل ماركس وأتباعه... دونما تعمق أو لاغواء الناس انتصاراً للصهيونية!.

﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾. (سورة الحج: ٤٦). ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب﴾ (سورة الحج: ٣٠ ـ ٣٢).



مولد الرسول الأعظم (ص)

(علاقة الاسلام بالعلم والحياة[1])

إن نظرة بسيطة إلى هذا الكون تجعلنا نعلم أن ما خلق الله من عوالم ومخلوقات شتى على ضربين منها تابعة إلى نظم ثابتة وخواص معينة لا تتعداها ومنها ما هي مختارة، لها من الارادة في أن تفعل وأن لا تفعل، في أن تتصدى للخير أو لا تتصدى، في أن تكون مصدراً للشر أو لا تكون.

فهذه الجاذبية التي تضرب بأطنابها في هذا الكـون الرحيب والتي لهـا قوانينها ودساتيرها مؤتمرة بأمر الله تعالى لا تحيد عنها قيد شعرة (ان الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده).

وهذه الذرة التي تبلغ من الصغر بحيث لا ترى بأدق الآلات والتي لو جمع عشرة ملايين منها على شرط الكروية لا تتجاوز مليمتراً واحداً هي عالم في نفسها، فالالكترونات تدور حول المركز أي البروتونات بنظام خاص وبشكل اهليلجي بسرعة (٢٠٠٠) كم في الثانية ولا تتخلف عما رسم لها من جانب الله تعالى.

وهناك في المركز نيوتـرونات وآنتي نيـوترونـات يحكم بوجـودها العقـل الرياضي، ونظام خاص في عدد الالكترونات والبروتونات ينشـأ من ذلك اختلاف هذه العناصر التي شكلت العالم المادي، وقد عبّـأ الله تعالى طاقات في هذه الذرة لو تحررت لأفنت العالم في بضع دقائق. كل هذه تابعة إلى نظم ثابتة ودساتير معينة ليس لها أن تتحول عنها بارادتها إلى غيرها. وهكذا في عوالم النبات والحيوان، إلا هذا الانسان، فقد منَّ الله عليه بارادة جزئية

---

(١) كلمة ألقيت في حفلة ميلاد الرسول (ص)

وجعله مسؤولاً بهذه الارادة تجاه الأوامر التي بلغه اياها بواسطة سفرائه وهم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام دفعاً للفساد والافساد ولكي يأخذ هذا الانسان سيره التكاملي في هذا الكون. ذلك لأن الذي أعطى الكمال لكل شيء مادي في هذا الكون يريد بالانسان أن لا يحيد عن سنن الكمال. وهو القائل ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾. فوجب حسب هذا المنطق الطبيعي أن لا يحيد هذا الانسان عن اتباع أوامر الله تعالى في أرضه وان لا يفسد في الأرض ﴿والله لا يحب الفساد﴾ كي يقطع سيره التكاملي في هذا الكون.

وآخر هؤلاء السفراء بين خالق البشر والبشر وأكملهم هو نبينا نبي الرحمة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم. فقد بعث في وقت كانت البشرية مضطهدة تحت نير العبودية والرقية والاستبداد وعبادة الأوثان والفحشاء إلى حد بعيد، فالرسول لم يأت نتيجة تكامل اجتماعي ـ كما يقول بذلك علماء الاجتماع وإنما هو خارق لنواميس علم الاجتماع. فقد بعث في بيئة بلغت من التسافل أقصاه وهذا خير دليل أنه سفير موفد من جانب الله تعالى ليس للتكامل الاجتماعي أثر في وجوده، فقد خالف منذ صغره ما كان عليه قريش من المجون والتسافل ولم يحضر مجالسهم بل كان يفكر ويتعبد بطهارة نفس مرضية وأخلاق ملكوتية حتى سماه قومه بالأمين.

كما أن هذا الانقلاب العظيم الذي قام به نبينا محمد (ص) في حقول شتى من روحية واجتماعية واقتصادية وعسكرية وإدارية وأدبية وعلمية والذي تمّ خلال ثلاثة وعشرين عاماً لا يمكن حدوثه بالقوة البشرية العادية المحدودة فلا بد من تأييد رباني ونصر إلهي حققا هذا الانقلاب بشكل معجز.

كانت رسالة محمد (ص) تحطيماً لطاغوت الشرك بالله وطاغوت التعصب الديني ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ وطاغوت التعصب الجنسي ﴿يا أيها الناس أنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله اتقاكم﴾ وطاغوت التفرقة الاجتماعية ﴿كلكم لآدم وآدم من تراب﴾ وطاغوت الظلم والبغي والطغيان وطاغوت الرق وطاغوت الرجل طغيانه على المرأة، فقررت للمرأة حقوقها الانسانية في صورة

شريفة لا رجعة فيها ولا نكسة ﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾.

فرسالة محمد (ص) رسالة شاملة عامة تجمع بين سعادة الفرد في دنياه وآخرته، رسالة روعي فيها الجانب الروحي والجانب المادي على ضوء العقل والمنطق (لا ضرر ولا ضرار)، فالاسلام في صميمه حركة تحريرية من براثن الشرك والطبقية والبغي والتفريق العنصري وكل ما يلوث النفس الانسانية من شهوات ونزوات.

إلا أن أوروبا عارضت هذا الدين عندما أشرق نوره على أوساط الغرب أشد المعارضة وشوهت سمعة الاسلام ووصمته بالشرك وان محمداً إله يعبد، لذلك يقول أحد فلاسفة الغرب: «إن أوروبا قد ارتكبت أعظم الجرائم عندما سدت أبوابها على المسلمين الفاتحين وحرمت العالم من تعاليم هذا الدين القويم دين الاسلام، ولولا هذه المعارضة الأثيمة لرأيت العالم اليوم يوحد الله في أرضه ويطبق أوامر الله وتعاليمه التي أوحى بها إلى نبيه الكريم، فلا تطاحن ولا تباغض».

ولم تكتف أوربا بخلق الأكاذيب فحسب، بل أخذت تتهم الاسلام بأنه دين لا يساير العصر في نظمه وتعاليمه، فأملوا على شبابنا بعد أن ولجوا في أحضان المادة بما فيها من مآثم وشهوات، شبهاتٍ واتهامات ما أنزل الله بها من سلطان.

فقالوا: إن الاسلام لا يساير العلم، حين أن المسلمين ـ حسب اعتراف فلاسفة الغرب وكبار علمائهم ـ هم مؤسسو النهضة العلمية الحاضرة لأوربا، وهم مكتشفو الطريقة التجريبية التي تعرف اليوم بالطريقة البيكونية، وهم واضعو الهندسة التحليلية والتحليل الرياضي وعلم الجبر والفلك العالي، ولهم مكتشفات هامة في الحجوم والمساحات، وإن نصف أسماء النجوم في علم الفلك اليوم هي أسماء عربية وهم واضعو الاسطرلابات، وقد بنوا مراصد هامة في مختلف البلدان ولا سيما في الأندلس، وعندما أهدى الخليفة العباسي ساعة إلى شارلمان حسبوا أن فيها جنياً يحركها.

غاية ما هنالك كان الدين والتقوى يرافقان العلم ولا ينفكان عنه، فالمكتشف كان لو أشكلت عليه مسألة أو عسر عليه اكتشاف ما يريد اكتشافه توسل إلى الله وصلى ركعات وسأل الله عز وجل في حل مشكلته، وهذا مما أدى إلى أن لا يكون العلم آلة هدم وتخريب للمعتقدات والفضائل، بخلاف ما نشاهده في جامعات العالم اليوم.

وقالوا ان الاسلام يدعو إلى الكسل والانزواء، حين أن الاسلام يأمر بالعمل والجهد المتواصل بشكل لا يؤدي إلى الافساد في الأرض وإهمال النواحي الروحية والعبادية. وهو القائل: ﴿فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾. إن رسول الله (ص) قبل ذات يوم يد عامل قائلاً: «إنها يد يحبها الله» تقديراً لمقام العامل في المجتمع. وقد جاء في حديث: «إن لربك عليك حقاً ولنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً فأعط كل ذي حقٍ حقه».

وفي حديث قال رسول الله (ص): «ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته أو ترك آخرته لدنياه، بل خيركم من أخذ من هذه وهذه».

وقالوا لمَ أقر الاسلام الرق؟ الاسلام لم يقر الرق وإنما نظام الحروب في العصر الجاهلي كان يحتم ذلك والاسلام قد ألغى الرق بصورة تدريجية في جعل أحد وجوه مصروفات بيت المال عتق الرقاب. بقوله تعالى: ﴿وفي الرقاب﴾.

وقالوا إن الاسلام قام بالسيف، حين أن الاسلام كان مدافعاً عن مبدئه وان مائتي مليون في الصين وأندونيسيا والهند اسلموا بمجرد الدعوة، وهكذا أضافوا أكاذيب أخرى، الاسلام منها براء، ولا مجال لذكرها. فما على المسلمين لا سيما الشباب المؤمن إلا أن يقوموا بتطبيق قواعد الاسلام وإزاحة هذه الرواسب البعيدة عن الحق والواقع وأن يرفعوا لواء الاسلام عالياً بجهاد متواصل ليتحقق ما تنبأ به بعض علماء الغرب من جعل الاسلام ديناً عالمياً، فلا تسمع في جميع بقاع الأرض إلا: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

* * *

ليلة الميلاد(١)

ما أبهجها من ليلة وما أسعدها، أنها ليلة حافلة بالخيرات والبـركات للناس كافة، ليلة تضم بين جوانبها رجلاً عظيماً يفوق العظماء ومنقذاً للبشرية جمعاء لا كسائر المنقذين(٢).

إنها ليلة يولد في صبيحتها في بيت الله الحرام سيد الوصيين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين عليٌّ أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام.

أنىّ لانسان عادي أن يصف مَن بلغ مرتبة النبوة كمحمد (ص) أو مرتبة الامامة كعلي (ع)، إنهما من عوالم القدس، حيث ليس للمقاييس المادية أن تخطو هنالك خطوة واحدة. إنه عالم تكامـلي نفسي، ولا يمكن تفهم هذا الصُقع الشامخ من عوالم النفس بمقاييس متعارفة بشرية. لذلك يقول الغزالي، ليس للطفل أن يتفهَّم ما يقوم به فيلسوف متبحِّر من محاكمات واستنتاجات واستقراءات. وذلك أشبه شيء بمن يريد تفهم الرياضيات العالية بمقاييس الرياضيات العادية.

فليس علي (ع) من يمكن وصفه بمقاييس معلومة يفهمها الناس، وإنما شأنه شأن الأنبياء (ع)، يمكن التعرف اليه بما صدر عنه من آثار وابداع.

حقاً أنه لمن الصعوبة بمكان، بل من المستحيل أن يقوى أحد على وصف رجل يقول فيه رسول الله (ص) مخاطباً إياه:

«لو كانت السماوات قرطاساً والأشجار أقلاماً والبحار مداداً والأنس كتاباً والجن حساباً، لما أحصوا معشار فضائلك، يا علي».

أنى لرجل أن يصف علياً عليه السلام وهو الذي قال فيه رسول الله صلى

---

(١) القيت ليلة ميلاد الامام علي عليه أفضل الصلاة والسلام.

(٢) عدا نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الله عليه وآله وسلم: «لولا أني أخشى على أمتي أن تقول فيك ما قالت النصارى في المسيح لقلت فيك قولاً ما مررت بقوم إلا وأخذوا التراب من تحت قدميك يتبركون به». وهو الذي قال فيه رسول الله (ص): «من أراد أن ينظر إلى آدم في علمه وإلى نوح في عبادته وإلى إبراهيم في خلته وإلى موسى في هيبته وإلى عيسى في زهده وإلى يحيي في ورعه، فلينظر إلى علي بن أبي طالب، فإن فيه سبعين خصلةمن خصال الأنبياء».

كيف يوصف من يقول فيه رسول الله (ص) على ما يروي لنا عمر: «لو وُضع إيمان علي في كفة والسماوات والأرضون في كفة لرجح إيمان علي»....

كيف لا يكون علي كذلك وهو الذي كان يُغمى عليه من خوف الله تعالى كل ليلة مرات. وكان يكتفي بالملح أداماً، وكان يحمل على ظهره الطعام جوف الليل إلى بيوت الأرامل والفقراء. وقد طلق الدنيا ثلاثاً وهو مصداق هذه الآية: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية﴾.

فإن قوة إيمان الشخص ليتناسب مع درجة تطهير نفسه وقيامه بأعمال صالحات، ومن مثل علي في هذا المضمار؟ فحقيق أن يقول بشأنه رسول الله (ص): «برز الايمان كله إلى الشرك كله».

وقد جاء في الحديث: ﴿عبدي أطعني، اجعلك مثلي تقول للشيء كن فيكون﴾. ولذلك ظهر على يد علي عليه السلام كثير من المكرمات والمعاجز مما يحيِّر الألباب.

فنهج البلاغة كتاب حوى أصول الفلسفة الحقة عن الكون والحياة ومصير الانسان وواقعه وأصول الاقتصاد، حيث لا يضحى بالفرد على حساب المجتمع ولا بالمجتمع على حساب الفرد، حوى أسس إدارة شؤون البلاد وما يربط الشعب بالهيأة الحاكمة من حقوق، فهو كتاب فلسفي، اجتماعي، عرفاني، اقتصادي، أدبي، وفيه فصل الخطاب في كل حقل يحتاجه الانسان في سيره التكاملي.

فليس لله بعد رسول الله (ص) آية اكبر من علي (ع)، في جميع الحقول من علمية وفلسفية وغيرهما.

يسأل علي عليه السلام: عن المسافة بين السماء والارض، فيجيب (ع): دعاء مستجاب حقاً، ان هذا الجواب، آخر ما يمكن أن يقال بشأن هذا الفضاء اللانهائي الرحيب، فقد اكتشف أخيراً أن هنالك مجرات وكواكب تبعد عنا آلاف الملايين من السنين الضوئية وأنها تتباعد بعضها عن بعض بسرعة هائلة وان الكون يتسع كل يوم ولا يُعلم مدى ذلك وهو قوله تعالى: ﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون﴾. ومعلوم أنه لا يخلو مكان منه تعالى وهو القائل: «ونحن أقرب اليه من حبل الوريد». فقول علي: «دعاء مستجاب» يسري في جميع أنحاء هذا الكون الواسع الأرجاء.

ثم يُسأل صلوات الله عليه: كم بين المشرق والمغرب؟ فيجيب: «مسيرة يوم للشمس». ولم يكن ليعلم أن للشمس حركة إلا قبل حوالي ٥٠ عاماً حيث تقدمت العلوم الرياضية العالية والميكانيك السماوي والمراقب. فعلموا إن الشمس مع توابعها من عطارد وزهرة وأرض ومريخ ومُشتري وزحل وأورانوس ونبتون وبلوتو كلها تسير في الفضاء بسرعة سبعين ألف كيلومتر في الساعة بشكل لولبي نحو نجمة تسمى بالنسر الواقع. وهو قوله تعالى: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾.

يُسأل عليه السلام عن مسائل رياضية، فيجيب ارتجالاً دونما حساب وتفكير. يسأل عن عدد يقبل القسمة على ٢، ٣، ٤، ... إلى ١٠ فيقول وهو يهمز فرساً له: «إضرب أيام سنتك في أيام أسبوعك».

يُسأل عن مسائل فيزيائية، فيحلها بشكل عملي ومعلوم أن علم الفيزياء لم يكن معلوماً في الجزيرة العربية في ذلك الوقت.

يسأل عن قطر الشمس، فيجيب، ٩٠٠ في ٩٠٠ ميل بقي ٨١٠ ٠٠٠ ميل ومعلوم أن الميل: ٤٠٠٠ ذراع لرجل متوسط القامة، فلو حولنا الذراع إلى انجات فأقدام، فياردات، فأميال، لحصلنا على عين ما عليه الفلك العالي اليوم من أن قطر الشمس ٨٦٥٣٨٠ ميلاً (الميل = ١٧٦٠ ياردة).

وهكذا نرى علياً قد زق العلم زقاً، وهو القائل: «هذا لعاب رسول الله هذا ما زقني رسول الله» علمني رسول الله ألف باب من العلم ينفتح لي من كل باب ألف باب»... هذا هو تعظيم الاسلام للعلم.

يقول علي عليه السلام: «بالعلم يُعرف الله ويوحَّد». ويقول في مقام آخر: «كثرة العلم في غير طاعة الله مادة الذنوب».

لو قارنا بين هذين الحديثين لعلمنا أن العلم لا يمكن أن يكون موصلاً للحق والواقع وطريقاً للهداية ما لم يكن مقروناً بطاعة الله تعالى، ما لم يكن مماشياً مع التقوى. فإن تباعد العلم عن التقوى وصار في معزل عن تهذيب النفس، أصبح وبالاً على الفرد بل على البشرية جمعاء، كما نشاهد ذلك اليوم.

فضعف العقائد والاستهزاء بالمقدسات أو تسخيف الدين إنما هي نتيجة ثقافة عارية عن أساليب تكامل النفس وتهذيبها وتطهيرها من الدنس والرجس. ولم يكن شيوع المذاهب الباطلة من مادية ووجودية وغيرهما في أوروبا وغير أوروبا إلا نتيجة انفصال العلم عن تكامل النفس الانسانية وجعل العلم المادي وحده معبوداً يُعبد، حلالاً للمشكلات الاجتماعية والنفسية وغيرهما.

على أن عدداً يسيراً من رجال الفكر في أوروبا أخذوا ينددون بهذه الحضارة المادية التي لا تنبض إلا بشهوات ونزوات، ولا تصدر إلا عن مادية مظلمة حالكة. ولكن تيارات الشهوات الجارفة لم تدع أذناً صاغية لنداءاتهم، حتى صرنا نجابه عالماً مسلوب الفضيلة والعاطفة شأنه الطيش والبطش.

فما الذي يُرجع العالم إلى طمأنينة ودعة. إنما هو علم يمازجه التقوى، يمازجه عبادة الله في أرضه. إنما هو علم مع إيمان بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فالعالم بحاجة إلى هُداة مهديين يهدون الناس سواء السبيل، فقد قال علي عليه السلام: «أرسل رسولاً ليزيل به علتهم». فالناس مرضى والأنبياء عليهم السلام ومن بعدهم الأوصياء هم المعدلون.

ويقول علي (ع) في موضع آخر: «أرسل أنبياء ليثيروا في الناس دفائن عقولهم ويهدوهم إلى معايش تحييهم». فالأنبياء مع إتمامهم مكارم الأخلاق ليحثون الناس على تعلم شتى العلوم ويهدونهم إلى طرق اقتصادية تتحقق فيها

العدالة الاجتماعية والايثار. ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾. ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾.

فيما واجب المسلم تجاه الوضع العالمي الراهن؟ عالم يسوده الزيغ والانحراف. وأما في الوطن الاسلامي، فتيارات مختلفة تجرف عقائد شبابنا وتجعل منهم أعداء لدينهم ومقدساتهم.

فهنا واجبان خطيران: أولاً: هداية الشباب بطرق عصرية مجدية من فتح نواد اسلامية بشكل جذاب وإلقاء محاضرات عليهم وتفهيمهم أن الاسلام هو دين الحضارة الحقة وتعليمهم آداب دينهم، فالشاب المسلم يقضي أوقات فراغه في هذه النوادي لتهذيب نفسه وأخذها إلى مراتب الكمال ويتعلم كيف يرشد الناس إلى الدين القويم.

ثانياً: أن ينبري ثلة من رجالات الاسلام لتشكيل جمعية ذات فروع تأخذ على عاتقها تهيئة دعاة للاسلام من الشباب المؤمن. دعاة تسلحوا بسلاح التقوى وسلاح العلم من ديني وعصري، فيوزعون في أرجاء العالم لدعوة البشر إلى دين الاسلام تحت نظام خاص ومناهج منظمة ومسؤوليات معينة. وهكذا يستنير العالم بهداهم ويكون الاسلام دين الفطرة ديناً عالمياً كما تنبأ (برنارد شو) من قبل.

﴿والذين جاهدوا فينا لنَهدينَّهم سُبلنا وان الله لمع المحسنين﴾. فإلى العمل، إلى العمل المتواصل أدعو كل مسلم غيور.

* * *

مسألة رياضية يحلها علي عليه السلام

قال السيد الداماد في بعض مؤلفاته في كتاب قس الأنوار في الأوفاق الحروفية والعددية: كان علي بن أبي طالب عليه السلام يقول بالحروف وكان أحسن الناس، ثم نقل هذه الرواية: أن يهودياً أتاه، فقال: يا علي، أعلمني أي عدد يتصحح من الكسور التسعة جميعاً من غير كسر وكذلك من كل كسوره التسعة إلا من خمسة، فيكون له كل من الكسور التسعة مصححاً من غير كسر إلا: الثمن لربعه والربع لثمنه والسبع لسبعه والتسع لتسعه والثمن لثمنه، قال عليه السلام: إن أعلمتك تسلم؟ قال: نعم. فقال: إضرب أسبوعك في شهرك، ثم ما حصل لك في أيام سنتك، تظفر بمطلوبك. فضرب اليهودي سبعة في ثلاثين فكان المرتقى: (٢١٠)، فضرب ذلك في ثلاثمائة وستين، فكان الحاصل: (٧٥٦٠٠) فوجد بغيته، فأسلم.

حلٌّ وتوضيح: بما أنه يجب أن يكون للنصف، نصف وثلث وربع وخمس وسدس وسبع وثمن وتسع وعشر. إذن يجب أن يكون للعدد المطلوب ١/٢ × ١/٢ = ١/٤ = ١/$٢^{٢}$.

أي يجب أن يقبل العدد القسمة على ٢ × ٢ = $٢^{٢}$. ويجب أن يقبل القسمة على ٢ × ٣ لأنه يجب أن يكون للنصف ثلث أي ١/٢ × ١/٣ = ١/٦. أي يجب أن يكون للعدد سدس.

وهكذا يجب أن يكون لنصف العدد المطلوب ربع أي: ١/٢ × ١/٤ = ١/٨. فيجب أن يقبل العدد القسمة على: ٢ × ٤ = $٢^{٣}$ وعلى ٢ × ٥ وعلى ٢ × ٦ = ٢ × ٢ × ٣ أو $٢^{٢}$ × ٣.

وعلى ٢ × ٧

وعلى ٢ × ٨ = ٢ × $٢^{٣}$ = $٢^{٤}$

وعلى ٢ × ٩ = ٢ × $٣^{٢}$

وعلى $٢ \times ١٠ = ٢ \times ٢ \times ٥ = ٢^{٢} \times ٥$

وبما أنه يجب أن يكون لثلث العدد نصف وثلث وربع... وعشر فيجب أن يقبل القسمة على: $٣ \times ٢ = ٣ \times ٢$ (لأنه $١/٣ \times ١/٢ = ١/٦$)

وعلى $٣ \times ٤ = ٣ \times ٢^{٢}$

وعلى $٣ \times ٥ = ٣ \times ٥$

وعلى $٣ \times ٦ = ٣ \times ٣ \times ٢ = ٣^{٢} \times ٢$

وعلى $٣ \times ٧ = ٣ \times ٧$

وعلى $٣ \times ٨ = ٣ \times ٢^{٣}$ ب

وعلى $٣ \times ٩ = ٣ \times ٣^{٢} = ٣^{٣}$

وعلى $٣ \times ١٠ = ٣ \times ٢ \times ٥$

وبما أنه يجب أن يكون لربع العدد نصف وثلث وربع وخمس... الخ ($١/٤ \times ١/٢ = ١/٨$).

إذن وجب أن يقبل العدد القسمة:

على $٤ \times ٢ = ٢^{٢} \times ٢ = ٢^{٣}$

وعلى $٤ \times ٣ = ٢^{٢} \times ٣$

وعلى $٤ \times ٤ = ٢^{٢} \times ٢^{٢} = ٢^{٤}$ (ج)

وعلى $٤ \times ٥ = ٢^{٢} \times ٥$

وعلى $٤ \times ٦ = ٢^{٢} \times ٢ \times ٣ = ٢^{٣} \times ٣$

وعلى $٤ \times ٧ = ٢^{٢} \times ٧$

وعلى $٤ \times ٨ = ٢^{٢} \times ٢^{٣} = ٢^{٥}$

وعلى $٤ \times ٩ = ٢^{٢} \times ٣^{٢}$

وعلى $٤ \times ١٠ = ٢^{٢} \times ٢ \times ٥ = ٢^{٣} \times ٥$

وبما أنه يجب أن يكون لخمس العدد نصف وكذلك ثلث وربع وخمس... الخ. ولما كان ($١/٥ \times ١/٢ = ١/١٠$).

إذن وجب أن يقبل العدد القسمة:

على ٥×٢

وعلى ٥ × ٣
وعلى ٥ × ٤ = ٥ × $٢^{٢}$
وعلى ٥ × ٥ = $٥^{٢}$
وعلى ٥ × ٦ = ٥ × ٢ × ٣ (د)
وعلى ٥ × ٧ = ٥ × ٧
وعلى ٥ × ٨ = ٥ × $٢^{٣}$
وعلى ٥ × ٩ = ٥ × $٣^{٢}$
وعلى ٥ × ١٠ = ٥ × ٥ × ٢ = $٥^{٢}$ × ٢

وبما أنه يجب أن يكون لسدس العدد نصف وكذلك ثلث وربع وخمس... الخ.

إذن وجب أن يقبل العدد القسمة:
على ٦ × ٢ = ٢ × ٣ × ٢ = $٢^{٢}$ × ٣
وعلى ٦ × ٣ = ٢ × ٣ × ٣ = ٢ × $٣^{٢}$
وعلى ٦ × ٤ = ٢ × ٣ × $٢^{٢}$ = $٢^{٣}$ × ٣
وعلى ٦ × ٥ = ٢ × ٣ × ٥
وعلى ٦ × ٦ = ٢ × ٣ × ٢ × ٣ = $٢^{٢}$ × $٣^{٢}$
وعلى ٦ × ٧ = ٢ × ٣ × ٧
وعلى ٦ × ٨ = ٢ × ٣ × $٢^{٣}$ = $٢^{٤}$ × ٣ (هـ)
وعلى ٦ × ٩ = ٢ × ٣ × $٣^{٢}$ = ٢ × $٣^{٣}$
وعلى ٦ × ١٠ = ٢ × ٣ × ٢ × ٥ = $٢^{٢}$ × ٣ × ٥

وبما أنه يجب أن يكون لسبع العدد نصف وكذلك ثلث وربع وخمس... الخ.

إذن وجب أن يقبل العدد القسمة
على ٧ × ٢
وعلى ٧ × ٣
وعلى ٧ × ٤ = ٧ × $٢^{٢}$

وعلى ٧ × ٥ (و)

وعلى ٧ × ٦ = ٧ × ٢ × ٣

وعلى ٧ × ٧ = $٧^{٢}$

وعلى ٧ × ٨ = ٧ × $٢^{٣}$

وعلى ٧ × ٩ = ٧ × $٣^{٢}$

وعلى ٧ × ١٠ = ٧ × ٢ × ٥

وبما أنه يجب أن يكون لثمن العدد نصف وكذلك ثلث وربع وخمس... الخ.

إذن وجب أن يقبل العدد القسمة

على ٨ × ٢ = $٢^{٣}$ × ٢ = $٢^{٤}$

وعلى ٨ × ٣ = $٢^{٣}$ × ٣

وعلى ٨ × ٤ = $٢^{٣}$ × $٢^{٢}$ = $٢^{٥}$ (ز)

وعلى ٨ × ٥ = $٢^{٣}$ × ٥

وعلى ٨ × ٦ = $٢^{٣}$ × ٢ × ٣ = $٢^{٤}$ × ٣

وعلى ٨ × ٧ = $٢^{٣}$ × ٧

وعلى ٨ × ٨ = $٢^{٣}$ × $٢^{٣}$ = $٢^{٦}$

وعلى ٨ × ٩ = $٢^{٣}$ × $٣^{٢}$

وعلى ٨ × ١٠ = $٢^{٣}$ × ٢ × ٥ = $٢^{٤}$ × ٥

وبما أنه يجب أن يكون لتسع العدد نصف وكذلك ثلث وربع... الخ دون باقٍ.

إذن وجب أن يقبل العدد القسمة

على ٩ × ٢ = $٣^{٢}$ × ٢

وعلى ٩ × ٣ = $٣^{٢}$ × ٣ = $٣^{٣}$

وعلى ٩ × ٤ = $٣^{٢}$ × $٢^{٢}$

وعلى ٩ × ٥ = $٣^{٢}$ × ٥

وعلى ٩ × ٦ = $٣^{٢}$ × ٢ × ٣ = $٣^{٣}$ × ٢ (ح)

وعلى ٩ × ٧ = $٣^{٢}$ × ٧

وعلى $٩ \times ٨ = ٢^{٣} \times ٣^{٢}$

وعلى $٩ \times ٩ = ٣^{٢} \times ٣^{٢} = ٣^{٤}$

وعلى $٩ \times ١٠ = ٣^{٢} \times ٢ \times ٥$

وبما أنه يجب أن يكون لعشر العدد نصف وكذلك ثلث وربع وخمس... الخ.

إذن وجب أن يقبل العدد القسمة

على $١٠ \times ٢ = ٢ \times ٥ \times ٢ = ٢^{٢} \times ٥$

وعلى $١٠ \times ٣ = ٢ \times ٥ \times ٣$

وعلى $١٠ \times ٤ = ٢ \times ٥ \times ٢^{٢} = ٢^{٣} \times ٥$

وعلى $١٠ \times ٥ = ٢ \times ٥ \times ٥ = ٢ \times ٥^{٢}$ (ط)

وعلى $١٠ \times ٦ = ٢ \times ٥ \times ٢ \times ٣ = ٢^{٢} \times ٥ \times ٣$

وعلى $١٠ \times ٧ = ٢ \times ٥ \times ٧$

وعلى $١٠ \times ٨ = ٢ \times ٥ \times ٢^{٣} = ٥ \times ٢^{٤}$

وعلى $١٠ \times ٩ = ٢ \times ٥ \times ٣^{٢}$

وعلى $١٠ \times ١٠ = ٢ \times ٥ \times ٢ \times ٥ = ٢^{٢} \times ٥^{٢}$

فالمضاعف المشترك البسيط لجميع هذه الأعداد هو:

$٢^{٦} \times ٣^{٤} \times ٥^{٢} \times ٧^{٢} = ٦٤ \times ٨١ \times ٢٥ \times ٤٩ = ٦٣٥٠٤٠٠$

فلو رجعنا إلى حل المسألة كما في المنطوق وقمنا بالعملية الآتية: $٧ \times ٣٠ \times ٣٦٠$ (عدد أيام الأسبوع في عدد أيام الشهر في عدد أيام السنة).

$٣٠ = ٢ \times ٣ \times ٥$

$٣٦٠ = ٢^{٣} \times ٣^{٢} \times ٥$

إذن: $٧ \times ٣٠ \times ٣٦٠ = ٧ \times ٢ \times ٣ \times ٥ \times ٢^{٣} \times ٣^{٢} \times ٥$

$٧ \times ٢^{٤} \times ٣^{٣} \times ٥^{٢} = ٧٥٦٠٠$

فلا يوجد في حاصل الضرب الأخير $٢^{٦}$ أو $٢^{٣} \times ٢^{٣} = ٨ \times ٨$

فلا يكون له ثمن الثمن (كما هو منطوق المسألة)

ولا يوجد في حاصل الضرب الأخير $٩ \times ٩ = ٣^{٢} \times ٣^{٢} = ٣^{٤}$

إذن لا يكون له تسع التسع (كما في المنطوق) ولا يوجد في حاصل الضرب الأخير $٤ \times ٨ = ٢^{٢} \times ٢^{٣} = ٢^{٥} = ٢^{٣} \times ٢^{٢} = ٢^{٥}$

إذن لا يكون له ربع الثمن أو ثمن الربع (كما في المنطوق) ولا يوجد في حاصل الضرب الأخير $٧ \times ٧ = ٧^{٢}$.

إذن لا يكون له سبع السبع. (كما في المنطوق).

فطريقة الحل: أن يؤخذ المضاعف المشترك البسيط للنتائج الأخيرة، (أ)، (ب)، (ج)، (د)، (هـ)، (و)، (ز)، (ح)، (ط)، فيكون هذا المضاعف $= ٢^{٦} \times ٣^{٤} \times ٥^{٢} \times ٧^{٢}$.

وبما أنه يجب أن لا يكون للعدد المطلوب سبع السبع، $١/٧ \times ١/٧ = ١/٧^{٢}$ إذن وجب أن يكون أس ٧ في المضاعف المشترك ا لبسيط واحداً أي لا يكون هناك العامل $٧^{٢}$.

وبما أنه يجب أن لا يكون للعدد المطلوب تسع التسع أو $١/٩ \times ١/٩$ أو $١/٣^{٢} \times ١/٣^{٢} = ١/٣^{٤}$، إذن وجب أن يكون أ س ٣ في المضاعف المذكور ٣ أي يجب أن يكون العامل $٣^{٣}$.

وبما أنه يجب أن لا يكون للعددالمطلوب ربع الثمن أو $١/٤ \times ١/٨$ أو $١/٢^{٢} \times ١/٢^{٣} = ١/٢^{٥}$ إذن وجب أن ينزل أ س ٢ إلى ٤ فيكون $٢^{٤}$ في المضاعف المشترك البسيط. لأن العدد لا يقبل القسمة على $٢^{٥}$ أو لا يكون له ربع الثمن ما لم يكن أحد عوامله $٢^{٥}$ وكذا الحال في ثمن الربع $= ١/٨ \times ١/٤ = ١/٢^{٣} \times ١/٢^{٢} = ١/٢^{٥}$.

وبصورة طبيعية لا يكون للعدد المذكور: أي (٧٥٦٠٠) ثمن الثمن، ذلك لأنا نزلنا أس ٢ إلى ٤ أي جعلناه $٢^{٤}$، والعدد لا يكون له ثمن الثمن $= ١/٨ \times ١/٨ = ١/٢^{٣} \times ١/٢^{٣} = ١/٢^{٦}$ ما لم يكن فيه العامل $٢^{٦}$ وقد حذفناه بجعل الأس ٢، ٤ (أربعة).

فتكون العوامل للعدد المطلوب إيجاده كما يلي:

$$٧ \times ٢^{٤} \times ٣^{٣} \times ٥^{٢} = ٧ \times ٥ \times ٣ \times ٢ \times ٢^{٣} \times ٣^{٢} \times ٥ = ٧ \times ٥ \times ٣ \times ٢ \times ٨ \times ٩ \times ٥ = ٧ \times ٣٠ \times ٣٦٠ = ٧٥٦٠٠.$$

وهو حاصل ضرب أيام الأسبوع في أيام الشهر ثم في أيام السنة. كما قال به الامام عليه أفضل الصلاة والسلام.



ميلاد الزهراء عليها السلام[1]

ما أبهجها من ليلة، أنها ليلة يُحتفى فيها بذكرى ميلاد سيدة النساء فاطمة الزهراء سلام الله عليها. فإنها كانت قد بلغت من الكمال أوجاً قاصياً. كان يحبها رسول الله (ص) حباً جماً. فـإذا دخلت عليه قام لها وأجلسها في مجلسه، وإذا قصد سفراً كان آخر الناس عهداً به فاطمة وإذا قدم من سفر أتى المسجد فصلى فيه ركعتين ثم ثنّى بفاطمة (ع) ثم يأتي أزواجه. وهكذا كانت فاطمة عليها السلام موضع حفاوة رسول الله (ص). فقد روى كل من البخاري ومسلم والترمذي عن النبي (ص) أنه قال: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد».

ذلك لأن النساء من حيث الطاقات أقل من الرجال كما يقول ذلك العالم الاجتماعي (بردون). إنه يقول: «إن الحياة الاجتماعية تتألف من طاقات ثلاث: العلم والعمل والعدالة. وإن نسبة طاقات الرجل إلى طاقات المرأة كنسبة ٣ إلى ٢ أي ٣/٢، فللعلم ٣/٢، وللعمل ٣/٢، وللعدالة ٣/٢. إذن ٣/٢ × ٣/٢ × ٣/٢ = ٢٧/٨ فيُعلم من ها هنا أن نسبة طاقات الرجل إلى المرأة كنسبة ٢٧ إلى ٨ أي: ٢٧/٨.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ وفي آية أخرى: ﴿وللرجال عليهن درجة﴾.

ومما لا مراء فيه ان التكامل العلمي إنما كان من قبل الرجال، وإن عقول الرجال هي التي جاءت بهذه الكتلة من المكتشفات والمخترعات والنظريات

---

(١) ألقيت هذه الكلمة في حفلة اقيمت من قبل الطلاب الجامعيين احياء لذكرى ميلاد سيدة النساء (ع) في ٢٠ ج ١٣٨٢/٢ في الكاظمية.

فلم تنبغ امرأة في العلوم العقلية وفي المكتشفات الرياضية والفلكية والفيزيائية إلى ما هنالك إلا (مادام كوري): أستاذة الفيزياء في جامعة (صوربون). فقد جاءت بنظرية الاشعاع حين أخفت في جيبها قطعة من الراديوم كانت قد علمت وزنها قبلاً. وقد أكمل الفيزياويون هذه النظرية حتى بلغوا إلى تحطيم الذرة ودستور اكتشفه (آينشتاين) ط = ك ع٢.

أي أن الطاقة التي أدخرها الله تعالى في بطن الذرة تعادل مربع سرعة الضوء مضروباً في الكتلة. وما أعظم هذه الطاقة. فليتق الانسان ربه عندما يشاهد ما أودع الله في هذا الكون من طاقات هائلة تحيِّر الألباب.

سادتي، إن العالم بأجمعه عالم كمال في الحياة المادية. فلو أبصرتم ما في بطن الذرة من كمال وما أودع الله من كمال فائق في كل جزء من أجزاء هذا الكون الرحيب، لعلمتم أن ما من شيء في هذا العالم المادي إلا وقد بلغ أقصى مراتب الكمال. وان هذا الانسان بغروره وخيلائه لهو شيء ضئيل وضئيل جداً في هذا الكون اللانهائي.

وقد يكون الانسان مغروراً بمركزه في هذا الكون. ولكن شمسنا هذه التي هي أكبر من أرضنا هذه ١٣٠٠٠٠٠ مرة تقريباً ما هي إلا نجم متوسط الحجم من نجوم مجرَّة (درب التبانة) التي يبلغ عددها مئة ألف مليون نجم تقريباً. وليست شمسنا هذه ومع الأسف واقعة في منتصف هذه المجرة الكبيرة جداً ولكنها واقعة قرب الطرف على الحافة تقريباً في موقع مدحور، ليس من العظمة في شيء.

وأعظم من هذا فقد علم الفلكيون أن هناك من (المجرات) في الكون بعدد النجوم الموجودة في مجرتنا هذه: (درب التبانـة). إذن ما قيمـة هذا الانسان المغرور بنفسه في هذا الكون الرحيب الذي لا يمكن الوصول إلى غوره وأعماقه. هذا الكون الذي كلما كملت آلات الرصد والعلوم الرياضية والفيزيائية والكيميائية عثروا فيه على شموس ومجرات وسُدم أخرى تدهش العقول والألباب.

والانسان وهو على سطح الأرض يتحرك بحركات شتى. أنه يتحرك مع

سطح الأرض حين تدور حول نفسها وسرعتها باتجاه دورانها تبلغ ربع الميل في الثانية أي (٩٠٠ ميل في الساعة) إذا كان على خط الاستواء وأقل من ذلك كلما قارب القطبين.

والانسان يتحرك مع الأرض نفسها في دورتها السنوية حول الشمس والأرض تسير في حركتها هذه بسرعة ١٨,٥ ميلاً في الثانية أي ثلاثين كيلو متراً في الثانية.

والشمس وكواكبها تسير في هذا الكون الرحيب بالنسبة إلى جاراتها النجوم، بسرعة هائلة (٧٢٠٠٠) كم/ساعة على شكل لولبي نحو نجمة تسمى بالنسر الواقع: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾.

وإن الشمس كما قلنا هي نجم من نجوم مجرَّة «درب التبانة» وهذه كالمجرات الأخرى تدور حول نفسها بسرعة هائلة وشمسنا تدور معها طبعاً ونحن ندور مع أرضنا أيضاً وسرعة مجرتنا هذه حين دورانها حول نفسها مائة وعشرون ميلاً في الثانية: أي ٤٣٢٠٠٠ ميل/ ساعة.

وإن المجرات تتباعد بعضها عن بعض بسرعة هائلة، بسرعة تتراوح بين (٦٠٠ ـ ٤٠٠٠٠) ميل/ثانية فيتسع هذا الكون يوماً بعد يوم ويتحقق قوله تعالى: ﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون﴾.

فما هي قيمة الانسان في هذا الكون الفسيح إن هو لم يعبد الله تبارك وتعالى ولم يخشع ولم يقم بأعمال صالحات تطهيراً لنفسه وإبلاغها مراتب الكمال. وهل يحق للانسان أن يغتر بنفسه لأن الله منَّ عليه فعرَّفه شيئاً ضئيلاً مما أودع من كمال في هذا الكون. وهل كان للانسان دخل في سير الشموس والمجرات وفي صنع الذرة!.

﴿يا أيها الانسان ما غرَّك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك كلا بل تكذبون بالدين وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾(١).

(١) سورة الانفطار: ٦ ـ ١٢.

ليفكر الانسان في ما أودع الله من دساتير رياضية ومعادلات عميقة تربط أجزاء هذا الكون بعضها ببعض بكمال فائق ما بعده كمال، وكيف أن هذا الكون إنما هو مجموعة قوى وطاقات كهربائية ومغناطيسية وجاذبية وأنه لا مجال للمادة (بالمعنى الذي يقوله الماديون) فيه وكيف ان الله تعالى يسيّر الألكترون في بطن الذرة (هذه التي لا يمكن أن ترى بأدق الآلات) بسرعة ٢٠٠٠ كم في الثانية حول النواة: البروتون، وأن قطر نواة الذرة = ٠,٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠١ مم أي واحداً من ترليون جزء من المليمتر. وكيف أن الله تعالى جعل البروتونات وهي كهربائية موجبة متماسكة بعضها مع بعض بطاقات هائلة لو تحررت أهلكت كل ما حواليها إلى مسافات شاسعة، ليفكر الانسان في هذا الكمال الذي أودعه الله في كل ما خلق من عوالم شتى: عالم الجهاد والنبات والحيوان، ليرى أن هنالك كمالين: كمالاً قسرياً نشاهده في الذرة وفي الشمس والقمر والكواكب والمجرات والنيازك والسدم والغاز الكوني: هيدروجين، وكمالاً تدريجياً اختيارياً لهذا الانسان الناقص، الذي لا بد له أن يتكامل وأن يقطع سيره التكاملي. ذلك لأن الكامل على الاطلاق وهو الله تعالى لا يصدر منه إلا (الكمال). فإما كمال قسري وهذا ما نشاهده في الذرة وغير الذرة وكمال تدريجي اختياري لهذا الانسان على لسان الأنبياء والأوصياء عليهم السلام.

فالأنبياء والأوصياء معصومون من الزلل وهم قدوة للكمال البشري. وقد جعل الله تعالى للنساء قدوة من النساء الصالحات، وان فاطمة الزهراء سيدة النساء الكاملات، بل هي قدوة للرجال وللبشر أجمع. كيف لا تكون كذلك وهي التي عبدت الله تبارك وتعالى حتى تورمت قدماها. يقول الحسن (ع) رأيت فاطمة (ع) قامت في محرابها ليلة جمعتها، فلم تزل راكعة ساجدة حتى اتضح عمود الصبح وسمعتها تدعو للمؤمنين والمؤمنات وتسميهم وتكثر الدعاء لهم ولا تدعو لنفسها بشيء. فقلت لها ألا تدعين لنفسك؟ فقالت: يا بُني، الجار ثم الدار. وهي التي أوصت أن توضع في كفنها قارورة كانت قد جمعت فيها بعض ما ذرفت من الدموع خوفاً من الله تعالى.

ونراها تبذل ما لديها في سبيل الله تعالى لتحكيم دعائم الاسلام. فقد

روى أحمد بن حنبل أن رسول الله (ص) رأى ذات يوم مسحاً (وهو كساء معروف) على باب دار فاطمة ورأى على الحسن والحسين قُلبين (أي سوارين) من فضة فرجع ولم يدخل عليها. فظنت أنه لأجل ما رأى. فهتكت الستر ونزعت القلبين عن الصبيين فقطعتهما، فبكى الصبيَّان، فقسمته بينهما. فانطلقا إلى رسول الله (ص) وهما يبكيان، فأخذه رسول الله منهما وقال: «يا ثوبان، إذهب بهذا إلى بني فلان، واشتر لفاطمة قلادة من عصب (هو سن دابة بحرية) وسوارين من عاج. فإن هؤلاء أهل بيتي، ولا أحب أن يأكلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا».

وروى الصدوق في الأمالي قال: كان النبي (ص) إذا قدم من سفره بدأ بفاطمة، فدخل عليها، وأطال عندها المكث. فخرج مرة في سفره. فصنعت فاطمة مسكتين من ورق (أي فضة) وقلادة وقرطين وستراً للباب لقدوم أبيها وزوجها. فلما قدم رسول الله (ص) دخل عليها. فوقف أصحابه على الباب، فخرج عليهم وقدعرف الغضب في وجهه، حتى جلس عند المنبر. فظنت فاطمة أنه إنما فعل ذلك لما رأى من المسكتين والقلادة والقرطين والستر. فنزعت ذلك وبعثت به إلى رسول الله (ص) وقالت للرسول، قل له: «تقرأ عليك ابنتك السلام وتقول إجعل هذا في سبيل الله». فلما أتاه، قال: «فعلت فداها أبوها» ثلاث مرات، ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد، لو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ما سقى كافراً شربة ماء، ثم قام، فدخل عليها.

يأتي رجل من مهاجرة العرب إلى رسول الله وهو في المسجد، فيقول: إني جائع الكبد فأطعمني وفقير فأغنني وعاري الجسد فاكسني... فيقول له رسول الله (ص): «ما أجد لك شيئاً. ولكن الدال على الخير كفاعله انطلق إلى ابنتي فاطمة». وأمر بلالاً، فوقف به على منزل فاطمة (ع) فنادى بأعلى صوته: «السلام عليكم يا أهل بيت النبوة ومختلف الملائكة. يا بنت محمد إني عاري الجسد، جائع الكبد، فارحميني يرحمك الله». وكان علي وفاطمة ثلاثاً ما طعموا طعاماً... فتعمد فاطمة إلى جلد كبش مدبوغ كان ينام عليه الحسنان وتعطيه الشيخ قائلة: «عسى الله أن يتيح لك ما هو خير منه». فيقول الشيخ: «أنا

شكوت اليك الجوع فناولتني جلد كبش. فما أنا صانع به مع ما أجد ما السغب» فتعمد فاطمة (ع) إلى عقد في عنقها، أهدته اليها فاطمة بنت عمها حمزة. فتقطعه من عنقها وتنبذه إلى الاعرابي. وتقول: «خذ وبعه، فعسى الله أن يعوضك بما هو خير لك منه». فتُقضى حاجة الرجل ويرجع إلى أهله موفوراً.

كيف لا تكون فاطمة امرأة قد بلغت غاية الكمال، فان رسول الله قد دخل عليها ذات يوم فرأى عليها كساء من أجلال الابل وهي تطحن بيديها وترضع ولدها، فدمعت عينا رسول الله (ص)، فقال: «يا بنتاه تعجلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة». فقالت: «يا رسول الله، الحمد لله على نعمائه والشكر على آلائه». فأنزل الله تعالى: ﴿ولَسوف يعطيك ربك فترضى﴾.

أنظروا إلى هذا الكمال الرائع الذي نشاهده عند فاطمة الزهراء سلام الله عليها، ذلك أن رسول الله (ص) يسأل ذات يوم نساء المدينة: ما هو أفضل شيء للمرأة، فتأتي الأجوبة، وبينها من تقول: «أفضل شيء للمرأة أن لا ترى رجلاً ولا يراها رجل». فيعلم رسول الله أن هذا الجواب إنما هو من بنته فاطمة الزهراء (ع) فيقول (ص): «ذرية بعضها من بعض».

كل ذلك، لأن اختلاط الجنسين يؤدي إلى فساد في الأرض والفساد يزيح الايمان!. وهو قوله تعالى: ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون﴾. ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾. وقد قال تعالى: ﴿وحقت كلمة ربك على الذين فسقوا انهم لا يؤمنون﴾.

وهكذا يعمل الفسق في إزاحة الايمان، حتى جاء في الحديث: «النظرة سهم من سهام إبليس لعنه الله، فمن تركها خوفاً من الله آتاه الله إيماناً يرى حلاوته في نفسه». لذلك يكره (كما جاء في الحديث) أن يجلس الرجل حيث جلست المرأة قبل أن يبرد محلها.

سادتي، إن أوروبا بمجونها وشهواتها ونزواتها ومجالس الرقص فيها ترجع القهقرى، إنها ترجع إلى جاهلية جهلاء. وإن هذه الحضارة كما قال بذلك كبار علمائها آئلة إلى انهيار عاجل.

فإذا رأينا أن امرأة امريكية تأتي إلى باريس وتقف في وسط شارع (شانزيليزه)، تنزع ما عليها من ثياب وتصبح عارية وتمشي في الشارع لترى الناس ما بلغت أمريكا من الحرية، أو إذا رأينا أن البنات يختطفن الشباب في السويد وإذا رأينا أن لا بأس بما يحدث في السيارة في إيطاليا في شارع عام بين الرجل والمرأة ما دام هناك ستار، وإذا رأينا أن الناس ينزوي بعضهم على بعض علانية على سواحل البحار وضفاف الأنهار وخلف الأشجار بل على قارعة الطريق! وإذا رأينا أن الفتاة لها أن تعمل ما تشاء قبل الزواج. فإنما نرى ما كان عليه البدائيون قبل بعثة الرسل، وما عليه الآن القبائل المتوحشة من تقديم الرجل زوجته إلى ضيفه ليلاً ومن أن البنت لها أن تتصل بمن تشاء إذا بلغت الخامسة من عمرها وأن تقدم البنت ليلة زفافها إلى المدعوين واحداً بعد آخر. أو إلى رئيس القبيلة أو الملك حتى يأتي بعد ذلك دور الزوج!!!...

فوظيفة الشاب المؤمن أن يقوم بجد بالغ لنشر الدعوة الاسلامية وإنقاذ البشرية مما ألمَّ بها من جاهلية جهلاء. وحري بجميع المؤمنين الأثرياء أن يقوموا بتأسيس أندية للشباب في كل بلد إسلامي، لكي يجتمع الشباب المؤمن في هذه الأندية في أوقات الفراغ فيتعلم فيها مبادىء الدين الاسلامي، وتفسير القرآن وشيئاً من الفقه والحديث، ويجب أن تضم هذه الأندية قاعة كبيرة للصلاة وقاعة للمحاضرات ومكتبة اسلامية وساحة للألعاب المشروعة التي تقوي العضلات وتجعل الشاب المؤمن قوياً في جسده... فقد قال الله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ وأهمها قوة الأبدان...

فكم من شبان كانوا سبباً لاسلام كثيرين. فهذه اليابان متعطشة إلى مبلغين ودعاة يدعونهم إلى الدين الحنيف وهكذا في أوساط أفريقيا وفي أمريكا وأوروبا.

ونحن نرى والحمد لله تقدماً محسوساً بين الشباب في التوجه إلى الاسلام والقيام بجهاد ملموس في خدمة الدين.

وهل سمعتم قبل هذا أن شباناً جامعيين وغير جامعيين يقيمون حفلة كبرى إحياء لذكرى سيدة النساء فاطمة الزهراء سلام الله عليها أو يقومون

بإقامة الصلاة في كليات جامعة بغداد. ككلية الهندسة والعلوم والآداب والتربية... وهل سمعتم شباناً أخذوا على عواتقهم أن يضحوا بالنفس والنفيس في سبيل نشر الدعوة الاسلامية في أصقاع الأرض ليرفعوا لواء الاسلام عالياً، فيعم الدين الاسلامي الأرض كلها فيكون الاسلام ديناً عالمياً كما تنبأ بذلك (برناردشو) قبل سنين.

فجزاكم الله أيها الشبان المجاهدون عن الاسلام خيراً. فأنتم القدوة الصالحة، يقتدى بكم في بقاع الأرض، في الجامعات وغيرها من المعاهد. فالاسلام لكم وإليكم، فهبوا مضحين... فلا شيء أثمن في هذا الكون من أن يأخذ شاب بيد شاب آخر يهديه إلى صراط الله القويم. ففي هذه الهداية حياة خالدة هنيئة تهديها أنت لأخيك الشاب. انه تعالى يقول:

﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يُحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تُحشرون﴾.

* * *



كيف ننقذ الشباب

لاقيت في الليلة الماضية رجلاً فاضلاً، فقلت له: قد قمنا بتنظيم للشباب المؤمن الذي يحضر لسماع المحاضرات الدينية، ليالي الجمعة وليالي السبت، فشكلنا منهم لجنة باسم لجنة التنظيم، ولجنة باسم: لجنة الثقافة الدينية، ولجنة باسم: لجنة الارشاد والتبشير، وسوف نشكل لجاناً أخرى تعمل كل لجنة في حدود واجباتها بإخلاص، وتبذل طاقاتها وأوقات فراغها في صقع نافع أمين لخدمة هذا الدين، تقدم كل لجنة تقريراً شهرياً عن أعمالها وفعالياتها وتتقبل الاعتراضات والاقتراحات وتعمل على معالجتها وتحقيقها.

فأجاب قائلاً: ليس هذا بعمل مجدٍ، وإنما علينا أن لا نرسل أولادنا إلى المدارس الحديثة. كي لا ينحرفوا، وكان معنا رجل فاضل كان قد عرك الحياة إلى حدٍّ ما ووقف على الوضع الراهن، فقال له: هذا علاج سلبي، يُنجي بعض الأفراد من الانزلاق. ولكن هل تمكنت أنت أن تمنع ولدك من أن يذهب إلى المدارس الحديثة؟ قال: كلا، فقال: ففي أي صف هو الآن؟ أجاب: إنه في الخامس العلمي. قال: إن كنت أنت مع اهتمامك بالموضوع لا تقوى على ردع ولدك من الذهاب إلى المدارس الحديثة، فكيف بالآخرين؟!! ثم ما هي المعاهد التي نرسل اليها أولادنا لننقذهم من الجهل. هل هناك مدارس تُعنى بشؤون الطلاب الدينية والروحية والعلمية بصورة جدية وبأسلوب حديث كي نرسل أولادنا اليها؟ وكم مقدار الميزانية (الأموال) التي يجب أن تبذل لفتح عددٍ كافٍ من هذا النوع من المدارس؟ ثم من أين نجد المعلمين والمدرسين؟ ألسنا نستخدم نفس هؤلاء المدرسين الذين درسوا في المدارس الحديثة حتى أنك إذا قمت بتأسيس روضة للأطفال وأردت أن تربيهم مذ نعومة أظفارهم بأسلوب ديني صحيح تكاد لا تجد بالمقدار الكافي معلمات غير متبرجات، مصليات، متزنات، عاملات بالنصوص الدينية ومع ذلك

حاملات شهادة تخولهن ليكن معلمات في الروضة. ذلك لأن الأنظمة الحاضرة لا تسمح للمرأة ولا للرجل أن يقوم بمهمة التعليم في الروضة ما لم يكن حاملاً شهادة تؤهله للتعليم. فكل شيء أصبح تحت نظام وقانون من قبل الحكومات الحاضرة. ثم إن الانسان يجب أن لا يخرج عن واقع الحياة وأن يستفيد من التجارب الماضية خلال ٥٠ سنة خلت. أي منذ أن تأسست المدارس الحديثة في الأقضية.

ثم لو كان منع الطلاب من الدخول إلى المدارس أي لو كانت هذه المقاومة السلبية ناجعة لما بلغ عدد الطلاب هذا المبلغ الضخم، بحيث أن البناية الواحدة تشغل في اليوم ثلاث مرات من قبل ٣ مدارس مختلفة بشعبها الكثيرة. وان بعض المدرسين ليدرِّس في الأسبوع ٤٠ ساعة لعدم كفاية المدرسين.

فأنى لك أن تصد هذه الرغبة الملحة التي هي وليدة الحاجة وضرورة الانطباق مع مقتضيات العصر وتحصيل الخبز والراحة إلى ما هنالك.

فقال: ان هذه المدارس تذهب بالعقيدة وتولد الالحاد ولكن الابتعاد عنها قد يؤدي إلى عدم تطبيق النصوص الدينية برمتها ولكنه لا يؤدي أبداً إلى الالحاد.

فقلت له: إن التجارب قد برهنت أن بعض التيارات الجارفة جرف بعض العوام الذين لم يداوموا في المدارس وتخلوا عن كل ما لديهم من مقدسات وعقائد وتسافلوا إلى أسفل سافلين. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن التربية الدينية كانت تربية سطحية غير مستندة إلى الدليل والبرهان ولم تكن راسخة في النفوس إلى حد لا تزعزعها التيارات الالحادية الجارفة. فإن المنحرفين لهم فعالياتهم ومنظماتهم وجهودهم الجبارة. فما الواجب إذن تجاه الوضع الراهن.

فلم يحر جواباً. . .

وهذا مما حدا بي أن أتقدم بهذا المقال:

يدخل الطفل وعمره ثلاث أو أربع سنوات إلى روضة الأطفال، أو يدخل

وقد اكمل السنة السادسة من عمره إلى مدرسة ابتدائية، وكذلك البنات، فيتلقّون دروساً عملية ونظرية وتربية عصرية بعيدة عن روح الاسلام وقواعده، يحفظون بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في مدرسة ابتدائية دون أن تتجاوز الحناجر، ذلك، لأن المعلم غير مؤمن بما يملي على الطلاب في موضوع دروس الدين إيماناً رصيناً لا شائبة فيه، إنما يقوم بأداء واجب ملقى على عاتقه، ولا أنكر أن هناك عدداً قليلاً جداً لا يعادل ١٪ (واحداً بالمائة) جديراً بأن يلقب بمعلم الدين، إلا أن تأثيره ضئيل وضئيل جداً في محيط لا يتجاوب مع بقية الأعضاء.

فإذا جاء دور المتوسطة تدخل بقية المدرسين: مدرس الاحياء، مدرس الاجتماعيات،مدرس الرياضيات... الخ. في الموضوع وأخذ كل يشكك الطلاب في معتقداتهم ويعزو تكوين هذا الكون المعقد ودساتيره المتقنة الثابتة إلى الطبيعة العمياء. أو قال بعشوائية الكون دونما تحقيق!.

وأما مدرس الدين، (وهو على الأكثر جاهل بالعلوم الحديثة والنوازع المستحدثة وردودها)، فلا يدرس في الأسبوع إلا درساً واحداً، وهو على الغالب ممن ضعفت عقيدته وتغير اتجاهه واختلف عمله عما يمليه على الطلاب في حقل الدين. فأنى لهذا الدرس الواحد على علاته (في موضوع الدين) خلال الأسبوع، أن يقاوم تزريقات سائر المدرسين المضلة، منها «أن الاسلام نظام كان مفيداً لأناس كانوا يعيشون قبل أربعة عشر قرناً أما الآن، فنحن بحاجة إلى نظام مدني جديد! فالظروف تبدلت! فيجب أن تتبدل النظم، فلا مجال لتطبيق نظم الاسلام!». ومنها: «أن الدين كان يقنع العقول البدائية، أما الآن وقد تقدم العلم، هذا العلم المحير للعقول، فلا مجال للدين أن يسيِّر البشر! والعلم هو وحده كفيل بأن يسير البشر نحو الكمال المنشود وضروريات الحياة فلنكن علمانيين»[1].

إن ضعف الدين في المدارس وفي أوساط أخرى أدى إلى انحلال خُلقي

---

(١) هذه الأفكار نتاج استعمار الغرب الفكري وفعاليات الكنيسة في أوروبا وأمريكا والمبدأ الماركسي.

وهذا بدوره أدى إلى انحلال فكري، ثم تبنى أفكار جديدة تتصادم مع حقيقة الاسلام.

ولا مراء أن للمجالس الحسينية أثرها المرموق في التوجيه لو حضرها الشباب، إلا أن الشباب في واد آخر، وهم يوجهون من قبل منظمات أخرى توجيهاً يؤكد لهم أن المجالس الحسينية تبث الخرافة والأفكار البالية. وهي بعيدة كل البعد عن واقع الحياة، ويؤكدون لهم، دليلاً على ذلك، أنه لا يرى في هذه المجالس إلا العجزة والشيوخ، يتسلون بالتدخين وشرب الشاي، وهم، أنفسهم، ينتقلون من مجلس إلى آخر دون غيرهم من الشباب والمثقفين، وكذا الحال في صلاة الجماعة وفي المساجد وغيرها.

على أن لنوع الالقاء وتطبيق العلوم الحديثة على الحقائق الاسلامية أثراً خاصاً في جلب الشباب إلى المجالس الحسينية. ولكن قلما ترى في الخطباء من يجمع بين دراسات مختلفة موضوعية، فيتكلم بأسلوب علمي رصين، وباصطلاحات حديثة مستعملاً الدساتير الرياضية وما وصل إليه العلم الحديث من قوانين في الفيزياء والكيمياء والاحياء والفلك والطب إلى ما هنالك. ثم التعرف إلى المنازع الفلسفية الحديثة والقيام بردها على ضوء العلم الحديث.

فما الذي يجب أن نقوم به لسد هذا التيار اللاديني الجارف الذي دب في الشرق منذ أكثر من ٥٠ سنة والانحلال الخلقي المميت؟.

هنا طريقتان: طريقة غير عملية وبحاجة إلى تضحيات مرموقة من قبل الأثرياء من المؤمنين ولا أظنها تتحقق. وطريقة أخرى، قليلة النتائج، ولكن واجبة التطبيق، ويجوز أن تؤتي أكلها بالغة موفورة لو طبقت بمقياس واسع.

* * *

أما الأولى: فهي تأسيس جمعية باسم: جمعية التهذيب الديني، مهمتها جمع مبالغ طائلة من أثرياء المسلمين وبناء أبنية عصرية تتخذ مدارس أهلية للبنين والبنات وفتح دور (مدارس) لتهيئة معلمين ومعلمات بأسلوب علمي، وإيفاد قسم من الشباب المؤمن للتحصيل العالي إلى الغرب، وتأسيس مدارس أهلية للبنين والبنات اعتباراً من الروضة إلى التحصيل العالي بمقياس واسع

وتحت مناهج لم تتأثر بمناهج المستعمرين والمبشرين (بالكنيسة) أو بمناهج الالحاد والمادية.

ولا شك أن هذا العمل الجبار سيولد جواً مفعماً بروح الاسلام وشباباً عاملاً بدستور الاسلام. وتتأثر، دون ريب، بقية المدارس بهذا النهج القويم، فلا ترى إذ ذاك إلا مؤمناً يقدس الاسلام ويطبقه.

* * *

وأما الطريقة الثانية: فهي تنظيم نوادٍ للشباب في كل مدينة أو قرية أو ناحية، يداومون فيها أوقات فراغهم. تلقى فيها عليهم محاضرات دينيـة، يستمعون القرآن الكريم ويطبقون آياته على واقع حياتهم. فتشكل لجان مختلفة منهم، وتوزع أعمال وفعاليات على هذه اللجان. فيبذل قسم من طاقاتهم في العمل المنتج المفيد وهم مسؤولون عن تحقيق ما كلفوا به من أعمال. وان كل لجنة تقدم تقريراً عن فعالياتها. يصلون في هذه النوادي أوقات الصلاة في مصلى كبير ويتعلمون فيها بعض الفروع الفقهية الضرورية.

يتلقى الراغبون من الشبان في هذه النوادي الدينية دروساً في التفسير والفقه وأصول الفقه وعلم الكلام والفلسفة الاسلامية بأسلوب حديث ويجاب على ما يختلج في صدورهم من شكوك وريب، وتلقى عليهم دروس أيضاً في الرد على المذاهب المادية والوجودية والنفعية إلى ما هناك من نزعات باطلة جاءت من وراء الشهوات النفسية. ثم هم يتصلون ببقية الشباب في البلد مبشرين، فيشوقونهم للانتهاء إلى هذه النوادي الدينية.

وهكذا تنظم نوادٍ من قبل المؤمنات الصالحـات من النساء المتعلمـات للفتيات طالبـات المدارس وغيـرهن في كل حـارة بنفس الأسلوب وبنفس التنظيم.

ولا شك أن هذه الفعاليات والتضحيات من قبل البنين والبنات لتؤثر في تلطيف الجو المكفهر بالاتجاهات المضللة بعد تفهم حقيقة الاسلام ودسائس الاستعمار وأذناب الاستعمار وما أعقبت الحروب الصليبية من دسائس لم تنتهِ لحد الآن.

وللشبان أوقات فراغ كثيرة يمكن أن نستفيد منها في توجيههم توجيهاً صحيحاً لو تمكنا من تحقيق راحة الشبان في هذه النوادي راحة تتفق والتربية الاسلامية الحقة، فيبذل قسم من طاقاتهم في صقع مفيد. فانه إن لم تستغل أوقات فراغ الشبان في أمور مفيدة موجِّهة توجيهاً صحيحاً، فهي تُصرف لا محالة في تحطيم الشباب وتسافلهم إلى أسفل سافلين.

وينبغي أن يكون في هذه النوادي:

١ ـ محل خاص للصلاة والمواعظ الدينية وتلاوة القرآن.

٢ ـ مكتبة اسلامية للمطالعة وإعارة كتب اسلامية مبسطة، ومجلات اسلامية فيها مقالات واضحة دونما تعقيد ونشرات إسلامية بلغة مفهومة.

٣ ـ صفوف خاصة لدراسات اسلامية من تفسير القرآن الكريم والفقه وأصول الفقه، وعلم الدراية والحديث، وعلم الكلام، ومقارنة بين حقائق الاسلام والفلسفات المعاصرة والنوازع الحديثة مع تطبيق آخر ما توصل إليه العلم الحديث وما أودع الله تعالى من عصارات العلوم في القرآن الكريم ضمن آيات بينات.

٤ ـ ساحة خاصة لبعض الرياضات البدنية المفيدة التي تنمي الجسم: «إن لبدنك عليك حقاً»[1] وعملاً بمنطوق هذه الآية الشريفة: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾، مع العلم أن (السبق والرماية) وتعلمها باب من أبواب الفقه الاسلامي.

* * *

لا شك أنه لو نُظمت هذه النوادي وأصبحت تدار من قبل هيأة عليا من كبار علماء الدين وكبار الموجهين المؤمنين وجب إذن فتح دورات (تدريسية وتدريبية) خاصة لموجهي هذه النوادي والقائمين بادارتها في النجف الأشرف وفي غيرها من بعض المدن الكبيرة، يتعلمون فيها طرق التنظيم والتوجيه

---

(١) حديث نبوي.

والعلوم التي تؤهلهم للاشراف على هذه النوادي الموجِّهة توجيهاً دينياً يتفق مع حقيقة الاسلام وواقعه.

* * *

قد نرى أن بعض الأثرياء من المؤمنين يشيدون حسينية كبيرة ونعم ما يصنعون. فلو أسسوا بجنب هذه الحسينية نادياً دينياً للشبان لقاموا بخدمة جديرة بكل تقدير وعالجوا هذا الفراغ العقائدي.

فلا بد من توجيه الأخيار من الأثرياء وتفهيمهم الوضع الراهن وأساليب الدعوة حسب مقتضيات العصر الحاضر والأخذ بيد الشبان إلى ساحات التقوى والهداية وتنويرهم بنور الاسلام الوضاء. فانهم مؤمنو المستقبل وحافظو بيضة الاسلام وحاملو لوائه الرفيع.

وقد لاحظت أن بعض هؤلاء المؤمنين المخلصين (مع تقديري لهم ولإيمانهم العميق) بعيدون كل البعد عما يحتمه الوضع الراهن من طرق التوجيه الديني وأساليب الدعوة ولعل البعض منهم يرى التقرب إلى الشباب بغية تهذيبهم تهذيباً دينياً مروقاً عن الدين وخروجاً عما قرره الاسلام وانحرافاً عن الصراط السوي. إما لأنهم لم يتدرجوا في دراسات حديثة ولم يحتكوا بالشباب ليعلموا مواطن الضعف فيهم وما أصيبوا من أمراض نفسية من جراء دعايات الحادية عنيفة أو لأنهم قليلو التضحية في هذا المضمار لا يهمهم مستقبل الاسلام والمسلمين. فكنت ألاحظ أن بعض هؤلاء المتدينين الأثرياء (مع تقديسي لهم)، لا يروق له أن يجهز حسينية أسسها بالكراسي و (التخوت)، كمن يستشكل أن يُسمع كلامه بالمكبرات إلى كثير من الناس.

* * *

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لهما أسلوبها الخاص في كل زمان حسب الظروف والعوامل المحيطة بالناس.

فإن الاستمرار على أسلوب خاص في الدعوة لا يأتي بالنتيجة المطلوبة وترك أساليب أخرى للدعوة لا تتنافى مع روح الشرع ثم ترك ملايين من الشبان المسلمين دون موجه، تغزوهم الدعايات المضلة. فتخلق منهم أعداء

للاسلام، إنما هو عمل لا يتفق مع منطوق هذا الحديث: «من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم» عدا أنه يخالف أمر الله تعالى حين يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم وهم بأمره يعملون﴾[1].

فإن الغرب يعمل منذ أكثر من ١٠٠ سنة بجدٍ متواصل لأجل غـزو الشباب المسلم وانتزاع عقيدته وجعله عدواً لدينه ومقدساته: فقد سمعت قبل ٢٨ سنة ممن كان قد أكمل دراسته في الجامعة الأمريكية ببيروت، سمعته يقول: «إن بلاء الشرق دينه، وان هذا الدين (ويقصد به الاسلام) حجر عثرة دون تقدم الشرق! ولا سبيل إلى التقدم إلا بنبذ هذا الدين!...».

فيا أيها المسلمون، ان الوضع الراهن ومعالجته يستدعي شيئاً من التضحية. فهل من مجيب؟.

فقد قال رسول الله (ص): «ويل لقوم لا يدينون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». وقال (ص) أيضاً: «إذا ظهرت البدع، فليظهر العالم علمه، وإلا فعليه لعنة الله». وقال أيضاً: «الساكت عن الحق شيطان أخرس».

* * *

---

(١) سورة التحريم: ٦.

غذاء الروح في شهر شعبان

إن الانسان روحٌ وبدن، فكما أن للبدن غذاءاً كذلك للروح غذاء أيضاً. فمن تمكن أن يغذيهما معاً فقد فاز بسعادة الدارين.

إن الانسان كثير الهفوات والزلات، فهو يعصي الله في حركاته وسكناته معاصي كثيرة لا يلتفت إليها، ولا يحاسب نفسه عليها. كل ذلك، لأن نفسه لم تبلغ مرتبة من الكمال كي تقدر أعمالها وتشخص السيء منها من الحسن تشخيصاً دقيقاً وذلك لتلويثها بذنوب سابقة. فهذه المعاصي صغائرها وكبائرها تتراكم على النفس الانسانية، فتشكل حجاباً كثيفاً يمنع الانسان عن رؤية الحق، فتتوارد عليه الشكوك والأوهام، فيستهزىء بالمقدسات ويرى الباطل حقاً والحق باطلاً والرذيلة فضيلة، والفضيلة رذيلة!.

فالله تبارك وتعالى قرر أعمالاً (تفضلاً منه)، تمحى بها الذنوب قبل أن تتراكم، كي لا يكون الإنسان مصداق هذه الآية الكريمة: ﴿ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾.

فالصلوات الخمس والنوافل والأعمال الصالحة والمستحبات كلها تمحى الذنوب وتقرِّب العبد إلى الله تعالى بعد الابتعاد. ومن جملة تلك الأعمال: الأعمال التي وردت في شهر شعبان.

فقد جاء في ثواب الأعمال بسنده عن النبي (ص)، وقد تذاكر أصحابه عنده فضائل شعبان. فقال (ص): شهر شريف وهو شهري، وحملة العرش تعظمه وتعرف حقه، وهو شهر تزداد فيه أرزاق المؤمنين لشهر رمضان وتزين فيه الجنان، وإنما سمي شعبان: لأنه يتشعب فيه أرزاق المؤمنين لشهر رمضان وهو شهر العمل، فيه تضاعف الحسنة سبعين والسيئة محطوطة والذنب مغفور والحسنة مقبولة والجبار جل جلاله يباهي فيه بعباده، ينظر من فوق عرشه إلى صوَّامه وقوامه، فيباهي بهم حملة عرشه.

وبسنده عن الصادق عليه السلام، كان أبي عليه السلام يفصل بين شعبان وشهر رمضان بيوم، وكان علي بن الحسين عليهما السلام، يصل ما بينهما ويقول: «صوم شهرين متتابعين توبة من الله».

وعن الرضا (ع): «مَن صام ثلاثة أيام من آخر شعبان ووصلها بشهر رمضان، كتب الله تعالى له صوم شهرين متتابعين».

وقد قال رسول الله (ص) كما في كتاب الاقبال: «شعبان شهري ورمضان شهر الله عز وجل. فمن صام يوماً من شهري كنت شفيعه يوم القيامة. ومن صام يومين غفر الله له ما تقدم من ذنبه ومن صام ثلاثة أيام قيل له: استأنف العمل».

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «تتزين السماوات في كل خميس من شعبان، فتقول الملائكة: إلهنا، اغفر لصائميه، وأجب دعاءهم. فمن صلى فيه ركعتين: يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة، وقل هو الله أحد، مائة مرة، فإذا سلم صلى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم مائة مرة، قضى الله له كل حاجة من أمر دينه ودنياه. ومن صام فيه يوماً واحداً حرّم الله جسده على النار».

وفي كتاب الاقبال بسنده عن الصادق عليه السلام: في حديث، أنه سئل: «ما أفضل ما يفعل في شعبان. قال: الصدقة والاستغفار، ومن تصدق بصدقة في شعبان رباها الله تعالى كما يربي أحدكم فضيلة حتى يوافيها يوم القيامة وقد صارت مثل أحد».

ويستحب له أن يقول في كل يوم من هذا الشهر سبعين مرة: «استغفر الله وأسأله التوبة»... وأن يقول في كل يوم سبعين مرة: «استغفر الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الحي القيوم وأتوب اليه».

وعن النبي (ص): مَن قال في شعبان ألف مرة: «لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره المشركون» كتب الله له عبادة ألف سنة ويخرج من قبره يوم القيامة ووجهه يتلألأ مثل القمر ليلة البدر وكتب عند الله صدّيقاً».

ويستحب أن يصلي على النبي وآله في هذا الشهر كثيراً، فإن الصلاة على النبي وآله تزيد في وزن الأعمال وثقلها: «فأما مَن ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية، وما أدراك ماهيه، نار حامية﴾[1].

هذه وصفات روحية يُدلي بها النبي (ص) لمعالجة أرواح البشر المريضة وتسييرها نحو الكمال المنشود. فان النفس الانسانية إن لم تتصل بالملكوت الأعلى وتستقي من الافاضات الالهية وتستنير بالأنوار القدسية تتقهقر شيئاً فشيئاً فتكون من «الذين خسروا أنفسهم» فتتسافل إلى أسفل السافلين.

فليجرب هذه الوصفات الروحية من كان يشك في تأثيرها، ليرى كيف يتنور يوماً بعد يوم، فيصبح انساناً لا كسائر الأناسي، انساناً يشعر بآلام الآخرين ويقدر نعم الله عليه، تلطف نفسه، وتزداد إحساساً وشعوراً، فلا تتصدى لايذاء الناس وارتكاب المنكرات.

إن الانسان إذا قام يعبد ربه باخلاص عميق دونما رياء يشعر عقيب ذلك بفرح يفوق جميع الأفراح، بفرح داخلي لا كدر فيه، وسرور ما بعده حزن إلا على ذنوب أدبرت لذاتها وأقامت تبعاتها، وهو دليل التكامل النفسي وأمارة التقدم الروحي. نعم: إن العبد إذا دأب على الاستغفار شعر بخفة في روحه وطمأنينة في نفسه وانجذاب لاهوتي.

إن الانسان لم يخلق ليلهو ويلعب، بل خلق ليتكامل فيكون انساناً قد اجتمعت فيه المعاني الانسانية السامية، كي يفوز بالحياة الخالدة السعيدة، حياة لا مشاكل فيها ولا أحزان جزاءاً لما قام به في دنياه من عبادة وطاعة وأعمال صالحات. ان الله تعالى يقول: ﴿أفحسبتم إنما خلقناكم عبثاً وأنكم الينا لا ترجعون﴾.

ما أحلى المناجاة في هذا الشهر والاعتراف بالذنوب بين يدي الغفـور الرحيم. فقد علمنا الأئمة الأطهار وعلى رأسهم أمير المؤمنين علي عليه السلام مناجاة تقشعر لها الجلود.

---

(١) سورة القارعة: ٧ ـ ١٠

يقول علي عليه السلام في مناجاة له في شهر شعبان: «إلهي إن كنت غير مستأهل لرحمتك فأنت أهل أن تجود عليَّ بفضل سعتك. إلهي، كأني بنفسي واقفة بين يديك، وقد أظلها حسن توكلي عليك. ففعلتَ ما أنت أهله وتغمدتني بعفوك، إلهي إن عفوتَ فمن أولى منك بذلك. وإن كان قد دنا أجلي ولم يُدنني منك عملي، فقد جعلتُ الاقرار بالذنب اليك وسيلتي. إلهي قد جُرت على نفسي في النظر لها، فلها الويل إن لم تغفر لها».

وقد بين النبي (ص) صلاة مستحبة خاصة لكل ليلة من ليالي شعبان يحتاج القيامُ بها إلى توفيق رباني وصفاء في النفس. وقد يقضي الانسان ساعات في المقهى تتخللها الغيبة والنميمة. فلو صرف زمناً يسيراً منها في عبادة ربه لسار في مدارج الكمال ونحى عن نفسه وساوسها الشيطانية وتقشعت عنها غياهب الشكوك.

وقد وردت عن علي بن الحسين (ع) : صلوات خاصة وقت الزوال من كل يوم من شهر شعبان نذكر شطراً منها: «اللهم صلِّ على محمد وآل محمد شجرة النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة ومعدن العلم وأهل بيت الوحي. اللهم صلِّ على محمد وآل محمد الفلك الجارية في اللجج الغامرة،يأمن مَن ركبها ويغرق من تركها، المتقدم لهم مارق، والمتأخر عنهم زاهق، واللازم لهم لاحق»... إلى أن يقول: «اللهم صلِّ على محمد وآل محمد الطيبين الطاهرين الأبرار الأخيار الذين أوجبتَ حقوقهم ومودتهم وفرضت طاعتهم وولايتهم...».

وإن ليلة النصف من شهر شعبان من الليالي الشريفة العظيمة. وعن النبي (ص): « إذا كان نصف شعبان، فقم ليله وصم نهاره، فانه يجيء نداء من قبل الله تعالى من أول هذه الليلة إلى آخرها: «هل من مستغفر فأغفر له، هل من مسترزق فأرزقه».

وقد سئل الباقر عليه السلام، عن فضل ليلة النصف من شعبان، فقال: «هي أفضل ليلة بعد ليلة القدر، فيها يمنح الله العباد فضله، ويغفر لهم بمنه، فاجتهدوا في القربة إلى الله فيها فإنها ليلة آلى الله عز وجل على نفسه أن لا

يرد سائلاً فيها ما لم يسأل معصية. وانها الليلة التي جعلها الله لنا أهل البيت بإزاء ما جعل ليلة القدر لنبينا».

فيستحب ليلة النصف من شعبان: الغسل، فأنه يخفف من الذنوب ويوجب الرحمة. ويستحب فيها: زيارة الحسين عليه السلام تخليداً لذكرى محيي الشريعة بعد الاندثار وتقديراً لأعماله الخالدة. وعن الصادق (ع) قال: «إذا كان النصف من شعبان نادى منادٍ من الأفق الأعلى: زائري الحسين، إرجعوا مغفوراً لكم، ثوابكم على ربكم ومحمد نبيكم».

وروى ابن قولويه في (كامل الزيارة)، بأسانيد عديدة معتبرة عن علي بن الحسين وعن الصادق عليهما السلام، قالا: «من أراد أن يصافحه مائة الف نبي وأربعة وعشرون ألف نبي فليزر قبر أبي عبد الله الحسين عليه السلام في النصف من شعبان، فإن أرواح النبيين يستأذنون الله في زيارته، فيؤذن لهم، منهم خمسة أولو العزم من الرسل، قلنا من هم. قال: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد (ص). قلنا: ما معنى أولو العزم؟ قال: بعثوا إلى شرق الأرض وغربها جنها وإنسها... الحديث».

وقد وردت أعمال وصلوات خاصة بليلة النصف من شعبان، مسطورة في الكتب المفصلة. نسأله تعالى التوفيق للقيام بتطبيقها، باخلاص دونما رياء كي تطهر هذه النفوس مما علق بها من أدران وأوساخ. فـ ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات، ذلك ذكرى للذاكرين﴾.

* * *

ميلاد الحسين عليه السلام(١)

يولد في صبيحة هذه الليلة المثلُ الكامل ريحانة رسول الله، سيد شباب أهل الجنة الحسين بن علي عليه أفضل الصلاة والسلام. ويجدر بالعالم الاسلامي أن يحتفل بمولده الكريم احتفالاً رائعاً لأنه هو الذي أنقذ العالم من الجاهلية الجهلاء والمادية العمياء ولولا تلك التضحية الغالية التي لا مثيل لها في عالم الوجود لاندرست معالم الدين ولما بقي للاسلام الحقيقي من أثر.

أنى للناقص أن يصف الكمال وإن الامامة لمرتبةٌ رفيعة لا يمكن لأحد أن يتعرف حقيقتها وإنما نتعرف اليها بالآثار. وهل لطالب في الدراسة المتوسطة أن يعرف ما حقيقة الرياضيات العالية. كيف أصف من يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أحب أن ينظر إلى أحب أهل الأرض إلى أهل السماء فلينظر إلى الحسين». كيف لا يكون كذلك وهو المثل الكامل في العبادة والشجاعة والتضحية والايثار والسخاء. فقد وجد على ظهره يوم الطف أثر، فسُئل زين العابدين (ع) عن ذلك، فقال: مما كان ينقل الجراب على ظهره إلى منازل الأرامل واليتامى والمساكين.

لقد مر الحسين عليه السلام بمساكين يأكلون في الصُفَّة، فقالوا الغذاء، فنزل وقال: إن الله لا يحب المتكبرين. فتغذى ثم قال لهم: «قد أجبتكم، فأجيبوني». قالوا: نعم، فمضى بهم إلى منزله. هذه صفة مثالية ليس للبشر العادي أن يصل اليها. وقد حج سلام الله عليه خمساً وعشرين حجةً ملبياً ماشياً.

جاءه رجل من الأنصار يسأله حاجة، فقال: يا أخا الأنصار، صُن وجهك عن بذلة المسألة وارفع حاجتك في رقعة، فكتب: «إن لفلان علي خمسمائة

(١) كلمة أُلقيت في ليلة الثالث من شعبان ١٣٧٨ في الروضة الحسينية بكربلاء.

دينار، وقد الح َبي، فكلمه أن ينظرني إلى ميسرة». فلما قرأ الحسين الرقعة أعطاه ألف دينار. وقال له: «أما خمسمائة دينار، فاقض بها دينك، وأما خمسمائة فاستعن بها على دهرك ولا ترفع حاجتك إلا إلى ذي دين أو مروءة أو حسب». أنظروا إلى هذا الأدب الرفيع فإنه درس أخلاقي عظيم، لو أخذ به المسلمون.

ففي الاسلام من النظم الاجتماعية والتعاليم الأخلاقية المثالية والقواعد الاقتصادية، ما يُريح البشر في الدنيا ويسعده في الآخرة. وأنى لهذا البشر أن يسن نظاماً كاملاً يؤدي إلى سعادة النشأتين.

فإن ما يترشح من الانسان من أفكار يتناسب مع طهارة نفسه، فرشحات النفس الزكية رشحات طاهرة، تزكي النفوس وتقربها إلى الله تعالى وتعمل في سعادة الانسان في دنياه وعقباه. لذلك جاء في الحديث: «من أخلص لله أربعين صباحاً جرت من قلبه على لسانه ينابيع الحكمة». وإن رشحات النفس الخبيثة الملوثة بالذنوب والآثام مظلمة حالكة، تبعد الفرد عن الله تعالى. لأن هذا الفرد المذنب وإن عدَّ نفسه فيلسوفاً فقد فقد عقله الفطري الطبيعي: ذلك العقل الذي يوحد الله ويقدسه بالفطرة. ﴿فالعقل ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان﴾ كما في الحديث. وقد قال علي عليه السلام: «من قارف ذنباً فارقه عقل لم يعد إليه أبداً».

وما أكثر الذنوب والفسوق والفجور في الغرب. وما وجود أبيقور (Epicure) المادي في اليونان قبل ميلاد المسيح (ع) بثلاثمائة سنة وظهور أمثال: بوخنر، فورباخ، نيتشه، في أوروبا إلا لنفوس تلوثت بأنواع الاجرام وضروب العصيان، فجاءت بهذه الفلسفة المادية في القرن التاسع عشر الميلادي! . إن الله تعالى يقول: ﴿ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾. وقال الباقر عليه السلام: «ما من شيء أفسد للقلب من خطيئته، إن القلب ليواقع الخطيئة، فما زال به حتى يغلب عليه، فصيِّر أعلاه أسفله».

ولذلك فإن المستعمر أول ما يقوم به من أعمال لافساد العقائد وتلويث

النفوس، هو: فتح دور للخمور والفجور وإشاعة الفاحشة بطرق شتى، في الصحف ودور السينما والملاهي والراديو والتلفزيون.

ومن المصادفات العجيبة أن يكون (فرويد) صاحب نظرية الجنسية يهودياً. وإن الحركة اليهودية قد استغلت نظرياته لمصالحها الخاصة، فقد جاء في كتاب: «بروتوكولات حكماء صهيون» الذي يرسم السياسة اليهودية العالمية ما يأتي: «يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا. إن فرويد، منا. وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس. ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار أخلاقه». كما جاء في الكتاب إشارة مماثلة عن وجوب استغلال مبادىء الفلاسفة الماديين! لتحطيم العقائد الدينية ونشر المبادىء المادية التي تسهل لليهود السيطرة على العالم. ويقول الكتاب: «لقد رتبنا نجاح دارون ونيتشه بالترويج لآرائهم. وإن الأثر الهدام للأخلاق الذي تنشئه علومهم في الفكر غير اليهودي واضح لنا بكل تأكيد».

لقد بلغ بالفيلسوف المادي: «ومن بؤس الفلسفة أن يسمى الهُراء فلسفة!». الابتعاد عن المقدسات مرتبة جعله يعتقد أن الحقيقة الواحدة الأزلية هي الاقتصاد!... ولا شيء وراء ذلك، فإذا تغيرت علاقات الانتاج تغيرت معها القيم الأخلاقية. والدين أفيون الشعوب، ومخدر الأمم. ابتدعه البشر لاستغلال الضعفاء وليس أمراً سماوياً.

حين أن الدين ركن من أركان الحياة. بل هو الحياة بعينها، إذ لا حياة إلا نفس ولا نفس بلا تكامل ولا تكامل إلا بالدين.

لقد طبق بعض البلدان بعض النظم الاقتصادية الحديثة التي لا تتفق مع النظم الاقتصادية الاسلامية في شيء! فمنعوا البيع والشراء والملكية الخاصة وساووا بين أجور العمال مع اختلاف الكفاءات، ثم سرعان ما عدلوا عن كل ذلك.

ليس هناك نظام اقتصادي كالنظام الاقتصادي الذي أمر به القرآن ولكن قلَّ من يعمل به. فلو اتبعنا جميعاً القرآن وعملنا بما فيه وبما جاء في السنة، فلا فقر ولا مرض ولا جهل.

فبيت المال مُعد لاعطاء الفقير ما يغنيه. ذلك لأن، دين الاسلام دين الحياة، وليس بأعمال عبادية فحسب لتطهير النفس الانسانية مما علق بها من أدران وتقريبها إلى ربها. مع العلم: أن فلسفة الاسلام لا ترمي إلى اشباع البطون فحسب، وإنما ترمي في الوقت نفسه إلى فلسفة أبعد، ألا وهي تزكية النفوس وتطهيرها وتزويدها بما يسعدها في الآخرة في حياة حقيقية تستمر ملايين السنين.

إن الاسلام ليعظم أمر الانفاق تعظيماً لا مزيد عليه، حتى ورد ما مؤداه يستحب للعبد أن يقبِّل يده حينما يتصدق بشيء، فكأنه يصافح الله. كل ذلك على سبيل المجاز وإفهام العبد أنه يقترب بتصدقه هذا إلى ربه. وليس الله بمن يصافَح. ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾.

هذا دين يقول: «من أتاه أخوه المؤمن فأكرمه فإنما أكرم الله عز وجل والله هو الغني».

ولكن قد يكون المال الكثير وبالاً يؤدي بالفرد إلى التسافل والولوج في الموبقات. يقول الله تعالى: ﴿ولو بسط الله الرزق للناس لبغوا في الأرض ولكن ينزِّل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير﴾. وفي آية أخرى: ﴿ولا تتمنوا ما فضَّل الله به بعضكم على بعض، للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن، واسألوا الله من فضله، ان الله كان بكل شيء عليماً﴾.

إن الاسلام في الوقت الذي يهتم في رفع حاجة الفقراء إلى أبعد حدٍّ بقوله: ﴿والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم﴾ وقوله: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾. وبقوله كما جاء في الحديث: «إذا أملقتم فتصدقوا»[1]، «صدقة السر تطفىء غضب الرب»، «من كفارات الذنوب العظام إغاثة الملهوف والتنفيس عن المكروب»، يُملي على الفقير دستوره الاصلاحي، لعدم إمكان التساوي بين العباد في الرزق لحكمة هناك، بقوله: كما جاء في حديث قدسي: «وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو صرفته إلى غيره لهلك».

---

(١) وهو قول علي عليه السلام.

إن الله تعالى وسعت رحمته كل شيء، فهو يعطي المؤمن والكافر على السواء. ولكنه قد يضيق على المؤمن في رزقه في هذه الدنيا ليوجهه إليه تعالى: ﴿إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى﴾. ذلك لأن الغِنى كثيراً ما يؤدي إلى الطغيان. فما على المؤمن المضيق عليه في رزقه إلا أن يصبر ويشكر ربه على تهذيبه إياه، وعدم جعله نسياً منسياً، ومصداقاً لهذه الآية: ﴿نسوا الله فنسيهم﴾. وأن لا يتقاعس عن العمل في حدود طاقته، إنه تعالى يقول: ﴿مَن كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً[1]، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن، فأولئك كان سعيهم مشكوراً، كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً[2] أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض في الرزق وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾.

فحسب الآيات المذكورة: من قصر جميع همه على الدنيا فإنه يُعجل له في ما يشاء، ثم يدفع به إلى جهنم. ولكن من عمل لآخرته مشكور سعيه ثم ان الله تعالى لا يبخل لا على مريدي الآخرة ولا على مريدي الدنيا فحسب، فأنه تعالى يعطي هؤلاء وهؤلاء ولا يمنعهم رزقه مع تفضيل بعضهم على الآخر لحكمة هناك. ولكن درجات الآخرة ونعيمها لا تقاس بما في الدنيا من درجات ونعيم زائل...

يقول الله تعالى في آية أخرى: ﴿إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، إنه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾.، أي أن الله إنما يبسط الرزق ويقدره لحكمة ومصلحة تعود على العبد بنفع قد لا يقف عليه في الدنيا. وهو (أي العبد) كمريض يشرب الدواء المر مع كراهية. ولكن عاقبته الشفاء.

ان الله تعالى هو الذي قسم بين العباد رحمته، فخص بالنبوة المخلصين من عباده، الشاكرين له. كما أنه تعالى خص كلاً من عباده بنوع من المعيشة يصلح بها حالهم. على حد قوله تعالى: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك، نحن

---

(١) مطروداً عن رحمة الله.

(٢) ممنوعاً.

قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات، ليتخذ بعضهم بعضاً سُخرياً، ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾. ومعنى ذلك: أن رحمة الله تعالى خير مما يُجمع من الأموال ويدخر من حطام الدنيا.

ثم لا ينبغي للمؤمن أن يتمنى ما للبعض من أموال وأولاد وجاه، فالله تعالى يقول: ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا، وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾.

فليست للدنيا قيمة عند الله تعالى. لأنها للمؤمن دار عمل واختبار واجتياز. ﴿الدنيا مزرعة الآخرة﴾. وقد جاء في الحديث: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة لما سقى الكافر منها شربة ماء».

وفي حديث آخر: «الدنيا دار من لا دار له، ولها يعمل من لا عقل له». وفي حديث آخر: «الدنيا ساعة، فلا تجعلها إلا طاعة».

لذلك، لا يهم الله كما في الآية الآتية: ﴿كفر الكافرين فيعطيهم في هذه الدنيا الفانية من الأموال الطائلة ويجعل لبيوتهم سقفاً من فضة... الخ. ولكن قد حدد نعمته ولطفه على هؤلاء الكفار في الدنيا لئلا يرغب المؤمن في الكفر إذا ما رأى: أن كل كافر في سعة ودعة ورغد من العيش. وكل مؤمن في ضيق، فمنَّ على بعض المؤمنين المطيعين بشيء من حطام الدنيا ونعيمها انه تعالى يقول: ﴿ولولا أن يكون الناس أمةً واحدةً لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون. ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون. وزخرفاً، وإن كل ذلك لَمّا متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين﴾[1].

إن الاسلام يريد أن ينمي في الفرد قابلية العطاء لوجه الله وتقرباً إلى الله. ولذلك يفضل العطاء السري: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية﴾. ويحرض الاسلام المسلمين على الانفاق غاية التحريض ولا يريد بالانفاق أن يكون حكومياً فحسب، يؤخذ كل ما يؤخذ بصورة جبرية.

---

(١) سورة الزخرف: ٣٣ ـ ٣٥.

لأن هذا النوع من العطاء لا ينمي في الفرد سجية السخاء والعطاء لوجه الله تعالى ولا يجعل صلة متينة بين العبد والمعبود لذلك جعل الاسلام الانفاق على ضربين من إلزامي وإختياري.

وبديهي أن لا سلام للعالم أجمع ولا اطمئنان إلا بتزكية النفوس. ولا تزكو النفوس إلا باتباع أوامر الاسلام: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[1].

فحري بالمسلم أن يفهم الاسلام وأن يعمل في نشر الاسلام وتطبيق نظمه الاقتصادية في أصقاع العالم وأن لا ينخدع بكلمات هؤلاء الذين أسموا أنفسهم فلاسفة وعزوا نظرياتهم زوراً إلى العلم والعلم من كل ذلك براء.

فلنتخذ من الحسين عليه السلام دروساً في التضحية ونكران الذات لخدمة هذا الدين. فان دين الاسلام دين المستقبل كما صرح بذلك كبار الفلاسفة اللاهوتيين. انه تعالى يقول: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين﴾[2].

ولا حياة لهذه البشرية الضالة، بالمعنى الصحيح، حياة تجعله يشعر بمركزه في هذا الكون، حياة توصله إلى معرفة الخالق جل وعلا والقيام بواجب الشكر والتطهّر والتكامل إلا بالعمل بهذه الآية الشريفة: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله والرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنكم إليه ترجعون﴾[3].

* * *

(١) سورة الرعد: ٣٠

(٢) سورة العنكبوت: ٦٩

(٣) سورة الأنفال: ٢٤.

الامام أمير المؤمنين (ع) ومسألة رياضية

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أقضاكم علي» وقال أيضاً: «ليهنئك العلم يا أبا الحسن، لقد شربت العلم شرباً ونهلته نهلاً».

في كتاب (مشكلات العلوم) للتراقي أن: ١٧ جملاً كانت مشتركة بين ثلاثة أشخاص، فجاؤوا علياً عليه السلام وقالوا: إن نصف هذه الجمال لأحدنا وثلثها لآخر وتسعها لثالثنا، ونريد أن تقسمها بيننا على أن لا يبقى باقٍ.

فدعا علي (ع) بجمل له وأضافه إلى الجمال، فكانت ١٨ جملاً، فأعطى نصف الجمال: (أي ١٨ جملاً) إلى من له النصف، أي أعطاه (٩) جمال. وأعطى ثلث الـ(١٨) إلى من كان له الثلث، أي أعطاه (٦) جمال. وأعطى تسع الـ(١٨) إلى من كان له التسع، أي أعطاه جملين.

٩ + ٦ + ٢ = ١٧ ثم أرجع الجمل الذي أضافه إلى بيته.

* * *

قد يستغرب الشخص لأول وهلة عندما يلاحظ هذا الحل. ذلك لأن من كان له النصف يستحق ٨١/٢ من الجمال. ومن كان له الثلث يستحق ٥٢/٣ من الجمال. ومن كان له التسع يستحق ١٨/٩ من الجمال. وان:

٨ ١/٢ + ٥ ٢/٣ + ١ ٨/٩ = ١٦ ١/١٨.

فالمجموع ١٦ جملاً وجزء من ثمانية عشر جزءاً من جمل. فبقي إذن ١٧/١٨ من جمل واحد لم يوزع بعد بين الشركاء. ولا يخفى أن الباقي وهو ١٧/١٨ من جمل واحد يجب أن يوزع بين الشركاء أيضاً: على أن يأخذ الأول نصف هذا المقدار وأن يأخذ الثاني ثلث هذا المقدار وان يأخذ الثالث تسع هذا المقدار. مع العلم أنه لا يراد نحر جمل أو تعويض بالقيمة في هذا

التقسيم. فالتقسيم السابق على علاته غير مطلوب، لما يؤدي إلى تجزئة الجمل الواحد إلى كسورا.

فلنأت بمثل حسابي بسيط بُغية التوضيح:

مثال: لو أن رجلين أرادا أن نقسم بينهما مبلغاً بنسبة: ١/٢، ١/٦.

فنحن نقسم المبلغ بينهما بنسبة ١/٢، ١/٦ أي بنسبة ٣/٦، ١/٦ أي بنسبة ٣، ١ (بنسبة البسوط أو الصور). فالمبلغ يقسم إلى أربعة أقسام: ٣ منها تكون للشخص الأول، وقسم واحد أو حصة واحدة تكون للشخص الثاني. ذلك لأن نسبة ١/٢ إلى ١/٦ أي:

$$\frac{\frac{١}{٢}}{\frac{٦}{١}} = ٢/٦ = ٣، و \frac{٣ \text{ حصص}}{١ \text{ حصة}} = ٣$$

فإذن: قسم المبلغ بين الشخصين بنفس النسبة المطلوبة. فإذا كان المبلغ ٤٠ ديناراً فللشخص الأول ٣٠ ديناراً وللشخص الثاني ١٠ دنانير.

ولكن لو اقترح علينا الشخصان: أن نقسم بينهما المبلغ على أن يكون نصيب أحدهما النصف ونصيب الآخر السدس دون أن يبقى شيء يعطى لغيرهما. أي أنهما قالا هكذا.

(١) قسِّم بيننا المبلغ ٤٠ ديناراً على أن يكون لأحدنا النصف وللآخر السدس. فعلينا أن نقسم المبلغ بشكل لا يؤدي إلى بقاء شيء من المبلغ لأن المبلغ كله لهما.

فإذا قمنا بحل هذه المسألة حسب منطوق المسألة رقم (١)... يكون الجواب هكذا:

١/٢ + ١/٦ = ٣/٦ + ١/٦ = ٤/٦ = ٢/٣

فيبقى ١/٣ المبلغ دون مالك، حين أنه لهما.

فيجب إذن: أخذ نصف الثلث (الباقي) وإعطاؤه للأول وأخذ سدس الثلث (الباقي) وإعطاؤه للثاني.

أي ١/٢ × ١/٣ = ١/٦ يكون للأول.

و ١/٦ × ١/٣ = ١/١٨ يكون للثاني... أو

(١/٢ + ١/٦) × ١/٣ = ٢/٣ × ١/٣ = ٢/٩.

أي يجب إعطاء ٢/٩ المبلغ لهما. فيبقى أيضاً:

١/٣ × ١/٣ = ١/٩ دون مالك. ومعنى ذلك: أن في كل تقسيم يبقى ١/٣ الموجود دون مالك. حينئذ يبقى في التقسيم الثالث أيضاً ثلث الباقي قبلاً، أي ١/٣ × ١/٩ = ١/٢٧.

وفي التقسيم الرابع يبقى: ١/٣ × ١/٢٧ = ١/٨١ وهكذا دواليك.

إذن يكون نصيب الأول: المبلغ الأصلي × ١/٢ (١ + ١/٣ + ١/٩ + ١/٢٧ + ١/٨١ + ...)

أو نصيب الأول = المبلغ الأصلي × ١/٢ (١ + ١/٣ + $١/٣^{٢}$ + $١/٣^{٣}$ + $١/٣^{٤}$ + $١/٣^{ن}$

نرى داخل القوس متوالية هندسية تنازلية أساسها: ١/٣.

ومعلوم أن مجموع حدود متوالية هندسية أساسها أقل من الواجد:

حـ = ١ / (١ - ر) (فيما إذا كانت الحدود لا تتناهى أي ن =).

ويراد بـ حـ = المجموع

أ = الحد الأول

ر = الأساس

وبعد التطبيق: حـ = ـــــ / (١ - ١/٣) = ـــ / (٢/٣) = ٣/٢

∴ نصيب الأول = المبلغ الأصلي × ١/٢ × ٣/٢ = ٣/٤ من المبلغ الأصلي

ونصيب الثاني = المبلغ الأصلي × ١/٦ × ٣/٢ = ١/٤ من المبلغ الأصلي.

وهذه النتيجة تطابق تماماً ما نحصل عليه فيما إذا قسمنا المبالغ بنسبة ١/٢، ١/٦ كما بينا آنفاً.

توضيح: لا يخفى أن مجموع حدود متوالية هندسية:

حـ = ١ ؟ / ر ـ ١ = ؟ / ر ـ ١ ، (ن) = عدد الحدود

لنضرب صورة الكسر ومخرجه في (ـ ١) فتكون النتيجة:

حـ = (١ـ ر)؟ / ١ ـ ر = ١ ـ ؟ / ١ ـ ر

ولما كانت ر = ١/٣ ∴ ٣ ن/١ = ٠ (إذا كانت ن = ∞).

∴ ١ ر ؟ = ٠

∴ حـ = ١ / ١ ـ ر   ١ / ١ـ ٣/١

لنعمم الموضوع ولنؤسس (نظرية حسابية). فنقول: لو أُريد إعطاء ١/١ من مبلغ ما إلى شخص. و ب/١ من نفس المبلغ إلى شخص آخر وكان أ/١ + ب/١ د ١ (أي مجموع أ/١ وب/١، أقل من الواحد)، فإن تقسيم الباقي بصورة متسلسلة على نفس النسق يؤدي بالنتيجة إلى تقسيم المبلغ المذكور بنسبة الكسرين أ/١، ب/١ دون أي فرق.

البرهان: بديهي أنه في التقسيم الأول كان نصيب الشخص الأول: أ/١، ونصيب الشخص الثاني: ب/١ وما سيبقى هو كسر من المبلغ الأصلي أي يساوي:

١ ـ (أ/١ + ب/١) = ١ ب ـ ١ ـ ب / أ ب

وقد فرضنا المبلغ الأصلي = ١

ولنفرض: أب ـ ١ ـ ب / أب = ك

وحسب توضيحنا السابق، سيكون مجموع سهام الشخص الأول بعد تقسيمات لا تتناهى مساوياً إلى كسر من المبلغ الأصلي يعادل:

نصيب الشخص الأول = ١/أ (١ + ك + ك^{٢} + ك^{٣} + ... + كⁿ)

ويكون مجموع سهام الشخص الثاني كسراً من المبلغ الأصلي يعادل:

= ١/ب (١ + ك + ك^{٢} + ك^{٣} + ... + كⁿ)

وإن ما في القوس من متوالية هندسية عدد حدودها ن = ∞ وأساسها ك، مجموعها يساوي:

$$حـ = \frac{١}{١ - ك} = \frac{١}{١ - \frac{١}{أب}} = \frac{أب}{أب - ١ - ب}$$

$$= \frac{أب}{أ + ب}$$

∴ يكون نصيب الشخص الأول كسراً من المبلغ الأصلي يعادل:

$$١/أ \times \frac{أب}{أ + ب} = \frac{ب}{أ + ب}$$

ونصيب الشخص الثاني كسراً من المبلغ الأصلي يعادل:

$$١/ب \times \frac{أب}{أ + ب} = \frac{أ}{أ + ب}$$

وإذا فرضنا المبلغ: م، سيكون

$$نصيب\ الشخص\ الأول = \frac{م\ ب}{أ + ب}$$

$$ونصيب\ الشخص\ الثاني = \frac{م\ أ}{أ + ب}$$

ومن المعلوم أنه إذا أردنا تقسيم المبلغ م بين شخصين بنسبة ١/أ، ١/ب يجب أن نقسمه حسب قواعد التقسيم المتناسب بنسبة الكسور كما يلي:

نصيب الشخص الأول = (م × أ/١) ÷ (أ/١ + ب/١) = م ب ÷ (أ + ب)

ونصيب الشخص الثاني = (م × ب/١) ÷ (أ/١ × ب/١) = م أ ÷ (أ + ب)

ويلاحظ أن العمليتين أي تقسيم المبلغ حسبما قسمه علي عليه السلام وحسب قواعد التقسيم المتناسب بنسبة الكسور تعطيان نفس النتيجة.

وهكذا يمكن أن نبرهن على صحة التقسيم فيما لو كان عدد الأشخاص أكثر من اثنين:

فإذا كان عدد الأشخاص ٣ وكسر الشخص الثالث حـ/١ فان أ/١ من المبلغ (في التقسيم الأول) يكون للشخص الأول وب/١ من المبلغ يكون للثاني وحـ/١ من المبلغ للثالث. ويبقى من المبلغ الأصلي كسر يعادل:

١ ـ (أ/١ + ب/١ + حـ/١) = (أب حـ ـ ب حـ ـ أحـ ـ أب) ÷ (أ ب حـ) = ك

وبعد القيام بتقسيمات متوالية بمقدار لا يتناهى يكون نصيب الشخص الأول = أ/١ (١ + ك + ك^{٢} + ك^{٣} + ... + ك ؟)، ونصيب الشخص الثاني = ب/١ (١ + ك + ك^{٢} + ك^{٣} + ... + ك ؟)، ونصيب الشخص الثالث = حـ/١ (١ + ك + ك^{٢} + ك^{٣} + ... + ك ؟).

وأما مجموع المتوالية الهندسية داخل القوس عندما تكون ؟ =∞ يساوي:

١ ÷ (١ ـ ك) = ١ ÷ (١ ـ (أب حـ ـ ب حـ ـ أ حـ ـ أب) ÷ (أ ب حـ))

$$= \frac{\text{أ ب حـ}}{\text{ب حـ + أ حـ + أ ب}}$$

وإذا عوضنا عما في الأقواس: (للأول وللثاني وللثالث)، نحصل على ما يلي: (مع العلم أن المبلغ الأصلي = م).

$$\therefore \text{نصيب الشخص الأول} = \frac{\text{م ب حـ}}{\text{ب حـ + أ حـ + د ب}}$$

$$\text{نصيب الشخص الثاني} = \frac{\text{م أ}}{\text{ب حـ + أ حـ + أ ب}}$$

$$\text{نصيب الشخص الثالث} = \frac{\text{م أ ب}}{\text{ب حـ + أ حـ + م ب}}$$

وهكذا إذا أردنا أن نقسم المبلغ: م بين ثلاثة أشخاص بنسبة أ/١، ب/١، حـ/١ (أي تقسيماً متناسباً بنسبة الكسور) يكون:

$$\text{نصيب الأول} = \frac{\text{م} \times \text{١/١}}{\text{١/١ + ب/١ + حـ/١}} = \frac{\text{م ب حـ}}{\text{ب حـ + أ حـ + أ ب}}$$

$$\text{نصيب الثاني} = \frac{\text{م} \times \text{ب/١}}{\text{١/١ + ب/١ + حـ/١}} = \frac{\text{م أ حـ}}{\text{ب حـ + أ حـ + أ ب}}$$

$$\text{نصيب الثالث} = \frac{\text{م × ح/١}}{\text{١/١ + ب/١ + حـ/١}} = \frac{\text{م أ ب}}{\text{ب حـ + أ حـ + أ ب}}$$

* * *

والآن نأتي لحل المسألة حسبما وضعناه من نظرية برهنا على صحتها: والمسألة هي: ثلاثة أشخاص طلبوا أن نقسم بينهم ١٧ جملاً، على أن يكون سهم الشخص الأول ١/٢ ونصيب الشخص الثاني ١/٣ وحصة الثالث ١/٩ ولا يبقى شيء.

ولما كان ١/٢ + ١/٣ + ١/٩ = ١٧/١٨ إذن يبقى من الجمال ١/١٨ منها. وهذا يوجب أن نقسم الباقي وأعني به: (١/١٨) بصورة متسلسلة حسب منطوق المسألة حتى لا يبقى شيء. وقد برهنا على أن نتيجة هذه التقسيمات المتسلسلة التي لا تتناهى من حيث العمل الحسابي تطابق تقسيم ١٧ جملاً بنسبة الكسور:

١/٢، ١/٣، ١/٩ فعليه يكون:

$$\text{نصيب الشخص الأول} = \frac{\text{١/٢ × ١٧}}{\text{١٧/١٨}} = \text{١٨ × ١/٢ = ٩}$$

$$\text{نصيب الشخص الثاني} = \frac{\text{١/٣ × ١٧}}{\text{١٧/١٨}} = \text{١٨ × ١/٣ = ٦}$$

$$\text{نصيب الشخص الثالث} = \frac{\text{١/٩ × ١٧}}{\text{١٧/١٨}} = \text{١٨ × ١/٩ = ٢}$$

ويرى أن العمل حسب التقسيم المتناسب في إيجاد نصيب الشخص الأول أي : $\frac{١٧ \times ١/٢}{١٧/١٨}$ يطابق العمل حسبما أمر به علي عليه السلام وهو ضرب ١٨ في ١/٢ أو: (١٧ + ١) × ١/٢ = ٩.

أي يضاف على ١٧ جملاً، جمل واحد. فيضرب المجموع في ١/٢ فيكون نصيب الشخص الأول، (أو يؤخذ نصفه). وهكذا بالنسبة إلى الثاني والثالث:

∴ ٩ + ٦ + ٢ = ١٧ جملاً (يطابق الأصل).

إن قيام علي عليه أفضل الصلاة والسلام بهذا النوع من التقسيم أي إضافة ١ على ١٧ وأخذ نصف المجموع وإعطاؤه إلى الشخص الأول، وأخذ ثلث المجموع وإعطاؤه إلى الشخص الثاني وأخذ تسع المجموع وإعطاؤه إلى الشخص الثالث أقرب إلى أذهان العوام الذين لا يمكنهم أن يتوصلوا إلى حقيقة تقسيم عدد بنسبة كسور اعتيادية: على أن يكون نسبة ما للأول إلى الثاني كنسبة النصف إلى الثلث:

$$\frac{\text{الأول}}{\text{الثاني}} = \frac{١/٢}{١/٣} = ٣/٢$$

ونسبة ما للثاني إلى الثالث كنسبة الثلث إلى التسع. أي:

$$\frac{\text{الثاني}}{\text{الثالث}} = \frac{١/٣}{١/٩} = ٩/٣ = ٣ \text{ وهو عدد مجرد}$$

ونسبة ما للأول إلى الثالث كنسبة النصف إلى التسع. أي:

$$\frac{\text{الأول}}{\text{الثالث}} = \frac{١/٢}{١/٩} = ٩/٢ = ٤\,١/٢$$

وهكذا نرى أن بعد تقسيم المبلغ حسب قواعد التقسيم المتناسب بنسبة الكسور (أو تقسيم المبلغ بنسبة الصور بعد توحيد المخارج)، تتحقق نفس النسب:

$$\frac{\text{نصيب الأول}}{\text{نصيب الثاني}} = ٦/٩ = ٢/٣$$

$$\frac{\text{نصيب الثاني}}{\text{نصيب الثالث}} = ٦/٢ = ٣$$

$$\frac{\text{نصيب الأول}}{\text{نصيب الثالث}} = ٩/٢ = ٤ ١/٢$$

وهكذا نرى أن علم الامام علي عليه السلام يتجلى في حل المسألة المذكورة بشكل مفهوم لدى العوام في ذلك الوقت، حيث لم تكن العلوم الرياضية معروفة في الجزيرة العربية، حلاً يطابق ما نص عليه علم الحساب الاستدلالي وقد علمنا أن لا فرق بين المنطوقين: (١) تقسيم المبلغ بين ثلاثة أشخاص على أن يأخذ الأول ١/٢ والثاني ١/٣ والثالث ١/٩ ولا يبقى شيء وبين: (٢) تقسيم المبلغ بين ثلاثة بنسبة الكسور الاعتيادية ١/٢، ١/٣، ١/٩ من حيث المآل. وفي السؤال حالة خاصة، أي أن المضاعف المشترك البسيط للمقامات = عدد الجمال + ١ = ١٧ + ١ = ١٨. فاستفاد علي عليه السلام من هذه الحالة الخاصة وحل المسألة بإضافة جمل على عدد الجمال فكان المضاعف المشترك البسيط: ١٨، ولو ضربت الكسور في ١٨ (المضاعف) لما تغيرت النسب، ولكن كحالة خاصة يكون المجموع: ٩ + ٦ + ٢ = ١٧ مساوياً لعدد الجمال.

* * *

وقد رُويت هذه المسألة بشكل آخر ولعلها هي مسألة أخرى، ذلك: أن ثلاثة أشخاص أتوا علياً عليه أفضل الصلاة والسلام ومعهم ١٩ جملاً وأرادوا أن تقسم كلها بينهم على أن يكون للأول ١/٢ وللثاني ١/٤ وللثالث ١/٥ ولا يبقى شيء. فقال عليٌّ عليه السلام: أضيفوا على ١٩ جملاً، جملاً

واحداً. . . فيكون (٢٠). خذوا النصف وأعطوه الشخص الأول. وخذوا الربع وأعطوه الشخص الثاني وخذوا الخمس وأعطوه الشخص الثالث.

١٠ + ٥ + ٤ = ١٩.

فالحل حسبما أمر به علي (ع): ١٩ + ١ = ٢٠ المضاعف المشترك البسيط (كحالة خاصة).

نصيب الشخص الأول = ٢٠ × ١/٢ = ١٠ [لا تتبدل النسب أو
نصيب الشخص الثاني = ٢٠ × ١/٤ = ٥ ضربت كلها في نفس
نصيب الشخص الثالث = ٢٠ × ١/٥ = ٤ المقدار]

١٠ + ٥ + ٤ = ١٩ (عدد الجمال، كحالة خاصة أيضاً)

فالحل حسب قواعد التقسيم المتناسب:

نصيب الشخص الأول = $\frac{١/٢ \times ١٩}{١٩/٢٠}$ = ١٠

نصيب الشخص الثاني = $\frac{١/٤ \times ١٩}{١٩/٢٠}$ = ٥

نصيب الشخص الثالث = $\frac{١/٥ \times ١٩}{١٩/٢٠}$ = ٤

فلا فرق بين النتيجتين، لأن المنطوقين يؤديان إلى نفس النتيجة.

فسلام الله عليك يا علي، من إمام مطاع للمتقين وقاض قدير ورياضي عظيم، وعالم بطرق السماء أكثر منه بطرق الأرض، ومخبر عن حركة الشمس قبل اكتشاف علم الميكانيك السماوي والتلسكوبات والمراقب الجسام. وعالم بطول قطر الشمس قبل تقدم علم الفيزياء والفلك العالي.

وسلام الله عليك يا أمير المؤمنين، يا ميزان الأعمال وسيف ذي الجلال وساقي السلسبيل الزلال، وحجة الله البالغة ونعمته السابغة والصراط الواضح والنجم اللائح ورحمة الله وبركاته.

* * *

المثل الكامل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرعان مهمان من فروع الدين وواجب على كل مسلم أن يقوم بهما وجوب الصلاة، وهما ركنان مهمان، بهما تسعد الأمم وتبلغ أعلى مرتبة من الرقي والكمال. وقد قام على دعامتيهما الاسلام، فبلغ حيث بلغ.

إن الله تعالى يقول: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾. (سورة آل عمران: ١٠٠) وقد قال رسول الله (ص): «إذا ظهرت البدع في أمتي فليُظهر العالم علمَه. فمن لم يفعل فعليه لعنة الله». وقال أيضاً: «لا تزال أمتي بخير ما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وتعاونوا على البر، فإذا لم يفعلوا ذلك نُزعت منهم البركات وسلِّط بعضهم على بعض ولم يكن لهم ناصر في الأرض ولا في السماء».

وقال أيضاً: «أن الله ليبغض المؤمن الضعيف الذي لا دين له، فقيل وما المؤمن الضعيف الذي لا دين له؟ قال: الذي لا ينهى عن المنكر». وجاء في حديث: «ويل لقوم لا يدينون الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». ولا شك أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدي إلى تفسخ الأخلاق وهو علة العلل في تدهور الأمم وسقوطها عدا ما هنالك من عذاب أخروي أليم. فعن أبي الحسن الرضا عليه السلام: «لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر أو ليستعملن عليكم شراركم فيدعو خياركم، فلا يستجاب لهم». و«إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء ومنهاج الصلحاء، فريضة عظيمة بها تقام الفرائض وتؤمن المذاهب وتحل المكاسب وترد المظالم وتعمر الأرض وينتصف من الأعداء ويستقيم الأمر» كما جاء في الحديث.

هذا حسين عليه السلام قد أنكر على معاوية استخلاف يزيد ونهى عن المنكر لأن يزيد، لاستحلاله ما حرّم الله وهتكه حرمات الله، ما كان أهلاً ليتصدّى خلافة العالم الاسلامي، وهو في عنفوان نهوضه وإزدهاره يخاطب حسين (ع) معاوية في كتاب له: «إن لله تعالى كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. وليس الله بناس لأخذك بالظنة وقتلك أولياءه على التهم ونفيك أولياءه من دورهم إلى دار الغربة، وأخذك للناس بيعة ابنك غلام حدث يشرب الشراب ويلعب بالكلاب. ما أراك إلا قد خسرت نفسك وبترت دينك وغششت رعيتك وأخزيت أمتك... ألخ».

وإن معاوية ليعترف بفضل الحسين (ع)، فهو يقول لابنه يزيد: «وما عسيت أن أعيب حسيناً، فوالله ما أرى للعيب فيه موضعاً». وقد نصح حسين عليه السلام معاوية أيضاً حين كان يريد أخذ البيعة ليزيد بقوله: «تريد أن توهم الناس في يزيد، كأنك تصف محجوباً أو تنعت غائباً، أو تخبر عما كان مما احتويته بعلم خاص. وقد دل يزيد من نفسه على موقع رأيه، فخذ ليزيد مما أخذ به من استقرائه الكلاب المهارشة عند التحارش، والحمام السبق لأترابهن والقينات ذوات المعازف وضروب الملاهي تجده ناصراً، ودع عنك ما تحاول، فما أغناك أن تلقى الله بوزر هذا الخلق بأكثر مما أنت فيه».

كيف لا يقوم حسين (ع) بهذه النهضة الخالدة. وقد سمع رسول الله (ص) يقول: «من أرضى سلطاناً جائراً بسخط الله خرج عن دين الله» فأنه «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق». كيف لا يضحي سلام الله عليه بنفسه ونفيسه وقد حفظ عن رسول الله (ص): «لا تحل لعين مؤمنة ترى الله يعصى وتطرف حتى تغيره».

وعن أبي جعفر عليه السلام، قال: أوحى الله إلى شعيب النبي: أني معذّب من قومك مائة ألف، أربعين ألفاً من شرارهم وستين ألفاً من خيارهم فقال (ع): «يا ربِّ، هؤلاء الأشرار، فما بال الأخيار؟» فأوحى الله عز وجل إليه: «داهنوا أهل المعاصي ولم يغضبوا لغضبي».

فالمؤمن حقاً هو ذلك المؤمن الذي يغضب عند انتهاك حرمات الله ويضحي بما لديه إعلاءاً لكلمة الله العليا، ففي حديث: «إن موسى بن

عمران قال: يا ربِّ من أهلُك الذين تظلُّهم في ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظلك؟ فأوحى الله إليه: الطاهرة قلوبهم والبريئة أيديهم، الذين يذكرون جلالي ذكر آبائهم إلى أن قال: والذين يغضبون لمحارمي إذا استحِلت».

وإن الصحابة الموجودين في عصر الحسين (ع) كانوا يعلمون فسق يزيد وظلمه فمنهم من رأى الخروج عليه كابن الزبير ومنهم من امتنع عن مبايعته كعبد الله بن عمرو بن العاص حتى دعا نائب أمير مصر بالنار ليحرق عليه بابه.

ولولا خروج الحسين عليه السلام لاندرست معالم الدين وتمركزت البدع وضاعت السنن. كيف لا يكون ذلك ويزيد يقول متمثلاً بقول ابن الزبعري:

«لعبت هاشم بالملك فلا   خبر جاء ولا وحي نزل»

إن للحسين (ع) وذويه وأصحاب آياتٍ باهرات من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منذ خروجه من مكة حتى رجوع الأسرة النبوية بعد التضحية الغالية إلى مدينة جدهم ثانياً. وقد خطب الحسين عليه السلام حين عزم على الخروج من مكة إلى العراق فقال: «بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله ما شاء الله ولا قوة إلا بالله، وصلى الله على رسوله، خُط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف وخير لي مصرع أنا لاقيه، كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلا، فيملأن مني أكراشاً جوفاً وأجربة سغباً، لا محيص عن يوم خُط بالقلم، رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين، لن تشذ عن رسول الله (ص) لحمته وهي مجموعة له في حظيرة القدس تقر بهم عينه وينجز بهم وعده، ألا ومن كان باذلاً فينا مهجته وموطناً على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا، فاني راحل مصبحاً إن شاء الله».

وقد حمل معه النسوة والأطفال كي يظهر للناس مبلغ الجور ومدى الظلم لئلا يركنوا إلى الظالم ولا يعرضوا عليه دينهم ولا يتابعوه في معالم دينهم.

يصل الحسين عليه السلام إلى كربلا مع أفلاذ كبده وأرحامه الأقربين، فيقول: «ما اسم هذه الأرض، فيقال كربلاء. فيقول سلام الله عليه: «أللهم

أني أعوذ بك من الكرب والبلاء» ثم أقبل على أصحابه، فقال كلمته الخالدة التي يجب أن تكتب بأحرف من نور:

«الناس عبيد الدنيا والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معايشهم فإذا محصوا بالبلاء قلّ الديانون». ما أعظم هذه الكلمة أنها تفسر الطابع الذي طبع عليه الجنس البشري في كل زمان ومكان، ولا يشذ عن ذلك إلا الفذ الأوحدي. «وقليل ما هم». فطالما كان الدين سلعة تجارية تشترى بها الراحة والسلامة والمنافع الخسيسة الدنيوية. وطالما كان الدين وسيلة للبلوغ إلى مناصب زائلة فحرِّف وغُير تبعاً للسياسة المستحكمة.

أنظروا كيف يخاطب الحسين (ع) جيش ابن سعد حين ركب فرس رسول الله (ص) يوم عاشوراء انه يقول:

«تباً لكم أيتها الجماعة وترحاً. أحين استصرختمونا والهين، فأصرخناكم موجفين سللتم علينا سيفاً لنا في إيمانكم وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم، فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم. بغير عدل أفشوه فيكم ولا أمل أصبح لكم. فهلاً لكم الويلات، تركتمونا والسيف مشيم والجأش طامن والرأي لما يستحصف، ولكن أسرعتم إليها كتهافت الفراش. فسحقاً لكم يا عبيد الأمة وشذاذ الأحزاب. ونبذة الكتاب ومحرِّفي الكلم وعصبة الآثام ونفثة الشيطان ومطفيء السنن. هؤلاء تعضدون وعنا تتخاذلون، أجل والله غدر فيكم قديم وشجت عليكم أصولكم وتأزرت عليه فروعكم فكنتم أخبث ثمر، شجى للناظر وأكلة للغاصب، ألا وإن الدعيَّ ابن الدعيِّ قد ركز بين اثنتين، بين السلّة والذلة وهيهات منا الذلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، حجور طابت وطهرت وأنوف حمية ونفوس أبية من أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام، ألا ترون أن الحق لا يُعمل به والباطلَ لا يُتناهى عنه فلا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا بَرماً، ألا وأني زاحف بهذه الأسرة وقلة العدد وخذلان الناصر».

ففي هذه الخطبة المنيفة عبر لا تتناهى ودروس محكمة لا تُستقصى، تتفهمها نفوس زكية وأرواح نقية.

فقد تمّ نهي الحسين عن المنكر بتقديم نفسه الزكية ونفوس أبنائه الأبرياء حتى ولده الرضيع واخوته وأبناء أخيه وأبناء عمه للقتل وأمواله للنهب وخبائه للحرق وعياله للأسر ليفدي بكل ذلك دين جده ويستنقذه من أن يقضى عليه الخمور والفجور.

لا يمكن أن نستقصي مراحل هذا النهي عن المنكر في هذه العاجلة ونختم ذلك بنبذة يسيرة عن خطاب من تولت هذه المهمة بعد قتل الحسين عليه السلام ألا وهي شقيقته الكبرى زينب عليها السلام في مجلس يزيد:

«الحمد لله رب العالمين وصلى الله على رسوله وآله أجمعين صدق الله كذلك حيث يقول: ﴿ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾.

«أظننتَ يا يزيد، حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء، فأصبحنا نُساق كما تساق الإماء، أنَّ بنا هواناً على الله ولك عليه كرامة وأن ذلك لعظم خطرك عنده، فشمخت بأنفك ونظرت في عطفك جذلان مسروراً، حيث رأيت الدنيا لك مستوسقة والأمور متسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا، فمهلاً مهلاً، أنسيت قول الله تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم انما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب أليم﴾.

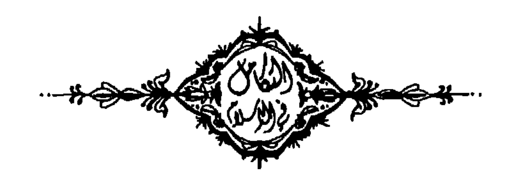
«أمن العدل يا بن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك، وسوقك بنات رسول الله (ص) سبايا، قد هتكت ستورهن وأبديت وجوههن...» إلى آخر ما قالت سلام الله عليها.

فليتخذ المسلمون من هذه التضحية الغالية دروساً بليغة لخدمة هذا الدين وقمع البدع وما جاءنا من وحشية وجاهلية في الأخلاق وتدنيس النفوس من جراء إتباع نوازع الغرب الأثيمة، التي هي خلاصة الشهوات الحيوانية المميتة.

وينبغي أن لا يبهرنا هذا التقدم الصناعي في عالم المادة، فالانسان ليس بمادة فحسب، الانسان انسان بروحه ونفسه وملكاته المعنوية. وان اتباع الغرب في حضارته الشهوانية مما يؤدي إلى إماتة النفس الانسانية وتسافلها إلى أسفل السافلين. والاسلام إذ يأمر بالعمل في شتى الحقول من زراعية وصناعية

وتجارية وعمرانية لا يهمل النفس الانسانية تتردى في دياجير الشهوات والآثام بل يجعل رائده الأسمى تكامل هذه النفس الانسانية وإخراجها من حضيض البهيمية إلى أوج الملكوت. يعترف بذلك كبار فلاسفة الغرب المنصفون الذين لم يتابعوا الغرب في هذيانه وطيشه ومجونه وماديته الساحقة، وكثيراً ما كتبوا أن هذه المدنية المادية الطائشة، مآلها الزوال والانقراض.

فطوبى لنفوس إتعظت بكلمات أهل بيت العصمة (ع) فاتخذت منها مناراً للعروج إلى حيث الطمأنينة والخلود والكمال المنشود.



حسين مني وأنا من حسين

روى الحاكم في المستدرك بسنده عن يعلى العامرى وصححه: أنه خرج مع رسول الله (ص) إلى طعام دعوا له. فاستقبل رسول الله (ص) أمام القوم وحسين مع الغلمان يلعب، فأراد رسول الله (ص) أن يأخذه فطفق الصبي يفر ها هنا مرة وها هنا مرة، فجعل رسول الله (ص) يضاحكه حتى أخذه، قال فوضع إحدى يديه تحت قفاه والأخرى تحت ذقنه، فوضع فاه على فيه يقبله، فقال: «حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسيناً، حسين سبط من الأسباط».

وروى الحاكم في المستدرك أيضاً بسنده عن أبي هريرة، قال: رأيت رسول الله (ص) وهو حامل الحسين بن علي، وهو يقول: «أللهم إني أحبه، فأحبه». وقال رسول الله (ص): «من أحب أن ينظر إلى أحب أهل الأرض إلى أهل السماء فلينظر إلى الحسين». وعن صحيح الترمذي عن أنس بن مالك قال: سئل رسول الله (ص) أي أهل بيتك أحب اليك قال: الحسن والحسين، وكان يقول لفاطمة: أدعي لي ابني فيشمهما ويضمهما اليه.

وفي الاصابة عن أبي هريرة قال: خرج علينا رسول الله (ص) ومعه الحسن والحسين، هذا على عاتقه وهذا على عاتقه وهو يلثم هذا مرة وهذا مرة، حتى انتهى الينا، فقال: من أحبهما فقد أحبني ومن أبغضهما فقد أبغضني. وكان النبي (ص) يصلي فإذا سجد وثب الحسنان عليهما السلام على ظهره. فإذا أرادوا أن يمنعوهما، أشار اليهم أن دعوهما، فلما قضى الصلاة وضعهمافي حجره وقال: من أحبني فليحب هذين.

وكان (ص) يجثو للحسنين عليهما السلام فيركبان على ظهره، ويقول نعم الجمل جملكما ونعم العدلان أنتما.

وحملهما (ص) مرة على عاتقه، فقال رجل: نعم الفرس لكما، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: ونعم الفارسان هما.

وعن صحيحي الترمذي والنسائي كان رسول الله (ص) يخطب، فجاء الحسن والحسين عليهما السلام وعليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله (ص) من المنبر، فحملهما ووضعهما بين يديه وقال: صدق الله، (إنما أموالكم وأولادكم فتنة)، نظرت إلى هـذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما.

وخرج رسول الله (ص) في ليلة في إحدى صلاتي العشاء وهو حامل حسيناً، فوضعه ثم كبر للصلاة. فأطال سجدة الصلاة. قال راوي الحديث فرفعت رأسي وإذا الصبي على ظهر رسول الله (ص) وهو ساجد، فرجعت إلى سجودي فلما قضى الصلاة، قيل يا رسول الله: إنك سجدت بين ظهري صلاتك سجدة أطلتها، حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى اليك. قال (ص): كل ذلك لم يكن ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله.

ومر (ص) على بيت فاطمة، فسمع الحسين يبكي، فقال: «ألم تعلمي أن بكاءه يؤذيني».

وهناك حوادث وأحاديث أخرى تدل على شدة حب النبي للحسين (ع) لا مجال لذكرها مما يدل على عظمة منزلته عند الله وعند رسوله. وبديهي أن رسول الله (ص) وهو سيد المرسلين لا يحب إلا عن دليل وهو أجل من أن تؤثر فيه العواطف.

وإن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وهما إمامان قاما أو قعدا، كما جاء في حديث صحيح.

وقد قال (ص) مرات عدة وبعبارات متنوعة كما روته كافة كتب الحديث «إنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وإني تارك فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي: الثقلين: كتاب الله عز وجل وعترتي أهل بيتي فلا تتقدموهم فتهلكوا، ولا تقصروا عنهم فتهلكوا، ولا تعلموهم فأنهم أعلم منكم، وان اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض». وقد قال (ص) أيضاً: «مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطة من دخله كان آمناً». وقال أيضاً: «مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح».

كيف لا يحب رسول الله (ص) حسيناً وهو الذي سماه حسيناً وأذن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى وحنكه بريقه وعق عنه بكبش وأمر أمه أن تحلق رأسه وتتصدق بوزن شعره فضة. وهو الذي قام بتغذيته أربعين يوماً وليلة، لأن لبن فاطمة سلام الله عليها قد جف بعد أن ولدت حسيناً. فطلب رسول الله (ص) مرضعة، فلم يجد، فكان يأتيه فيلقمه إبهامه، فيمصه ويجعل الله في إبهام رسول الله (ص) رزقاً يغذيه. فأنبت الله لحمه من لحم رسول الله (ص). وهذا ليس بشيء ينكره العقل السليم، إذا صدق معاجز رسول الله (ص) تلك المعاجز التي تفوق هذه المعجزة بدرجات. فكيف لا يقوم الحسين (ع) بعد الاطلاع على ما قدمناه بهذه النهضة المباركة وكيف لا نشارك أهل البيت في الحزن والأسى في هذه الأيام المحزنة، فان أهل البيت كانوا إذا أهلّ شهر محرم الحرام إغتموا وحزنوا وأقاموا المآتم تخليداً لذكرى محي الشريعة بعد الاندثار، أعني حسيناً عليه الصلاة والسلام.

نعم، إن رسول الله (ص) لحزين في هذه الأيام، باك على ولده، كيف وقد بكى وحزن لهذه الفاجعة الأليمة قبل وقوعها وأقام المآتم لأجلها في مجمع أصحابه فأخبرهم بها وبكى وبكوا لبكائه، فكان هو الذاكر وأصحابه المستمعين وقد روى الشيخ أبو الحسين علي بن محمد الماوردي الشافعي في كتابه أعلام النبوة. فقال ما لفظه:

ومن انذاره (ص) ما رواه عروة عن عائشة (رض) قالت: دخل الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما على رسول الله (ص) وهو يوحى اليه فبرك على ظهره وهو منكب ولعب على ظهره، فقال جبرئيل (ع): يا محمد إن أمتك ستفتن بعدك ويقتل ابنك هذا من بعدك ومد يده فأتاه بتربة بيضاء وقال في هذه الأرض يقتل ابنك، اسمها، الطف. فلما ذهب جبرئيل خرج رسول الله (ص) والتربة في يده وفيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وحذيفة وعمار وأبو ذر وهو يبكي، فقالوا: ما يبكيك يا رسول الله؟ فقال: أخبرني جبرئيل إن ابني الحسين يقتل بعدي بأرض الطف، وجاءني بهذه التربة فأخبرني أن فيها مضجعه.

وفي العقد الفريد، قال ومن حديث ٗأم سلمة زوج النبي (ص)، قالت: كان عندي النبي (ص) ومعي الحسين. فدنا من النبي (ص)، فأخذته، فبكى، فتركته، فدنا منه، فأخذته فبكى، فتركته. فقال له جبرئيل: أتحبه يا محمد؟ قال: نعم. قال: اما إن أمتك ستقتله، وإن شئت أريتك من تربة الأرض التي يقتل بها، فبسط جناحه فأراه منها، فبكى النبي (ص).

وفي الصواعق المحرقة، أن علياً مر بكربلاء عند مسيره إلى صفين وحاذى نينوى قرية على الفرات. فوقف وسأل عن اسم الأرض، فقيل كربلاء. فبكى حتى بلّ الأرض من دموعه ثم قال: دخلت على رسول الله (ص) وهو يبكي فقلت ما يبكيك؟ قال: كان عندي جبرئيل آنفاً وأخبرني أن ولدي الحسين يقتل بشاطىء الفرات بموضع يقال له كربلاء، ثم قبض جبرئيل قبضة من تراب أشمني إياه، فلم أملك عيني أن فاضتا.

وقد قال الحسين (ع): أنا قتيل العبرة، لا يذكرني مؤمن إلا استعبر.

فالحسين عبرة كل مؤمن كما جاء في حديث صحيح. وكيف لا تفيض عينا المؤمن عندما يسمع أن حسيناً يتناول طفله الرضيع بعد أن جفت المراضع، فيشرف على الأعداء قائلاً: «إن كنا في زعمكم مذنبين، فما ذنب هذا الرضيع، وقد ترونه يتلظى عطشاً، وهو طفل لا يعرف الغاية ولم يأت بجناية ويلكم أسقوه شربة ماء، فقد جفت محالب أمه وإن كنتم غير مصدقين خذوه مني وأسقوه أنتم». فاختلف القوم فيما بينهم، منهم من قال: أسقوا الرضيع ومنهم من قال: إن الحسين قد بلغ الغاية من الظمأ لو صبرتم قليلاً اسلم أمره اليكم. فخشى ابن سعد العاقبة وأشار إلى حرملة قائلاً: إقطع نزاع القوم، فرمى الرضيع بسهم له في نحره، فذبحه من الوريد إلى الوريد، وصار الطفل يرفرف على يدي والده كالطير المذبوح، فأخذه إلى المخيم استقبلته أخته، قائلة: «يا ابه، لعلك سقيت أخي ماء» فأجابها: «هاك أخاك مذبوحاً». ثم حفر الأرض بسيفه ودفن الرضيع وآماله...

الحسين (ع) يعلم الناس الصلاة في أحرج ساعة

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾. وفي موضع آخر: ﴿ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين﴾. وفي مكان آخر: ﴿ويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾. فلم يهتم الدين الاسلامي بشيء اهتمامه بالصلاة وقد جعلها أساساً لقبول بقية الأعمال بقوله: ﴿الصلاة عمود الدين، إن قبلت قبل ما سواها وإن ردت رد ما سواها﴾. ﴿الصلاة قربان كل تقي﴾. ﴿أول ما يحاسب عليه الصلاة﴾. ﴿وإن أول ما فرض الله تعالى الصلاة وآخر ما يبقى عند الموت الصلاة. وآخر ما يحاسب به يوم القيامة الصلاة، فمن أجاب فقد سهل عليه ما بعده، ومن لم يجب فقد اشتد عليه ما بعده﴾. وقال: ﴿بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة﴾. وفي هذه الأحاديث كفاية لبيان أهمية الصلاة.

إن النبي (ص) كان كثير الصلاة حتى تورمت قدماه. وأما علي (ع) فكان يصلي كل يوم وليلة ألف ركعة. وقد قال فيه ابن أبي الحديد: «كان علي أعبد الناس وأكثرهم صلاة وصوماً ومنه تعلم الناس صلاة الليل وملازمة الأوراد وقيام النافلة وما ظنك برجل يبلغ من محافظته على ورده أن يبسط له نطع بين الصفين ليلة الهرير فيصلي عليه والسهام تقع بين يديه وتمر على صماخيه يميناً وشمالاً فلا يرتاع لذلك ولا يقوم حتى يفرغ من وظيفته». وأما الحسين (ع) فكما روى ابن عبد البر في الاستيعاب حج خمساً وعشرين حجة ماشياً ونجائبه تقاد معه وكان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة.

وقد صلى الحسين (ع) صلوات عدة مشهورات منذ خروجه من مكة فاراً، بغية الاستشهاد في موضع آخر، صيانة لحرمة بيت الله الحرام.

الأولى: أنه عليه السلام بعد أن سار من بطن العقبة ونزل شراف، أمر عند السحر فتيانه فاستقوا الماء واكثروا ثم سار منها حتى انتصف النهار فلاقاهم الحر ومعه ألف فارس وكان قد أثر فيهم العطش فأمر الحسين (ع) فتيانه أن أسقوا القوم وأرووهم من الماء ورشفوا الخيل ترشيفاً، ففعلوا وقد حضر وقت صلاة الظهر. فأمر الحسين عليه السلام الحجاج بن مسروق أن يؤذن. فلما حضرت الاقامة، خرج الحسين عليه السلام فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «أيها الناس، إني لم آتكم حتى أتتني كتبكم وقدمت علي رسائلكم: أن أقدم علينا، فانه ليس لنا إمام، لعل الله أن يجمعنا وإياكم على الهدى والحق. فان كنتم على ذلك فقد جئتكم فاعطوني ما أطمئن إليه من عهودكم ومواثيقكم، وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين، انصرفت عنكم إلى المكان الذي جئت منه اليكم». ثم قال للمؤذن: أقم الصلاة، فأقام الصلاة. فقال للحر: أتريد أن تصلي بأصحابك؟ فقال: لا. بل تصلي أنت ونصلي بصلاتك، فصلى بهم الحسين عليه السلام وكل دخل خيمته. فلما كان وقت العصر أمر الحسين عليه السلام أن يتهيؤا للرحيل. ثم أمر مناديه، فنادى بالعصر، وأقام، واستقدم الحسين عليه السلام فصلى بالقوم. ثم سلم وانصرف اليهم بوجهه. فحمد الله وأثنى عليه. وقال: «أما بعد أيها الناس، إن تتقوا الله وتعرفوا الحق لأهله، يكن أرضى لله عنكم. ونحن أهل بيت محمد، أولى بولاية هذا الأمر عليكم، من هؤلاء المدعين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالجور والعدوان. فإن أبيتم إلا الكراهة لنا والجهل بحقنا وكان رأيكم الآن غير ما أتتني به كتبكم وقدمت علي به رسلكم انصرفت عنكم». فامتنع الحر وأصحابه وجعجعوا به حتى أوردوه كربلاء.

وإن ائتمام الحر بأبي عبد الله الحسين عليه السلام في صلاته يعرفنا قبلاً ان نفسه كانت قمينة لقبول الحق والفوز بالشهادة وحسن السمعة. لذلك يأتي حسيناً يوم العاشر نادماً تائباً فاراً من ابن سعد وأصحابه، قائلاً: «هل لي من توبة». فيتوب على يد الامام عليه السلام، ويستشهد بين يديه ويفوز بالخلود الأبدي في نعيم أبدي. وقد أتمّ الحر بهذا الرشاد الحجة على ابن سعد ومن والاه.

ونادى عمر بن سعد عشية يوم الخميس لتسع مضين من المحرم قائلاً: «يا خيل الله اركبي وبالجنة ابشري» فركب الناس وزحفوا بعد العصر، والحسين عليه السلام جالس أمام بيته محتب بسيفه فجاءه العباس عليه السلام قائلاً: يا أخي أتاك القوم. فقال: يا عباس، «إركب بنفسك أنت حتى تلقاهم، وتقول لهم: ما بالكم وما بدا لكم، وتسألهم عما جاء بهم». فأتاهم العباس (ع) في نحو عشرين فارساً، فسألهم فقالوا: «قد جاء أمر الأمير أن نعرض عليكم أن تنزلوا على حكمه أو نناجزكم». قال: «لا تعجلوا حتى أرجع إلى أبي عبد الله فأعرض عليه». فلما أخبره العباس بقولهم، قال له: «إرجع اليهم. فان استطعت أن تؤخرهم إلى غدوة وتدفعهم عنا العشية لعلنا نصلي لربنا الليلة وندعوه ونستغفره، فهو يعلم أني كنت أحب الصلاة له وتلاوة كتابه وكثرة الدعاء والاستغفار». فرجع العباس عليه السلام وسألهم ذلك. فتوقف ابن سعد فقال له عمر بن الحجاج الزبيدي: سبحان الله. والله لو أنهم من الترك أو الديلم وسألونا مثل ذلك، لأجبناهم. فكيف وهم آل محمد. فجمع الحسين عليه السلام أصحابه قرب المساء فقال: «أثني على الله أحسن الثناء واحمده على السراء والضراء، أللهم إني أحمدك على ان أكرمتنا بالنبوة، وعلمتنا القرآن وفقهتنا في الدين وجعلت لنا اسماعاً وأبصاراً وأفئدة، فاجعلنا لك من الشاكرين». ثم طلب إلى أصحابه أن يتفرقوا عنه جوف الليل، وقال لهم: أنتم في حل مني، فلم يقبلوا وقابلوه بكلمات تدل على عظمة الايمان فيهم فقام الحسين (ع) وأصحابه الليل كله، يصلون ويستغفرون ويدعون ويتضرعون. باتوا ولهم دوي كدوي النحل ما بين قائم وقاعد وراكع وساجد.

سمة العبيد من الخشوع عليهم   لله ان ضمتهم الأسحار
فإذا ترجلت الضحى شهدت لهم   بيض القواضب أنهم أحرار

ولم يشغلهم ما هم فيه من الشدائد وانتظار القتل عن ذكر ربهم فعبر اليهم في تلك الليلة من عسكر ابن سعد اثنان وثلاثون رجلاً. ولا أعلم كيف أصف هذا التهجد. فانهم كانوا يرون الحق علانية وقد رفعت عنهم الحواجب وكشف لهم الغطاء. لذلك تراهم مأنوسين فرحين مستبشرين. فهذا برير،

يداعب عبد الرحمن الأنصاري ويضاحكه. فيقول له عبد الرحمن، يا برير، ما هذه ساعة باطل. فيجيب برير: «لقد علم قومي أني ما أحببت الباطل كهلاً ولا شاباً، وإنما أفعل ذلك استبشاراً بما نصير اليه، فوالله ما هو إلا أن نلقى هؤلاء القوم بأسيافنا ونعالجهم بها ساعة ثم نعانق الحور العين».

وأعظم صلاة يصليها الحسين عليه السلام هي صلاة ظهر العاشوراء. ففي بحبوحة الوغى يأتي أبو ثمامة الصيداوي حسيناً قائلاً: «يا أبا عبد الله، نفسي لنفسك الفداء، هؤلاء قد اقتربوا منك. لا والله، لا تقتل حتى أقتل دونك، وأحب أن القى الله ربي وقد صليت هذه الصلاة». فرفع الحسين عليه السلام رأسه إلى السماء، وقال: «ذكرت الصلاة، جعلك الله من المصلين الذاكرين. نعم هذا أول وقتها». فالحسين عليه السلام يدعو لأبي ثمامة ان يجعله الله من المصلين. كل ذلك، لأنه لا فضيلة ولا مقام أعلى من أن يعد الانسان من المصلين. وهذا تفسير قوله تعالى: ﴿إن الانسان خلق هلوعاً، إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً إلا المصلين﴾. فاستثنى الله تعالى المصلين الذاكرين فهؤلاء بصلواتهم المقبولات تطهر نفوسهم فتأخذ بالكمال ويكونون إذ ذاك فوق البشر العادي، فلا يجزعون عند الشر ولا يمنعون إذا مسهم الخير.

ثم قال الحسين عليه السلام سلوهم أن يكفوا عنا. ففعلوا. . فقال لهم الحصين بن تميم أنها لا تقبل. فقال له حبيب بن مظاهر: زعمت لا تقبل الصلاة من آل رسول الله (ص) وتقبل منكم يا حمار. فحمل عليه الحصين وحمل عليه حبيب رضوان الله عليه فقتل بديل بن صريم ثم قتل. فقال الحسين عليه السلام: «عند الله أحتسب نفسي وحماة أصحابي. لله درك يا حبيب، لقد كنت فاضلاً، تختم القرآن في ليلة واحدة». وقال الحسين عليه السلام لزهير بن القين وسعيد بن عبد الله: تقدما أمامي حتى أصلي الظهر فتقدما أمامه في نحو من نصف أصحابه حتى صلى بهم صلاة الخوف. فوصل إلى الحسين عليه السلام سهم، فتقدم سعيد بن عبد الله ووقف يقيه النبال بنفسه، ما زال ولا تخطى، فما زال يُرمى بالنبل حتى سقط إلى الأرض وهو يقول: «أللهم العنهم لعن عاد وثمود. اللهم، أبلغ نبيك عني السلام وأبلغه

ما لقيت من ألم الجراح. فأني أردت ثوابك في نصرة ذرية نبيك». ثم قضى نحبه رضوان الله عليه، فوجد فيه ثلاثة عشر سهماً سوى ما به من ضرب السيوف وطعن الرماح، وقد خطب الحسين في أصحابه بعد الصلاة، فقال: «يا أصحابي، إن هذه الجنة قد فتحت أبوابها واتصلت أنهارها وأينعت ثمارها وتؤلفت ولدانها وحورها وهذا رسول الله (ص) والشهداء الذين قتلوا معه، أبي وأمي يتوقعون قدومكم ويتباشرون بكم وهم مشتاقون اليكم، فحاموا عن دين الله وذبوا عن حرم رسول الله».

هذه صلاة يصليها الحسين (ع) في أحرج ساعة بين السيوف والرماح فيعلم الناس عظمة الواجب وأنه لا يترك بحال. وان أمر الله فوق جميع الاعتبارات. وان الحرب والنضال إنما هما لتقويم دين الله وإحياء شعائر الله. يعلم الناس أن مبدأ الفضائل إنما هو في صلاة يؤديها الانسان شكراً لخالقه وأن لا فضيلة دون صلاة وخشوع لله تبارك وتعالى. يقدم درساً عملياً: ان الشواغل الدنيوية من تجارة ومرض ولعب وسباق وجهاد وغيرها محكومة تجاه عظمة الصلاة، ولا عمل لمن لا صلاة له مهما عظم العمل في نظره أو في نظر الناس. وهو صلوات الله عليه يختم هذه الصلاة التي لا تشبهها أية صلاة بمناجاة يناجي بها ربه حين بقي وحيداً فريداً قائلاً:

تـركت الخلق طـراً في هـواكـا — وأيتمـت الـعيـال لـكـي أراكـا
فـلو قـطعتـني في الحـب إربـاً — لمـا مـال الـفـؤاد إلى سـواكـا

فإلى الاستفاضة من الدروس الحسينية والاستفادة من عظمته وآثاره الخالدة أدعو إخواني المسلمين.

* * *

لماذا أبكى حسينا (ع)[1]

ما هذا الحزن الذي يحيط بالعالم الاسلامي عند هلال محرم الحرام؟ ما هذا الأسى الذي يتداخل كل مسلم في هذه الأيام؟ ما هذا الوجوم الذي يعم الآفاق؟ لماذا هذه المآتم وهذه المجالس المتعددات في شرق العالم وغربه لماذا تغلق المجوس حوانيتها ثلاثة أيام في هذا الشهر؟ لماذا أتباع براهما بوترا في الهند يقيمون المآتم ويبذلون وينفقون؟ لماذا تصرف آلاف الدنانير لاطعام الفقراء والمساكين في هذه الأيام؟ ذلك لأن حادثاً عظيماً يهز العالم هزاً، ذلك لأن الفضيلة تصطدم بالرذيلة فيكون من نصيبها الخفوق أولاً ثم الفتح والانتصار. ذلك لأن الضلال يريد أن يعود فيأتيه الحسين عليه السلام بنفسه ونفيسه فيقعمه قمعاً. ذلك لأن الجاهلية الجهلاء تريد أن تبرز من جديد فيقابلها السبط بما عز لديه: بطفله وولده وسبي رحله وذراريه ذلك لأن الشرك يريد أن يخرج من قرن الشيطان فتتداركه رحمة الله الواسعة حسين عليه السلام فيمحقه محقاً بأخبية تحرق وستور تهتك وثغور تقرع. كيف لا يهتز العالم لهذا الحادث العظيم وإن حياته فيه: ألا وهي الخلود في نعيم أبدي بتطهير النفس من الدنس والرجس وبعبادة الرحمن: ذلك الذي خُلق الانسان لأجله. كيف لا يضطرب العالم شكراً وتقديراً، فأنه لولا هذا الحادث الجلل لكان مستغرقاً في عبادة الشمس واللات والعزى. فلو بذل العالم كل ما فيه من مال وذاب حزناً وأسى وكآبة وسال دموعاً لما وفى حقاً من حقوق محيي الشريعة ومجددها أعني حسيناً عليه الصلاة والسلام.

ما هذا البكاء؟ إنما هو زفرات يزفرها الانسان مصحوبة بالدموع بصورة غير اختيارية اعترافاً بعظمة الحسين عليه السلام وتقديراً لأعماله الجبارة الخالدة. إنما هو مظهر من مظاهر الحب والولاء. إنما هو إمارة من امارات العشق والوداد. وقد جاء في الحديث: «هل الدين إلا الحب والبغض؟»...

---

(١) كلمة ألقيت في العشرة الأولى من شهر محرم الحرام.

نسمع كثيراً أن كبار الرجال من سياسيين عظام الذين لم يسمع أنهم بكوا لحادثة، يذكرون في تاريخ حياتهم أنهم بكوا مرتين أو ثلاثة طيلة حياتهم أما على أم لهم توفيت أو أب خطفه ريب المنون. كل ذلك لحب يتجلى فيسيل دموعاً ساخنات. وحسين والله قد خدم البشرية أضعاف ما يخدم الوالد ولده والوالدة ولدها. لأنه احيا نفوس العالم الضالة وأخرجها من الحيرة إلى نور الهداية وهداهم سواء السبيل.

لقد حضرت في إحدى العواصم حفلة رائعة لتخليد ذكرى الكيمياوي الشهير: برثلو(Berthelot) وأن أكثر مدن العالم قد إحتفلت في نفس اليوم بذكرى هذا الكيمياوي الذي خدم العالم خدمات مادية تفيد البدن خاصة وما هي نسبة إحياء النفس الانسانية بصورة أبدية إلى خدمة بدنية يقدمها الكيمياوي مع تقديرنا لخدمته.

إن الشرع الاسلامي قد نهى عن البكاء لأمور تافهة دنيوية وأمر بالصبر وجعل البكاء مبطلاً للصلاة واستثنى البكاء أثناء الصلاة خوفاً من الله تعالى أو حباً للحسين السبط، ولذلك يقول صلوات الله عليه: «أنا قتيل العبرة لا يذكرني مؤمن إلا استعبر». فالبكاء على الحسين عليه السلام من علامات الايمان الواقعي الحقيقي. كان الصادق عليه السلام يقول: «الحسين عبرة كل مؤمن».

ليس البكاء على إمحاء الفضيلة يبعث على الذل والمسكنة كما يظنه البعض. فان النفوس لتصدأ كما يصدأ النحاس، ولا يزيل هذا الصدأ إلا البكاء من خشية الخالق والبكاء على ملتقى الفضائل ومجمع التضحيات الحسين عليه الصلاة والسلام.

كان صديق لي من الأفاضل في النجف الأشرف يقول لي: «اني أشعرأن نفسي تصدأ إن لم أحضر مجلس الحسين عليه السلام في كل أسبوع مرة فأبكي، فإذا بكيت أشعر بعد البكاء بارتياح وفرح وسرور واطمئنان وترفع عن العالم المادي». فالميزة الفارقة بين البكاء الباعث على الذل والهوان هو ذلك البكاء الذي يتعقبه حزن وكآبة وظلمات، ولكن البكاء من عقاب الخالق أو

البكاء للندم الحاصل للانسان من جراء ما اقترفت يداه من الذنوب يريح النفس ويبعث على السرور والفرح وكل من جرب ذلك يصدقني فيما أقول.

ولقد شاهدت أناساً كثيرين يبكون حسيناً باخلاص لا تأخذهم في الله لومة لائم جربتهم وسبرتهم فرأيتهم من خيار الناس وأبرارهم. فكأن هذا البكاء الخالص لو كان من معرفة يؤثر في النفس فيهديها سواء السبيل، فتبدو آثار هذه الهداية في الأفعال والمعاملات. أليست التجربة مدار البحث في علم النفس الحديث أو بالأحرى في علم مظاهر النفس. أليس أكثر مقتبسات علم النفس الحديث تتم بطريقة آنكت(Enquete) أي السؤال والتتبع والفحص عن نفسيات ثلة من الناس. وقد وجدت الذين لا يرتضون البكاء على الحسين عليه السلام أقل عطفاً وحناناً من الطبقة الأولى المارة الذكر. فأني أرى أن من علائم الانسان الكامل أن يحزن ويبكي لهذا الحادث العظيم الذي به تجلى الدين وبه عرف الله وبه عبد. كيف لا ويزيد يقول متمثلاً بقول ابن الزبعري:

«لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل
لست من خندف إن لم أنتقم من بني أحمد ما كان فعل»

فهذا البكاء بكاء للدين ولله تعالى وهذه الدموع يتجلى فيها التقدير والشكر والثناء، ومن تتبع أدوار هذا البكاء الحسيني علم كيف يأخذ بالانسان فيجعله في واد كله صفاء وكله نور... ولا يسع المجال أن أنقل مقالاً ضافياً طالعته في مجلة الكلية التي تصدر ببيروت عن فوائد البكاء المادية وكيف يفيد العين وكيف يكون سبباً لقتل كثير من الجراثيم التي تصاب بها العين. ذلك لأن كل ما جاء في الشرع المحمدي من أعمال لها فوائد روحية تؤدي إلى كمال النفس الانسانية وفوائد مادية تفيد الحياة المادية والاجتماعية.

ثم أليس عظماء الدين كانوا غزيري الدمعة مع بسالتهم وشجاعتهم وقيامهم بأعمال خارقة. هذا علي عليه السلام، يصفه ضرار بن ضمرة قائلاً: «كان والله غزير الدمعة... إلى أن قال: لقد رأيته في بعض مواقفه وقد

أرخى الليل سدوله وغارت نجومه، قابضاً على لحيته الشريفة يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين... الخ».

ليس البكاء على الفقيد ببدعة والأدلة على ذلك كثيرة: منها الأصل العملي يقتضي إباحة البكاء على الفقيد ورثاءه بالقريض وتلاوة مناقبه ومصائبه والجلوس حزناً عليه والانفاق عنه في وجوه البر.

ويستفاد من الأدلة اللفظية والسيرة القطعية والأصل العملي استحباب البكاء، إذا كان الفقيد مستجمعاً لصفات الفضل أو مضحياً نفسه في سبيل إحياء الفضيلة، كي يتأسى به الآخرون ويقتدي به الباقون فتنمو الفضيلة وتستأصل الرذيلة. ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد بكى يوم أحد على عمه حمزة حتى قال ابن عبد البر في ترجمته: «لما رأى النبي (ص) حمزة قتيلاً بكى، فلما رأى ما مثل به شهق» (وذكر الواقدي أن النبي (ص) كان يومئذ إذا بكت صفية يبكي، وإذا نشجت ينشج قال: وجعلت فاطمة تبكي فلما بكت بكى رسول الله (ص).

وقد أخرج البخاري أن النبي (ص) بكى على جعفر وزيد وقال: «اخواي مؤنساي ومحدثاي»... وقد بكى رسول الله (ص) يوم مات ولده إبراهيم كما في الجزء الأول من صحيح البخاري صفحة: ١٤٨. فقال له عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟ قال: «يا بن عوف، أنها رحمة». ثم اتبعها (يعني عبرته) بأخرى. فقال: «إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وأنا بفراقك يا ابراهيم لمحزونون».

ومنها يوم ماتت إحدى بناته (ص) فجلس على قبرها كما في صحيح البخاري وعيناه تدمعان. ومنها يوم مات صبي لاحدى بناته إذ فاضت عيناه يومئذ ـ كما في صحيح البخاري وصحيح مسلم ـ فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء».

وقد ذكر ابن عبد البر في استيعابه ما لفظه: دخلت فاطمة وهي تبكي وتقول واعماه. فقال رسول الله (ص): «على مثل جعفر فلتبك البواكي».

وإن أهل المدينة الطيبة لا يزالون إلى الآن إذا ناحوا على ميت بدأوا بالنياحة على حمزة. وما ذاك إلا مواساة لرسول الله (ص) بمصيبته في عمه، وأداء لحق تلك الكلمة التي قالها في البعث على البكاء عليه وهو قوله (ص): «لكن حمزة لا بواكي له».

وأخرج ابن سعد كما في الفصل الثالث من الباب الحادي عشر من الصواعق المحرقة لابن حجر عن الشعبي قال: مر علي (عليه السلام) بكربلاء عند مسيره إلى صفين وحاذى نينوى فوقف وسأل عن اسم الأرض فقيل كربلاء. فبكى حتى بلّ الأرض من دموعه. ثم قال عليه السلام: «دخلت على رسول الله (ص) وهو يبكي فقلت ما يبكيك (بأبي أنت وأمي)؟ قال: «كان عندي جبرائيل آنفاً، وأخبرني أن ولدي الحسين يقتل بشاطىء الفرات بموضع يقال له كربلاء».

وأخرج الملا (كما في الصواعق أيضاً) أن علياً عليه السلام مر بموضع قبر الحسين (عليه السلام)، فقال: «ها هنا مناخ ركابهم وها هنا موضع رحالهم وها هنا مهراق دمائهم. فتية من آل محمد يقتلون بهذه العرصة تبكي عليهم السماء والأرض».

ومن حديث أم سلمة كما نص عليه ابن عبد ربه المالكي حيث ذكر مقتل الحسين عليه السلام في الجزء الثاني من العقد الفريد. قالت: «كان عندي النبي (ص) ومعي الحسين، فدنا من النبي (ص)، فأخذته، فبكى، فتركته فدنا منه، فأخذته فبكى، فتركته. فقال له جبرائيل أتحبه يا محمد؟ قال: نعم. قال: إن أمتك ستقتله وإن شئت أريتك الأرض التي يقتل بها فبكى النبي صلى الله عليه وآله وسلم».

فإلى تعظيم الشعائر وإلى إحياء وتقوية الدين بتخليد اسم من خلد الدين وأحياه وأعني به حسين الفضيلة وحسين الأباء أدعو اخواني المسلمين.

كيف نجلب الشباب إلى حظيرة الاسلام

كل منا يعلم أن الأكثرية الساحقة من شبابنا اليوم بعيدون عن الاسلام كل البعد، فهم بين مؤمن بمبادىء الاسلام غير مؤدٍ للفرائض ومنفلت عن الأخلاق الاسلامية إلا القليل وبين مستهزىء بالمقدسات والتعاليم الاسلامية وناظر إلى ما أوجبه الله من واجبات نظرة سخرية وازدراء وبين عدو للاسلام ومبادئه. كل ذلك، لأن الصهيونية والمسيحية والاستعمار قامت منذ مائتي سنة بأساليب شتى عن طريق التعليم وتأسيس نوادٍ للشباب وغيرها بانتزاع العقيدة الاسلامية عن الشباب وعرض الاسلام كمبدء بالٍ خرافي لا يماشي الترقي والتقدم، كمبدأ معارض لمفاهيم العصر والحضارة الغربية التي يجب أن تعتنق لمواكبة السير التقدمي بين الأمم وإلا فالموت والفناء!.

فقد خسرنا نتيجة جهود بذلها الغرب ٨٠٪ من شبابنا. وان العدد ليتفاقم يوماً بعد يوم. مع العلم أن الشباب طاقة لا يستهان بها بل هو الثقل الوزين الذي يجب أن يتحمل مسؤولية الاحتفاظ بالرسالة المحمدية ونشرها بين الأصقاع.

فما الذي يجب أن نقوم به لارجاع الشباب المخدوع إلى حظيرة الاسلام وإلى تفهم الاسلام كمبدأ يفي بجميع ما يحتاجه الانسان من دساتير لتكامله في جميع الحقول من اجتماعي واقتصادي وقضائي وعسكري وسياسي وعلمي وما يحتاجه من تعاليم لتحقيق آخرة سعيدة.

هذا ما يجب أن يفكر فيه المفكرون وأن يكون شغلهم الشاغل. لا شك أن النشرات الدينية تؤثر إلى حدٍّ ما في ردع الشباب عن غوايتهم وتحبيبهم الاسلام. ولكن قلّ من يحمله حب الاطلاع على اقتناء نشرات دينية ومطالعتها وان المجلات الخلاعية لا تدع مجالاً للتفكير في نواح أخرى تهذيبية.

ومن الواضح أن التدريس في المدارس من ابتدائية وثانوية وعالية لا يبتني على توحيد الله تبارك وتعالى وعزو كل نظام وقانون في هذا الكون إلى الله

المبدع الحكيم... بل تدور على الألسنة: أن الطبيعة هي التي صنعت كذا وجهزت بكذا وان الطبيعة عالجت وتداركت!... إلى ما هنالك. فينشأ الطالب بعيداً عن توحيد الله تبارك وتعالى في أرضه وسمائه، بعيداً عن تقديسه وعزو كل كمال إليه[1]... وقد يؤول أمره إلى الالحاد! لا سمح الله.

هذا هو الواقع المرير الذي نلمسه اليوم في شبابنا. فهل تكفي المواعظ فحسب ومن يرى الشباب حتى يَعظهم؟ وفي أي محل يعظهم؟ فهل هناك من مشوقات لاجتماعهم في محل خاص؟!.

فأساليب الدعوة إلى حظيرة الاسلام يجب أن تتطور حسب مقتضيات العصر. شريطة أن لا تتنافى مع ما قرره الشرع الشريف.

فلا بد أن ينبري الأثرياء من المسلمين مقدرين الوضع المبكي باذلين من نفوسهم ونفائسهم لتأسيس نوادٍ للشباب يرأسها من يعتمد عليه في دينه وتقواه وعلمه، فيطبق لتربية الشباب في أوقات فراغهم مناهج اسلامية رصينة.

إن هذه النوادي هي مدارس إسلامية تجذب الشباب اليها بأسلوب شيق، ففيها قاعة لالقاء المحاضرات، وفيها مصلى كبير لاقامة الفرائض، وفيها مكتبة اسلامية وفيها ساحات لرياضات بدنية وما يقوي الأجساد وهناك صفوف لإلقاء دروس في الدين والأخلاق وعلم التجويد والتفسير وتاريخ الاسلام. وهناك امتحانات تعين مقدار أهلية الشاب للقيام بالدعوة الاسلامية فهذه النوادي أو المدارس الاسلامية لها مناهجها وساعات للعمل وفعاليات شتى، وتعلِّم في الوقت نفسه بعض الصنايع ليستعين بها المبشر بالدين الاسلامي: (الداعية) في بعض الأحيان وعند الضرورة.

إن في الشباب طاقات وقوى لا بد وأن تتوجه بصورة طبيعية لتبذل في ناحية من النواحي بشكل سلبي أو إيجابي، فعلينا أن نستغل هذه الطاقات وأن نستفيد منها لتربية الشاب تربية سليمة، تربية اسلامية رصينة، تربية فيها

---

(١) قد يصرف أحدهم عشرين سنة من العمر للوقوف على حياة النملة بالتفصيل. أفلا يجدر به أن يصرف شيئاً من العمر لمعرفة خالق النملة!.

مرغبات مشروعة ومشوقات يقرها الدين الاسلامي: جمال المحل، النظافة المتناهية، تلاوة القرآن بصوت رخيم، أخلاق فاضلة وتحابب وتواد أمر بهما الاسلام.

الشاب يريد أن يعمل، يريد أن ينتج، يريد الحركة والفعالية، فهذه النوادي تحقق رغبات الشباب وذلك بتقسيم واجبات وفعاليات شتى على الشباب المنتمين إلى هذه النوادي: من إدارة مكتبة أو تطبيق منهج أو إلقاء كلمة أو هداية شاب أو المساهمة فيما يقوي الجسم من رياضة بدنية وألعاب رياضية مشروعة أو القيام بأعمال تجارية لترتيب قاعة المحاضرات إلى ما هناك من فعاليات لا تدع مجالاً لأن تصرف أوقات فراغ الشاب في ما يفسد دينه ودنياه.

وقد شاهدت في أستانبول قبل حوالي أربعين عاماً نادياً هاماً أسسه قس أمريكي يرتدي الألبسة العادية، إن هذا النادي كان ينتمي إلى جمعية الشبان المسيحيين(Y. M.C.A) . كنت ترى في هذا النادي ما يحقق راحة الشاب من مناضد وكراسي ووسائل للمطالعة وساحات للعب، وقد لاحظت أنه قد وضعت في القاعة الكبرى قطعة مكتوب عليها سورة الفاتحة من القرآن الكريم وبجنبها قطعة أخرى مكتوب عليها عبارات من الانجيل المتداول!.

وكانت تلقى محاضرات على الطلاب في كل أسبوع في أوقات معينة لتوجيههم إلى هدف معين، وكانت تقوم الجمعية في الصيف بأخذ الشبان إلى سواحل البحر ونصب الخيم لتدريبهم تحت مناهج معينة واستمالتهم نحو الهدف المنشود!.

يقول الأستاذ محمد مهدي الآصفي في كتابه: (من حديث الدعوة والدعاة):

دُعيت في طهران إلى الكنيسة الانجيلية من قبل الدكتور (جان آلدر) زعيم الحركة المسيحية في إيران لنتحدث عن شؤون الاسلام والمسيحية فأدهشني نشاط الحركة وتوسعها وقوتها وإيمان أصحابها بها واهتمام المسيحيين بتجهيزها وتمويلها. وأشجاني أكثر من أي شيء آخر: أنني رأيت ثلة من

الشباب المسلم المتنصر يعملون في تسيير هذه الحركة وتجهيزها. فكان ينادي أحدهم الآخر: مصطفى، محمد، حسن، علي، فسألت عن حالهم. فقالوا: «نحن من المسلمين المتنصرين، راقتنا الدعوة فاستجبنا لها». فسألتهم عما إذا كانوا يعرفون شيئاً عن الاسلام، فكان الجواب بالنفي. وكانوا لا يحسنون قراءة شيء من القرآن. مع العلم أنهم كانوا يحفظون جملاً طويلة من العهد الجديد والعهد القديم من الكتاب المدعو بـ (المقدس).

يقول الأستاذ الأصفي: «تعتمد المسيحية في التبشير على الأساليب العاطفية أكثر من أي جانب آخر وتستغل العاطفة قبل أن تستغل العقل أو من غير أن تستغل العقل. فطقوس العبادة تجري في جو متكهرب بموسيقى عذبة وألحان شجية مثيرة والنشيد الديني يسبح على فضاء الكنيسة ممتزجاً بالأنغام الموسيقية في جو ممغطس ساحر. والنشيد حقل من حقول الشعر العاطفي الرقيق، يلعب بأفكار الحاضرين وعواطفهم، فتستتر عليهم منافذ العقل والتفكير. ثم هناك ضروب الاغراء والوعد الكاذب. فالمؤمن الخاطىء إذا اغتسل بماء التعميد واعترف للقسيس بكل شيء فقد وهب الله له ما تقدم من ذنبه، وما أدراك ما لمشهد التعميد من روعة وسحر».

مما لا شك فيه أن الغزو التبشيري كان يعتمد منذ أمد بعيد على فتح مدارس ابتدائية وثانوية وسلسلة من النشرات بورق جيد وطباعة أنيقة لمختلف الطبقات: للأطفال والشبان وغيرهم.

وأما التبشير المسيحي في أفريقيا فحدث عنه ولا حرج، فأنه يجري بمقياس واسع جداً، فهناك مبشرون يوفدون مع تعليمات خاصة للمستعمرات، وتفتح للأهلين معاهد للتدريس ثم يؤتى بمطبعة وتطبع فيها النشرات المسيحية، فإذا حاولت هذه المستعمرة أن تتحرر، رجع هؤلاء المبشرون وحل محلهم مبشرون آخرون من طراز آخر وتعليمات خاصة، فإذا تحرر البلد نهائياً واستقل استقلالاً تاماً حل محل هؤلاء القسيسين قسيسون آخرون وهكذا... ولكن الافريقيين يميلون مع كل ذلك إلى الاسلام أكثر من أي دين آخر ويدخل منهم في دين الاسلام أفواج وأفواج، لعلمهم أن الاسلام يأمر بالتحرر والاستقلال ويأبى الذل والاستعمار.

﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾[1].

وقد قرأت في إحدى المجلات أن عدداً كبيراً من الشبان المسلمين في (وينه) عاصمة أطريش قد تقدموا بطلب إلى المراجع الدينية يرجون فيه أن يرسل اليهم عالم ديني يعلمهم مبادىء الدين القويم.

وقد تأسس مركز اسلامي في جنيف (Geneve) في سويسرا باسم (Islamic center) لنشر تعاليم الاسلام والاتصال بالجمعيات الاسلامية في أرجاء العالم.

وهناك جمعيات اسلامية مهمة تأسست في الهند تعمل لأجل نشر الاسلام في أنحاء العالم ولها نشرات بلغات شتى، وهناك نداءات تأتي من اليابان يطلبون بالحاح أن يرسل لهم دعاة يدعون الناس إلى الاسلام. وأما أفريقيا فخير بقعة لنشر الاسلام في الوقت الراهن فان عدد المسلمين يزداد في أفريقيا (٥٠٠ ٠٠٠) نسمة في كل سنة، وقد كان في بداية القرن العشرين (٤٠٠٠٠) مسلم في الكونغو واليوم عددهم (٢٣٦٠٠٠) وان (لومومبا) كان يميل إلى الاسلام، وكان يقول: «أني أتعجب أن المسيحيين كانوا يعلموننا في المدارس أن نحترم الأسس المسيحية وكانوا يقولون يجب أن يسود الحب والوئام بين أفراد البشر، ولكن المسيحيين أنفسهم كانوا يخالفون ما يقولون وكانوا يسحقون أسس المدنية والانسانية تحت أقدامهم وان التعليمات المدرسية تخالف مخالفة صريحة مع معاملتهم السود: الملونين». كما أن في أمريكا مجالاً واسعاً لتثبيت دعائم الاسلام.

فالاسلام دين الفطرة، دين العقل والمنطق، تتقبله النفوس بكل ارتياح، لذلك نراه ينتشر في استراليا من قبل جمالين، وذلك أن القاطنين في استراليا احتاجوا إلى وسائل النقل لبعد المدن بعضها عن بعض بمسافات شاسعة، وأرسل لهم من الأفغان عدد من الجمال مع أصحابها المسلمين، فنشر هؤلاء الجمالون الدين الاسلامي مع كونهم من عوام الناس في تلك الأصقاع، وبنى المسلمون هناك مساجد فخمة يتلى فيها كتاب الله وتقام فيها الصلوات فليعلم

(١) سورة المنافقين: ٨.

شبابنا أن الغرب لا يزال متمسكاً بدينه، وهو يحارب الاسلام بشتى الوسائل، ففي أمريكا (٢١٢٠٠٠) داعية للتبشير بدين المسيح (ع)، وعشرات الألوف من الكنائس والأديرة والمؤسسات التبشيرية وما إلى ذلك من المعاهد والمستشفيات. والحكومة الأمريكية تبذل الدولارات في هذا السبيل، وللكنيسة سلطتها في أمريكا. ولقد ترجم الكتاب المقدس: (الانجيل) المتداول إلى ٦٣٠ لغة، وفي بعض الجامعات توضع صورة المسيح (ع) على شهادة التخرج.

فجدير بشبابنا أن لا تأخذهم في الله لومة لائم وأن يعملوا مجدين لنشر الاسلام في أصقاع الأرض، أينما حلوا، بعد دراسة الاسلام دراسة متقنة ودراسة القرآن الكريم دراسة وافية وعلم الحديث وشيء من الفقه. ففي ذلك نجاتهم ونجاة العالم مما تنتابه من ويلات ولهم بذلك عند الله أجر عظيم.

﴿ومَن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال انني من المسلمين﴾[1].

* * *



(١) حم السجدة: ٣٣.

شهر الغفران

إن الله تبارك وتعالى لعلمه بما ستجنيه هذه النفس الأمارة بالسوء من الموبقات والمدنسات والخبائث، هيأ لها شتى الوسائل لتتوب إلى ربها وتكفِّر عن سيئاتها وتحظى بغفران الله وجليل رحمته. ومن أهم تلك الوسائل المطهِّرة للنفس الانسانية من الدنس والرجس هو شهر رمضان المبارك بما فيه من امساك وتسبيح وتهليل وتحميد ومناجاة وتلاوة قرآن وصدقة وإطعام وكفٍّ النفس والجوارح عن الأذى وكل ما يؤدي إلى التسافل والتدنس. فالصوم نعم المربي وإن شهر رمضان المبارك شهر تربية وتزكية، شهر تهذيب وتثقيف دينيين. فكما أن بعض الأمم تخصص أسبوعاً لشؤون التربية فتسمي هذا الأسبوع أسبوع التربية أو أسبوع المعارف، كذلك فان الله تبارك وتعالى رحمة بعباده قد خصص شهراً للانابة والاستغفار وكفِّ النفس عن مشتهياتها كي تكمل بالصبر والعزم على اقتحام الأذى. فان النفوس تقاس بدرجة تحملها النوائب وصبرها على المكاره. لذلك قد جاء في الحديث القدسي أن الله يقول: ﴿الصوم لي وأنا أجزي عليه﴾. وفي حديث آخر: «عمل ابن آدم له إلا الصيام فهو لي وأنا أجزي به». نعم ان الله يمتحن عباده بالصبر على البلاء والمكاره لأمرين، أولهما: أن البلايا والمكاره مهذِّبة للنفس آخذة إياها إلى أرفع مراتب الكمال، ثانيهما: ليكون الجزاء عن جدارة ولياقة. وهو القائل: ﴿وإن ليس للانسان إلا ما سعى وان سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾. ولا شيء أعلى مرتبة عند الله من الصبر. والصوم تمرين ورياضة على الصبر. فقد قال الله تعالى كما جاء في الحديث: «كل أعمال ابن آدم بعشرة أضعافها إلى سبعمائة ضعف إلا الصبر فانه لي وأنا أجزي به» فثواب الصبر مخزون عند الله والصبر هو الصوم وقد روي في قوله تعالى: «واستعينوا بالصبر» أي بالصيام. ولما كان الصوم في الحر أشد لذلك جاء عن الصادق عليه السلام: «مَن صام يوماً في الحر فأصابه ظمأ وكل الله عز وجل به ألف ملك يمسحون وجهه ويبشرونه حتى يفطر وقال الله عز وجل: ما أطيب ريحك وروحك، ملائكتي اشهدوا أني قد غفرت له».

ومن كلام رسول الله (ص): الشقي من حرم غفران الله في هذا الشهر. وإنما سمي هذا الشهر بشهر رمضان، لأنه يرمض الذنوب (أي يحرقها) كما جاء في الحديث. وفي الاقبال عن كتاب الجعفريات عن الكاظم عن الصادق عن زين العابدين عن الحسين بن علي عن علي بن أبي طالب عليهم السلام قال: لا تقولوا رمضان، فانكم لا تدرون ما رمضان، فمن قاله فليتصدق وليصم كفارة لقوله، ولكن قولوا كما قال الله تعالى: شهر رمضان. كل ذلك تنويهاً بعظمة هذا الشهر حتى سماه الله تعالى باسمه. ولكن قد ورد في بعض الأخبار لفظ رمضان مجرداً عن لفظ الشهر ولذلك حمل على الكراهة.

الصوم زكاة الأبدان ومطهر إياها من الخبائث. فقد جاء في الحديث: ان لكل شيء زكاة وزكاة الأبدان الصيام. وما أعظم الخطاب الذي خطب به رسول الله (ص) الناس قبيل شهر رمضان المبارك، فإنه مستجمع لجميع الخصال التي يكون بها الانسان انساناً كاملاً، انه خلاصة جميع الفضائل ودستور جامع لجميع الكمالات. فأين هذا البشر المادي المسكين من التمسك بهذه الفضائل وتتبع هذه المكرمات، ليست الوسائط المادية من النفس الانسانية وكمالها في شيء. ولا أعلم ماذا ينتظر البشر بعد هذا الدستور الالهي. فلا دستور بعد دستور محمد (ص) وهل يجدون معشار ما في هذا الحديث النبوي من دساتير تكامل البشر في نظريات: دكارت أو اسبينوزا أو مالبرانش أو بركسون(Bergson) أو اسبنسر أو روسو.

فقد روى الصدوق في الأمالي بسنده عن الرضا عن أبيه عن آبائه عن علي عليهم السلام عن النبي (ص) أنه خطب الناس ذات يوم فقال: «أيها الناس، إنه قد أقبل اليكم شهر الله تعالى بالبركة والرحمة والمغفرة. شهر هو عند الله أفضل الشهور وأيامه أفضل الأيام ولياليه أفضل الليالي وساعاته أفضل الساعات. وهو شهر قد دعيتم فيه إلى ضيافة الله وجُعلتم فيه من أهل كرامة الله، أنفاسكم فيه تسبيح ونومكم فيه عبادة وعملكم فيه مقبول ودعاؤكم فيه مستجاب. فاسألوا الله ربكم بنيات صادقة وقلوب طاهرة ان يوفقكم لصيامه وتلاوة كتابه، فان الشقي من حُرم غفران الله في هذا الشهر العظيم. واذكروا بجوعكم وعطشكم فيه جوع يوم القيامة وعطشه. وتصدقوا على فقرائكم

ومساكينكم، ووقروا كبـاركم وارحموا صغـاركم وصلوا أرحامكم واحفـظوا ألسنتكم وغضوا عما لا يحل النظر إليه أبصاركم وعما لا يحل إليه الاستماع أسماعكم وتحننوا على أيتام الناس يتحنن على أيتامكم، وتوبوا إلى الله من ذنوبكم، وارفعوا إليه ايديكم بالدعـاء في أوقات صلواتكم، فـانها أفضل الساعات، ينظر الله عز وجل فيها بالرحمة إلى عباده ويجيبهم إذا ناجوه ويلبيهم إذا نادوه. ويستجيب لهم إذا دعوه».

«أيها الناس إن أنفسكم مرهونة بأعمالكم ففكوها باستغفاركم، وظهوركم ثقيلة من أوزاركم، فخففوا عنها بطول سجودكم، واعلموا أن الله جل ذكره أقسم بعزته أن لا يعذب المصلين والساجدين، وأن لا يروعهم بالنار يوم يقوم الناس لرب العالمين».

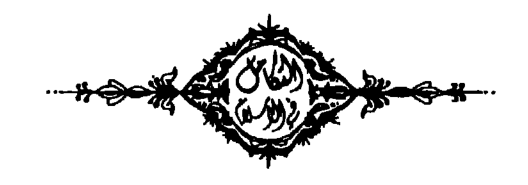
أيها الناس من فطر منكم صائماً مؤمناً في هذا الشهر كان له بذلك عند الله عتق رقبة ومغفرة لما مضى من ذنوبه، فقيل يا رسول الله وليس كلنا يقدر على ذلك؟ فقال (ص): اتقوا النار ولو بشق تمرة. اتقوا النار ولو بشربة من ماء».

أيها الناس، من حسن منكم في هذا الشهر خلقه كان له جواز على الصراط يوم تزل فيه الأقدام. ومن خفف فيه منكم عما ملكت يمينه خفف الله عليه حسابه ومن كفّ فيه شره كف الله غضبه عنه يوم يلقاه، ومن أكرم فيه يتيماً أكرمه الله يوم يلقاه. ومن قطع فيه رحمه قطع الله عنه رحمته يوم يلقاه. ومن تطوع فيه بصلاة كتب الله له براءة من النار، ومن أدى فيه فرضاً كان له ثواب من أدى سبعين فريضة فيما سواه من الشهور. ومن أكثر فيه من الصلاة عليَّ ثقل الله ميزانه يوم تخف الموازين. ومن تلا فيه آية من القرآن كان له أجر من ختم القرآن في غيره من الشهور».

«أيها الناس إن أبواب الجنان في هذا الشهر مفتحة، فاسألوا الله ربكم أن لا يُغلقها عنكم، وأبواب النيران مغلقة، فاسألوا الله ربكم أن لا يفتحها عليكم، والشياطين مغلولة، فاسألوا الله ربكم أن لا يسلطها عليكم».

قال أمير المؤمنين عليه السلام: فقمت وقلت يا رسول الله، ما أفضل

الأعمال في هذا الشهر؟ فقال: يا أبا الحسن، أفضل الأعمال في هذا الشهر. الورع عن محارم الله عز وجل. ثم بكى. فقلت يا رسول الله، ما يبكيك؟ فقال: يا علي، لما يُستحل منك في هذا الشهر. كأني بك، أنت تصلي لربك وقد انبعث أشقى الأولين والآخرين، شقيق عاقر ناقة ثمود، فيضربك ضربة على قرنك تخضب بها لحيتك، قال أمير المؤمنين عليه السلام، فقلت: يا رسول الله وذلك في سلامة من ديني؟ فقال (ص): في سلامة من دينك. ثم قال: يا علي، من قتلك فقد قتلني ومن أبغضك فقد أبغضني، لأنك مني كنفسي وطينتك من طينتي... إلى آخر الحديث.



ساعات هذا الشهر المبارك

قد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أول خطبته المشهورة: «أيها الناس، إنه قد أقبل إليكم شهر الله تعالى بالبركة والرحمة والمغفرة». حقاً، إن هذا الشهر شهر الرحمة وشهر المغفرة. فقد جاء في الاقبال بسنده عن أبي عبد الله (ع)، قال: «إذا كان أول ليلة من شهر رمضان غفر الله لمن شاء من الخلق، فإذا كانت الليلة التي تليها ضاعفهم، فإذا كانت الليلة التي تليها ضاعف كلما اعتق إلى آخر ليلة في شهر رمضان يضاعف مثل ما اعتق في كل ليلة». وبسنده عن سعيد بن جبير، سألت ابن عباس: ما لمن صام شهر رمضان وعرف حقّه؟ قال: تهيأ يا ابن جبير حتى أحدثك بما لم تسمع أذناك ولم يمر على قلبك... (إلى أن قال) سمعت رسول الله (ص) يقول: «لو علمتم ما لكم في شهر رمضان لزدتم لله شكراً. إذا كان أول ليلة منه غفر الله لأمتي الذنوب كلها سرها وعلانيتها. ورفع لكم ألفي درجة وبنى لكم خمسين مدينة، ثم ذكر لكل يوم من أيامه فضلاً عظيماً، (إلى أن قال): فإذا تمّ ثلاثون يوماً كتب الله عز وجل لكم بكل يوم مر عليكم ثواب ألف شهيد وألف صديق وكتب الله عز وجل لكم عبادة خمسين سنة وكتب الله لكم بكل يوم صوم ألفي يوم ورفع لكم بعدد ما أنبت النيل درجات وكتب الله عز وجل لكم براءة من النار وجوازاً على الصراط وأماناً من العذاب. وللجنة باب يقال له الريّان، لا يفتح إلى يوم القيامة. ثم يفتح للصائمين والصائمات من أمة محمد (ص). ثم ينادي رضوان خازن الجنة: يا أمة محمد، هلموا إلى الريان. فتدخل أمتي من ذلك الباب. فمن لم يغفر له في شهر رمضان ففي أي شهر يُغفر له». وفي حديث آخر: «إن لله ملائكة موكلين بالصائمين يستغفرون لهم في كل يوم من شهر رمضان إلى آخره وينادون الصائمين كل ليلة عند إفطارهم: ابشروا عباد الله، فقد جعتم قليلاً وستشبعون كثيراً. بوركتم

وبورك فيكم. حتى إذا كان آخر ليلة من شهر رمضان: ناداهم أبشروا عباد الله، فقد غفر الله لكم ذنوبكم وقبل توبتكم، فانظروا كيف تكونون فيما تستأنفون».

كيف لا يكون كذلك، وإن الصائم يعتزم ترك النميمة والغيبة والفحش والسباب وأكل أموال الناس بالباطل والكذب على الله ورسوله والنظر إلى ما حرم الله والجدل والمراء والخمر والميسر والربا وكل ما حرم الله ورسوله صلى الله عليه وآله. فانه بتركه هذه الموبقات يوشك أن تحصل له طبيعة ثانية طاهرة وأن يصبح انساناً كاملاً سوياً مقرباً إلى الله وموضعاً لرحمته وجزيل سيبه.

كم رأينا أناساً قد توغلوا في الشهوات والمدنسات، فتطهروا عنها بفضل شهر رمضان المبارك، فأنه كما قال رسول الله (ص) في خطبته المشهورة «أيامه أفضل الأيام ولياليه أفضل الليالي وساعاته أفضل الساعات». وذلك لأن الانسان يشعر وهو صائم أنه يتقرب إلى ربه في كل لحظة وهو يذكر الله في كل آن، فكلما عطش أو جاع تذكر أنه يطيع الله ويمتثل أوامره بتحمله هذا العطش وذلك الجوع، فيتوجه بكلِّه إلى خالقه وتقوى هذه الرابطة بين العبد والمعبود. وإن النفس الانسانية لتتطهر بدرجة قوة هذه الرابطة.

ما أحلى الصوم، فانه ذكر عملي لله تعالى، ويلي هذا التذكر ما يقوم به الصائم من أعمال خيرية مؤكدة في هذا الشهر: أدعية خاصة بالنهار دعاء عند الافطار وغسل في ليالي الافراد وأدعية بعد الافطار وصلوات مستحبة في كل ليلة وتلاوة القرآن وحضور مجالس الوعظ والارشاد والقيام بصلاة الليل عند السحر ومناجاة الله تعالى في الأسحار وقراءة أدعية السحر.

حقاً، إن هذه الأعمال توصل الانسان إلى يقين كامل وإلى اطمئنان نفسي يكون العبد فيه كأنه يرى الله تعالى ويناجيه.

ما احلى الاستغفار والبكاء من خوف الباري عند السحر. وهو القائل: ﴿وبالاسحار هم يستغفرون﴾.

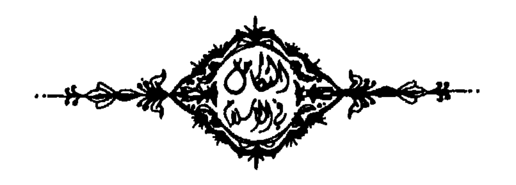
أتذكر تلك الساعات الثمينة التي كنت أقضيها في حرم مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. فقد كنت أرى بجنبي رجالاً مؤمنين غمرهم

حب إلهي، يقرؤون دعاء أبي حمزة الثمالي المروي عن زين العابدين علي بن الحسين (ع)، وهم يبكون بكاء الثكلى. تنهمل دموعهم على خدودهم خوفاً من الله تعالى وشوقاً إليه. وقد تمنعهم هذه الدموع المملوءة بفرح عظيم الاستمرار في القراءة. قد علاهم من الخشوع والخضوع والخلوّ بالله تعالى حالة لا يشعر بها إلا ذو حظ عظيم.

وها إني أذكر من هذاالدعاء بعض فقراته، ليعلم هذا الانسان المادي أنه لم يُخلق للدنيا فحسب، وإنما خلق لحياة خالدة، لـ(جنة عرضها السموات والأرض أعدّت للمتقين). فـ«الدنيا مزرعة الآخرة».

يقول زين العابدين (ع) في دعائه: «إلهي لا تؤدبني بعقوبتك، ولا تمكر بي في حيلتك، من أين لي الخير يا رب ولا يوجد إلا من عندك، ومن أين لي النجاة ولا تُستطاع إلا بك... (إلى أن يقول): الحمد لله الذي أناديه كلما شئت لحاجتي وأخلو به حيث شئت لسري، بغير شفيع فيقضي لي حاجتي... (إلى أن يقول): معرفتي يا مولاي دلتني عليك، وحبي لك شفيعي اليك، وإني واثق من دليلي بدلالتك، وساكن من شفيعي إلى شفاعتك، أدعوك يا سيدي بلسان قد أخرسه ذنبه، ربِّ، أناجيك بقلب قد أوبقه جُرمه... (إلى أن يقول): وما أنا يا رب وما خاطري، هبني بفضلك وتصدق علي بعفوك، أي ربِّ جللني بسترك واعف عن توبيخي بكرم وجهك... (إلى أن يقول): فوعزتك يا سيدي، لو انتهرتني ما برحت من بابك، ولا كففت عن تملقك لما انتهى إليّ من المعرفة بجودك وكرمك... (إلى أن يقول): سيدي لعلك عن بابك طردتني، وعن خدمتك نحيتني أو لعلك رأيتني مستخفاً بحقك فأقصيتني، أو لعلك رأيتني معرضاً عنك فقليتني، أو لعلك وجدتني في مقام الكاذبين فرفضتني، أو لعلك رأيتني غير شاكر لنعمائك فحرمتني، أو لعلك فقدتني من مجالس العلماء فخذلتني، أو لعلك رأيتني من الغافلين فمن رحمتك آيستني، أو لعلك رأيتني آلف مجالس البطالين فبيني وبينهم خليتني... (إلى أن يقول): وأعني بالبكاء على نفسي، فقد أفنيت بالتسويف والآمال عُمري. وقد نزلت منزلة الآيسين من خيري، فمن يكون أسوأ حالاً مني إن أنا نقلت على مثل حالي إلى قبرٍ لم أمهده لرقدتي ولم أفرشه بالعمل الصالح لضجعتي. وما لي

لا أبكي ولا أدري إلى ما يكون مصيري. وأرى نفسي تخادعني وأيامي تخاتلني وقد خفقت عند رأسي أجنحة الموت. فما لي لا أبكي لخروج نفسي، أبكي لظلمة قبري، أبكي لضيق لحدي، أبكي لسؤال منكر ونكير إياي، أبكي لخروجي من قبري عرياناً ذليلاً حاملاً ثقلي على ظهري: أنظر مرة عن يميني وأخرى عن شمالي، إذ الخلائق في شأنٍ غير شأني... (إلى أن يقول) إلهي، إن عفوت فمن أولى منك بالعفو، وإن عذبت فمن أعدل منك في الحكم. إرحم في هذه الدنيا غربتي، وفي اللحد وحشتي، وإذا نُشرت للحساب بين يديك ذلّ موقفي، واغفر لي ما خفي على الآدميين من عملي، وأدم لي ما به سترتني. وارحمني صريعاً على الفراش تقلبني أيدي أحبتي وتفضّل عليَّ ممدوداً على المغتسل يُغسلني صالح جيرتي وتحنّن عليّ محمولاً قد تناول الأقرباء أطراف جنازتي وجُد عليّ منقولاً قد نزلت بك وحيداً في حفرتي، وارحم في ذلك البيت الجديد غربتي، حتى لا أستأنس بغيرك يا سيدي».



شهادة المثل الكامل علي (ع)

يفارق علي عليه السلام الدنيا الفانية في مثل هذا اليوم[1] بعد أن ألقى على الأمة الاسلامية دروسا خالدة ما بعدها دروس: دروساً فيها عز الدنيا وسعادة الآخرة، فيها راحة الفرد وراحة المجتمع، فيها طمأنينة النفس وراحة الضمير، فيها الوصول إلى الحق والزلفى إلى الله تعالى، فيها غنى الفقير وفلاح الغنيّ، فيها العدل الاجتماعي المطلق وكل ما يؤدي بالفرد والمجتمع إلى ذروة الكمال.

ولكن البشر لسوء سريرته وفساد باطنه وتغلب الهوى والأطماع لم يكن جديراً ليستفيد من هذه الدروس. بل أراد البعض في كل فرصة إخماد قبسات هذا النور اللامع حتى ضرب عليه السلام بسيف ابن ملجم المرادي فجر اليوم التاسع عشر من هذا الشهر المبارك وهو في محرابه يناجي ربه.

وقد أخبر بذلك رسول الله (ص) في آخر خطبته المشهورة التي خطب بها الناس قبيل شهر رمضان المبارك، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: فقمت وقلت: يا رسول الله ما أفضل الأعمال في هذا الشهر؟ فقال: يا أبا الحسن، أفضل الأعمال في هذا الشهر: الورع عن محارم الله عز وجل. ثم بكى. فقلت: يا رسول الله، ما يبكيك؟ فقال: يا علي، أبكي لما يستحل منك في هذا الشهر، كأني بك وأنت تصلي لربك وقد انبعث أشقى الأولين والآخرين شقيق عاقر ناقة ثمود، فضربك ضربة على قرنك، فخضب منها لحيتك. قال أمير المؤمنين عليه السلام: فقلت يا رسول الله، وذلك في سلامة من ديني؟ فقال: في سلامة من دينك. ثم قال: يا علي، من قتلك فقد قتلني، ومن أبغضك فقد أبغضني، ومن سبك فقد سبني. لأنك مني كنفسي وروحك من روحي وطينتك من طينتي...» إلى آخر الحديث.

---

(١) ألقيت هذه الكلمة في الـ (٢١) من شهر رمضان المبارك.

وقد روى النسائي في الخصائص بسنده عن عمار بن ياسر في حديث: قال: كنت أنا وعلي بن أبي طالب رفيقين في غزوة العشيرة، إلى أن قال: قال رسول الله (ص): ألا أحدثكما بأشقى الناس: رجلين، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك على هذه ـ ووضع يده على قرنه ـ حتى يُبل منها هذه وأخذ بلحيته.

وقد قدم على علي وفد من أهل البصرة، فيهم رجل من الخوارج. يقال له الجعد بن نعجة، فقال اتق الله يا علي، فأنك ميت. فقال علي: «ولكني مقتول بضربة على هذا تخضب هذه ـ وأشار إلى رأسه ولحيته بيده ـ قضاء مقضي وعهد معهود وقد خاب من افترى». ثم عاب علياً في لباسه. فقال: «لو لبست لباساً خيراً من هذا؟» فقال: «إن لباسي هذا أبعد لي من الكبر وأجدر أن يقتدي بي المسلمون».

وكان علي (ع) في الشهر الذي استشهد فيه يفطر ليلة عند الحسن (ع) وليلة عند الحسين (ع) وليلة عند ابن جعفر، لا يزيد على ثلاث لقم ويقول: «أحبُ أن يأتيني أمر الله وأنا خميص». كيف لا يكون كذلك وهو القائل: «هيهات هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخيّر الأطعمة، ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له بالقرص ولا عهد له بالشبع، أأقنع، من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر وجشوبة العيش؟ وأيم الله يميناً، استثنى فيها بمشيئة الله لأروضنّ نفسي رياضة تهش معها إلى القرص مطعوماً، وتقنع بالملح مأدوماً».

نعم، إنه صلوات الله عليه كان أزهد الناس، لم يشبع من طعام قط، وكان يلبس الخشن ويأكل جريش الشعير. فإذا ائتدم فبالملح، فإن ترقى فبنبات الأرض.

روى عن سويد بن غفلة قال: دخلت على علي عليه السلام، فوجدته جالساً وبين يديه إناء فيه لبن، أجد ريح حموضته وفي يده رغيف، أرى قشار الشعير في وجهه وهو يكسره بيده ويطرحه فيه. فقال: «أدنُ فأصب من طعامنا». فقلت: إني صائم. فقال (ع): «سمعت رسول الله صلى الله عليه

وآله يقول: من منعه الصيام من طعام يشتهيه، كان حقاً على الله تعالى أن يطعمه من طعام الجنة ويسقيه من شرابها». قال: فقلت لفضة ـ وهي تقرب منه قائمة ـ ويحكِ يا فضة، ألا تتقين الله في هذا الشيخ، ألا تنخلين هذا الطعام من النخالة التي فيه؟ قالت: تقدم الينا أن لا ننخل له طعاماً.

وكان عليه السلام يجعل جريش الشعير في وعاء ويختم عليه. فقيل له في ذلك. فقال (ع): «أخاف هذين الولدين أن يجعلا فيه شيئاً من زيت أو سمن».

وإن علياً (ع) قد سهر تلك الليلة التي ضُرب فيها واكثر الخروج والنظر إلى السماء، وهو يقول: والله، ما كَذبت ولا كُذبت، وإنها الليلة التي وعِدت فيها، ثم يعاود مضجعه. فلما طلع الفجر، شد إزاره وخرج وهو يقول:

أشدد حيازيمك للموت فإن الموت لا قيكا
ولا تجزع من الموت إذا حل بواديكا

ذلك لأن أولياء الله مع علمهم بما سيكون لا يعلمون إلا حسب الأمور العادية. «ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيٌّ عن بينة».

يخرج علي (ع)، فجر اليوم التاسع عشر من هذا الشهر المبارك إلى المسجد لصلاة الفجر وينادي الصلاة الصلاة، فيضربه ابن ملجم على رأسه وهو ساجد فلما أحس (ع) بالضربة، لم يتأوه وصبر واحتسب ووقع على وجهه، قائلاً: «بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله. هذا ما وعد الله ورسوله وصدق الله ورسوله، ثم صاح وقال: قتلني ابن ملجم، قتلني اللعين ابن اليهودية، فزت ورب الكعبة».

وإنما قال: فزت ورب الكعبة، لأن رسول الله (ص) قد أخبره: أنه سيضرب هذه الضربة وهو في سلامة من دينه، فكانت هذه الضربة علامة ختام أعماله الجبارة في سلامة من دينه صلوات الله عليه، وهذا درس عملي للناس أجمعين في أن يبذلوا أقصى جهودهم لتنتهي أعمالهم مع حسن العاقبة وفي سلامة من دينهم. فقد يزعم الانسان أنه صالح فتنتهي أعماله مع سوء العاقبة، وقد يتهم نفسه أنه غير صالح، فتنتهي أعماله مع حسن العاقبة،

ونستعيذ بالله من الاغترار بأعمالنا والركون اليها ونرجو منه التوفيق وحسن العاقبة.

نعم، إن هذا الانسان يقول حين يرى ما يرى من آثار الموت وهول المطلع وعذاب البرزخ والحساب الدقيق والعقاب الشديد: ﴿ربِّ أرجعونِ لعّلي أعمل صالحاً فيما تركت﴾[1]. ﴿إذ تبرّأ للذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب. وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرةً فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا، كذلك يريهم الله أعمالهم حسراتٍ عليهم وما هم بخارجين من النار﴾[2]. وفي مكان آخر: ﴿وما أضلنا إلا المجرمون، فما لنا من شافعين ولا صديق حميم، فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين﴾[3]. وفي مكان آخر: ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب وأنتم لا تشعرون، أن تقول نفس يا حسرتي على ما فرَّطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين، أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين، بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين﴾[4] وفي مكان آخر: ﴿وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل﴾[5].

وروى الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي في أماليه بسنده إلى الأصبغ بن نباتة، قال: لما ضرب ابن ملجم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع). غدونا عليه نفرٌ من أصحابنا: أنا والحارث وسويد بن غفلة وجماعة معنا، فقعدنا على الباب، فسمعنا البكاء من الدار. فبكينا. فخرج الينا الحسن بن علي عليهما السلام، فقال: يقول لكم أمير المؤمنين انصرفوا إلى منازلكم. فانصرف القوم غيري واشتد البكاء في منزله، فبكيت. فخرج الحسن. فقال: ألم أقل لكم انصرفوا؟ فقلت: لا والله، يا بن رسول الله، ما

(١) سورة المؤمنون: ١٠٠

(٢) سورة البقرة: ١٦٦ ـ ١٦٧.

(٣) سورة الشعراء: ٩٩ ـ ١٠٢

(٤) سورة الزمر: ٥٥ ـ ٥٩.

(٥) سورة الشورى: ٤٤.

تتابعني نفسي ولا تحملني رجلاي أن أنصرف حتى أرى أمير المؤمنين. وبكيت. فدخل الدار ولم يلبث أن خرج فقال لي: ادخل. فدخلت على أمير المؤمنين عليه السلام. فإذا هو مستند، معصوب الرأس بعمامة صفراء قد نزف دمه واصفر وجهه، فما أدري وجهه أشد صفرة أم العمامة، فأكببت عليه، فقبلته وبكيت. فقال لي: «لا تبك يا أصبغ، فانها، والله، الجنة». فقلت له: جعلت فداك. أني أعلم والله أنك تصير إلى الجنة، وإنما أبكي لفقداني إياك، يا أمير المؤمنين.

نعم، يقول علي لأم كلثوم وهي تبكي: «أسكتي، فلو ترين ما أرى لما بكيت، هذه الملائكة وفود والنبيون، وهذا محمد (ص) يقول: يا علي، أبشر، فما تصير إليه خير مما أنت فيه».

ثم إنه صلوات الله عليه يوصي لابن ملجم، فيقول: «أبصروا ضاربي أطعموه من طعامي، واسقوه من شرابي، النفس بالنفس، إن هلكت، فاقتلوه كما قتلني. وإن بقيت رأيت فيه رأيي».

ثم تزايد ولوج السم في جسده الشريف حتى احمرت قدماه وامتنع عن الأكل والشرب وشفتاه تختلجان بذكر الله وجبينه يرشح عرقاً وهو يمسحه فقال له ابن الحنفية: أراك تمسح جبينك؟ فقال: «يا بني» اني سمعت رسول الله (ص) يقول: «إن المؤمن إذا نزل به الموت عرق جبينه وسكن أنينه». ثم نادى أولاده كلهم بأسمائهم صغيراً وكبيراً وجعل يودعهم ويقول: «الله خليفتي عليكم، أستودعكم الله».

وهكذا يفارق الدنيا هذا الامام العظيم الذي لن يأتي الدهر بمثله أبداً، وهكذا تنتهي حياته الشريفة التي ملؤها الفضائل ومكرمات وكرامات ومعجزات وبطولات وبلاغة وزهد وورع وتقوى إلى حد بعيد لن يصل إليها البشر العادي.

إن أكرمكم عند الله اتقاكم

إن الله تبارك وتعالى وهو الكامل على الاطلاق لا يريد بالناس بل بما خلقَ إلا الكمال. ذلك لأن الكامل لا يترشح منه إلا الكمال. ألا نرى ما أودع الله تعالى من سنن الكمال في الجماد والنبات والحشرات والهوام والحيوان في تشكيلاتها الداخلية وفي وسائل الدفاع لتحقيق وسائل العيش والحياة.

فهذه المعادلات الفيزيائية والخواص الكيميائية ودساتير الفلك والميكانيك السماوي والأرضي وما أودع الله من خواص وقابليات ومعادلات ودساتير في الذرة: كلها تشير إلى الكمال الذي أودعه الله هذا الكون الرحيب، وكذلك ارتباط بعضها ببعض، وذلك بقوله تعالى: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم أرجع البصر كرتين، ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾(١).

فجميع العوالم من مادية ونباتية وحيوانية تنادي بهذا الكمال الذي أودعه الله فيها. فكيف يسوغ للانسان وهو، على ما يزعم أشرف المخلوقات، أن يستثنى من ذلك، وأن يخالف سنة الله تعالى في مخلوقاته: أن يفجر ويفسق، أن يبطش ويزني، أن يرابي ويغتاب، أن يقطع الرحم ويأكل الحرام، أن ينكر نعم الله تعالى عليه وهي التي لا تعد ولا تحصى: ﴿وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الانسان لظلوم كفار﴾(٢)... فلا يصلي لاداء واجب الشكر، ولا يصوم كذلك، ولا يزكي ولا يخمس ولا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، فيرجع إلى جاهلية جهلاء، يعيش كالبهائم والأنعام بل أضل سبيلاً، فيكون راجعاً أو (رجعياً) نحو البهيمية والجاهلية بكل ما في الرجعية من معنى صحيح. وهذا ما يتنافى وسنة الكمال الآلهية التي نشاهد مظاهرها وآثارها في العالم أجمع.

---

(١) سورة الملك: ٣ ـ ٤.

(٢) سورة ابراهيم (ع): ٣٤.

إذن، يحكم العقل الفطري الذي لم يلوث بفسق وفجور ورقص وخمور، أن المقياس الذي يجب أن يفاضل به بين انسان وإنسان، إنما هو الشيء الذي يؤدي إلى كماله وإلى تحقيق سنة الله في أرضه: ألا وهو التقوى. ذلك لأن التقوى هي تلك الحالة التي بها تزكو النفس من أدرانها وأوساخها، فتسير بدرجة تطهرها نحو الكمال المنشود. لذلك سنّ الله تعالى قانوناً للمفاضلة وجعل التقوى الأساس الذي تُبتنى عليه المفاضلة بين خلقه، ولم يقل: إن أكرمكم عند الله أعلمكم أو أثراكم أو أكثركم جسامة أو أعلاكم نفوذاً أو أحسنكم وجهاً. ذلك لأن من العلماء الماديين من هم في الدرجات الواطئة من التكامل النفسي كما نرى ذلك في الغرب. وإن من الفلاسفة والرياضيين والكيمياويين والاجتماعيين من هم ملاحدة وفي الدرجة السفلى من المراتب الأخلاقية. ومنهم إباحيون يستسيغون كل محرم ولا يتناهون عن منكر فعلوه، مدّلهمة نفوسهم، مظلمة أرواحهم، متحجرة قلوبهم. سلبوا العاطفة وعدموا الفضيلة. فليس هؤلاء الذين خالفوا التقوى بقادة، بل هم في الدرك الأسفل من مراتب التسافل. ولذلك كله لم يختر الله تعالى أنبياءه وأوصياء أنبيائه إلا من عباده الذين اتخذوا التقوى شعاراً والفضيلة دثاراً. وإن أعلاهم شأناً في مراتب التقوى إنما هو خاتم الرسل نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. إذ يقول فيه ربنا تبارك وتعالى: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾.

ثم إن الله تبارك وتعالى يصف أهل التقوى بقوله: ﴿إن المتقين في جنات وعيون. آخذين ما آتاهم ربهم، إنهم كانوا قبل ذلك محسنين، كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، وبالأسحار هم يستغفرون، وفي أموالهم حق، للسائل والمحروم. وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾(١).

فعرَّف الله تعالى التقوى: أنها ملازمة ذكر الله تعالى ليلاً ونهاراً ومراقبة هذه النفس الأمارة بالسوء وإطعام الفقراء والمساكين.

وكان رسول الله (ص) والأئمة من بعده سلام الله عليهم أجمعين ملازمين

---

(١) سورة الذاريات: ١٥ ـ ٢١.

العبادة والإيثار والخشوع والخضوع والقيام بحوائج الناس[1] ملازمة لا يضاهيهم فيها أحد، ممحضين في عبادته تعالى بجميع ما في العبادة من معنى سامٍ رفيع. فهم حقاً قادة البشر أجمع. إذ هم بكمالهم النفسي يوجهون النفوس البشرية نحو الكمال المنشود. ومن سواهم لا يقوى على ذلك، لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

لنستمع إلى كلام علي عليه السلام في هذا المقام:

«إعلموا عباد الله، أن التقوى دار حصن عزيز، والفجور دار حصن ذليل، لا يمنع أهله ولا يحرز من لجأ إليه. ألا وبالتقوى تقطع حمة[2] الخطايا وباليقين تدرك الغاية القصوى».

«عباد الله، الله الله في أعز الأنفس عليكم، وأحبها اليكم» إلى أن يقول: «عباد الله، أنه ليس لما وعد الله من الخير مترك، ولا فيما نهى عنه من الشر من مرغب. عباد الله، احذروا يوماً تفحص فيه الأعمال ويكثر فيه الزلزال وتشيب فيه الأطفال».

أنظروا كيف يؤدب الامام محمد الباقر عليه السلام شيعته ويأمرهم بالتقوى ويحذِّرهم مخالفة أمر الله تعالى:

فقد جاء في أصول الكافي عن جابر بن يزيد الجعفي عن الباقر عليه السلام أنه قال:

«يا جابر، أيكتفي من ينتحل التشيع أن يقول بمحبتنا أهل البيت. فوالله ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه، وما كانوا يعرفون، يا جابر، إلا بالتواضع والتخشع والأمانة والإنابة وكثرة ذكر الله والصوم والصلاة والبر بالوالدين

---

(١) قال الامام الكاظم (ع): «ان لله عرشاً لا يسكن تحت ظله إلا من أسدى لأخيه معروفاً، أو نفس عنه كربه، أو قضى له حاجة، أو أدخل إلى قلبه سروراً» وقال الامام زين العابدين (ع): «من قضى لأخيه حاجة فبحاجة الله بدأ».

(٢) الحمة، بضم ففتح: في الأصل: إبرة الزنبور والعقرب ونحوها تلسع بها والمراد هنا: سطوة الخطايا على النفس.

والتعاهد للجيران -من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين[1] وصدق الحديث وتلاوة القرآن وكف الألسن عن الناس إلا من خير وكانوا أمناء عشائرهم في الأشياء».

فقال جابر: قلت يا ابن رسول الله، ما نعرف اليوم أحداً بهذه الأوصاف.

فقال عليه السلام: «يا جابر، لا تذهبن بك المذاهب»: حسب الرجل أن يقول: أحب علياً وأتولاه. فوالله، لو قال أني أحب رسول الله (ص) فرسول الله خير من علي صلى الله عليهما وآلهما ولا يتبع سيرته ولا يعمل بسنته ما نفعه حبه شيئاً. ليس بين الله وبين أحد قرابة إلا بالتقوى!».

هذا دستور الكمال الانساني، دستور ما بعده دستور. دستور لا يقوى على عرضه من تربّى في أحضان المادية الهوجاء، دستور يتحقق بتطبيقه ما يريده الله لمخلوقاته في أرضه من كمال. دستور يتجلى في تطبيقه كمال لهذا الانسان يضاهي ما شاهد من كمال في بطن الذرة وفي السماوات العلى، في المجرات والسُّدم وفي مسافات تبعد عنا آلاف الملايين من السنين الضوئية، في مسافات شاسعة جداً محيرة للألباب.

حاش لله، أن يخلق كل ما خلق في غاية الكمال ويدع الانسان ليفسد في الأرض ﴿والله لا يحب الفساد﴾[2] فلا بد لهذا الانسان من كمال على لسان أنبيائه وأوصياء أنبيائه عليهم السلام: كمال النفس ليس من المادة في شيء، كمال تتجلى فيه راحة الضمير ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[3] وارتياح، نفسي إلى أبعد الحدود، وتقرب إلى الحق المتعال، ومراقبة لأعمال النفس مراقبة شديدة. فيكون هذا المتكامل مصداق قول علي عليه أفضل الصلاة والسلام:

«فمن علامة أحدهم: أنك ترى له قوة في دين، وجزماً في لين، وإيماناً

---

(١) الغارمين: أهل الدين: المدينون.

(٢) سورة البقرة: ٢٠٥.

(٣) سورة الرعد: ٣٠.

في يقين. وحرصاً في علم، وعلماً في حلم، وقصداً في غنى[1]، وخشوعاً في عبادة، وتجملاً في فاقة[2] وصبراً في شدة، وطلباً في حلال، ونشاطاً في هدى، وتحرجاً عن طمع[3]. يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل، يمسي وهمه الشكر، ويصبح وهمه الذكر. يبيت حذراً، ويصبح فرحاً. حذراً لما حذر من الغفلة، وفرحاً بما أصاب من الفضل والرحمة، إن استصعبت عليه نفسه فيما تكره، لم يُعطيها سؤالها فيما تحب»... (إلى أن يقول...): «يمزج الحلم بالعلم، والقول بالفعل، تراه قريباً أمله، قليلاً زلله، خاشعاً قلبه، قانعة نفسه، منزوراً أكله، سهلاً أمره، حريزاً دينه، ميتة شهوته، مكظوماً غيظه، الخير منه مأمول، والشر منه مأمون»... (إلى أن يقول): «يعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه. بعيداً فحشه، ليناً قوله، غائباً منكره، حاضراً معروفه، مقبلاً خيره، مدبراً شره. في الزلازل وقور، وفي المكاره صبور، وفي الرخاء شكور». (إلى أن يقول: «نفسه منه في عناء، والناس منه في راحة. أتعب نفسه لآخرته، وأراح الناس من نفسه».

أنظروا إلى ما يقوله علي عليه السلام عن صفات المؤمن الحقيقية، ذلك الذي يجمع بين الجهاد والدعوة إلى الاسلام وبين العباد والخضوع لله المتعال.

أنه (ع) يقول:

«أين القوم الذين دعوا إلى الاسلام فقبلوه[4]، وقرأوا القرآن فأحكموه، وهيجوا للقتال فولهوا وله اللقاح[5] إلى أولادها وسلبوا السيوف أغمادها، وأخذوا بأطراف الأرض زحفاً زحفاً وصفاً صفاً. بعض هلك وبعض نجا. لا

---

(١) قصداً أي: اقتصاداً.
(٢) التجمل: التظاهر باليسر عند الفاقة: أي الفقر.
(٣) أي تباعداً عن طمع.
(٤) من نهج البلاغة. الجزء الأول ص: ٢٣٤.
(٥) اللقاح: جمع لقوح، وهي الناقة. و«ولها إلى أولادها» فزعها اليها إذا فارقتها.

يبشرون بالأحياء[١] ولا يعزون بالموتى، مره[٢] العيون من البكاء خمص البطون من الصيام[٣]، ذبل الشفاه من الدعاء[٤]، صفر الألوان من السهر، على وجوههم غبرة الخاشعين. أولئك إخواني الذاهبون، فحقّ لنا أن نظمأ اليهم، ونعض الأيدي على فراقهم».

فهؤلاء الذين وصفهم علي عليه السلام، قد جسموا التقوى خير تجسيم وهم الكرماء على الله وهم أتقى الناس ومصداق هذه الآية المباركة: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[٥].

فطوبى لمن طبق هذه الدساتير التي تتلألأ نوراً وبهاءاً، كي يتلألأ نوراً وكمالاً. وطوبى لمن فكر في عقابه كما يفكر لدنياه ولم يكن من الغافلين. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات».

«طوبى لنفس أدت إلى ربها فرضها[٦] وعركت بجنبها بؤسها[٧] وهجرت في الليل غمضها، حتى إذا غلب الكرى[٨] عليها افترشت أرضها وتوسدت كفها، في معشر أسهر عيونهم خوف معادهم، وتجافت عن مضاجعهم جنوبهم، وهمهمت بذكر ربهم شفاههم وتقشعت بطول استغفارهم ذنوبهم ﴿أولئك حزب الله، ألا ان حزب الله هم المفلحون﴾ .

---

(١) إذا قيل لهم: نجا فلان فبقى حياً لا يفرحون. لأن أفضل الحياة عندهم الموت في سبيل الحق. ولا يحزنون إذا قيل لهم: مات فلان، فان الموت عندهم حياة السعادة الأبدية.

(٢) مره ـ بضم فسكون ـ جمع أمره، من «مرهت عينه» إذا فسدت، أو ابيضت حماليقها.

(٣) خمص البطون: ضوامرها.

(٤) ذبلت شفته: جفت ويبست لذهاب الريق.

(٥) سورة الحجرات: ١٣.

(٦) من كلام لعلي أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام.

(٧) عركه بالجنب: أي صبر عليه كأنه شوك فيسحقه بجنبه.

(٨) الكرى: النوم.

وأختم هذا الجزء بآية هي: دستور الكمال الانساني وغاية وجوده في هذا الكون:

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته، ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون﴾[1].

إنتهى الجزء الرابع من هذا الكتاب، والحمد لله، ويليه الجزءالخامس، إن شاء الله تعالى...

* * *



(1) سورة آل عمران: ١٠٢.

فهرس الجزء الرابع

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة



التكامل في الإسلام

بقلم
أحمد أمين
خريج كلية التربية وجامعة إسطنبول
الرياضيات العامة والفيزياء الرياضية العالية

الجزء الخامس

دار المعرفة
بيروت - لبنان

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم

من كلام لعلي أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام يصف فيه المتقين والكمال الانساني:

«فالمتقون فيها هم أهل الفضائل. منطقهم الصواب وملبَسهم الاقتصاد ومشيهم التواضع، غضُّوا أبصارهم عما حرَّم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم، نُزِّلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء. ولولا الأجل الذي كتب عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى الثواب، وخوفاً من العقاب. عظم الخالق في أنفسهم، فصغر ما دونه في أعينهم، فهم والجنة كمن قد رآها، فهم فيها منعَّمون. وهم والنار كمن قد رآها، فهم فيها معذَّبون. قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة وحاجاتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة، صبروا أياماً قليلة، أعقبتهم راحةً طويلة. تجارة مُربحة يسَّرها لهم ربهم، أرادتهم الدنيا فلم يريدوها، وأسرتهم ففَدوا أنفسهم منها. أما الليل فصافُّون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن، يرتلونه ترتيلا (إلى أن يقول): وأما النهار فحلماء علماء، أبرار أتقياء. قد براهم الخوف بري القِداح، (إلى أن يقول) فمن علامة أحدهم: أنك ترى له قوة في دين وحزماً في لين، وإيماناً في يقين وحرصاً في علم وعلماً في حلم وقصداً في غنى، وخشوعاً في عبادة، وتجمُّلاً في فاقة وصبراً في شدة وطلباً في حلال ونشاطاً في هدى وتحرجاً عن طمع. يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل. يُمسي وهمه الشكر ويُصبح وهمه الذكر. (إلى أن يقول) تراه قريباً أمله قليلاً زلله، خاشعاً قلبه، قانعة نفسه، منزوراً أكله، سهلاً أمره حريزاً دينه، ميتة شهوته، مكظوماً غيظه. الخير منه مأمول والشر منه مأمون».

من حقائق القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

«والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم»[1]

في القرآن الكريم سبعمائة وخمسون آية كونية، تدل على عصارة ما توصل إليه العلم الحديث وما سيصل إليه في المستقبل. فقد قال ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنه ـ : «إن في القرآن معانٍ سيكشفها الزمن». ومن جملة تلك الآيات الباهرات، الآية الثامنة والثلاثون من سورة يس: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾.

فقد اختلف العلماء قبل ميلاد المسيح (ع) بقرون، إلى قبل حوالي ٥٠ عاماً، في أن: هل للشمس حركة أم لا؟.

فقد ذهب العلماء في اليونان قبل الميلاد إلى أن الأرض مركز العالم، وبما أن أكمل الأشكال حسب زعمهم هو الكرة، إذن يجب أن يكون شكل الأرض كروياً، وان الشمس تدور حول الأرض على شكل دائرة، ذلك لأن الدائرة في نظرهم أكمل الأشكال الهندسية.

لم يكن العلم قبل الميلاد وبعده إلى القرون الوسطى مستنداً على التجربة والاستقراء والاستنتاج، وإنما حجتهم فيما يدعون: نظرية الكمال، دون تحقيق تجريبي، مستندين في ذلك إلى قول العالم الكبير عندهم، أي

(١) سورة ياسين: ٣٨.

كانت حجتهم قول عالمهم المسمى بـ (ماجستير)، حين أن علياً عليه السلام كان يقول: «في التجارب علم مستأنف».

بقيت هذه النظرية اليونانية بالنسبة إلى حركة الشمس والأرض حاكمة عدة قرون، حتى جاء دور التجربة والمشاهدة، أي دور (بيكن: Bacon) المكتشف للطريقة التجريبية، كما يزعم الغربيون - فاكتشف (غاليليو) أو (كاليله) التلسكوب. وقال عند ذلك، مستنداً إلى التجربة والعلوم الرياضية كل من (كوبرنيك) و(كيلر) الفلكيين بحركة الأرض مع بقية الكواكب حول الشمس على شكل اهليليجي، أي على شكل القطع الناقص، الذي معادلته كما جاء في الهندسة التحليلية:

$$\frac{س^2}{ب^2} + \frac{ص^2}{ح^2} = ١$$

ب = نصف القطر الكبير.

حـ = نصف القطر الصغير.

ومعنى ذلك: ان الله تعالى قد حرَّك الكواكب حسب قربها من الشمس: عطارد، الزهرة، الأرض، المريخ، المشتري، زحل، أورانوس، نبتون، بلوتو، حول الشمس على شكل اهليليجي.

والجدول الآتي يبيِّن بعد كل من الكواكب عن الشمس

البعد	عطارد	الزهرة	الأرض	المريخ	المشتري	زحل	أورانوس	نبتون	بلوتو
بملايين الأميال عن الشمس	٣٦	٦٧	٩٢	١٤٢	٤٨٣	٨٨٦	١٧٨٣	٢٧٩٤	٣٦٧٠

ومعلوم ان رسم الشكل الأهليليجي من الصعوبة بمكان، ولا يقوى على رسمه إلا من درس المخروطات.

وكان القرآن ينادي، قبل اكتشاف الطريقة التجريبية في أوروبا بقرون،

باستعمال السمع والبصر والعقل، وذلك بقوله: «إن السمع والبصر والفؤاد[1] كل ذلك كان عنه مسؤولاً».

وإن علياً عليه السلام قد حلّ مسائل جمة، مستنداً إلى الطريقة التجريبية: قانون أرخميدس، قانون الطوفان...

إن ما اكتشفه (كوبرنيك) و (كيلر) في القرن السابع عشر من ثبوت الشمس في محلها، كان يخالف ما جاء في القرآن الكريم: من أن للشمس حركةً خاصة بها. حتى إذا تقدمت العلوم الرياضية العالية، بما فيها الميكانيك الرياضي، واخترعت مراقب كبيرة جداً، علم قبل حوالي ٥٠ عاماً، أن الشمس مع كواكبها تسير في الفضاء على شكل لولبي أو حلزوني، متجهة نحو نجمة تسمى بالنسر الواقع، بسرعة قدرها في الساعة حوالي (٧٠) ألف كيلو متر. وقد ثبت علمياً قول الله تعالى قبل أربعة عشر قرناً، حين يقول: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾.

الأمطار في القرآن:

﴿ ألم ترَ ان الله يزجي[2] سحاباً، ثم يؤلف بينه، ثم يجعله ركاماً. فترى الودق[3] يخرج من خلاله. وينزل من السماء من جبال فيها من برد[4] فيصيب به مَن يشاء، ويصرفه عمن يشاء. يكاد سنابرقه يذهب بالأبصار﴾ (سورة النور: ٤٣).

إن قوله تعالى: ﴿يؤلف بينه﴾ أي أن الله تعالى يؤلف بين السحاب. وهو يدل بوضوح على الحقيقة الكهربائية التي تقوم عليها الظواهر الجوية، فان التأليف بين السحاب ما هو إلا اشارة واضحة للتقريب بين السحاب

---

(١) يراد بالفؤاد ها هنا: العقل. والله العالم.

(٢) يزجي: يسوق السحاب أو البخار.

(٣) الودق: المطر.

(٤) البرد قد تنخفض درجة حرارة الجو الأعلى تحت الصفر، وتحمل اليه قطرات المطر بطريقة ما، فتنزل على الأرض متجمدة، ويسمى برداً.

المختلف الكهربائية، حتى تتجاذب وتتعبأ في الجو حسبما يريده الله، فيتكون بأمره تعالى من بين السحاب برق أو صواعق ومطر وبَرَد.

وإن عملية الركام أو التكاثف تأتي بعد عملية التأليف. ويؤيد ذلك قوله تعالى:

﴿وارسلنا الرياح لواقح، فأنزلنا من السماء ماءاً، فأسقيناكموه، وما أنتم له بخازنين﴾ (سورة الحجر: ٢٢).

إن هذه الآية تعلمنا أن للرياح اللواقح أثراً فعالاً في نزول الماء من السماء وإسقائه الناس. فهذه الآية لا تريد أن تشير إلى أن الرياح لواقح للزرع، بل تقول أن الرياح تلعب دوراً خطيراً في الاتحاد بين كهربائية وكهربائية في سحابتين مختلفتين. أي أن الرياح تعمل في الجمع بين الكهربائية الموجبة والكهربائية السالبة، فتقع الملاقحة بين سحابتين.

فهذه الآية معجزة خالدة، لأنها تخبر قبل أربعة عشر قرناً تقريباً عن شيء هو عصارة العلم الحديث. وهذا دليل واضح على التطابق التام بين العلم الحقيقي والدين في الاسلام، وبرهان قطعي على تأخر العلوم عن الحقائق القرآنية.

وأما تنزيل جبال من السماء فيها من برَد، فمنها الثلوج التي نشاهدها في شمال (نوروج) في المنطقة المتجمدة الشمالية. تتحرك هذه الجبال الثلجية أو الثلاجات(Iceberg) مع التيار (كولف استريم) في المحيط الاطلانتيكي متجهة نحو خليج (مكزيك) بين أمريكا الشمالية والجنوبية، فتلطف الجو هناك ببرودتها.

* * *

وقد تحقق قوله تعالى: ﴿وينزل من السماء من جبال فيها من بَرَد، فيصيب به مَن يشاء ويصرفه عمَّن يشاء﴾. وذلك عندما تحركت سفينة كبيرة جداً، صنعتها أمريكا قبل حوالي أربعين عاماً، فيها مكائن عدة وساحات للألعاب، متجهة نحو لندن.

ففي حوار جرى بين القائد الأعلى للسفينة ومعاونه، قال المعاون مخاطباً القائد: «انا سنصل إلى لندن بعد عشرين يوماً إن شاء الله». فامتعض القائد، وقال لمعاونه: «أوَ تقول إن شاء الله، مع ما ترى لهذه السفينة من مكائن متعددة وقوة فائقة. انا سنصل إلى لندن بعد عشرين يوماً حتماً ودون ريب».

حتى إذا تحركت السفينة وصارت في وسط المحيط الاطلانتيكي، وإذا بسفينة أخرى تخابر هذه السفينة الكبيرة قائلة: «إن أمامكم ثلاجة كبيرة، اجتنبوها، فانها إن اصطدمت بسفينتكم، فستحطمها تحطيماً».

فصار القائد الأعلى يسير بالسفينة يمنة ويسرة، فلم تفد محاولاته، حتى اصطدمت الثلاجة بالسفينة فحطمتها تحطيماً. وقد تحقق قوله تعالى: ﴿وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء﴾ وهو السفينة الثانية الكبيرة، ﴿ويصرفه عمن يشاء﴾ وهو السفينة الأولى.

وقد أمرنا الله تعالى أن نعلق الأمور إلى مشيئته ورحمته، وأن نقول كلما اعتزمنا أمراً: «إن شاء الله». وذلك بقوله جل من قائل: ﴿ولا تقولنَّ لشيء أني فاعل ذلك غداً، إلا أن يشاء الله، وأذكر ربك إذا نسيت، وقل عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشداً﴾(١).

على أن الله جل جلاله لا يريد بذكر هذه الآية وغيرها من الآيات الكونية تعليم الناس العلوم الكونية، لأن كلمات الله تعالى وما أودع في المادة والأجسام من خواص وقوانين رياضية تكاد لا تتناهى، وهو القائل: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر، ما نفدت كلمات الله﴾(٢) ولكن الله تعالى يريد أن يُري عباده جليل قدرته وعظيم صنعته، إتماماً للحجة. وهو القائل: ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا، ان تتبعون إلا الظن وأن أنتم الا تخرصون﴾. وفي آية أخرى: ﴿قل فلله الحجة البالغة﴾. وهو القائل أيضاً: ﴿ليهلكَ من هلك عن بينة ويحييَ من حيَّ عن بيِّنة﴾.

---

(١) سورة الكهف.

(٢) سورة لقمان: ٢٧.

«وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال»[1]

إن ما نشاهد في علم الكيمياء، من شتى المعادلات وأنواع التفاعلات، تحت مقادير معينة وشروط محددة، وما نرى من ضروب الدساتير في الفيزياء والفلك والمكانيك السماوي والأرضي، خير دليل على أن العدد (أو المقدار) يحكم العالم عن تدبُّر وحكمة فائقة، وتحت قوانين ثابتة. لذلك: كان يقول فيثاغورث، قبل الميلاد بقرون: «العدد يحكم العالم. وكان يقول (لورد كلوين) الفيزاوي المعروف، قبل أقل من قرن: «كل حادثة فيزياوية لا يمكن التعبير عنها بدستور أو معادلة رياضية، ليست بحادثة معروفة، مفهومة».

وأبرز مثال لمفهوم الآية المتقدمة: ان جعل الله تعالى الكثافة العظمى للماء في الدرجة الرابعة من الحرارة المئوية، رأفةً بالحيوانات البحرية، لتبقى حية.

من المعلوم أن الأجسام تتمدد بالحرارة وتتقلص بالبرودة، أي عند تقليل درجة الحرارة، إلا الماء ففي الدرجة الرابعة من الحرارة المئوية يكتسب الماء الكثافة العظمى. فإذا قللنا درجة الحرارة عن (٤° م) تقل كثافة الماء ويزداد حجمه، فيكون ١ سم^3 (سانتيمتر مكعب) من الماء في درجة الصفر المئوي أقل وزناً عن ١ سم^3 (سانتيمتر مكعب) من الماء في ٣° م، أي في الدرجة الثالثة من الحرارة المئوية، بخلاف بقية الأجسام. لذلك: يكون الجليد أخف من الماء، مع اتحاد الحجم، فيطفو على سطح الماء.

---

(١) سورة الرعد: ٩.

وقد وجد أن حجم الغرام الواحد من الجمد أو الجليد في درجة الصفر المئوي = ١,٠٩١ سم٣. فإذا ساح إلى الماء في درجة الصفر أيضاً، أصبح حجمه = ١,٠٠٠١٢ سم٣. فالجليد أو الجمد أخف من الماء حتى في درجة الصفر. ولولا هذا الشذوذ بأمره تعالى فى تغير الكثافة، أي لو كانت كثافة الماء العظمى في درجة الصفر على المعتاد لا في الدرجة الرابعة من الحرارة المئوية (٤° م) كبقية السوائل، لغاص كل ما تجمد من سطح الماء ورسب في القعر، وتجمد ما يزيحه الجليد الراسب الساقط في قعر الماء إلى الأعلى... وعلى هذا المنوال كان يتجمد البحر أو البحيرة من الأعلى إلى الأسفل، ولأصبحت البحيرة قطعة ثلج! فلا ترى حيواناً يتنعم بالحياة في أعماق البحار والبحيرات. ولانقلب البحر برمته إلى ثلاجة ما كان يكفي لذوبانها حرارات الفصول، ولا سيما، في المناطق الباردة، ولا تنفى بعد ذلك انتفاع الانسان بالبحر.

وبما أن الله تعالى قد جعل كثافة الماء العظمى في (٤° م)، فإذا برد الجو وصارت درجة حرارة الماء للسطح العلوي (+ ٤° م)، نزل هذا الماء إلى القعر لثقله بالنظر إلى وزن الماء في الطبقات السفلى... وهكذا، حتى تصبح درجة حرارة الماء في القعر (+ ٤° م). ثم إذا نقصت درجة الحرارة انجمد السطح الأعلى فقط من البحيرة عن قشرة غير سميكة، ولما أمكن نزول هذه القشرة لخفته، وبقي القسم الأسفل من البحيرة سالماً من الانجماد، تعيش فيه الحيوانات بهناء وسرور.

فيرى لو اطّرد انقباض الماء بالبرودة وتمدده بالحرارة كبقية الأجسام (أي لولا هذا الشذوذ رأفةً بالحيوانات البحرية لتبقى حية) لانقلب البحر كله إلى جليد في فصل الشتاء، ولتلفت الحيوانات كلها بتجمده، ولامتنعت التجارة البحرية، ولانقلب الجو بارداً بتأثير الثلوج البحرية، وتعسرت الحياة البشرية. ... فيستنتج من ذلك كله أن ليس للعلة العمياء أن تفكر في حياة الحيوانات البحرية والتجارة البشرية، فتجعل كثافة الماء في (+ ٤° م) في النهاية العظمى، خلافاً لبقية الأجسام.

وكمثال آخر، تفسيراً لقوله تعالى: ﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾، نقول:

من الواضح المعلوم أن الأرض تدور حول محورها في كل ٢٤ ساعة مرة واحدة. وسرعة حركتها في هذه الحالة (١٠٠٠) ميل في الساعة. فلو كانت الأرض تدور حول محورها بسرعة ١٠٠ ميل في الساعة، لكان طول الليل عشرة أمثال ما علّيه الآن، وكذا طول النهار. وكانت الشمس المحرقة في الصيف تحرق في تلك الأيام الطوال جميع النباتات وما ينمو على الأرض. وفي الليالي الباردة الطوال كان ينجمد كل ما على الأرض من مياه ونبات وحيوان. فيرى أن كل تغيير فيما قدره الله تعالى من (قدر) يؤدي إلى انتفاء الحياة على وجه البسيطة.

وإن درجة الحرارة على سطح الشمس التي هي مصدر الحياة لهذه الكرة الأرضية هي: ١٢٠٠٠° فاهرانهايت. ويصل الينا من هذه الحرارة ما يؤدي إلى استقرار الحياة على الأرض منذ ملايين السنين. وإذا تغيرت درجة الحرارة على سطح الأرض خلال السنة بمعدل: (٥٠°) لانعدمت الحياة كلها وهلك الناس اما من شدة الحرارة أو من شدة البرودة.

إن الأرض تسير في مدارها حول الشمس بسرعة ١٨ ميلاً في الثانية. فلو كانت هذه السرعة ٦ أميال في الثانية أو ٤٠ ميلاً في الثانية، لكان بعدنا أو قربنا من الشمس مقداراً يستحيل معه الحياة على وجه الأرض.

ومعلوم أن ميلان محور الأرض عن دائرة الخسوف: ٢٣/٢٧° يؤدي إلى حدوث الفصول الأربعة. فلو لم يكن محور الأرض مائلاً هذا الميلان لبقي القطبان في الشمال والجنوب في ضياء ضئيل كضياء الشفق بصورة دائمة ولكانت أبخرة مياه المحيطات متوجهة من الشمال إلى الجنوب وأدت إلى إيجاد قارات من الثلج، وكانت هذه القارات الثلجية تؤثر على القطبين وتؤدي إلى تحطيمها وتحطيم القشرة الأرضية وجفاف المحيطات إلى ما هنالك من حوادث جمة تعدم الحياة على وجه البسيطة.

فلو كانت الأرض بقدر القمر وكان قطرها ربع ما عليه الآن لما كانت قوة الجذب عليها (أي سطح الأرض) تكفي لجذب المياه والهواء، ولما استقر الماء على سطحها، لأن قوة الجذب تكون إذ ذاك سدس قوة جاذبية الأرض اليوم. ولارتفعت درجة الحرارة إلى حد يؤدي إلى إبادة الحياة عليها.

ولو كان قطر الأرض ضعف ما عليه الآن لكان سطح الأرض أربعة أمثال ما عليه الآن. ذلك لأن سطح الكرة = ٤ ط نق^{٢}، وهو يتناسب طردياً مع مربع نصف القطر. ونتيجة لذلك، كانت قوة الجذب ضعف قوة جذب الأرض الحالية، ولقل ارتفاع الجو إلى حد مخطر ولارتفع الضغط الجوي من كيلوغرام واحد على كل سانتيمتر مربع إلى كيلوغرامين ولاشكلت الحياة على وجه الأرض.

ولو كانت الأرض من حيث الكبر بقدر الشمس، لأمست قوة الجذب عليها (١٥٠) مرة أكثر مما عليه الآن حسب قانون (نيوتن):

$$ق = ى \times \frac{ك\,كَ}{م^{٢}}$$

ولنقص ارتفاع الجو حوالي ١٠ كيلومترات ولما أمكن تبخر المياه ولكان الضغط الجوي على كل سانتيمتر مربع = ١٥٠ كيلوغراماً، أي لكان وزن حيوان يزن الآن كيلوغراماً واحداً = ١٥٠ كيلوغراماً، ولكان طول الانسان بطول السنجاب في الوقت الحاضر ولاستحالت الحياة العقلية لمثل هذه الموجودات.

نعم، إن تنظيم الأحوال الطبيعية يتم على نظام عددي متقن من جانب الله تعالى، والأنظمة الكونية مبنية على حسابات رياضية دقيقة، لا يبقى معها مجال لاحتمال تأثير الصدفة في تنظيم هذا الكون كما ثبت في حساب الاحتمالات من مواضيع الرياضيات العالية.

وقد وجد (ماندليف) منذ مائة سنة قانوناً في ترتب العناصر، وذلك ان العناصر الكيميائية كالايدروجين والحديد والراديوم. . . الخ. قد رتبها الله تعالى تبعاً لتزايد أوزانها الذرية ترتيباً دورياً. وان العناصر التي تقع في قسم واحد تؤلف فصيلة واحدة وتكون لها خواص متشابهة. ولذلك تمكن العلماء بفضل هذا الترتيب أن يتنبأوا بوجود عناصر لم يكن قد علم بها قبلاً. حتى ان العلم الحديث قد تنبأ بفضل هذا الترتيب بخواص هذه العناصر المجهولة وجاءت صفاتها مطابقة تماماً للصفات التي توقعوها مستفيدين من القانون الذي وجدوه.

فالعلوم جميعها تبرهن على أن المقادير متحكمة في الكون من جانب الله تعالى، وان هذه العلوم يرتبط بعضها ببعض في تفسير هذه الآية: ﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾. فأمواج الراديو التي وضعها (مسكويل) في معادلات رياضية وأثبت (هرتز) وجودها وانتفع بها (لـودج وبرانلي ومـاركوني) في المخاطبات اللاسلكية تعين علماء الفلك اليوم على دراسة أجرام فلكية، لا نستطيع أن ننفذ اليها بمرقب أو بمصورة ضوئية.

والنظائر المشعة التي كشفت في الكيمياء والفيزياء أولاً، تعيننا اليوم على فهم التركيب الضوئي ومحاكاته وقد تعيننا غداً على التحكم بأفعال الوراثة في النبات والحيوان.

فليس في وسع العلماء أن ينفذوا إلى فهم أسرار الكون والحياة دون دراسة الذرات والنجوم. فجميعهم يطوفون على أجنحة فكر يجنحه الشوق والخيال وتضبطه مقتضيات المنهج العلمي. وكل ما وجدوه وسيجدونه في المستقبل من معادلات ودساتير تفسر هذه الآية الكريمة: ﴿وان من شيء الا عندنا خزائنه، وما ننزله إلا بقدر معلوم . وتفسير لقوله تعالى: ﴿قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾ ، وقوله تعالى: ﴿وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾.[1] وقوله: ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾[2] . وقوله تعالى: ﴿والذي قدّر فهدى﴾[3]. وقوله جل من قائل: ﴿وأنزلنا من السماء ماءاً بقدر، فأسكناه في الأرض وانا على ذهاب به لقادرون﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿انا كل شيء خلقناه بقدر﴾[5].

---

(١) سورة الأحزاب: ٣٨.
(٢) سورة الفرقان: ٢.
(٣) سورة الأعلى: ٣.
(٤) سورة المؤمنون: ١٨.
(٥) سورة القمر: ٤٩.

من حقائق القرآن:

فلا أقسم بمواقع النجوم وأنه لقسم لو تعلمون عظيم[1]

إن الله تعالى يقسم بمواقع النجوم، لما لهذه المواقع من حيث التوازن والجاذبية المتعادلة من أهمية كبرى. ويعدُّ هذا القسم لما هنالك من خطورة قسماً عظيماً.

حقاً، لو تغيرت مواقع النجوم عما عليه الآن اختل التوازن وانعدمت الحياة على وجه الأرض.

فلو كان بُعد الأرض عن الشمس ضعف ما عليه الآن، لنقصت الحرارة التي تأتينا من الشمس إلى (ربع) ما عليه الآن، ذلك لأن شدة الحرارة على سطح ما تتناسب عكسياً مع مربع المسافة من مصدر الحرارة.

كذلك لو بعدت الأرض عن الشمس ضعف البعد الحالي لقلّت سرعة حركة الأرض إلى النصف، ذلك لأن محيط الدائرة يتناسب تناسباً طردياً مع نصف القطر.

م = ٢ نق ط

ولطال فصل الشتاء إلى ضعف ما عليه الآن ولانجمد نتيجةً لذلك جميع ما على الأرض من كائنات حية، ولاستحالت الحياة عليها.

ولو كان بُعد الأرض عن الشمس نصف ما عليه الآن لأصبحت حرارة الأرض أربعة أمثال ما عليه الآن بنفس السبب ولتضاعفت سرعة الحركة

---

(١) سورة الواقعة: ٧٥ ـ ٧٦.

ولنقص طول مدة كل فصل من الفصول الأربعة: (الربيع والصيف والخريف والشتاء) إلى النصف[١] ولتبخر ما على الأرض من مياه ولما أمكن السكنى عليها من شدة الحرارة.

فقانون الجذب العام يَحكم العالم بأمر من الله تعالى، ذلك القانون الذي اكتشفه (إسحاق نيوتون):

$$ق = ي \frac{ك\ كَ}{م^{٢}}$$

ى = النسبة الثابتة ومقدارها: $\frac{١}{١٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠}$ من ثقل الغرام أي: -٨

ى = $٦,٦٧ \times ١٠^{-٨}$ من ثقل الغرام = $\frac{١}{١٥٠٠٠٠٠٠٠}$ من الدا ين(dyne)

وإن الله تعالى يشير إلى هذه القوة الجاذبية الهائلة بقوله جل من قائل: ﴿إن الله يُمسك السماوات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده، أنه كان حليماً غفوراً﴾[٢]. وبقوله عز وجل: ﴿ألم تَرَ أن الله سخّر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا باذنه، ان الله بالناس لرؤوف رحيم﴾[٣].

وبقوله: ﴿الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها، ثم استوى على العرش وسخّر الشمس والقمر، كل يجري لأجل مسمى، يدبّر الأمر، يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾[٤]

فإن الكواكب تسير في مداراتها وتتباعد بعضها عن بعض بمسافات معينة حسب قواعد الجاذبية وهي مسخرة في حركاتها وجذبها وانجذابها بأمره تعالى حسب قانون الجذب العام، وتجري في مداراتها ومنحنياتها التي هي

---

(١) ذلك لأن حاصل ضرب السرعة الزاويوية في المسافة عن المركز مقدار ثابت: لا × نق = ث.

(٢) سورة فاطر: ٤١.

(٣) سورة الحج: ٦٥.

(٤) سورة الرعد: ٢.

على الأكثر اهليليجية: (القطع الناقص) إلى يوم البعث حيث ﴿تبدل الأرض غير الأرض والسماوات، وبرزوا لله الواحد القهار﴾ (سورة إبراهيم عليه السلام: ٤٨)، حيث ينال المجرم جزاءه بقوله: ﴿وترى المجرمين يومئذ مقرّنين في الأصفاد[١]. سرابيلهم[٢] من قطران[٣] وتغشى وجوههم النار ليجزي الله كل نفس ما كسبت، ان الله سريع الحساب، هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا، انما هو إله واحد وليذكر أولو الألباب﴾[٤].

وقد أكد تعالى وجود هذه الجاذبية التي لا ترى بالعين وهي كالعمَد في قوله: ﴿خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي ان تميد بكم وبثّ فيها من كل دابة، وأنزلنا من السماء ماءاً، فأنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾. (سورة لقمان: ١٠).

فالكواكب والأنجم تسبح في الفضاء في مداراتها وكذلك الشمس والقمر بقوله تعالى:

﴿وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر، كل في فلك يسبحون﴾ (سورة الأنبياء: ٣٢).

وبقوله: ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾. (سورة يس: ٤٠).

فإذا اعتبرنا السماء اسماً لما علانا أو ارتفع فوق رؤوسنا، فأنه يعني ولا شك: هذا الكون بأسره الذي من حولنا، يبدأ بجوِّ الأرض، فسائر الكواكب ومن بعدها الشمس، النجوم الضاربة في أعماق الفصاء فى مجرّتنا[٥] وما

(١) الأصفاد: القيود والأغلال.

(٢) جمع سربال: القميص أو كل ما يلبس.

(٣) قطران: سيال دهني يؤخذ من بعض الأشجار كالصنوبر.

(٤) سورة إبراهيم (ع): ٤٩ ـ ٥٢.

(٥) المجرة: على سطح السماء نطاق عريض منير يمتد من فوقنا وينتهي بالأفق من طرفيه، أنها ملايين النجوم بعضها جنب بعض وبينها مسافات شاسعة إن هذاالقوس العظيم =

يليها من مجرات، وتجري كل هذه الأجرام السماوية في مساراتها أو تدور في مداراتها، هذه هي السماء وقد بناها الله ورفعها وجعل كل جرم فيها بمنزلة لبنة من بناء شامخ ورفع هذه الاجرام كلها بعضها فوق بعض بقوى من نوع القوة الطاردة المركزية، كما ربطها في نفس الوقت برباط الجاذبية العالمية، والجاذبية والقوى الطاردة المركزية الناجمة عن الدوران في مسارات شبه دائرية أو قطاعات ناقصة هما بمثابة الأعمدة القائمة فعلاً.

* * *

وإستناداً على هذا القانون تمكنوا من كشف كوكبين هما، نبتون، وبلوتو، يدوران حول الشمس بعد (أورانوس).

فقد اكتشف ليفرييه(Leverier) استناداً إلى القانون المذكور وقوانين الحركة الكوكب المسمى بـ(نبتون(Neptune وعين موضعه قبل أن يراه، فحرر الراصدون تلسكوباتهم إلى هذا الموضع المزعوم فرأوه رأي العين بعد أن كان (ليفرييه) رآه رأي الفكر ورأي العلم والحساب.

ثم رأى الفلكيون أن هناك أيضاً اختلافاً يسيراً في مدار الكوكب (أورانوس). زعموا من أجله أن كوكباً أبعد من (نبتون) ما زال مختبئاً في السماء، فاكتشفوه وأسموه (بلوتو) سنة ١٩٣٠ ميلادية، وهكذا يتنبأ العلم والدساتير والمعادلات عن أشياء لا ترى بالعين، فتكشف، لتبرهن مرة أخرى على أن ما أودع الله من نظام رياضي رصين في سير الكواكب والأنجم ومداراتها وحركاتها قد بلغت من الدقة والضبط ما يدهش الألباب.

* * *

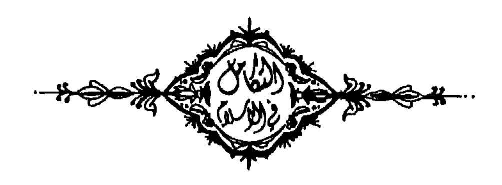
ثم أن بعد القمر عن الأرض ٢٤٠٠٠٠ ميل والقمر هو العامل الأهم لحدوث الجزر والمد على سطح الكرة الأرضية في كل يوم مرتين. وإن ارتفاع المدّ في بعض النقاط على الأرض يبلغ ٦٠ قدماً، حتى أن القشرة الأرضية

= فوق رؤوسنا ليس إلا جزءاً من (المجرة) التي تطوق السماء كالحلقة، وكأنها نهر من لبن.

لتنجذب نتيجة جذب القمر لها عدة اينجات، ونحن لا نشعر بحدوث هذا الانجذاب من قبل القمر للقشرة الأرضية ولمياه البحار والأنهار... يحدث كل ذلك بنظام وهدوء.

ولو كان بعد القمر عنا ٦٠٠٠ ميل فحسب عوضاً عن ٢٤٠٠٠٠ ميل لبلغ ارتفاع المدّ والجزر للبحار بمقدار يؤدي معه إلى انغمار جميع السهول والوديان تحت المياه نتيجة هذا المد الشديد. ولكان ضغط الماء في كل مرة شديداً جداً إلى درجة يؤدي إلى إبادة الجبال وما كان لأية قارة من القارات أن تبرز من تحت المياه ليسكن عليها البشر. ذلك لأن عمق الماء، إذ ذاك، كان يبلغ ميلاً ونصف ميل، فما كان عند ذلك لأي انسان أن يبقى حياً. وان الحيوانات البحرية أيضاً كانت تتغذى بعضها بالبعض الآخر وتفنى عن بكرة أبيها وينقرض نسلها.

فعلم من كل ذلك، أن لموقع القمر ومقدار بعده عن الأرض أهمية عظمى لادامة الحياة على وجه الأرض... وهكذا يتحقق قوله تعالى: (وهو الواقع الحقيقي الذي لا ريب فيه) ان مواقع النجوم ومنها القمر من الأهمية بحيث لولاها لاختل نظام الكون الرحيب.



وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون(1)

لولا أن الله تعالى قد أحاط أرضنا بغلاف غازيٍّ ثخنه ٨٠٠ كيلو متر لحفظها مما تتوجه نحوها من أحجار سماوية: (٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠) حجارة في كل ثانية بسرعة ٥٠ كيلومتراً في الثانية، لما عاش على سطحها كائن حي ولاستحالت الحياة على وجه البسيطة(2).

على أن لهذا الغلاف الغازي أو الدرع الحصينة أثراً هاماً في إيصال حرارة الشمس إلى الأرض بدرجة من الاعتدال والتناسب كي يمكن أن تعيش على سطحها النباتات والحيوانات والانسان، وكذلك لهذا الغلاف أثر هام في نقل المياه وبخار الماء من المحيطات (البحر المحيط) إلى القارات فلولا وجود هذا الغلاف الجوي لتحولت القارات كلها إلى أراضٍ قاحلة.

ومن المعلوم أن أجرام السماء متنوعة الحجوم والصفات، منها الشموس والنجوم والكواكب، كما أن منها الشهب والنيازك. وكلها تجري في مساراتها في اتزان مع بعضها البعض وقد شدت برباط الجاذبية. حسب دستور اكتشفه نيوتن، وعدَّله أينشتاين.

وقد يختل هذا التوازن أحياناً لسبب من الأسباب، أو قد تدخل الأرض في مجرى من مجاري الشهب في الفضاء وهي تسبح من حول الشمس، وقد تصل سرعة حركة بعضها في الفضاء ٤٥ ميلاً في الثانية الواحدة تقريباً. ولهذا يقدَّر بأن شهاباً واحداً وزنه جزء من ألف جزء من الغرام الواحد عندما يسبح

---

(١) سورة الأنبياء: ٣٢.

(٢) وقد دلت دراسة المعلومات التي ترسلها الأقمار والصواريخ على أن حوالي عشرة آلاف طن من مواد الشهب والنيازك تتساقط نحو الأرض كل يوم.

بمثل هذه السرعة يكون مدفوعا بقوة تضاهي تلك القوة التي تصحب رصاص البنادق. ورغم أن حجم مثل هذا الشهاب قد لا يزيد على حجم حبة من الرمال فإن خطر المباشر إذا ما أصاب جسم الانسان لا يقل عن خطر الاصابة بقذيفة نارية.

وتهوي آلاف الملايين، كما قلنا، من مثل هذه الشهب بلا هوادة إلى جو الأرض العلوي كل يوم عندما تخترق الأرض مساراتها، إلا أنها سرعان ما تتبخر أو تحترق. ويتم ذلك على أبعاد تصل من ٨٠ إلى ١٠٠ كيلو متر من سطح الأرض. وذلك بسبب الحرارات العالية التي تتولد أثر احتكاكها بالغلاف الجوي العلوي.

فمن المعروف أن الاحتكاك السريع يولِّد الحرارات العالية، وهذه بدورها تعمل على تبخير وإشعال الشهب، ولهذا لا تصل هذه الأجرام السماوية إلى سطح الأرض، ويحمينا الغلاف الجوي من أخطارها، وهذا أيضاً ما يحدث للنيازك، إلا أنها كثيراً ما تصل إلى سطح الأرض بسبب حجومها الكبيرة. ومن أشهر النيازك التي وصلت إلى سطح الأرض نيزك سيبيريا العظيم الذي سقط عام ١٩٠٨ وهزّ سطح الأرض وجوها، وسبب تلفاً عظيماً في دائرة زاد قطرها على ٤٠ من الكيلومترات.

ونيزك آخر هو نيزك (الأريزونا) بأمريكا، وقد أحدث هوة عميقة في سطح الأرض زاد قطرها على ميل وربا عمقها على ٢٠٠ متر. وقد نجم عن تصادم ذلك النيزك بسطح الأرض أن انفجر النيزك وتطايرت أجزاؤه المختلفة في صورة شهب تناثرت من حول الحافة على مساحة واسعة جداً.

وبطبيعة الحال تكون النيازك والشهب مصدراً من أكبر مصادر الأخطار والأهواء على المسافر عبر الفضاء الكوني خارج نطاق جو الأرض. وما حديث الشهب التي تتعقب الشياطين عندما تحاول الصعود في السماء بجديد. ويقص لنا القرآن في سورة الجن وينقل لنا من أنباء عالم الغيب هذه الآية:

﴿وإنا لمسنا السماءَ فوجدناها مُلئَت حرساً شديداً وشهباً، وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً﴾.

* * *

أنه تعالى يقول: ﴿يا معشر الجن والانس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض، فانفذوا، لا تنفذون إلا بسلطان، فبأيِّ آلاء ربكما تكذبان، يُرسل عليكما شواظ من نار ونحاس، فلا تنتصران﴾[1].

تكشف لنا هذه الآية الكريمة الشيء الكثير عن أسرار الفضاء، وتنبئنا أن الفراغ الكوني (الفضاء الكوني) ليس فراغاً بالمعنى المعروف... وقد ثبت علمياً أنه تنتشر فيه الكثير من الجسيمات المشحونة ونوى العناصر والكهارب التي لا تستقيم معها الحياة بحال. ولم يعرف البشر هذه الحقائق عن الفراغ الكوني إلا في عصر الفضاء عندما أطلق أقماره الصناعية وكواكبه الصناعية لتسبح في أعماق فراغ الكون. وظهر أن هنالك من حول الأرض أحزمة برمتها هي مجموعات عظيمة من الكهارب المحتجزة في الفراغ بفعل مجال الأرض المغناطيسي. وهي أقرب شيء ما شواظ النار[2]. إذ أنها تنطلق من الشمس وكأنها لفظتها لهبها المستعرة. ولا يمكن لأي كائن حي أن يتعرض لهذه الأحزمة أو يخترقها دون وقاية تامة، ولا يعرف حتى الآن مدى هذه الوقاية ومدى النجاح المقدر لها. ويُطلق العلماء على أغلب مكونات هذه الأحزمة الفراغية اسم: (الأشعة الكونية)، ولعل ذلك، لأن جانباً منها يُقبل من أعماق الكون، ومرةً أخرى يحول غلاف الأرض الجوي بأمره تعالى دون وصولها الينا.

* * *

إن الله قادر على أن يهلك هذا الانسان، لولا رحمته، التي وسعت كل شيء بذنوبه التي لا تعد ولا تحصى في طرفة عين، لو رفع وسائل وقاية الانسان عن الأخطار المتوجهة إليه من السماء، فلا ينبغي أن يركبه الغرور فيفسد في الأرض ﴿والله لا يحب الفساد﴾. (سورة البقرة: ٢٠٥)، وعليه أن لا يأمن مكر الله تعالى: ﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾[3]. أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً، فستعلمون كيف نذير»[4].

---

(١) سورة الرحمن: ٣٢ ـ ٣٥.
(٢) الشواظ: لهب لا دخان فيه. واللهب: لسان النار.
(٣) سورة الأعراف: ٩٩.
(٤) سورة الملك: ١٧. حاصباً: الريح الشديدة تحمل الحصباء.

فهذه المصابيح هي الشهب التي تنقضّ في سماء الأرض بلا هوادة ومن كل اتجاه وتكون أكبر أخطار السفر عبر الفضاء الكوني. أنه تعالى يقول: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين، وأعتدنا لهم عذاب السعير﴾(١).

ثم أنه تعالى يشير في الآية الآتية إلى فعل الزلازل المدمرة وما قد ينجم عنها من اختفاء معالم بعض أجزاء سطح الأرض: ﴿أأمنتم مَن في السماء أن يخسف بكم الأرض، فإذا هي تمور﴾(٢).

فما على هذا الانسان إلا أن يزداد خشوعاً لله تبارك وتعالى وخشيةً، في حركاته وسكناته، ثم يرجو رحمة ربه، فـ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾(٣).

فليس الانسان كل شيء في هذا الكون التي لا تتناهى جوانبه، إنما جيء به إلى هذه الدنيا الفانية ليتكامل في هذه الحقبة من الزمن، في مدة لا تتجاوز، على الأكثر ١٠٠ سنة، المتقبلة أحوالها. «الدنيا ساعة، فلا تجعلها إلا طاعة» كما جاء في متن الحديث، و«الدنيا مزرعة الآخرة» كما جاء في حديث آخر. وما قيمة مائة سنة من العمر تجاه الزمان الذي يمتد بأمر الله تعالى إلى ما لا حدَّ له. فنسبة ١٠٠ إلى اللانهاية صفر: $\frac{١٠٠}{\infty}$ = ٠ انه تعالى يقول:

﴿مَن كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب﴾(٤)

فطوبى لنفوس توجهت إلى الحق المتعال، بخشوعها وخضوعها، سجودها وركوعها، ومثولها بين يدي الله العلي الكبير، جوف الليل، حيث

---

(١) سورة الملك: ٢٥. الرجم: ما يرجم به، جمعه: رجوم.

(٢) سورة الملك: ١٦.

تمور: مار البحر، يمور: ماج واضطرب، تحرك كثيراً وبسرعة من جهة إلى أخرى.

(٣) سورة الاعراف: ٥٥.

(٤) سورة الشورى: ٢٠.

لا يراه أحد إلا الله تعالى، فذابت ببكائها واعترافها بذنوبها وانغمارها في حب الله حتى بلغت مرتبة اليقين.

ما أعظم هذه المرتبة، حقاً، أنها غاية الغايات، أنها لتعادل آلاف الشهادات من (دكتوراه) وغيرها، وما فائدة شهادة الدكتوراه إن كان حاملها لم يخط في عوالم تكامل النفس أي في تكميل نفسه، وهي أعز الأنفس إليه، خطوة واحدة.

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم، إن زلزلة الساعة شيء عظيم، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حملٍ حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد﴾(1).

وعن علي بن ابراهيم عن محمد بن عيسى عن يونس قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن الايمان والاسلام. فقال أبو جعفر: إنما هو الاسلام والايمان فوقه بدرجة، والتقوى فوق الايمان بدرجة، واليقين فوق التقوى بدرجة، ولم يقسَّم بين الناس شيء أقل من اليقين. قال: قلت: فأي شيء اليقين؟ قال: التوكل على الله والتسليم لله والرضا بقضاء الله والتفويض إلى الله. قلت: فما تفسير ذلك؟ قال: هكذا قال أبو جعفر (ع).

وإن باب التقوى هو التوبة عن الذنوب ذنوب أدبرت لذاتها وأقامت تبعاتها ولنتعلم حقيقة التوبة من مولانا وإمامنا سيد الساجدين الامام الرابع علي بن الحسين عليه الصلاة والسلام. انه يقول:

«أللهم إني أتوب اليك من كبائر ذنوبي وصغائرها، وبواطن سيئاتي وظواهرها، وسوالف زلاتي وحوادثها، توبة من لا يحدث نفسه بمعصية، ولا يضمر أن يعود في خطيئة، ولك، يا رب شرطي أن لا أعود في مكروهك، وضماني أن لا أرجع في مذمومك، وعهدي أن أهجر جميع معاصيك».

اسمعوا إلى كلام السجاد عليه السلام كيف يعظم الذنب الصغير تجاه

---

(1) سورة الحج: ١ ـ ٢.

العلي الكبير. كل ذلك لينبه من خالف أوامر الله من سباته، فيبادر إلى التوبة بانكسار لا مزيد عليه وندم عميق وحزن شديد.

إنه عليه السلام يقول:

«يا إلهي لو بكيت اليك حتى تسقط أشفار عيني، وانتحبت حتى ينقطع صوتي، وقمت لك، حتى تنتشر قدماي، وركعت لك حتى ينخلع صلبي، وسجدت لك حتى تتفقأ حدقتاي، وأكلت تراب الأرض طول عمري، وشربت ماء الرماد آخر دهري، وذكرتك في خلال ذلك حتى يكل لساني، ثم لم أرفع طرفي إلى آفاق السماء استحياءً منك، ما استوجبتُ بذلك محو سيئة واحدة من سيئاتي وان كنتُ تغفر لي حين استوجبت مغفرتك، وتعفو عني حين استحق عفوك، فان ذلك غير واجب لي، ولا أنا أهل له باستيجاب».

إذا كان إمامنا المعصوم يخاطب ربه بهذا الخطاب، فكيف بنا وقد ملئنا معاصي وآثاماً، ألا يجدر بنا أن نخاف الله من شديد عذابه وأليم عقابه وأن نعمل مجاهدين في أيام الفرصة: في هذه الأيام القليلة لئلا نكون من ﴿الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين. لهم من فوقهم ظُلل من النار ومن تحتهم ظلل، ذلك يخوِّف الله به عباده، يا عبادِ فاتقون﴾(١).

---

(١) سورة الزمر: ١٥ ـ ١٦.
ظلل: أطباق من النار.

من حقائق القرآن:

وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر(١)

إن هذه الآية تبيِّن لنا في إعجاز علمي رائع كيف أن النجوم ـ دون الكواكب السيارة التي هي في منظومتنا الشمسية ـ يمكن أن تستخدم في تعيين الاتجاهات على كرتنا الأرضية وكيف يمكن أن يهتدي بها رواد الصحارى والبحار.

لقد عرف القدماء من الفراعنة والاغريق والعرب وغيرهم الكثير عن النجوم وتجمعاتها. وأطلقوا على بعض النجوم كما تبدو في كبد السماء أسماءً مختلفة المصدر مثل: السماك الرامح، والسماك الأعزل، والشعرى اليمانية.

كما أطلقوا على تجمعاتها أسماء أخرى مثل: مجموعة الدب الأكبر، ومجموعة العقرب، ومجموعة المرأة المسلسلة ومجموعة الجاثي على ركبتيه، ومجموعة الحمل ومجموعة الأسد. الخ وعددها ٩٠ مجموعة هي البروج.

ويبدو لنا أن هذه النجوم تتحرك عبر السماء من الشرق إلى الغرب بسبب دوران الأرض حول محورها من الغرب إلى الشرق مرة كل يوم. فيشرق بعضها من جميع اتجاهات الأفق الشرقي، ثم ترتفع في السماء حتى تصل أقصى درجات ارتفاع لها لحظة عبورها خط الزوال. ثم تبدأ بالانخفاض حتى تصل إلى الأفق الغربي وتختفي وراءه. وهناك نجوم

(١) سورة الانعام: ٩٧.

تتحرك دون أن تشرق أو تغرب، ولكنها ترسم في مساراتها اليومية دوائر مركزها النجم القطبي الذي هو في اتجاه الشمال على امتداد محور دوران الأرض، يستخدمه الملاحون ورواد الصحارى في تعيين الشمال.

وقد أوضح الله تعالى الاهتداء بالنجوم في آية أخرى بقوله:

﴿وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾. (سورة النحل: ١٦).

ثم ان الله تعالى لا يريد منا أن نهتدي في أسفارنا بالنجوم فحسب، بل يريد منا ما هو أهم من كل ذلك، ما يجعل هذه النفوس تعرج في عوالم القدس وتقترب من الساحة القدسية الالهية بتسبيحها، خشوعها وخنوعها، وذلك بقوله جل من قائل: ﴿ومن الليل فسبحه وأدبار النجوم﴾[1]. وهو تسبيح الله تعالى بعد منتصف الليل أو بين الطلوعين. كان يقول سيد الساجدين علي بن الحسين عليه السلام: في مناجاته: «إلهي، غارت نجوم سماواتك وهجعت عيون أنامك، وأبوابك مفتحات للسائلين».

وقد جاء في الحديث: تتجلى العبادة في خمسة أشياء: (١) خلاء البطن (٢) تلاوة القرآن، (٣) صلاة الليل، (٤) التضرع عند الصباح، [٥] البكاء من خشية الله تعالى.

* * *

أنظروا كيف يصف الله تعالى في الآية المباركة الآتية في دقة عملية وملاءمة لفظية عواصف البحر وأنواءَه مما لم يشاهده الرسول (ص) ولم يعرف عن حقيقته شيئاً لولا تعليم الله تعالى إياه:

﴿أو كظلمات في بحر لجي[2] يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يكد يراها، ومَن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾. (سورة النور: ٤٠).

---

(١) سورة الطور: ٤٩. والآية المتقدمة نذكرها لعظيم فائدتها وهي: ﴿واصبر لحكم ربك، فانك بأعيننا، وسبح بحمد ربك حين تقوم﴾. (سورة الطور: ٤٨).

(٢) لجي: عميق.

وإن هذه الآية كانت سبباً لاسلام ملاح غربي، ذلك، أنه كان يقود سفينته في الجنوب الشرقي من آسيا، وإذا بعاصفة عظيمة تغيِّر حالة الجو فتتعالى الأمواج بعضها فوق بعض ومن فوقها سحاب، ويسود ظلام وأي ظلام، بل ظلمات بعضها فوق بعض لا يكاد المرء إذا أخرج يده يراها.

يحار الملاح في أمر السفينة، ماذا يصنع؟ وكيف ينجو؟ فصار يجول في السفينة، ويصعد وينزل، وإذا به يرى رجلاً باكستانياً قد انكب على كتاب يتلوه، فسأله قائلاً، وما الذي تقرأ؟

قال: انه كتاب الله، انه القرآن، فقال: ترجم لي الآية التي تقرأها، فكانت الآية المتقدمة: ﴿أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج...﴾.

فتحيَّر الرجل عندما رأى ان ما جاء في القرآن الكريم وصف رائع لما فيه الآن من حالة عصيبة، وصف لا يقوى عليه إلا من جاب البحار وشاهد حالة العواصف الشديدة المظلمة، وقال: إن محمداً لم يكن قد خرج من الجزيرة العربية إلى مثل هذه البحار ولم يشاهد هذه الحالات الغريبة الاستثنائية، إذن، «إن هو إلا وحي يوحى، علمَّه شديد القوى». فآمن من ساعته. وأصبح منوراً بنور الاسلام الوهاج، وتحقق قوله تعالى: ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾.

* * *

إن الله تعالى يذكر في آيات جمة أن الجبال أوتاد لهذه الأرض عن الميدان والميلان. وان الأرض مهاد. وذلك بقوله:

﴿ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً﴾ ومعلوم أن الأرض كالمهاد أو الفراش لهذا الانسان فهي موطن البشر ومأواهم في الحياة الدنيا. وأما تشبيه الجبال بالأوتاد التي تحفظ توازن الخيمة عندما تشد اليها فهو تشبيه علمي معجز لا يصل إلى كنهه وسره إلا الراسخون في علم طبقات الأرض. وقد علم أخيراً بعد تقدم (الجيولوجيا Géologie) أي علم طبقات الأرض أنه لولا الجبال لكانت قشرة الأرض الصلبة في جملتها دائبة الاضطراب بسبب دوام

اختلال التوازن القائم بين جوف الأرض المنصهر وما يعاني من ضغوط عالية وقشرتها الصلبة وما تتعرض له من عوامل التعرية. وأهم عوامل التعرية هي الأمطار والسيول والأنهار والرياح واختلافات الحرارة ما بين الليل والنهار والشتاء والصيف وكلها تفتت القشرة الصلبة.

إن قشرة الأرض الصلبة هي ميزان دقيق حساس إلا أنه ميزان من النوع المركب. فكل مكان من القشرة هو بمثابة كفة متوازنة تماماً مع أي مكان مجاور. والميزان الدقيق تكون كلتا كفتيه متوازيتين تماماً. وهما يظلان كذلك ما دامت الأثقال التي توضع على احداهما مساوية للتي توضع على الأخرى. فإذا ما تغير الثقل على احدى الكفتين لسبب من الأسباب اضطربت هذه الكفة وتأثرت الكفة المقابلة لها حتماً. ويظل هذا الاضطراب قائماً حتى تتساوى الأثقال مرة أخرى ويعود التوازن إلى حالته الأولى. وجميع أجزاء القشرة الأرضية متزنة تماماً مع ما يجاورها من أجزاء لحفظ هذا التوازن تحمل أجزاء منها أعلى الجبال، بينما تكون الأجزاء المجاورة قيعانا. فالجبال إنما سببت مجرد حفظ هذا التوازن كما تشير إلى ذلك قوله تعالى:

﴿والجبال أرساها﴾(١).

﴿وهو الذي مَد الأرض وجعل فيها رواسيَ وأنهاراً﴾(٢). ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي﴾(٣) ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً﴾(٤) ﴿وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم﴾(٥).

إلا أن المشاهد أنه: لا الحالة الداخلية لباطن الأرض ولا الظروف الخارجية التي تتعرض لها الجبال والهضاب تترك هذا الميزان في حالة هدوء واستقرار. فباطن الأرض المنصهر تجتاحه تيارات تؤدي إلى إلتواء القشرة الصلبة مهما كانت هذه التيارات بطيئة، وتجري المياه إلى المنخفضات التي

---

(١) سورة النازعات:
(٢) سورة الرعد:
(٣) سورة الحجر:
(٤) سورة النحل:
(٥) سورة الأنبياء:

تتكون بالتواء القشرة. وهي التي نسميها البحار. وبمرور الزمن تصير معها هذه البحار مأوى لأحمال ثقيلة كثيفة جداً من الرسوبيات التي تأتي بها عوامل التعرية من المناطق المرتفعة في القشرة كالجبال والهضاب وترسب بقايا الكائنات البحرية، وكلما ثقلت هذه الأحمال هبطت تحت ثقلها قيعان البحار. وتظل هذه الرسوبيات تتراكم حتى تكون جذوراً لجبال مستقلة نتيجة للضغط الشديد الذي يقع على حافتي الجزء الهابط من القشرة عليها، فتلتوي القشرة وتنثني وترتفع رويداً رويداً لحفظ التوازن.

هذه القصة تصور لنا باختصار الثورات الجيولوجية أو حركات بناء الجبال. ولما قامت أول ثورة جيولوجية نتيجة للاضطرابات التي اجتاحت باطن الأرض في أول أمرها، جاء رد الفعل في القشرة الأرضية بظهور القارات وما رسا على سطحها من الجبال الأولى. ثم اختل التوازن تحت تأثير عوامل التعرية التي تنحت الجبال وتفتتها وتحمل أنقاضها لترسبها في أعماق البحار والمحيطات، وعند ذلك، بدأت القشرة الأرضية تستعيد توازنها المختل، وعلا سطح المحيط تدريجياً حتى فاض الماء وظهرت بحار جديدة على أطراف القارات تركت آثارها بما أعطت من رواسب نراها اليوم.

وهكذا نجد الجبال هي من الوجهة العلمية بمثابة الأثقال التي تحفظ توازن القشرة الأرضية وتبقى على ثبوتها وعدم انهيارها خلال أحقاب طويلة يظل خلالها التوازن قائماً رغم ما يعانيه باطن الأرض من ضغوط عالية وما يجتاحه من تيارات حمل بطيئة، وهذا المعنى الرائع هو عين ما أشارت إليه الآيات المتقدمة والآيات الآتية:

﴿وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماءاً فراتاً...﴾ (سورة المرسلات).

﴿والأرض مددناها وألقينافيها رواسي﴾.. (سورة: ق).

﴿وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها﴾. (سورة حم ـ سجدة).

﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبثّ فيها من كل دابة﴾. (سورة لقمان..).

﴿أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي﴾... (سورة النمل).

لم يدوِّن الله تعالى الآيات الكونية المتقدمة وغيرها التي تربو على (٧٥٠) آية في كتابه المجيد لتعليمنا علمَ طبقات الأرض أو الفلك أو غيرهما من العلوم. ذلك لأن ما أودع الله تعالى من قوانين وخواص في حقل طبقات الأرض أو في حقل علم الفلك وغيرهما من الكثرة بحيث لا يمكن حصرها أو عدها. ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾[١]. ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾[٢].

وإنما أراد ابداء عظمته وجليل قدرته كي يعتبر الانسان ويعلم أن الابداع لا يأتي جزافاً ولا يتكوَّن بصدفة في مراحل لا تعد ولا تُحصى، أراد أن يفهم العالم أن الدين الصحيح الذي لا شائبة فيه، الدين الذي لم تمسه يد البشر المحرِّفة هو ذلك الدين الذي يقوم على أساس تعاون وثيق وانسجام كامل بين النظرة العلمية أو الفكرية التي يُستعان بها في كشف حقائق الكون بالحس والتجربة والاستقراء والاستنتاج والنظرية الدينية التي تربط الكون والانسان بالاله الخالق المبدع. فتتولد من جهة علوم وضعية نظرية وعملية وتجريبية، وتتطور وتتقدم وتتآخى في الوقت نفسه مع الروح الدينية الصافية التي تستشعر وجود الخالق وعظمته وتحاول الرقي الخلقي والروحي منسجمة ومتآلفة مع الروح العلمية والتقدم الفكري.

هذه ظاهرة واضحة في الحضارة الاسلامية، بخلاف ما كان في القرون الوسطى في أوروبا من اضطهاد وإعدام العلماء الكونيين. فقد حررت النظرة الاسلامية الفكر العلمي من الشوائب المعوِّقة باسم الدين وصفت الروح الديني وارتقت بها وأكملت بها الرقي المادي.

هذه الظاهرة هي التي دعا اليها القرآن بقوله: ﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض﴾[٣]. إنها نظرة جديدة إلى الكون والانسان والحياة حيث

---

(١) سورة الكهف: ١١٠

(٢) سورة لقمان: ٢٧.

(٣) سورة يونس: ١٠١.

لا تنافي ولا منافاة بين العلم المادي والتوجه نحو الخالق المتعال. وقد قال علي عليه السلام: «بالعلم يُعرف الله ويوحد».

إنها ظاهرة واضحة كل الوضوح في الحضارة الاسلامية منذ بدايتها. فقد كان ارتقاء العلوم المادية وارتقاء العلوم المعنوية يسيران في اتجاه واحد في هذه الحضارة، من غير أن يكون بينهما هوة فاصلة أو تنافٍ أو مخالفة، خلافاً للحضارات السابقة واللاحقة.

فيجدر بالعالم أجمع أن يتخذ الدين الاسلامي ديناً عالمياً لينعم به البشر في دنياه ويسعد في الآخرة. ويترك ما أملته اليد البشرية من خرافات لا يسندها العقل والعلم.



ـ حركة الأرض في القرآن الكريم ـ

كان قد أجمع علماء اليونان قبل الميلاد على أن الأرض ثابتة لا حراك لها وأن الشمس والأنجم تدور حولها، حتى كان القرن السابع عشر الميلادي وجاء (غاليليو) بمرقبه وثبت لدى العلماء الكونيين: أن الأرض تتحرك حول الشمس وأن الشمس ثابتة لا حراك لها. وحصل من جراء هذه العقيدة شجار عنيف بين الكنيسة التي كانت تقول بسكون الأرض والعلماء الكونيين الذين قالوا بحركتها، فأعدم نتيجة هذا التصادم في الرأي كثير منهم.

إلا أن القرآن الكريم كان ينادي قبل ذلك بقرون: أن الأرض أو الجبال التي عليها تتحرك كما يتحرك السحاب وتمر كما يمر. وذلك بقوله جل من قائل:

﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرُّ مر السحاب، صنع الله الذي اتقن كل شيء، أنه خبير بما تفعلون﴾[1].

وحركة الجبال ومرورها أو حركة الأرض هذه: هي في الحقيقة حركتان: حركة في دورانها حول الشمس على شكل اهليليجي أو قطع ناقص، وحركة أخرى أو مرور آخر مع الشمس وبقية كواكب المجموعة الشمسية بسرعة، ٧٠٠٠٠ كيلو متر تقريباً في الساعة الواحدة على شكل لولبي في هذا الفضاء اللانهائي متجهة نحو النجمة المسماة بالنسر الواقع كي تبلغ مستقرها كما أخبرنا الله تعالى في محكم كتابه بقوله: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾[2]. ويعتبر اكتشاف حركة الأرض بدورانها حول نفسها

(١) سورة النمل: ٨٨

(٢) سورة يس: ٢٨.

وحركتها أو دورانها حول الشمس من أروع ما اكتشفه العلم الحديث، وقد سبق القرآن هذا الاكتشاف ما يزيد على ألف سنة تقريباً.

ولا يراد بمرور الجبال في الآية المتقدمة: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة﴾ ما يحدث يوم القيامة، ذلك لأنه لا تبقى جبال إذا كان يوم القيامة حتى يراها الانسان في ذلك اليوم فيحسبها جامدة. وهو القائل: ﴿ويسألونك عن الجبال، فقل ينسفها ربي نسفاً[1]﴾، وبقوله: ﴿وإذا الجبال نُسفت﴾[2]، وبقوله: ﴿وبُست الجبالُ بساً، فكانت هباءً منبثاً﴾[3].

ويقول حجة علماء الفلك (سيمون) بشأن حركة الأرض ضمن المجموعة الشمسية: «ان من أعظم الحقائق التي اكتشفها العقل البشري في كافة العصور هي: ان الشمس والكواكب السيارة التي هي في المجموعة الشمسية (مجموعتنا هذه) وأقمارها تجري في الفضاء متجهة نحو برج النسر، بسرعة غير معهودة لنا على الأرض، يكفي لتصورها أننا لو سرنا بسرعة مليون ميل يومياً، فلن تصل مجموعتنا الشمسية إلى هذا البرج إلا بعد مليون ونصف مليون سنة من وقتنا الحاضر، وهذه دون مراء إحدى معجزات القرآن العلمية».

* * *

ودليل آخر على حركة الأرض قوله تعالى:

﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها»[4].

ومعلوم أن مشارق متعددة ومغارب عديدة لا تحدث إلا بحركة الأرض حول محورها حتى تكون كل نقطة منها تارة مشرقاً وأخرى مغرباً حسب حركة

(١) سورة طه: ١٠٥
(٢) سورة المرسلات: ١٠
(٣) سورة الواقعة: ٥ ـ ٦.
(٤) سورة الأعراف: ١٣٦.

الأرض ودورانها بالنسبة إلى الشمس التي تُرى لبعدها ثابتة على وجه التقريب.

ويقول الله تعالى في آية أخرى:

﴿ربُّ السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق﴾[1].

وفي آية أخرى أيضاً:

﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب﴾[2]. مما يدل على أن كل ما في هذا الكون من أجرام ومجرات وغيرها في حركة دائمة حول محاورها ولها مشارق ومغارب وهذا عين ما اكتشفه علم الفلك الحديث وعلم الفلك اللاسلكي بالنسبة إلى الأنجم النائية في أغوار الفضاء والمجرات كذلك.

* * *

وإن الآيتين الآتيتين تدلان دلالة واضحة على حركة الأرض لئلا يبقى قسم منها في ظلام دائم والقسم الآخر في ضياء دائم.

﴿قل أرأيتم أن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة مَن إله غير الله يأتيكم بضياءأفلا تسمعون. قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة مَن إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه، أفلا تبصرون﴾[3]

وبما أن الله ،تعالى أخبرنا في الآية القائلة: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾[4] أن الشمس تسير في الفضاء إلى حيث تستقر وهذا لا يتلائم مع دورانها حول الأرض حيث يخالف الجري الذي مآله الاستقرار في محل يعلمه الله تعالى، إذن وجب أن نقول إن الشمس بحكم الآية المتقدمة لا تدور حول الأرض، وبما أن خروج الأرض من ظلام دائم أو خروج الأرض من ضياء دائم يتوقف على حركتها حول محورها، إذن يعلم من الآيات المتقدمة بعد الجمع بينها أن الأرض متحركة حول نفسها، أو حول محورها.

---

(١) سورة الصافات: ٥

(٢) سورة المعارج: ٤٠

(٣) سورة القصص: ٧١ ـ ٧٢، سرمداً: أي بصورة دائمة.

(٤) سورة يس: ٣٨.

ويقول الله جل جلالـه في الآية الآتية: أنه لو كان في جهة من الأرض ليل لكان في الجهة الأخرى نهار بصورة حتمية، وهذا لا يتم إلا بدوران الأرض حول محورها أو بدوران الشمس حول الأرض. وبما أن الله أخبرنا أن الشمس تجري في الفضاء لمستقر لها، أي: ليس لها دوران حول الأرض إذن وجب أن نقول: إن الأرض هي التي تدور حول نفسها ليتمَّ الليل والنهار في كل ٢٤ ساعة.

والآية هي:

﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازَّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً، فجعلناها حصيداً كأن لم تغنَ بالأمس، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾(١).

فقوله تعالى: ﴿أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً﴾ يشير إلى حركة الأرض حول نفسها ودورانها حول محورها، ذلك لأن الليل والنهار يكونـان على الكـرة الأرضية في وقت واحد في موضعين مختلفين. والله تعالى لا يتردد في تعيين وقت يريد فيه إفناء الأرض وإبادتها: هل يكون ذلك في الليل أم في النهار، وهو خالق كل شيء والعالم بكل شيء، عالم بما هو كائن وبما سيكون، إذن، يشير قوله تعالى: ﴿ليلاً أو نهاراً﴾ إلى أن قسماً من الأرض يتلقى أمر الفناء ـ من جانب الله تعالى ـ ليلاً، والقسم الآخر في نفس اللحظة يتلقى هذا الأمـر نهاراً. وهذا لا يتم إلا بحركة الأرض أو دورانها حول محورها لحدوث الليل والنهار في نفس الوقت نتيجة هذا الدوران... وقد نفينا دوران الشمس حول الأرض بالآية المتقدمة.

ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿ولا الليل سابق النهار﴾ ومعنى ذلك: ان الليل لا يسبق النهار وكلاهما يحدثان في وقت واحد. حقاً، عندما انفصلت الكرة الأرضية بحالة نارية ملتهبة عن الشمس(٢)، كان الطرف الذي يلي

---

(١) سورة يونس: ٢٤.

(٢) انه تعالى يقول: ﴿أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً، ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي، أفلا يؤمنون﴾. (سورة الأنبياء: ٣٠).

الشمس نهاراً والطرف الآخر ليلاً، وعندما بدأت تدور حول نفسها وحول الشمس أيضاً بحكم الجاذبية على ما ثبت في علم (الميكانيك كان الطرف المتوجه إلى الشمس نهاراً والطرف الآخر ليلاً. فالليل والنهار كلاهما يحدثان في آن واحد دون أن يسبق أحدهما الآخر. ثم إذا أضفنا إلى هذه الآية قوله تعالى في سورة يس: ﴿ولا الليل سابق النهار﴾، هذه الآية: ﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً﴾[1]. نعلم أن الليل يتلو النهار، فهما متعاقبان. وهذا لا يتم إلا بدوران الشمس حول الأرض، أو بدوران الأرض حول محورها. وبما أن الآية:

﴿والشمس تجري لمستقر لها﴾[2]. تنفي دوران الشمس حول الأرض ذلك لأن الشمس تجري لمستقر لها، ولا استقرار مع الدوران في نفس المدار، إذن: يُعلم أن لا بد لتعاقب الليل والنهار من حركة الأرض حول محورها ليكون بصورة دائمة الطرف المتوجه نحو الشمس نهاراً والطرف الآخر غير المتوجه نحو الشمس ليلاً.

ومما لا مراء فيه: أن ليس للأجسام الصامتة، الصماء أن ترتب لنفسها حركات مترتبةً منتظمة تحصل بسببها، أي بسبب دوران الأرض حول محورها، حياة على الكرة الأرضية، فتعيش النباتات والحيوانات عليها، إذن: يحكم العقل بصورة فطرية: أن الله تبارك وتعالى هو الذي أعطى هذه الحركات المنتظمة للكواكب والشموس كي تحصل بسببها حياة. ذلك، لأن الأرض لو كانت ثابتة، لبقي طرف منها متوجهاً نحو الشمس ولاحترق كل ما على الأرض من نبات وحيوان ولتبخرت المياه، وانعدمت نتيجة لذلك الحياة عليها وكذلك الطرف الآخر: الطرف غير المتوجه نحو الشمس لبقي في ظلام دائم وبرودة قارصة، وانجمد بسببها كل ما على الأرض من نبات وحيوان ومياه وانعدمت الحياة عليها أيضاً.

فالله تعالى جعل هذه الدقة المتناهية في الخلق: من تعاقب الليل والنهار

---

(١) سورة الفرقان: ٦٢.

سورة ياسين: ٢٨.

إلى ما هنالك من ملايين الأنظمة والقوانين والخواص تذكرة لمن أراد أن يذكّر وعبرة لمن أراد أن يعتبر: لمن أراد أن يقوم بواجب الشكر تجاه نعمه التي لا تعد ولا تحصى[1] فيشكر الله تعالى بصلاة يصليها وصوم يطهر به نفسه وزكاة يطهر بها ماله وخمس يؤدي به ما فرض الله عليه، وحج يتقرب به إلى الله، وانفاق وبذل وقيام بحوائج الناس وأعمال صالحات، وبر الـوالدين وصلة الرحم، وتسبيح الله تعالى وتقديسه.

فلا يعتبر بـآيات الله تبارك وتعالى وما أودع في الكون من حركات وقوانين إلا مَن آمَن ولا يؤمن حقاً إلا من اتقى الله، ولا تتم التقوى إلا بالقيام بواجب الشكر. ولكل عضو من أعضاء الانسان شكر يناسب ذلك العضو، ولكل جارحة من الجوارح شكر يناسبها، ولكل ما مَنَّ الله عـلى الانسان من منصب وجاه وعلم وكمال شكر يناسبها، كما أن لكل ما منَّ الله على الانسان من مال ومنال وأرض وعقار شكراً عملياً يناسبها. ولا يكفي قولك: الحمد لله، إذا منَّ الله عليك بدور متعددة حتى تسكن في احداها بعض المعوزين من أيتام وأرامل وغيرهم. فقد جاء في الحديث: «مَن كانت له دار، فاحتاج مؤمن إلى سكناها، فمنعه إياها، قال الله عز وجل: ملائكتي بخل عبدي على عبدي بسكنى الدنيا، وعزتي، فلا يسكن جناني أبداً».

---

(١) وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها. (سورة ابراهيم (ع): ٣٤).

اللطف وسنة الكمال

كثيراً ما نقرأ في الكتب الكلامية أن الله تبارك وتعالى قد أرسل أنبياء مبشرين ومنذرين عملاً بقاعدة (اللطف) وأن الله تعالى أراد أن يلطف بالبشر ويرفق بهم، فجعل منهم أنبياء ومرسلين، منَّ عليهم بصفة العصمة لقابلية هناك ليهدوا الناس سواء السبيل.

يستنتج من ذلك أنه لولا (قاعدة اللطف) لبقي البشر في دياجير الجهل لا يعرف ربه ولا يعرف كيف ينال سعادة الدنيا ونعيم الآخرة ولبقي كالبهائم أو أتعس حظاً من البهائم أبد الآبدين.-

ولكني أرى: أن الله تبارك وتعالى منَّ على البشر بتعاليم السماء وأرسل أنبياء ومرسلين ومن بعدهم أوصياء سلام الله عليهم أجمعين عملاً بسنة الكمال هذا الكمال الذي نشاهد آثاره وآياته في كل جزء من أجزاء العالم من الأميبا (الكائن الحي ذي الخلية الواحدة) إلى أكبر ما خلق الله من مجرات وشموس تعادل شمسنا هذه آلاف المرات.

كمال نشاهد آثاره في الذرة، ذلك لأن الذرة عالم مستقل في ذاته، لها قوانينها ودساتيرها، وأي كمال أعظم من أن نرى حركة (الألكترون) بسرعة ألفي كيلومتر في الثانية حول النواة: (المركز)، أي حول البروتون على شكل أهليليجي: قطع ناقص، وأي كمال أعظم من رسم منحن اهليليجي يكون المحيط فيه محلاً هندسياً لنقاط تبعد بمقدار القطر الكبير عن نقطتين معينتين: (البؤرتين)، ومتى علم البشر أن معادلة القطع الناقص هي:

$$\frac{س^{٢}}{ب^{٢}} + \frac{ص^{٢}}{حـ^{٢}} = ١$$

لم يتعرف البشر على هذه المعادلة إلا في القرن الثامن عشر الميلادي، بعد قطع الرياضيات مراحل متعددة استغرقت آلاف السنين.

وهل للالكترون وهي شحنة كهربائية سالبة، أن تسلك هذا الطريق الاهليليجي وأن يرسم من تلقاء نفسه هذا المنحنى المعقد الذي لم يقو البشر على تفهمه إلا بعد آلاف السنين.

انه كمال مُحير للعقول في بطن الذرة.

وقل مثل ذلك بالنسبة إلى حركة الكواكب حول الشمس وبالنسبة إلى هذه الأبعاد التي نشاهدها بين الأنجم السابحة في الفضاء بنظام محيرٍ للألباب.

فلو كان البعد بين الأرض والقمر عشر ما عليه الآن لكان المد الحاصل لمياه البحار والأنهار نتيجة جذب القمر لما على الأرض من مياه أضعاف ما عليه الآن ولانغمرت الأراضي والبقاع كلها تحت المياه، ولما وجد مكان جاف للسكنى، وهو قوله تعالى:

﴿فلا أقسم بمواقع النجوم، وأنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾.

وهكذا القول بالنسبة إلى بعد الشمس عن الأرض. فان الشمس تبعد عن الأرض: ٨ دقائق و ٢٠ ثانية بحساب السنة الضوئية أي أن الطائرة لو كانت سرعتها في الساعة ٠٠٠ ٠٠٠ ١٠٨٠ كيلو متر لوصلت إلى الشمس خلال هذه المدة: (٨ دقائق و ٢٠ ثانية). فلو كان هذا البعد نصف ما عليه الآن، لكانت درجة الحرارة على وجه الأرض أربعة أضعاف ما عليه الآن ولاحترق كل شيء وتبخرت المياه واستحالت الحياة على وجه البسيطة. وقد قال تعالى:

﴿وكل شيء عنده بمقدار، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال﴾.

فلا ترى في كل ما خلق الله شيئاً عبثاً يناقض سنة الكمال.

إن الماديين كانوا يتذرعون بأشياء تافهة لاثبات نظريتهم العشوائية، وقد تقدم العلم وفند آراءهم الالحادية.

أنهم كانوا يقولون: إن بعض الأعضاء في البدن الانساني لا فائدة منها وهذا يخالف سنة الكمال. حين أن الحكمة متأصلة من جانب الله في كل شيء. وقولهم هذا كان منبعثاً عن جهل ونقص في العلم، انهم كانوا يقولون: إن (الزائدة الدودية) شيء زائد لا فائدة منها وقد علم بعد تقدم العلم أن لهذه الزائدة(Apendis) حساسية فائقة ازاء التعفنات الداخلية وهي بمثابة صافرة خطر.

وأما اللوزتان فكان يقال عنهما: أنهما زائدتان أيضاً، يجب اجتثاثهما في الصغر لئلا تكونا في المستقبل غدداً نتنة، ثم علم أخيراً أن لهاتين اللوزتين أثراً هاماً في سلامة البدن الانساني...

كان يقول علي عليه السلام: «لو شئت لجعلت من هذا الماء نوراً» والنور أو الضوء طاقة، كما أن الأشعاع طاقة. وقد علم أخيراً معنى قول علي عليه السلام بعد اكتشاف شيء عما في بطن الذرة وتحطيمها. فالماء مصدر عظيم للطاقة. وان الهيدروجين الثقيل الذي نحصل عليه من الماء العادي مصدر عظيم للطاقة. وان مفاعلات الاندماج سوف لا تختلف في حجمها عن المفاعلات الذرية (مفاعلات الانشطار) عند فلق الذرة وتحطيمها.

فالعلماء كما استخلصوا الطاقة من انشطار ذرات العناصر الثقيلة كاليورانيوم، بذلوا الجهود للحصول على الطاقة أيضاً من الماء العادي، وذلك بعملية الاندماج النووي لذرات العناصر الخفيفة كالديوتيريوم والترتيوم كما في القنبلة الهيدروجينية، ولكن تحت وسائل التحكم.

ويحتوي الهيدروجين العادي على قدر من الهيدروجين الثقيل الثنائي، وهو إحدى مركبات الماء الذي يشغل خمسة أسباع مساحة الكرة الأرضية.

وقد بلغ اهتمام علماء الذرة لظاهرة الاندماج النووي مبلغاً كبيراً. لاعتقادهم الراسخ أنه في الامكان استخلاص كميات هائلة من الطاقة بهذه الطريقة بتكاليف زهيدة ودون التعرض لاخطار الاشعاعات الذرية وغيرها التي تنتج في عمليات الانشطار.

فالطاقة التي نحصل عليها من اندماج الهيدروجين الثقيل الموجود في ليتر

من الماء العادي، تعادل الطاقة الحراريةالناتجة من ثلاثمائة ليتر من الكازولين.

ولو أمكن التحكم في طاقة التفاعلات الاندماجية، واستخدمت لخير البشرية لتوفر للعالم قدر من الطاقة يكفيه حقبة من الزمن، تبلغ عشرة آلاف مليون سنة، دون اعتماد على مصدر آخر للطاقة، وقد أمكن الوصول إلى هذه النتيجة باعتبار أن: مساحة الكرة الأرضية تساوي ٢٠٠ مليون ميل مربع، والماء يشغل من هذا السطح خمسة أسباعـه، بمتوسط عمق قـدره ميلان، والهيدروجين العادي يكوِّن تسع ماء البحار والمحيطات، وواحد من خمسة آلاف من هذا الهيدروجين من الهيدروجين الثقيل والعـالم يستهلك الفحم بمعدل ستة آلاف مليون طن سنوياً.

ومما هو جدير بالذكر، أن الاندماج الهيدروجيني هو التفاعل الذي تنتج به الشمس طاقتها الحرارية العظيمة، وهو التفاعل الذي بنيت عليه التفجيرات الهيدروجينية المروعة التي تثبت امكان الحصول على الطاقة بعملية الاندماج ولكن دون تحكُّم.

وقد تنبأ العالم الهندي «هومي بابا» بأن إطلاق طاقة الاندماج بطريقة تمكننا من التحكم فيها سيتم خلال العشرين سنة القادمة، وهو يعتقد أن العصر التاريخي الذي نقتحمه قد يعتبر يوماً ما فترة بدائية للعصر الذري.

كل ذلك يدل على أن الكمال المودع من جانب الله تعالى في العالم المادي قد بلغ أقصاه، فلا بد من شمول هذا التكامل أو الكمال عوالم الأنفس والأرواح، أي لا يستثنى من هذا الكمال الانسان، فلا بد من فطرة توجه الفرد الانساني إلى معرفة ربه والقيام بالأعمال الصالحات.

وكمثال آخر على الكمال المودع في العالم المادي وارتباطه بعوالم النفوس أقول: أن العلماء المحدثين قد حسبوا أنهم لو أرادوا أن يخترعوا جهازاً يقوم بما يقوم به العقل الانساني من أعمال خارقة لاحتاجوا إلى جهاز بسعة كرتنا الأرضية. وعلموا أيضاً أن الفكرة أو الحكمة المبذولة في تركيب مفصل من المفاصل في البدن الانساني هي أعظم من الفكر المبذول في صنع القنبلة الذرية، مع وجود أجزائها من جانب الله تعالى في هذه الأرض قبلاً.

كما أن ظاهرة الطيران في الطيور بمراحلها الثلاث[1] هي من أعجب الظواهر الطبيعية، بسبب صعوبة القيام بها وتفسيرها تفسيراً قاطعاً علمياً مانعاً بل هي من المسائل التي لم يستطع علماء الطير حلها. فما أعظم ما أودع الله فيه من كمال!.

إن الكمال الذي أودعه الله تعالى في كل جزء أو جزيء من هذا العالم الرحيب يتجلى بوضوح لا مزيد عليه بحيث يوحي الينا أن ليس في الكون المادي شيء إلا وقد بلغ أقصى مرتبة من مراتب الكمال أو هو متكامل، يتابع ما منّ له من مراتب كمالية متسلسلة حتى يبلغ الغاية القصوى من الكمال المحدد له، مع العلم أن في كل مرحلة من مراحل الكمال من الدقة والتفكير ما يحير الألباب.

هذا ما نشاهده في العالم المادي. وان العالم المادي مخلوق الله الكامل على الاطلاق. وبما أنه لا يترشح من الكامل على الاطلاق إلا الكمال، وجب أن يتجلى الكمال في كل زاوية من زوايا هذا الكون مع ارتباط بين الزوايا والأجزاء، ارتباط يحتم هذا التكامل ويشير أن الصانع له واحد متفرد في الوحدانية لا يشاركه في خلقه إياه أحد: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، فارجع البصر هل ترى من فطور؟﴾[2].

إذن يجب أن لا تشذ عن سنة الكمال النفوس: هذه النفوس البشرية التي خلقها الله بارادته وركب فيها توحيده وتقديسه بمشيئته وهو قوله تعالى. ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾.

فقضية توحيد الله، تبارك وتعالى، أمر فطري داخل في ناموس الكمال العالمي، دون أن نحتاج إلى التمسك بـ(قاعدة اللطف). كل ذلك لأن

---

(١) الأولى وتعرف بالانزلاق: يبسط الطير فيها جناحيه دون أن يحركهما. والثانية وهي الدفيف: يضرب فيها بجناحيه رفعاً وخفضاً ضربات متتابعة، والثالثة: طيران الصف ويأتيه الطير بجناحين منبسطين فلا يحركهما.

(٢) سورة الملك: ٣

الكامل على الاطلاق وهو الله تعالى لا يصدر عنه إلا الكمال. ومن أهم نقاط الكمال لهذا الانسان: توحيد الله تعالى وتقديسه وتسبيحه.

﴿ألَمَ ترَ أن الله يسبح له مَن في السماوات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه، والله عليم بما يفعلون﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿وهديناه النجدين﴾ أي طريقي الخير والشر. فقد ألهمنا الله تعالى طريق الخير وطريق الشر. فالانسان محكوم لما تمليه عليه فطرته أو عقله الباطني قبل بعثة الرسل، وهكذا أولئك الذين لم تصل اليهم الدعـوة الاسلامية. إنما أقول: الدعوة الاسلامية، ذلك لأن الاسلام، دين الله في أرضه منذ أن خلق آدم أول الأنبياء ﴿ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾[2].

انه تعالى يقول: ﴿ونفسٍ وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها﴾.

لذلك، يرى الفرد في عنفوان حياته، وان لم تبلغه تعاليم السماء، أنه ينكمش عند ارتكابه أول معصية ويتردد ويرتبك، كأن قوة خفية تدفعه عن اقتراف الذنب. كل ذلك، لأن الله أودع في النفس الانسانية بالفطرة هذا الرادع النفسي. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله «العقل نور القلب، يفرق بين الحق والباطل».

فالنفس الانسانية تنكمش عند أول معصية والعقل الطبيعي: غير الملوث بالموبقات يمنعها ويردعها. فقد جاء في الحديث: (العقل ما عُبد به الرحمن واكتسب به الجنان).

ولكن هذه النفس لو تمادت في غيها وضلالها ولم ترتدع بنداء الفطرة تكون محكومة لشيطانها. فينسحب العقل.

يقول علي عليه السلام: «لو قارف عبد ذنباً فارقه عقل لم يعد إليه أبداً».

وقد قال رسول الله (ص) ذات يوم لأصحابه: ألا أخبركم داءكم عن

---

(١) سورة النور: ٤١.

(٢) سورة آل عمران: ٦٧

دوائكم، قالوا بلى، يا رسول الله. قال: داؤكم الذنوب، ودواؤكم الاستغفار.

انه تعالى يقول: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم، ألست بربكم، قالوا بلى. شهدنا، أن تقولوا يوم القيامة أنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم، أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾(١).

فالله تعالى قد غرس أسس التوحيد في النفس الانسانية، عملاً بسنة الكمال، فالذي ينحرف، إنما ينحرف لظلمات في نفسه، جاءته من ناحية الذنوب وعدم القيام بمعطيات الفطرة: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيِّض له شيطاناً فهو له قرين، وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون، حتى إذا جاءنا قال: يا ليت بيني وبينك بُعد المشرقين فبئس القرين﴾(٢).

فالله الذي لا يصدر عنه إلا الكمال، قد أكمل الانسان من النواحي الروحية: بأن غرس فيه أصول المعارف الالهية، وقد جاء في الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة، فإنما أبواه هما اللذان يهودانه وينصرانه ويمجسانه» لذلك، يقول أحد علماء الآثار: لا يمكن أن ترى منذ أن وجد البشر على وجه البسيطة، جماعة، أو قرية أو ناحية مهما كانت صغيرة إلا ولها معبد يتعبد الناس فيه.

والفرق بين القوانين الكونية كقوانين الجاذبية العامة، قوانين الضوء الهندسي أو الحكمي أو قوانين تفاعل العناصر إلى ما هنالك، ـ وفطرة النفس الانسانية: أن هذه الفطرة (أو الاسلام والتوجه إلى الحق المتعال) قابلة للتحول، وليست كالمادة مسلوبة الاختيار والارادة... فقد منَّ الله تعالى على هذا الانسان بالارادة بعد أن جهزه بعقل وأراه النجدين(٣): ﴿ليهلِك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة﴾.

---

(١) سورة الأعراف: ١٧١.

(٢) سورة الزخرف: ٣٦ ـ ٣٨.

(٣) طريقي الخير والشر.

فلا عذر لمن انحرف عن الصراط السوي وتبع هواه: ﴿أفمن كان على بينة من ربه كمن زيّن له سوء عمله واتبعوا أهواءهم﴾ (١).

وان الله تعالى قد عرف الانسان منذ أن خلقه الشيطان ودسائسه: ﴿ان الشيطان لكم عدو، فاتخذوه عدواً﴾ (٢).

فعلى الانسان أن لا يطيع الشيطان وأن لا يذعن لمكائده ودسائسه. مع العلم أنه ليس للشيطان أية سلطة على الانسان: ﴿وقال الشيطان لما قضيَ الأمر: إن الله وعدكم وعد الحق، ووعدتكم فأخلفتكم. وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم، فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيَّ، أني كفرت بما اشركتموني من قبل، إن الظالمين لهم عذاب اليم﴾ (٣).

يظهر مما أسلفنا أن سنة الكمال ضاربة بـأطنابهـا في الجماد والنبـات والحيوان والانسان. وبما أن التكامل الانساني بما هو انسان ينحصر في المعارف الالهية والأخلاق الفاضلة، لذلك، غرس الله تعالى أصول المعارف وأعني بها: التوحيد، وتقديس الله تعالى، الميل إلى العبادة والخشوع، ذكر الله تعالى في الشدائد والتوجه إليه... إلى ما هنالك في النفـوس البشريـة تثبيتاً لسنـة الكمال: هذه السنة التي لا بد وان تتحقق في كل ما خلق الله تعالى بصورة ضرورية، وقد أكمل الله ذلك بإرسال الرسل ليهدوا الناس سواء السبيل ويعرفوهم طرق السعادة المقربة اليه تعالى ويعلموهم الحلال والحرام على حد قول علي عليه السلام، إذ يقول: «وأرسل أنبياء ليثيروا في النـاس دفائن عقولهم ويهدوهم إلى معايش تحييهم».

فبعث الأنبياء أمر طبيعي، لا بد من تحققه عملاً بسنة الكمال من جانب الله تعالى في هذا الكون أو الوجود، وتحقيقاً للكمال العالمي في الجماد والنبات والحيوان والانسان والجن والملائكة.

---

(١) سورة محمد (ص): ١٤.

(٢) سورة الفاطر: ٦.

(٣) سورة ابراهيم عليه السلام: ٢٢.

ولما كانت تزكية النفوس من أهم عناصر الكمال لذلك جعل الله سبب بعث الأنبياء: التزكية. بقوله جل من قائل: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾.

وأما الرحمة فهي من صفات الله تبارك وتعالى وكذا اللطف، وهو القائل: ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة، أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم﴾. ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءاً، فتصبح الأرض مخضرة، ان الله لطيف خبير﴾[1]. ﴿ الله لطيف بعباده، يرزق من يشاء وهو القوي العزيز﴾[2].

فلطف الله تبارك وتعالى يأتي بعد هذا الدور التكاملي، ليمن على من يشاء من عباده بالتوبة ومزيد النعمة: ﴿ان الله كان لطيفاً خبيراً﴾[3].



(١) سورة الحج: ٦٣.
(٢) سورة الشورى: ١٩.
(٣) سورة الأحزاب: ٢٤.

سنة الكمال في الكون الرحيب

إن نظرة واحدة إلى هذا الكون الواسع الأرجاء وما فيه من نظم وقوانين وعلاقات تكاد لا تتناهى توصل الانسان إلى هذا الحكم القطعي: أن سنة الكمال ضاربة بأطنابها في هذا الكون المادي الرحيب إلى أبعد الحدود.

فتكوُّن الشمس والأرض والقمر والكواكب وملايين النجوم في ملايين من المجرات وملايين الشموس التي هي على الأكثر اكبر من شمسنا هذه، قد جرى تحت قوانين رياضية وطبيعية ثابتة أودعها الله هذا الكون. وهو مما يدل على أن الخالق لهذا الكون قد بلغ من القدرة والتدبير إلى حد لا يتناهى وإن ما وصل إليه هذا الانسان من معلومات ودساتير لا يعادل شيئاً مما هو كائن أو يكون.

إن نسبة علم الله تعالى إلى علم الانسان المحدود هي نسبة المحدود إلى غير المحدود أو نسبة المتناهي إلى غير المتناهي أي كنسبة $\frac{ب}{\infty}$ ، ومآل هذه النسبة لا محالة هو: الصفر.

والقرآن الكريم هو أول كتاب علَّم الناس العلاقة بين الرياح وهبوبها وتكاثف بخار الماء باثارة السحب ونزول المطر وذلك بقوله جل من قائل:

﴿الله الذي يُرسل الرياح فتثير سحاباً، فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كِسفاً، فترى الودق يخرج من خلاله﴾[1].

فمن سنة الكمال هذه الدورة المائية التي نشاهدها ما بين البحار والمحيطات وجو الأرض. فان أشعة الشمس تعمل على تبخير المياه من سطوح المحيطات، وعندما يحمل الهواء هذه الأبخرة إلى أعلى وتبرد،

---

(١) سورة الروم: ٤٨.

تتحول إلى نقط من الماء أو بلورات من الثلج أو هما معاً داخل السحب، ثم لا تلبث أن تنهمر هذه المكونات إلى سطح الأرض وتعود إلى المحيط من جديد اما مباشرة أو عن طريق الأنهر أو المياه الجوفية. . . الخ. ولا سبيل إلى إيقاف هذه الدورة.

هذه دورة واحدة من دورات الحياة ومثلها توجد دورات تعد بالعشرات في شتى حقول الحياة من عضوية وغير عضوية يعزى اليها استمرارية الحياة في هذا الكون بأمر من الله تعالى. وهناك أيضاً دورات أخرى لا تعد ولا تحصى خارج منظومتنا الشمسية لا يعلمها إلا الله تعالى.

﴿الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماءاً، فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين[1] وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه، وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها، إن الانسان لظلوم كفار﴾[2].

وقد جعل الله تعالى غاز الاوكسيجين أساس الحياة على الأرض، إذ تستنشقه الكائنات الحية، فيجدد نقاء الدم فيها ويكسبها القدرة على العمل وهو يخرج مع هواء الزفير في صورة غاز (ثاني أوكسيد الكاربون)، ويذوب الأوكسيجين في الماء (٠,٤ سانتيمتر مكعب منه يمكن أن تذوب في غرام واحد من الماء في الأحوال العادية). ولذوبانه هذا في الماء أهمية عظمى، إذ تستمد الحيوانات والنباتات المائية ما يلزمها للتنفس من الأوكسيجين المذاب في الماء.

والغلاف الهوائي فوق الأرض طبقات مرصوصة من الهواء بعضها فوق بعض. ونجد أن أكثر الطبقات كثافة وتضاغطاً هي الطبقات القريبة من سطح الأرض، حيث يتركز نحو نصف كتلة هواء الأرض بأسره في الستة

(١) دائبين: جاريين في فلكهما لا يفتران.

(٢) سورة ابراهيم عليه السلام: ٣٢ - ٣٤.

الكيلومترات الأولى، بينما ينتشر النصف الآخر في الطبقات التي تعلو ذلك وتمتد إلى مشارف الفضاء الكوني.

وكلما نقص الهواء في المرتفعات (أي مع الارتفاع) نقص كميات الأوكسيجين كذلك، بحيث أننا إذا بلغنا ارتفاعاً معيناً لا يكفي الأوكسيجين الجوي للتنفس، ويشعر المرء إذ ذاك بضيق الصدر والاختناق.

وإن القرآن الكريم قد أوضح ذلك قبل كشف هذه الحقيقة من قبل علماء الطبيعة، بقرون. وذلك بقوله جل من قائل:

﴿ومن يُرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء﴾[1].

* * *

رغم محاولة الانسان مدة مديدة لمعرفة كيفية تكوُّن العالم، فأنه لا يزال في دور التخمين والحدس. ولذلك قلما نجد علماء العصر الحاضر يتصدون إلى وضع نظرية مبنية على أسس علمية من شأنها أن توضح كيفيةُ تكون العالم بأجمعه. وان ما وضع من نظريات لحد اليوم تجرح وتعدَّل من حين إلى حين وهي بعيدة عن الواقع كل البعد. انه تعالى يقول:

﴿ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم، وما كنت متخذ المضلين عضداً﴾[2].

غير أن النظام الشمسي بمفرده ليس مجهولاً تمام الجهل، والحقائق الكثيرة التي نعرفها عنه حدت بعدد غير قليل من العلماء إلى وضع بعض الآراء والنظريات عن كيفية حدوثه وتكونه.

منها: أن النظام الشمسي لم يتألف ولم يكتسب شكله الحالي بطريق الصدفة، فأجزاء المادة التي تتصل كيفما اتفق بالشمس (كالمذنبات وما شابهها) لا يعقل أن تجتمع كلها في مستوٍ واحد على وجه التقريب وأن

---

(١) سورة الأنعام: ١٢٥.

(٢) سورة الكهف: ٥٢.

تكون مداراتها وأفلاكها قليلة التفلطح (على شكل قطع ناقص) وقريبة من الدائرة.

فلو كانت السيارات قد التحقت بالشمس عن طريق الصدفة لاقتضى أن تكون أفلاكها ومداراتها مختلفة التفلطح والميل بشتى الأشكال. غير أنا نرى أن النظام الشمسي مرتبط بعلائق كثيرة منظمة منها:

١ ـ أن مدارات الكواكب أو السيارات حول الشمس بأجمعها على شكل اهليليجي (القطع الناقص) تقرب من الدائرة.

٢ ـ تقع هذه الأفلاك أو المدارات بأجمعها في مستوٍ واحد تقريباً (ما عدا أفلاك النجيمات).

٣ ـ إن الكواكب (أو السيارات) تدور بأجمعها حول الشمس باتجاه واحد.

٤ ـ تبعد الكواكب (أو السيارات) عن الشمس بعداً منتظم الاطراد.

٥ ـ إن المستويات التي تدور فيها الكواكب أو السيارات على محورها تنطبق تقريباً على المستويات التي تدور فيها حول الشمس.

٦ ـ إن اتجاه دوران السيارات (الكواكب) على محورها هو نفس اتجاه دورانها حول الشمس.

٧ ـ تدور أقمار السيارات والكواكب حولها في مستوٍ ينطبق تقريباً على مستوى دوران الكوكب (السيارة) حول الشمس.

٨ ـ إن أقمار الكواكب (السيارات) تدور على الغالب في نفس الاتجاه الذي تدور فيه السيارات والكواكب حول الشمس.

٩ ـ إن السيارات أو الكواكب الضخمة هي أسرع السيارات في الدوران على محورها.

فهذه العلاقات المنظمة توحي الينا أن يداً قديرة قد أنشأت هذه الأفلاك والكواكب بحكمة فائقة ونظام بديع إلى أبعد الحدود. ﴿الله الذي خلقكم من ضعف، ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة، يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾[1].

---

(١) سورة الروم: ٥٤.

وكمثال على أن النظريات التي توضع من قبل العلماء ولا تؤيدها التجارب والحوادث المتأخرة نذكر نظرية (بوفون).

قال (بوفون): ان الأرض وما يدور حولها من كواكب كانت في بداية الأمر كتلة غازية نارية مندمجة في الشمس، وانها انفصلت عن الشمس على أثر تصادمها مع مذنب أو مذنبات كبيرة. فكل مصادمة من هذا النوع كانت تؤدي إلى انشطار كتلة عظيمة من الشمس وتشكل إحدى السيارات (الكواكب).

ولقد فُنِّدت هذه النظرية لعلمنا أخيراً عن تركيب المذنبات وقواعد الميكانيكا. ذلك لأنه:

١ ـ لم يشاهد لحد اليوم مذنب ذو كتلة كبيرة تصطدم بالشمس، فتقذف على أثر هذه المصادمة كتلاً كبيرة كالكواكب.

٢ ـ لو كانت السيارات قد انفصلت عن الشمس على أثر تصادم جسم غريب لوجب أن تكون مدارات السيارات (الكواكب) مفلطحة تفلطحاً كبيراً طولانياً بمقتضى قواعد الميكانيكا... أي وجب أن تكون نسبة نصف القطر القصير إلى نصف القطر الطويل كسراً بعيداً عن الواحد.

إن أشهر النظريات اليوم في تكون المنظومة الشمسية هي نظرية وضعها الفيلسوف الألماني (عمانوئيل كنت) وأصلحها العالم الفرنسي الرياضي الشهير (لابلاس) في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي، وقد حاول لابلاس أن يطبقها على القواعد الرياضية، فجاءت كما يلي:

١ ـ إن المادة التي تتألف منها الشمس والكواكب كانت فيما مضى مبعثرة بشكل (سديم) كبير.

٢ ـ وإن هذا السديم الغازي كان شديد الحرارة منتشراً كالسحاب.

٣ ـ فلما برد قليلاً تجاذبت دقائقه نحو مركزها المشترك فدار على نفسه في الجهة التي تدور فيها السيارات حول الشمس وكان دورانه مداً عن

اختلافات عرضية في كثافات أجزاء السديم الأصلي وسرعها، ثم استمرت الحرارة على الانتشار، فازداد بذلك تكاثفاً وانقباضاً وازدادت سرعته الدورانية على أثر انقباضه لأسباب ميكانيكية.

٤ ـ فكان من جراء هذه الحركة الدورانية أن تفلطحت تلك الكتلة الكروية عند القطبين واستمر هذا التفلطح حتى أتى يوم أصبحت فيه قواعد التباعد عن المركز في الأجزاء الاستوائية مكافئة لقوة الجذب نحو المركز، فانفصلت على أثر ذلك حلقات سديمية تماثل حلقات زحل من تلك الأجزاء الاستوائية.

٥ ـ وكانت الحلقة المنفصلة حين انفكاكها تدور بأجمعها حول السديم الأصلي مدة مديدة من الزمن، ثم تنفرط فتتجمع دقائقها بشكل كرة غازية وتأخذ هذه الكرة بالدوران حول الكتلة الأساسية، فتتشكل بهذه الصورة إحدى السيارات (أو الكواكب).

٦ ـ والسيارة بدورها كانت تتعرض لنفس الحالة التي تعرَّض لها السديم الأصلي. فتنفصل عنها حلقات سديمية يؤول بها الأمر إلى تشكيل أقمار لتلك السيارة. أما حلقات زحل فأنها احتفظت بشكلها حتى الآن؟.

* * *

إن النظريات التي تؤسس لحل مشكلة النظام الشمسي أو تكوُّن العوالم التي خلقها الله تعالى بقدرته وقدَّر فيها أقواتها في هذا العالم الرحيب من مجرات لا تعدُّ: مجرات في كل منها ملايين النجوم وملايين الشموس التي تبعد عنا مسافات لا تقدر بملايين الأميال على ما ثبت أخيراً، هي نظريات مضطربة، قلقة، تعدَّل من حين لآخر كلما عثروا على ظاهرة لا يمكن أن تفسر على النظرية الموضوعة. ذلك، لأن الانسان لم يقف بعد على جميع ما أودع الله من قوانين في علم الميكانيك السماوي، وما وضع من خواص تكاد لا تتناهى في العناصر والأجسام. وهذه النظريات محاولات علمية

تكشف عن بعض ما أودع الله من قوانين ميكانيكية وخواص طبيعية في هذا الكون الرحيب.

يقول الله تبارك وتعالى:

﴿أو لم يرَ الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما﴾(١).

فالله تعالى يخبرنا في الآية المتقدمة، أن كل ما في هذا الكون المادي من أجرام ونجوم وشموس وأقمار ومجرات ونيازك وسدم وغازات: كل ذلك كان في باديء الأمر، بأمره تعالى، ملتصقة بعضها بالبعض الآخر، وانها انفصلت وتناثرت بقوله جل من قائل: كُن، حسب ما يريد وتباعدت وصارت تدور في مدارات اهليليجية أو شبه دائرية حسبما سنَّ الله من قوانين ميكانيكية وخواص معينة فيما خلق من عناصر: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن، فيكون﴾. (سورة يس).

لذلك يعتقد علماء العصر الحاضر أن السديم هو الحالة الابتدائية للنجوم أو المجموعات النجمية، وأنها في الوقت الحاضر في حالة التكاثف والتقلص، ولذلك، لا بد وان تنتج آجلاً أو عاجلا مجموعة من الكواكب أو عدداً من الشموس المماثلة لشمسنا.

إن السُدم(٢) تختلف اختلافاً تاماً عن الكواكب المجتمعة وان شابهتها في ظاهرها. فانها لا تنحل إلى كواكب مستقلة لا بالمرقب ولا بالتصوير الشمسي، كما أنه يتبين من التحليل الطيفي(٣) أنها تتألف من مواد غازية محتوية على عنصر يجهله علماء الكيمياء على الأرض، ويدعونه (الغاز السديمي) نسبة إلى السديم.

وقد قال الله تعالى:

---

(١) سورة الأنبياء: ٣٠.

(٢) السدم: جمع سديم.

(٣) إن أطياف النجوم وتحليل ضوءها الأبيض وما يظهر من خطوط عند التحليل تعرفنا على ما في النجوم من عناصر وذلك بعد قياس طول موجات تلك الخطوط الطيفية.

﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان، فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً، قالتا أتينا طائعين﴾[1]

وقوله في سورة: الدخان:

﴿يوم تأتي السماء بدخان مبين، يغشى الناس هذا عذاب أليم﴾.

إن أشكال السدم تختلف اختلافاً كلياً. فبعضها تظهر بشكل منظم كروي أو لولبي أو عدسي أو حلقي وأما البعض الآخر فيظهر في أشكال غير منتظمة لا يمكن حصر أنواعها.

وإن الرصد قد أظهر أن منظر السديم يتغير كلما ازدادت قوة تكبير المرقب (تلسكوب) حيث تبدو عندئذ بعض أقسام وفروع لم تكن مرئية في المراقب الضعيفة أو المتوسطة، وهكذا نرى أنه كلما اتسع أفق العلم في اختراع مراقب كبيرة والوقوف على خواص الذرة ومعادلاتها المعقدة وفي الميكانيك السماوي والتحليل الرياضي كلما شاهدنا عوالم أخرى فأخرى إلى حيث لا يتناهى في هذا الكون الرحيب.

﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي، لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾[2].

* * *

لنتكلم قليلاً عن المجرة. لو نظرنا إلى السماء في ليلة ظلماء لا قمر فيها ولا نور لرأينا منطقة طويلة تمتد فوق رؤوسنا كالقوس، يمتد من أفق إلى أفق وقد تركزت فيها النجوم بمقدار كثير، وتكثفت فيها إلى حد بعيد، بعضها فوق بعض. وبما أن هذا المنظر يكاد يشبه بياض ماء النهر في سواد الأرض، لذلك سمي بالمجرة أي النهر الجاري.

وقد سميت المجرة من قبل العامة بسكة التبانة، أو درب التبانة، كأن

---

(١) سورة حم ـ سجدة: ١١.

(٢) سورة الكهف: ١١٠.

هنالك تبناً منثوراً سقط من تبان عند سلوكه طريقاً من الطرق. وقد سماها اليونانيون (طريق اللبن).

فالمجرة مجموعة نجوم كثيرة جداً عدد الرمل، وفي المجرة من السدم ما يحول بيننا وبين ما ورائها من نجوم.

يمكن تشبيه المجرة إلى قرص مفرطح كالرغيف ولو أننا جعلنا للرغيف قطراً وجعلنا له ارتفاعاً لكان قطر القرص أو المجرة عشرة أمثال ارتفاعه.

إن مجرة الدرب التبانة التي تضم كوكبنا يبلغ قطرها حوالي ١٠٠ ألف سنة ضوئية. وبما أن الضوء يقطع في سنة واحدة مسافة قدرها ٩,٥ مليون مليون كيلومتر إذن قطر مجرتنا هذه يساوي مائة ألف مضروباً في تسع ونصف مليون مليون كيلومتر.

ولما كانت شمسنا هذه نجماً لا يعتد به، يقع على مسافة حوالي ٣٠ ألف سنة ضوئية من مركز المجرة ويدور في مدار خاص به كل ٢٠٠ مليون سنة أثناء دوران المجرة. وبهذا ندرك مدى صعوبة تصوُّر المقياس الهائل للكون الذي يقع وراء المجموعة الشمسية.

إن الفضاء الذي يقع بين النجوم في مجرتنا ليس نهاية هذا الكون، فوراءه، ملايين من المجرات الأخرى، تندفع جميعاً، كما يبدو، مبتعدة عن بعضها البعض بسرعات خيالية، قد تبلغ نصف سرعة الضوء في الثانية أي حوالي ١٥٠٠٠٠ كيلومتر في الثانية، وتمتد حدود الكون الذي يمكن رؤيته بالمجهر مسافة ٢٠٠٠ مليون سنة ضوئية على الأقل في كل اتجاه. وهو قوله تعالى: ﴿والسماء بنيناها بأيدٍ وإنّا لموسعون﴾[1].

إن ما ذكرناه من مسافات ومجرات يعرفنا ضخامة هذا الكون الرحيب، وهكذا نرى أن أصغر شيء مادي أو أصغر جسيم عرف لحد الآن أي الذرة تشبه في تركيبها المجموعة الشمسية غاية الشبه، ذلك لأن الذرة مكونة من الكترونات تدور بسرعة هائلة حول النواة (المركز) أي حول البروتون.

---

(١) سورة الذاريات: ٤٧.

هذا ويرى الانسان أن أصغر شيء في هذا الكون وأعني به الذرة إلى أضخم شيء يمكن تصوره وهو المجرات الضخام التي تبعد عنا آلاف الملايين من السنين الضوئية كلها تسير في مدارات مرسومة محددة في علاقة كل منهما بالآخر.

قد بلغ رائدو الفضاء إلى حوالي سرعة قدرها (٢٩) ألف كيلومتر في الساعة في الدوران حول الأرض أي حوالي ٨ كيلومترات في الثانية، وهي سرعة كبيرة تماماً بالنسبة إلى مقاييسنا الأرضية، وهذا الرائد يكون إذ ذاك على ارتفاع ١٦٠ كيلومتراً عن سطح الأرض.

فكوننا هذا يضم الوف الملايين من المجرات وكل مجرة منها تحوي الوف الملايين من النجوم، وعند الحافة الخارجية لاحدى هذه المجرات وهي مجرة طريق التبانة أو (درب التبانة) نجم متوسط الحجم معتدل الحرارة إزداد لونه اصفراراً بسبب الشيخوخة. . . هو شمسنا.

والأرض واحدة من أجزاء مختلفة بدأت بأمر من الله في يوم ما بطريقة لم تعرف (ولن تُعرف) تدور حول الشمس. ولا يزيد سمك قشرة الأرض على بضعة كيلومترات. تحتها صخور منصهرة ومعادن تغلي وسط حرارة شديدة. لا يمنعها من أن تتحول إلى لهيب إلا الغلاف الذي يحولها من (الغرانيت والبازلت). وبين هذين النارين حيث الجمرات المكدسة لهذا الجزء الذي نعيش فوقه من هذا النجم البارد والنجم المتوهج الذي نرتبط به، يقف الانسان في الحياة مع الطيور والحيوانات ولكن ما أضعفهم جميعاً: ﴿وخلق الانسان ضعيفاً﴾[1].

فهذه الشركة من الحياة يمكن أن تفنى إذا حدث أي تغيير دائم لنسبة ضئيلة من طاقة الشمس سواء بالزيادة أو النقصان.

﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا أن أمسكهما من أحد من بعده﴾[2]. . . (أن أمسكهما: أي: ما أمسكهما).

(١) سورة النساء: ٢٧

(٢) سورة فاطر: ٤١

فأرضنا هذه إنما هي هباءة في موضع مدحور، قرب الطرف من مجرة (درب التبانة) التي فيها مئات الملايين من النجوم. على أن هنالك مئات الملايين من المجرات وفي كل مجرة مئآت الملايين من الأنجم. إذن، ما قيمة هذا الانسان بالنسبة إلى ما خلق الله تعالى مما لا يتناهى من عوالم، هي من حيث الكبر أضعاف أضعاف أرضنا هذه، فليدع الانسان من نفسه الغرور: ﴿يا أيها الانسان ما غرَّك بربك الكريم. الذي خلقك فسواك فعدلك. في أي صورة ما شاء ركبك﴾. وليعبد ربه: ﴿وما خلقت الجنَّ والأنس إلا ليعبدون﴾[١]. وليعلم أنه لم يُخلق عبثاً: ﴿أفحسبتم إنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا تُرجعون﴾[٢]، ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين، ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾[٣]. ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين، لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا، إن كنا فاعلين﴾[٥].

على الانسان أن يعبد ربه بجميع ما في العبادة من معنىً سامٍ رفيع، يعبد ربه بخشوع وخضوع في صلاة يؤديها لوجه الله، يعبد ربه بقيامه بأداء حقوق الوالدين والأرحام والأصدقاء، وبقضاء حوائج الناس ودفع الكُرب عنهم. فقد جاء في الحديث: «من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم»، يعبد ربه بنشره حقائق الاسلام بين الناس ولا سيما بين المثقفين بثقافة العصر، فما أحوجهم إلى تفهم الاسلام تفهماً صحيحاً لا شائبة فيه، وبتضحيته بنفسه ونفيسه في سبيل نشر الاسلام في أرجاء الأرض، فلا أجر أعظم من أجر من قام ببث حقائق الاسلام في العالم، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله حين أوفد علياً عليه السلام إلى اليمن: «يا علي، لئن يهد الله بك رجلاً واحداً كان خيراً لك مما طلعت عليه الشمس».

---

(١) سورة الذاريات: ٤٦.

(٢) سورة المؤمنون: ١٤٦

(٣) سورة الدخان: ٣٨.

(٤) سورة الأنبياء: ١٦ ـ ١٧.

ولنعد إلى هذا الكون الرحيب وما أودع الله فيه من سنن الكمال.

نحن لا نزال ضمن نطاق مجرتنا (درب التبانة)، فإذا انتقلنا إلى المجرات الأخرى وجدنا أرقاماً لا تكاد يصدقها العقل. فالتلسكوبات الحديثة اكتشفت مجرات على بعد ألف مليون سنة ضوئية وأكثر. ويقدر (شارليهCharlier) أن قطر الكون (حسبما توصل اليه علم البشر أخيراً) عشرة آلاف مليون سنة ضوئية. أي أن الحادث الذي يحدث في مجرة واقعة طرف الكون لا تعلم (أو يستحيل أن تعلم به) مجرة في الطرف الآخر قبل مرور عشرة آلاف مليون سنة من سنواتنا.

فالكون واسع جداً، مترامي الأطراف، كل شيء فيه في حركة مستمرة منتظمة، ولا يوجد رابط زمني يربط ما بين أجزائه حسب نظرية (آينشتين) فكلمة: (آلان) لا معنى لها إلا في هذه الأرض!.

* * *

إن علماء الطبيعة الفلكية يعلنون أن ليس هناك نجوم ثابتة. خذ مثلاً: النجمين الشهيرين (نيِّر التوأمين) و(رأس هرقل) الذين عرفا دائماً بأنهما: (زوج واحد)، وقد بلغ من تقاربهما في السماء، وتقارب نفس الدرجة من البريق بينهما وعدم التغير في ملازمة كل منهما للآخر، أن العلماء كانوا يسمونهما بالتوأمين. إلا أن التلسكوب والمرقب الطيفي واللوحات الفوتوغرافية تقول: أن لا صلة بين هذين النجمين في أية ناحية من النواحي. فهما يسيران في طريقين مختلفين، والأول يبعد عن الأرض أكثر من مرة ونصف مرة من المسافة التي يبعدها عنها النجم الثاني. والواضح أن هذين النجمين غريبان عن بعضهماالبعض. تصادف فقط ظهورهما مقتربين إلى حد ما عندما ننظر اليهما من موقعنا الحالي على ظهر الأرض. أما بالنسبة للكون المترامي الأطراف الذي فيه ما لا يعد من نجوم، فأنه لا يظهر فيهما أي تغيير محسوس، وهما دقيقان نسبياً في حركتيهما عبر السماء بالمقارنة مع أعماق الفضاء. ولا تستطيع العين البشرية أن تدرك الفروق بينهما من مثل هذا الفضاء الفسيح.

ولكن الكثير يختفي من عيوننا. فنحن إذا ركزنا اهتمامنا من خلال التلسكوب على (نير التوأمين) وحده، وجدنا أنه ليس نجماً واحداً، بل نجمان، يفصل بين كل منهما والآخر مسافة تزيد مائة ضعف على المسافة بين الأرض والشمس. وأننا عندما نستخدم اكثر الأجهزة دقة في المراصد نكتشف ان ما يبدو للعين نجماً واحداً ثابتاً هو في الواقع مجموعة تضم ستة نجوم معاً، في ثلاثة أزواج. يدور كل نجم منها في فلك خاص وبسرعة خاصة.

ولما كان رجال البحر يعرفون الحالة الداخلية الحقيقية للنجم (نيِّر التوأمين) والدوامات التي تدور في داخله ودوراته السريعة في مكانه القديم المعتاد في خريطة النجوم، فان ذلك يجعله علامة ثابتة تصلح للاسترشاد بها في قيادة السفن.

وقد أثبت علم الفلك الحديث أن السماء الهادئة مكان لا تناسق فيه، يحوي شموساً لا حصر لها، تندفع في كل اتجاه تقريباً بمفردها أو في اعداد كثيرة، كأنها جزيئات متحركة لغاز من الغازات.

فالنجم (النسر الواقع) يقترب بسرعة تبلغ ١٣ كيلومتراً في الثانية، بينما يتراجع النجم (الدبران) بسرعة ٥٣ كيلومتراً في الثانية. و(حارس السماء) يعبرها بسرعة ١٣٥ كيلومتراً في الثانية... أما نجما الطرفين من (الغطاس الكبير) فيتحركان في اتجاه واحد، في حين أن نجوم هذه المجرة الأخرى تتجاذب بسرعة عظيمة في الاتجاه المضاد.

* * *

ونجمنا الذي نعيش فيه ليس مستثنى من ذلك، فان الشمس تدور في طريق شاهق نحو الحافة الخارجية بطريق التبانة بسرعة ١٩ كيلومتراً في الثانية وهي تجر الأرض في أذيالها ومعها كل الكواكب الأخرى، وقد تحقق قوله تعالى (وهو الحق الأزلي): ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾[1].

---

(١) سورة يس: ٣٨.

وفي نفس الوقت تدور المجموعة الشمسية في قوس هائل بسرعة ٢٤٠ كيلومتراً في الثانية، بينما تدور المجرة نفسها كعجلة ضخمة من النجوم.

إن كل شيء في هذا الكون إنما يشاهد كما كان، لا كما يكون. فنحن نرى الشمس كما كانت منذ ثمان دقائق وعشرين ثانية مضت، ونرى النجم الشعرى كما كان منذ تسع سنوات ونرى (برج الثريا) كما كان منذ ٥٠٠ عام. ذلك لأن وصول شعاع (برج الثريا) الينا يستغرق ٥٠٠ عام. وقد تميز العين في ليلة صافية لا قمر فيها سحابة من الضوء الباهت لا تزيد على القمر، تدور في برج (المرأة المسلسلة)، وهذه سحابة واحدة من المجرات الخارجية، وهي تبدو لنا كما كانت منذ مليوني عام. أما ما حدث لنجومها التي لا تحصى بعد ذلك، فشيء لا يمكننا معرفته.

وبرج (المرأة المسلسلة) يقع عند الحد الخارجي للرؤية بالعين المجردة ولكنا قد نصل بالتلسكوب إلى ملايين السنين من ماضي هذا الكون. وعندما نستخدم لوحة فوتوغرافية حساسة في أقوى تلسكوب، فقد تصل بنا إلى ألوف الملايين من السنين. وقد أطلق على أشعة هذه الأجسام البعيدة اسم (الضوء الحفري)، وهي تسبق في تاريخها، حقاً، أكثر الحفريات التي وجدت على سطح الأرض. وان الانسان ليعجب كيف يمكن وقف ضوء بمثل هذا الضعف بواسطة طبقة غازية رقيقة أو ذرة من الغبار وهو قادر على أن ينطلق بأقصى سرعته المستمرة وقدرها ٢٩٩٨٦٠ كيلومتراً في الثانية أو ٣٠٠٠٠٠ كم/ثانية تقريباً طيلة ملايين السنين. وهذه الاشعاعات تظهر الفراغ النسبي للفضاء بالمقياس الرحب لهندستها المعمارية: ﴿وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال﴾[1]. ﴿صنع الله الذي اتقن كلّ شيء﴾[2]. ﴿هـو الذي جعل الشمس ضياءاً والقمر نوراً وقدره منازل، لتعلموا عدد السنين والحساب، ما خلق الله ذلك إلا بالحق، يفصِّل

---

(١) سورة الرعد: ٨ ـ ٩

(٢) سورة النمل: ٨٨

الآيات لقوم يعلمون﴾[1]. ﴿سبح اسم ربك الأعلى، الذي خلق فسوى﴾[2]. ﴿ربنا الذي أعطى كل شيءٍ خلقه ثم هدى﴾[3].

* * *

وإذا صورنا قطاعات معينة من السماء استطعنا إجراء إحصاء للنجوم. ففي مرصد جامعة (هارفارد) صورة فوتوغرافية تحوي صور أكثر من ٢٠٠٠ مجرة خارجية وألفي طريق للتبانة ويقدر العلماء عدد المجرات التي يحويها الكون ٥٠٠ مليون مجرة وقد علم بطرق علمية أن مجرة درب التبانة تحوي حوالي (١٠٠) ألف مليون نجم.

نعلم من كل ما تقدم أن الكون واسع جداً، لم يبلغ البشر مع هذا التقدم العلمي في عوالم المادة إلا إلى جزء ضئيل منه، وسيقف على شيء من عظمة هذا الكون كلما اتسع أفق العلم، لا سيما علم الذرة والرياضيات العالية والميكانيك السماوي وسيعلم حتماً أن ليس هنالك: (عَبثية أو عشوائية) في هذا الكون: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عَبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾[4].

نعم، جاء (أينشتين) بقوانينه لنفي العبثية عن الكون وليثبت أن الظواهر الكونية كلها تخضع لقوانين رياضية ثابتة، هي أشبه بالنواميس الإلهية، تتحكم في الكون الذي غدا وجوداً هندسياً بديعاً. وقد حلَّت القوانين الرياضية والنظام محل العبثية والفوضى في نظر المتطرفين.

* * *

وكمثال لما أودع الله من نظام ودقة في الكائنات الدقيقة نذكر ميكروب (كوكات البكتريا) الدقيقة الحجم. فان طول كل من هذا الميكروب (ميكرون) واحد. والميكرون يساوي جزءاً من ألف جزء من الميليمتر،

(١) سورة يونس: ٥

(٢) سورة الأعلى: ١ ـ ٢

(٣) سورة طه: ٥

(٤) سورة المؤمنون: ١١٦.

نعم، أي أنا إذا صففنا ألفاً من هذه الكائنات التي يبلغ طول كل منها ميكروناً واحداً لوجدنا أن طول هذا الصف عبارة عن ميليمتر واحد. فإذا أخذنا سطحاً مربعاً طول ضلع من أضلاعه ميليمتر، فاننا نستطيع أن نضع على تلك المساحة الصغيرة مليوناً من تلك الميكروبات: (١٠٠٠ × ١٠٠٠). أما الميليمتر المكعب فانه يستوعب ألف مليون من مثل هذه الميكروبات: (١٠٠٠ × ١٠٠٠ × ١٠٠٠) فإذا عرفنا أن مجموع سكان الكرة الأرضية في مختلف الممالك والأقطار يصل إلى ما يقرب من ثلاثة آلاف مليون نسمة فاننا ندرك بسهولة أن مثل هذا العدد من الميكروبات يمكن حشده فيما يعادل ٣ ميليمتر مكعب فقط.

ولتوضيح هذه الدقة في الحجم نأخذ مثلاً ميكروب الملاريا. «والميكروب في هذه الحالة عبارة عن حيوان أولي دقيق». فإذا لسعت البعوضة الناقلة للملاريا انساناً سليماً فأنها تنقل إليه أعداداً كبيرة من الميكروبات الموجودة في لعابها. وتصل هذه الميكروبات الدقيقة إلى الدم حيث تبدأ في مهاجمة الكرات الحمراء إذ يقتحم كل واحد منها إحدى هذه الكرات حيث يثقب غشاءها الخارجي دافعاً نفسه إلى الداخل، وعند استقراره داخل الكرة الحمراء يتخذ من محتوياتها غذاءاً له فيلتهمها تدريجياً حيث ينمو ويزداد حجمه ثم يأخذ بعد ذلك في الانقسام إلى ميكروبات جديدة، ويتم كل هذا داخل الكرة الحمراء ولكن ما هو حجم هذه الكرة التي يتخذ منها الميكروب مسكناً له يتسع لاستقراره ونموه وتكاثره؟... الواقع أن الكرة الحمراء نفسها دقيقة الحجم جداً. ولا يمكن رؤيتها بالعين المجردة. إذ يبلغ قطرها حوالي ٨ ميكرون، ويوجد فيها ما يقرب من ٥ ملايين كرة في الميليمتر الواحد من الدم العادي. فإذا كان هذا هو حجم الكرة الحمراء فأننا نستنتج بلا جدال أن الميكروب الذي يستوطنها أصغر منها بكثير.

فإذا اتخذت الكرة الحمراء ـ وهي معروفة لدينا جيداً لأنها تسبح في

دمائنا بأعداد لا حصر لها ـ كوسيلة للمقارنة فانها تحتل مركزاً متوسطاً في عالم الأحجام الدقيقة(١).

وقد ثبت أن جميع الميكروبات تشترك في صفة واحدة هامة وهي استمرار حياتها بصفة لا نهائية. فبينما تموت النباتات والحيوانات على اختلاف أنواعها بعد فترة زمنية ـ تطول أو تقصر تبعاً للنوع ـ نرى أن الميكروبات لها حياة مستمرة، فان الميكروبات، لا تموت إلا في الظروف الخارجية الطارئة كتعريضها للحرارة الشديدة أو معالجتها بالمركبات الكيميائية القوية التي تقتلها. واما في الظروف العادية فحياتها مستمرة.

وتتضح هذه الحقيقة من طريقة تكاثرها. فالخلية الميكروبية، وهي كما ذكرنا دقيقة الحجم، تتغذى وتنمو ثم تنقسم إلى نصفين، يكون كل منهما ميكروباً جديداً، ويعيد كل من هذين النصفين القصة من جديد. فينقسم كل منهما إلى نصفين آخرين وهكذا في متوالية هندسية لا نهائية أساسها: ٢.

(١، ٢، ٤، ٨، ١٦، ٣٢، . . . ، ٢ ن ـ ١).

ويتم تكاثر الميكروبات بسرعة مذهلة عند وجود الظروف الملائمة. إذ تنقسم الخلية الميكروبية في بعض أنواع البكتريا بعد نصف ساعة فقط من وجودها. ومعنى ذلك أن الجيل الجديد ـ وهو الذي يستغرق ظهوره في حالة الانسان عدة سنوات ـ لا يحتاج إلا إلى نصف ساعة فقط، ومعناه أيضاً أن هناك ثمانية وأربعين جيلاً متتابعاً في اليوم الواحد. فما بالك بعدد الأجيال التي تتكون في سنة واحدة أو في عدة سنوات. لا شك أن العدد يتضاعف إلى درجة يصعب على العقل ادراكها أو تصورها من ضخامته(٢).

* * *

فلنعد إلى النجوم ولننظر إلى ما تقوم به من حركات معينة وفق دساتير رياضية متقنة حسبما حدده الله تعالى، فهذه النجوم تسبِّح الله تعالى في

---

(١) صراع مع الميكروب ص: ٤. للدكتور: محمد رشاد الطوبي.

(٢) نفس المصدر من ص: ١١

حركاتها ومداراتها: ﴿ألم ترَ أن الله يسبِّح له مَن في السماوات والأرض، والطير صافاتٍ كل قد علم صلاته وتسبيحه، والله عليم بما يفعلون﴾(١). ﴿سبَّح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾(٢). ﴿وان من شيء إلا يسبِّح بحمده﴾(٣).

فكل شيء في هذا الكون خاضع لله، يسبح الله تعالى بأنواع التسبيح سواء أكان هذا الشيء مادياً أو غير مادي، ذلك لأن مآل المادة: الذرات، وهي القوى الكهربائية من موجبة وسالبة، هي الطاقات. والطاقات تسبح الله تعالى كما يسبح الانسان والحيوان، ولكنا لا نفقه تسبيحها ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾(٤).

فالجبال تسبح الله تعالى مع داود عليه السلام: ﴿يا جبال أوبي معه والطير﴾(٥).

قال تعالى: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾(٦). ﴿أنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان، انه كان ظلوماً جهولاً﴾(٧).

نعم، كل ما في السماوات والأرض خشوع لله وخضوع... لا يستثنى شيء أبداً. وهو القائل:

﴿إن كل مَن في السماوات والأرض إلا أتى الرحمن، عبداً لقد أحصاهم وعدهم عداً، وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾(٨).

---

(١) سورة النور: ٤١

(٢) سورة الحديد: ١٠١

(٣) سورة الاسراء: ٤٤

(٤) سورة الاسراء: ٤٤

(٥) سورة سبأ: ١٠

(٦) سورة الحشر: ٢١

(٧) سورة الأحزاب: ٧٢.

(٨) سورة مريم: ٩٦.

فأنى لهذا الانسان أن يشذ عن تسبيحه تعالى ويتبجح باكتشافه القمر الصناعي وذهابه إلى بعض الأنجم القريبة بسرعة لا تتجاوز ١٠ كيلومترات في الثانية. فما باله يلفظ المقدسات التي فيها الكمال النفسي، فيعود ليصبح خشبة عارية عن كل فضيلة، وروحاً جامداً أشبه شيء بالصخرة الصماء. ﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون﴾(١).

إن الله يأمرنا بتسبيحه كل يوم قبل طلوع الشمس وقبل الغروب بقوله جل من قائل: ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار﴾ (٢).

وبقوله: ﴿وأوحى اليهم أن سبحوا بكرةً وعشياً﴾(٣).

وبقوله: ﴿واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والابكار﴾(٤).

وبقوله: ﴿فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾(٥).

وبقوله: ﴿فاصبر إن وعد الله حق، واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والابكار﴾(٦).

وبقوله: ﴿فاصبر على ما يقولون، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب، ومن الليل فسبحه وأدبار السجود﴾(٧).

---

(١) سورة البقرة: ٧٤
(٢) سورة طه: ١٣٠
(٣) سورة مريم: ١٠
(٤) سورة آل عمران: ٤١
(٥) سورة الحجر: ٩٨ ـ ٩٩
(٦) سورة المؤمن: ٥٥.
(٧) سورة ق: ٣٩ ـ ٤٠.

فما ألذ التسبيح لو كان خالياً عن كل شائبة فهو انغمار في الحب الإلهي، وذوبان في العشق اللاهوتي، ان في هذا التسبيح الخالص لذة تفوق كل لذة مادية، لذة لا تضاهيها أية لذة، لذة لا يريد الانسان أن يفارقها طرفة عين، لذة تأخذ بمجامع القلب إلى حيث الطمأنينة والارتياح النفسي. ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[1]. لذلك نرى أن ابراهيم عليه السلام يقدم ما عنده من الغنم وكان يملي ما بين الجبلين، يقدمها إلى من نادى من بعيد بصوت رخيم: «سبوح قدوس، ربنا ورب الملائكة والروح».

ما أحلى التسبيحات في أيام شهر رمضان المبارك ومنها: «سبحان الله خالق ما يرى وما لا يرى، سبحان الله مـداد كلماتـه، سبحان الله رب العالمين، سبحان الله الذي ينشيء السحاب الثقال ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ويرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمته وينزل الماء من السماء بكلمته، وينبت النبات بقدرته ويسقط الورق بعلمه، سبحان الله الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾.

* * *

ولنستمع إلى ما يقوله علي عليه أفضل الصلاة والسلام حين تلا هذه الآية المباركة:

﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾.

﴿إن الله سبحانه وتعالى جعل الذكر جلاء القلوب، تسمع به بعد الوقرة[2]، وتبصر به بعد العشوة، وتنقاد به بعد المعاندة».

«وما برح لله ـ عزت آلاؤه ـ في البُرهة بعد البرهة وفي أزمان الفترات[3]

(١) سورة الرعد: ٣٠.

(٢) الذكر: استحضار الصفات الالهية. والوقرة: ثقل في السمـع. والعشوة: ـ مثلثـة العين ـ ضعف البصر.

(٣) الفترة بين العملين: زمان بينهما، يخلو منهما، والمراد: أزمنة الخلو من الأنبياء مطلقاً. وناجاهم: خاطبهم بالالهام.

عباد ناجاهم في فكرهم، وكلمهم في ذات عقولهم، فاستصبحوا بنور يقظة في الأبصار والاسماع والأفئدة. يذكرون بأيام الله، ويخوِّفون مقامه. بمنزلة الأدلة في الفلوات. من أخذ القصد حمدوا اليه طريقه وبشروه بالنجاة. ومن أخذ يميناً وشمالاً ذموا اليه الطريق وحذروه من الهلكة. وكانوا كذلك مصابيح تلك الظلمات وأدلة تلك الشبهات.

وإن للذكر أهلاً أخذوه من الدنيا بدلاً، فلم تشغلهم تجارة ولا بيع عنه، يقطعون به أيام الحياة. ويهتفون بالزواجر عن محارم الله في أسماع الغافلين. ويأمرون بالقسط ويأتمرون به، وينهون عن المنكر ويتناهون عنه. فكأنما قطعوا الدنيا إلى الآخرة وهم فيها، فشاهدوا ما وراء ذلك. فكأنما اطلعوا غياب أهل البرزخ في طول الاقامة فيه، وحققت القيامة عليهم عداتها[1] فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا، حتى كأنهم يرون ما لا يرى الناس. ويسمعون ما لا يسمعون.

فلو مثلتهم لعقلك في مقاومهم[2] المحمودة، ومجالسهم المشهودة، وقد نشروا دواوين أعمالهم وفرغوا لمحاسبة أنفسهم على كل صغيرة وكبيرة أمروا بها فقصَّروا عنها، أو نُهوا عنها ففرطوا فيها، وحملوا ثقل أوزارهم ظهورهم، فضعفوا عن الاستقلال[3] بها. فنشجوا نشيجاً[4]، وتجاوبوا نحيباً، يعجون إلى ربهم في مقام ندم[5] واعتراف؛ لرأيت أعلام هدىً، ومصابيح دجى، قد حفت بهم الملائكة، وتنزلت عليهم السكينة، وفتحت لهم أبواب السماء، وأعدَّت لهم مقاعد الكرامات، في مقام أطلع الله عليهم فيه، فرضي سعيهم

---

(١) العدت: جمع عدة. أي: كأنما القيامة كشفت لهم عن الوعود التي وعد بها الأخيار والأشرار.

(٢) مقاومهم: جمع مقام، مقاماتهم في خطاب الوعظ.

(٣) ضعفوا عن الاستقلال بها: أي القيام بحملها.

(٤) نشج الباكي، ينشج، نشيجاً: غص بالبكاء في حلقه. والنحيب أشد البكاء. وتجاوبوا به: أجاب بعضهم بعضاً يتناحبون.

(٥) عج، يعج: صاح ورفع صوته، فهم يصيحون من مواقف الندم والاعتراف بالخطأ.

وحمد مقامهم، يتنسمون بدعائه روح التجاوز[١]. رهائن فاقة فضله، وأسارى ذلة لعظمته، جرح طول الأسى قلوبهم[٢]، وطول البكاء عيونهم. لكل باب رغبةٍ إلى الله منهم يد قارعة، يسألون من لا تضيق لديه المنادح[٣]، ولا يخيب عليه الراغبون. فحاسب نفسك لنفسك، فان غيرها من الأنفس لها حسيب غيرُك. (نهج البلاغة. الجزء الثاني. ص ٢٣٧).

فطوبى لأولئك الذين طال سجودهم وزاد خشوعهم وخنوعهم. فصفت نفوسهم وتزكت أرواحهم فخلت من أدرانها وآثامها، ثم عرجت إلى معالم القدس، حيث لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ﴿وعهدنا لي إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾[٤].

﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾[٥].

﴿ويخرُّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً﴾[٦].

﴿وإذا تُتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكيًّا﴾[٧].

﴿أمَّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إنما يتذكَّر أولو الألباب﴾[٨].

---

(١) تنسم النسيم: تشممه، والروح ـ بالفتح ـ النسيم. أي يتوقعون التجاوز بدعائهم له.
(٢) الأسى: الحزن.
(٣) المنادح: جمع مندوحة وهي كالندحة ـ بالضم والفتح ـ والمنتدح ـ بفتح الدال ـ المتسع من الأرض.
(٤) سورة البقرة: ١٢٥.
(٥) سورة المؤمنون: ١ ـ ٢.
(٦) سورة الاسراء: ١٠٩
(٧) سورة مريم: ٥٨
(٨) سورة الزمر: ٩.

هل للعلم الحديث أن يمد يداً إلى ما وراء الطبيعة؟

من الواضح المعلوم أن العلم الحديث إنما يعمل في استخراج خواص المادة والقوانين التي محكوم لها (المادة) وتابعة لها والدساتير الرياضية التي تحكم المادة وتسيطر عليها، فلا تحيد المادة عنها قيد شعرة.

العلم الحديث يعمل في المختبرات لاجراء تجارب متعددة تحت شروط معينة وشروط مختلفة ثم يربط المشاهدات بعضها ببعض حسب قوانين رياضية عقلية بحتة دون أن يكون للتجربة دخل في المحاكمات المجردة الرياضية، ثم يستخرج العلم الحديث قانوناً رياضياً أو خاصية تحكم المادة ما دامت الظروف قائمة والشروط هي هي. لذلك كان يقول الفيزياوي المشهور: (لورد كلوين): «كل حادثة فيزياوية لا يمكن أن يعبر عنها بدستور رياضي، ليست بحادثة معروفة».

فالعلم المادي يبرهن: «على سبيل المثال» في الفيزياء الرياضية العالية: أن الجسمين يتجاذبان بنسبة: حاصل ضرب كتلتيهما، ك، كَ مضروباً في النسبة الثابتة: ي[1] مقسوماً على مربع المسافة بينهما:

$$ق = ى \frac{ك\ كَ}{م^{٢}}$$

فالكتلة تقاس بـ (غرام - كتلة) والمسافة تقاس بالسانتيمتر = سم، فتستخرج قوة الجذب بالنسبة إلى أصغر وحدة من وحدات قوة الجذب فيما إذا كانت:

---

(١) النسبة الثابتة في دستور الجذب العام يساوي ١ على ١٥ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ من ثقل الغرام.

ك = ١ غم، كتلة　　　كَ = ١ غم، كتلة

م = ١ سم

أما حقيقة هذه القوة، أي حقيقة الجاذبية، فمسكوت عنها في العلم الحديث. ذلك، لأن القوة وكل شيء قواني[1] ليست من المادة في شيء: أي ليست القوة من الغرام أو السانتيمتر أو الزمن في شيء. (كما سترى أيضاً).

وهكذا دستور الرقاص:

$$ن = ٢ ط \sqrt{\frac{ل}{ج}}$$

فمدة الذبذبة الواحدة للرقاص تتناسب مع جذر طول الرقاص تناسباً طردياً وتتناسب عكسياً مع جذر التعجيـل الأرضي في محل يتحـرك فيه الرقاص.

فمدة الذبذبة الواحدة تختلف باختلاف مقدار الجذب. والمقاييس ها هنا هي: الثانية والسانتيمتر. وليس واحد منهما من حقيقة القوة الجاذبية في شيء.

فلا سبيل إلى استعمال هذه المقاييس: الثانية، سانتيمتر، غرام ـ هذه التي تستعمل في استخراج القوانين التي تتحكم في العالم المادي ـ لتفهم حقيقة الجاذبية أو النفس أو الروح أو العقل إلى ما هنالك من عوالم غير مادية. ولذلك بقيت حقيقة القوة الجاذبية مجهولة لدى الفيزياويين.

وهكذا حقيقة القوة الكهربائية أو المغناطيسية وحقيقة الطاقـة، سواء أكانت طاقة حرارية أم كهربائية، أم حـركية أم ذريَّـة، إلى ما هنـالك. والفيزياويون يعترفون بعجزهم عن تفهم حقيقة كل ما ليس بمادي بحت. حتى أنهم ليعترفون بعدم تفهمهم حقيقة المادة. ذلك لأن المادة يؤول أمرها إلى الجزيء، فالذرة(atome) . والذرة مجموعة قـوى كهربـائية مـوجبة:

---

(١) اسم منسوب إلى القوة.

«بروتون» وقوى كهربائية سالبة: «ألكترون» وقوى أخرى لا يزال يعمل العلم الحديث للتعرف على آثارها.

ولسائل أن يسأل: هل يمكن تعريف «الفكر» وتحديد معالمه بمقاييس مادية أي بمقياس الطول: سانتيمتر، والوزن: غرام، والزمن: ثانية. وهكذا لا يمكن تعريف النفس أو العقل بهذه المقاييس المادية لأنهما ليسا من صقع المادة في شيء.

فقد اشتبه المادي حين أراد أن يرى الله تعالى في مخبره: (أنبوب التجربةtube) ذلك لأن المخبر محل محدود، أنه محل مادي تحلُّ فيه المادة وليس الله تعالى بمادة أو بشيء يقاس بالسانتيمتر والغرام والثانية. كي يحل في المخبر: «أنبوب التجارب»، أو المختبر(Laboratoire) فيراه المادي بعينه أنه لا يشبه المادة ولا يشبه بقية الأشياء في شيء ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾.

ولكن ما يكتشف في المختبر من قوانين ثابتة ودساتير رياضية رصينة ومعادلات دقيقة تلك التي تحكم هذا الكون المادي يرشدنا إلى واضع هذه المعادلات التي بلغت من الدقة ما يحير الألباب. ذلك لأنا كلما اكتشفنا قانوناً لخواص المادة، فتحت لنا أبواب من المجاهيل يجب أن يعمل العالم المادي(1) في مختبره مئات السنين كي يتمكن من حل البعض عنها. وقد لا تساعده العلوم الرياضية الحاضرة لكشف معضلات تلك القوانين التي أودعها الله تعالى بين جزيئات المادة وذراتها. فكم من معادلات تفاضلية غير محلولة وكم من قوانين رياضية يجب أن تكتشف لحل ما لا يتناهى من مجاهيل تتراءى لنا في عالم الرياضيات.

فلا تزال الرياضيات ناقصة وهي في دور الألفباء، وسيبقى هكذا آلاف

---

(1) لا أظن أن المادي القائم بتجارب دقيقة في المختبر يبقى مادياً، فهو لا محالة يعترف بواضع هذه القوانين الكثيرة الدقيقة التي لا يمكن أن تأتي وتتحكم في المادة وتنظمها بطريقة عشوائية.

السنين بل أبد الآبدين: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾[1].

فالله الذي لا يحده شيء، فالله الذي لا تتناهى عظمته، فالله الذي لا يخلو منه مكان (هذا المكان اللانهائي الذي خلقه الله بقدرته الأزلية التي لا نفاد لها ولا انتهاء) لا يمكن أن يكون محدوداً بحدود الأنبوب: tube أو بحدود المختبر كي يراه المادي في مخبره أو مختبره.

ليس الله تعالى من صقع المقادير المحدودة ولا من المادة في شيء، وهو خالق المادة.

فنحن نعرف الله تبارك وتعالى بما خلق من عوالم: عوالم شتى، لا تتناهى، نعرف الله بما أودع من كمال في بطن الذرة: هذه التي لا يمكن أن ترى بأدق الآلات، حتى بالتلسكوب الألكتروني.

نعرف الله تعالى بما أودع من كمال خارق وتركيبات معقدة، مترتبة بعضها اثر بعض في البدن الانساني إلى حد لا يتناهى، إلى حد لا يدع (حسب قوانين حساب الاحتمالات) للصدفة مجالاً ولا قيمة. كل ذلك إذا طهرت النفس الانسانية من مجونها وطيشها، فجورها وفسوقها. أي أصبحت النفس الانسانية قمينة لتحلَّ فيها معرفة الله جل جلاله، لذلك، يقول علي عليه السلام: (لا تدركه العيون بمشاهـدة العيان، ولكن تـدركه القلوب بحقائق الايمان).

إنه تعالى لا نهائي في قدرته وهيمنته وعظمته وحكمته وعزته وعلمه وكماله ورحمته ونعمه وملكه وجبروته: ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبِّر، سبحان الله عما يشركون. هو الله الخالق الباريء المصور له الأسماء الحسنى، يسبِّح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾[2].

---

(١) سورة الكهف: ١١٠.

(٢) سورة الحشر: ٢٣ ـ ٢٤.

إن الرياضي ليرى بصورة واضحة أن الأعمال الحسابية: (هذه التي نستعملها في الكميات المحدودة لا تجري على اللانهائيات.

نحن نعلم أن: ٥ × ٤ = ٢٠.

ولكن ماذا يساوي: $\infty \times \infty$ (اللانهاية مضروبة في اللانهاية).

ونعلم أن: ٢٠ ÷ ٥ = ٤.

ولكن ماذا يساوي[1]: $\infty \div \infty$

اللانهاية ÷ اللانهاية.

نحن نعلم أن: ٢^{٣} = ٢ × ٢ × ٢ = ٨ مثلاً.

ولكن ماذا يساوي: ∞^{∞} (لا نهاية مرفوعة إلى اللانهاية).

ونحن نعلم أن: $\sqrt{٢٥}$ = ± ٥

ولكن ماذا يساوي: $\sqrt{\infty}$ (جـذر اللانهاية).

ثم ما معنى: $\infty + \infty$

مع العلم أنا نعرف معنى: ٤ + ٥ = ٩

وهكذا عندالطرح: $\infty - \infty$ = . . . ؟.

فنرى أن العمليات الحسابية التي تجري على الكميات المحدودة لا يمكن تطبيقها على اللانهائيات.

ولذلك ليـس من المعقول أن نستعمل مقاييسنا المحدودة للتعرف إلى الله الذي لا تتناهى عظمته وإن بعد التشبيه.

* * *

هناك نوعان من الكميات: منها ما هي مبهمة: (تخيلية) ومنها ما هي معلومة. فالكميات المبهة هي التي لا يمكن أن نعلم مقدارها بالضبط ولا

(١) ان قانون (أوبيتال) في الجبر العالي لا يجري هنا لأن ذلك القانون

يعلم ما هي؟ وهي التي معاملها $\sqrt{-1}$، فـ(٥ $\sqrt{-1}$) لا تعلم حقيقته.

فلو أدخلنا في معاملات معادلـة الخط المستقيم $\sqrt{-1}$: أي لو كانت هذه المعاملات، أ، ب، حـ من معادلة: أ س + ب ص + حـ = ٠ كميات مبهمة فان النتائج التي نلمسها في المقادير المحدودة تضطرب ها هنا وترينا نتائج غريبة جداً فيتقاطع المستقيمان المتوازيان وينطبق المستقيمان المتقاطعان.

فليلتفت المادي أنه حين محاولته معرفة الله تعالى إنما يستعمل مقاييس مقتضبة مادية، ليست من صقع اللانهاية في شيء، وعليه أن يستعمل مقياساً واحداً هو مقياس نفسي تشعر به النفس الانسانية كلما نمت وتكاملت في مضمار التقوى والورع وتطهرت بالتزكية من أدرانها وأرجاسها.

يقول علي عليه السلام: «يشهد بذلك العقل لو سلم من أسر الهوى». فهوى النفس يكون حجاباً حاجزاً دون رؤية الحق ودون الاعتراف بـالله المتعال ولذلك لا بد من تزكية لهذه النفس كي ترجع إلى رشدها وصفائها، حتى تحلّ فيها معرفة الله تعالى. وهو القائل: ﴿قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها﴾[1]

نعم ان معرفة الخالق تتوقف على طهارة النفس وخلوها من الأدران لذلك بعث الله الأنبياء عليهم السلام ليطهروا الانسان من الدنس ويزكوه. وقد قال تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويـزكيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمـة، وإن كانـوا من قبـل لفي ضـلال مبين﴾[2].

وقد قال الله تعالى: ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب

---

(١) سورة الشمس: ٩ ـ ١٠.

(٢) سورة الجمعة: ٢.

سليم﴾[1]. أي أن النجاة يوم القيامة: ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾[2] إنما تكون بسلامة القلب وسلامة النفس. وكل ما جاء في الدين الاسلامي من نواهٍ وأوامر ترمي إلى سلامة القلب وتزكية النفس.

فالحدود التي شرعها الشارع المقدس على مرتكبي الكبائر من شرب الخمر والزنا والربا والقذف والقيادة... إلى ما هنالك، كلها ترمي إلى قلع الكبائر والموبقات عن وجه البسيطة، كي لا تظلم النفس الانسانية بارتكابها إياها. فتجحد بارئها لقوله تعالى: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين، ما لكم كيف تحكمون﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿كذلك سلكناه في قلوب المجرمين، لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم﴾[4] ولنفس السبب شرع الشارع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهكذا سائر ما ندب إليه الشرع وأمر به من مستحبات وواجبات: إطعام الطعام، مساعدة الجار، صلة الأرحام، البرِّ بالوالدين، قضاء حاجة المؤمن، الإيثار، الصلاة، الصوم، الزكاة، الخمس إلى ما هنالك كلها ترمي إلى تعمير القلب، فالنفس ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾[5]. وعند ذلك، أي بعد القيام بما أمر به الشرع من واجبات وترك المحرمات وما ندب إليه من بعض المستحبات يتفتح القلب، فيحلُّ فيه حب الله تعالى ومعرفته ويقذف فيه نور يرى القلب من خلاله عظمة الله وقدرته التي لا تتناهى ويعزو القلب بصورة طبيعية كل ما يرى من هذا الابداع في الخلق إلى العلي القدير. فقد جاء في الحديث: «العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء».

عند ذلك يرى الفرد علانية أن ما يقوم به المادي من استعمال مقياس محدود مقتضب لمعرفة الخالق وأعني به المقاييس المـادية أو استعمـال

(١) سورة الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩

(٢) سورة المطففين: ٦

(٣) سورة القلم: ٣٥ ـ ٣٦

(٤) سورة الشعراء: ٢٠٠ ـ ٢٠١.

(٥) سورة التوبة: ١٠٤

الحواس الخمس التي قد حُددت من جانب الله قابلياتها وطاقاتها هي مقاييس تفيد في المجالات المادية المحدودة فقط، أما لمعرفة الله الذي لا تتناهى عظمته، فلا بد من مقياس غير مادي، وهو هذا النور الذي نوهنا عنه، هذا النور الذي يقذف في قلب العبد، إذا أطاع الله وكفَّر عن ذنوبه. وهو قوله تعالى: ﴿نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء﴾(١).

وليس هذا النور من نور الشمس المادي في شيء. فالضوء أو النور إنما هو شيء مادي حسبما اكتشفه (اينشتاين)، وليس بشيء معنوي. وقد حصل اختلاف شديد في مادة الضوء. ولكن (آينشتاين) برهن على أن الضوء شيء مادي، وذلك بعد أن راقب الضوء أو النور الآتي من أحد النجوم في يوم كان قد كسفت فيه الشمس. شاهد مسار هذا الضوء فرآه منحنياً وليس بمستقيم، رآه ينحني حيث الجاذبية أكثر من قبل نجوم أخرى. فعلم أن الضوء إنما هو جرم مادي فيه قابلية الانجذاب كبقية الأجسام المادية حسب قانون نيوتون للجاذبية العامة.

إذن ما كان من صقع المادة يمكن التعرف اليه بمقاييس مادية: سانتيمتر، غرام، ثانية. وما لم يكن كذلك، كالنفس والعقل، لا يمكن التعرف اليه، وإنما نحكم بوجوده بما نشاهد من آثار في أنفسنا. لذلك اعترف (دكارت): Descartes الفيلسوف بوجود الخالق بعد أن شك في كل شيء: إلا أنه لم ينكر شعوره، فقال: «أنا موجود، ذلك لأني أحس وأشعر». ثم تدرج بمقاييس غير مادية إلى معرفة الخالق جل جلاله. فقال: «إني أحمل فكرة الكمال، فكان الأحرى أن أكمل نفسي من النواقص إن كنت أنا خالقاً نفسي، وأن أجعل عيني تبصر إلى مسافات شاسعة وأذني تسمع من أماكن بعيدة وهكذا بقية الأعضاء. ولما كانت هذه الحواس محدودة القابلية وليس لي أن أعدل فيها وأن أكملها كيفما أريد. إذن خالقها غيري. كما أنه ليس خالقي إنساناً آخر يشبهني، لأنه ناقص مثلي. فلا بد أن هناك كاملاً وهو الله تعالى قد خلق كل ما نشاهده تحت قوانين ثابتة ونظم دقيقة يحار فيها الألباب».

---

(٢) سورة النور: ٣٥.

وأني أختم هذا المقال بقول علي عليه أفضل الصلاة والسلام، ففيه فلسفة المعارف الإلهية والطريقة التي لو اتبعها الانسان بلغ مرتبة اليقين

«إن من أحب عباد الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه، فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف فزهر مصباح الهدى في قلبه».



علي عليه السلام والعلم الحديث

كان علي عليه السلام رياضياً ملهماً وفلكياً بارعاً وفيزياوياً عظيماً وكيمياوياً كاملاً وهكذا في بقية الفروع العلمية من نبات وفسلجة وطبقات الأرض. . . إلى ما هنالك.

ولقد بلغ الدرجة القصوى من الاتقان والكمال. وما كان ليتردد، عليه أفضل الصلاة والسلام، عند الاجابة على سؤال، وقد سئل عن مسائل شتى في شتى المواضيع فأجاب بالبديهة وبصورة ارتجالية، دونما تفكير وبشكل موجز مفهوم.

سأله ذات يوم (ابن الكوا) قائلاً: يا علي، كم المسافة بين السماء والأرض؟ فأجاب عليه السلام قائلاً: دعوة مستجابة. . .

حقاً، إن هذا الجواب لهو عين الواقع، لعدم تناهي الأبعاد بصورة ظاهرية بين السماء والأرض. فهذا الكون الأحدب - على حد تعبير - (أينشتاين) لا يمكن أن يستقصى غوره، وأنه ليتوسع يوماً بعد يوم. وكلما تقدمت آلات الرصد وعلم الفلك اللاسلكي وعلوم الذرة والاشعاع عثروا على شموس أخرى وكواكب ومجرات وسدم تدهش الألباب، ويتحقق قوله تعالى: ﴿والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون﴾[1].

يقول (بليفن): «إن الكون أوسع وأرحب وأعظم مما كنا نتخيله. وإن الأجزاء النائية من الكون تندفع في الفضاء بسرعة خيالية».

فلا يمكن أن يعبر عن المسافة بين السماء والأرض بعدد رياضي معلوم المقدار لعدم تناهي الأبعاد.

---

(١) سورة الذاريات: ٤٧.

ثم إن الله تبارك وتعالى لا يخلو منه مكان: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا﴾(١).

وإن هذا الدعاء أو الدعوة في جواب علي عليه السلام: «دعوة مستجابة» ليسري في هذه الأجواء التي لا تتناهى إذا استجيب ورفع ولم يحجب عن الصعود في العوالم اللانهائية.

وما أقام الأقدمون من أدلة على محدودية الكون إنما يجري على الكميات المحدودة، ولا يجوز تطبيق القواعد الرياضية في الكميات المحدودة على اللانهائيات: (∞).

كان يقول قسم من الفلاسفة و العلماء أن الكون محدد.

ودليلهم على ذلك: «أنا لو أخذنا نقطة على سطح الأرض ومددنا من تلك النقطة خطين مستقيمين حصلت بينهما (في تلك النقطة) زاوية. وإذا قطعنا ضلعي تلك الزاوية بمستقيم آخر (مستقيم ثالث) حصل هنالك مثلث من ضلعيّ الزاوية والمستقيم القاطع لهما. يقولون: إن المستقيم القاطع أي الثالث يبقى محصوراً بين ضلعي الزاوية مهما مددنا ضلعي الزاوية إلى اللانهاية. إذن: الكون محدود!؟.

إن هذا الدليل يمكن تطبيقه على المسافات المحدودة ولا يجري على اللانهائيات، ذلك: لأنا إذا فرضنا النقطة المفروضة، (تلك التي مددنا منها ضلعين وشكلنا الزاوية المعلومة)، مركزاً للكرة الأرضية وجعلنا نصف القطر (ضلع الزاوية) مستقيماً يمتد إلى ما لا يحد من المسافات، أي الى اللانهاية: (∞) لأصبح سطح الكرة مستوياً وخرج عن كونه كروياً أو شيئاً ذا انحناء ذلك لأن درجة الانحناء لمنحنٍ ما = $\frac{١}{ر}$ (ر= نصف قطر الانحناء): كما هو معلوم في الهندسة التحليلية

فكلما كان نصف قطر الانحناء أصغر كان الانحناء أكبر وكلما كان

---

(١) سورة المجادلة: ٨.

نصف قطر الانحناء أكبر كان الانحناء أقل. فإذا أصبح نق = ∞ (أصبح نصف قطر الانحناء لا نهائياً)، يكون:

$$\frac{١}{ر} = \frac{١}{\infty} = ٠$$

أي لا انحناء هنالك.

ألا ترى أن الشاقولين على سطح الكرة يكونان متوازيين إذا كانت المسافة بينهما عدة أمتار. حين أن الشاقولين يلتقيان في مركز الأرض وبينهما زاوية ضئيلة جداً لا يمكن قياسها بأدق الآلات.

إذن ليس من المعقول أن نقول: إن الضلع الثالث يبقى محصوراً بين الضلعين الأخرين إذا بلغت الفاصلة بينهما لا نهائياً. فان اللانهائي يجل عن الحصر والحدود وإلا فليس بلا نهائي.

لنستعن بعلم المثلثات زيادة في التوضيح:

لنفرض النقطة على وجه الأرض أو بالأحرى في مركز الأرض م وقد مدَّ منها نصف القطر: م حـ ونصف القطر: م د.

فيكون الضلع الثالث المحصور: حـ د.

فلنكتب قيمة حـ د حسب قواعد المثلثات:

(حـ د)^{٢} = (د م)^{٢} + [حـ م]^{٢} − ٢ × دم× حـ م × جتام[1].

فإذا فرضنا: م حـ = ∞ ، م د = ∞ [2].

وعوضنا:

(حـ د)^{٢} = ∞ + $\infty^{٢}$ − ٢ × ∞ × ∞ × جتام

---

(١) جتام = أي الجيب اتمام لزاوية م: Cosinus ، يراد بزاوية م، زاوية د م حـ.

(٢) يراد بـ ∞ اللانهاية.

ولما كان (٢ جتام) مقداراً محدوداً، فلا أثر له تجاه اللانهاية عند التضعيف أو التقسيم:

$$\therefore (\text{حـ د})^{٢} = \infty + \infty^{٢} - \infty \times \infty$$

$$\text{أو } (\text{حـ د})^{٢} = \infty + \infty - \infty^{٢}$$

$$(\text{حـ د})^{٢} = \infty^{٢}.$$

فيكون المستقيم المحصور بين ضلعي الزاوية لا نهائياً.

مع العلم أنه لا يصح إجراء الأعمال الأربعة والجذر والرفع في اللانهائيات كما في المقادير المحدودة. . . فلا يعلم ماذا ستكون هذه المستقيمات في اللانهاية.

* * *

ثم نحن باستطاعتنا أن نمد مستقيمات متعددة من مركز الأرض على أن تكون الزوايا المركزية صغيرة جداً.

ثم نمدُّ (أنصاف الأقطار) أو هذه المستقيمات إلى ما لا نهاية، فماذا تكون المستقيمات المحصورة بين أضلاع الزوايا المركزية التي هي كثيرة جداً.

ستكون، ولا شك، هذه المستقيمات المحصورة مثل حـ د، دهـ، هـ ط، محيطاً لدائرة مركزها الكرة الأرضية. وتحصل عند ذلك دوائر متحدة المركز تحيط بعضها ببعض وتتباعد كالدوائر التي نشاهدها عندما نلقي حجراً في حوض ماء راكد. وتتباعد هذه الدوائر إلى ما لا نهاية، حيث لا يعلم مداها.

فيصبح سطح الكرة التي نصف قطرها ∞ = لا نهاية، مستوياً.

ويصبح محيط الدائرة التي نصف قطرها ∞ = لا نهاية، خطاً مستقيماً.

فيخرج عما نشاهده في الكميات المحدودة على سطح الأرض أو ما هو قريب من الأرض بحدود معينة.

فنحن نتصور اللانهائية ولكن لسنا محيطين بها تمام الاحاطة كي نتمكن من تقديرها وتطبيق القواعد التي تجري في صقع محدود، عليها.

وقد اشتبه كثير من الفلاسفة، قديماً وحديثاً، عندما فسروا نظرياتهم وفق مقاييس محدودة مقتضبة، فإذا سئل أحدهم عن الله تعالى طبق الكونيات المحدودة أو القوانين الفيزيائية الأرضية على «الله» الذي لا تنتهي عظمته ولا تحد قدرته، فهو الذي ﴿لا ينعت بتمثيل ولا يمثل بنظير؛ ولا يغلب بظهير. قد حارت في كبرياء هيبته دقائق لطائف الأوهام، وانحسرت دون ادراك عظمته خطائف أبصار الأنام»[1].

وقد جاء في دعاء يقرأ ليلة القدر:

«يا موصوفاً لا يبلغ بكينونيته موصوف. ولا حد محدود، يا غائباً غير مفقود ويا شاهداً غير مشهود، يطلب فيصاب، ولم تخل منه السماوات والأرض وما بينهما طرفة عين، لا يدرك بكيف ولا يؤيَّن بأين ولا بحيث. أنت نور النور».

يلاحظ أن تفسيرات بعض الفلاسفة للكون والوجود ونظرياتهم عن خالق السماوات والأرضين مشوبة بمقاييس مادية حالكة وتطبيقات مادية سخيفة، من تطبيق العوالم اللانهائية على العالم المحدود بمقاييسه وحدوده لذلك قالوا نتيجة تطبيق مادي سخيف:

١ ـ الواحد لا يصدر منه إلا الواحد. . . «يراد به الله».

٢ ـ العقول عشرة.

٣ ـ ان الله غير عالم بالجزئيات.

وقالوا مثل ذلك أشياء كثيرة وبنوا على أسسهم المغلوطة أبنية واهية، هي أوهن من بيت العنكبوت. فأدى بهم إلى وحدة الوجود! بل وحدة الموجود!!؟. . .

---

(١) من دعاء يقرأ في كل يوم من أيام شهر رجب.

انه تعالى يقـول: ﴿ما أشهـدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم﴾[1].

ويقول بالنسبة إلى كيفيـة خلقه الخلق:

﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن، فيكون﴾[2].

وقد قرأت مقالاً لأستاذ الفيزياء الرياضية العالية في جامعة الاستانة قبل حوالي ثلاثين عاماً يخـطىء فيه بعض علمـاء الغرب في نـظرياتهم عن اللانهاية، فكثيراً ما نجد أنه يعامل مع اللانهاية في الأعمال الحسابية عين ما يعامل مع الكميات المحدودة. ويقاس اللانهائيات بنفس المقياس الذي يقاس به المتناهيات. وهذا بعينه يشاهد في ما يقوم به الماديون من سرد براهين وأدلة لتثبيت دعائم كفرهم وجحودهم وهذيانهم!.

* * *

فما قيمة هذا الانسان تجاه عظمة الله التي ليس لعدد ولا مقدار أن يحدها، تلك العظمة التي هي فوق متناول العقول وحدود الأفكار. والغريب أن يريد الانسان المادي المحدود في طاقاته وقابلياته (مهما حاول واجتهد واستفاد بأمره تعالى وإلهامه وتوفيقه مما أودع الله تعالى من نظم وقابليات في هذا الكون الرحيب) أن يحيط بالله وأن يرى الله بعينه التي يبصر بها، هذه العين المادية التي لا تزال ولن تزال حقيقتها وجميع خـواصها وقـوانينها مجهولة. ذلك لأنه ليس للبشر أن يستقصي جميع ما أودع الله من خواص وقوانين في العين. مع العلم أن العين محدودة في قابلياتها وطاقاتها.

فقد قال (لنكولن بارنت): «إن ما يدركه الانسان عن الحقيقة التي تحيط به محدود، بسبب عجز جهاز الابصار عنده. ولو أن عينه كانت أكثر حساسية، فتدرك مثلاً موجات الأشعة السينية(X Rays) لبـدت له الـدنيا مختلفة تماماً عما يراها الآن».

---

(١) سورة الكهف: ٥٢.

(٢) سورة يس: ٢٨.

كما ينفي (الدكتور ألكسيس كارل) في كتابه: «الانسان ذلك الكائن المجهول»! إمكان التعرف إلى الانسان معرفة تامة...

فإذا كان الانسان لا يقوى على معرفة نفسه، فأنى له أن يحيط بخالقه وهو اللانهائي الذي لا يحده شيء؟! ﴿يا أيها الانسان ما غرَّك بربك الكريم، الذي خلقك فسوَّاك فعدلك، في أي صورة ما شاء ركبك، كلا، بل تكذبون بالدين، وإن عليكم لحافظين، كراماً كاتبين، يعلمون ما تفعلون﴾(1).

حقاً: ﴿قتل الانسان ما أكفره، من أي شيء خلقه، من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره؛ ثم أماته فأقبره، ثم إذا شاء أنشره، كلا. لما يقضِ ما أمره﴾...!(2).

* * *

إن أينشتاين بما وجد من قوانين رياضية رصينة نفي العبثية والعشوائية في الكون. وبرهن على أن الظواهر الكونية كلها تخضع لقوانين رياضية ثابتة، وهي النواميس الالهية التي تتحكم في الكون. هذا الكون الذي غدا وجوداً هندسياً بديعاً يدهش الألباب.

لقدأراد أينشتاين أن يحسب مقدار كتلة النجوم التي يمكن مشاهدتها في السماء. ولكنه عدل عن هذا الرأي عندما رأى أن أنجماً جديدة تتشكل في كبد السماء من حين لآخر.

فالتلسكوبات الحديثة اكتشفت مجرات على بعد ألف مليون سنة ضوئية. ويقدر (شارليه) أن قطر الكون عشرة آلاف مليون سنة ضوئية!. وإن الحادث الذي يحدث في مجرة في طرف الكون لا تعلم به (أو يستحيل أن تعلم به) مجرة في الطرف الآخر قبل مرور عشرة آلاف مليون سنة من سنواتنا.

---

(1) سورة الانفطار: ٦ ـ ١٢.

(2) سورة عبس: ١٧ ـ ٢٣.

هذا ما اكتشف حديثاً. ولكن لا يبقى الاكتشاف موقوفاً على هذا الحد، فكلما تقدمت العلوم رأوا عوالم أخرى لا تحدُّ.

والسنة الضوئية تقدر بمسافة قدرها ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ١٠ كيلومتر تقريباً. أي أن الضوء يقطع في السنة الواحدة بسرعته المعلومة (٠٠٠ ٣٠٠) كيلومتر في الثانية مسافة قدرها عشر مليون مليون كيلومتر تقريباً.

لذلك يقال أن بعد القمر عنا ١'/٣ من الثانية (ثانية وثلث الثانية). فإذا أردنا تعيين بعد القمر عنا علينا أن نضرب ١'/٣ من الثانية في سرعة الضوء. أي ٤/٣ × ٠٠٠ ٣٠٠ = ٠٠٠ ٠٠٠ ٤٠٠ كيلومتر.

وإن الشمس تبعد عنا ٨ دقائق و ٢٠ ثانية أي أنا لو ضربنا ٨ × ٦٠ + ٢٠ = ٥٠٠ ثانية في سرعة الضوء أي في ٠٠٠ ٣٠٠ كيلو متر لوجدنا بعد الشمس عنا: وهو ٠٠٠ ٠٠٠ ١٥٠ كيلومتر. (أو: ٠٠٠ ٠٠٠ ٩٣) ميل.

فإذا حدث انفجار في نجم (الألفا السنتوري) سنة ١٣٨٣ هجرية، فنحن لا نشعر به إلا في سنة ١٣٨٧ هـ أي بعد ٤ سنوات، ذلك لأن نجم (الألفا السنتوري) تبعد عنا أربع سنوات ضوئية. فإذا نظرنا إلى السماء في ليلة غار فيها القمر، لا نرى إلا الضوء الذي صدر عن هذه النجوم قبل سنوات. فإذا كنت تنظر إلى نجم (الألفا سنتوري) فأنك ترى ما صدر عنه من ضوء قبل ٤ سنوات، حتى وإن كانت نجمة (الألفا سنتوري) قد اختفت عن الوجود بأمر الله تعالى منذ سنة أو سنتين أو ثلاث سنوات... وهكذا بالنسبة إلى النجمة التي تبعد عنا مليون سنة ضوئية. نحن إنما ننظر إلى الشعاع الذي صدر منها قبل مليون سنة. وإن هذا الشعاع يحدثنا عن حالة تلك النجمة في الوقت الذي بدأ فيه ظهور الانسان على الأرض بأمره تعالى، أما النجوم التي تبعد عنا ألف مليون سنةضوئية، فاننا نرى الآن شكلها وحالتها عندما كانت الحياة على الأرض بادئة في التكوين بأمره تعالى، وعندما لم تكن قد نشأت اللبونات والزواحف والطيور ولم يكن قد ظهر أي من الفقريات. ولا يدري أحد، غير الله تعالى، ماذا حدث لهذه النجوم في هذه السنين الطويلة، قد تكون قد انطفأت أو انفجرت منذ

ملايين السنين، ونحن لا نزال نراها حتى الآن!. . ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾[1].

والكون واسع جداً، مترامي الأطراف، كل شيء فيه في حركة مستمرة منتظمة وليس الكون بدرجة من الضيق حتى يبرهن على محدوديته بمدٍّ ضلعين من نقطة على الأرض وتصور ان القاطع لهما محصور بين الضلعين، فيستدل بذلك على تناهي الأبعاد.

فسلام الله على أمير المؤمنين حين يقول «دعوة مستجابة» جواباً على سؤال من سأل: كم بين السماء والأرض؟. . .

* * *

يقول علي عليه السلام: «في التجارب علمٌ مستأنف» وهو حقاً واضع الطريقة التجريبية في العلوم الطبيعية. وقد سبق عليه السلام في قوله هذا «بيكون: Bacon) قروناً.

إن علماء الغرب ينسبون اكتشاف الطريقة التجريبية في العلوم الطبيعية إلى «بيكون» وقد فاتهم أن الاسلام يشجع الطرق التجريبية بقوله تعالى: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم. إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾[2].

سُئل علي عليه السلام عن وزن فيل، فطبق قانون الطوفان في الفيزياء. وسئل عن ثقل قيد في رجل أحدهم، فعين ثقله دون إخراج القيد من رجل الرجل معتمداً على قانون ارخميدس في الفيزياء ولم تكن إذ ذاك دراسة للعلوم اليونانية في الجزيرة العربية. وسئل عن مسائل رياضية صعبة فأجاب عنها بالبديهة، وقد ذكرنا البعض منها في نهاية الجزء الثاني من كتاب التكامل في الاسلام وفي الجزء الرابع من نفس الكتاب. وسئل عن قطر الشمس فأجاب مرتجلاً، وهو عين ما نقرأه في كتب الفلك اليوم. وسئل عن مسائل معقدة في الفرائض (الارث) فأجاب دون تفكير أو تأمل.

---

(١) سورة الملك: ١٤.

(٢) سورة الاسراء: ٣٤.

وقد أملى الشيء الكثير في موازين الصناعة على بعض أصحابه.

وللمسلمين أيادٍ بيضاء في حقل الرياضيات ومكتشفات هامة، وقد شرح ما أضافه المسلمون من قوانين ودساتير واكتشافات في الرياضيات أستاذ الفيزياء الرياضية في جامعة استانبول: صالح زكي في أربعة مجلدات أسماها: «الآثار الباقية» وهو كتاب ممتع، يطلع الانسان عند مطالعته على مدى عمق التفكير والتتبع الرياضي لدى المسلمين. وهذا نصير الدين الطوسي له مكتشفات في تسطيح الأرض وتربيع الدائرة ومساحة الأشكال الكروية والمنحنيات وكتابه: «كتاب الشكل القطاع» كتاب وحيد من نوعه. ترجمه الغربيون إلى اللاتينية والفرنسية والانكليزية وبقي قروناً عديدة مصدراً لعلماء أوربا، يستقون منه معلوماتهم في المثلثات المستوية والكروية[1]. والطوسي أول من استعمل الحالات الست للمثلث الكروي القائم الزاوية.

ولأبي جعفر المصري وأبي سعيد السجستاني وعلي بن أحمد الموصلي وأبي يوسف الكندي ومحمد بن ميسر البغدادي آثار هامة في الرياضيات ومكتشفات جديرة بالذكر والتقدير.

وأما أبو العلاء البيهقي فقد ألف في الميكانيك والأثقال كتاباً قيماً وكذلك في دقائق المخروطات.

كما أن لأبي الريحان البيروتي مكتشفات رياضية جديرة بكل تقدير.

وهكذا نرى أن المسلمين يعدون آباء العلم الحديث على حد تعبير «نهرو».

إن علياً عليه أفضل الصلاة والسلام كان له اليد الطولى في وضع أسس العلم الحديث ولكنه عاش في وقت الجدب العلمي في العلوم الكونية في الجزيرة العربية، فلم تستفد الناس من مواهبه وكمالاته.

فيحق لأحد المفكرين أن يقول: «الاسلام هو الدين الوحيد الذي يماشي العلم المادي والفلسفة الحقة».

---

(١) كتاب: فلاسفة الشيعة، ص: ٩٤.

ويحق لـ (وولتر) أن يقول : «إن (مارتن لوثر) لا يقوى على حلِّ عقد خيوط حذاء محمد». كل ذلك عندما يرى عظمة الاسلام في حقول شتى، في حقل الفلسفة الحقة والأخلاق المثالية والعدالة الاجتماعية وإدارة البلاد والسياسة الدولية والعلوم المادية بفروعها المتنوعة. مع أنه لم تكن لدى (وولتر) مصادر كافية عن الدين الاسلامي.

فحقيق بشبابنا الجامعي أن يقدر الاسلام حق قدره، وأن يضحي لأجل تحكيم دعائمه ونشره في أرجاء المعمورة. فانه تعالى يقول:

﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾[1].



---

(١) سورة العنكبوت: ٦٩.

الصادق عليه السلام والعلم الحديث

قد يتساءل الناس: هل أن الامام عليه السلام كان مستوعباً العلم الحديث، أو كان يعلم الفيزياء والكيمياء والرياضيات وغيرها من العلوم؟.

إن ما تقرأه عن أحوال الأئمة عليهم السلام - يشير إلى ذلك، وأنهم كانوا يجيبون بصورة ارتجالية دونما تفكير على أسئلة صعبة في حقول العلم الحديث، مسائل يحتاج حلها إلى تفكير ووقت لا يستهان به، مسائل ما كان ليقوى على حلها العلماء من جميع الأمم في ذلك العهد. ولم نجد في ما نقرأه عن أحوال الأئمة - عليهم السلام. . . أنهم استمهلوا للاجابة على مسألة، أو عينوا موعداً للجواب، عدا ما صدر عن جميعهم - عليهم السلام - إخبار بالغيب طابق الواقع تماماً. فقد قال الرضا عليه السلام: «سوف لا يحجُّ من ملوك بني العباس أحد بعد هارون». وكان كما أخبر به الرضا (ع). وقال عليه السلام: «هارون وأنا كهاتين. وضم أصبعيه». قال الراوي: ما عرفنا معنى حديثه حتى دفناه معه.

وإن هذا العلم - وأعني به علم الامام عليه السلام - على ضربين:

١ - علم مستقى من رسول الله صلى الله عليه وآله على حد قول علي عليه السلام: «علمني رسول الله ألف باب من العلم، ينفتح لي من كل باب ألف باب»، وقوله: «سلوني قبل أن تفقدوني، هذا سفط العلم، هذا لعاب رسول الله، هذا ما زقني رسول الله زقاً»، وقوله: «سلوني، فان عندي علم الأولين والأخرين.. إلى ما هنالك من روايات كثيرة، كلها تدل على أن رسول الله صلى الله عليه وآله هو المعلم الأول لعلي عليه السلام في شتى العلوم، وعلي (ع) معلم الأئمة - عليهم السلام - .

٢ - وعلم يأتي من طريق الالهام، وهو علم لدني (إن صح التعبير).

فإن المكتشفات الحديثة تعتمد ـ في الدرجة الأولى ـ على الالهام والحدس(Intuition) وما يراه المكتشف في حلمه (في عالم الرؤيا).

يرى المكتشف في عالم الرؤيا أنه يُلهم مراحل حل مسألة رياضية صعبة لم يقوَ على حلها مدة مديدة. ويلهم صنع آلة، أو تركيب مواد وعناصر لصنع دواءٍ ناجع لمرض تعسر شفاؤه... إلى ما هنالك.

وقد جاء في الحديث: «العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء».

هذا العلم ليس بالعلم المادي فحسب، وإنما هو المعارف الالهية أو الفلسفة الالهية الحقة، تأتي كرشحاتٍ للنفس الزكية، برياضاتها وقيامها بأعمال صالحات، أنه علم بحقيقة الكون والحياة والوجود، أنه علم يفسر هذه الآية الشريفة: وهي قوله تعالى:

﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾.

انه علم جاء من مراقبة النفس وجعلها مطيعة لأوامر الله تعالى في كل صغيرة وكبيرة... انه علم يورث الخشية، علم يمن الله تعالى به على عبد هو مصداق هذا الحديث: «ان من أحب عباد الله اليه عبداً أعانه الله على نفسه، فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف، فزهر مصباح الهدى في قلبه». أنه علم يتأتى من الاخلاص عند الصباح، على حد ما جاء في هذا الحديث.

«من أخلص لله أربعين صباحاً، جرت من قلبه على لسانه ينابيع الحكمة».

هذا النوع من العلم ـ العلم بما وراء الطبيعة والوقوف على فلسفة الكون الحقة ـ لا يتأتى إلا من ناحية التقوى وتزكية النفس: ومن مثل الامام المعصوم في مراتب التقوى وتزكية النفس، فنفوسهم ـ عليهم السلام معصومة من الزلل، بالغة أسمى مراتب الزلفى، نتيجة التقوى، تقوى لا يقوى عليها غيرهم ـ صلوات الله عليهم، فهم منهج الايمان، ومعادن الحقائق، وشفعاء الخلائق، ومفاتيح رحمة الله، ومقاليد مغفرته، وسحائب رضوانه، ومصابيح جنانه، وحملة فرقانه، وخزنة علمه، وحفظة سره. ولهم القلوب التي تولى

الله رياضتها بالخوف والرجاء[1] وجعلها أوعية للشكر والثناء وآمنها من عوارض الغفلة وصفاها من سوء شواغل الفترة.

فهم، على ما جاء في زيادة الجامعة: «خُزان العلم، ومنتهى الحلم، وأصول الكرم وقادة الأمم وأولياء النعم، وعناصر الأبرار ودعائم الأخيار وساسة العباد وأركان البلاد وأمناء الرحمن وسلالة النبيين وصفوة المرسلين وعترة خيرة ربِّ العالمين».

* * *

نعم، ان الالهام الرباني كان حليف المكتشفين وهم لم يقطعوا شوطاً في عالم التزكية. وانهم ليعترفون بالالهام الرباني في مكتشفاتهم ومخترعاتهم، ويقولون: تُملى علينا الحقائق والمعادلات والقوانين كأن شخصية مجهولة تلقننا وتملي علينا مراراً ومراراً، ونحن ندوِّن ما يملى علينا من خارج أنفسنا دون أن تكون لنا تجارب سابقة توصلنا إلى ذلك.

لقد سئل (فاراداي) عن سر نجاحه الكبير فيما اكتشفه في العلوم الطبيعية والكيميائية والكهرباء ووضعه بعض الدساتير دون أن يكون بارعاً في الرياضيات التي تعتبر أساساً لما اكتشفه فقال:

«انه ينظر إلى طبيعة الأشياء، فيرى ريشة سحرية تخط على صفحات عقله الآراء المبتكرة، فيمتحنها في مخبره ومختبره، فإذا بها هي الحقيقة «المنشودة!».

أما (ألبرت أينشتاين)، الذي يعدُّ من أعلم علماء العلم الحديث في القرن العشرين، فقد كان بطيء النمو والنطق، ضعيف العقل في صغره، حتى صار والده يقدم له أنواع الهدايا واللعب كي يتلافى ما عليه من نقص. وكان غير مختلط بالأطفال منعزلاً عنهم. وفجأة نظم أينشتاين أناشيد في مدح العزة الالهية والدعاء والاستغفار. ويلج بعد ذلك ميادين الطبيعة

---

(١) من زيارة خاصة جامعة لأئمة المؤمنين.

والرياضيات العالية. ويقول هو عن ذلك: «كأن عاصفة قد انطلقت في رأسي تُلهمني المكتشفات».

والطبيب العالمي «باتنينك» مكتشف (الأنسولين) الذي يعالج مرض البول السكري، قد يئس من كشف دواءٍ ناجع بعد دراسات طويلة على الكلاب دامت مدة مديدة. وفي ليلة أجهد فيها نفسه في البحث. فلما ذهب إلى فراشه نام نوماً قلقاً، وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل هب من سريره، وهو يستمع إلى قول يتردد في أذنه، ودونه في مذكرته وهو يغالب النوم: «اربط قناة البنكرياس في الكلب، ثم انتظر ستة أسابيع إلى ثمانية حتى تضمر، ثم استأصل بقيتها واصنع منها خلاصة».

وبعد أن دونها نام إلى الصباح. فذهب إلى (مكلود): رئيس قسم الفسلجة في كلية الطب بجامعة (تورنتو) الذي استمع اليه وهو يضحك مما يعتقد أنه أضغاث أحلام، أو أحلام متعب مكدود. فلما علم أن (بانتينك) يريد أن يبيع عيادته ليجري هذه التجارب وافق (مكلود) بدون اقتناع بصحة ما سمع وسافر في إجازة وترك (بانتينك) ليجري تجاربه على عشرة كلاب. وقدنجحت تجاربه في ٢٧ يوليو ١٩٢١ وكان كما سمعها تتردد في أذنه وهو في منامه.

ويقول (جونسون) في كتابه: (المسألة الكبرى)، إن [دي ليفد] الموسيقي الشهير، إنما اشتهر في اختراعه: (لحن السماء) و(أغنية العميان) لأنه سمع هذين اللحنين وهو نائم، فلقن حالة النوم، ويقول: ليس هذان اللحنان من اختراعه!.

وأما العلامة الرياضي الشهير: (هانري بوانكاره) حاول غير مرة أن يستكشف قانوناً عاماً لحل مجموعة معادلات جبرية، ولم يتمكن من ذلك إلا بعد أن رأى الحل مكتوباً تفصيلاً في نومه وهو القائل كلمته المشهورة: «نحن الرياضيين، إنما نعمل لأجل الفيزياء والفلسفة!». علماً منه: أن الفلسفة الحقيقية يجب أن تبتني على العلم الصحيح الذي لا غبار عليه وقد خرج من مرحلةالظن والاحتمال ولا يقبل الشك والترديد وهو الرياضيات البحتة.

عندما كنت أدرس في المتوسطة، عصت مسألة هندسية على مدرس الهندسة، فلم يقوَ على حلها وطلب إلي أن أحلها. فحاولت أن أحلها وأنا في الترام في طريقي من بغداد إلى الكاظمية فلم أستطع، واشتغلت فيها ليلاً، فلم أستطع، حتى إذا كان الصبح، فصليت صلاة الصبح، ثم قلت في نفسي لأصلٍّ ركعتين وأسأل الله بعدهما أن يمن علي بالحل. فبينما أنا في التشهد إذ تتراءى لي خطوط أوصلتها فحلت المسألة بصورة بسيطة وأنا في حال التشهُّد.

كان المسلمون الأوائل: عندما كان الغربيون يؤمون جامعات الشرق، المستنصرية، جامعة القاهرة، جامعات الأندلس، يسألون الله تبارك وتعالى في حل مشاكلهم العلمية ويقال عن كثير منهم: إذا تعسرت على أحدهم مسألة، صلى ركعات وسأل الله تعالى حل مسألته وإذا بها تحل بأمر الله والهامٍ منه تعالى.

والمعروف أن الدكتور: جيمس كريكوري الفلكي الرياضي الاسكتلندي إنما حصل على أبرع آرائه العلمية خلال أحلامه.

فالله تبارك وتعالى هو الملهم للنحل لصنع بيوتها الهندسية على شكل مسدسات منتظمة، ذلك لأن من لم يدرس في المدارس المتوسطة لا يقوى على رسم مسدس منتظم. ولا يعلم أن ضلع المسدس المنتظم يساوي نصف قطر الدائرة المحيطة به إلا مَن درس الهندسة ونظرياتها. وفي أية مدرسة متوسطة درس النحل البراهين الهندسية ونظرياتها حتى يبني بيته العجيب على شكل مسدسات منتظمة تنعدم المسافة بينها: مسافات لا فائدة منها؟.

ولا يوجد إلا ثلاثة أشكال تبنى منها غرف متصلة تنعدم الفاصلة بينها. وهذه الأشكال هي: المثلث المتساوي الأضلاع والمربع والمسدس المنتظم وهو أصعبها في التنفيذ. وهو ما يقوم به النحل. لذلك يقول العالم «مترلينك»: «لو أن أحداً من عالم آخر هبط إلى الأرض وسأل عن أكمل ما أبدعه منطق الحياة، لما وسعنا إلا أن نعرض عليه مشط الشمع المتواضع الذي يبنيه النحل».

وإن النظام المعماري العجيب الذي نجده في أعشاش النمل مما يدل دلالة واضحة أن الله هو الذي يُلهم النمل في صنع عشه، صنعاً كان يعجز عنه الانسان القديم مع ما أوتي من عقل وفكر. فالنمل يصنع بناءاً ذا عشرين طابقاً، قد حقق في كل طابق ما يحتاجه النمل من حرارة مناسبة ورطوبة وتهوية وقاعات للاجتماع وغرف لتربية الصغار. . . إلى ما هنالك.

على أن النمل يملك جيوشاً منظمة، يمارس من أنواع الحروب التي يمارسها الانسان. كالحرب المكشوفة، والهجوم الشامل والتعبئة العامة وحرب الخنادق والمفاجآت وخطط التسلل وحرب الابادة الشاملة والحصار والاقتحام والهجوم والتقهقر والانسحاب الاستراتيجي. إلا أنها تتميز بميزتين أساسيتين، عجيبتين: الأولى: احترام ملكية الغير احتراماً كاملاً والثانية: تقديم الطعام للنمل الجائع.

ولننظر إلى أخلاق النمل عندما تقدم طعاماً لغيرها من النمل من داخل معدتها، إذ أنه حين تخرج الطعام لغيرها من معدتها تصبح واضحة السعادة فرحة. حتى أن النملة لا تستطيع مقاومة تضرعات العدو الجائع، فتقدم له حاجاته من الطعام قبل احتدام القتال.

فليتعلم ا لانسان من النمل هذه الأخلاق الرفيعة!.

وهكذا نرى أن الالهام من جانب الله تعالى ضارب بأطنابه في أرجاء الكون. وإن حصة الانسان من هذا الالهام الرباني أكبر من غيره من المخلوقات وكيف لا يكون الامام عليه السلام مع ما أوتي من نفس زكية طاهرة مُلهماً علوماً شتى ومعارف جمة يعجز عن الوصول إليها البشر العادي.

* * *

يروي لنا الجنابذي في معالم العترة الطاهرة عن صالح بن الأسود: سمعت جعفراً الصادق يقول: «سلوني قبل أن تفقدوني، فانه لا يحدثكم أحد بعدي بمثل حديثي. فكان يقول: حديثي حديث أبي، وحديث أبي

حديث جدي، وحديث جدي حديث علي بن أبي طالب، وحديث علي حديث رسول الله».

نعم، قد أملى الصادق عليه السلام خمسمائة رسالة في علم الكيمياء على جابر بن حيان.

يقول (هولميارد): «إن جابراً هو تلميذ جعفر الصادق أو صديقه، وقد وجد إمامه الفذ سنداً ومُعيناً وراشداً أميناً وموجهاً لا يستغنى عنه. وسعى جابر بن حيان أن يحرر الكيمياء بارشاد أستاذه من أساطير الأولين التي علقت بها من الاسكندرية[1] فنجح في هذا السبيل إلى حد بعيد، ومن أجل ذلك يجب أن يقرن اسم جابر مع أساطين هذا الفن في العالم مثل: بويله، بريستله، لاووازيه وغيرهم من الأعلام».

وقد يستغرب بعض الكيميائيين من علم الامام عليه السلام في الكيمياء مع كونه في المدينة!.

لذلك، يقول (روسكا): «انه لمن المستحيل على جعفر أن يكون كيميائياً، فليس من الممكن أن يتعاطى تلك الصنعة سواء كان نظرياً أم عملياً وهو في المدينة.

ذلك، لأن روسكا وأمثال روسكا لم يصلوا إلى حقيقة الامامة. وكيف أن الله تعالى يُجري على يدي الامام الخوارق والمعاجز إظهاراً لامامته، كما يجري ذلك على أيدي الأنبياء عليهم السلام، وهو على كل شيء قدير.

فجابر بن حيان الذي يُعد من أساطين علم الكيمياء يذكر في رسائله: ان جعفر بن محمد هو الذي قال له، أو علمه، أو ألقى عليه، أو حدثه بكذا، ويقول في رسائله الموسومة بـ(المنفعة) أخذت هذا العلم عن جعفر بن محمد عليه السلام.

كان يقول علي عليه السلام: «في التجارب علم مستأنف». وها هو جابر

---

(١) الامام الصادق: ملهم الكيمياء. ص: ٣٧.

بن حيان تلميذ الصادق عليه السلام، يقول[1]: ملاك هذه الصنعة العمل. فمن لم يعمل ولم يجرب لم يظفر بشيء أبداً، ويقول جابر بن حيان في مقام آخر:

«إن الأصل كان من الطبائع لا من غيرها. فالوصول إلى معرفتها ميزانها. فمن عرف ميزانها عرف كل ما فيها، وكيف تركبت. والدربة مخرج ذلك. فمن كان درباً، كان عالماً حقاً، ومن لم يكن درباً لم يكن عالماً. وحسبك في الدربة في جميع الصنائع، إذ الصانع الدرب يحذق وغير الدرب يعطل».

نعم، ان جابراً قد تعلم من أستاذه الصادق عليه السلام علماً سماه: علم الموازين، في الكيمياء وهي المعادلات الكيمياوية التي نجدها في الكتب الحديثة، مثال ذلك: [2]

$$2H2\ SO4 + Cu = Cu\ SO4 + SO2 + 2H2O$$

$$S + Cu + O4 = Cu\ So4$$

وقد علمه الصادق عليه السلام كيفية استحضار الحامض الكبريتيك[3]، والحامض النيتريك، وهو أول من اكتشف (الصودا الكاوية)، وأول من استحضر ماء الذهب وأول من أدخل طريقة فصل الذهب عن الفضة بالحل بواسطة الحامض، ولا تزال هذه[4] الطريقة تستخدم إلى الآن في تقدير عيارات الذهب في السبائك وغيرها، وهو كذلك أول من لاحظ ما يحدث من راسب (كلورور الفضة) عند إضافة محلول ملح الطعام إلى محلول نترات الفضة.

ويُنسب إلى جابر أيضاً، وهو ما تعلمه من إمامه الصادق عليه السلام، استحضار مركبات أخرى غير التي مرت، كـ (كاربونات البوتاسيوم،

---

(١) فلاسفة الشيعة: ص ٢١٢.

(٢) يراد بـ(S) : الكبريت وبـ(Cu) : النحاس وبـ(O) الأوكسيجين.

(٣) يراد بـ(H2 SO4) : حامض الكبريتيك وبـ (H2O) : الماء وبـ(Cu SO4) : كبريتات النحاس وبـ SO2 ثاني أوكسيد الكبريت.

(٤) فسلاسفة الشيعة: ص: ١٨٨.

و (كاربونات الصوديوم)، واستعمل (ثاني اوكسيد المنغنيز) في صنع الزجاج، وتعلم جابر خصائص ومركبات الزئبق واستحضرها. وقد استعمل بعضها فيما بعد في تحضير (الأوكسيجين). ولا يخفى أن جميع هذه المركبات ذات أهمية كبرى في عالم الصناعة، فبعضها يستعمل في صنع المفرقعات والأصبغة، وبعضها الآخر في السماد الصناعي والصابون والحرير الصناعي.

وقد تعلّم جابر من أستاذه الامام الصادق عليه السلام الطرق التجريبية والعمل في المختبر، ثم المشاهدة والاستنتاج. وكان يقول: «إن واجب المشتغل بالكيمياء ,هو العمل وإجراء التجربة، وإن المعرفة لا تحصل إلا بها».

* * *

كان الصادق سلام الله عليه، عدا علمه بموازين الكيمياء يعلم منطق الطير. وان العلم الحديث ليعترف بمنطق الطير وحركات خاصة، لها معانٍ يتفهمها الطير المخاطب.

فقد قال جابر بن حيان: «كنت عند مولاي الصادق عليه السلام، إذ سقطت بين يديه حمامتان، فهدر الذكر على الأنثى، ثم جاء اليها وأحكم برأسها منقاره، وبعد قليل طارا. فقلت يا مولاي، ما كان من أمرهما؟ فقال: الذكر اتهم الأنثى بفرية، فأنكرت، وما زال بها حتى حلفت بالبراءة من المولى، عندئذ صدقها».

* * *

قد وضع جابر بن حيان ١٣٠٠ مؤلف في الحيل (الميكانيك) و ٥٠٠ مؤلف في الطب، ولا شك أن جابراً، ما كان ليقوى على أن يـأتي بهذه المؤلفات لا سيما، في الميكانيك، إلا إذا استقاها من منبع فياض نمير الا وهو امامه الصادق عليه السلام، ذلك لأن ما هو مدوَّن الآن في علم الميكانيك بصورة موضوعية دون تكرار نفس الموضوع، مثل ما يدون (في دائرة المعارف للعلوم) لا يمكن أن يتجاوز ٣٠٠٠ صفحة بما في ذلك: الميكانيك العادي والميكانيك الرياضي: Mécanique rationnelle ولو كانت مؤلفات جابـر بن حيان في الميكانيك موجودة لحد الآن لخطا العلم في حقل القوى والحركات

خطوات ناجحة، سريعة، ولكانت ثـروة عظيمـة في حقل العلم المـادي، للمخترعين والمكتشفين.

* * *

إن جابر بن حيان كان يعظم إمامه الصادق عليه السلام أيما تعظيم ويقسم به كثيراً في المعضلات، من جملة ذلك قوله:

«وهذا، وحق سيدي، كلام جوهري، نقي، ما فيه شوب ولا رمز».

ومن جملة كلامه:

«أتعلم ما قد كشفت للناس فيه، فإن لم تصل إليه فاطلبه، فأنه يخرج لك جميع غوامض كتبي وجميع علم الميزان، وجميع فوائد الحكمة، وتصير به، وحق سيدي عليه السلام، من أهل الصنعة، وتعلم الصالح من الفاسـد والسلام[1]».

* * *

ويقول في مقام آخر: «وحق سيدي، ما وقعت كتبي إلى انسان، فضيعه الله، بل يكون له رزق، ولو اجتهد الناس كلهم على حرمانه ما أمكنهم».

* * *

وقد سئل أبو عبد الله الصادق عليه السلام: كما جاء في الوسائل في باب الاجارة: عن رجل قبّل رجلاً حفر بئرٍ عشر قامات بعشرة دراهم. فحفر قامة، ثم عجز. فقال: «له جزء من خمسة وخمسين جزءاً من العشرة دراهم».

من الواضح المعلوم أن التعب الذي يصيب الرجل في حمل مقدار من التراب إلى مسافة مترين ضد الجاذبية الأرضية هو ضعف ما يصيبه لنقل مثل ذلك المقدار من التراب إلى مسافة متر واحد فقط ضد الجاذبية الأرضية. فان القوة التي تصرف ضد الجاذبية الأرضية لرفع كيلوغرام واحد إلى مسافة متر واحد يطلق عليها في الفيزيـاء (كيلوغرام ـ مـتر) = كغم/متر. فـإذا رفعنا

---

(١) الامام الصادق: ملهم الكيمياء، ص: ١١٣.

الكيلوغرام الواحد إلى مسافة مترين كانت القوة المصروفة تعادل ٢ كيلوغرام ـ متر: ٢ كغم/م. وإذا رفع ٣ كيلوغرامات إلى أعلى كانت القوة المصروفة ٣ كغم/م. وهكذا.

فالطاقة التي صرفت لرفع مقدار معين من التراب ضد الجاذبية الأرضية إلى ارتفاع قامتين هي ضعف ما يصرف إلى ارتفاع قامة واحدة وهكذا. فلنحسب وحدات الطاقات المصروفة لحفر البئر كلها بهذا الاعتبار:

١ + ٢ + ٣ + ٤ + ٥ + ٦ +٧ + ٨ + ٩ +١٠ = ٥٥ وحدة أو حصة. فيجب أن يقسم ١٠ دراهم على ٥٥ حصة: $\frac{١٠}{٥٥}$ من الدرهم وهذا ما يستحقه المستأجر من المبلغ كله ازاء حفره قامة واحدة.

فيها: ١ + ٢ + ٣ + ٤٠٠٠٠ + ٠٠٠ + ١٠ متوالية عددية أساسها = ١

والحد الأول = ١ وعدد الحدود = ١٠ والحد الأخير = ١٠

أي د = ١، أ = ١، ن = ١٠، ل = ١٠

فمجموع الحدود حسبما معروف في الجبر:

حـ = $\frac{ن}{٢}$ (أ + ل) وبالتعويض

حـ = $\frac{١٠}{٢}$ (١ + ١٠) = ٥ × ١١ = ٥٥

أو باستعمال الأساس:

حـ = $\frac{ن}{٢}$ [٢ أ + (ن ـ ١) د]، وبالتعويض

حـ = $\frac{١٠}{٢}$ (٢ + ٩) = ٥ × ١١ = ٥٥.

وإن الصادق سلام الله عليه كان عالماً بالطب إلى حد بعيد. وإن ما دوّنه جابر بن حيان في الطب في مؤلفات جمة إنما هو مستقى من علم الصادق (ع) وما جاء في توحيد المفضل من طبائع الأشياء وفوائد الأدوية وما جاء فيه من معرفة الجوارح التي تكفل بها علم التشريح ومناظراته مع الطبيب الهندي، كل ذلك دلائل واضحة على ما كان للصادق من علم واسع في حقل الطب وطبائع الأشياء. وهو القائل: «ان لكل ثمرة سماً. فإذا أتيتم بها، فأمسوها الماء واغمسوها في الماء».

وبقوله: «أنا أهل بيت لا نتداوى إلا بافاضة الماء البارد، يصب علينا».

وقد نطقت الأخبار ودلت الآثار أن الصادق عليه السلام قد كلم الفرس بلسانهم وأهل اللغات المختلفة بلغاتهم وناظر أهل كل علم وفن فخصممهم مثل علماء النجوم والفلك، والطبيعيات والطب وما عداها.

* * *

والاسلام دين يحث على العلم والتعقل والتفكر والنظر إلى حد بعيد وذلك بقوله تعالى: ﴿أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سُطحت﴾[1] وبقوله:

﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبثّ فيها من كل دابة، وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض لآياتٍ لقوم يعقلون﴾[2].

وبقوله: ﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة إتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾.

وبقوله: ﴿وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون، أفلا تعقلون﴾.

وبقوله: ﴿قل، هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون﴾.

وبقوله: ﴿قل أنظروا ماذا في السماوات والأرض. . .﴾.

وبقوله: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيّناها وما لها من فروج﴾.

وبقوله: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءاً فأخرجنا به ثمرات مختلف ألوانها، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس

---

(١) سورة الغاشية.

(٢) سورة البقرة.

والدواب والأنعام مختلف ألوانه، كذلك، إنما يخشى الله من عباده العلماء، ان الله عزيز غفور﴾.

وقد أمر الله تعالى رسوله الكريم أن يدعوه بهذا الدعاء: «ربِّ زدني علماً».

فكان للمسلمين مكتشفات هامّة استجابة للآيات القرآنية المتقدمة وأحاديث نبوية، منها: «تعلموا العلم من المهد إلى اللحد». «تعلموا العلم ولو بالصين».

* * *

واضح أن الامام الصادق عليه السلام لم يجد بيئة صالحة لبث علومه الجمة، إذ أن الوسط الاجتماعي لم يكن وسطاً علمياً مركزاً كما نراه اليوم. لذلك، لم يكن للمسلمين حظ وافر للاستفادة من علومه في حقول شتى. على أن ما أودع الله من خواص ومعادلات وقوانين في أجزاء هذا الكون تكاد لا تتناهى، فكلما عثرنا على قانون أو خاصية جاءت وراءها قوانين وخواص تدهش الألباب... فالكيمياء الذرية الحديثة علم حديث يحاول الوقوف على سر الخلق! وهيهات!!! نعم، صاروا يقولون: الحياة: تفاعلات كيمياوية، ولكنها ليست كتلك التي تجري في الأواني والأوعية في المختبرات، فللأوعية والمخابر كيمياؤها وللحياة كيمياؤها: أنهم بحثوا عن المادة الكيمياوية التي يختبىء وراءها سر الحياة، فوجدوها في حمض، سموه: الحمض النووي! وأشاروا إليه بأحرف: DNA ثم صاروا يقولون: ان سر الحياة يختبىء وراء هذا الحمض، حتى قالوا أن الحياة هي هذا الحمض نفسه لا غير؟![1].

ولقد أخذ علماء الكيمياء الحيوية يبحثون في الحموض النووية، فألفوها متصفة بصفات خاصة لا عهد لهم بأمثالها في الحوامض المعروفة. وكان أعظم هذه الصفات شأناً قدرة الحوامض المذكورة على التكاثر العفوي وتمكنها من التمثل، ولقد أمكن بطرق كيمياوية معقدة وأساليب دقيقة استخلاصها، فتبين أنها تتألف من ثلاثة عناصر رئيسية تؤلف وحدة صغيرة تتسلسل وتتكرر بشكل

(١) مجلة حضارة الاسلام: السنة الرابعة، العدد السادس.

شريط أو سلسلة طويلة تقابلها سلسلة أخرى مثلها، تصطف أمامها وتلتف احداهما حول الأخرى بشكل حلزوني ويربط بين السلسلتين، بمسافات متساوية الأبعاد، روابط هيدروجينية تجعل شكلها النهائي كشكل سلم لولبي أو درج مأذنة مستديرة. ولقد تبيَّن أن ما يميز حمضاً نووياً من آخر هو طريقة ترتيب المواد الواحدة الداخلة في كل منها، كما أن غياب أحدها واستبداله بنوع آخر يؤدي إلى تغير في طبيعة الحمض النووي، وقد شبهوا ذلك بكلمات من حروف محدودة يتبدل معناها ويتباعد باختلاف ترتيبها، فان حرف: ح، س، ب إذا تتابعت فيها الحروف ح، س، ب كان معناها: حسب، من الحساب، وإذا تعاقبت بالترتيب الآتي: س، ح، ب كان معناها سحب من السحب. لقد صاغوا الحمض النووي وبلوروه، فكان من ذلك: حمض: ظنوه سر الأسرار! ولكنه بدا عاجزاً عن التكاثر بصورة عفوية، كما يتكاثر الحمض النووي الذي وجد في الحمات. كانت صبغات الحمضين واحدة ولكن الفرق بينهما عظيم جداً: هو الفرق بين الحياة والموت، هو الفرق بين الصم العديم الروح، والجسد الحي الآهل بالروح. لقد كان عنصراً طبقوا عليه تعبير سرّ الأسرار!... ولكن ينقصه الواجب الوجود الأزلي وهو قدرة الباري جل جلاله الخلاقة واهبة الحياة ونافخة الروح.

فما هي الروح كيف تدب في الأجسام الكيمياوية سؤال شغل العلماء والفلاسفة منذ قديم الزمان. ولا يزالون في أول المرحلة، وهو الاعتراف بواجب الوجود وهو الله تعالى وسيبقون كذلك أبد الآبدين. وهو قوله تعالى: ﴿ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾.

لذلك يقول عدد من علماء الفضاء والذرة الأمريكيين والروس: «وكلما ازددنا علماً بالفضاء وأسباب الحياة زاد جهلنا».

ويقول: (لنكولن بارنت): «إن ما يدركه الانسان عن الحقيقة التي تحيط به محدود، بسبب عجز جهاز الابصار عنده، ولو أن عينه كانت أكثر حساسية، فتدرك مثلاً موجات الأشعة السينية لبدت له الدنيا مختلفة تماماً عما يراها الآن».

حقاً، ان الانسان لا يزال ناقصاً في ملكاته وقابلياته سواء منها الحواس وقابلية التفكير، وسيبقى ناقصاً ويظل يتتبع ويجد فيفتح له باب من العلم بهذا الكون الرحيب وإذا به أمام أبـواب لا تتناهى من المجـاهيل وهكـذا أبد الآبدين. ذلك: لأن ما أودع الله تعالى من خواص وتركيبات معقدة في كل جزء أو جزيء أو ذرة من هذا الكون المعقد تكاد لا تتناهى وهو قوله تعالى:

﴿ولو أن ما في الأرض من شجرةٍ أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾.

نعم، كل هذه المكتشفات وما أملاه الامام من علوم تساعد على معرفة الله، لو طهرت النفوس من أدرانها وأرجاسها ولم تحجب عن التقرب إلى الله بالمدنسات. ذلك لأن: «كثرة العلم في غير طاعة الله مادة الذنوب»[1]. وإن معرفة الله تعالى غاية الغايات والعلوم المادية تبرهن على عظمة الله تعالى وسعة علم الله الذي لا يتناهى. ولا شيء ألذ من معرفـة الله تعالى وتسبيحـه وتقديسه. ولنستمع إلى ما يقوله الامام (جعفر بن محمد) عليهما السلام في معرفة الله تعالى:

انه عليه السلام يقول: «لو يعلم الناس ما في فضل معرفة الله عز وجل ما مدوا أعينهم إلى ما متع الله به الأعداء من زهرة هذه الحياة الدنيا ونعيمها وكانت دنياهم أقل عندهم مما يطأونه بأرجلهم ولنعموا بمعرفة الله عز وجل وتلذذوا بها تلذذ من لم يزل في روضات الجنات مع أولياء الله. ان معرفة الله عز وجل آنس من كل وحشة، وصاحب من كل وحدة، ونور من كل ظلمة، وقوة من كل ضعف، وشفاء من كل سقم».

استمعوا إلى ما يقوله الشهرستاني في إمامنا جعفر الصادق عليه السلام: «هو ذو علم غزير في الدين، وأدب كامل في الحكمة وزهد بالغ في الدنيا، وورع تام عن الشهوات، وقد أقام بالمدينة مدة يفيد الشيعة المنتمين اليه، ويفيض على الموالين له أسرار العلوم، ثم دخل العراق وأقام بها مدة، ما تعرض للامامة قط، ولا نازع أحداً في الخلافة، ومن غرق في بحر المعرفة لم يطمع في شط،

---

(١) من كلام لعلي عليه السلام.

ومن تعلى إلى ذروة الحقيقة لم يخف من حط. وقيل: من أنس بالله استوحش من الناس، ومن استأنس بغير الله نهبه الوسواس». ومن كلماته سلام الله عليه: «من طلب الرياسة هلك».

يُروى: أن سفيان الثوري، الذي كان محدث العراق وواعظ الكوفة حضر مجلس الصادق عليه السلام والامام صامت لا يتكلم، فقال الثوري: «لا أقوم حتى تحدثني». فقال الصادق عليه السلام: «أنا أحدثك، وما كثرة الحديث لك بخير يا سفيان... إذا أنعم الله بنعمة، فأحببت بقاءها ودوامها، فأكثر من الحمد والشكر عليها، فان الله عز وجل قال في كتابه: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾، وإذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار، فان الله عز وجل قال في كتابه: ﴿استغفروا ربكم أنه كان غفاراً، يرسل السماء عليكم مدراراً، ويمددكم بأموالٍ وبنين، ويجعل لكم جناتٍ، ويجعل لكم أنهاراً﴾.. يا سفيان، إذا حزنك أمر من سلطان أو غيره فاكثر من ﴿لا حول ولا قوة إلا بالله﴾ فأنها مفتاح الفرج. وكنز من كنوز الجنة، فعقد سفيان بيده وقال: «ثلاث وأي ثلاث».

وكان أبو حنيفة يروي عن الصادق عليه السلام، ومع أنه كان في مثل سن الصادق عليه السلام لم يتأبَّ عن الأخذ عنه، فقد صحب الصادق (ع) سنتين وكان يقول: «لولا السنتان لهلك النعمان».

وان الصادق سلام الله عليه كان إذا التقى بأبي جعفر المنصور يقول الحق تصريحاً وتلميحاً، ويروى أن ذباباً حام حول وجه المنصور حتى أضجره، وأبو عبد الله عليه السلام في المجلس، فقال: «يا أبا عبد الله، لِمَ خلق الله الذباب؟» فقال الصادق عليه السلام: «ليذلَّ به الجبابرة».

وقد كتب إليه المنصور قائلاً: «لِمَ لا تغشانا كما يغشانا الناس؟» فأجابه الصادق عليه السلام: «ليس لنا ما نخافك من أجله، ولا عندك من أمر الآخرة ما نرجوك له، ولا أنت في نعمة فنهنيك، ولا نراها نقمة فنعزيك» فكتب اليه المنصور: «تصحبنا لتنصحنا»، فأجابه: «من أراد الدنيا لا ينصحك، ومن أراد الآخرة لا يصحبك».

انظروا إلى ما يقوله (مالك) عن الصادق عليه السلام، انه يقول: «لقد كنت آتي جعفر بن محمد، وكان كثير التبسم، فإذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه وآله وسلم، اخضر واصفر، ولقد اختلفت اليه زماناً، فما كنت أراه إلا على إحدى ثلاث خصال: إما مصلياً، وإما صائماً، وإما يقرأ القرآن، وما رأيته قط يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا على الطهارة، ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العلماء العباد الزهاد الذين يخشون الله. وما رأيته إلا يخرج الوسادة من تحته ويجعلها تحتي». وجعل يعدد فضائله.

ولقد سئل سلام الله عليه: لماذا حرم الله الربا؟ فأجاب: «لئلا يتمانع الناس»، وهو الحق، ذلك لأن الناس إذا كانوا لا يقرضون إلا بالربا ما وجد تعاون بينهم وعند عدم وجود التعاون حصل التمانع بينهم وإذا حصل التمانع أحضرت الأنفس الشح.

وقد بلغ الامام مرتبة قاصية من السخاء، فكان يعطي حتى لا يبقى لعياله شيئاً، وكان يقول: «لا يتم المعروف إلا بثلاثة: بتعجيله وتصغيره وستره».

وكان الصادق عليه السلام حليماً، سمحاً إلى أبعد حد، ويقابل الاساءة بالتي هي أحسن، عملاً بقوله تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾. وكان يقول: «إذا بلغك عن اخيك شيء يسوؤك فلا تغتم، فانه إن كان كما يقول فيه القائل كانت عقوبة قد عجلت، وإن كان على غير ما يقول، كانت حسنة لم يعملها».

وكان عليه السلام رفيقاً مع كل من يعامله من عشراء وخدم. يروى في ذلك: أنه بعث غلاماً له في حاجة فأبطأ فخرج يبحث عنه، فوجده نائماً، فجلس عند رأسه، وأخذ يروّح له حتى انتبه، فقال له: «ما ذلك لك، تنام الليل والنهار! لك الليل، ولنا النهار».

وكان عليه السلام يدعو الله أن يغفر لمن أساء اليه. فقد كان إذا بلغه نيل منه أو شتم له في غيبته، يقوم ويتهيأ للصلاة، ويصلي طويلاً، ثم يدعو ربه: ألا يؤاخذ الجاني، لأن الحق حقه، وقد وهبه الجاني غافراً له ظلمه. وكان يعتبر: من ينتقم من عدوه ـ وهو قادر على الانتقام ـ ذليلاً. وقد نقل عن

رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «ما نقص عَفو من عز، وما نقص مال من صدقة!».

وكان الصادق سلام الله عليه صبوراً إلى حد بعيد. فقد مات بين يديه ولد صغير له، فبكى وقال: «لئن أخذت لقد أبقيت، ولئن ابتليت لقد عافيت» ثم حمله إلى النساء، فصرخن حين رأينه، فأقسم عليهن أن لا يصرخن، ثم أخرجه إلى الدفن وهو يقول: «سبحان من يقبض أولادنا، ولا نزداد له إلا حباً». ويقول بعد أن واراه التراب: «أنا قوم نسأل الله ما نحب فيمن نحب فيعطينا، فإذا أحبَّ ما نكره فيمن نحبُّ رضينا».

وهكذا كان الصادق عليه السلام مثالاً رائعاً في كل فضيلة، وكان رجلاً مثالياً في كل صفة من صفات الكمال. فهو الامام حقاً بعلمه، وعبادته وسمو صفاته وجهاده المبين. فيجدر بفلاسفة العالَم أن يستقوا من علمه ويقتدوا بسيرته ويصححوا فلسفتهم على ضوء معارفه فيخرجوا الناس من الظلمات إلى النور. فقد قال الله تعالى: ﴿ومَن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور!﴾[1].



(١) سورة النور: ٤٠.

هل ينقذنا العلم فحسب

كانت أوروبا في القرون الوسطى تتسكع في دياجير الجهل والخرافة والانحطاط المرير نتيجة الرهبانية التي كان يتعاطاها القساوسة ورجال الدين، وانتشرت حياة العزوبة التي كانت الرهبان يزينونها للناس ويرغبون فيها، مما أدى إلى قلة النفوس وانتشار الأوبئة والأمراض في طول القارة الأوربية وعرضها، وقد دس هؤلاء الرهبان في كتبهم المقدسة معلوماتٍ بشرية ومسلمات عصرية عن التاريخ والجغرافية والعلوم الطبيعية بمقدار ما كان موجوداً في ذلك العصر، وعدوا ذلك مقررات دينية لا يمكن أن تتبدل أو تتغير، حين أن العلوم الطبيعية رهينة التجربة والبحث. ولم تكن الطريقة التجريبية متأصلة في ذلك الوقت. فجاء دور التجربة والمشاهدة والبحث على ضوء التجارب المتكررة، بالآلات والأدوات وأجهزة خاصة، فثبت إذ ذاك عدم صحة ما دوّنه الرهبان في كتبهم الدينية عن الفلك والأمطار والزوابع والرعد والبرق... إلى ما هنالك فحصل شجار وتضارب بين المكتشفات المستندة إلى التجربة والاستقراء وبين ما دوّن من الخرافات في الكتب الدينية من قبل الرهبان. أي حصل كفاح مشؤوم بين الدين والعقل، والعلم الذي انهزم فيه الدين، ذلك الدين المختلط بعلم البشر المتغير من وقت إلى وقت، ذلك العلم الذي فيه الحق والباطل والخالص والزائف هزيمة منكرة، وسقط رجال الدين في أوروبا سقوطاً لم ينهضوا بعده، وكانت نتيجة ذلك: أن أمست أوروبا لا دينية على وجه التقريب.

ولم يكتف الرهبان بما أدخلوه من معلومات بشرية زائفة في كتبهم الدينية، بل صبغوا هذه المعلومات الطبيعية أو الجغرافية الناقصة أو الزائفة صبغة دينية يجب الاعتقاد بها، ووصموا غير المؤمن بها بالكفر، حتى أنهم ألفوا كتاباً أسموه: «الجغرافية المسيحية!»: Christian geography فيه من الخرافات ما أنزل الله بها من سلطان وقالوا بكفر مَن لا يدين بها.

إلا أن علماء الطبيعة حطموا سلاسل التقليد الديني، فرفضوا هذه النظريات، الجغرافية المغلوطة وغيرها من معلومات زائفة المدوّنة باسم الدين في كتب الدين. وأعلنوا اكتشافاتهم ونتائج اختباراتهم، فقامت قيامة الكنيسة وقام رجالها المتصرفون في زمام الأمور في أوروبا، وكفروا كل من لا يؤمن بما جاء من الخرافات المدسوسة في كتب الدين، (والدين منه براء)، واستحلوا دماءهم وأموالهم وأنشأوا محاكم التفتيش التي كانت تعاقب وتُعدم أولئك الملحدين والزنادقة! أي الذين لا يؤمنوْن بمعلومات مشوشة مغلوطة جغرافية دسّت في كتب الدين باسم الدين.

وقد عاقبت هذه المحاكم (٣٠٠٠٠٠) عالم وأحرقت منهم (٣٢٠٠٠) أحياءاً، كان منهم العالم الطبيعي المعروف برونو، نقمت منه الكنيسة أراءاً من أشدها قوله بتعدد العوالم، وحكمت عليه بالقتل واقترحت بأن لا تُراق قطرة من دمه. ومعنى ذلك أنه يجب أن يُحرق حياً.

كما أنه حكم على (كاليله Galilio) بالقتل لقوله بحركة الأرض حول الشمس، ولكنه كان صديقاً للبابا وحلف بالأناجيل كلها أمام محكمة التفتيش أن لا حركة للأرض! فسجن مدة من الزمن. ونجا من الاعدام.

ونتيجة لهذا الصراع بين العلم والكنيسة قرر الثائرون من علماء الطبيعة الذين كان علمهم مستنداً إلى الطريقة التجريبية: أن العلم والدين ضرتان لا تتصالحان[1]، وان العقل والنظام الديني ضدان لا يجتمعان، فمن استقبل أحدهما استدبر الآخر، ومن آمن بأحدهما، فقد كفر بالآخر.

وإذا جاء ذكر الدين، تذكروا تلك الدماء البريئة التي أريقت في سبيل التحقيق العلمي على أساس التجربة والمشاهدة والبحث العلمي الصحيح وتلك القوة التي أظهرها رجال الكنيسة ضد العلم والعلماء. تذكروا تلك الوجوه الكالحة والعابسة التي قست على رجال البحث وأعدمتهم دون مبرر عقلي أو ديني، (لا الدين الذي تقول به الكنيسة!؟).

---

(١) وقد أسهبنا الموضوع في الجزء الأول من كتاب التكامل في الاسلام في أن لا تنافي بين الدين والعلم التجريبي.

ولم يكن عند هؤلاء الثائرين من حسن التفكير أن يميزوا بين الدين الصحيح والزائف وأن يبحثوا عن الاسلام دين الحق والعقل والتفكير الصحيح.

فلم يرسلوا مَن يبحث لهم عن هذا الدين وأعني به الدين الاسلامي، ليعلموا كيف أن الاسلام يؤيد العلم ويشجع البحث العلمي الحر، وهو قوله تعالى: ﴿ولا تقف[١] ما ليس لك به علم، ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾[٢]. ﴿أفلا يتدبرون القرآن، أم على قلوبٍ أقفالها﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار. والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماءٍ فأحيا به الأرض بعد موتها، وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾[٤].

وبقوله تعالى: ﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض﴾[٥].

وبقوله تعالى: ﴿قل سيروا في الأرض، فانظروا كيف بدأ الخلق﴾[٦].

وبقوله: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[٧].

وبقوله: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج﴾ (سورة: ق).

---

(١) ولا تقف: ولا تتبع.
(٢) سورة الاسراء: ٣٦.
(٣) سورة محمد (ص): ٢٤.
(٤) سورة البقرة: ١٦٤.
(٥) سورة يونس: ١٠١
(٦) سورة العنكبوت: ٢٠.
(٧) سورة الروم: ٢١.

وبقـوله تعـالى: ﴿أفلا ينـظرون إلى الابل كيف خلقت﴾. (سـورة الغاشية).

وبقوله: ﴿أوَ لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾. (سورة الروم).

وبقوله: ﴿يُنبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كـل الثمرات، ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾. (سورة النحل).

وبقوله: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم[1] ويتفكرون في خلق السماوات والأرض﴾. (سورة آل عمران: ١٩١).

وقوله تعالى: ﴿وكذلك يبيِّن الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾. (سورة البقرة).

وقوله تعالى: ﴿أفلا تعقلون﴾.

وقوله تعالى: ﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾. (سورة المائدة). . .

وقوله تعالى: ﴿وما يذكِّر إلا أولو الألباب﴾. (سورة البقرة).

وقوله تعالى: ﴿ويسألونك ماذا ينفقون، قل العفو[2]، كذلك يبيِّن الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾. (سورة البقرة: ٢١٩).

وقوله تعالى: ﴿قل، هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون﴾ (سورة الأنعام).

وقوله تعالى: ﴿أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجُرُز[3]، فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم، أفلا يبصرون﴾. (سورة السجدة: ٢٧).

---

(١) على جنوبهم: مضطجعين.

(٢) العفو: الفاضل عن الحاجة.

(٣) الجرز: اليابسة التي لا نبات فيها.

وقوله تعالى: ﴿كتاب أنزلناه اليك مبارك، ليدبروا آياته﴾ (سورة: ص).

وقوله تعالى: ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون﴾. (سورة الأنعام...).

وقوله تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ (سورة المجادلة).

حتى آل أمر العلماء المحدثين إلى معاداة الدين، أي دين، والكفر بما وراء الطبيعة والتمسك بالمبدء المادي والالحاد والزندقة، وانكار كل ما لا يُرى بالعين أو بالميكروسكوب، أو التلسكوب، وعدم الايمان بالغيب.

حتى قال: هكسلي صراحة في كتابه: (الانسان في العالم الحديث): «إن الجهل والعجز فقط هما اللذان يخضعان الانسان لله! فإذا ازدادت معرفته وقوته، فلا موجب إذن لفكرة الله وما يرتبط بها من عبادات... وليكن الانسان هو الله!».

ولو كان لدى المسلمين في تلك الحقبة من الزمن عددٌ وافٍ من المبشرين بالدين الاسلامي العظيم فذهبوا إلى أوروبا، وقرأوا على الناس الآيات القرآنية التي تؤيد اكتشافات العلماء المحدثين:

﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون﴾[2]، ﴿كلٌ يجري إلى أجلٍ مسمى﴾[3]... ﴿الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها، ثم استوى على العرش، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى، يدبِّر الأمر يفصِّل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾[4].

---

(١) سورة يس: ٢٨.
(٢) سورة يس: ٤٠.
(٣) سورة الرعد: ٢.
(٤) سورة الرعد: ٢.

﴿وترى الجبال تحسبها جامدة، وهي تمرُّ مرَّ السحاب، صنع الله الذي اتقن كل شيء﴾[1].

﴿ألم تروا أن الله يزجي[2] سحاباً ثم يؤلف بينه[3]، ثم يجعله ركاماً فترى الودق[4] يخرج من خلاله، وننزل من السماء من جبال فيها من برَد نصيب به من عبادنا من نشاء ونصرفه عمن نشاء، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار﴾[5].

﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون﴾[6].

﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾. (سورة الذاريات: ٤٩).

﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب﴾. (سورة المعارج: ٤٠).

﴿يخلقلكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث﴾. (سورة الزمر: ٦). إلىٰ آيات كونية أخرى تبلغ ٧٥٠ آية، هي عصارة المكتشفات الحديثة وما سيكتشف في مستقبل قريب أو بعيد، لأسلمت برمتها ولآمنت بالدين الاسلامي: دين العلم والعقل والعلم الصحيح. هذا الدين الذي ﴿يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلُّ لهم الطيبات ويحرِّم عليهم الخبائث ويضع عنهم أصرهم[7] والاغلال التي كانت عليهم﴾. (سورة الأعراف: ١٥٧).

فاتجه الغرب، نتيجة تصرفات الكنيسة الخاطئة وتقاعس المسلمين عن التبشير بالاسلام، إلى المادية بكل ما تتضمنه هذه الكلمة من عقيدة ووجهة

---

(١) سورة النمل: ٨٨.

(٢) يزجي: يسوقه برفق.

(٣) أي يتكاثف البخار، فتقترب أجزاؤه بعضها من بعض نتيجة البرودة وتأين الهواء (الكهربائية).

(٤) الودق: المطر...

(٥) سورة النور: ٤٣.

(٦) سورة الحاقة: ٣٩.

(٧) القيد والتكاليف الشاقة.

نظر ونفسية وعقلية وأخلاق واجتماع وعلم وأدب وسياسة وحكم بصورة تدريجية، فأنكر العلماء المحدثون كل شيء وراء المادة، وقالوا ان المادة هي الخلاقة والمفكرة والمدبِّرة والمحيط (أو البيئة) هو المؤثر الوحيد العالي التفكير والمديراللبيب والمهندس البارع المبدع دونما نظير، فصاروا يستهزؤون بكل نظرية تبرهن على وجود الباري جل جلاله وأسموها الطريقة التقليدية البالية الخرافية التي لا تجدي نفعاً ولا تكشف شيئاً. جحدوا كل شيء وراء الحركة والمادة، وأبوا الايمان بكل ما لا يأتي تحت الحس والاختبار ولا يدخل تحت الوزن والمساحة والزمان أو لا يقاس بالغرام والسانتيمتر والثانية، فأصبح عندهم الايمان بالله وبما وراء الطبيعة من قبل المفروضات أو المواضيع التي لا يؤيدها العقل ولا يشهد بها العلم.

نعم، قد بقي ثلة من الناس في أوروبا يؤمنون بالغيب ولكن منهج التفكير كان ينكر ذلك ولا يؤدي بالايمان بالله والوحي والنبوات والحياة الأخروية، ذلك لأنه لا شيء من المذكورات يدخل تحت منهجهم الفكري الذي لا يؤمن إلا بالحس والاختبار، وما يصدقه القياس الزمني: الثانية.. والقياس البعدي: السانتيمتر... والقياس الوزني: الغرام... فصاروا يزدادون كل يوم شكاً في العقائد الدينية!!...

ونتيجة لهذا التفكير المنهجي نهض الكتّاب والمؤلفون يؤيدون وجهة نظر المادية ويكتبون كتباً اجتماعية تؤيد النواحي المادية في الحياة، وان لا شيء وراء المادة أو الطبيعة العمياء! ويفسرون الأخلاق تفسيراً مادياً وينشرون الفلسفة النفعية وفلسفة اللذة الأبيقورية(Epicure) ويقولون: ان الفكر من نتائج المادة[1].

وقد جعل هؤلاء الحواس الخمسة أساساً للمعلومات والعلم أي علم حين

(١) قد علم أخيراً أن لا تناسب بين حجم المخ وقوة التفكير. فمخ الاسكيمي أضخم لو قيس بحجم بدن صاحبه، ويأتي بعده مخ اليابانيين. وقد وجد ان أصغر مخ هو مخ العبقري الايطالي: (دانتي). وعلم كلما ابتعد الشيء عن حالته المادية وآل أمرها إلى الاشعاع والقوى والطاقات كان أكثر فعالية وانتاجاً وتأثراً.

أنه يقول (لنكولن بارنت): «ان ما يدركه الانسان عن الحقيقة التي تحيط به محدود بسبب عجز جهاز الابصار عنده. ولو أن عينه كانت أكثر حساسية، فتدرك مثلاً موجات الأشعة السينية(Rayons X) لبدت له الدنيا مختلفة تماماً عما يراها الآن».

ثم ان السياسيين دعوا إلى فصل الدين عن السياسة، وقالوا: ان الدين إذا كان لا بد منه، فإنما هو قضية شخصية، لا ينبغي أن يتدخل في أمور السياسة، ولا معنى لتشكيل دولة على أسس دينية[1]!؟ وان النصرانية إنما موضوعها الحياة الأخروية، والمتدينون لا يفيدون الدولة في شيء وان كان وجودهم يفيد الكنيسة لتقيدهم بأحكام دينهم، والملوك والأمراء لهم أن يكذبوا ويخونوا وينقضوا العهود والمواثيق إذا اقتضت الحالة ودعت سياسة الوقت إلى ذلك.

فالكذب والخيانة والغش والنفاق دعائم لكل دولة تريد أن تعيش، وهكذا أولدت الفكرة المادية فصل الدين عن الدولة وأوجدت سياسة الغش والكذب.

وثار المؤلِّفون على الأخلاق القديمة والنظم الاجتماعية السابقة وزيَّنوا للناس الإثم والفحشاء والمنكر والشهوات والنزوات ودعوا الناس إلى التهام الحياة البهيمية وإرضاء الشهوات وانتهاب المسرات، فكانت المراقص ودور الخمور والفجور. وصار الغرب يؤمن بكل ما يحمل «خاتم» التجريب ويأخذونه قضية مسلمة لا تحتمل الشك أو التأويل، أما ما لا يخضع للمعمل فهو خرافة أو هو على الأقل شيء ساقط عن الحساب، ولما كان الله سبحانه وتعالى لا يدخل إلى المعمل! ولا يخضع للتجريب العلمي! فقد استغنوا عنه وأعلنوا أنه غير موجود!.

نعم، قد فعلت هذه الموجة الالحادية العاتية الغاشمة فعلها وانتشرت

(١) كما كان في صدر الاسلام والناس في دعة واطمئنان، قد نالوا سعادة الدنيا ونعيم الأخرة.

كالنار في الهشيم وأدى ذلك إلى تقسم الدين وانهيار الأخلاق والتقاليد وتلوث كل تراث بشري في حقل النبل والأخلاق والفضائل.

* * *

ثم إن هؤلاء العلماء الماديين قد فسروا نظرية (دارون) تفسيراً خاطئاً يحقق ميولهم المادية، وقالوا بالتولد الذاتي، حين أن (دارون) نفسه كان يعزو نظريته التكاملية إلى خالق مدبِّر عظيم، نظم هذه الخطوات التكاملية التي لا تعدُّ ولا تحصى اعتباراً من آميبا: (الكائن الحي ذي الخلية الواحدة) إلى ما هنالك من نباتات وحيوانات تكاد لا تتناهى. إذن هذه الخطوات من الدقة والتعقيد ما يحيِّر الألباب. وهي من التنوُّع وتعدد المراحل ما ينفي الصدفة ويجعلها في مرتبة الصفر على ما ثبت في حساب الاحتمالات من أبحاث الرياضيات العالية، حقاً ﴿إن الانسان لربه لكنود، وأنه على ذلك لشهيد﴾[١]. ﴿أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى، إنما يتذكر أولوا الألباب﴾[٢]، إن هذا الانسان يمر كل يوم على آيات وشواهد على عظمة الله تعالى، تكاد لا تتناهى، يمر عليها معرضاً عنها، غير معتبر بها لغشاوة على عينيه من جراء ما تلوثت به يداه من أجرام وآثام وفسوق وفجور، نعم، ﴿وكم من آيةٍ في السماوات والأرض يمرون عليها وهم مُعرضون﴾[٣]. ولكن الله تعالى يمنُّ على هذا البشر بأنواع الآيات كل يوم لعل هذا الانسان يرتدع عن غوايته: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبينَّ لهم أنه الحق، أوَ لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾. (سورة حم: سجدة: ٥٣).

* * *

وجاء فرويد، بعد (دارون) بنصف قرن، فزاد في الطين بلة وصوَّر

(١) سورة العاديات: ٦ ـ ٨.
٢ سورة الرعد: ١٩.
(٣) سورة يوسف: ١٠٥.

(الانسان حيواناً عرياناً لا حياء له[1]، حيواناً عرياناً من كل خُلق ومن كل دين ومن كل شعور نظيف، وقال: ليس هنالك حقيقة في العالم إلا الشهوة والشعور بالجنس، فالجنس هو كل شيء، وكل شيء نابع عن الجنس! الطفل يرضع ثدي أمه بلذة جنسية! ويتبوَّل ويتبرز بلذة جنسية، ويحرك عضلاته بلذة جنسية، ويرتبط بأمه بشعور جنسي، كما ترتبط الطفلة الأنثى بأبيها بشعور جنسي. وهكذا ينمو هذا الشعور الجنسي مع نمو الطفل، فلا معنى للكبت، وليعمل كل من الجنسين لتحقيق اللذة الجنسية كيفما كان، دون قيد وشرط!!...

لقد تلقف الشباب بصورة خاصة تعاليم فرويد وتشبثوا بها تشبثاً وراحوا يوسعون رقعتها في كل اتجاه.

نعم، دعا (فرويد) إلى العلنية في ممارسة الجنس من دون خجل، وأضفى الصيغة الشرعية على سلوكه البهيمي، وتخصص قسم من الأدباء في تحبيب ممارسة الجنس إلى الشبان بطريق غير مشروع أمثال: (و. هـ: لورنس)، ونظموا موسيقى كاملة في إثارة الجنس والتعبير عنه بشتى صنوف التعبير مع مصحوبة بالرقص وحركاتٍ شهوانية، وكانت نتيجة ذلك أن اسودت القلوب وادلهمت النفوس، فاتجه العلماء المحدثون، هؤلاء الذين تشبعت أفكارهم بعبادة الطبيعة العمياء وتلوثت نفوسهم بأنواع الموبقات إلى الطريقة العلمانية في الدولة والشؤون الاجتماعية والاعتقاد بأن العلم البشري والقوانين الوضعية كافيان للكمال البشري، وان ليس وراء المادة شيء، ولم ينزل الله تعالى من السماء كتاباً يهدي الناس سواء السبيل، كل ذلك لاتباعهم هوى نفوسهم، فكان أمرهم فرطاً: على حد قوله تعالى: ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه، وكان أمره فرطاً﴾[2]

---

(١) جاء في الحديث عن النبي (ص): الاسلام عريان ولباسه الحياء. وفي حديث آخر: «لا إيمان لمن لا حياء له».

(٢) فرطاً: اسرافاً.

(٣) سورة الكهف: ٢٨.

ثم أن الثورة الصناعية الكبرى التي قضت على المعامل الصغرى في القرى والأرياف أدت إلى نزوح القرويين إلى المدن ابتغاءاً للرزق، وانطلق هؤلاء العمال إلى الفسق والفجور وأوغلوا في البغاء، وبعد أن اطمأنوا إلى حياتهم الجديدة أرسلوا إلى أسرهم لتلحق بهم في المدن، إلا أن هذا لم يقض على الضرورة التي كانت من قبل، بل ظلت قائمة للأجيال الجديدة التي رأت فيها طريقة سهلة للتخلص من وطأة الجنس بغير تبعات. وأصبح البغاء بصوره المختلفة من أول الصداقة الفردية إلى بيع الجسد لكل راغب هو المتعارف في الأوساط. وسمي هذا تطوراً يتفق ومفاهيم العصر الحديث... وما عداه خرافة وتقاليد بالية يجب على المثقف أن يتركها ليعدَّ من المثقفين!.

ثم ان النساء بحكم الضرورة التحقن بالمعامل أيضاً، ذلك لأن رواتب الرجال كانت قليلة، والبغاء كان منتشراً إلى حد بعيد مما منع الشاب من التزوج إلى مدة مديدة، فزاد التحاق النساء بالمعامل مع الرجال جنباً إلى جنب في الفحشاء والمنكرات مما لوَّث النفوس وأبعدها عن عالم التكامل النفسي أيما إبعاد.

فماتت النفوس من جراء تلوثها بأنواع الموبقات على الشواطىء والطرقات والترام وفي كل مناسبة، فصارت، لادلهمامها، لا تؤمن إلا بالمادة وهذا العلم المادي، وزعمت أن العلم المادي هو الكمال المطلق وأنه موصل هذا الانسان إلى الكمال المنشود، أنه هو المعبود الذي يجب أن يعبد وهو حلال المشكلات.

فالعلم المادي هو الأخلاق الفاضلة وهو غذاء الروح وموصل هذا الانسان إلى غاية الغايات.

فالأنبياء والوحي والجنة والنار والبعث والحساب والاعتراف بالذنب والغفران ومفاهيم خرافية أولدتها جهالة القرون الوسطى والأولى، قضى عليها العلم المادي حيث لا رجعة ولا عَود.

وهكذا تحجرت النفوس، فنشأت المذاهب المادية وعلى رأسها مذهب ذوي العاهات على حد تعبير الأستاذ المرحوم عباس محمود العقاد، حين أنه لا رابطة بين العلم المادي والتكامل النفسي بوجه من الوجوه، ولكن شهوة

التجريب لم تقف بالتجريبيين عند المادة، ميدانهم الأصيل، بل راحوا يجربون في كل شيء وكل ميدان حتى عَنَّ لهم في مبادىء هذا العصر أن يجعلوا النفس مادة للتجريب يخضعونها لتجارب العمل والمختبرات، ويستنتجون من هذه التجارب قوانين يحكمون بها النشاط النفسي ويفسرون بمقتضاها الانسان والانسانية! وصاروا يخضعون حتى المعنويات لتجارب المعمل للوصول إلى حقائق موضوعية ثابتة!.

* * *

التكامل النفسي إنما هو نتيجة تعاليم روحية تؤدي إلى كمال النفس الانسانية وهي ليست من العلم المادي أي من السانتيمتر والغرام والثانية في شيء... إنما هو دساتير روحية تكاملية قررها الله تعالى على لسان أنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

ذلك، لأن العلم المادي إنما هو نتيجة التجربة والاختبار والمشاهدة والمقارنة والاستقراء والاستنتاج والتجريد والتعميم إلى ما هنالك من فعاليات ذهنية لا تتصل بالنفس من حيث السمو والضعة أو التكامل والتسافل في شيء فان عملية:

$$\text{٣}^{\text{ن}+\text{١}} \times \text{٣}^{\text{ن}-\text{١}}$$

أو رسم المنحني: القطع الزائد : $\frac{\text{س}^{\text{٢}}}{\text{ب}^{\text{٢}}} - \frac{\text{ع}^{\text{٢}}}{\text{حـ}^{\text{٢}}} = \text{١}$

أو رسم القطع الزائد المجسم: $\frac{\text{س}^{\text{٢}}}{\text{ب}^{\text{٢}}} + \frac{\text{ع}^{\text{٢}}}{\text{حـ}^{\text{٢}}} - \frac{\text{ص}^{\text{٢}}}{\text{د}^{\text{٢}}} = \text{١}$

أو حل معادلة تفاضلية: (Equation différentielle) أو مسألة فيزيائية أو كيميائية، كل ذلك يجري من قبل النفوس بأجمعها دون تفريق بين المتعالية منها أو المتسافلة، المتألهة منها أو الملحدة، المتصفة منها بأخلاق ملكوتية أو المتردية باغواءات شيطانية، فلا تؤثر تجربة كيميائية أو عملية حسابية أو معادلة

تفاضلية: Equations différentielle أو دستور كسوف الشمس أو دساتير ليبنيتز في التحليل الرياضي Analyse Mathématique في سمو النفس أو تسافلها، إنما يتأتى سمو النفس بالقيام بأعمال صالحة من مساعدة الغير وخدمة الأبوين والأرحام والقيام بحوائج الناس بصورة سرية ولوجه الله تعالى ونكران الذات في سبيل الخير والتضحية لانقاذ الآخرين والمثول بين يدي رب العالمين بخشوع وخضوع وصلوات مقبولة والتهجد جوف الليل ببكاء وخنوع، وبتزكية النفس من أدرانها وأوساخها على ما قرره الشرع[1] وإعطاء فضول الأموال إلى الفقراء والمعوزين، لا سيما الأرحام إلى ما هنالك من واجبات ومستحبات يطول ذكرها.

فالعلم مجرد عملية ذهنية وفكرية لا تمت إلى صناعة تهذيب النفس وتكاملها بصلة.

يقول (ماريت ستانلي كونجدن) وهو عالم أمريكي معاصر ـ في مقال له بعنوان: (درس من شجيرة الورد): «إن العلوم حقائق مختبرة، ولكنها مع ذلك تتأثر بخيال الانسان وأوهامه ومدى بعده عن الدقة في ملاحظاته وأوصافه واستنتاجاته، ونتائج العلوم مقبولة داخل هذه الحدود، فهي بذلك مقصورة على الميادين الكمية في الوصف والتنبؤ. وهي تبدأ بالاحتمالات وتنتهي بالاحتمالات كذلك... وليس باليقين... ونتائج العلوم بذلك تقريبية وعرضة للأخطاء في القياس والمقارنات، ونتائجها اجتهادية، وقابلة للتعديل بالاضافة والحذف... وليست نهائية».

ويقول سير (جيمس جينز) عالم الطبيعيات والرياضيات:

«لقد كان العلم القديم يقرر تقرير الواثق أن الطبيعية لا تستطيع أن تسلك إلا طريقاً واحداً: وهو الطريق الذي رسم من قبل لنسير فيه من بداية الزمن إلى نهايته. وفي تسلسل مستمر بين علة ومعلول. وانه لا مناص من أن الحالة: (أ) تتبعها الحالة (ب). أما العلم الحديث فكل ما يستطيع أن يقوله حتى الآن هو: أن الحالة (أ) يحتمل أن تتبعها الحالة (ب) أو (حـ) أو (د) أو

---

(١) قال علي عليه السلام: «ليس الدين بالرأي، إنما هو اتباع».

غيرها من الحالات الأخرى التي يخطئها الحصر. نعم، إن في استطاعته أن يقول: أن حدوث الحالة (ب) أكثر احتمالاً من حدوث الحالة (حـ) وان الحالة (حـ) اكثر احتمالاً من الحالة (د)... وهكذا. بل ان في مقدوره أن يحدد درجة احتمال كل حالة من الحالات ب() و(حـ) و(د) بعضها بالنسبة إلى بعض. ولكنه لا يستطيع أن يتنبأ عن يقين: أي الحالات تتبع الأخرى. لأنه يتحدث دائماً عما يحتمل. أما ما يجب أن يحدث فأمره موكول إلى الأقدار».

وقد يكون العلم مع نفس مترديه آلة تخريب وفساد: ﴿والله لا يحب الفساد﴾[1]. وقد قال علي عليه السلام: «كثرة العلم في غير طاعة الله مادة الذنوب».

فالعلم يكون وسيلة تخريب وهدم ان لم تتحلَّ النفوس بمكارم الأخلاق وفضائل الخصال على ما قرره الشرع ووفق ما يريده الله تعالى وهو العارف بطرق تكامل النفوس.

وكم من عصابات في أمريكا وغير أمريكا تقوم بأعمال منكرة من اختطاف البنات أو البنين وسرقات خطيرة، فيسرق ما في المصارف والبنوك التجارية بشتى الوسائل من قبل عصابات هم من خريجي المدارس العالية!!.

والجيل الناشىء في أوروبا يعاني أقصى درجات التحلل والانحدار!. فعصابات للخطف والسلب والنهب والاغتصاب، عصابات من الأطفال لمهاجمة القطارات وقذف نوافذها بالأحجار، عصابات ـ من الأطفال ـ تضع الأحجار على القضبان لتخرج من عليها القطارات! عصابات الحشيش والأفيون وبقية المخدرات. «التزويغ» من دفع أجرة الركوب.. كل الرذائل التي يمكن أن يتصورها الانسان!...

ولقد علمت أن أستاذاً في الفيزياء العالية نال مكافأة ثمينة على مؤلف خطير، فأنفد المكافأة في شهواته ونزواته وابتلى بمرض السيفيليس ومات وهو مجنون، وآخر مع كونه دكتوراً في التربية وعلم النفس كان يشرب الخمر

(١) سورة البقرة: ٢٠٥.

ويستمر في العربدة حتى يُمسي مهزلة للآخرين وآخر دكتوراً في مواضيع ثلاثة كان يفتحر بارتياده دور البغاء ويقول متبجحاً. . . :

ليس لهذا العلم المادي تأثير في توجيه الشباب نحو الكمال والأخلاق الفاضلة وضبط النفس عن الولوج في الشهوات والموبقات. كان يقول كندي: «إن الشباب الأمريكي مائع منحل مترف غارق في الشهوات، وانه من بين سبعة شباب يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين بسبب انهماكهم في الشهوات، وانذر بأن هذا الشباب خطر على مستقبل أمريكا، وأهاب بالعلماء والمصلحين الاجتماعيين أن يبحثوا هذا الخطر ويقرروا العلاج».

يقول (ول ديوارنت): «إن اختراع موانع الحمل وذيوعها هو السبب المباشر في تغيير أخلاقنا. فقد كان القانون قديماً يقيد الصلة الجنسية بالزواج لأن النكاح يؤدي إلى الأبوة بحيث لا يمكن الفصل بينهما، ولم يكن الوالد مسؤولاً عن ولده إلا بطريق الزواج، أما اليوم فقد انحلت الرابطة بين الصلة الجنسية وبين التناسل وخلقت موقفاً لم يكن آباؤنا يتوقعونه، لأن جميع العلاقات بين الرجال والنساء آخذة في التغيير نتيجة هذا العامل، ويجب على القانون الأخلاقي في المستقبل أن يدخل في حسابه هذه التسهيلات الجديدة التي جاءت بها الاختراعات لتحقيق الرغبات المتأصلة».

حتى أن في بعض الدور التي أعدت للعبادة والصلاة، فبعد أن ينتهي الأب من الموعظة في الكنيسة الأمريكية، يطفيء الأنوار الكبرى ويضيء المصابيح الخافتة المغرية بالخلسة ويدير اسطوانات الرقص للشباب والفتيات بنفسه. وهكذا تعمل النظرية القائلة: دعه يعمل: (Laissez faire) بلا حواجز. فأدت إلى تفسخ مرير في الأخلاق والأنفس.

وهكذا نرى أن ليست هنالك أية صلة بين الكمال النفسي، وما يتعلمه الانسان من دساتير في الفيزياء والكيمياء وما يكتشفه من قوانين في الفلك أو الرياضيات أو دساتير تتعلق بعلم الاجتماع أو علم آثار النفس أو ما يضعه من قوانين لتنظيم شؤون الناس. انهما: أي الكمال النفسي والانتاج العلمي وأعني به العلم المادي أو القوانين البشرية الموضوعة، من واديين مختلفين.

فالكمال النفسي يتأتى من تطبيق دساتير السماء ومراقبة النفس في خلواتها والخشوع امام عظمة الله التي لا تتناهى والاستغفار بشتى أنواعه، والآخر، وأعني به العلم المادي أو الثقافة العصرية صيغاً ذكائية وفكرية يقوم بها العالم المادي، بغية الكشف أو نيل درجة في الأوساط الاجتماعية أو الشهرة بين الناس.

ولا مراء أن الانسان مهما سما وتعالى لا يأتي بمنن أخلاقية رصينة ودساتير تكاملية ناصعة لنقائص في نفسه، فوجب أن يتبع العالم المادي سنن الأنبياء (ع) لو أراد التكامل الناصع الذي لا شائبة فيه، لأن الله تعالى هو الذي وضع سنن تكامل النفس الانسانية وأوحاها إلى أنبيائه (ع) ليهدوا الناس سواء السبيل.

فالعلم المادي والتعرف إلى ما أودع الله تعالى من دساتير في عالم الفيزياء والكيمياء وفي الميكانيك السماوي والأرضي ومن قابليات النمو والتكاثر والتنوع في حياة النبات والحيوان يزيد في إيمان الشخص ويعطيه من الاطمئنان ما ترتاح له النفوس، فالعلوم الطبيعية منافذ ينفذ منها التفكير الانساني ليرى ما أودع الله تعالى من دقيق الصنع في هذا الكون الرحيب.

فالمعارف الالهية وتعاليم الأنبياء (ع) تفتح القلوب وتجعلها مندرجة نحو الكمال المنشود.

فقد قال علي عليه أفضل الصلاة والسلام، بالنسبة إلى المعارف الالهية ومعرفة الله تعالى، إلى كميل:

«يا كميل، ان هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها للعلم، أحفظ عني ما أقول لك: الناس ثلاثة، عالم رباني ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعاع[1]، أتباع كل ناعق عاوٍ يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا إلى ركن وثيق».

---

(١) همج رعاع: الهمج ذباب صغير كالبعوض، تقع على وجوه الغنم، والرعاع: الاحداث الطغام أي أوغاد الناس.

هؤلاء الذين يميلون مع كل ريح هم أولئك الماديون المثقفون بثقافة العصر، من طب وكيمياء وفيزياء ونبات وعلم طبقات الأرض... إلى ما هنالك فلم يتعرفوا إلى المعارف الالهية وعوالم ما بعد الطبيعة ولم يعملوا لأجل التدرج في عوالم تكامل النفس، فصاروا أشبه شيء بدابة همها علفها، لم يستضيئوا بنور العلم الالهي ولم يلجأوا إلى ركن وثيق، فصاروا لا يخشون الله تبارك وتعالى مع كونهم من العلماء في عوالم المادة، فلا ينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾[1]، ذلك لأن المراد في هذه الآية من كلمة «العلماء» أولئك الذين يذكرهم علي عليه السلام بقوله: «فخيرها أوعاها للعلم».

نعم، ان هؤلاء قد قست قلوبهم وصار عليها غشاوة حجبت عنهم مشاهدة أنوار القدس من جراء أنواع الفسوق والآثام. وقد جاء في الحديث: «ما ضُرب ابن آدم بعقوبة أشد من قسوة القلب» وان القلب ليقسو من:

١ ـ ترك ذكر الله تعالى.

٢ ـ كثرة الأكل والشرب، ففي الحديث: لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب، فان القلب يموت كالزرع إذا كثر عليه الماء.

٣ ـ لقمة الشبهة، أي من مال مشكوك حليته أو من مال غير مزكى أو غير مخمّس، الخ، ففي الحديث: «في حلالها حساب وفي حرامها عقاب وفي الشبهات عتاب».

٤ ـ كثرة أكل اللحم، ففي الحديث: «لا تجعلوا بطونكم قبور الحيوانات».

٥ ـ التعجيل في الأكل.

٦ ـ كبر اللقمة.

٧ ـ تأخير الصلاة عن وقت الفضيلة، ﴿ويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾[2].

---

(١) سورة فاطر: ٢٨.

(٢) سورة الماعون: ٤ ـ ٥

٨ ـ كثرة الكلام، لقوله تعالى: ﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾[١].

٩ ـ الأكل بالشمال، أي: باليد اليسرى.

١٠ ـ كثرة النوم، لقوله تعالى: ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾[٢].

١١ ـ كثرة الضحك، ففي الحديث: «لا يكمل إيمان أحدكم حتى يترك المزاح جدَّه وهزله».

١٢ ـ الهمُّ بالدنيا للدنيا، لقوله تعالى: ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد، متاع قليل، ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾[٣].

١٣ ـ طول الأمل. ففي الحديث عن رسول الله (ص): «إن أخوف ما أخافه عليكم اثنان، اتباع الهوى وطول الأمل، أما اتباع الهوى، فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة».

١٤ ـ كثرة المال، لقوله تعالى: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً﴾[٤]، ولقوله تعالى بالنسبة إلى قارون: ﴿فخرج على قومه في زينته، قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون، أنه لذو حظ عظيم، وقال الذين أوتوا العلم[٥] ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً، ولا يلقاها إلا الصابرون، فخسفنا به وبداره الأرض. فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله، وما كان من المنتصرين﴾[٦].

١٥ ـ مجالسة الأنذال، فقد جاء في الحديث: «عاشروا مَن يذكِّركم الله».

١٦ ـ الخلوة بالنساء. فان الشيطان هو الثالث لهما كما جاء في مضمون حديث.

---

(١) سورة المؤمنون: ٣.
(٢) سورة الذاريات: ١٧.
(٣) سورة آل عمران: ١٩٦ ـ ١٩٧.
(٤) سورة الكهف: ٤٦.
(٥) يراد بهذا العلم: المعارف الالهية.
(٦) سورة القصص: ٧٩ ـ ٨١.

١٧ ـ مجالسة الأغنياء.

١٨ ـ مجالسة الضال والجائر في الحكم. ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا، فتمسّكم النار﴾[١].

١٩ـ ترك مجالسة العلماء، فقد جاء في الحديث: «النظر إلى وجه العالم عبادة».

نعم، إذا ماتت النفوس بشهواتها ومراقصها واستهتارها، شقيت، وللشقي علامات وأمارات، فعن رسول الله (ص): «علامات الشقاء أربعة: نسيان الذنوب السابقة، وذكر الحسنات الماضية لا يدري، قبلت أم رُدَّت والنظر إلى مَن فوقه في الدنيا، والنظر إلى مَن دونه في الدين».

* * *

يقول (روبرت هتشنس) بالنسبة إلى العلم المادي: «لقد بلغ العلم في آن واحد إلى الأوج في المعرفة والتكنولوجيا[٢] والتحكم في الطبيعة، وإلى الحضيض في حياته الأخلاقية والسياسية».

فهذا القول إن دل على شيء، فإنما يدل أن ليس للعلم المادي، ومختلف الدساتير في الرياضيات أي أثر في توجيه الانسان نحو الكمال وإيجاد سياسة عالمية ترتاح لها النفوس ويرتضيها الله تبارك وتعالى.

ويؤيِّد ما أقول: قول أحد أعضاء مجلس الوزراء الأمريكي «أندرسن» (وهو رجل في مقتبل عمره، متمالك لقواه العقلية وقد كان أستاذاً للقانون): «إذا كان للانسان أن يحكم على نفسه بشكل موثوق، فان المقاييس التي يستخدمها للحكم على سلوكه يجب أن تكون، بالضرورة، من الطراز الذي يتعدى قدرته على تحويرها أو تحديدها، إذ لو أعطي القدرة على تحديد هذه المقاييس لأضحت حتماً ما يريدها أن تكون، وعليه، فان ما لدي الآن من

(١) سورة هود: ١١٤.

(٢) التكنولوجيا: Technologie العلم الذي يبحث عن تاريخ وأصول الفنون والصنايع على اختلاف أنواعها.

قدرة غير محدودة على تبرير الأمور قد يجعل الأكاذيب تبدو عند ذاك وكأنها حقائق، والخديعة وكأنها تتجلبب ثوب الشرف، والاضطهاد وكأنه يستخدم مكان العدالة، هذه بالنسبة إليَّ، هي الخطيئة الكبرى للفلسفات المادية والانسانية ولكل منهج فلسفي آخر لا يقر بوجود مستقل لقيم أخلاقية وروحية مطلقة. . . هذه القيم هي روحية مطلقة لا مادية نسبية، وهي أعلى وأبعد من أن يصل إليها الانسان في تطوره. وعلى الانسان أن يدرك أنها قيم ثابتة أزلية من صنع الله. وعليه أن لا يتصور أنها ملك خاص لعقله يكيفها لتنطبق على كل حالة عارضة. وعلى هذا فإننا نؤكد اعتقادنا بوجود مصدر إلهي للقيم الروحية المطلقة، ونرى أنه لا يجوز للانسان أن يعمل فيها يد الهدم والتخريب»[١].

ولو كان قد تشرف (أندرسن) بالدين الاسلامي العظيم لوجد في الاسلام من التعاليم ما يجعله أن يقول: ان حياة الانسان في النشأتين تتوقف على اعتناقه دين الاسلام. فهو حقاً، حياة القلوب: ﴿يا أيها الذين آمنوا، استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾[٢]. ﴿أوَ من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها، كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون﴾[٣].

* * *

العلم المادي لا يرتقي بالنفوس إلى معالم القدس ولا يعترف بالغيب، والاعتراف بالغيب إنما هو رشحات النفوس الزكية، تلك التي اتصفت بالتقوى: ﴿ألم، ذلك الكتاب لا ريب فيه، هدى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب﴾[٤].

كيف يؤمن بالغيب من أظلمّت نفسه بالمادية الصماء، كيف يؤمن بالغيب

1 — R. B. Anderson., Time, October 26. 1953. P. 27.

(٢) سورة الأنفال: ٢٤.

(٣) سورة الأنعام: ١٢٢.

(٤) سورة البقرة: ١ ـ ٣.

من اتخذ الفحشاء شعاراً والخمرة دثاراً. لا يؤمن بالغيب إلا الأتقياء الخاشعون فلا بد للمؤمن بالغيب من خشيةٍ في خلواته: فيما بينه وبين ربه، فان لم يكن هناك خوف وخشية فلا قبول للمعارف الالهية، بل يقوم مقامه الجحود والاستهزاء. وقد جاء في الحديث: «رأس الحكمة مخافة الله». ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ضياءاً وذكراً للمتقين، الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون[1]﴾[2].

* * *

فالفرق بالنسبة إلى الأخلاق والعقيدة في القديم والجديد أنه قد وجدت مذاهب ونظريات في القديم كانت تبرر الانحراف والتحلل دون أن تلبّس ثوباً علمياً. ولكن اليوم تلبس هذه النظريات والمذاهب الهدامة للنفوس والمميتة للأرواح ثوباً علمياً ويبرهن على صحتها بما يترشح (من عنديات) من نفوس أظلمت بفجورها ومجونها، فأصبحت مدلهمة لا ينفذ اليها بصيص من نور الحق والواقع.

وقد يُغري الشاب مجاملة بعض الغربيين لا سيما أهل فرنسا. فيقول: أنهم ظرفاء، مهذبون. نعم، أنهم ظرفاء للمنفعة. فحين يستقبلك أهل باريس بالأدب والظرف و(الأتيكت) ويمنحونك عواطفهم إنما يريدون أن تنفق في فرنسا أكثر ما تستطيع إنفاقه من النقود!.

* * *

إن الله تعالى يفتح على هذا الانسان أبواب رحمته كي يقربه من الاعتراف بالغيب ولكي يزيد في إيمانه بشتى الطرق، ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾[3] ﴿سأريكم آياتي، فلا تستعجلون﴾[4]

(١) مشفقون: خائفون.

(٢) سورة الأنبياء: ٤٨ - ٤٩.

(٣) حم - سجدة: ٥٣.

(٤) سورة الأنبياء: ٣٧.

ومنها: الرؤيا. فكم من رؤيا تشير أن هناك عالماً آخر وراء المادية الحالكة وأن المدبِّر للأمور هو الله تعالى. . .

فقد ذكر لي أحدهم أنه رأى والده في عالم الطيف يقول له: ولدي، إن لصديقي: (الروحاني) مشكلة، عليك أن تحلها وتدفعها عنه.

يقول: فذهبت عند الصباح إلى بيته ورأيته قد حمل بساطاً له في سيارة يريد الذهاب به إلى السوق ليبيعه، فيقضي دينه الذي طولب به حثيثاً فسألته عن مقدار الدين، فقال لي (١٠٠) دينار. فدفعت إليه المبلغ امتثالاً لأمر والدي. وأرجعت بساطه إلى بيته.

كيف يفسر لنا المادي هذا الطيف مع أن الرجل يدعي أنه لم يلاق (الروحاني) منذ أكثر من ستة أشهر.

ذكر لي أستاذي في الأصول أنه ضايقه صاحب الدار ببدل الايجار مضايقة شديدة، وهو لا يملك ما يدفع به بدل الايجار، فأمسى في قلق شديد. وصار يتوسل إلى الله تعالى في أن يمنّ عليه بحلٍّ مشكلته، فإذا بالباب تطرق، يفتح الباب، فيرى صاحب الدار قد جاء معتذراً قائلاً: «إبقَ في الدار ما شئت، ولا أطالبك بعد هذا بشيء، ذلك لأني رأيت في عالم الرؤيا مَن يُهددني بالقضاء عليَّ والهلاك إن أنا طالبتك بشيء من بدل الايجار».

أنى للصدفة أن تلعب دوراً في هذه الرؤيا مع تنوع المراتب والمراحل، وإن حساب الاحتمالات كما أسلفنا، يجعل الصدفة في مرتبة الصفر لو تعددت المراحل، وقد جُرِّب أن الشخص لو فكَّر في موضوع فأنه لا يراه كما يريد في طيفه، خلافاً لما يظنه البعض.

فالايمان بالغيب لا يرتضيه المادي ولا يعترف به ويراه خرافةً ورجعية وتقهقراً إلى ما هنالك من تعابير. وأن اختلاف التعابير وتعددها لا ينفي ما هو واقع مشاهد كالملموس. كيف يؤمن بالغيب من أظلمت نفسه وتلوثت جوارحه ولم يفكر في توبة أو تكفير، فان الذنوب إذا تراكمت أصبحت حجاباً

حاجزاً دون رؤية الحق والواقع، فيصدأ القلب فلا يبقى فيه نور يبصر به عوالم الغيب: ﴿بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾[١].

نعم، إن استعمال الـ (هروئين) من قبل بعض الشباب المثقف والتفسخ الخلقي الفظيع بين الشباب والشابات وسهولة الحصول على المرأة زميلة في العمل وفي الشارع وفي دور التعليم وفنون الاغراء التي زوّدت المرأة بها عن طريق الصحافة والاذاعة والسينما ثم التلفزيون والبغاء المتاح في جميع صوره وألوانه من بيوت للدعارة رسمية وغير رسمية ومسارح وملاه تصطاد الزبائن وتقدم لهم البضاعة الدنسة والتوجيه الفكري بأن الحياة خُلقت للاستمتاع، ثم فقدان أولاد تتراوح أعمارهم بين (١٥ ـ ٢٠) سنة بعدد لا يستهان به كل يوم واضطراب أهليهم وذويهم لأجلهم، وما يجري بواسطة التلفونات من تواصل غير مشروع وما نلمسه من فراغ عقائدي نتيجة هذا التفسخ المرير، كل ذلك يدل على أن الطريقة العلمانية في الحكم أو إصلاح المجتمع من حيث الصفات الكريمة والفضائل دون خشية الله ومراقبة الله أي دون التمسك بتعاليم السماء وسنة أهل البيت عليهم السلام تؤدي إلى انهيار النفوس ومن ثم إلى الهلاك والثبور. تؤدي إلى قلق نفسي وأنواع الانتحار وأمراضٍ عصبية وشذوذ ومرض وجنون! كما نشاهد اليوم.

انه تعالى يقول: ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن﴾[٢].

فلله شريعته الغرّاء ولا نجاة لهذا البشر إلا باتباعها: ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر. فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾[٣].

فلا علاج لاصلاح هذا البشر إلا بأن يتمسك بتعاليم السماء وان لا يقتصر على ما أنتجته التجارب البشرية في حقول العلوم المادية أو الاجتماعية فان العلوم المادية لا تمت إلى الكمال النفسي بأية صلة، وليست منه في شيء وأما

---

(١) سورة المطففين: ١٤.

(٢) سورة المؤمنون: ٧١.

(٣) سورة الجاثية: ١٧.

العلوم الاجتماعية، فهي علوم بشرية حالكة، مضطربة، متغيرة، ان أصلحت جانباً، فإنها تُفسد جوانب أخرى كثيرة، ولا تهيِّيء الفرد لآخرة سعيدة ولا توجهه نحو الكمال النفسي، ذلك الكمال الذي يرتضيه الله تعالى لعباده الصالحين.

فلا بد لهذا الانسان إن أراد السير في مدارج الكمال أن يتمسك بكتاب الله والعترة الطاهرة على حد قول علي عليه السلام حيث يقول:

«إن نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم، خلف فيكم كتاب الله وأهل بيته، فعندهم علم ما تأتون وما تتقون، وهم الطريق الواضح والنور اللائح وأركان الأرض القوامون بالقسط[1]. بنورهم يستضاء، وبهديهم يُقتدى من شجرة كرم منبتُها، فثبت أصلها وبسق[2] فرعها وطاب جناها[3]. نبتت في مستقر الحَرَم وسقيت ماء الكرَم. وصفّت من الأقذاء [4] والأدناس وتخيِّرت مِن أطيب مواليد الناس. فلا تزولوا عنهم فتفرقوا[5]، ولا تنحرفوا عنهم فتمزَّقوا[6]. والزموهم تهتدوا وترشُدوا، واخلفوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيهم بأحسن الخلافة، فقد أخبركم أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، أعني كتاب الله وذريته»[7].

فقد جاءنا من جانب الله تعالى: ﴿نور وكتاب مبين، يهدي به الله من اتَّبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور باذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾[8].

---

(١) العدل.
(٢) طال فرعها وارتفع إلى السماء.
(٣) طاب ثمرها.
(٤) الاقذاء: جمع قذى، وهو ما يسقط في العين والشراب.
(٥) أي تفترقوا، فتذهب قوتكم.
(٦) أي تصيروا متمزقين في كل وادٍ لا يهديكم هاد ولا يجمعكم جامع.
(٧) من كتاب: دستور معالم الحكم. للقضاعي.
(٨) سورة المائدة: ١٥ - ١٦.

﴿يا أيها النبي انا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله باذنه وسراجاً منيراً. وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً﴾[1].



(١) سورة الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٧

الاسلام هو الدين العالمي في مستقبل قريب

مما لا مراء فيه أن الله تبارك وتعالى قد أودع في النفس الانسانية غريزة التوجه إليه تعالى والاعتراف بربوبيته وهو القائل: ﴿هو الذي يسيِّركم في البر والبحر، حتى إذا كنتم في الفلك وجَرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها، جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم احيط بهم، دعوا الله مخلصين له الدين، لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين. فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق، يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم، متاع الحياة الدنيا، ثم الينا مرجعكم، فننبئكم بما كنتم تعملون﴾. (سورة يونس: ٢٢ - ٢٣).

﴿وإذا مسَّكم الضرُّ في البحر ضلَّ مَن تدعون إلا إياه، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم، وكان الانسان كفوراً﴾[١]. ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين، فلما نجاهم إلى البر إذ هم يشركون﴾[٢]. ﴿وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين، فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد[٣]، وما يجحد بآياتنا إلا كل ختَّار كفور﴾[٤]. فان هذه الغريزة: التوجه إلى الحق المتعال عند الشدائد والمحن متأصلة في نفس الانسان يشعر به من بقي على فطرته السليمة إلى حد ما: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾[٥]. فان الطفل حسبما أودع الله فيه من غريزة التوجه إليه يشعر بعد أن يبلغ الخامسة أو السادسة من عمره بقوة خارقة مهيمنة عليه، يستعين بها

(١) سورة الاسراء: ٦٧.

(٢) سورة العنكبوت: ٦٥.

(٣) مقتصد: متوسط بين الكفر والايمان، ختار: غدار.

(٤) سورة لقمان: ٣١.

(٥) سورة الروم: ٣٠.

ويتوجه اليها في الشدائد وهذا المهيمن اللانهائي في صفاته وكمالاته هو الله تعالى. وهكذا كل مَن في السماوات والأرض مضطر بأن يتوجه إلى الحق المتعال بصورة فطرية وهو القائل:

﴿وله أسلم مَن في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون﴾. (سورة آل عمران: ٨٣).

حتى أن الجمادات أسلمت لله تعالى في حركاتها وقوانينها التي أودعها الله فيها، فهي مطيعة منقادة مُسيرة. ليس لها أن تنحرف عما رسم لها قيد شعرة: ﴿وان من شيء إلا يسبح بحمده﴾. ألا ترى أن الألكترون يدور حول البروتون في باطن الذرة بسرعة ٢٠٠٠ كيلومتر في الثانية بشكل اهليليجي، فهذا نوع تسليم إلى مشيئة الله تعالى ونوع انقياد وإسلام يتناسب مع حياة الذرة، كذلك تتجاذب الأجسام والكرات مستسلمة إلى أمر الله حسبما أودع فيها من قانون:

$$\text{ق} = \text{ى} \, \frac{\text{ك كَ}}{\text{م}^{٢}}$$

(قوة الجذب بين كتلتين، ك، كَ) تتناسب طردياً مع حاصل ضربهما وعكسياً مع مربع المسافة بينهما، و(ى) هي النسبة الثابتة ومقدارها: $\frac{١}{١٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠}$ من ثقل الغرام.

ويقول الله تعالى في هذا المقام:

﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا أن أمسكهما من أحد من بعده﴾[١].

وكذلك الرقاص يطيع الله تعالى في تذبذبه وحركاته التابعة لقانون وضعه الله تعالى:

$$\text{ن} = ٢ \, \text{ط} \, \sqrt{\frac{\text{ل}}{\text{جـ}}}$$

فإن مدة الذبذبة الواحدة لهذا الرقاص يتناسب طردياً مع جذر طول

---

(١) سورة فاطر: ٤١.

الرقاص وعكسياً مع التعجيل الأرضي و(ط) هي النسبة الثابتة وتساوي ٣,١٤١٦ أو $\frac{٢٢}{٧}$ تقريباً.

وإن حدوث الماء من امتزاج حجمين من الايدروجين(H_2) مع حجم من الأوكسيجين(O) بعد إفراز تيار كهربائي نوع تسبيح لله تعالى.

وإن التيار الكهربائي يسبح الله تعالى باتباعه قانوناً منَّ الله على (جورج سيمون أوم) الفيزيائي الألماني الشهير باكتشافه: $ت = \frac{ف}{م}$ أي شدة التيار تتناسب طردياً مع الجهد الكهربائي وعكسياً مع مقاومة السلك.

ومئات القوانين في الفيزياء العالية كلها أدلة واضحة على تسبيح كل شيء في أرضنا هذه لله تبارك وتعالى وكم من قوانين فيزيائية في كواكب أخرى ومجرات لا تعد لا تشبه ما على الأرض من قوانين لاختلاف الشروط والأحوال لا يعلمها إلا الله تعالى: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم﴾[١].

وما أعظم قول الله تعالى حين يقول:

﴿إن كل من في السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً، لقد أحصاهم وعدَّهم عداً، وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾[٢].

فحين يعمل جهاز الرادار الذي وضعه الله تعالى بفضله في جسم الوطواط دون حاجة من الحيوان إلى انتباه أو إصلاح إنما يسبح الله تعالى أيما تسبيح وأن عمليات الهضم والامتصاص في الجسم الانساني والتفاعلات الكيموية التي تنطوي عليها والخميرة التي تقوم بكل تفاعل والخرائط التي تبين التفاعلات الدائرية العديدة وما يدور بين كل منها والآخر من تفاعلات أخرى والجذور حين تمتص المواد الكيمياوية من التراب ويوصلها إلى الأغصان فالأوراق وعملية التنفس والتغذي بالهواء المحيط كل أولئك استسلام لأمر الله تعالى

---

(١) سورة لقمان: ٢٧.

(٢) سورة مريم: ٩٣ ـ ٩٥.

دون زيغ أو حيد. وفي الوقت نفسه يوحي أن وراء كل ذلك النظام خالقاً أعلى نظم الكون أبدع تنظيم ولم يكن الانسان في جميع هذه المعلومات إلا مستكشفاً عما أودع الله من قوانين وخصائص، بلطف منه تعالى.

فكل شيء في هذا الكون حتى الطير يسبح الله تعالى بأنواع التسبيح، وله صلاته الخاصة به وقد أسلم وجهه إلى الله: ﴿ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات، كل قد علم صلاته وتسبيحه، والله عليم بما يفعلون﴾[1].

وهكذا الرعد يسبح لله تعالى بتسبيح لا نفهمه على حد قوله تعالى: ﴿ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته﴾[2].

﴿وله من في السماوات والأرض، ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾. (سورة الأنبياء: ١٩ - ٢٠).

فالتسبيح إنما هو تقديس الله تعالى وتنزيهه عن كل نقص وهو توجه إلى الله تعالى واستسلام وإسلام.

والاسلام دين الله في أرضه منذ أن خلق السدم والكواكب والشموس والمجرات والنبات والحيوان والانسان، والاسلام دين الله منذ أن بعث آدم (ع) نبياً، ودين الأنبياء جميعاً، وقد قال الله تعالى مخاطباً نبيه الكريم: ﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك، ان ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم﴾[3]. ﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل، وما أدري ما يفعل بي ولا بكم، ان اتبع إلا ما يوحى إليّ وما أنا إلا نذير مبين﴾[4].

وإن دين إبراهيم عليه السلام هو «الاسلام» وكان حنيفاً مسلماً على حد

---

(١) سورة النور: ٤١.
(٢) سورة الرعد: ١٣.
(٣) سورة حم - سجدة: ٤٣.
(٤) سورة الاحقاف: ٩.

قوله تعالى: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾[1].

﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون، وجاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج. ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل، وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم، وتكونوا شهداء على الناس. فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله، هو مولاكم، فنعم المولى ونعم النصير﴾[2].

﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه، ولقد اصطفيناه في الدنيا وأنه في الآخرة لمن الصالحين، ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب: يا بني ان الله اصطفى لكم الدين، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾[3].

﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل، ربنا تقبل منا، انك أنت السميع العليم. ربنا وجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا منا سكناً وتب علينا أنك أنت التواب الرحيم﴾. (سورة البقرة: ١٢٧ - ١٢٨).

كانت التوراة تدعو إلى الاسلام، وذلك بقوله تعالى: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا﴾[4].

وإن حواريَّ عيسى كانوا مسلمين: ﴿وإذا أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي، قالوا آمنا وأشهد بأننا مسلمون﴾[5].

﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر. قال: من أنصاري إلى الله. قال الحواريون نحن أنصار الله، وأشهد بأنا مسلمون﴾[6].

---

(١) سورة آل عمران: ٦٧.
(٢) سورة الحج: ٧٧ - ٧٨.
(٣) سورة البقرة: ١٣١ - ١٣٢.
(٤) سورة المائدة: ٤٤.
(٥) سورة المائدة: ١١١.
(٦) سورة البقرة:

وإن سحرة فرعون قد أسلموا أيضاً، وذلك بقوله تعالى: ﴿وما تنقم منا، إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا، ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين﴾[1] .

إن يوسف (ع) كان من المسلمين: ﴿رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث، فاطر السماوات والأرض، أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً والحقني بالصالحين﴾[2] .

ويقول الله تعالى في قصة لوط (ع): ﴿فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾[3] .

فكل شيء أسلم وجهه لله من جماد ونبات وحيوان ولا بد لهذا الانسان الذي منَّ الله عليه بعظيم النعم وسخّر له الشمس والقمر ورزقه من الطيبات أن يسلم وجهه لله تعالى وأن لا يحيد عن سنة الله في أرضه وسمائه، وهو القائل: ﴿ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن، فقد استمسك بالعروة الوثقى، وإلى الله عاقبة الأمور﴾[4] . ولذلك ما من شيء يقرب العبد إلى الله تعالى كجلب الناس ولا سيما الشباب إلى حظيرة الاسلام في أرجاء الأرض: ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون﴾[5] . ﴿ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه، ان الله لغني عن العالمين﴾[6] .

وقد انبرى في السنوات الأخيرة ثلة من المسلمين للدعوة إلى الاسلام ونشر حقائق الاسلام. دين الله الخالد في الكون الرحيب، فتأسس مركز إسلامي باسم Islamic Center. 333 في جنيف (سويسرا) ويصدر هذا المركز مجلة «المسلمون».

---

(١) سورة الأعراف: ١٢٥.
(٢) سورة يوسف: ١٠١.
(٣) سورة الذاريات: ٣٦.
(٤) سورة لقمان: ٢٢.
(٥) سورة التوبة: ٢٠.
(٦) سورة العنكبوت: ٦

ويزداد عدد المسلمين في أفريقيا في كل سنة مئات الآلاف، والأفريقيون يرحبون بالاسلام أيما ترحيب، ذلك لأن الاسلام في نظرهم يأبى الاستعباد والاستعمار، وهو دين الحرية والانطلاق. لذلك يوفد ثلة من المبشرين بالدين الاسلامي والدعاة من قبل ا لجامع الأزهر في مصر وكلية الشريعة في دمشق إلى أفريقيا وغيرها من البلاد. وأما في الأيام الأخيرة فقد تأسست جمعيات اسلامية متعددة في أنحاء العالم. وهم يوجهون نداءاتهم إلى العالم الاسلامي لارسال دعاة مجاهدين يقومون بدعوة إسلامية شاملة، فاليابان أرض خصبة للدعوة إلى الاسلام. وفي الهند فعاليات مشكورة لنشر حقائق الاسلام بشتى اللغات. وقد شيد مسجد فخم في هانبورك: (هانبورغ) بألمانيا الغربية ويسلم كل يوم نفر من الألمان، ويعملون بما نص عليه الدين الاسلامي.

* * *

ومن الطريف جداً أن أنقل هنا باختصار من مجلة حضارة الاسلام[1] إسلام امرأة فرنسية من مواليد بلجيكا اسمها (بوليت كيو). كانت تسكن في شقة بناء في حي فخم بجوار بحيرتي (اكسل) على مقربة من جامعة بروكسل عاصمة بلجيكا. وكان نزيلا الدور الثاني من هذا البناء (محمد وعدنان) من الطلاب السوريين.

وكان مألوفاً أن يتلاقى محمد وعدنان وهذه الجارة الفرنسية (بوليت كيو) معظم الأيام على مدخل الدار السفلي، أو أثناء الدرج، فلا يكون بينهم أكثر من تحية طائرة تفرضها المجاملة، دون أن تجر وراءها كلمة واحدة.

وإن هذه الامرأة الفرنسية (بوليت كيو) كانت تعتني عناية صارخة بزينتها اليومية إلى حد الافراط، فكانت أنموذجاً من الاستهتار الذي لا يقيم وزناً لأي مقياس أو تقدير. ومع ذلك فهي تمر بالطالبين السوريين وزائريهما كما تمر بالآخرين من الناس في الشارع والترام والسيارة والشركة التي كانت تعمل فيها كسكرتيرة لمديرها. أنها ما كانت تثبت نظرها في أي وجه، إلا بمقدار ما

---

(١) مجلة حضارة الاسلام، العدد السادس والسابع من السنة الرابعة.

يتطلب الموقف. فكان غرضها الوحيد من ذلك الإستهتار هو فقط اجتذاب الأبصار وإثارة الفضول دون أي شيء آخر. . . !.

- ٢ -

وحدث ذات يوم أن محمداً، وهو أكبر الطالبين، قد عاد من إجازته الصيفية، ليستأنف دراسته بقسم الدكتوراه في الكيمياء الصيدلية، وكدأبهما في مثل هذه المناسبة كان عليه أن يخص جيرانه ببعض الهدايا الشرقية، فملأ لصاحبي البناء طبقاً من الحلوى، ثم مضى بمثله إلى الجارة المجهولة هذه الفرنسية (بوليت كيو) ولما أطلت الجارة الفرنسية تتعرف الطارق، فوجئت بما لم تتوقع، وجمدت قليلاً قبل أن ترد تحيته، ثم سألت في لهجة لم تخل من الاستغراب: ماذا؟.

ومد محمد يده بالطبق الشهي، وهو يقول: أنها هدية صغيرة من حلويات دمشق، قدمت مثلها إلى جيراننا الآخرين، فهل تتكرمين بقبولها؟ تناولت (بوليت) الهدية شاكرة. ودعته إلى الدخول، وألحت بذلك، فلم يسعه إلا الاستجابة، واتخذ مجلسه في الغرفة، ودخلت (بوليت) بالهدية إلى غرفة الطعام، ثم عادت ومعها صحفة فضية يعلوها قدح صغير مذهّب وانحنت وهي تقدمه إليه، ولكن محمداً وضع يده على صدره وهو يعتذر: سأكون شاكراً إذا أعفيتني.

- ولكنها خمرة جيدة، من أحسن أنواع الكونياك.
- لا أشك في حسن ذوقك، ولكن لا أشرب الخمر. . .
- لماذا؟. . .
- لأني مسلم.
- مسلم!!!

وانزلقت الكلمة في عفوية ممزوجة بالدهشة وجمدت عيناها لحظة على وجه ضيفها، كأنها تريد أن تبين خصائص هذه الكلمة الغريبة من خلال ملامحه وقسماته.

ولم تشأ أن تحرج الفتى بالالحاح، فوضعت الكأس في الصحفة الفضية

علّى النَضد النصفي، ثم أخذت مجلسها في مقعد مجاور، وجعلت تنظر إليه، وهي تقول: الاسلام! هذا شيء أذكر أني قرأت عنه في بعض الكتب، وقد أعجبني منه دعوته إلى النظافة.

فقال محمد: إن النظافة في الاسلام من الصفات الأساسية، ولكني أرجو مع ذلك أن يكون الكتاب الذي قرأتِه عنه من الكتب النظيفة، التي لا تتعمد تشويه الحق.

فقالت: الحق أنني لم أقرأ الكثير عن هذا الدين الشرقي، ولم أتعمد البحث عن مضمونه.

فقال محمد: فهل ترغبين في قراءة شيء عن الاسلام؟... لدي كتاب بالفرنسية، ذو أسلوب أدبي معجب، وفيه كثير من الحقائق الموضوعية عن هذا الدين الإلهي.

فقالت (بوليت): سأكون شاكرة إذا أعرتني هذا الكتاب ما دمت واثقاً من موضوعيته.

ولم يشأ أن يؤخر الأمر، فاستأذن ليأتيها به، وما هي إلا دقيقتان حتى أقبل عليها، وهو يقول: إنه مقدمة لكتاب ضخم ألفه مصري اسمه (عبد الله دراز) بعنوان (أخلاق القرآن)، لينال به إجازته الدكتوراه من باريس.

- ٣ -

كانت شقة محمد وأخيه عدنان أشبه بمكتبة الجامعة، يرتادها العديد من طلاب العرب في مختلف أوقات النهار. وقد تطور أمرها أخيراً، حتى أصبح بين روادها الأفريقي الأسود، والهندي الأحمر والأسباني الأبيض. وبذلك لم يقف دور الشقة عند حدود المذاكرات الجامعية، بل تجاوزها إلى المدارسات الاسلامية، والعبادات وإقامة الفرائض، وطبيعي أن هؤلاء الرواد لم يكونوا من طبقة الطلاب وحدها، بل تعددت مستوياتهم كما تعددت جنسياتهم ففيهم الطالب والعامل والتاجر، والفقير والثري، يفدون إلى الدار من أنحاء العاصمة، ليتعاونوا على فهم دينهم، وتجديد عقيدتهم، والبحث في شؤون

شعوبهم، وأوطانهم. وقد رأوا أخيراً أن يخصصوا يوماً في الأسبوع يتلاقون فيه على حصص منظمة من الدراسة والعبادة، فحصص للقرآن، وأخرى للحديث، ومثلها للفقه، ووقت خاص لبعض المؤلفات الاسلامية الحديثة وفترات خاصة للاستجمام والعبادة، وهكذا كان يوم الاثنين من كل أسبوع هو اليوم الجامع لهؤلاء الرفاق. يتزودون منه ما يعوزهم لبقية الأيام، ويتهيئون له بالأفكار الجديدة والأسئلة العديدة.

وفي جو هذه الاجتماعات يتعذر على من يحضرها لأول مرة أن يعرف مؤسسيها ودعاتها. لأن روح الأخوة لا يدع مجالاً لأي تمييز بين الواحد والآخر من روادها. ولكن القدامى منهم يعلمون أن الأخوين الدمشقيين محمداً وعدنان؛ هما نقطة الانطلاق والارتكاز في هذا التجمع. وقلما تمضي عليهما ليلة دون أن يحاسبا نفسيهما على ما صنعا في نهارهما. وكانا قد شقّ لنفسيهما طريقاً آخر إلى عمل مثمر، ينسجم مع أخلاقهما التي لم تألف الانحراف عن سبيل الحق. وهكذا انتهيا إلى الاتفاق على مخطط مدروس، ذي شعبتين: أولاهما ذاتية تتركز في تعهد نفسيهما بالجهاد المتصل سواء في حقل الدراسة، أو التهذيب الروحي، حتى يحصناها من تلك المفاسد التي تكتسح الكثرة من مواطنيهم في مختلف أقطار أوربة. وأما ثانيتهما، فموضوعية وبالأصح إنسانية، تستهدف تنظيم الطاقات الاسلامية في نفوس الشباب المؤمن، ليس فقط في بروكسل، بل في أي مكان يمكن أن يتاح لهما الاتصال به في بلجيكا وخارجها.

ومنذ ذلك اليوم بدأ نشاطهما في نفسيهما والأقربين من رفاقهما، ثم قضوا جميعاً متعاونين في توسيع مجالات هذا النشاط. حتى استطاعوا أن ينقلوا خطواتهم الأولى في سبيل إنشاء المركز الاسلامي الذي يحلمون به. وكان ذلك حين أحرزوا موافقة الحكومة البلجيكية على إعطائهم البناء الخاص بالحكومة التركية في معرض (بروكسل). وهو البناء الذي أنشىء على صورة المسجد بقبته ومنارته. ثم أصبح فارغاً معطلاً بعد ارفضاض العرض. وها هم أولاء يعدون عدتهم منذ اليوم ليقيموا فيه صلاة عيد الفطر الذي بات موعده وشيكاً. ثم ليجعلوه فيما بعد مسرح نشاطهم الذي لم يعد يتسع له البيت.

وقد أصبح لديهم مكتبة متنقلة تحتوي على طائفة من أنفس الكتب الاسلامية بالعربية وغيرها، وتقدم بطريق العارية للرجال والنساء على سواء. ولقيت حركتهم عطفاً مشجعاً لدى بعض السفارات الاسلامية، وبخاصة سفارة (السنغال) التي يقوم على رأسها رجل يهمه أمر الاسلام وانتشاره في أصقاع الأرض ويحيط به قلة من الموظفين لا يقلون عنه حباً للاسلام واهتماماً بشؤون المسلمين. ولم تعد حركتهم محصورة في حدود المسلمين وحدهم، بل بدأت الاتصالات بعناصر مثقفة من البلجيكيين والأوروبيين أنفسهم. وها هو ذا عدد منهم نساء ورجالاً يحضرون اجتماعاتهم الأسبوعية، ليستمعوا إلى معاني القرآن والحديث، وليشاركوا في مناقشة الأفكار المختلفة التي تقرأ في بعض هذه الاجتماعات عن الاسلام والمسلمين.

علم محمد أن المرأة الفرنسية تريد أن تترك شقتها الكبيرة في هذا البناء إلى شقة صغيرة في بناية أخرى فاقترح على صاحبة البناء أن يقدم شقة كان يسكن فيها هو وأخوه عدنان إلى المرأة الفرنسية وهما ينتقلان إلى الشقة الكبيرة، فحصلت الموافقة.

- ٤ -

وعاد الأخوان مساء ليجدا كل شيء قد تم على ما يرام، بل فوق المرام لقد بُدلت الدار بالدار، ورتبت أشياؤهما من كتب وثياب وحقائب وما إلى ذلك مما يملك المسافر في أمكنتها المناسبة من المنزل الجديد، وكانت الدار بأثاثها الأصلي الفاخر غاية في الأناقة التي يحلم بها طالب في منزل أجرة (بانسيون). فاستشعرا روح الهناءة، ووقفا هنيئة يخططان للاجتماعات المقبلة، ولم ينسيا أن يخصصا قاعة مناسبة لصلاة الجماعة وقيام الليل المشترك في أوقاته الأسبوعية. وشدَّ ما أدهشهم منظر بياضهم مغسولاً مطوياً، وثيابهم منظفة مكوية، وقد نسقت على مشاجبها في الخزائن! فقدروا فضل الجيران الذين نهضوا بهذا العبء متبرعين، وفي هذه الآونة فوجئا بالجرس يدق، ولما فتح الباب أطلت منه المرأة الفرنسية تحييهما وتسألهما إذا كانت ثمة من خدمة أخرى تستطيع تقديمها لهما...!.

واستجابت المرأة لدعوتهما، فجلست لترشف قدح الشاي الذي صبَّ لها، وقالت رداً على الثناء الذي وجهاه اليها. . : لم أفعل شيئاً كبيراً، لقد وجدت نفسي في فراغ الأحد، وكان لا بد من نقل أمتعتي إلى داركما الأولى كما اتفقنا، فبدلاً من أن أعود فارغة إلى فوق، في كل مرة، كنت أحمل بعض أمتعتكما بطريقي، بمساعدة الجارة الكريمة صاحبة البناء، ثم وجدت لدي بقية من فراغ فسليت نفسي بانجاز بعض الأشياء التي قد يضيق وقتكما عن انجازها في الوقت المناسب.

قال عدنان: ولكن هذا كثير، أيتها الجارة المحترمة!.

وقال محمد: لقد وضعتنا بذلك تحت عبء من الفضل قد نعجز عن مكافأته، وهنا أثبتت قليلاً نظرها في وجه الفتى الذي صبغه الحياء، وبرق ببوادر الشعور بالجميل. . . ثم قالت: «بل لعل الأمر على العكس، ولو علمت ما أحدثت عاريتك في نفسي لأدركت أنك أنت المتفضل. . .».

وفجأة وثب إلى خيال محمد صورة تلك الليلة التي طواها. وراء ستة أشهر، وتذكر الكتاب الذي أعارها إياه. . فقال: أرجو أن يكون وقتك قد اتسع لقراءة الكتاب. . ؟.

ـ لقد اعدت قراءته خمس مرات . . .

ـ وبالطبع كتبت ملاحظاتك عليه .

ـ الملاحظات كثيرة . . ولكني لم أكتب واحدة منها خارج قلبي . . أجل. . لقد نقشت انطباعاتي بالكتاب هنا ، على صفحة قلبي التي لا تقبل المحو . . .

وسكتت ، وسكت الفتيان بما يسمعان . وينظر كل منهما الى الآخر دون كلام . . . حتى عادت المرأة تقول : كنت أحسب أن تجاربي الماضية كانت كافية لصرفي نهائياً عن أي تفكير ديني . ولكن هذا الكتاب قد كشف لي بشكل مباغت أنني على أتم الجهل بجوهر الدين . وإنني لأول مرة أجد نفسي في مواجهة الحقائق الإلهية ،التي قضيت شطراً كبيراً من عمري في البحث عنها بغير طائل .

قال عدنان : ذلك حال طبيعي ، فالقلب الانساني كالقفل الدقيق ، لا يستجيب الا الى مفتاحه ، وليست الحقائق الإلهية الا ذلك المفتاح .

ـ تمثيل رائع ، وأستطيع القول بنتيجة خبراتي الشخصية أن هذه الحقائق هي وحدها التي تروي عطش القلب الضائع في صحراء المجهول. وكل تفكير ديني مجرد عنها هو كالماء الملح لا يزيد النفس الظامئة الا تلهُّباً واحتراقاً.

وفي غير تعمد انسرب بصر محمد يجول في مظهر هذه المرأة ، كأنه يفتش عن الدليل الذي يؤكد أنها جادة في الذي تقوله . فإذا هو يصطدم بالواقع ، الواقع البعيد عن كل صلة بهذه الحقائق . . !

ان الأحمر الذي يغرق شفتيها . . والركبتين تشدان النظر الى ما وراءهما في إغراء وقح . والضغط الصارخ الذي يلصق الثوب القزم بكل جزء من أنحاء هذا الجسم المصنَّع ، والذي لا يزال محتفظاً بالكثير من مغريات الفتوة كل اولئك من شأنه أن يفرغ كلامها المحكم من كل معنى جادٍّ . وبخاصة في مقياسه هو الذي لا يستطيع التفريق بين الفضائل الروحية وسلوك مدعيها ولذلك لم يستطع منع وجهه من ابتسامة خفيفة لا يفوت الذكي ما وراءها !! . .

وعادت الفرنسية الى الكلام : « لقد اطمأن عقلي وقلبي الى هذا الدين وأريد أن أسألكما عن السبيل الى اعتناقه . . . ».

قال محمد : ان مجرد الاقتناع به هو اعتناقه . ويبقى اعلان ذلك بالشهادتين : أن لا إله إلا الله وان محمداً عبده ورسوله . .

ـ فأنا أشهد أن لا اله الا الله ، لأني مقتنعة من قديم بهذه الحقيقة ، واما رسالة محمد ، فلا ينكرها الا كافر بعقله ، أو كاره للحق . فهل أنا إذن مسلمة الآن ؟!

ـ بالتأكيد . . . ولكن هناك مشكلة . . .

ـ مشكلة ! . . . وما هي ؟ .

ـ هي : أن الاسلام نظام كامل . . يؤخذ جملةً لا تفاريق . . . وهو

يفرض على معتنقه سلوكاً معيناً ، ومظهراً خاصاً ، وخلقاً مميزاً . . . بحيث يمثل في شخصه المتميز ، الخطوط العملية الكبرى لحقيقته الإلهية .

ـ أدركت هـذا من سلوككم . . الذي أعطاني في الواقع كثيراً من التفسيرات التي لم يتسع لها الكتاب . لقد سئمت الأديان التي تفصل بين السلوك الشخصي والمعبد ، وتتساهل حتى في الفضائل الرئيسية . فلا تتورع عن استخدام المسابح المختلطة ، والملاهي العابثة ، والمراقص المنكرة ، كوسيلة لاستبقاء الرباط بينها وبين الشباب الطائش ، وكرهت من رجال هذه الأديان بوجه خاص وقوفهم في نطاق الطقوس الرمزية داخل حدود المعبد ، فيفصلون بذلك بين المعبد والشارع . إذ يفصلون بين لحظات العبادة وبقية الحياة . فيكتفون من المتديّن أن يظلّ على صلة بمعبدهم ولو ساعة في الاسبوع ثم لا عليه بعد ذلك أن ينطلق وراء غرائزه في سباق محموم لا يعترف بأية رقابة لعين الله . ولا أية مسؤولية تجاهه . وذلك بخلاف الاسلام الذي تبيّن لي انه من الشمول بحيث يعتبر الارض كلها معبداً . وكل عمل صالح ما دام المؤمن يأتيه وهو مستهدف رضوان ربه . ومن هنا كان المسلم الحق صورة صحيحة للاسلام . . . وهو لا شك سعيد بذلك . لأنه لا يستشعر أي تناقض بينه وبين قوانين الطبيعة من حوله وفي داخله . بل ، انه ليشعر بديل ذلك بأتم الانسجام بينه وبين الحياة . وأن كل شذوذ عن موجبات هذا الدين مؤدٍ إلى شفائه لأنه تصادم مع مبادىء الحياة نفسها.

وأمسكت قليلاً تحدق ما بين يديها دون تركيز على شيء بعينه، وقد غرق البهو كله في صمت عميق. وأطرق كل من الفتيين مثلها يسبح في غمرة هذه المعاني ، التي فتحت أمام نفسيهما آفاقاً ماتعة، يخيل اليهما أنهما يستشرفانها لأول مرة.

وقطعت الصمت كرة أخرى لتقول: « من أجل ذلك استجابت نفسي كلها لهذا الاسلام . اذ وجدت فيه دعوة الله المتجاوبة مع أعماق الفطرة الانسانية . . . وقد صممت على أن أخضع جميع تصرفاتي الى أحكامه . . . »

ولم يشأ محمد ان يؤخر ملاحظاته أو يجمجم بها فقال : « ولو قضت هذه الأحكام بتغيير نظام حياتك كله ؟ . . . »

في تصميم قاطع أجابت، وما فائدتي من الاسلام اذا هو لم يغير طريقتي في الحياة ! . . . وهل تظن انني كنت راضية عن نفسي ونظام حياتي . . وعن أي شيء مما حولي ! . . .

ثق أيها الجار الكريم أنني كنت انسانةً ضائعة ، بل غريقة ، يتلاعب بها تيار المجتمع على كره منها . ولم تكن تصرفاتي الشخصية جميعها الا محاولة للهروب من الواقع الحائر ، الذي تفرضه عليَّ حضارة لا أؤمن بها لأنها حضارة عوراء، لا ترى من الانسان إلا جانبه الجسدي، ولا تقيم وزناً لأي ظمأ داخلي خارج نطاق المادة ، ولقد كان لقائي بك ليلة الهدية أول صدمة شدتني الى الاتجاه الآخر ، ثم جاء كتاب الدكتور (دراز) فدفعني شوطاً بعيداً في هذا الطريق. وكان لطريقة حياتكم في هذا الحوار الطيب أثرها العملي في صيرورتي الى هذا التقرير المطمئن . . . وأنا اليوم بما أدركته من هذا الدين أشعر بأنني عثرت على نفسي ووجدت حقيقتي ، ووضعت قدميَّ في الطريق السويِّ ، فكيف لا أخضع وجودي كله لحقائق الاسلام . وهو الذي أنقذني من ذلك التمزق ، وهداني السبيل بعد ذلك الضياع الوبيل . . . !

وعقب عدنان على ذلك قائلاً : ولكن عناءاً جديداً ينتظر القابض على هذا الدين . . لعل أهون منه قبض الجمر . . إنه يفرض تطهير الجسد كما يفرض تطهير داخله سواء بسواء. ويتطلب من المسلمة بوجه خاص التخلص نهائياً من مثل هذه الثياب الى أشكال اخرى تتم بها الحشمة ، دون تضييق ولا تقصير ولا خلاعة ، حتى الشعر ، لا يأذن بظهوره لأجنبي . . . وهناك صلوات خمس في كل يوم وليلة لا مندوحة من أدائها . . ثم صيام شهر رمضان الذي نحن فيه هذه الايام . ثم كف النفس عن كل شهوة حرمها الله كالخمر والرقص المختلط، والخلوة بالأجنبي . . . وأقل ما يجره هذا الاتجاه هو أن تصبحي هزأة لدى الذين سيرون منك كل هذا التغيير دون مسوِّغ مقنع في أنظارهم .

وكفَّ عن الكلام ليرى أثره في نفسها ، فاذا هي تقول : اما هذه الثياب فستتغير في أسرع وقت . . وفي الصلوات الخمس فرص سعيدة يتاح لي فيها ان أروي ظمأ قلبي مناجاة الله . وسأجد في الصيام دون ريب متعة رائعة ،

إذ تعرفني حاجة الانسان الى نعم الله التي ألف أن لا يعيرها تفكيراً . . ولقد مجت نفسي تلك الشهوات التي لم تزدني الا اسنشعاراً للفراغ الروحي الذي طالما عانيته . . . أما هزء الناس فقد توقعته ، ووطنت نفسي على احتمال كل شيء . . .

ولم يبق لدى الفتيين ما يقولانه بازاء هذا الاصرار الحاسم . . فاكتفيا بأن قدما اليها الأوراق التي كتب فيها بالفرنسية صيغ الوضوء والصلاة . . . وما لا مندوحة عن معرفته للمسلم المبتديء . ثم قال محمد : سنكون جميعاً مسرورين باستقبالك اصيل كل اثنين . اذا شئت أن تحضري معنا بعض الدراسات والعبادات . . وسترحب بك أخوات من السنغال وألبانيا وأندونيسيا وأنحاء أخرى من العالم . .

وقد اختارت (بوليت كيو) الفرنسية لنفسها اسماً جديداً (هدى) بعد اعتناقها دين الاسلام ودخلت في صباح اليوم التالي على مدير الشركة البلجيكي فقالت له : لدي خبر ، أرى من واجبي اطلاعك عليه لكي لا يفاجئك .

وابتسم المدير لسكرتيرته في لطف أبوي وقال اعرضي ما تريدين . .

ـ ابتداءاً من الغد سترون تغير بل أنقلاباً في حياتي كلها ، وأول ما تلمحونه من ذلك في ثيابي التي ستكون أدنى الى أردية الرواهب . . . !

ـ لعلك راغبة في اللجوء الى الدير !؟ . . .

ـ كلا . . لا شيء من ذلك . . انما قررت أن أكون مسلمة . . .

ـ مسلمة ! . . وهل يعني ذلك أن تتركي الكاثوليكية . . ؟

ـ هو ذاك ، لأن الاسلام شيء غير المسيحية المعروفة كلها . . وسأعرفك به عندما تريد . . .

ـ ولكن الاسلام كما قرأت وكما أخبرنا بعض القسس يحتقر المرأة . . . ويجعلها قعيدة بيتها لا تصلح لأي عمل . . !

ـ ذلك من دسائس أعداء الاسلام الذي لا تعرفه مع الأسف الا عن طريقهم . أما الواقع فهو أن المرأة لم تسترد اعتبارها الانساني الا في ظل الاسلام . . وقد لبثت أحقاباً لا تعدو منزلة الشياطين في حكم رجال الكنيسة حتى هبت على أوربة نفحات الحضارة الاسلامية عن طريق الأندلس والحروب الصليبية ، فإذا رجال الكنيسة يعدلون رأيهم في المرأة ، ثم لا يزالون يعدلونه حتى انتهوا الى الاعتراف ببعض حقوقها التي قررها الاسلام منذ أربعة عشر قرناً . . . ومهما يكن فذلك بحث نرجئه الى وقته المناسب . ولكن هذا لن يؤثر في اخلاصي في عملي بل سيزيدني رغبةً فيه وإتقاناً له ، لأنني بذلك أحقق أحد تعاليم ديني الجديد . . .

ولم يرَ المدير في أمر سكرتيرته أي أمر ذي بال . ما دام اسلامها لن يحول دون استمرارها على عملها بالنشاط المعتاد نفسه . . وقلبَّ شفتيه ويديه وهو يقول لها : ذلك أمر يخصك ولا يهمني.

ثم مضت هدى الى زملائها من مستخدمي الشركة ، تنقل اليهم النبأ في لهجة مثقلة بالجد . وأكدت لهم جميعاً أنهم ينكرون غداً مظهرها الجديد ، لأنه مخالف لمألوفهم ، ولكنها ترجو منهم أن يدعوها وشأنها ، وأن يكونوا على أتم الثقة بأن عقلها لم يتغير ، وأنها لن تسبب شيئاً من الأزعاج .

وجاء اليوم الثاني . . . وغادرت هدى الشقة الى عملها اليومي في زيها الاسلامي الجديد . الذي أعدته لها اختها فاطمة الاندنوسية : ثوب سابغ أبيض يمتد من أعلى النحر الى أسفل الساق . وقد اتسع حتى لا يمثل أي عضو تحته . وخمار زبدي اللون أدير على الرأس وحول العنق ، بصورة لا أناقة فيها الا سذاجة . وفي القدمين المجوربتين حذاء قليل الإرتفاع لا يوحي بأي اغراء أو تبذل . . . وقد تعمدت أن تكون نظارتاها من اللون الأسود . . لتستطيع حجب تأثرها من الأشياء المزعجة التي تتوقع أن تراها أثناء اليوم . وربما كان أغرب ظواهرها هو هذا الوجه الذي تقابل به الناس لأول مرة منذ ثلاثين سنة ونيف خالياً من كل أثر للزينة أو الطلاء . . . فلا أبيض ، ولا دهان ، ولا أحمر ، اللهم الا حمرة الخجل الذي غشي وجهها جميعاً .

وفي سيارة الشركة ، التي اعتادت أن تمر بها كل صباح ، تلقت أول صدمة ، وذلك حين انصبَّت عليها أحداق العمال والمستخدمين فاغري الافواه من الدهشة . لا تكاد أعينهم تصدق أن هذه هي سكرتيرة المدير ! وحتى الرجال والفتيات الذين أنبأتهم خبرها بالأمس لم يتمكنوا من كتمان دهشتهم ، فراحوا يتغامزون ويتهامسون وهم يسارقونها النظر. وهي في هذه الغمرة من المفاجآت لم تلحظ هدى أن أحداً رد عليها تحيتها ، كأنهم لم يسمعوها ، أو كأنهم شغلوا عن الرد بهذا المنظر ، حتى جعلت تراجع نفسها فلا تدري : أألقت تحيتها أم صرفها انشغال فكرها عن ذلك ! . .

ولم تتمالك رعشة سرت في جسدها وهي تستقبل هذه المفاجأة ، ثم غلبها الضعف ، فإذا دمعتان كبيرتان تتدحرجان على خديها[1]، فتسرع الى مسحهما بمنديل صغير كانت تشغل أصابعها بلمسه وتقليبه !

وودت لو تطير بها السيارة لتخلص من هذا الجو ، وقد قررت أن تلوذ بغرفتها فلا تغادرها الا لضرورة قاهرة ، وان تتجنب هذه الأنظار ، فلا تخالط أصحابها الا بعد أن يألفوا منظرها الغريب .

ولكن سرعان ما خاب فأل المسكينة ، اذ ما كادت تهبط من السيارة الى داخل مكتبها حتى فوجئت بالمدير . يطل عليها من الباب الخاص ، ليقلب نظره طويلا في هذا الزي الذي لمحه عن بعد ، والذي سمع المستخدمين يتهامسون بشأنه . . !

وانتبه المدير الى موقفه ، فلم يسعه الا ان يتكلم ؛ أسعدتِ صباحاً أيتها الآنسة ، أرجو ان لا تجدي ما يزعجك طوال اليوم ! . .

وأدركت ما يريد ، وتذكرت كلمات عدنان . . وتصميمها السابق فردت

---

(١) ما أعظم فضيلة الصبر، فانه تعالى يقول: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾. (سورة الزمر: ١٠). وقال تعالى: ﴿وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً، ولا يلقاها إلا الصابرون﴾. (سورة القصص: ٨٠). ويقول علي عليه السلام: «في البلاء تحاز فضيلة الصبر.

تحيته بكل ما استطاعت من لطف ، ثم قالت : ليثق حضرة المدير أن لا شيء يزعجني . . . لأنني مطمئنة الى أن مسلكي هو الأفضل . . وكل استغراب له إنما يرجع الى بعد المستغربين عن فهم الحقائق الالهية . . .

ولم يجب المدير بشيء . . وترك لشفتيه أن تتمتما ببعض الكلمات الغامضة . . ثم انسحب الى مكتبه . . .

وانتضت (هدى) بتصميمها . وتذكرت أيضا أن الاسلام يستحق منها أكثر من هذه المزعجات . انه غريب في (بروكسل) كغربته من قبل في مكة ، ولقد تلقى أتباعه الأولون ، بين اخوتهم الكافرين له ، ألوان العذاب في سبيله قبل أن يحتل مكانته الطبيعية في وطنه الأول ، فلمَ لا تحتمل هي اليوم بعض ذلك العذاب في سبيل تعريفه الى الناس في هذا البلد البعيد عن روحه وحقائقه . واستمرت حياة هدى على هذا المنوال أياماً طوالا . . . لقيت أثناءها الأمرين من فضول الناس . . . فلم تجتز شارعاً ولم تطأ حانوتا ، ولم تركب حافلة ، ولم تدخل مركز الشركة الا سمعت الهمس ورأت الغمز واللمز . . . وقابلت ذلك كله بجلد هائل . . ولكنها ما تكاد تخلو الى نفسها في بيتها حتى تستسلم الى بكاء طويل ونشيج محرق . . . ![1].

---

(١) قال رسول الله (ص): «إذا أحب الله عبداً نصبت في قلبه نائحة من الحزن، فان الله تعالى يحب كل قلب حزين، وإذا أبغض الله عبداً نصب له في قلبه مزماراً من الضحك. وما يدخل النار من بكى من خشية الله حتى يعود اللبن إلى الضرع، ولم يجتمع غبار في سبيل الله ودخان من جهنم في منخري مؤمن أبداً».

وقال رسول الله (ص): «يا علي، عليك بالبكاء من خشية الله، يبني لك بكل قطرة ألف بيت في الجنة».

وقال رسول الله (ص): البكاء من خشية الله يطفىء بحاراً من غضب الله وقد وبخ الله تعالى أناساً على ترك البكاء عند استماع القرآن عند قوله: ﴿أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون﴾. ومدح الذين يبكون عند استماعه بقوله: ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾. وقال بعض العرفاء: إذا أراد الله أن يتوب على عبد جعله يبكي على ذنوبه! . . .

وجاءت صاحبة البناء ذات يوم الى دار الطلاب ، لتخبرهم أن جارتهم التي من حقها أن تكون سعيدة في عيد ميلادها اليوم ، قد أغلقت عليها بابها لتنخرط في بكاء حزين . . .

وهبطوا : عدنان ومحمد والبلجيكية لاستطلاع خبرها ، وبعد أكثر من دقيقة استجابت لدعوة الجرس وفتحت لهم الباب . فدخل الفتيان الى الردهة ليأخذا مكانهما بانتظارها . . ولما عادت نحوهما في رداء الاستقبال ، كان أثر الدمع لا يزال بارزاً من تحت نظارتيها السوداوين . . . ورحبت بهم في صوت لم تستطع إخلاءه من أثر البكاء . . .

وتكلم محمد في كثير من التحفظ ، لقد كثرت أحزانك في هذه الايام . . . ولا بد لأنها نتيجة لوضعك الجديد . ولما يواجهك بسببه من مزعجات . وكان الأولى أن تقابلي ذلك بالصبر الذي وراءه الأجر . . .

وكأنها أحست في تلك العبارة ما حرك أشجانها من جديد ، فلم تستطع منه عينيها من الدمع . . وترددت ملياً تغالب نفسها ، وتسترد أنفاسها ، حتى استطاعت أن تستأنف : « . . حقاً ، انها لاحداث مزعجة تلك التي اصادفها في كل مكان . . ولكنها لا تزيدني الا شعوراً بالرضى واشفاقاً على هؤلاء المساكين الذين لا يعلمون ما يعملون . . ولعل كثيراً من دموعي وأحزاني لا تعدو أن تكون تعبيراً عن الغبطة الروحية التي تستغرقني ، عندما أشعر بأنني أتحمل بعض التضحية في سبيل الله . . . غير أن أخوف ما يخيفني هو ان يكون البعض الآخر من هذه الدموع والاحزان نتيجة لضعف خفي في قوتي الروحية ! . . .

وتهدج[١] صوتها ، ثم عاقها النشيج عن متابعة الكلام . . فأمسكت لتمسح دموعها وتهدىء أعصابها .

ورأى محمد ان يساعدها على هواجسها ، فقال : ان مثل هذه الظاهرة تبدو جليةً في جميع الذين هدوا الى الاسلام من اخوتنا الأوروبيين . وهذا

---

(١) تهدج الصوت : تقطع في ارتعاش.

اسماعيل الذي كان اسمه روجيه ، كثير ما تهيج مشاعره حتى لا يجد راحة لقلبه في غير البكاء وهذا كما يبدو لي نتيجة رهافة بالغة في العواطف ولدتها الاشواق الروحية والتأمل المستديم في معاني القرآن الحكيم (١) . . وهنا رفعت هدى بصرها الى محدثها وقد شاع في وجهها بشر خفي ، ثم قالت وفي صوتها رنة السعادة : « لكم يسرني أن يكون استنتاجك مصيباً أيها الاخ . . . الحق ، انني أحسن في قلبي رقة لم أعهدها قبل اسلامي . . . وكثيراً ما يطغى عليَّ هذا الشعور حتى أغيب في فيضه عن كل شيء . . . الا تلك الاشارات السماوية التي اكتشفها كل يوم في الآيات القرآنية . أو الاحاديث النبوية . . . » .

وتوقفت قليلا ، كأنما اعترضها خاطر مفاجىء . . . ثم قالت : لقد عرضت علي أختي بنت سفير السنغال أن أترك الشركة الى سفارتهم ، أجد الجو الاسلامي الذي يريحني من مضايقات المخالفين . فترددت أولا ، ثم رأيت أن أقبل هذا العرض وان كان دخله دون مرتبي الأول . لأنه سيوفر لي من الراحة النفسية ما أنا في مسيس الحاجة اليه . وفي هذه المناسبة أقول لكما أنني قررت الاكتفاء بالضروري من دخلي ، لأجعل ما يزيد عن حاجتي في خدمة الدعوة ، ولمساعدة الفقراء من لا جئي الألبان المسلمين . وسوف أفتح منزلي لاستقبال أطفال هؤلاء الذين تضطر أمهاتهم الى تركهم للعمل أثناء النهار . وعندي اقتراح آخر هو أن نتخذ من هذا المنزل مركزاً خاصا لاجتماعات نسوية اسبوعية تضم المسلمات وغير المسلمات ، من المثقفات الأوربيات اللواتي نأنس فيهن رغبة في الحق ، وقدرةً على فهمه .

وكانت الساعة قد بلغت الخامسة مساء. فتذكر الاخوان موعدهما مع بعض زملائهما الجامعيين من البلجيك والهولنديين ، فاستأذنا بالخروج لاستقبالهم ،

---

(١) ﴿ومن هدينا واجتبينا، إذ تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكيا﴾. (سورة مريم: ٥٨). ﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً، ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً﴾. (سورة الاسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩).

بعد ان اتفقا مع هدى على جميع النقاط التي أثارتها . ووضعوا لكل منها الترتيب المناسب . . .

* * *

فالمرجو من الشباب المؤمن أن يتأسى بتضحية هذين الشابين وطريقتهما في اعلان الاسلام ونشره بين رجالات الغرب ونسائهم ، وان يتعلم منهما الصبر والأناة والعفة والعفاف ، والثبات على المبدأ .

فللشاب أوقات فراغ يستطيع فيها أن يخدم دينه ، ويخدم الانسانية جمعاء ، بل ينقذها من هوتها السحيقة وويلاتها الفادحة ، وغيها وضلالها الفظيع ، فليست المناصب العلمية : (ما جستير ودكتوراه. . .) كل ما يزيّن الانسان ويجعله في مصاف الآدميين ، وانما النفس هي الميزان في كمال الشخص ، لا ما أملته الحافظة أو أنتجته الذاكرة بمساعدة الذكاء ، فالانسان انسان بنفسه : بكمالها وفضائلها وجهادها ، لا باختراعاته وابتكاراته فحسب فرب رقاع أعلى نفساً وأرفع كمالاً وأقرب الى الله ممن بلغ مرتبة «أينشتاين» في عالم الكشف والاختراع وقد قال الله تعالى : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » ولم يقل أكثركم ذكاءاً أو اختراعاً . وقد قيل :

أقبل على النفس واستكمل فضائلها   فأنت بالنفس لا بالجسم انسان

وكم رأينا من شبان حازوا على شهادتين عاليتين أو أكثر ، أو نالوا درجة الدكتوراه ، الا انهم لم يتقدموا في الكمال النفسي شبراً واحداً . فهم يتقلبون في دور الخمور والفجور وهم من أسوأ الناس أخلاقاً وأقلهم وفاء وأشدهم بخلاً وأكثرهم تكبراً وأبعدهم عن الفضيلة ، حتى أنهم يتكبرون على الآباء ولا يقومون بأداء حقوق الامهات ، كأنهم وجدوا دون أن يقطعوا مراحل الطفولة ودون تحمل الآباء والامهات في سبيل نشوئهم أنواع الأتعاب والتضحيات . فبئس العلم المادي الذي لا يرافقه رقة ولطف وأخلاق وفضيلة . وبئس العلم المادي الذي يجعل النفس الانسانية من الغلظة والخشونة والقسوة كالحجارة أو أشد قسوة ، «وان من الحجارة لما يتفجر منه

الأنهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وان منها لما يهبط من خشية الله . وما الله بغافل عما تعملون[1]».

فلا بد من انقلاب جذري في حياتنا التعليمية في معاهد التدريس ، ومن رياض الأطفال الى التحصيل الجامعي ، انقلاب اخلاقي على ضوء تعاليم الاسلام ، فلم يترك الاسلام كلٍ ما يؤدي الى كمال هذا الانسان مذ نعومة أظفاره الى ان يترعرع الا وقد بيّن فيه حكمه بوضوح وجلاء ، فنحن بحاجة الى ايجاد جيل يمثل الانسانية والكمال الانساني خير تمثيل . وهذا لا يتحقق مع تقليد رجال التربية في الغرب في حقول الاخلاق والكمال النفسي ، بل يتحقق باتباع تعاليم القرآن ، ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور ويهديهم الى صراط مستقيم﴾[2] وقد قال علي عليه السلام : « ان هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش والهادي الذي لا يضل والمحدث الذي لا يكذب ».

فلا أخلاق فوق أخلاق نبينا محمد (ص) ولا كمال فوق كماله ، وقد خاطبه الله تعالى قائلاً : ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[3].

وقد صرح نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ان الله تعالى هو الذي أدبه بقوله : « أدبني ربي ، فأحسن تأديبي ». فعلى حملة لواء العلم والاخلاق في مدارسنا على اختلاف مراتبها ودرجاتها أن يتأدّبوا بأخلاق الرسول (ص) وأهل البيت عليهم السلام كي يتأدب من يربونهم بآداب محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته (ع) : بآداب الاسلام المثالية ، ليمثلوا الكمال الانساني قبل أن يكونوا علماء في مختلف الفروع من العلم المادي . فقد قال علي عليه السلام : « كثرة العلم في غير طاعة الله مادة الذنوب ». وقال أيضاً : « ان الناس الى صالح الأدب أحوج منهم الى الفضة والذهب» وقال أيضاً : « ان الحازم من شغل نفسه بجهاد نفسه ، فأصلحها وحبسها عن أهويتها ولذّاتها فملكها . وان للعاقل بنفسه عن الدنيا وما فيها وأهلها شغلاً ». وقال أيضاً :

---

(١) سورة البقرة: ٧٤.

(٢) سورة المائدة: ١٥ ـ ١٦ .

(٣) سورة القلم: ٤ .

« ان العاقل من نظر في يومه لغده ، وسعى في فكاك نفسه ، وعمل لما لا بد له ولا محيص عنه ». وقال أيضاً : « ان الحازم من قيَّد نفسه بالمحاسبة وملكها بالمبالغة وقتلها بالمجاهدة ».

وقال عليه السلام أيضاً : « ان من أحب العباد الى الله سبحانه عبداً أعانه على نفسه فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف ، فزهر مصباح الهدى في قلبه وأعد القرى ليومه النازل فيه».

وقال أيضاً : « ان أفضل الناس عند الله من أحيا عقله وأمات شهوته وأتعب نفسه لصلاح آخرته ».

وقال أيضاً : « ان الكيس من كان لشهوته مانعاً ولثروته عند الحفيظة واقماً قامعاً»[1].

فطوبى للمجاهدين في سبيل نشر حقائق الاسلام في البلاد الاسلامية وخارجها وهو القائل : ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وان الله لمع المحسنين»[2].

وقد قال علي عليه السلام : « ان من بدل نفسه في طاعة الله سبحانه ورسوله كانت نفسه ناجية سالمة ، وصفقته رابحة غانمة ».

* * *

ويجدر بنا ان نذكر هاهنا بايجاز آراء بعض الشخصيات الذين اعتنقوا الدين الإسلامي في الغرب نتيجة بحث وتنقيب وتتبع عميق دليلًا على أن الاسلام هو الدين العالمي في مستقبل قريب وانـه هو دين الله في أرضـه وسمائه : « إن الدين عند الله الاسلام »[3] [4].

---

(١) واقماً: وقم الدابة: جذب عنانها لتقف. والحفيظة: الغضب والحمية في الشيء الذي ينبغي أن يحفظ.

(٢) سورة العنكبوت: ٦٩.

(٣) سورة آل عمران: ١٩.

(٤) اقتبسنا هذا الفصل بكل ايجاز من كتاب: «لماذا اخترنا الدين الاسلامي» الذي صدر حديثاً لمؤلفه الأستاذ السيد محمد الرضي الرضوي.

١ ـ اللورد هيدلي رئيس الجمعية الاسلامية البريطانية : يحدثنا بقوله :

« ينظر الأوروبيون دائماً الى الاسلام كأنه وحشية وهمجية . فلو علموا كل ما فعله محمد لإزالة التوحش والهمجية التي لقيها داخل بلاد العرب لغيروا تلك الأفكار حالاً . إنهم هم المبشرون المسيحيون الذين لم يدخروا وسعاً في تحريف الديانة الاسلامية ، وان هذا لأعظم الكذب الذي يخزيهم وان كانوا ليظنون أن ما يفعلونه حسن ، فما أعظم الفرق بين الطمس التعمدي للحقيقة وبين الحالة التي يسير عليها المبشر المسلم في عمله . روح الاسلام تحلق فوق أشياء أرقى وأرفع من تلك الاطماع الدنيئة والاختلافات الجنسية في الشرق والغرب » .

« روح الشكر هي خلاصة الدين الاسلامي ، والابتهال أصل في طلب القيادة والارشاد من الله . وان كان شكري لله على كرمه وعنايته كان متأصلا فيَّ من صغري وأيام حداثتي ، الا أنني لا استطيع أن أشاهد ذلك من خلال السنين القليلة الماضية التي قرع فيها الدين الاسلامي لبي حقاً وتملك رشدي صدقاً وأقنعني نقاؤه وأصبح حقيقة راسخة في عقلي وفؤادي اذ التقيت بسعادة وطمأنينة ما رأيتها قط من قبل ونجوت من العقائد الغربية المتعلقة بسائر فروع الكنيسة المسيحية المختلفة واستنشقت تلك النجاة كما استنشق هواء البحر الخالص النقي . وبتحقيقي من سلاسة وضياء وعظمة الاسلام ومجده أصبحت كرجل قفز من سرداب مظلم الى فسيح من الأرض تضيئه شمس النهار» .

« حياة محمد كمرآة أمامنا تعكس علينا التعقل الراقي والسخاء والكرم والشجاعة والاقدام والصبر والحلم والوداعة والعفو وباقي الأخلاق الجوهرية التي تكوِّن الانسانية ونرى ذلك فيها بألوان وضاءة» .

« لم يشهر السلاح محمد الا عند الحاجة القصوى لحماية الحياة البشرية وربما ادُّعي بأن الاسلام استعمل السيف في نشر الدين ولكن ألدُّ أعداء الاسلام القادحين فيه عجزوا عن ان يأتوا ولو بأقل دليل أو مثل من الامثلة التي أثر فيها الحرب في هداية أية قبيلة أو شخص الى الاسلام » .

« والحق اننا نرى من بين جميع الأنبياء الذين أسسوا ديانات ، أن محمداً

هو الوحيد الذي استطاع أن يستغني عن مدد الخوارق والمعجزات المادية معتمداً فقط على بداهة رسالته ووضوحها وعلى بلاغة القرآن الإلهية وان في استغناء محمد عن مدد الخوارق والمعجزات لأكبر معجزة على الاطلاق ».

« ومن مميزات الاسلام الأصلية ملائمته لجميع الأجناس البشرية . فلم يكن العرب وحدهم هم الذين اتبعوا الاسلام . فدين الرسول محمد عليه السلام قد أكد من الساعة الأولى لظهوره ، وفي حياة النبي عليه السلام انه دين عام صالح لكل زمان ومكان ، وإذا كان صالحاً بالضرورة لكل جنس كان صالحا بالضرورة لكل عقل ، اذ هو دين الفطرة ، والفطرة لا تختلف في انسان عن آخر ، وهو لكل هذا صالح لكل درجة من درجات الحضارة ».

٢ ـ المستر آرثر : يقول:

« يريد كل منا أن يختار لنفسه الأحسن ـ أحسن الأطعمة ، أحسن المساكن ، أحسن المراكز ، أحسن الاخوان ، ولكن ، كم منا فكر في أن يختار أحسن الديانات ، ان معظمنا راضٍ بالدين الذي وجد عليه آباءه ، وفراراً من التعب نترك البحث ونكون مصداق هذه الآية المباركة ﴿وإذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول ، قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا . أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾. (سورة المائدة : ١٧).

إني لأتجاسر على أن أقول : اذا عينت لجنة من الانكليز الأكفاء حقيقة ممن هم على شاكلة المأسوف عليه : اللورد سالسبري والمأسوف عليه اللورد : بيكو نسفيلد والمستر بلفور واللورد هالدين والسير روفس اسحاق . . الخ لفحص الدين الذي يجب أن يتدين به العالم كله لأجمعوا أمرهم على أن يختاروا الدين الاسلامي الذي يشهد له العقل ، والذي يجيب رغبة الفؤاد والروح الشديدة من الاتصال بالخالق سبحانه وتعالى. . .

٣ ـ و. ب . فارمر : w B. Farmer يقول :

أولاً : ان الدين الاسلامي دين عملي ، دين منزه من المخبئات والخرافات دين يسهل فهم مغزاه ، دين مبرأ من كل ما يخالف العقل ، ولم تتراكم فيه عقد الفلسفة الألوهية .

ثانياً : انه دين يتعرض للأمور الأساسية الأصلية ، وانه دين يزاول القوانين الأولية للطبيعة والفطرة ، وانه لا يعرف فصلاً بين الدين والعلم ضمن ترجيحه لعلم الديانة على سائر العلوم . لأنه علم المكرمات وعلم الحياة السعيدة الموفقة .

ثالثاً : للاسلام أحكام تامة وقوانين كاملة في جميع مراحل الحياة البشرية على هذه البسيطة في كل ناحية من النواحي الاجتماعية والادارية والعسكرية والتجارية .

يشتمل الاسلام على دساتير توضح السبل وترشد الى الطريق ، الاسلام ينظم كل عمل تحتاج البشرية الى مزاولته .

الاسلام له المام بالظروف الراهنة في الحياة وهو دين جاء لهذا البشر العائش في عالم الدنيا .

٤ ـ الدكتور جرموناس الاستاذ بجامعة بودابست : يقول :

« خالجني منذ طفولتي حنين الى أرض الاسلام وكأنها أرض الميعاد الخيالية . فإن الاندفاع نحو الأهداف المادية والرغبة الملحة في السرعة وهما طابع الحضارة الاوربية أبديا لي الشرق الاسلامي دنيا سحرية تفيض بالشعر وتزدان بالمثل الانسانية . واني أنا الرجل الأوروبي الذي لم يجد في بيئته الا عبادة الذهب والقوة والسطوة الميكانيكية ، تأثرت أعمق التأثر ببساطة الاسلام وعظمة سيطرته على نفوس معتنقيه» .

« وبينما التمس الاوربيون أسباب سعادتهم في الاستزادة من نعيم البدن كفل الاسلام للانسان راحة نفسه ، اذ قامت تعاليمه على أن السعادة لا تكون في عرض زائل كسيارة أو طيارة ، بل في رضا الضمير ، وسبيله أن يقوم الانسان بواجبه نحو ربه ونحو الناس ، فيحس الأفراد بعد الوفاء بهذه الواجبات اطمئناناً قلبياً أطول عمراً من السعادة العابرة التي تصدر عن طريق الأسلحة وتنبعث عن الرغبة في التدمير» .

« ولقد وهم السطحيون من الناس ـ حين قارنوا حال الدولة الاسلامية بتزايد نفوذ الدول المسيحية ـ ان الدين الاسلامي هو علة سقوط دولة

المسلمين . ولكني أستطيع أن أجهر بمنتهى الجرأة بعد أن قرأت كتاب المسلمين المقدس وثقافة الاسلام بأنه لا يوجد في تعاليم الاسلام كلمة واحدة أو عمل واحد من شأنه أن يعوق تقدم المسلمين أو يمنع زيادة حظه من الثروة والمعرفة والقوة ».

« ان محمداً رسول الله لأعظم مصلح ثوريٍّ عرفه التاريخ مؤيَّد بوحي من عند الله.. ونحن مأمورون أن نفهم تعاليمه ونطبقها على شؤون حياتنا الدنيوية مع الايمان بأن ما أوحي به اليه انما هو أساس لا يهتز ولا يتعثر لكونه إلهياً ».

« ولقد أخطأ المسيحيون اذ لم يفهموا الاسلام على حقيقته وبالتالي لم يتشبعوا بروحه ».

« ان أوروبا لم تعرف الاخاء بين الناس الا بعد الثورة الفرنسية ، بينما دعا الاسلام اليها وطبقها المسلمون قبل ثورة فرنسا بنحو ألف عام ».

« وأني لأجرؤ على القول : بأن الاسلام منح المرأة حقوقاً قانونية أكثر مما كان لها في ظل المسيحية ، ولقد اعترف باباحة تعدد الزوجات في حدود معقولة : بالأمر الواقع أي بما تقتضيه غريزة الرجل ، فحال بهذا دون تعدد الزوجات غير المشروع الذي يسود الجماعة الأوروبية في هذه الأيام ».

« لقد كانت المادية الصارخة والتشيع للأجداد أي الايمان باللحم والدم هي الدوافع المحركة قبل الاسلام ، وكان العنف هو الحكم الأسمى ، وهنا جاء وحي القرآن وهبطت كلمة الله معلنة بأن التفاخر بالانساب والاعتزاز بصلة الدم والتشيع للجنس لن تؤدي الى صيانة الحياة الانسانية ولا الى تحقيق الهدوء والنجاح ، وان الطريق الى ذلك هو تقوى الله والصلاح واتباع قوانين السماء».

لقد وضع الاسلام حداً للنظرية التي كانت تعتبر الانسان وحدة في قبيلة أو وحدة في شعب أو ابناً للغة من اللغات ، وسمى بالأفراد من وهدة الحيوانية الى افق انسانية فسيحة .

واني لأؤمل بل أتوقع أن يكون الاسلام قادراً مرة أخرى على تحقيق هذه

المعجزة في الوقت الذي تحيط بنا فيه ظلمة كثيفة ، واني لأمد يدي لاخواني المسلمين وأنخرط في صفوفهم مجاهداً في سبيل الاسلام باذلاً ما أستطيع من اخلاص وحسن طوية كاشفاً عن الجروح باحثاً عما يطهرها ويشفيها متحملاً في سبيل ذلك ما يتحمله المجاهدون من نصب مؤملاً في النجاة التي كتبت للمتقين » .

٥ ـ الدكتور بنوه (علي سلمان) : الكاثوليكي الفرنسي يعتنق الدين الاسلامي ، فيقول :

« كان شعوري بوحدانية الله يمنع عليَّ قبول مبدأ : « ثالث ثلاثة » كما انه كان بطريق التبعية يحول بيني وبين الاقرار بألوهية المسيح . وبهذا كنت على اتفاق تام من حيث لا أشعر مع ما يتضمنه الشطر الاول من شهادتنا (لا إله إلا الله) ومع روح سورة الاخلاص : « قل : هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ». وعليه يتبينَّ ان اعتناقي الاسلام كان راجعاً أول مرة الى أسباب روحية ، الا ان أسباباً اخرى حملتني على دخول هذا الدين ومن بينها عدم الرضى بالرهبانية التي يجترىء أصحابها على نيل سلطة يعتقدون من ورائها انه يمكنهم محو السيئات البشرية ، وما كانت ترضيني كذلك الطريقة المتبعة عند الكاثوليكيين : (التعميد) وهي زعم ادماج روح المسيح في الأطفال بواسطة تناول القربان المتمثل فيه بدن المسيح .

« ثم ان نصوص بعض آي الكتاب الموحى به على نبينا منذ ما يزيد على ثلاثة عشر قرناً تتناسب وأحدث مبادىء العلوم العصرية ، وكان من جرَّاء هذه الملاحظات ان آمنت نهائياً ، فأصبحت بهذا على وفق الشطر الثاني من شهادتنا : (محمد رسول الله) . . .

٦ ـ الدكتور حميد ماركوس الالماني يعتنق الدين الاسلامي الحنيف ويقول :

« زاد الاسلام في أفكاري وتصوراتي كثيراً مما يرجع الى الشؤون البشرية والوداد الانساني مما لم أجدها في مجالات اخرى ولم أسمع بها من سواها ، ان التوحيد الاسلامي عقيدة قدسية منزهة عن الخرافات التي لا تتلاءم والعلوم

الحديثة ، ولذلك لا مضادة بين العقيدة والعلم في الدين الاسلامي ، فهذا امتياز خاص عظيم في الدين الاسلامي يهتدي به رجل صرف جلّ مقدرته واستعداداته في سبيل العلوم ».

« والامتياز الثاني لهذا الدين : أنه ليس جملة من تعاليم فارغة ، وأماني خلابة تأخذ في طريقها العمياء في الحياة ، بل هي قواعد وأحكام نافذة في حياة البشرية مباشرة ».

«ان القوانين الاسلامية لا تسلب الاختيار والحرية الفردية ، بل هي ارشادات تهدف الى تأسيس حرية جماعية عامة . ان الاسلام واسطة ذهبية لربط الحياة الفردية بالحياة الاجتماعية ».

٧ ـ الاستاذ دونالد ركيول الامريكي يعتنق الدين الاسلامي ، فيقول :

« لفت نظري بساطة العقيدة الاسلامية وسهولتها ،فليست هناك أسرار ولا ألغاز نؤمن بها ولا نناقشها ، بل مرد الايمان الى العقل والنظر في ملكوت الله ، وما في الكون من نظام بديع ، يهدي ، بالضرورة ، الى وجود آله متصرف له الخلق والأمر ».

فإذا عرفت الله وآمنت به ، فالاسلام يقول لك ان الله أقرب الى الانسان (من حبل الوريد) والله يخبرك عن نفسه فيقول : ﴿وإذا سألك عبادي عني فاني قريب ، أجيب دعوة الداعِ اذا دعان﴾[١]، فلا ضرورة من ثم للوسيط بينك وبين خالقك ، ولا حاجة بك الى كاهن تعترف له فيقبل التوبة منك[٢] ، ؛ أو هيكل لا تتم العبادة الا فيه ، « ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثم وجه الله ». (سورة البقرة : ١١٥).

« وراعني تلك السماحة التي يعامل بها الاسلام مخالفيه: سماحة في السلم وسماحة في الحرب ولين مع أهل الكتاب من نصارى ويهود ».

« والجانب الانساني في الاسلام واضح ملموس في كل وصية من وصاياه

---

(١) سورة البقرة: ١٨٦.

(٢) ﴿ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾. (سورة آل عمران: ١٣٥).

وفي كل تشريع جاء به ، فالناس وان اختلفوا في حظوظ الدنيا ومتاعها فهم متساوون أمام الله ، لا فضل لأحد على آخر بسبب غنى أو جنس أو لون وانما يتفاضلون بالتقوى »[1] .

« وللفقير والعاجز والمحتاج (حقه المعلوم) على القادرين ، يؤدونه زكاةً واجبة . والاسلام لا يقعد بمتبعيه عن ركب التقدم والعمران ، بل يأمر الناس أن يأخذوا بالاسباب ، فقد قال النبي الكريم : (اعقلها وتوكل). « وهو لا يحرم الانسان الطيب من متاع الدنيا » .[2].

٨ ـ كونراد (خالد) الانكليزي يعتنق الدين الاسلامي الحنيف ، وهو من الأسرة الملكية ، وقد أذاع في أواخر العام الماضي رسالة باللغة الانكليزية عنوانها : (الاسلام دين البشر)، جاء فيها قوله: اني لسعيد ومغتبط أن أجدني قادرا على القول بأني مسلم ، وان الاسلام وحده هو الدين الحق وان رسالته بسطت للبشر رواق الأمل في الحياة على حين أن غيره من الأديان ينهار اليوم ويتداعى للسقوط.

٩ ـ كنود هلميو (علي أحمد كنود هلميو) كاتب صحفي دانمركي كبير يعتنق الدين الاسلامي الحنيف ، وهو مؤمن من أعماق قلبه ان مستقبل العالم

---

(١) ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ (سورة الحجرات: ١٣).

(٢) ولا بأس بذكر صك الغفران بالمناسبة ها هنا. فقد ذكر الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه: «إظهار الحق»: «اخترع البابا: (لاون العاشر) للمغفرة تذاكر تعطى منه أو من وكيله للمشتري بمغفرة خطاياه الماضية والمستقبلة أيضاً، وكان مكتوباً فيه: «ربنا يسوع المسيح يرحمك ويعفو عنك باستحقاقات آلامه المقدسة. وبعد، فقد وهب لي بقدرة سلطان رسله بطرس وبولس والبابا الجليل في هذه النواحي أن أغفر لك: أولاً: عيوبك الاكليروسية مهما كانت، ثم خطاياك ونقائصك، ولو كانت تفوت الاحصاء، بل أيضاً الخطايا المحفوظ حلها للبابا وبقدر امتداد مفاتيح الكنيسة الرومانية أغفر لك كل العذابات التي سوف تستحقها في المطهر، وأردك إلى أسرار الكنيسة المقدسة وإلى اتحادها وإلى ما كنت حاصلاً عليه عند عمادك من العفة والطهارة. حتى أنك متى مت تغلق في وجهك أبواب العذابات وتفتح لك أبواب الفردوس، وان لم تمت الآن فهي باقية لك بفاعلية تامة إلى آخر ساعة موتك باسم الأب والابن والروح القدس. آمين».

للاسلام . وان النصرانية قد فشلت ، وان الاسلام هو الحياة بذاتها وسيبقى الى الأبد . ويقول : قد منيت الكتب السماوية قبل القرآن بالتحريف فليس الا القرآن هادياً للانسانية .

١٠ ـ The Reverend R. G. Flowers (رج فلورز) قسيس بريطاني يعتنق الدين الاسلامي . انه يقول : « العلة التي دعتني لمتاركة فرقتي الغربية (الفرقة الارتودكسية) واعتناق الدين الاسلامي ذات أهمية ، تمس صميم الحياة ، فليست هي من الطفيليات الآنية وليدة العواطف والأحاسيس الطارئة ، بل هي نتيجة المراجعات الكثيرة التفصيلية الضرورية ، ووليدة التفكير العميق واستجابة للأدعية والطلبات من الباري جل شأنه ».

ويقول أيضاً في كتاب أرسله الى رئيس جمعية الشيعة الامامية في لندن : « ان قلوبنا وأرواحنا لتتلهف على أشد الاشتياق الممكن لنكون دعاةً فعالة الى الدين الاسلامي في العالم . ونسأل الله العظيم ان يمنحنا حياة سليمة مقرونة بالصحة كي نوفق الى هذا الهدف المقدس .

١١ ـ Count Edward gioja (الكونت ادوارد كيوجا) الايطالي يعتنق الدين الاسلامي الحنيف ويقول: «قمت في تحقيق ومطالعات حول الأديان كلها: قديمها وحديثها، وقايست بين واحد واحد منها، ونظرت اليها بمنظار النقد والتمحيص، فكانت النتيجة أن جهودي في ذلك حفزتني شيئاً فشيئاً إلى الاعتقاد بأن الايمان والعقيدة الاسلامية هو الدين الثابت الحقيقي. وان القرآن ليتضمن بين دفتيه كلما تحتاج إليه الروح الانسانية في ارتقائها وكمالها المعنوي.

١٢ ـ J. W. Lovegrove (ج. و. لاف كروف) يعتنق الدين الاسلامي ، فيقول : « لا يعتقد انسان بدين خرافة[1] ما لم يسحق نداء عقله

---

(١) ومن الخرافات التي أشار اليها ما جاء في الباب التاسع عشر من سفر التكوين: أن لوطاً عليه السلام زنى بابنتيه بعد أن شرب الخمرة، فحملتا منه بالزنا، (٣٠ ـ ٣٨).
وفي الباب الثامن والثلاثين من السفر المذكور: ان يهوذا بن يعقوب عليه السلام زنى بثامار كنته فحملت بالزنا منه وولدت توأمين: فارص: (جد سيدنا عيسى عند المسيحيين) وزارح وداود وسليمان وعيسى عليهم السلام كلهم أولاد فارص المذكور كما=

بقدميه . فوظيفة الانسان تجاه ربه ومع جاره تجب ان تكون أساساً وهدفاً لكل دعوة دينية ، اما الاسلام فقد جعل من هذا القانون الخلقي دستوراً عملياً نافذاً عاماً» .

١٣ ـ محمد رايموند لويس ـ يعتنق الدين الاسلامي . ويصم السعادة في أوربا ، انه يقول : « السعادة ، يا لها من خيال ملؤه الأوهام ، أي سعادة ؟ فالبعد بينهم وبين السعادة شاسع جداً. وان جميع مزايا المدنية الغربية وتلكم الأماني المتفشية في دنيا الغرب لم تؤثر في نيل السعادة الحقيقية ولا يوجد لها أي أثر بتاتاً » . ويقول : الاسلام : الحجر الاساسي لكل صرح قويم تبتني عليه الأخوة البشرية .

١٤ ـ Ibrahim Voo (ابراهيم فو) المسيحي ، يعتنق الدين الاسلامي . فيقول : « اني قبل اعتناقي الاسلام كنت كاثوليكيا رومانياً ، بصورة لم أكن لأعتقد بمراسيم التثليث ، والعشاء الرباني ومعجزات المضيف . . فكنت مخالفاً للأسرار والمخبئات الدينية في حال لم أوع الايمان بالله تعالى، فلم يساعدني أي قسيس كاثوليكي في توضيح هذه المسائل بصورة مقنعة أبداً . والجواب الوحيد الذي كنت أتلقاه على استمرار هو : ينبغي للأسرار أن تبقى أسراراً ، ان المسيح آخر الأنبياء ، ومحمد مبطل في دعواه (هداهم الله الى الصواب)[1] . . .

= هو مصرح به في الباب الأول من انجيل متي). وجاء في الباب الحادي عشر (٢ ـ ١٦) من سفر صموئيل الثاني: أن داود عليه السلام زنى بامرأة أوريا الحثي وحملت منه، فأهلك زوجها بالمكر وأخذها زوجة له. وفي الباب الحادي عشر من سفر الملوك الأول (٤ ـ ١٣) ان سليمان عليه السلام ارتد في آخر عمره، وكان يعبد الأصنام بعد الارتداد وبنى المعابد لها ولم يحفظ ما أوصاه به الرب.

(١) يقول مؤلف كتاب «على حافة العالم الأثيري» فندلاي: يحدثنا مذهب القديس: أثنا سيوس: أننا إذا لم نصدق غير المعقول فأننا لن ننجو بل نهلك دون شك إلى الأبد، فكيف يستطيع عاقل أو عاقلة أن يقرأ هذا المذهب، ثم يقول في نزاهة: ان من خليط هذه الكلمات عديمة المعنى يتألف دينه الذي يعتنقه. وغير خاف أن أسقف كانتريري يؤيد الاعتقاد القائل: «بأن القسيس بتدشينه القربان يمكنه أن يجعل المسيح يجيء ويحل في خبز العشاء الرباني وخمره».

فعلمت بعد ان صادفت جماعةً من المسلمين في (مالايا): أن الاسلام دين العقل وان هذا الدين هو الدين الذي كنت أتطلبه باسم الحقيقة الواقعية فلا أحد ولا شيء يعبد سوى الله تعالى، ولا توجد في معبد اسلامي صورة وتمثال أو نقوش . ان الصلاة في المسجد نحرت قلبي الى الأبد. . .

١٥ ـ الاستاذ ويرنر الفريد المسيحي الكاثوليكي يعتنق الدين الاسلامي ويعمل في نشره ، وهو الآن رئيس الجمعية الاسلامية في هامبورك واسمه الجديد : الشيخ عمر شوبرت[١].

١٦ ـ لوماكس (محمد عز الدين) المسيحي الامريكي يعتنق الدين الاسلامي وهو يقول : ان المسيحيين لا يزالوان يعلمون الناس : ان المسلمين عبدة أوثان ، ولكن والحمد لله في عام ١٩١٧ م اعترتني مشاعر نفسانية دخيلة حركت قلبي ودفعت ارادتي الى اجتياز ٥٥٠ ميل لاقتات من فضلات موائد المسلمين ولآخذ من أدبيات روح الدين الاسلامي نصيباً .

١٧ ـ Oscar . J . Pfaus اوسكار . ج بفوس (جعفر حسن علي) المسيحي الالماني الطالب حالياً في المدرسة الصناعية العالية في ثاكسو والمؤسس للجمعية الإسلامية في المدينة نفسها (فاكسو ـ السويد) انه يقضي أكثر أوقاته في سبيل بث الدعوة الاسلامية هناك ، في شتى الأساليب ، في قطر يرى عدم رغبة أهله في أن يسمعوا عن الاسلام شيئاً . لأن دعاة السوء ملؤوا اسماعهم بأراجيف اختلقوها وأحاديث مشوهة للاسلام ابتدعوها ، ومع هذا فلم يفتر في عمله ولم يتوان في سيره ، وتأتي البشائر انه ناجح في ايجاد تاريخ اسلامي جديد.

---

(١) انه يوالي أهل البيت واختار مذهب أهل البيت من بين المذاهب الاسلامية، وعندما سئل، أجاب بقوله: من ذا الذي يترك عترة آل النبي مصطفى (ص) ومن ذا الذي هو في غنى عن شفاعتهم يوم الحساب. حيث روي عن الامام علي (ع) عن النبي (ص) أنه قال: «ألم تسمع قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية﴾ هم أنت وشيعتك وموعدي وموعدكم الحوض، إذا جاءت الأمم للحساب، تدعون غراً محجلين. . . وأضاف قائلاً: فأنني أطمع في أن أكون أحد الذين ينالون شربة من يد الامام الكريمة.

١٨ ـ ليوبولد فايس (محمد أسد) النمساوي ـ يعتنق الدين الاسلامي وهو من كبار الصحفيين ـ أخذ يجاهد مجاهدة الابطال بعد اعتناقه الدين الاسلامي لبث الدعوة الاسلامية وتفهيم حقائق الاسلام . انه يتأسف للاسلام فيقول : ان الحياة الاسلامية في الواقع تظهر على كل حال في أيامنا الحاضرة بعيدة جداً عن الامكانيات المثلى التي تقدمها التعاليم الدينية في الاسلام . من ذلك مثلاً : أن كل ما كان في الاسلام تقدماً وحيوية أصبح بين المسلمين اليوم تراخياً وركوداً ، وكل ما كان في الاسلام من قبل كرماً وايثاراً أصبح اليوم بين المسلمين ضيقاً في النظر و(أنانية) وحباً للحياة الهنيئة .

لقد تحققت ان ثمة سبباً واحداً فقط للانحلال الاجتماعي والثقافي بين المسلمين ، ذلك السبب يرجع الى الحقيقة الدالة على أن المسلمين أخذوا شيئاً فشيئاً يتركون اتباع روح التعاليم الاسلامية ، فنتج من ذلك ، ان الاسلام ظل بعد ذلك موجوداً ، ولكنه كان جسداً بلا روح . واعتقد ان الاسلام من وجهتيه الروحية والاجتماعية لا يزال بالرغم من جميع العقبات التي خلقها تأخر المسلمين أعظم قوة ناهضة بالهمم عرفها البشر . وهكذا تجمعت رغباتي كلها منذ ذلك الحين حول مسألة بعثه من جديد.

١٩ ـ المستر هاري أ . هنيكل يعتنق الدين الاسلامي بعد بحث وتحليل عميقين . انه يقول : « من المفروض في كل مسيحي أن يعتقد بأن الكتاب المقدس ليس ككتاب ديني تجب قراءته ، بل قطعة نفيسة يزين بها بيته ، ولا ابالغ اذا قلت انه قد تنقضي السنون دون أن يخطر ببال أحد أن يلقي نظرة على الكتاب المقدس ، بل يظل كما صدر من المطبعة .

قال الاستاذ : شارلس فرانسيز في كتابه (قصة الدين) : الانجيل كتاب لا يعرفه أحد في أمريكا ، اما القرآن فهو كتاب يعرفه كل مسلم . وهذه عين الحقيقة ، ومن حسن حظ الديانة المسيحية أن الانجيل كتاب لا يعرفه أحد.

ويقول المستر هاري : الاسلام دين العقل والتسامح وهو خالٍ من كل شائبة . وجدت الاسلام يشجع على متابعة الحقيقة ، وأن صحائف التاريخ مملوءة بالحقائق التي تثبت عرقلة الاديان الاخرى للمدنية والعمران وذكر الكاتب أحاديث نبوية كثيرة عن العلم والسعي للمعرفة.

وقال يوسف مكاب ، أحد الملحدين : ومن الصعب جداً وجود علم غير مدين بفضله للاسلام .

ويقول المستر هاري المسلم : « ولا أتردد لحظة في القول ثانية : لو كان الاسلام منتشراً في الغرب أكثر من انتشاره اليوم لأدهش العالم المتمدن بكثرة أنصاره ومشايعيه ويرجع السبب في عدم انتشاره الى تشويه الحقائق التي يتعمدها البعض ممن يتصدون لترجمة الكتب الاسلامية الى اللغات الاخرى . ومع هذا فالزمان وحده كفيل بازالة هذه الصعوبة .

٢٠ ـ الاستاذ فؤاد غريب يعتنق الدين الاسلامي الحنيف معجباً بالعدالة الاسلامية وبالسيرة النبوية وبالديانة الاسلامية الغراء . . ويقول :

قد بلغت قسطاً من الثقافة يدلني على المحجة ويومىء لي الفوز. ووقفت يوماً أتأمل هذه الروح المتأججة في صدري والثائرة بين جوانحي والتي تحاول أن تتنفس بشيء لم أكن لاستطيع التعبير عنه انذاك ، وأفقت من حيرتي واضطرابي ، ودلفت مستهدياً الى أخي : (الأديب)، أسأله ان يدلني على (روح الاسلام) التي قصرت عنها حتى ذلك الحين بكل صراحة فلا يتبع معي مجاملة أو غيرها ، وكنت من الاندفاع بحيث قلت متمثلاً : (فان لم تفعل ما تؤمر فما بلّغت). فانفجر بين يديَّ باكياً يضمني الى صدره ويقول : « لتجدنَّ أشد الناس عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدنَّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك : بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ، وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون : ربنا ، آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ».

وغرقت في دموعه وغرق في دموعي ، فما كنت أناجيه ، أخي : نعمان ، الا كأني أحس بصوت إلهي يتردد في كياني ويهزني بعنف وقوة ، حيث كان يسمع صوت محمد (ص) يتردد في حديثه لأصحابه : أخي عيسى ، وانتبهت بعد غفوة لأجد هدية صاحبي بضعة كتب تصور الاسلام بأجلى صورة وتنافح عن الروحانية الحقة وتفتح في النفس آفاقاً من الحرية والانسانية . وعلمت ان الاسلام التحرير الأعظم للانسانية .

ثم يقول : « وقد يكفي للتدليل : موقفه يوم حنين وكيف كان يسند صحابته المنهزمين من الانهيار ، فينال الأذى الكبير ، ولكن لم ينس واحداً منهم ، فقد كان يتفقدهم واحداً واحداً ، ويناجي ربه داعياً : « ربِّ ان تهلك هذه العصابة فلن تعبد في هذه أبداً » .

وبمثل هذا الايثار وهذه التضحية لم يكن النبي محمد (ص) ليفرق نفسه عن أصحابه ولا الكتاب . فقد جاء في سورة البقرة : « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير» .

« فأي عدالة سماوية واجتماعية هذه التي لا تفرق بين الكتب المنزلة ، ولا بين الرسل ، انها رسالة محمد، وانه القرآن العظيم ، أللهم فاشهد: أني آمنت بمحمد» .

٢١ ـ الاستاذ يني يماني (زايد يحيى يماني). يعتنق الدين الاسلامي الحنيف بعد دراسات وبحوث في الأديان ، انه يقول :

« عندما يسألني سائل لماذا أسلمت ؟ أكاد أجيب ولماذا لا أسلم ؟ ولماذا لا يسلم كل باحث عن الحقيقة التي لا تخفى كثيراً وراء الحجب ولكنها مستعدة أن تتجلى له اذا هو رغب حقاً فيها ، وخطب ودها وسعى لها سعيها » .

« ان هذا السؤال لماذا أسلمت ؟ يوازي السؤال لماذا اهتديت ؟ وهذا يدخل في نطاق الغيبيات والاجابة عليه اجابة صحيحة كاملة من الخوارق ، لأن الله وحده هو علام الغيوب . هو الذي شاء لي الهدى فهداني : « من يهد الله فهو المهتدي»[1] .

يقول : كان أبي مسيحياً متديناً وكانت أمنيته ان أسير على نهجه في تدينه ، فلم يدخر جهداً لهذا . فبعث بي الى مدارس (الفريرFrerer) لكني بدل أن أؤمن بما كانوا يلقنونني اياه أصبحت أشك فيه ، حتى اذا بلغت أربعة عشر ربيعاً كنت زنديقاً لا أؤمن بشيء ، وضاعف من زندقتي خرافات دينية

(١) سورة الاعراف: ١٧٨ .

لا يصدقها العقل المجرَّد ، فصرت أدرس العقائد والديانات جميعاً واقارن بينها ، فعرفت ان الله هو الحقيقة العظمى وان كل شيء سواه باطل . عرفت ان الله كما يقول (ابن سينا) الوجود المحض ، والحق المحض ، والخير المحض ، والعلم المحض ، والقدرة المحضة ، والحياة المحضة.

ولما كان الذي جاء بالاسلام هو محمد رسول الله (ص) فقد كان طبيعياً أن أؤمن به وأشهد بصدق رسالته ، وبالقرآن الذي أنزل معه وبالتعاليم الانسانية التي جاء بها .

٢٢ ـ ارنستتشريريالبرازيلي (محمد عبد الرحمن) يعتنق الدين الاسلامي فيقول : «الاسلام ليس دين تفرقة عنصرية ولا يدعي أبناؤه انهم الشعب المميَّز أو الجنس المختار وأكثر من ذلك فهو دين عالمي للناس جميعاً.

٢٣ ـ Feysal W. Wagener (فيصل و. واكنر) الهولندي أحد أعضاء الكنيسة الكاثوليكية يعتنق الدين الاسلامي ، في كانون الثاني لسنة ١٩٥٢م، فيقول :

« علائق متعددة الجوانب وفحص دائم عن الدين الحق حفزتني نحو الكتب والمنشورات الاسلامية ».

ويقول : « ان قولة الرسول (ص) : اطلبوا العلم ولو بالصين عرفتني شدة الأواصر الوثيقة بين الاسلام والعلم ، وهذه ميزة لهذا الدين لا تجدها في تاريخ الكنائس المسيحية بتاتاً ».

« وان دراسة أعمق حول الاسلام أبدت لي أن الاسلام مجموعة من قوانين وأحكام كافلة لنواحٍ شتى ، دينية وأخلاقية ، اجتماعية واقتصادية ، سياسية وقضائية ».

٢٤ ـ اشميتس دور مولين المهندس (محمد عادل بك) المهندس الالماني يعتنق الدين الاسلامي ويعمل لأجل نشر الاسلام بين أهل وطنه والدفاع عنه وعن المسلمين فألَّف كتباً عدة أشهرها : (الاسلام)، (في الحرام)، (استانة)، (بلدة الاسلام)، وقد أثبت عادل بك في مؤلفاته ان الاسلام قريب جداً من النصرانية الحقيقية ، وان ما عليه العالم المسيحي الآن من

التقاليد والعادات مفسدة كبيرة ومدعاة الى الشهوات البهيمية والفقر المدقع وغير ذلك من المصائب والأمراض الاجتماعية .

٢٥ ـ الفونس اتيين دينه (ناصر الدين) الفنان الفرنسي يعتنق الدين الاسلامي بعد دراسة طويلة ، فيقول : « ان العقيدة المحمدية لا تقف عقبة في سبيل التفكير ، فقد يكون المرء صحيح الاسلام وفي الوقت نفسه حر التفكير ، وكما ان الاسلام قد صلح منذ نشأته لجميع الشعوب والأجناس فهو صالح كذلك لكل أنواع المدنيات ».

ويقول : « ان الاسلام يلائم جميع ميول معتنقيه على اختلاف مشاربهم فهو ببساطته المتناهية . . . يهدي علماء أوروبا وآسيا الى الطريق المستقيم ويجدون فيه تعزية وسلوى من غير ان يحول بينهم وبين حريتهم التامة في آرائهم وأفكارهم ، كما انه تعزية وهدى لزنوج السودان الذين ينتزعهم من أحضان أوهامهم الوثنية . . ويرقى في بروج ذلك التاجر الانكليزي رجل العمل الذي يعتبر الوقت من ذهب ، كما يرقى بروح الفيلسوف المتدين ويسمو بنفس الغربي الشغوف بالفن والشعر ، بل هو يسحر لب الطبيب العصري بما قرره من الوضوء المتكرر كل يوم وبما في الصلاة من حركات منتظمة تفيد الجسم والروح معاً ».

ومن جملة مؤلفاته في الاسلام: (السيرة النبوية) في مجلد كبير وضعه باللغة الفرنسية وزينه بالصور الملونة البديعة الكثيرة المتنوعة من ريشته الخاصة، يمثل فيها المناظر الاسلامية ومشاهد الدين ومعالمه، ونشره كذلك باللغة الانكليزية بنفس الحجم الكبير والاتقان التام.

٢٦ ـ وارتون كرباسين (حسين اثنا عشري) الشاب الباريسي، يعتنق الدين الاسلامي الحنيف، فيقول: «وكانت الليالي فرصة معتنمة للمطالعة حول الدين الاسلامي، وقرأت القرآن عدة مرات، ولكني أصبت مدة اقامتي بالمحمرة (خرم شهر) بمرض (سينوزيت) بصورة شديدة جداً فكان يؤلمني ليل نهار. وانتهت نظريات الأطباء إلى العمل الجراحي ولم تطاوعني نفسي.

وصادفت تلك الأيام وهي السنة الماضية شهر المحرم (شهر الامام حسين

عليه السلام) وفي جواري دار واسعة، مغطاة بخباء كبير أعدَّت للتعزية بمناسبة الوقت، وكانت المآتم تقام في الليالي وتلقى فيها ذكريات المصائب وكلمات الوعظ والارشاد، فاعتدت الجلوس وراء الشباك، والاستماع إلى المصائب والكلمات.

فاتفق ذات ليلة أن قدَّم إلي أحد خدمة المأتم طبق شاي وقال: أيها السيد تشتهي أن تشرب شاي الامام الحسين عليه السلام؟ فقبلت منه على اشتياق ورغبة تامة، وعندما لمست شفتاي ذلك الشاي أحسست أن نوراً خاطفاً في فكري، فناجيت ربي: (إلهي بحرمة الامام الحسيْن ومنزلته أرني معجزة خارقة لأستريح من هذا الألم ومن شدة مرض (السينوزيت) المهولة، وفي اليوم التالي وعند نهوضي من فراش النوم رأيت عجباً، أن المعجزة وقعت وشفيت رأساً.

فكانت مطالعاتي السابقة حول الاسلام وهذه الواقعة العجيبة التي شاهدتها عيناي أثرت أثرها في نفسي، فصممت على اعتناق الدين الاسلامي وبعد أشهر عدت إلى طهران ومنها إلى (قم) وحضرت مجلس آية الله (شريعتمداري)، وأجريت مراسيم الشهادتين واعتنقت الاسلام وسُميت باسم: (حسين اثنا عشري).

وقد ذكرت مجلة (نور دانش) الزاهرة أن عمر هذا الشاب ٣٢ سنة ويعرف ست لغات.

٢٧ ـ (فرانسيسكو بايللي) الايطالي يعتنق الدين الاسلامي ويقول: «إن الفطرة الاسلامية مبثوثة بطبيعة الحال في نفوس كثيرين من الأوروبيين على غير علم منهم بأن ما يشعرون به هو عين المبادىء التي قررها الاسلام. فلو جاءهم الدعاة ووضعوا بين أيديهم الحقائق الاسلامية باللغات الأوروبية وبالأساليب التي يأنس الأوروبيون بها لتحوَّل هؤلاء جميعاً لهذه الدعوة يجاهدون في سبيلها ويفتحون الفتوح لهدايتها.

٢٨ ـ فيتورادي الميدا (عبد الله الاسلامي)) الشاب البرتغالي يعتنق الدين الاسلامي بعد دراسة وافية.

يقول الصحفي جبرائيل بقطر في مقال كتبه عن الشاب البرتغالي المسلم:

«وبعد عام ونصف عام ورد إليّ خطاب مكتوب بلغة عربية... من هذا الشاب البرتغالي المسلم... انه يذكرني بالمقابلة التي تمت بيننا في (لشبونة) ويروي لي قصة حياته بعد أن افترقنا، فيقول: أنه ترك لشبونة إلى طنجة بعد أن تزوَّج من سيدة برتغالية أسلمت بعد أن عرفت منه حقيقة الاسلام، وانه أنجب طفلة سماها (زهرة الورد). أما هو فقد أعلن اسلامه باسم (عبد الله الاسلامي)، وأنه أخذ في دراسة اللغة العربية ليستطيع قراءة القرآن الكريم وفهم معانيه... وأنه ما زال يتمنى أن يحج ويزور مكة المكرمة حيث بيت الله الحرام وكعبة المسلمين.

٢٩ ـ الأستاذ نشكنتا بادهيايا (محمد عز الدين) رئيس جامعة حيدر آباد سابقاً وأستاذ التاريخ في جامعة مهراجا في ميسوري يعتنق الدين الاسلامي بعد بحث عميق. واسمه بعد اسلامه: (محمد عز الدين).

كان في أول أمره شديد الاعجاب بمذهب العقليين ولكنه لم يلبث أن تحول عنه لأنه لم يُروِ له غليلاً. وأخذ بعد ذلك في درس الدين البوذي وأعجب بظاهر رفعته الأخلاقية، لكنه وجده أخيراً على عكس طبيعة البشر، فمله. ثم صار يقارن بين اليهودية والزردشتية والبرهمية والبوذية والنصرانية والاسلام. وفرغ نفسه مدة لدرس التصوف وعاد منه أيضاً غير مقتنع. ثم عاد إلى دراسة الاسلام بصورة مفصلة فاستماله وشعر بصحته وأسلم. وهو يبني رضاءه بالاسلام على أبواب ثلاثة:

١ ـ صحة أخبار الاسلام وأنه الدين التاريخي الوحيد.
٢ ـ موافقته للعقل.
٣ ـ أنه عملي (لا خيالي).

٣٠ ـ كروب الشاب المسيحي الأرمني يعتنق الدين الاسلامي رغبة في الحجاب الذي يأمر به الدين الاسلامي وتحريمه التبرج والسفور ويدعى بـ(علي اسلامي)، وهو مسلم جعفري يتابع مذهب أهل البيت (ع).

٣١ ـ (عبد الله وايسر) أحد علماء اللاهوت يعتنق الدين الاسلامي الحنيف وذلك أن: في روما كانت الكنيسة الكاثوليكية قد أعدت (عبد الله

وايسر) للتبشير في الهند وزودته بالدراهم الكافية، وأدخلته أحد المستشفيات الكاثوليكية ليتعلم صناعة التمريض لتساعده للتأثير في الهنود.

وقدم المستشفى مسلم هندي واحتكَّ بعبد الله فتعرف عبد الله على مبادىء الاسلام وكان قد درس أيضاً شيئاً عن الاسلام، فعبد الله، قبل أن يسافر إلى الهند للقيام بمهمة التبشير، عدل عما أنيط به ونطق بالشهادتين، وصار يحاضر عن الدين الاسلامي وندد بالكنيسة واستعبادها للعقول وسيطرتها على حرية التفكير.

٣٢ ـ عليجاه محمد البطل المتحرر والملون الأمريكي يعتنق الدين الاسلامي ويتبعه في ذلك (٢٥٠٠٠٠) من الملونين الأمريكيين في أمريكا حالياً. وقد بنيت نتيجة جهوده المشكورة مساجد جميلة على أساليب حديثة في حارات الملونين يجتمعون فيها كل يوم لأداء فريضة الظهر جماعة، وان أصوات المؤذنين بكلمة التكبير والتوحيد من مآذن تلك المساجد كل صباح ومساء لتدوي في أرجاء مدينة نيويورك. وتوسعت دائرة نشاط (عليجاه محمد) إلى ٢٥ بلدة أمريكية منها: ديترويت، شيكاغو، بوستون، فيلادلفيا، سان فرانسيسكو، لوس أنجلس، كليولند، رايتون، اتلانتا، نيويورك.

٣٣ ـ بقيا الشاب المسيحي الأرمني يعتنق الدين الاسلامي عام ١٣٨٠ هجرية. أنه يقول قد قرأت في انجيل يوحنا المطبوع في لغتنا الأرمنية قولاً عن عيسى أن نبياً يأتي من بعدي هو خاتم الأنبياء.

ويقول: أن الأرامنة بعد أن يموت الميت منهم يزين بملابس عرسه وبالحلي والحلل ويوضع في صندوق ويدفن في الأرض وبعد الفراغ من الدفن يشربون الخمر على قبره ويطربون، ثم يتوجهون إلى الكنيسة للمغازلة ولأعمال تخل بالشرف. وكان لهذه الأعمال أثر سيىء في نفسي، فاتفق أني حضرت تشييع جنازة أحد المسلمين وشاهدت صنع المسلمين عند دفن موتاهم وما يقومون به من أعمال بعد الدفن، فرأيت الحقيقة في الاسلام، فذهبت إلى العلامة الشيخ مصطفى الآملي في (دزفول) وأسلمت على يديه وسماني (محمداً) ولقبني بـ (إسلامي).

وبعد أن أسلم محمد تبرع جماعة من المسلمين بمال ليتجر به ولكنه أبى وعاش بكد يمينه وقال: لم يكن اسلامي طمعاً في المال.

وقد أراد أحد العلماء اختباره قبل أن يعلن اسلامه، فقال له: إن في الاسلام فقراً وعسراً وضيقاً، فما بالك تسلم، فأجاب: أني أسلم لأني وجدت الحقيقة، غير مبالٍ لما يصيبني من ضيق وعسر.

٣٤ ـ صاحبة السمو الأميرة الانكليزية (ديانخ مود) أميرة سرواك تعتنق الدين الاسلامي وتقول: لقد دهشت عندما رأيت ما في الدين الاسلامي من طهارة وحكمة ويُسر. وقد شعرت بأن قلبي كله وروحي جميعاً مغموران بهذه الهداية التي هي في غاية الملائمة للبشر والعقول. وقد قالت بعد إسلامها: إني عازمة على إصدار مجلة باسم (الأخبار الاسلامية) في باريس. وذاهبة إلى ألمانيا وغيرها للعمل على نشر الاسلام.

٣٥ ـ (لدي أولين كابولد) إحدى المثقفات البريطانيات تعتنق الدين الاسلامي وتقول: أني لست أتذكر اللحظة الخطيرة التي هبطت على حقيقة الاسلام فيها، بل وليس في وسعي تعيينها، فكل ما أدري هو أني لم أزل مسلمة ولا أزال. وليس يثير العجب هذا الأمر عندما يتذكر الانسان أن الاسلام هو دين الفطرة الموافق للطبيعة البشرية ولحياتها الاجتماعية، فإذا ترك الطفل ونفسه ينشأ على هذا الدين الفطري ألبتة، كما يقول أحد علماء أوروبا: (الاسلام دين الحس المشترك البشري): يعني الفطرة البشرية.

وتقول: «فكلما قرأت وكلما توصلت إليه في تحصيلاتي العلمية واختبرت بها الأمور ثبت لدي أن الاسلام هو الدين الوحيد الذي يمكن للبشرية العمل وفق منهاجه القويم. وهو الدين الوحيد الذي يحل عقد المسائل الاجتماعية ويذهب بكل مشكلة أبهم على العالم طريق حلها وهو الذي يجلب للانسانية السلام العام والسعادة الأبدية.

٣٦ ـ فاطمة ج. ب. كاترجي الهولندية تعتنق الدين الاسلامي سنة ١٩٥٥ م وتقول: يتجلى الاسلام حلاً لعقد الحياة المعنوية والمشاكل الاجتماعية

في عالمنا المتقطع الأشلاء: لا يقتصر الاسلام على النواحي الروحية والمعنوية فحسب، بل يعالج الجوانب المادية والطرق العلمية أيضاً.

وتقول: الاسلام يراود الروح البشرية مباشرة وله مقدرة ليوفر لنفوسنا المضطربة ذلك الاطمئنان والراحة اللائقة.

٣٧ ـ Mrs. Cecilia Connolly سيسليا (محمودة كونلي الاسترالية تعتنق الدين الاسلامي بعد دراسة وتحقيق وتقول: قبلت الاسلام لما وجدت نفسي مسلمة بطبعي حتى وقبل أن أعرف ذلك، فقد تخليت عن المسيحية أبان شبابي لعدة أسباب، منها:

أني كلما واجهت أحد الروحانيين المسيحيين وسألته عن مشكلة دينية سلبت راحتي وأخذت بأفكاري كلها أو عن تعاليم الكنيسة الثقيلة كانت الاجابة على أسئلتي من طراز واحد، وعلى نسق مطرد في الجميع وهي لا ينبغي لكم السؤال والتجسس حول تعاليم الكنيسة، بل الواجب عليكم هو الايمان الخالص.

٣٨ ـ وقد اهتدت إلى الاسلام في هذه الأيام: عزيزة روشه لرون الفرنسية وهي عضوة جمعية الأخوة الاسلامية في فرنسا وهي تخدم في هذه الجمعية من غير تعب ولا ضجر. وقد أنشأت مجلة أسمتها: (النظر إلى الشرق) الغاية منها تفهيم الفرنسيين الاسلام.

٣٩ ـ البروفسور: القسيس داود بنيامين (عبد الأحد داود)، يعتنق الدين الاسلامي، وهو يقول: لست أعلل اسلامي بسبب سوى العناية الإلهية وأراه لا يرتبط بشيء غير الهداية من الذات الأحدية فقط. فلولا العناية الالهية لكانت المساعي والجهود وجميع المعارف والعلوم للوصول إلى الحق والحقيقة أقرب إلى الضلالة والعمى.

٤٠ ـ الدكتور دي كابريو الايطالي يعتنق الدين الاسلامي وهو اليوم رئيس مجلس ادارة المركز الثقافي الاسلامي في (سان فرانسيسكو) وقد سئل عن سبب اعتناقه الاسلام، فأجاب: أنه التقى بزوجته في مدينة (سان فرانسيسكو) فأعجب بمسلكها في الحياة والأسلوب التي تنتهجه في حياتها، فلما سألها عن

سبب ذلك، قالت: أنها مسلمة ومن أبوين روسيين، وقد ولدت في اليابان ثم هاجرت مع أهلها إلى أمريكا وشرحت له التعاليم الاسلامية فوجدها ـ على حد قوله ـ هي التعاليم التي كان يتصور أنها يجب أن تكون عليه المعتقدات البسيطة المعقولة لكل البشر، وعلى ذلك اعتنق الاسلام. ولم يجد شريكة لحياته أفضل من تلك السيدة المسلمة التي يمكن أن تعينه على أن يحيا حياة اسلامية صحيحة.

٤١ ـ الدكتور خالد شيلدريك أسلم عام ١٩٠٣ م ومنذ اعتناقه الدين الاسلامي قام بواجبه في بث الدعاية الاسلامية في انكلترة وفرنسا وكندا.

وهو يقول: إن المبشرين في الصين بذلوا أموالهم وأنفسهم ونساءهم لتبليغ المسيحية في الأيام الماضية، ولكن لم يتبعهم سوى عدد قليل جداً أزاء الجماهير التي تعتنق الاسلام. وأما اتباع المسيحية فلرغبة في المال، أو الوظائف أو النساء اللاتي يردن على المبشرين من حين لآخر.

والدكتور خالد منهمك اليوم بتصنيف الكتب والمقالات الاسلامية على طريقة مذهب أهل البيت عليهم السلام في جرائد الهند الانكليزية وهو أول مسلم انكليزي استجاب إلى العقائد الشيعية الامامية الأثنى عشرية. وهو خطيب بارع يصلي بالانكليز وغيرهم كل الأوقات المفروضة.

٤٢ ـ الدكتور توماس بالنتين أيبزتنك الأمريكي يعتنق الدين الاسلامي وقد أعجبه ما في الاسلام وتعاليمه السمحة من عدل واخاء ومساواة وقد أصدر عدة مجلات في باكستان وجنوب أفريقيا.

٤٣ ـ المحامي: زكي عريبي رئيس الجالية اليهودية في مصر يعتنق الدين الاسلامي الحنيف وهو من أشهر المحامين في مصر.

يقول: اني نظرت في رسالة هذا الرجل العظيم (محمد بن عبد الله ص) الذي لم تؤهله للرسالة ثقافة ولا علم ولا دين، نشأ كما ينشأ الناس، وعاش عيشتهم وحيا حياتهم، ثم إذا به قد أوحي اليه بهذا الكتاب الخالد الآتي من وراء الحجب، وهو مليء بأخبار الأولين.

«وأعجبني من هذا الدين أنه جاء مصدقاً لما قبله، فالمؤمن به من أهل

الكتاب لا يقتلع مع دينه اقتلاعاً ولا ينخلع عنه انخلاعاً. فان كان يهودياً وجد في القرآن تمجيد موسى ودين موسى الحقيقي، بل وتمجيد أبناء اسرائيل الذين فضلهم الله على العالمين في وقت من الأوقات. وان كان مسيحياً وجد في القرآن تمجيد المسيح بن مريم وتمجيد أمه. بل وتمجيد آل عمران جميعاً بل واعترف بهم الاسلام كأخوة مكرمين حيث يستأمنون لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين. وأني لأحب أن يدلني الناس على دين آخر فيه هذا التسامح وفيه هذا البعد عن النصب».

«ووجدته دين سياسة رشيدة، لا يعلو فيها الحاكم ولا يذل المحكوم».

٤٤ ـ المهندس: البرهمي الروحي الهندي: كل ماني مسرا: (كل محمد) يعتنق الدين الاسلامي الحنيف بعد مناقشات طويلة وقد حسن اسلامه بالتزامه بالعبادات كلها وكتب كتباً مهمة في الاسلام.

٤٥ ـ (يوسف. م. بينيوا ليونارد تشيروا) يعتنق الدين الاسلامي فيقول: قلما يوجد كتاب أو نصادف مقالاً على صحيفة يبحث عن الاسلام وعن القرآن المقدس. إلى أن سافرت إلى بايراBeira وفي إحدى الليالي جاء مدير الفندق وأصحبني وسائر المسلمين إلى مسجد حديث البنيان لأداء فريضة الصلاة، والتمست منهم قرآناً. وفي الغد أعطوني قرآناً مترجماً بالانكليزية بقلم (مارما دوك بيكتال) وشعرت بعد ذلك أني بحاجة إلى من يكلمني حول الدين الاسلامي، إلى أن ذهبت إلى (لندن) وحضرت ساحة (هايد) عند دكة الجمعية الاسلامية البريطانية لاستمع إلى محاضراتهم، وهناك تعرفت حقاً إلى كثير من حقائق الاسلام. فاعتنقت الاسلام وعلمت أن الدين الاسلامي هي الرابطة الكبرى العالمية لجميع أبناء البشر وباستطاعة كل أحد أن يفهمه عملياً وهو أنفع دين عرفته البشرية حتى اليوم.

٤٦ ـ ذو الفقار مسيح (ذو الفقار علي) المسيحي يعتنق الدين الاسلامي فيقول: اعتنقت الدين الاسلامي لما وجدته ديناً كاملاً حافلاً بجميع ما يحتاج اليه البشر في حياته الدنيوية والدينية، وليس هو يختص بعصر دون عصر أو جيل دون جيل، وان النجاة في الدارين لا تحصل إلا بالتمسك بدين الاسلام.

٤٧ ـ رابرت والديا (حسين اسلام دوست) يعتنق الدين الاسلامي وهو يقول: كنت من سكنة (رضائية) فاتفق بيني وبين جماعة من أهلها مشاجرة في اليوم الثامن عشر من شهر رمضان المبارك ١٣٨١هـ.

وكان سبب ذلك أنهم أساؤا الأدب إلى نبينا عيسى (ع)[١]. وكنت أقابلهم متحاملاً عليهم، وأوشكت أن أسيء إلى مقدسات الاسلام، غير أني أحجمت، إلى أن جن الليل وأردت المنام، فعمدت إلى إطفاء المصباح، وإذا بالغرفة أضاءت من جديد، فهرعت إلى مصدر الضوء، وإذا بإنسان على زي عربي، واضعاً يده على قائم سيفه وسط الغرفة، وتوجه إلي وقال: نِعم ما صنعت اليوم، أمسكت عن النزاع وعن الاهانة بمقدسات المسلمين. وها أني أعرض عليك ثلاثة أمور، لا بد لك من امتثالها. قلت: سمعاً وطاعة. قال: ليس هكذا ولا بد أن تحلف بموت أمِّك، فحلفت له بذلك. قال:

عليك أولا أن تتشرف بالذهاب إلى قم وتُسلم هناك، وتمكث عشرة أيام، ثم تزور قبر الامام الرضا عليه السلام. وتمكث أيضاً هناك عشرة أيام وبعدها تذهب إلى الأعتاب المقدسة، كربلاء والنجف وسائر الأئمة (ع) وسأكون معك في حرم الامام أمير المؤمنين علي عليه السلام وكان هذا آخر كلامه وغاب عني[٢].

وقد قام هذا الشاب بما أمر به وأسلم وحسن إسلامه.

٤٨ ـ ١٢٠٠ ـ من الهندوسيين يعتنقون الدين الاسلامي، وقد ألف أحد الأساتذة البلجيكيين كتاباً عن الديانة الاسلامية جاء فيه: أن انتشار هذه الديانة في ازدياد، خصوصاً في جهات آسيا، وان الاسلام الذي كان الأوربيون يتوهمونه خطراً كبيراً ينتشر انتشاراً سريعاً في الشرق الأقصى

(١) عيسى عليه السلام من أنبياء أولي العزم، على كل مسلم تقديسه وتبجيله ومن اعتقد سوء فيه (ع) ونال من كرامته فقد خرج من زمرة المسلمين.

(٢) صار كثير من رجالات الغرب يؤمنون بالغيب بتجسد الأرواح وبعوالم ما بعد الموت وقد الفت في ذلك مئات الكتب، ومنها: على حافة العالم الأثيري، لمؤلفه: J. Arthur Findlay وكتاب «الانسان روح لا جسد»، وكتاب: العالم غير المنظور.

وخصوصاً في الصين. ففي الصين الآن عشرون مليوناً من المسلمين وفي الهند والسند يزداد عدد الداخلين في الاسلام ازدياداً مرموقاً.

وذكرت جريدة النهضة الغراء نقلاً عن جريدة (البلاغ السماوي) التي تصدر بالانكليزية في بومباي ما يأتي:

لقد اتسع نطاق الاسلام في البلاد الأمريكية اتساعاً عظيماً وانتشر المبشرون الاسلاميون في طول البلاد وعرضها، فكانوا يتلقون من أهل البلاد اقبالاً عظيماً وتشجيعاً منقطع النظير.

وقد تأسست في (ريودوجانيرو) عاصمة البرازيل جمعية اسلامية كبرى همها إلقاء المحاضرات وبث الدعوة الاسلامية، ولا يمضي أسبوع إلا ويعتنق فيه أفاضل القوم هناك الدين الاسلامي، وقد بلغ عدد المسلمين في شمال البرازيل خمسين ألفاً كلهم من ذوي المقامات العالية.

٤٩ ـ علي أكبر (عباسي) البهائي يعتنق الدين الاسلامي ويقول: «كان السبب الأساسي لنزوعي إلى الاسلام هو أن البهائية لا تراعي جانب العفاف رأساً، وليس لاحترام الأعراض والنواميس وحفظها مفهوم ولا معنى في لغة هذا المبدأ. فكنت أتحرج وأتألم على أثر ذلك كثيراً. ولم يكن ضميري ليقبل حسب الفطرة الانسانية التغاضي عن تلكم التجاوزات العرضية في منتدياتنا البهائية. فكان التطاول على عرضي أو عرض غيري من زملائي البهائيين أمراً لم أكن لأتحمله بتاتاً. وكنت أفكر دائماً: (لو كنت انساناً فمن واجبي التحفظ على عرضي ونامـوسي). فلأجل هذا وغيره من الأمور الروحية اندفعت نحو التحقيق حول الدين الاسلامي النزيه. فرأيت العفاف والتقوى ونزاهة الجانب والطهارة، وبكلمة جامعة، رأيت الفضيلة الانسانية بجميع معنى الكلمة وبواقعها الحقيقي متوفرة في الاسلام.

٥٠ ـ حبيب الله (إغماضي) البهائي[١] يعتنق الدين الاسلامي، ويقول:

---

(١) ومن جملة ما جاء من صفات الله تعالى في كتاب (البيان) لزعيم البابية: «بسم الله السلط ذي السلطيات! بسم الله السلط ذي المستلطات! بسم الله السلط ذي

«على أثر جهلي قضيت ثلاثين عاماً مغفلاً ملتزماً للفرقة الكاذبة ذات المبدأ المزيّف الذي يعتنقه أناس غير مقيدين بشيء ولا ثابتين على عقيدة. شعارهم التزوير والتدليس. أناس تعمل فيهم أيادي الأجانب منذ مائة عام في بلادنا الايرانية».

«كلنا يعلم أن منطقة (عشق آباد) في البلاد الروسية غرست شجرة خبيثة، كانت من ثمرتها تلك الجناية الفادحة التي كونت أمثال (الباب و البهاء) عملاء المستعمر الغاشم. فاستطاعوا على أيدي جماعة استهوتهم اللذائذ الوقتية لا يعرفون للضمير معنى، ولا يراقبون الله في شيء، أن يخدعوا شرذمة من الجهال».

«كان من سوء الحظ ان كنت أحد هؤلاء المغترين لمدة ٣٠ عاماً كما ذكرت، شاهدت خلالها فجائع وفضائح بعيدة عن الشرف والناموس. ولكن جهلي المطبق، وعدم اتصالي بالطبقات المثقفة جعلاني لا أشعر بفضاعة الأمر. ولم أكن أعرف عن الاسلام سوى مجموعة مشوهة، كان زملائي البهائيين وأقطابهم يعرفونها الينا كما يريدون».

* * *

وهكذا نرى أن كل من تشرف بدين الاسلام علم أنه الدين الحق، أنزله الله رحمة للعالمين، وهو آخر الأديان، لم تتسرب إليه يد البشرية بتحريف أو تغيير، وأن محمداً (ص) خاتم النبيين وسيد الرسل أجمعين، وأن إصلاح هذا العالم لا يتم إلا بجعل الاسلام ديناً عالمياً خالداً، ﴿وما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾(١). ﴿وما أرسلناك إلا كافةً للناس بشيراً ونذيراً﴾(٢).

= التسالطيات! بسم الله السلط ذي المسلوطيات!؟... وأيضاً في مكان آخر: بسم الله الأقدم القدام القادم القدمان المتقدم القيدوم المقادم ذي المقدامين ذي القدمات ذي الأقدام ذي القدومين، ذي المقاديم المستقدم، المستقدمان ذو القداديم... الخ!!؟.

(١) سورة الأحزاب: ٤٠.

(٢) سورة سبأ: ٢٨.

فعلى المسلمين في أنحاء العالم أن يقوموا بتضحيات غالية لنشر الاسلام وتفهيمه وتطبيقه، فانه دين الفطرة، والفطرة السليمة هي التي تجلب الناس إلى قبوله وتطبيقه. فقد برز في أمريكا، التي ترصد أكبر قواها لمحاربة الاسلام في آسيا وأفريقيا، حركة اسلامية شابة تدعو إلى إقامة حكم اسلامي، على الرغم مما يسلطونه عليها من الدعاية للتشويه والتنفير. كل ذلك لأن الاسلام دين الفطرة ودين الله في أرضه في مستقبل قريب. ولذلك نقرأ في كتاب La Conquete du monde musulman [1]: «ينبغي للمبشرين أن لا يقنطوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة. إذ من المحقق أن المسلمين قد نما في قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوروبيين وتحرير النساء، وان المرأة المسلمة المتعلمة هي أبعد أفراد المجتمع عن تعاليم الدين، وأقدر أفراد المجتمع على جرِّ المجتمع كله بعيداً عن الدين [2].

إلا أن بالرغم من كل هذه المحاولات، إن الفطرة هي الغالبة وهي القوة القاهرة المسيطرة على النفوس، وإن قليلاً من التضحيات في أوساط أفريقيا وأمريكا واليابان سوف يجعل الدين الاسلامي ديناً عالمياً شاملاً، فلا ترى في أية بقعة من بقاع الأرض إلا من يقول: لا إله إلا الله ـ محمد رسول الله.

﴿ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ [3].
﴿أن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾ [4].

---

(١) تسخير العالم الاسلامي.
(٢) جاهلية القرن العشرين: ٣٣٣. محمد قطب.
(٣) سورة محمد: ٧.
(٤) سورة آل عمران: ١٦٠.

أثر الحاجات في تكامل النفس

إن الله تبارك وتعالى قد أودع الكمال في كل بقعة من بقاع الأرض وفي كل جزء وجزيء وذرة، فما من شيء مادي إلا وترى فيه النظم والقوانين المحيرة للألباب وخواص مدهشة مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾[1]. ودساتير رياضية تربط أجزاء هذا الكون بعضها ببعض، قد عثر على جزء ضئيل منها هذا الانسان بلطف منه تعالى. ولكن الانسان[2] لظلمات في نفسه (بما اجترحت يداه) لم يؤدِّ ما عليه من واجب الشكر تجاه نعمه تعالى، فصار يتخبط تخبط عشواء في دياجير الظلم والفساد: ﴿والله لا يحب الفساد﴾.

وإن الانسان كموجود خلقه الله تعالى لا بد له أن يتبع ما سنَّ له من مراحل تكاملية، كي يحقق الكمال الانساني، هذا الكمال الذي سنه الله تعالى على لسان أنبيائه عليهم السلام. كل ذلك، لئلا يشذ هذا الانسان عن بقية الموجودات في البلوغ إلى أقصى مراتب الكمال كل بحسبه ومرتبته.

وواضح أن الله تعالى وهو الكامل على الاطلاق لا يصدر منه (لا يخلق) إلا الكمال. فـ(الكمال) شعار هذا الوجود بأمر منه تعالى.

ومن جملة أسباب الكمال الانساني: حاجاته المتنوعة وعرض هذه الحاجات على الله المتعال إذ كلما زادت العلاقة بين العبد والمعبود كلما تكامل الفرد وتقرب إليه تعالى. ولا يراد بهذه العلاقة إلا الزلفى إذ لا سنخية بين

---

(١) سورة الملك: ٣.

(٢) ﴿إن الانسان لربه لكنود، وأنه على ذلك لشهيد، وأنه لحب الخير لشديد﴾: (سورة العاديات: ٦ - ٨).

الخالق والمخلوق خلافاً لما ذهب إليه بعض الحكماء! . ولا بد للانسان في حياته الدنيوية من أمراض وشدائد وغايات مشروعة وآمال طيبة يريد تحقيقها.

فإلى من يذهب لتحقيق آماله المشرعة أو لدفع مرضه العضال يقول زين العابدين عليه السلام[1]: «من أين لي الخير يا رب ولا يوجد إلا من عندك، ومن أين لي النجاة ولا تستطاع إلا بك، لا الذي أحسن استغنى عن عونك ورحمتك ولا الذي أساء واجترأ عليك ولم يرضك خرج عن قدرتك».

فلا بد لهذا الانسان أن يتوسل إلى الله المتعال الذي بيده مفاتيح الأمور كلها وذلك بعد قطعه المراحل التي أمرنا الله تعالى بها.

فالمريض يراجع الطبيب. ولكن الطبيب قد لا ينجح في معالجته ويطول به المرض أو يشتبه في تشخيص المرض. فالله هو الذي يهيىء لهذا الانسان أسباب الشفاء من حيث يحتسب، ومن حيث لا يحتسب. وقد يبرأ الشخص من مرض عضال مستعصٍ بمجرد الدعاء إذا كان من المقربين المخلصين[2].

كما أن الانسان قد يقوم بفعاليات خطيرة في سبيل تحقيق غاية مشروعة، ولكنه يخفق في جميعها فلا ينجح فلا بد له من التوسل إلى الله والخشوع

---

(١) من دعاء يرويه أبو حمزة الثمالي عن السجاد عليه السلام.

(٢) نقل هذه الحادثة تأييداً لما قلنا ومثلها حوادث جمة من كتاب: «بين الله والانسان» (ص: ١٠٢) من مؤلفات العلامة الشيخ محمد جواد مغنية:
تقع بلدة حبوش في جنوب لبنان ـ جبل عامل ـ قرب النبطية، ويوجد فيها الآن رجل اسمه حسن طالب نعمة، تشاجر مع آخر، فطعنه هذا بسكين غاصت بكاملها في أمعائه، ومزقها تمزيقاً، وخرج ما فيها، وأشرف حسن على الهلاك، فعرضه أهله على عدد من الأطباء، منهم الجراح المعروف نبيه الشاب الموجود حالياً في صيدا، فأجمع الأطباء كلمة واحدة على أنه ميت بعد لحظات لا محالة، وأن التطبيب لا يجدي شيئاً، وقبل أن يلفظ النفس الأخير أصابته غفوة رأى فيها الحسين بن علي سيد الشهداء (ع)، فاستغاث به، فوضع الحسين (ع) يده الشريفة على مكان الجرح فعاد كل شيء صحيحاً كما كان، وقام الرجل من ساعته معافى كأن لم يكن شيء وهو الآن حي يرزق، ويعرف ذلك جميع أهل حبوش، البالغ عددهم أكثر من ٣٠٠٠ نسمة.

والخضوع بين يدَيه والتضرع والبكاء والدعاء والقيام بصلوات مستحبة كي يمنَّ الله عليه بقضاء حاجته المشروعة.

فالحاجات عامل قوي في التوجه إلى الحق المتعال، إذا كان الفرد ممن يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر، ويؤمن أن التوفيق منحصر به تعالى، مع العلم أن على الانسان أن يطرق الأبواب المشروعة التي بها يمكن أن يتحقق ما يريد على شرط المشروعية.

* * *

ولا مراء أن الله تبارك وتعالى موجود في كل مكان وفي كل آن وحين ولا يخلو منه مكان. فللعبد أن يسأل حاجته من الله تعالى في أي مكان شاء وفي أي وقت أراد. فالله تعالى يستجيب دعاءه ويقضي حاجته عاجلاً أو آجلاً حسب حكمته تعالى إن كان منقطعاً إليه تعالى غاية الانقطاع، متوسلاً إليه توسلاً ملؤه الاخلاص.

وللأوقات أثر في استجابة الدعاء، فأبواب السماء مفتحة ليالي الجمعة من أول الليل إلى طلوع الفجر الصادق، ويستجاب الدعاء فيها من أول الليل إلى طلوع الفجر وأما في بقية الليالي ففي الثلث الأخير منها يستجاب الدعاء، لأن أبواب السماء مفتحة بلطفٍ منه تعالى في الثلث الأخير ويستجاب الدعاء عند الزوال على ما جاء في بعض الروايات. وهناك أوقات أخرى لا حاجة لذكرها فالأوقات كلها صالحة لاستجابة الدعاء، إذا أخلص العبد في دعائه واستجمع شروط الاستجابة وكان موضوع الدعاء موضوعاً مشروعاً يرتضيه الله تعالى ولا يخالف أوامر الشرع ولا يؤدي إلى سوء العاقبة والضلال. ﴿ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾[١].

كما أن الله تعالى لا يتوقف عن عمل ما يريد ولا يتردد. فمشيئته تتحقق

---

(١) سورة سبأ: ٣، لا يعزب: لا يغيب ولا يخفى.

في كل آن: ﴿يسأله من في السماوات والأرض، كل يوم هو في شأن﴾[1] ولا يشغله شأن عن شأن.

كذلك يستجاب الدعاء في كل بقعة من بقاع الأرض والسماء، إلا أن لبعض الأماكن أثرها في استجابة الدعاء. منها المساجد، والعتبات المقدسة: ﴿في بيوت اذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله، والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾[2].

* * *

وها أني أذكر هنا بايجاز بعض الأعمال والأدعية التي لها أثرها الفعال في قضاء الحاجة باذنه تعالى.

١ ـ المواظبة على صلاة جعفر الطيار (رض)، ولا بأس بذكرها ها هنا مع كونها مسطورة في الجزء الثالث من هذا الكتاب:

هي أربع ركعات كل ركعتين بسلام. يقول في كل ركعة بعد قراءة السورة ١٥ مرة: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله اكبر. ويقولها ١٠ مرات حال الركوع و ١٠ مرات بعد الركوع حال القيام و ١٠ مرات في السجدة الأولى و ١٠ مرات بين السجدتين و ١٠ مرات في السجدة الثانية و ١٠ مرات بعد السجدة الثانية قبل القيام، فيكون مجموع التسبيحات في كل ركعة ٧٥ مرة وفي الركعات الأربع ٣٠٠ مرة.

والأفضل أن يقرأ في الركعة الأولى بعد الحمد سورة «إذا زلزلت» وفي الركعة الثانية بعد الحمد سورة: «والعاديات» وفي الركعة الثالثة بعد الحمد سورة النصر: «إذا جاء نصر الله». وفي الركعة الرابعة بعد الحمد سورة الاخلاص: «قل هو الله أحد».

---

(١) سورة الرحمان: ٢٩.

(٢) سورة النور: ٣٦ ـ ٣٨.

وأن يقول في السجدة الأخيرة بعد التسبيحات: «سبحان مَن لبس العز والوقار، سبحان من تعطّف بالمجد وتكرم به، سبحان من لا ينبغي التسبيح إلا له، سبحان من أحصى كل شيء علمه، سبحان ذي المن والنعم، سبحان ذي القدرة والكرم، اللهم أني أسألك بمعاقد العز من عرشك ومنتهى الرحمة من كتابك وباسمك الأعظم وكلماتك التامة التي تمت صدقاً وعدلاً صلِّ على محمد وأهل بيته وافعل بي كذا وكذا، ويذكر حاجته.

وروى الشيخ في المصباح والسيد في جمال الأسبوع عن المفضل بن عمر قال: رأيت أبا عبد الله عليه السلام صلى صلاة جعفر بن أبي طالب (رض) ورفع يديه ودعا بهذا الدعاء: يا ربِّ، يا رب، حتى انقطع النفس. يا رباه يا رباه حتى انقطع النفس ربِّ ربِّ، حتى انقطع النفس، يا الله يا الله، حتى انقطع النفس، يا حي يا حي، حتى انقطع النفس،يا رحيم يا رحيم، حتى انقطع النفس، يا رحمن يا رحمن سبع مرات، يا أرحم الراحمين: سبع مرات. ثم قال:

«أللهم أني أفتتح القول بحمدك، وأنطق بالثناء عليك، وأمجدك ولا غاية لمدحك، وأثني عليك ومن يبلغ غاية ثنائك وأمد مجدك، وأني لخليقتك كنهُ معرفة مجدك وأي زمن لم تكن ممدوحاً بفضلك، موصوفاً بمجدك، عوّاداً على المذنبين بحلمك، تخلّف سكان أرضك عن طاعتك فكنت عليهم عطوفاً بجودك، جواداً بفضلك عواداً بكرمك، يا لا إله إلا أنت المنان، ذو الجلال والاكرام». وقال يا مفضل، إذا كانت لك حاجة مهمة، فصلِّ هذه الصلاة وادع بهذا الدعاء وسل حاجتك يقضيها الله إن شاء الله تعالى.

٢ ـ المواظبة على صلاة يوم الخميس وهي أربع ركعات بسلامين، في الركعة الأولى بعد الحمد ١١ مرة سورة الاخلاص: «قل هو الله أحد».

وفي الركعة الثانية بعد الحمد ٢١ مرة سورة الاخلاص وفي الركعة الثالثة بعد الحمد ٣١ مرة سورة الاخلاص وفي الركعة الرابعة بعد الحمد ٤١ مرة سورة الاخلاص.

وبعد السلام يقرأ سورة الاخلاص ٥١ مرة وبعدها يقول: أللهم صلِّ

على محمد وآل محمد ٥١ مرة ثم يسجد ويقول في سجوده: مائة مرة ربِّ.. ثم يسأل حاجته.

٣ ـ المواظبة على صلاة الليل والدعاء بعدها لقضاء الحاجة لا سيما إذا دمعت عيناك حال توسلك وتضرعك.

٤ ـ وهناك صلاة خاصة لرسول الله (ص)، وصلاة خاصة لعلي عليه السلام، وكذلك لكل من الأئمة عليهم السلام، لها آثارها في قضاء الحوائج مسطورة في كتب الأدعية.

٥ ـ وقد ذكر الكفعمي في (البلد الأمين) دعاءاً يرويه مقاتل عن الامام زين العابدين عليه السلام قائلاً: من قرأ هذا الدعاء مائة مرة ولم تقض حاجته فليلعني: (أي فليلعن الراوي).

«إلهي كيف أدعوك وأنا أنا، وكيف أقطع رجائي منك وأنت أنت. إلهي إذا لم أسألك فتعطيني فمن ذا الذي أسأله فيعطيني إلهي إذا لم أدعُك فتستجيب لي فمن ذا الذي أدعوه فيستجيب لي. إلهي إذا لم أتضرع اليك فترحمني فمن ذا الذي أتضرع اليه فيرحمني، إلهي، فكما فلقت البحر لموسى عليه السلام ونجيته أسألك أن تصلي على محمد وآله وأن تنجيني مما أنا فيه وتفرج عني فرجاً عاجلاً غير آجل بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين».

وهناك أدعية كثيرة وصلوات متنوعة مذكورة في كتب الأدعية، تفيد في قضاء الحوائج باذنه تعالى.

مع العلم أن بعض الحاجات قد لا تقضى فيؤجر الانسان أضعاف ذلك في الآخرة، ويتمنى عند ذاك: ليت حاجاته كلها لم تقضَ في الدنيا لينال مراتب عالية في ﴿جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين﴾.

فعن أبي عبد الله عليه السلام كما في الكافي(١). قال: إن المؤمن ليدعو الله عز وجل في حاجته، فيقول الله عز وجل: أخروا إجابته شوقاً إلى صوته

---

(١) كتاب الدعاء، الجزء الثاني من أصول الكافي، ص: ٤٩٠، طبع دار الكتب الاسلامية.

ودعائه، فإذا كان يوم القيامة، قال الله عز وجل: عبدي، دعوتني، فأخرت إجابتك، وثوابك كذا وكذا، ودعوتني في كذا وكذا فأخرت إجابتك وثوابك كذا وكذا. قال: فيتمنى المؤمن أنه لم يستجب له دعوة في الدنيا مما يرى من حسن الثواب».

وفي خبر عن أبي عبد الله عليه السلام[1]. قال: لا يزال المؤمن بخير ورجاء رحمة من الله عز وجل ما لم يستعجل فيقنط ويترك الدعاء، قلت له: كيف يستعجل؟ قال: يقول: قد دعوت منذ كذا وكذا وما أرى الاجابة».

ومعنى هذا الحديث: إن الله تعالى لمصلحة هناك قد يؤخر الاستجابة، أو لا يستجيب دعاء العبد ليعطيه أضعاف ذلك في الآخرة. وهو على التقديرين في خير لاشتغاله بالدعاء الذي هو من أعظم العبادات. فقد جاء في الحديث: «الدعاء مخ العبادة». فهو والحالة هذه في أشرف الحالات.

ومن المعلوم، كما جاء في منطوق حديث، كان بين قول الله عز وجل ﴿قد أجيب دعوتكما﴾[2] وبين أخذ فرعون أربعون سنة.

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «إن العبد ليدعو، فيقول الله عز وجل للملكين: قد استجبت له، ولكن: أحبسوه بحاجته، فأني أحب أن أسمع صوته، وان العبد ليدعو، فيقول الله تبارك وتعالى: عجلوا له حاجته، فأني أبغض صوته!»[3].

* * *

لنستمع إلى كلام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام حين يدعو ربه؛ ففيه أدب الدعاء الرفيع:

«إلهي، يا منتهى مطلب الحاجات، ويا من عنده نيل الطلبات، ويا من لا يبيع نعمه بالأثمان، ويا من يستغني به ولا يستغنى عنه، ويا من يرغب اليه

---

(١) نفس المصدر: ص ٤٩٠.

(٢) سورة يونس: ٨٩.

(٣) أصول الكافي ج: ٢، ص: ٤٨٩.

ولا يرغب عنه، أنت أهل الغنى عن خلقك، وهم أهل الفقر اليك، فمن حاول سد خلته من عندك، ورام صرف الفقر عن نفسه بك فقد طلب حاجته في مظانها وأتى طلبته في وجهها، ومن توجه بحاجته إلى أحد من خلقك أو جعله سبب نجحها دونك، فقد تعرض للحرمان واستحق من عندك فوت الاحسان».

ويقول زين العابدين عليه السلام في مقام الحاجة في موضع آخر:

«أللهم ولي اليك حاجة، قد قصَّر عنها جهدي، وتقطعت دونها حيَلي، وسوَّلت نفسي رفعها إلى من يرفع حوائجه اليك، ولا يستغني في طلباته عنك، وهي زلَّة من الخاطئين وعثرة من عثرات المذنبين، ثم انتبهت بتذكيرك لي من غفلتي، وقلت سبحان ربي، كيف يسأل محتاج محتاجاً، وأنى يرغب مُعدِم إلى معدم، فقصدتك يا الهي بالرغبة، وأوفدت عليك رجائي بالثقة بك، وعلمت أن كثير ما أسألك يسير في وُجدِك، وأن كرمك لا يضيق عن سؤال أحد، وأن يدك بالعطايا أعلى من كل يد».

فعلى الانسان أن ينغمر في حبه الله تعالى وأن يلتذ بالدعاء حين طلبه حاجة من الله تعالى ويزداد في الطلب والدعاء، فالله تعالى يحب من العبد أن يكون ملحاً كثير الدعاء متضرعاً خاشعاً، فقد جاء في حديث: «إذا أحب الله عبداً ابتلاه ليسمع تضرعه».

وقد يبلغ الحال بالانسان عند الدعاء، لا سيما جوف الليل، إذا نامت العيون وهدأت الأصوات، أنه يريد من الله تعالى أن يكون دائماً هكذا متوسلاً مناجياً، داعياً ربه بفنون الدعوات، منقطعاً اليه غاية الانقطاع، لما يرى في تلك الحالة من السمو والعروج، والفرح والسرور فوق حد الوصف والتعريف فهو في حالة الدعاء والتضرع أقرب ما يكون من الله تعالى، و هذا التقرب غاية الغايات وخاتمة السعادات. فتراه ينسى حاجته ويراها شيئاً تافهاً ازاء هذا الانغمار اللاهوتي والتسبيح الملكوتي، فلا يريد قضاء حاجته، ويفوِّض أمره إلى الله تعالى، لا سيما إذا كان متعلق الحاجة أمراً من أمور الدنيا الزائلة، فانه بدعائه هذا قد وجد الله الذي بيده كل الأمور ومعرفة غاية السعادات.

فقد قال الحسين عليه السلام، مخاطباً ربه: «ماذا وَجد من فقدك؟ وما الذي فقد من وجدك؟».

ويقول عليه السلام في موضع آخر في مقام طلب الحاجة: «أللهم حاجتي التي إن أعطيتنيها لم يضرني ما منعتني وان منعتنيها، لم ينفعني ما أعطيتني، أسألك فكاك رقبتي من النار». وقال أيضاً: «إلهي أن اختلاف تدبيرك وسرعة طواء مقاديرك منعا عبادك العارفين بك من السكون إلى عطاء واليأس منك في بلاء».

نعم، إن العبد في حالة الدعاء وانقطاعه إلى الله المتعال، يصبح وكأنه يرى الله تعالى علانيةً وكأنه يخاطبه وهو قريب منه، فيبلغ درجة الخشية والزلفى في هذا العالم اللاهوتي، فيكون مصداق كلام أبي عبد الله الحسين عليه السلام، حيث يقول: «أللهم اجعلني أخشاك كأني أراك وأسعدني بتقواك، ولا تشقني بمعصيتك، وبارك لي في قدرك حتى لا أتعجّل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت».

ثم ان الانسان عندما يقوم بأعمال من أدعية وصلوات مع إلحاح وإصرار لقضاء حاجته، يبلغ بعد مدة إلى درجة من التقرب إلى الله تعالى بحيث يشعر في قرارة نفسه أن حاجته قد قضيت، وإن دعاءه قد استجيب. فيلهم اليه قضاء حاجته فترتاح نفسه ويطمئن قلبه. وقد اعترت لي هذه الحالة مراتٍ في حياتي، فما أحلى الحاجات المشروعة وما أحلى الحالات التي تعتري الانسان عند قيامه بأعمال تؤدي إلى قضاء حاجته من دعاء وصلوات وأعمال صالحات.

* * *

ثم إياك أن ترفع حاجتك إلى أحد من البشر من سلطان أو غيره، فأنه نوع شرك بالله تعالى، فقد قال الامام الصادق عليه السلام:

«إتقوا الله وصونوا أنفسكم بالورع والاستغناء بالله عن طلب الحوائج إلى صاحب سلطان. واعلموا أن من خضع لصاحب سلطان، أو لمن يخالفه على دينه طلباً لما في يده من دنياه أخمده الله ومقته ووكله إليه، فان هو غلب على

شيء من دنياه فصار اليه منه شيء نزع الله البركة منه ولم يؤجره على شيء ينفقه في حج ولا عتق ولا بر».

وجاء في الحديث الشريف عن الرسول الأعظم: «أللهم أرزق محمداً وآل محمد ومن أحب محمداً وآل محمد الكفاف والعفاف».

* * *

ولا مراء أن دين الاسلام دين اجتماعي يضمن للمسلم سعادة الدنيا والآخرة، ويأمر المسلمين أن يكونوا متضامنين متعاونين فيما بينهم، يعمل كل منهم لاسعاد الآخر ورفع حاجاته، وإن قضاء حوائج الناس ودفع المكروه عنهم لفي الدرجة الأولى في قائمة الأعمال الصالحة، وكم من آيات في القرآن الكريم تحثنا على العمل الصالح بعد الايمان بالله تعالى مباشرة:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم: والعصر ان الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾.

﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾[1].

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾[2].

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ .

﴿وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾[3].

﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ في عدة مواضع ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم﴾[4]. ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرةً وأجراً عظيماً﴾[5].

﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات﴾[6].

---

(١) سورة البقرة: ٢٥.
(٢) سورة البقرة: ٨٢.
(٣) سورة آل عمران: ٥٧.
(٤) سورة المائدة: ١٠.
(٥) سورة الفتح: ٢٩.
(٦) سورة المائدة: ٩٦.

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجناتّ، لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير. ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات، قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى. ومن يقترف حسنة نزد له فيها حُسناً، ان الله غفور شكور﴾(1).

﴿ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط﴾(2).

﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب﴾(3).

﴿وادخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها باذن ربهم، تحيتهم فيها سلام﴾(4).

﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله﴾(5).

﴿ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى﴾(6).

إلى كثير من آيات أخرى لم نرد تدوينها كلها، تشير إلى أن الدين الاسلامي قد بني على دعامتين، هما: الايمان والعمل الصالح.

ويتجلى العمل الصالح: في قضاء حاجات المسلمين حتى وغير المسلمين بغية جلبهم إلى حظيرة الاسلام كما كان يعامل مع المؤلفة قلوبهم في صدر الاسلام، وفي إدخال السرور إلى قلوب المؤمنين وصلة الرحم وعيادة المرضى والعمل لأجل دفع الأسقام عنهم بشتى الوسائل إلى ما هنالك، فقد قال الامام أبو جعفر عليه السلام(7):

«إن في ما ناجى الله عز وجل به عبده موسى عليه السلام قال: ان عباداً لي أبيحهم جنتي وأحكمهم فيها، قال: يا رب، ومن هؤلاء الذين تبيحهم

---

(1) سورة الشورى: ٢٢ ـ ٢٣.

(2) سورة يونس: ٤.

(3) سورة الرعد: ٣١.

(4) سورة ابراهيم: ٢١.

(5) سورة الشورى: ٢٦.

(6) سورة طه: ٧٥.

(7) أصول الكافي: ج ٢، ص ١٨٨.

جنتّك وتحكمهم فيها، قال: من أدخل على مؤمن سروراً، ثم قال: ان مؤمناً كان في مملكة جبار فولع به[1]، فهرب منه إلى دار الشرك، فنزل برجل من أهل الشرك، فأظلّه وأرفقه وأضافه، فلما حضره الموت أوصى الله عز وجل إليه: وعزّتي وجلالي، لو كان لك في جنتي مسكن لأسكنتك فيها، ولكنها محرمة على من مات بي مشركاً، ولكن يا نار هيديه[2] ولا تؤذيه، ويؤتى برزقه طرفي النهار، قلت من الجنة؟ قال: من حيث شاء الله.

وكذلك عن أبي جعفر عليه السلام قال: «تبسم الرجل في وجه أخيه حسنة وصرف القذى عنه حسنة وما عُبد الله بشيء أحب إلى الله من إدخال السرور على المؤمن».

وفي أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: من أحب الأعمال إلى الله عز وجل: إدخال السرور على المؤمن وإشباع جوعته.

وقال رسول الله (ص): «من حمى مؤمناً من ظالم بعث الله له ملكاً يوم القيامة يحمي لحمه من نار جهنم». وقال (ص): «أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، فقيل: كيف ننصره ظالماً؟ قال: تمنعه من الظلم». وقال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «من أغاث أخاه المؤمن اللهفان اللهثان عند جهده، فنفس كربته وأعانه على نجاح حاجته، كتب الله تعالى له بذلك اثنتين وسبعين رحمة من الله، يجعل له منها واحدة يصلح بها أمر معيشته ويدخر له إحدى وسبعين رحمة لأفزاع يوم القيامة وأهواله». وقال عليه السلام: «من نفس عن مؤمن كربة نفس الله عنه كرب الآخرة وخرج من قبره وهو ثلج الفؤاد». وقال رسول الله (ص):

«من سر مؤمناً فقد سرني، ومن سرّني فقد سر الله».

وقال (ص): «إن أحب الأعمال إلى الله عز وجل إدخال السرور على المؤمنين».

---

(١) ولع به: استخف به.

(٢) هيديه: أي أزعجيه وأفزعيه وحركيه وأصلحيه.

ولا شك أن من أوضح مصاديق إدخال السرور على المؤمن: قضاء حاجته ودفع الكرب عنه، لذلك حث الدين الاسلامي المؤمنين على القيام بقضاء حوائج الناس بما لا مزيد عليه. فعن أبي عبد الله عليه السلام: «قضاء حاجة المؤمن خير من عتق ألف رقبة وخير من حُملان ألف فرس في سبيل الله»[1].

وفي الكافي أيضاً، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام: «إن من عبادي من يتقرب إليَّ بالحسنة، فأحكمه في الجنة، فقال موسى: يا ربِّ، وما تلك الحسنة؟ قال: يمشي مع أخيه المؤمن في قضاء حاجته، قضيت أو لم تقض».

وقد قال أبو عبد الله الحسين عليه الصلاة والسلام: «اعلموا: ان حوائج الناس اليكم من نعم الله عليكم، فلا تملوا النعم، فتحوَّل نقماً».

وقال أيضاً: «أيها الناس من جاد ساد، ومن بخل رذل، وان أجود الناس من أعطى من لا يرجوه». وقال أيضاً: «من نفَّس كربة مؤمن فرج الله عنه كرب الدنيا والآخرة، ومن أحسن أحسن الله اليه والله يحب المحسنين».

ويحدثنا الحسين بن محمد عن معلَّى بن محمد عن أحمد بن محمد بن عبد الله عن علي بن جعفر[2]، قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: «من أتاه أخوه المؤمن في حاجة فإنما هي رحمة من الله تبارك وتعالى ساقها إليه، فان قبل ذلك فقد وصله بولايتنا وهو موصول بولاية الله، وان ردَّه عن حاجته وهو يقدر على قضائها سلط الله عليه شجاعاً من نار ينهشه في قبره إلى يوم القيامة مغفوراً له أو معذباً، فان عذر الطالب كان أسوأ حالاً».

وقال الصادق عليه السلام: «أيما رجل من شيعتنا أتاه رجل من اخوانه فاستعان به في حاجته فلم يعنه وهو يقدر إلا ابتلاه الله تعالى بأن يقضي حوائج عدة من أعدائنا، يعذبه الله عليها يوم القيامة».

وهكذا نرى أن الاسلام فرض على المؤمنين أن يقوموا بقضاء حاجات

---

(١) أصول الكافي: ج ٢، ص: ١٩٥.

(٢) أصول الكافي: ج ٢، ص: ١٩٦.

اخوانهم مع القدرة وإلا فهم معاقبون، في الدنيا والآخرة، فـ«أهل المعروف في الدنيا أهـل المعروف في الآخـرة» كما جـاء في متن الحديث. والعكس بالعكس وهذا تفسير للحديث القائل: «الدنيا مزرعة الآخرة»، فطوبى لأولئك الذين يهتمون بحوائج الناس أيما اهتمام سواء نجحوا أم أخفقوا فـ«مَن همَّ بحسنة فلم يفعلها كتبت له حسنة، ومن هم بسيئة ولم يفعلها لم يكتب عليه شيء»... الحديث.

وإن قضاء الحاجة أكثر أجراً من التعبد في زاوية من الزوايا على ما جاء به في حديث رسول الله (ص): حيث يقول: «من قضى لأخيه المؤمن حاجة فكأنما عبد الله دهره».

وفي حديث آخر عن الرسول (ص): «من مشى في حاجة أخيه ساعة من ليل أو نهار قضاها أو لم يقضها كان خيراً له من اعتكاف شهرين».

وقال أبو جعفر عليه السلام: «من مشى في حاجة أخيه المسلم أظله الله بخمسة وسبعين ألف ملك، ولم يرفع قدماً إلا كتب الله له حسنة وحط عنه سيئة، ويرفع له بها درجة، فإذا فرغ من حاجته كتب الله عز وجل له بها أجر حاج ومعتمر»[1].

وقال عليه السلام: «إن المؤمن لترد عليه الحاجة لأخيه فلا تكون عنده فيهتم بها قلبه، فيدخله الله تبارك وتعالى بهمه الجنة».

وقال عليه السلام: «من طاف بالبيت طوافاً واحداً كتب الله له ستة آلاف حسنة ومحى عنه ستة آلاف سيئة، ورفع له ستة آلاف درجة ـ وفي رواية، وقضى له ستة آلاف حاجة، حتى إذا كان عند الملتزم فتح له سبعة أبواب من الجنة»، قلت له: جعلت فداك، هذا الفضل كله في الطواف؟ قال: «نعم، وأخبرك بأفضل من ذلك: قضاء حاجة المؤمن أفضل من طواف وطواف وطواف حتى بلغ عشراً».

وقال عليه السلام: «تنافسوا في المعروف لاخوانكم، وكونوا من أهله فان

(١) جامع السعادات: ج ٢، ص: ٢٢٦.

للجنة باباً، يقال له المعروف، لا يدخله إلا من اصطنع المعروف في الحياة الدنيا، فان العبد، ليمشي في حاجة اخيه المؤمن فيوكل الله عز وجل به ملكين واحداً عن يمينه وآخر عن شماله، يستغفران له ربه ويدعوان بقضاء حاجته» ثم قال: «والله لرسول الله صلى الله عليه وآله أسرّ بقضاء حاجة المؤمن إذا وصلت إليه من صاحب الحاجة».

وقال أبو عبد الله عليه السلام[1]: «قال الله عز وجل: الخلق عيالي، فأحبهم إليّ ألطفهم بهم وأسعاهم في حوائجهم».

وقد روي أن عابد بني اسرائيل كان إذا بلغ الغاية في العبادة صار مشاءاً في حوائج الناس عانياً بما يصلحهم.

وهكذا نرى المفاضلة بين التعبد والقيام بحاجات الناس، وان الدين الاسلامي دين فيه من التساند الاجتماعي والتضامن والتكافل ما يؤدي إلى إسعاد البشر في الدارين. ولسنا بحاجة أن نستمع إلى كلمات فلاسفة الغرب في سنن التكامل والرقي. فقد جاء في الاسلام بالقول الفصل، كيف لا يكون كذلك وهو دستور السماء، دستور الله في أرضه، وأنى للبشر الناقص مهما سمّى نفسه حكيماً أو فيلسوفاً أن يأتي بمثله، ذلك لأن النفس المتسافلة أو البعيدة عن الحق، النفس المحكومة لشيطانها وشهواتها لا تأتي إلا بدساتير ناقصة، لا توصل الفرد إلى الدرجات العلى من التقرب إلى الله في عوالم القدس، ولا تؤدي إلى حياة سعيدة في الدنيا، وان حالة الغرب اليوم في عوالم تكامل النفس أكبر شاهد على ما أقول.

لنستمع إلى ما يقوله أبو عبد الله عليه السلام بالنسبة إلى التنفيس عن المؤمن، انه عليه السلام يقول: «أيما مؤمن نفّس عن مؤمن كربة وهو مُعسر يسر الله له حوائجه في الدنيا والآخرة، قال: ومن ستر على مؤمن عورة يخافها ستر الله عليه سبعين عورة من عورات الدنيا والآخرة، قال: والله في عون المؤمن ما كان المؤمن في عون أخيه، فانتفعوا بالعظة وارغبوا في الخير»[2].

---

(١) أصول الكافي: ج ٢ ص ١٩٩

(٢) أصول الكافي: ج ٢ ص ٢٠٠.

ولنذكر حديثاً واحداً في إطعام المؤمن وسقيه: «فقد قال علي بن الحسين عليه السلام مَن أطعم مؤمناً من جوع أطعمه الله من ثمار الجنة ومَن سقى مؤمناً من ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم»[1].

وحديثاً في إكساء المؤمن:

فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من كسا أخاه كسوة شتاء أو صيف كان حقاً على الله أن يكسوه من ثياب الجنة وان يهوِّن عليه سكرات الموت وأن يوسع عليه في قبره وأن يلقى الملائكة إذا خرج من قبره بالبشرى وهو قول الله عز وجل في كتابه: ﴿وتتلقاهم الملائكة، هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾[2].

وحديثاً في إكرام المسلم:

فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من أتاه أخوه المسلم فأكرمه، فإنما أكرم الله عز وجل»[3].

وحديثاً في خدمة المسلمين:

فعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول الله (ص): أيما مسلم خدم قوماً من المسلمين الا أعطاه الله مثل عددهم خداماً في الجنة».

وهكذا نرى أن الحاجات طريق للاتصال بالله تعالى والانقطاع اليه وخير وسيلة لتكامل النفس الانسانية التي تنحصر كمالهافي اقترابها إلى الله المتعال وتذكرها خالقها في كل حين.

فما أحلى حالة المتعبِّد حين يقوم بعمل عبادي ليقضي الله حاجته وكم يزداد اعتقاداً بالله وحباً اليه بعد انقضاء حاجته المشروعة، ولقد كان القيام بقضاء حاجات الآخرين، لا سيما الأرحام، سبباً هاماً لهداية كثيرين.

---

(١) نفس المصدر: ٢٠١.

(٢) نفس المصدر: ص ٢٠٤.

(٣) نفس المصدر: ص ٢٠٦.

وقد عرفت أشخاصاً كثيرين كانوا قد تركوا الصلاة وخاضوا فيها خاض فيه الطائشون، ولكنهم بعد أن قاموا بخدمة ملموسة تجاه أحد أرحامهم وقضوا بعض حاجاتهم، تفتحت قلوبهم لقبول معالم الهداية والكمال وزالت عنهم غياهب الشك والارتياب، وكادوا أن يبلغوا مرتبة اليقين، فراقبوا أعمالهم وأصلحوا أنفسهم على ضوء تعاليم الاسلام الحقة، وخرجوا باذن ربهم، من الظلمات إلى النور. فطوبى لهم وحسن مآب.



فهرس الجزء الخامس

الموضوع	الصفحة

التكامل في الإسلام

كتاب يطلعك على فلسفة الاسلام الحقة ويزيل، باذن الله، ما يختلج في بعض الصدور من شكوك، ويريك ان الاسلام دين العقل والمنطق وأن لا تنافي بينه وبين العلم الصحيح، (لا الظنون والأهواء!)

بقلم
أحمد أمين
خرّيج كليّة التربية وجامعة إسطنبول
الرياضيات العامة والفيزياء الرياضية العالية

الجزء السادس

دار المعرفة
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي منع الأوهام أن تنال إلى وجوده وحجب العقول أن تتخيل ذاته لامتناعها من الشبه والتشاكل. بل هو الذي لا تتفاوت ذاته ولا تتبعض بتجزية العدد في كماله. إلى أن يقول:

أيها الناس، إنه لا شرف أعلى من الاسلام، ولا كرم أعز من التقوى، ولا معقل أحرز من الورع. ولا شفيع أنجح من التوبة، ولا لباس أجل من العافية ولا وقاية أمنع من السلامة، ولا مال أذهب بالفاقة من الرضى والقنوع، ومن اقتصر على بلغة الكفاف فقد انتظم الراحة، والرغبة مفتاح التعب، والاحتكار مطية النصب، والحسد آفة الدين، والحرص داع إلى التقحم في الذنوب وهو داع إلى الحرمان. والبغي سائق إلى الحين[١] والشره[٢] جامع لمساوي العيوب.

إلى أن يقول: أيها الناس، أنه لا كنز أنفع من العلم ولا عز أنفع من الحلم، ولا حسب أبلغ من الأدب، ولا نصب أوجع من الغضب، ولا جمال أحسن من العقل ولا قرين شر من الجهل، ولا سوأة أسوء من الكذب، ولا حافظ أحفظ من الصمت. ولا غائب أقرب من الموت[٣].

---

(١) الحين: بفتح المهملة: الهلاك والمحنة.

(٢) الشره: غلبة الحرص والغضب والطيش والحدة والنشاط وفي بعض النسخ (الشره): هو الحرص أيضاً.

(٣) من كلام لمولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه أفضل الصلاة والسلام مقتبس من تحف العقول. طبع دار الكتب الاسلامية، ص: ٩٢.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الانقلاب الصناعي وما أعقب من ويلات الانحلال الخلقي والتفكك الاجتماعي وعدم الايمان بالمقدسات ومعاداة الكنيسة للعلماء الكونيين وإعدامها كثيراً منهم وكتابات الفلاسفة الماديين وتفنيدهم ما قررته الكنيسة أو المسيحية من أخلاق وعادات، والحرية المطلقة في الأعراض كل أولئك أولدت فلاسفة وجوديين ورجالاً ماديين صاروا يستهزئون بالدين والفضائل وما كان يسمى شرفاً ونبلاً وأخلاقاً وفضيلة، حتى صار أحدهم يفتخر أن يوم وفاة أمه قام بمعانقة بغية من البغايا وآخر يقول مخاطباً رب العباد: «أنت رب، إلا أني حر»[1]: كلام سوفسطائي من مستهتر لا يعلم معنى الحرية على الوجه الصحيح، ولا يقدر ضآلة نفسه أمام عظمة الله التي لا تحد.

إن شبابنا اليوم يقتبس فكرته الاجتماعية والخلقية بل الدينية مما يقرأ في كتب الغرب والروايات التمثيلية وغيرها. وهو يرى أن كل ذلك يترشح من مدنية راقية. تطلق الصواريخ وتسير بين الكواكب، فتصل إلى القمر وعطارد والزهرة إلى ما هنالك. فيلتبس عليه الأمر. فيظن بل يعتقد أن أفكار أوربا وفلسفتها الاجتماعية والدينية هي كعلومها المادية حقائق ناصعة لا غبار عليها وهي واجبة الاتباع لنيل مدارك الكمال وقد فاته أن النفس لأمارة بالسوء، فتميل نحو ما يحقق شهواتها ونزواتها على ضوء الفلسفة المادية، فيسخر نتيجة هذا الاتباع مما كان يعتقد قبلاً من مقدسات ويظنها خرافة. ويجزم أنه قد خرج من عالم كله قيود إلى عالم آخر كله إنطلاق وحرية وسرور.

---

(١) من كلمات (سارتر) الوجودي.

وهذه (سوئد) بلد الحرية والحضارة النموذجية، قد وجد فيها منذ زمن غير بعيد شباب متخنثون، يتشبهون بالبنات من حيث شعر الرأس واستعمال المساحيق ويرتدون ألبسة الفتيات من الداخل والفساد ضارب بأطنابه بينهم وبين الآخرين إلى أقصى حد.

وفي ألمانية الغربية من أصل مائة شارب في مصح المدمنين على الخمر يوجد ١٤ فتى أعمارهم دون الـ ٢٥ سنة. وكثير من هؤلاء اعترفوا بأنهم تناولوا الكأس الأولى على يد أحد الكبار، بل منهم من تناولها من أحد الأبوين! ودلت الاحصاءات أخيراً أن أكثر من نصف الـ ١٠ مليار ليتر خمراً التي تشرب في ألمانيا سنوياً تشرب داخل البيوت.

وجاء في تقرير رسمي: إن ثلث الشباب الأمريكيين الذين هم في الثامنة عشرة لا يصلحون للخدمة العسكرية ويؤكد أن السبب في ذلك يعود إلى كثرة ارتكاب الموبقات من الآباء مما يؤدي إلى إنجاب ذرية ضعيفة غبية ولكثرة إدمان الخمر والفواحش.

وفي تقرير آخر نشر في استوكهولم أن نسبة الاصابات بالأمراض التناسلية تزداد في أوربا من جديد.

وفي تقرير آخر: إن الاصابات بالسيلان في بريطانية والسويد وبلغاريا قد ازدادت زيادة كبيرة في السنوات الأربع الماضية وان الاصابات بالزهري ازدادت في الدانمرك والسويد وفرنسا خلال السنوات الخمس الماضية.

وفي (نيويورك)، (١٥٠٠) عصابة محترفة، شأنها السرقة، كل عصابة تتألف من ١٠٠ شخص أو أكثر، وفيهم حملة الشهادات العالية!؟.

وإن أهالي شيكاغو في أمريكا يدفعون في كل سنة ١٦٥ مليون دولار إلى السراق المحترفين وقاية لأموالهم، وما يقدم في الولايات المتحدة كلها كهدية للسراق يبلغ ١٢ مليون دولار في السنة، وهناك في أمريكا فئة خاصة تصطنع الاسناد والأوراق الرسمية، ووواردها السنوي ٤٠٠ مليون دولار.

وإن (روبرت بورن) كان يسرق في السنة ٣٠٠ سيارة ويبيعها وإن بعض الموظفين كانت لهم حصة في الموضوع.

يقول الدكتور الكسيس كاريل في كتابه: «الانسان ذلك المجهول» في معرض انتقاده للحضارة الغربية ما نصه:

«إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب لأنها لا تلائمنا، لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية، إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية، وشهوات الناس وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم. وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا» ص: ٣٨.

ويقول في مكان آخر:

«وهؤلاء النظريون يبنون حضارات، بالرغم من أنها رسمت لتحقيق خير الانسان. إلا أنها تلائم فقط صورة غير كاملة أو مهولة للانسان. إن نظم الحكومات التي أنشأها أصحاب المذاهب في عقولهم عديمة القيمة فمبادىء الثورة الفرنسية وخيالات ماركس ولينين، تنطبق فقط على الرجال الجامدين (غير الأحياء أو المتحركين). فيجب أن نفهم بوضوح أن قوانين العلاقات البشرية ما زالت غير معروفة، فان علوم الاجتماع والاقتصاديات علوم تخمينية»... (ص: ٤٣).

ويقول في مكان آخر:

«يجب أن يكون الانسان مقياساً لكل شيء. ولكن الواقع هو عكس ذلك، فهو غريب في العالم الذي ابتدعه، أنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه، لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته. ومن ثم، فان التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة، هو إحدى الكوارث التي عانت منها الانسانية. فالبيئة التي ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة لا بالنسبة لقوامنا ولا بالنسبة لهيئتنا. اننا قوم تعساء، لأننا ننحط أخلاقياً وعقلياً ان الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم، هي على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة في الضعف، والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها اليها، ولكنها لا تدرك ذلك. إذ ليس هناك ما يحميها من الظروف العدائية التى شيدها العلم حولها. وحقيقة

الأمر أن مدنيتنا ـ الحضارة الغربية ـ مثل المدنيات التي سبقتها أوجدت أحوالاً معينة للحياة، من شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحيلة، وذلك لأسباب لا تزال غامضة!»... ص: ٤٤.

ويقول الفيلسوف جود في كتابه: Philosophy: by Joad «إن العقل البشري لا يزال يافعاً، فلا يتوقع حالياً أن يستطيع فهم الكثير جداً عن العالم الذي وجد نفسه فيه. فنحن في الحقيقة نشعر أننا كلما ازدادت معرفتنا صرنا أكثر ادراكاً لمدى ما نحن فيه من جهل. أفرض: أن المعرفة الانسانية تمثل رقعة ضئيلة مضيئة في بحر يلفه الظلام الدامس من جميع نواحيه. فهذه المساحة اللانهائية من الظلام هي التي تمثل الجهل وكلما وسعنا مساحة الرقعة المضيئة (المعرفة) وسعنا كذلك مدى تماس محيط معرفتنا بظلام الجهل من حولنا».

ويظن كثير من شبابنا أنه لم يكن للاسلام قسط في حقل الحضارة الصناعية. ويردهم: كوستاولوبون في كتابه: النفسية السياسية، بقوله:

«قد يكون من الأوربيين مستعمرون ماهرون، ولكن منذ عهد رومية كان المسلمون من الشعوب الوحيدة التي حملت علم التمدن حقيقة وهم الذين فازوا وحدهم بنشر المواد الجوهرية من المدنية وأعني بها: الدين والمصانع والصناعة بين ظهري عناصر جديدة من غير عنصرهم».

ويقول في مكان آخر:

«هل من الواجب أن نذكر أن العرب، والعرب وحدهم، هم الذين هدونا إلى العالم اليوناني واللاتيني، وان الجامعات الأوربية ومنها جامعة باريز، عاشت مدة ستمائة سنة من مترجمات كتبهم وجرت على أساليبهم في البحث، وكانت المدنية العربية من أدهش ما عرف التاريخ».

ويقول في مكان آخر:

«كلما تعمق المرء في دراسة المدنية العربية، تجلت له أمور جديدة واتسعت الآفاق أمامه، وثبت له أن القرون الوسطى لم تعرف الأمم القديمة إلا بواسطة العرب، وان جامعات الغرب عاشت خمسمائة سنة بكتب العرب

خاصة. وان العرب هم الذين مدنوا أوربا في المادة والعقل والخلق ومتى درس المرء ما عمل العرب وما كشفوه في علم يثبت له أنه ما من أمة أنتجت مثل ما أنتجوا. في هذه المدة القصيرة التي كتب لملكهم قضاؤها».

«وإذا نظر المرء في صناعاتهم وفنونهم. لا يسعه إلا الاعتراف بأنه كانت لهم ميزة خاصة لم تبلغها أمة. ولئن كان تأثير العرب في الغرب عظيماً، فان تأثيرهم في الشرق أعظم، وما من عنصر أثر مثل تأثيره قط، فان الشعوب التي دانت الأرض لسلطانهم كالأشوريين والفرس والمصريين واليونان والرومان قد عفت الأيام آثارهم. ولم يخلفوا سوى آثار ضئيلة، بحيث لم يبق سوى ذكريات أديانهم وألسنتهم وفنونهم» ويقول:

«وقد اضمحل أمر العرب أيضاً، ولكن أهم عناصر مدنيتهم: وهي الدين واللسان والفنون لا تزال حية». وقال أيضاً: «إن العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين».

إن الشباب في أمريكا وأوربا قد تدهور إلى حد بعيد لا يرجى فيه الخير وقد تأسى بهم بعض شباب الشرق مع الأسف الشديد، وإن علماء النفس والاجتماع يعملون في إصلاح الحالة ولا يستطيعون ذلك لأن التسيب والانحراف قد بلغا (كما سنجد في بعض صفحات هذا الجزء) حداً قاصياً من جراء هذه الحرية المفسدة للنفوس والمضللة للعقول. وقد قال الفيلسوف الفرنسي، كوستاولوبون قبل عشرات السنين: «وقد وصلنا إلى طور من الحياة تجعل خطر الأخلاق أجل من خطر الذكاء فليس للذكاء قيمة إذا لم يعتمد على القوة والارادة وضبط النفس والتربية وحدها خليقة أن توجد هذه الأخلاق إذا لم تكفلها الوراثة»!؟.

ولكن من الواضح لأسس هذه التربية ومن المطبق لها؟!. فإذا كانت الأسس التربوية بشرية حالكة فلا أثر لها في إصلاح النفوس. لأن الناقص لا يترشح منه إلا شيء ناقص مبتور. وان حالة الغرب الراهنة بما فيها من مؤسسات تربوية ضخمة خير شاهد على صحة ما أقول.

فلا بد من الرجوع إلى دساتير تربوية جاءت من وراء هذه النفوس

الضالة، جاءت من وراء المادة الظلماء، جاءت من جانب الله تعالى على لسان أنبيائه عليهم السلام.

إذن: فلا نجاة إلا بالتمسك بدين لم تمسه يد البشريةالمحرفة: دين الاسلام القويم. وقد قال الله تعالى بشأنه:
﴿إنا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون﴾[1]

لا نجاة إلا بإيجاد الخشية في نفوس الشباب، حتى يخافوا الله، فلا يرتكبوا ما نهى الله عنه في خلواتهم ومحاضرهم فقد قال رسول الله (ص) «رأس الحكمة مخافة الله».

لا نجاة إلا باعتقاد رصين بيوم الجزاء، ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾[2].

فلو تذكر الشاب: ﴿يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً﴾[3]. ﴿يوم يسمعون الصيحة بالحق، ذلك يوم الخروج﴾[4] ﴿يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً، ذلك حشر علينا يسير﴾[5]. ﴿يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة. وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون، فذرني ومن يكذب بهذا الحديث، سنستدرجهم من حيث لا يعلمون، وأملي لهم أن كيدي متين﴾[6]. وأثرت الخشية في جميع أجزاء بدنه فهو إذ ذاك يرتدع عما نهى الله تعالى، فلا يرتكب ما حرم الله وما يفسد النفس فيبعدها عن الصراط المستقيم.

---

(١) سورة الحجر: ٩.
(٢) سورة الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩.
(٣) سورة طه: ١٠٢.
(٤) سورة ق: ٤٢.
(٥) سورة ق: ٤٤.
(٦) سورة القلم: ٤٢ ـ ٤٥.

ذلك لأن الخروج عما سنه الله على لسان أنبيائه: إسراف وهو بدوره يؤدي إلى الضلال والعمى والكبرياء والغرور. وقد قال تعالى:

﴿كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب﴾ (المؤمن: ٣٤).

﴿والذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم. كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾ (سورة المؤمن: ٣٥).

فعلى الشاب أن يراقب الله تعالى في جميع أموره ويتذكر قوله تعالى حيث يقول: ألم يعلم بأن الله يرى[1] وأن يعبد الله كأنه يراه. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فان لم تكن تراه، فانه يراك».

وفي الحديث القدسي: ﴿إنما يسكن جنات عدن الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني. والذين انحنت أصلابهم من خشيتي، وعزتي وجلالي إني لأهم بعذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب﴾.

حكي أن زليخا لما خلت بيوسف، قامت وغطت وجه صنمها. فقال يوسف: «ما لك، أتستحين من مراقبة جماد ولا أستحيي من مراقبة الملك الجبار».

وقد ورد في الأخبار: ان العاقل ينبغي أن يكون له أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه. وساعة يحاسب فيها نفسه. وساعة يفكر في صنع الله، وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب.

وقال الصادق عليه السلام: طوبى لعبد جاهد في الله نفسه وهواه. ومن هزم جند هواه ظفر برضى الله، ومن جاوز عقله نفسه الأمارة بالسوء بالجهد والاستكانة والخضوع على بساط خدمة الله تعالى فقد فاز فوزاً عظيماً، ولا حجاب أظلم وأوحش بين العبد وبين الله تعالى من النفس والهوى، وليس

---

(١) سورة العلق: ١٤.

لقتلهما وقطعهما سلاح وآلة مثل الافتقار إلى الله، والخشوع والجوع والظمأ بالنهار والسهر بالليل، فان مات صاحبه مات شهيداً، وإن عاش واستقام أداه عاقبته إلى الرضوان الأكبر. قال الله عز وجل: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا، ان الله لمع المحسنين﴾.

فأنت أيها الشاب، بين يديك حقائق ناصعة عن الدين القويم دين الاسلام، خاتم الأديان بل أكملها، ترشدك إلى الصراط السوي وتنير لك الطريق، كي تسلك مسلكاً يؤدي بك إلى تكامل نفسك وإبلاغها أسمى مراتب الكمال، وهل هناك هدف أسمى من التكامل؟ ولأجله وجدنا في هذا العالم. فشمر عن ساعد الجد في تطبيق ما أمر به الاسلام كي ترى نفسك كيف تتجلى يوماً بعد يوم مشرقة، وضاءة منيرة، مطمئنة: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾(١)

﴿يا بني آدم، قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً، ولباس التقوى ذلك خير، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون﴾(٢).

﴿يا بني آدم، لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة، ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما، أنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾(٣).

---

(١) سورة الرعد: ٣٠.
(٢) الأعراف: ٢٦.
(٣) الأعراف: ٢٧.

قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق

من حقائق القرآن العلمية

في القرآن الكريم آيات هي عصارة العلم الحديث وما ستنتجه المكتشفات العلمية في الكون الرحيب في مستقبل قريب أو بعيد. وليس لأحد مهما أوتي من علم غزير وكفاءة فائقة ونبوغ مرموق أن يفسر جميع الآيات الكونية في القرآن تفسيراً علمياً ناصعاً كاملاً غير ناقص. وهكذا كلما تكامل العلم المادي كلما ظفرنا بحقائق جديدة سبق كلام الله المجيد إلى ذكرها بإيجاز. وإن علوم القرآن التي كانت موضوع بحث المفسرين في القدم، كعلم القراءات وعلم الناسخ والمنسوخ وعلم الرسم القرآني وعلم المحكم والمتشابه والتفسير التاريخي والحكمي واللغوي والأدبي لفي معزل عن التفسير الفيزياوي والفلكي والطبقاتي والجغرافيائي والطبيعي. حتى أن القدماء لم يتوسعوا في تفسير القرآن في النواحي الاجتماعية والادارية والسياسية والحربية التي يتناولها القرآن الكريم.

وهناك من لا يؤمن بالعلم المادي ويرى أن العلم المادي يضاد الدين فلا يهمه تفسير القرآن على ضوء العلم الحديث، ظناً منه أن العلم المادي في تغير مستمر، وقد فاته أن ما اكتشفه العلم الحديث وحققته التجارب مرات ثابت لا يتغير، بل تتغير النظريات التي توضع لتفسير الطاقات، كالطاقة الكهربائية أو الجاذبية أو الضوء. ذلك لأن الطاقة ليست من المادة في شيء. لذلك لم يعلم لحد الآن (ولن يعلم على ما أعتقد) حقيقة الطاقات على اختلاف أنواعها من حرارية وحركية وكهربائية وجاذبية وكيف تتبدل هذه الطاقات بعضها إلى بعض.

فنحن بقدر ما نعرف طرقاً شتى لاستخدام الكهرباء في التدفئة والعلاج والانارة وإدارة الآلات وتسيير القاطرات والسيارات ونحوها لا نعرف تماماً ما

هي الكهرباء وقس على ذلك الضوء والحرارة. فكلها نطلق عليها لفظاً مبهماً هو الطاقة التي أودعت بين ثنايا الكون ويمكن أن يتحول بعضها إلى بعض: إلا أنه لا يمكن خلقها أو استحداثها من العدم.

لذلك لم يتمكن المادي من معرفة حقيقة المادة بعد أن رآها تتحول إلى طاقات، لا سيما وقد تمت منذ سنوات معدودة كشوف جديدة في عالم الكونيات تناولت صميم تكوين الذرة وأثارت اهتمام العلماء وعلى رأسهم رجال الفلك وأهم نتائج هذه الكشوف العثور على البروتون السالب أو البروتون المضاد للبروتون الذي نعرفه ـ والكهرب الموجب ـ وهو الالكترون المضاد للألكترون الذي نعرفه ـ ومعنى ذلك أن في هذا الوجود نوعين مختلفين من المادة[1] تبنى منهما النجوم والشموس والكواكب وسائر الأجسام. وإذا حدث أن التقى نوع منهما بالآخر أو تصادم معه تحدث عمليات إفناء ذرية تختفي معها معالم المادة من الوجود بينما تنطلق طاقات هائلة منها تلك التي استخدمت في الأصل في ربط جسيمات أو نويات وذرات تلك المواد. فكيف يفسر لنا المادي عملية الإفناء الذري وانقلاب المادة إلى طاقات؟!.

فلا تنافي بين العلوم المادية والحقائق الدينية إذ هما من مصدر واحد. ولولا أهمية العلوم المادية في تثبيت عقيدة التوحيد لما دوّن الله تعالى (٧٥٠) آية كونية أو أكثر في كتابه الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾.

وإني أرى أن هذا النوع من التفسير، أي تفسير القرآن الكريم على ضوء العلوم الحديثة من فلك وفيزياء وكيمياء ورياضيات، وعلم الحياة وعلم النبات والحيوان وطبقات الأرض والجغرافية على ما فيها من أقسام والطب الحديث والتاريخ والعلوم الاجتماعية والسياسية يزيد في إيمان الشاب الجامعي ويجعله يعتقد أن دين الاسلام هو دين العلم الصحيح ودين العصر الحديث ودين الأجيال القادمة مهما تقدم العلم وبلغ شأواً قاصياً. وذلك لأن

---

(١) ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ سورة ياسين.

العلم مهما تقدم في كشوفه تجلت حقائق القرآن أكثر فأكثر. ولا يصح الاعتماد على ما جاء في الكتب الفلسفية القديمة من علوم طبيعية مغلوطة تخالف الواقع وتفندها التجارب. وصارت تستند الكشوف الفيزيائية على الرياضيات العالية وأين الفلسفة القديمة من الرياضيات العالية. لذلك كان يقول (بوانكاره الفرنسي): «نحن الرياضيين إنما نعمل للفيزياء والفلسفة».

كانت الفلسفة القديمة تستند في كثير من استنتاجاتها على الظن، فكان يقول أحدهم: إن الأرض كروية. ذلك لأن الكرة أكمل الأشكال وأن حركة الشمس حول الأرض دائرية لأن الدائرة أكمل الأشكال وهكذا... والله تبارك وتعالى ينهانا عن إتباع الظن، وذلك بقوله عز من قائل:

﴿وما يتبع أكثرهم إلا ظناً. إن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾.

وبقوله تعالى:

﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن﴾.

فلا يجوز تفسير الآيات الكونية التي تقوي ناحية التوحيد في النفوس استناداً إلى الظن وما لا يؤيده التجارب والمعادلات والدساتير الرياضية والفيزيائية كتفسير (المد والجزر) مثلاً بملاك البحر الذي تصوروه عندما يضع أبهامه في البحر يفيض الماء وعندما يخرج ابهامه يغور الماء ويكون الجزر حين أن القضية قضية جاذبية القمر والشمس لمياه البحار والأنهار.

كما أنهم بدلاً من أن يفسروا العمد الذي لا يرى بالعين، بالجاذبية في الآية الآتية:

﴿الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها﴾.

إستندوا إلى خرافة يونانية القائلة: إن الأرض قائمة على قرن ثور والثور قائم على بطن حوت... (أما الحوت!؟).

وكم من نظريات سخيفة وظنون فاسدة دخلت من الفلسفة اليونانية البائدة في الاسلام ورآها الفلاسفة والمتفلسفون حقائق لا غبار عليها وصارو يدافعون عنها بحماس لا مزيد عليه.

والحق يقال: إن النهضة العلمية في الغرب ما قامت إلا على أسس من المشاهدة الصحيحة والتجارب السليمة. وما القوانين العلمية سوى تفسير لما يشاهد في عالم المادة. ورغم أننا لا ندعي إطلاق صحة هذه القوانين، إلا أننا نسلم بأنها تمثل جانباً كبيراً من الصحة والدقة وأنها تقترب من الكمال بتقدم العلوم والفنون فبمرور الوقت واتساع أفق المعرفة وازدياد الدقة في عمليات الرصد والملاحظة والمشاهدة يضيف العلماء من آن لآخر جانباً من التعديلات أو التحويرات إلى بعض القوانين العلمية لجعلها أقرب للحقيقة أو أعم للنفع.

فإن دساتير الجاذبية التي اكتشفها (نيوتون) لم تلغ من قبل (أينشتين) وإنما عدلت حتى يمكن تطبيقها في مسافات شاسعة بين الأنجم والكواكب النائية جداً وان دساتير نيوتون لا تزال تطبق وهي صحيحة في مسافات محدودة أي على الكرة الأرضية.

لذلك كله أرى من الضروري أن يلم العالم الديني بشيء من العلوم العصرية العامة قبل مرحلة الاختصاص، وأن يتخصص في بعض الفروع لا سيما الفيزياء إن وجد متسعاً من الوقت والكفاءة.

فليس من الصواب في شيء أن يبني الناس معتقداتهم الدينية أو صرح نظرياتهم العلمية على مجرد الخيال أو الاستنتاج دون برهان أو تجربة، فان مثلهم في ذلك كمثلنا عندما نجلس للتفكير في خواص المادة أو ظواهر الكون دون أن ندرس الأشياء ونرصدها! أو كمثل أولئك الذين يرثون عقائدهم دون اختبار موادها من حيث الخطأ والصواب وفي أمثال هؤلاء يقول القرآن الكريم:

﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا، أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾ (سورة المائدة).

* * *

انه تعالى يأمرنا أن نسير في الأرض فننظر كيف بدأ الله الخلق حتى نزداد

إيماناً ويقيناً، ونخضع تجاه عظمته التي لا تتناهى. ﴿وان من شيء إلا يسبح بحمده﴾.

لا يزال العلم الحديث يجهل كيف ابتدأ خلق العالم. والله تعالى يقول: ﴿ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم﴾ إذ نحن لم نكن حين خلق الله تعالى السماوات والأرض وكيف نشاهد خلق أنفسنا ونحن بعد لم نتكامل من حيث التكون والوجود ولا نعرف إلى الآن كيف دبت الحياة على وجه البسيطة وكيف كانت تتكون وتنمو الحشرات والحيوانات على اختلاف أنواعها. إنما هي نظريات تجرح وتعدل من حين لآخر. كما في تشكل المجموعة الشمسية. وعادة تبدأ كل نظرية علمية تحاول تفسير أصل الوجود من فروض خاصة لا سبيل للبرهنة عليها أو من نقطة خاصة لا سبيل للذهاب إلى أبعد منها. فالعلم الطبيعي لا يتعرض لمسألة الخلق من العدم وإنما ينصب على دراسة خصائص ما هو كائن فعلاً من مادة وطاقات وحياة ولا يريد الله تعالى في الآية المتقدمة:

﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾ أكثر من ذلك. إن علينا أن نبحث مستندين على ما كشف في علم الجيولوجيGeologie والاحياء Biologie وعلم الذرة والاشعاع وعلوم أخرى تمس الموضوع عن مراحل الخليقة.

ولا ريب أن العالم الأكبر قد تكوّن باذن الله تعالى وأمره من العالم الأصغر، فلنتكلم شيئاً عن العالم الأصغر ممثلاً في أصغر لبنات أو دقائق بنيت منها المواد وهي الذرة.

* * *

وقوام الذرات أشياء متناهية الصغر غير عادية تتشابه في جميع ذرات العناصر المختلفة، ويتوقف على عددها وترتيبها داخل كل ذرة تحديد نوع المادة أو العنصر التي تتكون من هذه الذرات. وأبسط الذرات تركيباً على الاطلاق ذرة الايدروجين، وهو المعروف باسم الغاز الكوني أو الغاز الذي خلق منه الكون وتطورت عنه سائر المواد المعروفة. وتتركب ذرة الايدروجين من (نواة)

عبارة عن: بروتون موجب التكهرب يدور من حوله على كثب منه: الكترون وهو كهرب سالب كما في العالم الأكبر وهو الشمس وما حولها من كواكب تسعة، ويتحقق قوله تعالى: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾[1].

ويتعقد تركيب الذرة كلما صعدنا قدماً في سلم العناصر المادية.

وكان المعتقد إلى عهد ليس ببعيد (منذ خمسة وعشرين عاماً تقريباً) إن الذرات غير قابلة للتجزئة إلى جسيماتها الأولى، وكانت الطرق المستخدمة في محاولات تحطيمها طرقاً عقيمة غير مجدية، ولكن لما عرفت وسائل تحطيم الذرة في هذا العصر أمكن الجزم نهائياً بأن طاقات عظمى تدخر بين ثنايا الذرة أساسها الطاقة التي استخدمت أصلاً في ربط جسيماتها الأولية، خصوصاً فيما يختص بمكونات النواة التي نشأت أول ما نشأت داخل النجوم تحت درجات من الضغوط والحرارة تفوق حدود الوصف والخيال. وكل ما يلزم لتفتيت الذرة هو بذل نحو هذا القدر من الطاقة الرابطة بطريقة من الطرق.

وفي أغلب العناصر لاتقتصر النواة على البروتون الموجب، بل قد توجد أيضاً: النيوترونات وهي الجسيمات أو اللبنات التي ليس لها شحنة تميزها، والمعروف أن المحدد الأول لصفات الذرة هو نواتها، فنواة الهليوم مثلاً ـ وهو غاز ينجم عن تفجير الايدروجين ـ قوامها اثنان من النيوترونات وإثنان من البروتونات. وعندما نصعد في سلم النويات حتى نصل إلى العناصر الثقيلة ممثلة في عنصر اليورانيوم مثلاً نجد أن نواة هذا العنصر الأخير تتكون من ٩٢ من البروتونات مع ١٤٦ نيوتروناً. وفي العادة تكون الشحنات السالبة داخل أي ذرة مساوية للشحنات الموجبة، وبذا تكون الشحنة الكهربية للذرة في مجموعها صفراً.

فذرة الهليوم تتكون من نواة فيها بروتونان يدور حولها اثنان من الالكترونات أو الكهارب السالبة لاحداث التعادل الكهربائي.

أما ذرة اليورانيوم فيسبح حولها نواتها (٩٢) الكتروناً.

---

(١) سورة الملك: ٣.

وتدور الالكترونات حول النواة في أفلاك شبه دائرية تتعدد بازدياد عدد الالكترونات، إذ يتشبع كل فلك بعدد معين منها. ولا يتسع أقرب الأفلاك أو المدارات إلى النواة لأكثر من الكترونين اثنين ويشبع المدار الـذي يليه ٨ الكترونات وهكذا، ويبقى الفائض عن تشبع الطبقات الداخلية في الطبقة الخارجية وهي التي يسهل فصلها وإعادة ترتيبها.

ومن الممكن أن يفصل الكترون واحد أو أكثر من الذرة، وبذلك تنفصل شحنتان احداهما موجبة والأخرى سالبة، وتسمى هذه العملية علمياً باسم (التأين). وأبسط الأجهزة التي يتم فيها تأين الغازات هي الأنابيب الكهربية المستخدمة في الاضاءة أو اللافتات والاعلانات، حيث يتوهـج الغاز تحت ضغوط مخلخلة بسبب تصادم الالكترونات مع ذرات الغاز. وينجم عن هذا التصادم مع بعض الذرات إضافة طاقات اليها تنطلق في صورة ضوء هو مصدر الوهج المعروف بينما يتأين البعض الآخر من الذرات.

* * *

ومنذ سنوات معدودات تمت كشوف جديدة في عالم الكونيات تناولت صميم تكوين الذرة وأثارت اهتمام العلماء وعلى رأسهم رجال الفلك وأهم نتائج هذه الكشوف العثور على البروتون السالب ـ أو البروتون المضاد للبروتون الذي نعرفه ـ والكهرب الموجب ـ وهو الالكتـرون المضاد لـلالكترون الـذي نعرفه ـ ومعنى ذلك أن في هذا الوجود نوعين مختلفين من المادة تبنى منهـا النجوم والشموس والكواكب وسائر الأجسام ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾[1].

وإذا حدث أن التقى نوع منهما بالآخر أو تصادم معه تحدث عمليات إفناء ذرية تختفي معها معالم المادة من الوجود، بينما تنطلق طاقات هائلة منها تلك التي استخدمت في الأصل في ربط (جسيمات) نويات وذرات تلك المواد. ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق. أو لم يكف

(١) سورة الذاريات: ٤٩.

بربك أنه على كل شيء شهيد﴾[1].

ونحن نستطيع أن نرمز للنوع الأول من المادة ذات البروتونات الموجبة بالحرف (م) مثلاً وهي التي تكون الكتروناتها سالبة التكهرب كما نستطيع أن نرمز للنوع الثاني من المادة المضادة ذات البروتونات السالبة والالكترونات الموجبة بالحرف (س).

واستفاد علماء الفلك من هذه الكشوف عن طريق تلك الامكانيات والتطبيقات الواسعة التي تكمن من ورائها وتفسر كثيراً من ظواهر الكون الغامضة، مثل ظهور أرجاء في المجرات برمتها مظلمة وخاصة في السدم الحلزونية، ومثل ظاهرة النجوم البراقة ونحوها.

وهناك بعض كهارب نووية أو (جسيمات) ذات شحنات كهربية في نويات الذرة الثقيلة تسمى الميسونات. وإذا تحول بروتون إلى نيوترون فانه يفقد شحنته الموجبة التي تنفصل بانفصال ميسون موجب أما إذا تحول نيوترون إلى بروتون فالميسون يحمل في هذه الحالة شحنة سالبة، وعندما يتصادم بروتون موجب مع آخر سالب، أو عندما يتصادم كهرب سالب مع آخر موجب، يعدم أحدهما الآخر من عالم الوجود بينما تنطلق الطاقة الكلية حسب معادلة اكتشفها (أينشتاين): تساوي ك في س^{2}: ط = ك س^{2}.

أي: الطاقة المنطلقة تساوي الكتلة المادية المختفية في مربع سرعة الضوء.

وهكذا نرى عندما تدخل ذرة من المادة (م) إلى عالم المادة (س) أو العكس تفنى الكهارب أولاً ثم يعقب ذلك إفناء البروتونات، ومهما يكن من شيء فنحن لا نعرف ـ ولو على وجه التقريب ـ ما إذا كان عدد البروتونات الموجبة المودعة في الكون يساوي تماماً عدد البروتونات السالبة فيه أم لا؟ إلا أن هذه الحالة يرى فريق من العلماء ضرورتها ووجوبها في عالم نشأ من العدم الذي هو نفس النتيجة المتوقعة لو أتيحت الفرصة لتلاقي المجرات وتصادمها مع بعضها.

---

(١) سورة حم ـ سجدة: ٥٣.

﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾[١].

﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن: فيكون﴾[٢].

﴿كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام﴾[٣].

وعلى أية حال، فان امكان زوال السماوات والأرض مسألة يقرها العلم ولا ينكرها ويفسرها تفسيراً طبيعياً على النحو الذي وصفناه، برسم اننا قد لا نستطيع أن نقرر أن البروتونات الموجبة والبروتونات السالبة نشأت أول ما نشأت كأكداس من الأزواج انفصلت إلى أفراد بحيث لم يزد مجموع شحناتها جميعاً على الصفر. لو أنها نشأت هكذا حسب أي احتمال (كجسيمات) فردية منفصلة، وكذلك برغم أنه لم يقل أحد بتوزيع البروتونات والالكترونات توزيعاً منتظماً في سائر أرجاء هذا الكون. أما احتمال التعادل الكهربي بين الشحنات السالبة والشحنات الموجبة في مكان معين بمضي الوقت فهو أمر تدعمه المشاهدة.

وما قلنا تفسير لهذه الآية الكريمة:

﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا أن أمسكهما من أحد من بعده، انه كان حليماً غفوراً﴾[٤].

وعلى أية حال، فان الآية الكريمة تشير باعجاز رائع إلى إمكان إفناء ما في الكون من سدم ومجرات إذا هي تغير نظام توزيعها، بأن تداخلت مثلاً أو اعترض بعضها بعضاً أثناء سبحها في الفضاء، ثم هي بالاضافة إلى تقرير تلك الحقيقة تظهر ضعف الكائنات جميعاً وعجزها عن إمساك السماوات والأرض من الزوال إذا قدر الخالق لها تلك النهاية: كما يقول الله تعالى:

(١) سورة القمر: ٥٠

(٢) سورة ياسين: ٨٢.

(٣) سورة الرحمن: ٢٦ - ٢٧.

سورة فاطر: ٤١.

﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار﴾[1].

﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب﴾[2].

﴿وإذا السماء كشطت﴾[3]. (أي: نزعت عن أماكنها)

﴿وإذا الشمس كورت﴾[4] (أي: رفعت).

﴿وإذا النجوم انكدرت﴾ (أي: أظلمت).

﴿وإذا الجبال سيرت﴾. (أي: ذهبت).



---

(١) سورة إبراهيم: ٤٨.
(٢) سورة الأنبياء: ١٠٤
(٣) سورة التكوير: ١١.
(٤) سورة التكوير: ١ - ٣.

ثم استوى إلى السماء وهي دخان[1]

والمقصود بالدخان هنا: الغاز. والمتفق عليه في العلوم الكونية ان أصل هذا الكون بدأ حين انتشر في الفراغ الكوني غاز (الايدروجين) وهو المعروف علمياً باسم الدخان أو الغاز الكوني. وأعقب ذلك بأمر من الله تعالى سلسلة من الخطوات أو التطورات التي صحبها ازدياد تركيز الغاز الكوني رويداً رويداً بفضل الجاذبية التي أودعها الله تعالى بين الأجسام، قبل أن يظهر في صورة السدم[2] والمجرات[3]، فالنجوم، ثم الكواكب، وتلخص هذه الخطوات كما يلي:

الغاز الكوني، المجرات، النجوم، الكواكب السيارة.

وبديهي أن نجد درجة تضاغط الغاز الكوني ليكوّن المجرات أقل بكثير من درجة تضاغطه داخل النجوم، وتبلغ كثافة أو درجة تركيز هـذا الغاز الكوني من القلة أنه يوجد منه نحو ذرة واحدة في فراغ يبلغ حجمه علبة الكبريت العادية. وبالرغم من هذا فان كتلة هذا الغاز في الوجود تزيد ألف مرة في عصرنا هذا على كتلة المواد المكدسة في جميع المجرات رغم أنه قد مضى على عمليات التحور التي صحبت ظهور الكون آلاف ملايين السنين،

---

(١) سورة حم سجدة: ١١.

(٢) السدم: جمع سديم.

(٣) المجرة: منطقة طويلة تمتد فوق رؤوسنا كالقوس وقد تركزت فيها النجوم بمقدار كثير وتكثفت فيها إلى حد بعيد، بعضها فوق بعض، تشبه بياض ماء النهر في سواد الأرض.

ولعل السبب في ذلك أن المجرات رغم اتساعها وكبرها المتناهي لا تشغل من الفضاء الكوني المترامي الأطراف إلا جزءاً ضئيلاً جداً.

فان الآية: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان﴾ تنبئنا بأن أجرام السماء إنما بدأت بصورة دخان وهي عين ما افترضته كافة النظريات الفلكية مهما اختلفت تفاصيلها. وكلها تقول: ان الوجود بدأ في صورة الدخان الكوني أو الايدروجين، وعندما ينتهي دور الأرض والسماوات ترجع هذه الأجرام إلى حالتها الأولى إلى دخان وطاقات هائلة:

﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾(١).

﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب، كما بدأنا أول خلق نعيده، وعداً علينا أنا كنا فاعلين﴾(٢).

﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار﴾(٣).

ويعترف العلماء أن الغاز الكوني الذي هو أساس الخليقة يخلق في الفضاء خلقاً، أي يخلق من العدم وهكذا بقية العناصر التي يتكون منها الكون كله.

ثم أنه تعالى يقول: ﴿أو لم يَرَ الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما﴾(٤).

وهي إشارة رائعة ومعجزة خالدة تُعبِّر من الوجهة العلمية عن عملية انفصال أجرام السماء والأرض عن بعضها بعد أن كانت دخاناً يملأ الفضاء، ثم سُدُماً، فمجرات تكدست فيها النجوم والكواكب. كل ذلك، بفعل الدوامات التي انتابت الغاز الكوني والجاذبية، والقوى الطاردة المركزية ونحوها من سنن الطبيعة ومعاول الخلق التي لعبت دورها في تكوين أجرام

---

(١) سورة الدخان: ٤.
(٢) سورة الأنبياء: ١٠٤.
(٣) سورة إبراهيم: ٤٨.
(٤) سورة الأنبياء: ٣٠.

السماء والأرض وانفصالهما عن بعضهما من الغاز الكوني.

ثم علم أخيراً أن الفضاء الكوني الذي يقع بين أجرام السماء ليس فراغاً خالياً من كل شي كالمادة ومعالمها وإنما تنتشر فيه أيضاً جسيمات غير مرئية على غرار ما كشف العلم في عصر الفضاء، وهو قوله تعالى:

﴿ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء﴾(١).

﴿ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير﴾(٢).

وإن الغاز الكوني بين النجوم والمجرات هو بحالة تخلخل شديد جداً إذ قدرت كثافته بنحو ميليغرام واحد في كل مليون ميل مكعب في الفضاء. وهذا الغاز مكون كله تقريباً من غازي الايدروجين والهليوم ومن دقائق ترابية.

والدخان الكوني هو مادة الكون الأولى وهو لا يفنى إلا بمشية الله تعالى ولا تقل كمياته في كوننا المرئي بشكل مستمر، ولهذا يتساءل العلماء من أين يقبل هذا الدخان أو الغاز؟.

أهو يقبل من الفضاء اللانهائي في تتابع مستمر ليعوض النقص في كمياته بسبب تولد المجرات الجديدة؟.

أم هو يأتي من مكان خفي؟

أم هو يخلق خلقاً؟.

ولكن القرائن والمشاهدات العلمية كلها تدل دلالة واضحة أن هذا الدخان الكوني لا يأتي من مكان معين، وإنما يخلق خلقاً، فأحياناً لا توجد ذرات هذه المادة وبعد ذلك تظهر، وإذن فان عملية خلق الايدروجين هي عملية مستمرة. وإلا نفد هذا الغاز من الوجود بسبب استمرار تكدسه، ومن ثم استنفاده داخل المجرات المتباعدة.

---

(١) سورة المائدة: ٢٠.

(٢) سورة المائدة ١٩.

ويتكدس الايدروجين كذلك داخل النجوم ويتضاغط بدرجات أكبر فأكبر بفعل الجاذبية. وينجم عن هذا التضاغط ارتفاع درجة الحرارة إلى حدود الملايين من الدرجات في مراكز تكون النجوم والشموس وعند ذلك تنشط العمليات الذرية. ويتحول هذا الدخان إلى رماد (غاز الهيليوم) وإلى عناصر أخرى بأمره تعالى تحت الضغوط المختلفة.

وهذه السلسلة كلها غير تراجعية، أي أنها لا يمكن أن تعود القهقرى إلى الوراء، لتنتهي بظهور الايدروجين من جديد وتحت أي ظرف آخر. وبديهي أن بقاء الغاز في الفراغ الكوني حتى الآن رغم تدخل هذه العوامل كلها لهو أكبر دليل على أنه في تجديد مستمر أو خلق مستمر، ولهذا السبب يبقى متوسط كثافة الغاز ثابتاً في الفضاء.

والحق يقال: أن معدل خلق مادة الكون الأولى هو معدل بطيء جداً. ولا يظهر هذا الدخان فجأة متكتلاً في مكان معين. ويمكن أن يقدر ظهوره بنحو خلق ذرة واحدة في العام داخل فراغ يعادل حجم قاعة كبيرة!! نعم. ان مثل هذا المعدل لا يمكن قياسه ولا مشاهدته عملياً. ولكن يمكن حسابه رياضياً. بحيث إذا طبقناه على فراغ الكون المرئي كله تمخضت قيمة المادة المخلوقة عن كميات تفوق حدود الوصف والخيال. فهي تربو على ١٠٠ مليون مليون مليون مليون طن في الثانية الواحدة!! وتسبب هذه المادة الجديدة من الضغط والحركة في الكون ما يدفعه على التمدد وما يجعل المجرات فيه تتباعد بسرعة هائلة. قد تبلغ نصف سرعة الضوء في الثانية: (١٥٠٠٠٠ كيلومتر/ثانية)، ويتحقق قوله تعالى: ﴿وهو الحق قبلاً وبعداً﴾ حيث يقول:

﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون﴾[1].

والحديث العلمي عن السماء في هذه الآية إنما يتناول حدود الكون المرئي واتساع هذه الحدود أو تمددها بمضي الزمن. وهي ظاهرة أو نتيجة من أعجب ما توصل إليه العلم في السنين الأخيرة. ومعاني الآية في غاية

(١) سورة النظريات: ٤٧.

الوضوح والجلاء، لا تحتاج إلى شرح أو بيان الا أن اعجـازها العلمي أوضح وأروع.

فالمعروف علمياً أن وحدات الكون العظمى أو المجرات إنما تتباعد عن بعضها البعض بسرعة فائقة. ويزداد بذلك حجم الكون أو يتمدد، وكلما تباعدت المجرات ازدادت سرعة انطلاقها في الفضاء اللانهائي، فقد شوهد قبلاً ان المجرات القريبة من مجرتنا بالذات إنما تتباعد بسرعة تقدر في حدود بضعة ملايين الأميال في السـاعة الـواحدة، وتصـل سرعـة تباعـد المجرات الواقعة على أضعاف هذه المسافات من مجرتنا إلى حدود سرعة الضوء. أما فيما وراء ذلك من حدود فان سرعة انطلاق المجرات إلى أعماق الفضاء قد تزيد على سرعة الضوء نفسه! خلافاً لنظرية (أينشتين) في نظرياته النسبية بشأن السرعة والكتلة لجسم ما. فلا يمكن بذلك للأضواء المنبعثة منها أن تصل الينا. أي أنها في الكون غير المرئي، وعلى أية حال، فان الحد الفاصل بين ما يمكن أن نراه من الوجود المادي وما لا يمكن أن نراه هو المجرة التي تتباعد عنا بسرعة الضوء. وتبعد مثل هذه المجرة عن مجرتنا في هذا العصر بنحو ٤ آلاف مليون سنة ضوئية.

ومجمل القول أنه نظراً لازدياد حجم الكون الذي نحن فيه، أو نظراً لتباعد مجراته تباعداً كبيراً بمضي الوقت، فاننا نستطيع أن نعرف نهاية هذا الكون بأنه الحد أو السماء الذي لا تستطيع المناظير المكبرة أو التلسكوبات الكبيرة جداً أن ترى ما بعده.

ويحتوي هذا الكون على اكثر من (١٠٠) ألف مليون مجرة. كلها آخذة في التباعد، وبذلك، فأنه من الممكن أن تختفي كلها وراء حدود الكون المرئي رويداً رويداً بمضي الوقت وازدياد سرعة تباعدها عن مجرتنا فوق سرعة الضوء وعندها تتوحد في كون فارغ من المجرات الا مجرتنا! إلا أن الحقيقة ان هذا لن يحدث تماماً، ولن يصبح الوجود فارغاً على النحو الذي صورناه في يوم من الأيام. بل سيظل يعج بالمجرات كما نراه اليوم. على وجه التقريب. وعلة ذلك أنه تتولد فيه مجرات جديدة كلما اختفت المجرات البعيدة وراء الحدود المرئية. ويتم توليد هذه المجرات الجديدة

من الدخان الكوني على نفس النمط الذي تولدت به المجرات القديمة.

وقد وضعت في نشوء الكون نظريات كثيرة على ضوء علم طبقات الأرض والكيمياء والفيزياء وعلم الأنواء والرياضيات. قبل لابلاس العالم الرياضي وبعده. نظريات تفند وتجرح من حين إلى حين، ثم تأتي نظريات أخرى وتفند أيضاً وهكذا لحد اليوم. وقد يستنتج من النظريات السابقة ما يستفاد منها في وضع نظرية جديدة، ولكن العلم المادي لا يزال ناقصاً وسيبقى ناقصاً مهما كملت الآلات والأجهزة ومهما توغل العلم في استقصاء حقائق الذرة والاشعاع ومعادلاتها، وهكذا تكون النظريات التي توضع على ضوئها، ناقصة متزلزلة قابلة للجرح والتعديل.

ومن أراد استقصاء موضوع نشوء الكون بأسلوب علمي أي على ضوء الرياضيات وعلم الذرة والكيمياء العالية والفيزياء العالية فليراجع كتاب: (نشوء الكون) لمؤلفه (جورج كاموو)[١].

انه تعالى يقول: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾[٢].

﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾[٣].

مع العلم أن النظرية: (theorème) ليست معادلة رياضية مجردة عن التطبيق على الكونيات حتى تكون حقيقة ناصعة لا تقبل النقاش والرد.

فالمعادلات المجردة عن حدود التطبيق أي تطبيق الأبعاد والكتل والزمان وما إلى ذلك هي معادلات صحيحة منطقية لا تقبل الشك والارتياب ولها جواب يحقق التعادل أو المساواة في تلك المعادلة أو المتطابقة إلى ما هنالك.

ولكن لو كانت المعادلة تربط أجزاء هذا الكون بعضها ببعض أو تفسر

(١) The Creation of universe

(٢) سورة أسرى: ٨٥.

(٣) سورة الكهف: ١١٠.

الحوادث الكونية كدستور نيوتون في الجاذبية تظهر فيها مواضع النقص أو الضعف، فتأتي دساتير (أينشتين) مصححة لها. وقد يأتي بعد (أينشتين) من يصحح نظريات (أينشتين) ويجد فيها مواطن للطعن والنقد وهكذا.

فلا ينبغي لدارس هذه النظريات ان يراها حقائق ناصعة لا تقبل الشك والتعديل، لا سيما النظريات التي توضع عن بزوغ الحياة وخلق الأحياء على وجه البسيطة، فأنها، مهما حاول المتتبع الاستقصاء والتحقيق لا تتجاوز عن كونها نظرية قابلة للجرح والتعديل كما يعرفنا بذلك كبار علماء الطبيعة مثل (ألكسيس كارل) في كتابه «الانسان ذلك المجهول».

ولكن هنالك متطفلين على العلم الحديث، لم يبلغوا من العلم ولا سيما الرياضيات العالية والفيزياء العالية وهما دعامتا العلم الحديث شأواً يعتد به، يحكمون ويحتمون ويهوسون ويأخذهم الغرور إلى حد بعيد. فيرون النظرية حقيقة، فيسخرون من الذين يعارضونهم في الرأي. حين أن الموضوع لا يتجاوز مشاهدات معدودة لا يمكن الاستنتاج منها بالاستقراء إلا حكماً مبتوراً بعيداً عن الحق والحقيقة.

إنه تعالى يقول:

﴿إن يتبعون إلا الظن وان هم الا يخرصون﴾.(١)

﴿وإن تطع اكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله، ان يتبعون إلا الظن وان هم الا يخرصون﴾(٢).

﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا، ان تتبعون الا الظن وان انتم الا تخرصون﴾(٣).

﴿ان يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ (سورة النجم ٢٣).

---

(١) سورة يونس: ٦٦.

(٢) و(٣) سورة الأنعام: ١١٦ و١٤٨.

﴿وما لهم به من علم، ان يتبعون إلا الظن، وان الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ (سورة النجم: ٢٨).

* * *

يقول «جورج وايناايس بيشوف» في كتابهما: الشمس والأرض والانسان: (ص: ٤٤).

ولقد مرّ على الأرض مئات الملايين من السنين منذ تكونت، ثم جاء أغرب حدث وأعجبه في تاريخ الكرة، وهذا الحدث هو بداية الحياة، أما كيف جاءت الحياة في بدايتها أو كيف كان مظهرها، فان العلم لعاجز عن معرفة ذلك، وكل ما يمكن أن يقال بشيء من التوكيد هو أن الحياة بدأت في المحيط الدافيء: الماء. وان أول كائن حي لم يكن لا بالنبات ولا بالحيوان بل كان أبا للاثنين، وربما كانت الحياة الأولى على هيأة بقع من مادة حية أو كتل من مادة هلامية تشبه الجيلاتين في الشكل.

ثم هما يقولان: «وكان أعجب العجائب بعد بداية الحياة هو نموها وتطورها إلى النباتات والحيوانات المختلفة التي عاشت على هذه الأرض يوماً ما. ويطلق على دراسة هذه الكائنات الحية وكيفية نشوئها وتطورها الواحد من الآخر أو الأصح تلو الآخر، اسم التطور».

ذلك لأن كل تغيير إنما يكون عن حكمة بالغة وهدف صحيح. ولا مجال للصدفة أن تلعب دوراً ولو بسيطاً في هذا المضمار. إذ توالى ما لا نهاية له من مراحل في عالم الخليقة وتشكلها باديء ذي بدء من أجزاء شتى. ثم قطعها مراحل لا تعد ولا تحصى. مراحل مترتبة بعضها إثر بعض، مراحل متسقة ومتزنة. مراحل علمية ينحصر بها وجود هذا الكائن الجديد لا يمكن أن تحدث بالصدفة. وقد أثبت حساب الإحتمالات استحالة ذلك. إذ درجة الاحتمال تساوي $\frac{1}{\infty}$ وهي الصفر وقد برهنا على ذلك بطريق رياضي في أوائل الجزء الثالث من هذا الكتاب.

والطبيعة عمياء، لا تبصر المستقبل ولا تعلم إلى ماذا سيؤول الأمر وكيف يعيش الحي في ظروف مختلفة وتحت عوامل متعددة. لا سيما

الطفرات[1] التي يشاهدها المتتبعون في الكائن الحي، حتى يصبح شكلاً آخر ونمطاً آخر.

لذلك يقول العالم الطبيعي: (وهو قد لا يؤمن بالقدرة الالهية، والدور العلمي الذي يسير عليه الوجود المادي):

«قد نشأت الخلية الأولى قبل نحو سبعمائة مليون سنة أو اكثر حين شرعت الأرض تبرد. وتتخثر الغازات إلى سوائل. ثم تجمدت هذه إلى مواد صلبة. ومن العسير علينا أن نعرف تلك الحال الأولى حين نبض الطين بالحياة، إذ أين كان النتروجين والكاربون والأوكسيجين والهيدروجين، وكيف كانت الأشعة الشمسية وأثرها في الغيوم التي كانت تكسو الكرة الأرضية، مع العلم أن الكرة الأرضية كانت تدور أسرع ما تدور الآن حول نفسها وحول الشمس... كل هذا نجهله كما يجهل أحدنا ما يقوم به الكيماوي في معمله المقفل.

فترون أنه لا بد لنشوء الخلية الأولى من عوامل متعددة جداً. قد تُعد بالآلاف، لأن لكل عامل، أيضاً، عوامل أخرى. وهكـذا دواليك! حتى ينتهي إلى واجب الوجود، وهو الله الذي لا بد من وجوده من الأزل، قبل كل شيء، حيث لا زمان ولا مكان، لا بد من وجوده كلما رجعنا إلى الماضي السحيق في حدود لا تتناهى.

وخير مثال لهذا، تركيب الصاروخ، إذ هو يتألف من ٣٠٠٠٠٠ قطعة على أقل تقدير. فهل يمكن أن تترتب هذه القطع بالصدفة. ثم لا بد من وجود هذه القطع أو الأجزاء قبل تركيب الصاروخ. مهندسة كل واحد منها هندسة صحيحة من حيث الأبعاد والتركيب بحساب هندسي دقيق كي ينشأ من تركيبها على أساس علمي ومنطقي هذا الصاروخ الذي نراه.

وهل يمكن أن يقال: إن القطعة الأولى من هذا الصاروخ تعلمت كيف تنشيء وتهيء القطعة الثانية وهكذا دواليك إلى ٣٠٠٠٠٠ قطعة فأكثر.

---

(١) motation

ولسائل أن يسأل: مم تعلمت القطعة الأولى، من كان المعلم لها؟ فإن قلنا بالتجربة، ففي أي مختبر أجريت التجارب حتى حصل بعد مشاهدات واستنتاج علم عن كيفية تهيئة القطعة الثانية بصورة هندسية صحيحة ومناسبة من قبل القطعة الأولى.

فإذا كان هذا القول بعيداً عن المنطق، فكذلك القول:

«كذلك تكون أجنحة لبعض الزواحف الأخرى وتعلمت الطيران»!.

من الذي كون هذه الأجنحة، ولم تكن هنالك مدرسة عالية تعلم هندسة الطائرات وصنعها. فالطبيعة عمياء، ليس لها أن تفكر في المستقبل والصدفة لا تهندس ولا تنشيء، إنما تأتي الصدفة في دور التركيب بعد الانشاء الهندسي.

ولو فكرنا في أنفسنا وتراكيب بدننا، علمنا أننا لم نتصرف فيها يوماً لتكون كذا ولا تكون كذا. لماذا لم نكون لأنفسنا أجنحة كالطيور ولمَ لم نتعلم الطيران كما (تعلمت الزواحف) على ما جاء في التفكير المادي، حتى نغير في أجسادنا تغييراً يريحنا من عناء السفر المرير.

ويقول أيضاً مؤلفا كتاب: الشمس والأرض والانسان[1]:

وقد مضت ملايين السنين قبل أن تظهر أولى النباتات على اليابسة، وبظهورها تكونت لها جذور تعلقت بالتربة الحديثة وبالصخور كما أنها كانت تمتص الماء بواسطتها. كما تعلمت هذه النباتات بطريقة ما كيف تستخدم (الكربون) الموجود في الجو مع الماء في صناعة الغذاء»!..

أنظروا إلى هذه الفلسفة المبتورة والمنطق السقيم، فانه يقول: مضت ملايين السنين قبل أن تظهر أولى النباتات، ولكن المؤلف يسكت عن بيان كيفية الظهور ومراحل الظهور وتكون الجذور وتعلقها بالتربة وبالصخور وكيف امتصت الماء بواسطة الجذور. ومم تعلمت هذه النباتات بطريقة ما حتى تنستخدم الكربون الموجود في الجو مع الماء في صناعة الغذاء. وكيف

---

(١) ص: ٤٦.

وجد الكربون في الجو وكذا الماء. أو ليس الغذاء يصنع من عدة أجزاء وبعوامل مختلفة، وقد أثبتنا أن الصدفة منتفية في جمع العوامل والأجزاء لصناعة الغذاء في الجزء الثالث من هذا الكتاب فلا بد من حكيم مدبر، دبر الأمور ورتبها أيما ترتيب حتى كان هذا الوجود بجماده ونباته وحيوانه وإنسانه.

﴿قل أرأيتم أن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم، من اله غير الله يأتيكم به، أنظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون﴾[1]... (يعرضون).

* * *

أما الصدفة التي تلعب دوراً هاماً في الاكتشاف والاختراع، فانها لطف رباني يتيحها لهذا الانسان كي يستفيد مما أودع الله تعالى في الطبيعة من خواص للشفاء والغذاء والصناعات المفيدة إلى ما هنالك.

فالصدفة التي لعبت دوراً هاماً في كشف الأشعة السينية(Rayon X) هي لطف رباني، كان قد منَّ الله بها على (كروكس) وكذلك الصدفة في ربط الأسلاك الكهربائية بطريقة التوازي، والصدفة التي أتاحت لباستور العالم الفرنسي في استعمال التطعيم للقضاء على مرض الجدري وأمراض أخرى.

فالصدفة التي يمنحها الله تعالى تفضلاً منه للعالم حين تتبعه وقيامه بالتجارب ليس إلا لجعله واقفاً على ما أودع الله من قوانين وأنظمة وخواص موجودة قبل حدوث الصدفة في هذا الكون من جانب الله تعالى والصدفة المتاحة نوع تعليم من جانب الله تعالى لهذا الانسان. فكأن الله يريد أن يكافىء هذا المخترع أو بلفظ أصح هذا المكتشف على تتبعه وجهوده، فيجعله يقوم بأعمال لا يعلم ماذا ينتج منها وإذا به يقف دونما انتظار سابق على خواص جديدة ومكتشفات حديثة.

لذلك، يرى كثير من المكتشفين أن يداً سحرية ترافقهم في مكتشفاتهم

---

(١) سورة الأنعام: ٤٦.

حتى المرحلة الأخيرة من ربط الآلات أو وضع المعادلات والدساتير!.

أما الملحد الذي لا يؤمن بالله الذي بيده ملكوت كل شيء، يرى التغيرات والتطورات تأتي تباعاً وبطريق منطقي وتدرج علمي، فكيف يفسر كل ذلك وهو لا يؤمن بالله الذي خلق المرحلة الأولى والأصل والأساس بما فيه من أجزاء وقوى وطاقات والمراحل التالية وما يحيط بها من عوامل ومؤثرات... و...

إن الملحد ليعترف بالقصور الذاتي(Inestie) في الفيزياء فإذا جاء دور عزو المراحل وحدوثها وانتظاماتها: هذه المراحل التي لا تعد ولا تحصى، هذه المراحل التي تكاد لا تتناهى... إلى خالقها وموجدها ومرتبها أحكم ترتيب، وهو الله تعالى، توقف الملحد وعزا كل ذلك إلى قوة يراها موجودة في ذلك الكائن الحي أو غير الحي، كالاكسيجين والنيتروجين، وقال بتطورات ذاتية في ذلك الموجود الحي أو غير الحي. تطورات متسلسلة على ضوء المنطق الصحيح. فكأنه يريد أن يقول: ان في ذلك الكائن الحي أو غير الحي عقلاً يدبر نمو وتكاثر هذا الكائن حين أن هذا الملحد مع ما أوجد الله فيه من عقل لا يقوى على أن يغير مما في نفسه أو بدنه شيئاً. ولا يعلم كيف وجدت عينه أو أذنه أو شامته... الخ...

* * *

وهكذا، ترون، يقول أحد هؤلاء الماديين: «ليس لأحد يمكنه الآن أن يجزم في شيء عن أصل المادة ونهايتها». وقد قرر (كوستاولوبون) بالتجربة أن المادة تفنى وتعود أثيراً غير محسوس.

ويقول المادي: لا نعلم شيئاً عن كيفية تطور المادة، والشك لا يزال قائماً عن هذا الكون، هل هو متناه أو غير متناه؟.

فترون، أن المادي، يبني فلسفته على أشياء يجهلها هو ولا يعلم حقيقتها وكيفية نشوئها وتطورها وقطعها المراحل ثم وجود هذا الكائن الحي بعد ذلك على وجه البسيطة.

كان يقول «بركسون: (Bergson) الفيلسوف الفرنسي:

إن الحياة مبدأ أو عنصر أو فكرة مستقلة عن المادة، وانها إنما تستخدم المادة فقط كي تبدو أو تتمثل في أجسام الأحياء. ويقول: أنه ليس بعيداً أن تتخلص الحياة من المادة في المستقبل وتحيى الأحياء بلا أجسام.

والمادي يعترف قائلاً: لسنا نعرف ماهية الحياة الأولى، فربما كانت أبسط من الخلية، وذلك لأن الخلية الأولى كانت من الصغر ولين المادة الهلامية بحيث إذا ماتت لم يبق لها أثر يشهد على وجودها كبقية المتحجرات Focils، ثم يعرِّف المادة قائلاً: لا نعرف كيف دبّت الحياة في الخلية الأولى... ويقول المادي: «لقد مضى زمن كان يحسب فيه الناس أن هناك تشابهاً عظيماً بين تكون المبلورات كالبرَد والثلج والألماس وبين تكون الحياة. ولكن الفرق عظيم بين الاثنين، فالتبلور يحدث بالاضافة الخارجية، أما الحي فينمو بالتمثيل الداخلي، أي أنه يحتوي على مادة جامدة أو حية، ثم يهضمها ويجعلها مثله، وهو يقول: ان دبيب الحياة الأولى في الجماد لا يزال سراً، وإنما المقرر المعروف: أنه ليس في الحي عنصر أو مركب لا نجده خارجاً في الجماد.

فالجسم الحي مؤلف من الكاربون والنيتروجين والأوكسيجين والايدروجين والكبريت وجملة أملاح أخرى. وبعض المركبات التي يصنعها الجسم الحي مثل النشا والبول والكثول يمكن صنعها الآن في المعامل الكيميائية. إلا أننا لو جمعنا المواد المؤلف منها الحي لما أمكننا مع ذلك أن نصنع خلية حية[1].

وهذا اعتراف جميل: أن الحيوية شيء آخر. غير المواد. وان العلم الحديث يجهل تكون الخلية الأولى بما فيها من حيوية، ولقد بسطنا القول في هذا المقام في الجزء الأول من التكامل ص: ٤٤٥ وفي الجزء الثاني ص: ١٠٣.

* * *

وعندما كنت أكتب هذا المقال، شاهدت عصفوراً كان قد دخل من ثقب

(١) نظرية التطور وأصل الانسان. لسلامة موسى. ص: ٤٥.

في نافذة من نوافذ الغرفة، ولم يستطع العودة إلى الحديقة فصار يطير ساعات ها هنا وها هنا. ويصطدم بالنافذة والزجاج تارة بعد أخرى، وهو لا يهتدي إلى سبيل، مع أني قد فتحت له نافذة كان في إمكانه أن يفر منها، لأن الشبكة السلكية كانت ممزقة والطريق مفتوح أمامه. وهكذا بقي حائراً مضطرباً، حتى جاء ولدي محمد أخذه وأخرجه إلى الحديقة بيده!.

فلو كان لهذا العصور أدنى تصرف في صنع أجهزة بدنه الدقيقة التي قد بلغت من الدقة وإتقان الصنع ما يجب أن يكتب فيه آلاف الصفحات لوجد طريقه من تلك النافذة المفتوحة إلى الخارج ونجا فوراً.

كل ذلك يدلنا على أن الكائن الحي بأنواعه المتنوعة وتطوراته المختلفة وتكامله المادي البطيء أو السريع وطفراته ونموه العقلي أو الغريزي، ليس له أدنى تصرف من تلقاء نفسه، وكل ما يحدث في داخله وكيانه إنما هو بأمر من الله وإرادة الله ومشيئة الله وقدرة الله التي لا تتناهى.

فليست نظرية التطور إن صحت في بعض المجالات إلا بياناً لما ألهم الله هذا الكائن الحي من مراحل لا تعد وإرادة تحقيقها بمشيئته، إذ هو الذي هيأ له الظروف والكفاءات والقابليات إلى ما هنالك.

وخير دليل على ذلك بقاء كثير من الكائنات الحية في حدود معينة من التكامل المادي، مع أن جهاز الهضم مثلاً من حيث الدقة وحسن الصنع هو نفس الجهاز في كائن حي آخر أرقى في عالم التفكير والحياة الاجتماعية.

فالتفكر في الموجودات في معزل عن يد ربانية مسيرة بشكل لا نفهمه ولا نعلمه تفكير مبتور يؤدي إلى فلسفة ضالة، مضللة، تسوق الانسان إلى جهل مرير.

﴿فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[١].

* * *

---

(١) سورة الحج: ٤٦.

فالنفوس الضالة، أو بالأحرى: النفوس الشريرة التي تحجرت بآثامها وفسوقها وكبريائها، فجحودها، تكون فلسفتها فلسفة خيالية، مضلة فلا تتوجه إلى الحق المتعال، بل يكون استنتاجها الفكري الحاداً وزندقة لعمى القلب من جراء الفسوق، «وإن أعمى العمى عمى القلوب» كما جاء في الحديث.

﴿بل إدّارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون﴾[1].

﴿أفمن يعلم إنما أنزل اليك من ربك الحق، كمن هو أعمى، انما يتذكر أولو الألباب﴾[2].

﴿قل من رب السماوات والأرض، قل الله، قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً. قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور، أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه، فتشابه الخلق عليهم، قل الله خالق كل شيء، وهو الواحد القهار»[3].

﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير، أفلا تتفكرون﴾[4].

وفي الحديث: «ما ضرب ابن آدم بعقوبة أشد من قسوة القلب».

وإن الله لا يضل إلا من تردى وضل بسوء اختياره وكثرة آثامه ﴿وما الله يريد ظلماً للعباد﴾ [5].

إنه تعالى يقول: ﴿ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾[6] بسوء اختيارهم وذلك لذنوب كثيرة أدبرت لذاتها وأقامت تبعاتها.

---

(١) النمل: ٦٦.
(٢) الرعد: ١٩.
(٣) الرعد: ١٦.
(٤) الأنعام: ٥٠.
(٥) آل عمران: ١٠٨
(٦) الأنعام: ١٢٥.

فطريق الحق مغلق على النفوس المتحجرة ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا﴾ فتكون فلسفتها إلحادية غير منطقية، مبتورة. مستندة على أساس أوهن من بيت العنكبوت، ذلك لأنك لو تدرجت مع هذا الفيلسوف! نحو المراحل الأولى من الخليقة، قال لك: «أني لا أعلم، ولا يزال العلم يجهل ذلك، أو، لم يحن الوقت ليكتشف العلم حقيقة هذا السر. ولكن الزمان كفيل بذلك»!!... كلام سوفسطائي يخدع النفوس المنحرفة، الأثيمة الحالكة التي لا تبصر نفسها وما لها من عوالم شتى ليس لها أدنى تصرف في تغييرها وتعديلها لذلك يقول تعالى: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾[1].

﴿والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات﴾[2].

ولا يكون التكذيب إلا من جراء تلوث النفوس بالذنوب والظلم والفساد في الأرض.

هذه سنة الله في أرضه: ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾[3].

والله تعالى قد أخبرنا في كتابه المجيد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، عن هذا الانسان الجاحد العدو لله الذي مَنَّ عليه بأنواع النعم، نِعَمٌ لا تعد ولا تحصى، بقوله جل من قائل: ﴿أوَ لم يَرَ الانسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾[4].

* * *

كيف يفسر لنا المادي ما يصنعه النمل الأبيض في أفريقيا من مستعمرات ضخمة من الطين مخلوطاً بلعاب فمه، وكل منها برج شامخ في

---

(١) سورة الذاريات: ٢١.
(٢) سورة الأنعام: ٣٩.
(٣) سورة فاطر: ٤٣.
(٤) سورة يس: ٧٧.

الهواء ارتفاعه عن سطح الأرض حوالي ٦ أمتار ومحيط قاعدته قد تصل إلى ١٥ متراً ولا يمكن هدم هذا البرج إلا بالديناميت. ويصنع النمل بالقرب من هذا البرج في جهة أخرى حصناً صمم بطريقة خاصة إذا سألت عنه أحد الأهلين فسيخبرك أنه البوصلة. وبواسطة هذا المبنى يستطيع الأهالي معرفة الجهات الأصلية في الصحارى والجبال. ذلك لأن لها سطحين عريضين. أحدهما يشير إلى الشرق والآخر يشير إلى الغرب وسطحين ضيقين متجهين إلى الجنوب وإلى الشمال ولا يمكن أن تشذ عن هذه القاعدة أي مستعمرة من مستعمرات هذا النوع من النمل. ولهذا يثق الأهالي في ذكائه الغريب، ولم يستطع أحد أن يعرف الحكمة التي تكمن وراء هذا النظام.

ففي أية مدرسة عالية تعلم النمل الأبيض صنع بروج شامخة لا يمكن هدمها لما فيها من صلابة إلا بالديناميت، وممّ تعلم صنع المزولة لتعيين الجهات الأربع؟ لماذا لا يستطيع الفرد صنع المزولة وجعل لعاب فمه من حيث التركيب الكيمياوي كما في النمل الأبيض، وهو على ما يقوله البعض أقرب إلى الانسان من حيث التشكيلات الجسدية فحسب؟.

إذن ليس التطور في الحيوانات والحشرات وغيرهما بتطور ذاتي، وإنما يد ربانية ومشيئة إلهية تتصرف في ما خلق عن حكمة بالغة كي يرى الناس آثار عظمته تعالى في الآفاق والأنفس: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أوَ لم يَكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾[1].

﴿هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون[2] ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون. وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره. ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون. وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه أن في ذلك لآية لقوم يذّكرون. وهو

---

(١) حم سجدة: ٥٣.

(٢) تسيمون: ترعون دوابكم، ذرأ: خلق، مواخر: تشق الماء بجريها. رواسي: جبالاً ثوابت.

الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها، وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. وألقى في الأرض رواسي أن تميدَ بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون. وعلامات وبالنجم هم يهتدون، أفمن يخلق كمن لا يخلق، أفلا تذكرون، وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الله لغفور رحيم﴾[1]



(١) سورة النحل: ١٠ - ١٨.

عوالم القدس

ليس الانسان هذا البدن فحسب، أي ليس الانسان مجموعة كذا غراماً من الآزوت وكذا غراماً من الكالسيوم وكذا غراماً من الفوسفور وكذا غراماً من الهايدروجين ومن الأوكسيجين، إلى ما هنالك من عناصر، كما يقوله المادي، إنما هو نفس حساسة وروح فياضة وعقل وشعور وإحساسات وأمان وعواطف وميول إلى ما هنالك.

فالانسان انسان بنفسه لا بعضلاته وعظامه ودمه ولحمه وبما يؤلف بدنه من عناصر.

إن الأعضاء المادية التي تشكل هذا البدن تساعد الانسان لبلوغ أمانيه ولبلوغ تلك الغاية التي خلقه الله تعالى لأجلها. إلا وهي معرفة الله جل وعلا. وقوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون﴾[1] دليل واضح على أن العلة الغائية من وجودنا في هذه الدنيا إنما هي عبادة الله تعالى وتوحيده وتقديسه والتقرب إليه، ثم معرفته. ذلك، لأن العبادة بما فيها من تسبيح وتحميد وخشوع وخضوع وصلاة وصوم وحج وزكاة وخمس وصبر على النوائب وأخلاق فاضلة والقيام بأعمال صالحات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مقدمة لمعرفة الله تعالى.

فلا يمكن الوصول إلى معرفة الله: معرفة تتناسب والاستعداد البشري إلا بعبادة مقبولة، بكل ما في العبادة من معنى واسع مع خشوع وخضوع. فكلما شعر الانسان أنه يذوب حباً لله ويزداد له خشوعاً وإنابة علم أنه يتقرب إلى الغاية التي خلق لأجلها، إلا وهي معرفة الله جلت قدرته.

---

(١) سورة الذاريات: ٥٦.

هل شعرت في صلاتك بانجذاب نحو المبدأ الأعلى وحبور وسرور من جراء هذا الانجذاب اللاهوتي؟

هل دمعت عيناك وأنت في صلاتك عند تلاوة بعض الآيات من كتاب الله المجيد؟. وهل عرجت نفسك أثناء القنوت وأنت رافع يديك نحو السماء إلى معالم قدسية تفوق حدود الوصف والتعريف؟.

وهل أحسست عند قراءتك دعاء كميل ليلة الجمعة وأنت تناجي ربك عن قريب، ذليلاً، خاشعاً، معترفاً بذنوبك، ودموعك تنهمل على خديك ندماً وتأسفاً بانجذاب روحي نحو الله الذي لا تتناهى عظمته، فزدت فرحاً لا يشبه أفراح الدنيا المشوبة الزائلة في شيء؟.

وهل شعرت بعد الانتهاء من دعاء كميل كأن حملاً قد وضع عن كاهلك، وقد أصبحت في عالم آخر قد رفع عنك أوزار الذنوب والآثام ورفع عنك الحجاب على قدر معرفتك بالله المتعال.. أو بالأحرى على قدر طهارة نفسك؟.

وهل حضرت المآتم الحسينية، فصرت تذكر تلك التضحية الغالية التي عجز عنها الأنبياء (ع)، تذكر مناجاة أصحاب الحسين (ع) في ليلة العاشر من محرم ولهم دوّي كدوّي النحل بين راكع وساجد وقائم وقاعد؟ هل ذكرت كيف يستسقى عليه السلام لطفله الرضيع والقوم أبوا أن يرحموه فقال (ع): «هوّن عليَّ ما نزل بي أنه بعين الله» وانهملت دون إرادة منك دموعك، فدخلت في ذلك العالم الروحاني الرقيق الذي كان قد دخل فيه أصحاب الحسين عليهم السلام ليلة العاشر من محرم ويومه؟.

وهل وُفقتَ أن تقوم جوف الليل وتصلي ركعات ثم تناجي ربك بقلب ملؤه الاخلاص وقد اغرورقت عيناك بالدموع حزناً على ما فرطت في جنب الله، وفرحاً بهذا المثول اللاهوتي، المثول بين يدي رب العالمين، وصرت تفكر في عوالم الآخرة وعظمة الله تعالى وموقفك الضئيل منه، وشعرت إذ ذاك أنك تدخل في عالم جديد، عالم بعيد عن عالم المادة الحالك كل البعد، عالم كله صفاء وعلو وارتفاع؟.

وهل وُفقتَ أن تخاطب الله تعالى في قنوتك قبيل الفجر قائلاً بكل خشوع واسترحام: «ألهي أسأت وظلمت نفسي وبئس ما صنعتُ وهذه يداي يا رب جزاءاً بما كسبت وهذه رقبتي خاضعة لما أتيت وها أنا ذا بين يديك، فخذ لنفسك من نفسي الرضا حتى ترضى، لك العتبى، لا أعود.. ثم تقول: وقد ملئت حزناً وبكاءاً وندامة هذا مقام العائذ بك من النار (٧ مرات).

وهل ناجيت الله تبارك وتعالى، بعد الانتهاء من صلاة الليل، صلاة المتهجدين، الخاشعين، صلاة المستغفرين بالأسحار[١] قائلاً: «الهي غارت نجوم سماواتك وهجعت عيون أنامك وأبوابك مفتحات للسائلين، جئتك لتغفر لي وترحمني وتريني وجه محمد صلى الله عليه وآله في عرصات يوم القيامة. ثم تبكي وتقول ـ كما كان يفعل إمامنا زين العابدين عليه السلام ـ وعزتك وجلالك، ما أردت بمعصيتي مخالفتك وما عصيتك إذ عصيتك وأنا بك شاك ولا بنكالك جاهل، ولا لعقوبتك متعرض، ولكن سولت لي نفسي وأعانني على ذلك سترك المرخى عليَّ فالآن من عذابك من يستنقذني وبحبل من اعتصم إن قطعت حبلك عني، فواسوأتاه غداً من الوقوف بين يديك إذا قيل للمخفين جوزوا وللمثقلين حطوا، أمع المخفين أجوز، أم مع المثقلين أحط، ويلي، كلما طال عمري كثرت خطاياي ولم أتب، أما آن لي أن استحيي من ربي، وتبكي وتقول:

أتحرقني بالنار يا غاية المنى ... فأين رجائي ثم أين محبتي
أتيت بأعمال قباح زرية ... وما في الورى شخص جنى كجنايتي

وهل خاطبت الله تعالى يوماً في معزل عن الناس وناجيته مناجاة التائبين، قائلاً: «الهي ألبستني الخطايا ثوب مذلتي، وجللني التباعد منك لباس مسكنتي وأمات قلبي عظيم جنايتي، فأحيه بتوبة منك يا أملي وبغيتي ويا سؤلي ومُنيتي، فوعزتك ما أجد لذنوبي سواك غافراً، ولا أرى لكسري غيرك جابراً، وقد خضعت بالانابة اليك وعنوت بالاستكانة لديك، فان

(١) ﴿والذين يقولون: ربنا أننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار﴾. (سورة آل عمران: ١٦ ـ ١٧).

طردتني من بابك فبمن ألوذ، وان رددتني عن جنابك فبمن أعوذ. . . الخ».

فدخلت في عالم جديد من عوالم القدس، قد رفع الحجاب إذ ذاك بينك وبين خالق السماوات والأرضين وبلغت مرتبة مرموقة من اليقين.

وهل تلوت القرآن قُبيلَ الفجر بصوت حزين، مفكراً في آياته، متدبراً معانيه، وقد ألهمت من جانب الله تعالى معاني جديدة لم تكن تتلقاها في وقت آخر أو بالتعلم، وقد عرجت بك هذه المعاني إلى عوالم سامية رفيعة يستحيل بيانها وشرحها باللسان والبنان؟.

وهل وقفت مع الحجاج يوم عرفة عند العصر عندما تأخذ الشمس بالأفول وقرأت دعاءاً كان يقرأه أبو عبد الله الحسين عليه السلام: بخضوع وخشوع ودموع. فترى كيف أن النفس تخرج من عوالم الناسوت صاعدة نحو عوالم الملكوت، وكيف تخرج من حضيض المادة العمياء إلى العالم العلوي إلى معالم القدس، فتسبح في عوالم قدسية ليس لهذه الألفاظ أن تعبِّر عنها، فقد بلغت من القدسية مرتبة تفوق تعبير المعبرين وبيان البلغاء المفوهين؟.

وهل وفقت إلى خدمة جارك المريض من أول الليل إلى السحر. تجلب له الطبيب وتقدم له الدواء وتسليه وتداريه وتقرأ له الأدعية المأثورة للشفاء وخالفت هواك في ميلها إلى الراحة والنوم. كل ذلك طلباً لمرضاة الله وشعرت إذ ذاك براحة الضمير وحبور ناصع لا يشبهه أي حبور، حبور يسمو على البيان والتعبير، فكنت مصداق هذا الحديث النبوي: «من سرته حسنته وأساءته سيئته فذلكم المؤمن» فبلغت إذ ذاك مرتبة مرموقة من الايمان تقارب مرتبة اليقين: إن الحسنات يذهبن السيئات، ذلك ذكرى للذاكرين»(١).

وهل وفقت أن تذهب من تلقاء نفسك إلى قرية من القرى لوجه الله دون أن تُعلم أحداً بذلك، فتجتمع بالمؤمنين وتستعين بهم في هداية

---

(١) سورة هود: ١١٥.

الشباب إلى دين الله القويم، ودفع ما يختلج في صدورهم من شبهات جاءت من دسائس المستعمرين وكيد الكائدين. فتنور قلوبهم بمعالم الدين وسنة سيد المرسلين والأئمة الأطهار سلام الله عليهم أجمعين؟.

كل ذلك من عوالم القدس يقربك إلى سعادة حقيقية، سعـادة فيها الزلفى والقربى من الساحة الملكوتية وفي غاية الغايات.

ليست السعادة في نيل أموال طائلة وقصور مشيدة وجاه ورئاسة إلى ما هنالك، فقد قال الله تعالى: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فيٰ الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾ . وفي الحديث عن أبي الحسن (ع) أنه ذكر رجلاً فقال: أنه يحب الرئاسة فقال: ما ذئبان ضاريان[١] في غنم قد تفرّق رعاؤها بأضرّ في دين المسلم من الرئاسة[٢]

وعن أبي عبد الله (ع) قال: من طلب الرئاسة هلك.

وعن عبد الله بن مسكان، قال: سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: إياكم وهؤلاء الرؤساء الذين يترأسون، فوالله، ما خفقت النعال خلف رجل إلا هلك وأهلك.

وقد قال أبو عبد الله عليه السلام: معلون من ترأس، ملعون من همّ بها، ملعون من حدث بها نفسه[٣].

وعن أبي حمزة الثمالي، قال: قال لي أبو عبد الله (ع): إياك والرئاسة وإياك أن تطأ أعقاب الرجال، قال: قلت: جُعلت فداك، أما الرئاسة فقد عرفتها، وأما أن أطأ أعقاب الرجال، فما ثلثا ما في يدي إلا مما وطئت أعقاب الرجال. فقال لي ليس حيث تذهب، إياك أن تنصب رجلاً دون الحجة، فتصدقه في كل ما قال.

عن أبي الربيع الشامي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: ويحك يا أبا الربيع، لا تطلبن الرئاسة ولا تك ذئباً. ولا تأكل بنا الناس، فيفقرك الله، ولا

---

(١) الضاري: من الحيوانات كالأسد والنمر.

(٢) أصول الكافي: ج ٢/٢٩٧.

(٣) أصول الكافي: ج ٢، ص/٢٩٨، ط: طهران.

تقل فينا ما لا نقول في أنفسنا، فأنك موقوف ومسؤول لا محالة، فان كنت صادقاً صدقناك، وإن كنت كاذباً كذبناك.

وعن إبن مياح عن أبيه قال: سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: من أراد الرئاسة هلك.

وعن محمد بن مسلم، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: أترى لا أعرف لخيارکم من شراركم. بلى والله وإن شراركم من أحب أن يوطأ عقبه، أنه لا بد من كذاب أو عاجز الرأي.

إنما تتحقق السعادة في قطع مراحل في عوالم التقوى والتزكية، مراحل تقرب هذا الانسان إلى ربه المتعال، توصله إلى الغاية التي خلقه الله لأجلها.

﴿والسابقون السابقون، أولئك المقربون، في جنات النعيم﴾(١).

ليست السعادة على ما جاء في بعض كلمات فلاسفة الغرب: ان يتناول الانسان صبيحة يوم ممطر بارد أشد البرد كوباً من الحليب على فراش وثير في غرفة دافئة، أنها نظرة مادية حالكة سخيفة، توصل الفرد إلى الحضيض. ﴿لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فلهم أجر غير ممنون﴾(٢).

* * *

فالسعادة أن تُصلح ما بك من صفات وقوى على وجه يريده الله، تصلحها جميعاً دون تبعيض وبصورة دائمة، حتى تتكون فيك عادة متأصلة لا تغيرها الأحوال والأزمان. ولا تزول مع الحوادث والمصائب. فيقينك إذ ذاك ثابت لا تؤثر فيه الشبهات، وشكرك دائم لا يزول مع المحن والنوائب. وصبرك حاكم لا يزول مع الفتن والأحداث، وإحسانك أبدي لا يزول بالاساءة، وصداقتك مستقرة لا تزول بالعداوة، فالسعيد من تطهر من جميع

(١) سورة الواقعة: ١٠ ـ ١٢.

(٢) سورة التين: ٤ ـ ٦.

الخبائث الجسمانية والأقذار الحيوانية، فلا يحوم حوله شيء من العوارض الطبيعية[1]، انه ممتلىء من الأنوار الالهية والمعارف الحقيقية، فعلينا أن نتأسى برسول الله (ص) لنيل بعض هذه المراتب ﴿ولكم في رسول الله أسوة حسنة﴾. فمن بلغ هذه المرتبة فقد فاز بالبهجة الالهية واللذة الحقيقية، لذة تفوق اللذات بأسرها، وانتعاش نفسي لا يدنو منه أي انتعاش.

السعادة لحظات انخطاف تحلق بالنفس البشرية وراء حدود المكان والزمان. فتضع عنها آصار المادة وتحررها من أوضار الحقد والاثرة فلا ترى إلا الجمال ولا تستشعر سوى الحب.

فإذا هي واقع يعيشه المؤمن سلاماً لا قلق فيه، وغبطاً لا كدر معها وطهراً روحياً لا يتسلل اليه ضغن.

وأية غبطة يمكنها أن تضاهي تلك التي يستشعرها المؤمن هناك؟

وفي هذه الغمار النورانية يعيش الانسان آمن السرب، مطمئن القلب، خالي الذهن من كل شاغل يصرفه عن الاستغراق في ملكوت الله.

أو ليس في هذا السلام والطمأنينة والأخوة الضالة التي يفتش عنها المفكرون، ويتلهب اليها الحزانى والمعذبون.

فالانسان بأخذه المعارف الالهية واقتفاء الفضائل الخلقية يعرج إلى أفق الملائكة.

ولنصغ إلى موعظة أخلاقية للشيخ الفاضل أحمد بن محمد بن يعقوب إبن مسكويه الأستاذ في علم الأخلاق وأقدم المسلمين في تدوينه. أنه يقول:

«إني تنبهت من نوم الغفلة بعد الكبر واستحكام العادة، فتوجهت إلى فطام نفسي عن رذائل الملكات وجاهدت جهاداً عظيماً حتى وفقني الله لاستخلاصها عما يهلكها، فلا ييأسنَّ أحد من رحمة الله، فان النجاة لكل طالب مرجوة وأبواب الافاضة أبداً مفتوحة.

---

(١) جامع السعادات ج ١/١٤٧.

«فبادروا إخواني إلى تهذيب نفوسكم قبل أن يصير الرئيس مرؤوساً والعقل مقهوراً. فيفسد جوهركم وتمسخ حقيقتكم ويدرككم الانتكاس في الخلق الذي هو خروج عن أفق الانسان ودخول في زمرة البهائم والسباع والشياطين نعوذ بالله من ذلك ونسأله العصمة من الخسران الذي لا نهاية له. وقد شبه الحكماء من أهمل سياسة نفسه الغافلة بمن له ياقوتة شريفة حمراء فرماها في نار مضطرمة فيحرقها، حتى تصير كلساً لا منفعة فيها»(١).

فطوبى لنفوس عاشت ما ذكرنا من عوالم قدسية، فبلغت في عوالم القدس مقامات رفيعة، وتخلصت من أدرانها وأوضارها، فشعرت حبوراً فوق حدود الوصف بهذا الاتصال اللاهوتي واطمأنت بأذكارها وأورادها ومثولها بين يدي رب العباد ليل نهار. ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ فأصبحت من النفوس المطمئنة، بعد أن كانت لوامة، فصار لها أنوار قدسية يمن بها الله على المطهرين من عباده الصلحاء: ﴿أوَ من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها. كذلك، زين للكافرين ما كانوا يعملون﴾(٢).

وطوبى لنفوس بلغت من الصفاء والجلاء حتى استفادت من الأنوار الالهية والالهامات الحقة الربانية. وحصلت على علم هو ﴿نور يقذفه الله في قلب من يشاء﴾. فكانت مصداق قول علي عليه أفضل الصلاة والسلام حيث يقول:

«إن من أحب عباد الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه فاستشعر الحزن وتلجبب الخوف. فزهر مصباح الهدى في قلبه» إلى أن يقول: «قد خلع سرابيل الشهوات. وتخلى من الهموم إلا هماً واحداً إنفرد به فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى، وصار من مفاتيح أبواب الهدى. ومغاليق أبواب

---

(١) جامع السعادات: ج ١/ ص: ٤٩. من كلام المولى محمد مهدي النراقي.

(٢) سورة الأنعام: ١٢٢.

الردى، قد أبصر طريقه وسلك سبيله وعرف مناره، وقطع غماره[1]، واستمسك من العرى بأوثقها ومن الجبال بأمتنها فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس».

ويقول عليه السلام في كلام آخر:

«قد أحيى قلبه وأمات نفسه حتى دق جليله ولطف غليظه. وبرق له لامع كثير البرق، فأبان له الطريق وسلك به السبيل، وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة ودار الاقامة، وتثبت رجلاه لطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى ربه».



(١) غمرة الشيء: شدته ومزدحمه، جمعه: غمرات وغمار ومنه غمرات الموت أي: مكارهه وشدائده.

العلوم الكونية في القرآن

سؤال:

دارت بيني وبين أحد الأخوان مناقشة حول الاختراعات الحديثة: الميكانيكية التي توصل اليها المخترعون على مختلف جنسياتهم، مما دعا أحدنا أن يقول: ان لهذه المخترعات علاقة وثيقة بالقرآن الكريم، وان هؤلاء المخترعين لم يتوصلوا إلى ما توصلوا إليه لولا القرآن الكريم، وقال الآخر عكس ذلك. نرجو توضيح هذا. واليكم قسماً من الاختراعات التي دارت المناقشة حولها:

التلفزيون، الطائرة، الراديو، التلفون.

داود السعدون

بسم الله الرحمن الرحيم

الجواب:

ليس القرآن الكريم كتاباً يبحث عن علم الميكانيك العملي أو الرياضي والكيمياء الصناعية أو العضوية أو علم الفيزياء النظرية أو العملية أو علوم أخرى لها علاقتها بالمخترعات الحديثة، ذلك لأن هذه العلوم تستند إلى مقدمات مفصلة وكثيرة يحتاج شرحها وبيانها إلى آلاف الصفحات، وان تاريخ العلوم يشرح لنا جانباً منها، وما اكتشف في الميكانيك أو الفيزياء أو الكيمياء قليل جداً بالنسبة إلى ما أودع الله من قوانين كونية في هذا الكون الرحيب. وان العلماء الكونيين ليعترفون بذلك فهم كلما اكتشفوا شيئاً نادوا بأعلى أصواتهم: انهم أمسوا أمام أودية من المجاهيل! حتى أنهم ليشكوّن في بعض ما اكتشف من قوانين لحد الآن، ويرونها لا تنطبق إلا في مجال محدود، ولذلك عمد آينشتين إلى تصحيح دساتير (نيوتون) في الجاذبية.

فلو أراد الله تعالى تعليم البشر العلوم الكونية أو المادية لاحتيج في تدوينها إلى ما لا يتناهى من الصفحات، ذلك لأن ما أودع الله من خواص وصفات وكيفيات وقوانين ودساتير في ربط أجزاء هذا العالم المادية بعضها ببعض وانقلاب هذه المادة إلى طاقات أو الطاقات إلى مادة إلى ما هنالك من تفاعلات ومفاعلات تكاد لا تتناهى، حسب قوله تعالى: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾. (سورة الكهف: ١١٠).

ولكنه تعالى جهز العقل الانساني بقابليات وقوى من استنتاج واستقراء وتجريد وتعميم وتخيل وتصور وتداعي الأفكار إلى ما هنالك كي يتمكن

الانسان بمعونتها من كشف ما يجهله باذن الله تعالى. على أن الصدفة تلعب دوراً كبيراً في المخترعات، وليست الصدفة إلا يداً ربانية تهيىء للمخترع مصادفات تتجلى له كثير من الحقائق والصفات والحالات بل والدساتير.

وقد قال عز من قائل: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾[1] وهذه الأسماء هي القابليات المكنونة في العقل الانساني والتي بها يتمكن من الكشف والاكتشاف باذن الله تعالى.

وهذا (بوانكاره) من أعاظم رياضيي فرنسا كان يقول: ان ريشة سحرية كانت تملي عليّ المعادلات وطرق الحل والدساتير. وبمثل ذلك كان يقول أينشتين: أعلم علماء القرن العشرين.

إن القرآن ليس كتاب جبر أو هندسة أو الحساب التمامي والتفاضلي، وإنما هو مجموعة دساتير تهدي هذا البشر سواء السبيل: سبيل لا يقوى أعظم الفلاسفة أن يحدها أو يعينها، لأن نفس هذا الفيلسوف متأثرة بمحيطه وبيئته. فنفسه نفس غير متكاملة، وأنى لنفس غير متكاملة أن تأتي بدساتير كاملة لاسعاد البشر في النشأتين. ولذلك كان من لطف الله أن يرسل أنبياء مبشرين ومنذرين لهداية البشر وإسعادهم في النشأتين عملاً بسنة الكمال، ذلك لأن الكمال ضارب بأطنابه في عوالم المادة أي في كل ما خلق الله تعالى في هذا الكون المادي، ولا ينبغي أن يشذّ هذا الانسان عن هذا الكمال، ذلك لأن الله تعالى وهو الكامل على الاطلاق لا يصدر منه إلا الكمال. فأرسل الأنبياء وأنزل معهم الكتب المقدسة تحقيقاً لسنة الكمال وتعميماً لتحقق الكمال في كل ما خلق من نفوس وأرواح ومواد إلى ما هنالك.

وإن قوله تعالى: ﴿ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾[2] أي ما من شيء إلا وعلمه عند الله تعالى أو في اللوح المحفوظ ولا يراد في الآية

---

(١) سورة البقرة: ٣١.
(٢) سورة الأنعام: ٥٩.

من (كتاب مبين) القرآن حتى نقول: ما من علم إلا وهو في القرآن.

فالقرآن كتاب تهذيب وهداية، كتاب تزكية وتطهير لنفوس البشر الضالة.

وهو القائل: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾[1].

﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾[2].

القرآن موصل هذا الانسان إلى ما لا عين رأت أو أذن سمعت أو خطر على قلب بشر. القرآن يوصل البشر - لو عمل به - الى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

في القرآن آيات جمة تبلغ ٧٥٠ آية تعطينا عصارات العلوم الحديثة وما توصلت إليه المكتشفات في شتى النواحي وما ستصل إليه في المستقبل فقد قال ابن عباس: «إن في القرآن معاني سيكشفها الزمن».

كان العلم الحديث يجهل إلى قبل ٥٠ عاماً أن للشمس حركة خاصة بها، ولكن القرآن كان ينادي منذ ١٤ قرناً: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾. حتى إذا تقدمت العلوم الرياضية بما فيها الميكانيك الرياضي واخترعت تلسكوبات كبيرة جداً علموا أن الشمس تتحرك في الفضاء بحركة لولبية أي تسير في الفضاء بسرعة قدرها ٧٢٠٠٠ كيلومتر في الساعة على وجه التقريب نحو نجمة تسمى بالنسر الواقع على شكل لولبي (المنحنى اللولبي). فالقرآن في علومه سابق للعلم الحديث ولكن بإعطاء النتيجة النهائية دون شرح المقدمات والدساتير والمعادلات كما في كتب الفلك العالي والميكانيك السماوي وغيرهما.

كان يقول القرآن بحركة الأرض قبل (كوبرنيك وكبلر) و(كاليلة) بقرون وذلك بقوله:
﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي

(١) سورة التوبة: ٣٤.
(٢) سورة الجمعة: ٢.

اتقن كل شيء﴾[1].

كذلك، ما كان البشر يعلم أن الزوجية متحكمة بأمر الله في كل شيء، حتى الجماد، حتى إذا اكتشف بطن الذرة وعلم أن ذرة كل عنصر من العناصر من هايدروجين وهليوم وكالسيوم وأورانيوم الخ تتألف من الكترون: كهربائية سالبة وبروتون: كهربائية موجبة ونيوترون: كهربائية متعادلة. وان الالكترون يدور بسرعة فائقة حول البروتون فالاكلترون بمثابة الأنثى والبروتون بمثابة الذكر. ولكن الله قد ذكر ذلك منذ قرون في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. بقوله جل من قائل: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾. وبقوله: ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾ فالذي ما كان يعلمه البشر ثم علمه بإذن الله هو هذه الزوجية في الجماد أو العناصر أي الذرات برمتها.

وكذلك بالنسبة إلى تشكل الأمطار في قوله تعالى: ﴿ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً﴾ والتأليف هو الكهربائية التي تلعب دوراً هاماً في هطول الأمطار على حد قوله تعالى: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءاً وما أنتم له بخازنين﴾، فهذا التلقيح هو التلقيح الكهربائي بين سحابة وسحابة أو بين ذرات بخار الماء لقوله تعالى بعد أرسلنا الرياح: ﴿فأنزلنا من السماء ماءاً﴾ فنزول الماء من السماء متوقف على هذا التلقيح الكهربائي. وهذا من مكتشفات القرن العشرين.

وهناك آيات أخرى كثيرة لا مجال إلى ذكرها تنبيء عن آخر ما توصل إليه العلم الحديث. وآيات أخرى لا يزال المراد الحقيقي منها مجهولاً إلى أن يتقدم العلم المادي أشواطاً أخرى كي يعلم البشر حقيقتها والمراد منها. وكفى بالقرآن معجزة أنه قد سبق العلم الحديث بآيات بينات هي عصارة العلم الحديث وما سيكتشفه الانسان باذنه تعالى في مستقبل قريب أو بعيد.

---

(١) سورة النمل: ٨٨.

هل يجوز لنا أن نقول:

«رجل عظيم»

سؤال يسأله أحد المؤمنين قائلاً: هل من الجائز أن يقال (رجل عظيم) مع العلم أن العظمة خاصة بالله تعالى، لا يشاركه فيها أحد.

الجواب: العظمة على نوعين: عظمة لا تتناهى وهي عظمة الله تعالى في كل شيء: في القدرة والعلم والهيمنة والسلطان والرحمة وهو القائل ﴿ورحمتي وسعت كل شي﴾(١) لذلك لا يقاس علم الانسان المحدود بعلم الله الذي لا يتناهى، وقد قال جل من قائل: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم﴾(٢).

فلو فرضنا علم الانسان = ب. فيكون علم الله تعالى = ∞ (لا نهاية) ونسبة علم الانسان إلى علم الله = $\frac{ب}{\infty}$ ومعلوم أن مآل هذا الكسر الذي مخرجه غير متناه هو الصفر. فلا قيمة لعلم الانسان تجاه علم الله غير المتناهي.

وكذلك القول بشأن قدرة الله تعالى وبقية صفاته التي هي عين ذاته. ذلك لأن صفات الله من علم وقدرة... غير مكتسبة. كصفات الانسان التي تكتسب بالتدريج أما بالتعلم، أو بالتمرين والممارسة. فالانسان عالم بالاكتساب وبالهام من جانب الله تعالى.

---

(١) سورة الأعراف: ١٥٥.

(٢) سورة لقمان: ٢٧.

وأما قولنا: رجل عظيم، فهذه عظمة محدودة، مقتضبة، عظمة نسبية، بالنسبة إلى عظمة أناس آخرين. ومعنى ذلك: إن ملكات هذا الرجل وقابلياته واستعداده أعظم أو أكثر من أقرانه فيسمى عظيماً بالنسبة إلى أفراد آخرين محدودي العظمة. كما يقال: دار عظيمة بالنسبة إلى دور أخرى. أو شجرة عظيمة بالقياس إلى أشجار أخرى. وما دمنا نقصد المحدودية في قولنا: رجل عظيم، فليس هنالك اية حرمة في إيراد هذا الوصف النسبي، مع العلم أنه لا عظيم بصورة لا نهائية إلا الله تعالى.

وهكذا قولنا: الله اكبر. فلا نقصد من لفظ: أكبر، ما جاء في صيغة افعل التفضيل، إنما نقصد: أن لا شيء أكبر من الله دونما قياس وينتفي وينعدم مفهوم القياس في هذا المقام. ولا تتحقق اللانهائية بصورة حقيقية إلا في الله تعالى وكل ما في الكون من فضاء ومجرات ونجوم وطاقات محدود بالنسبة اليه تعالى. وهو الذي خلقها وأنشأها وربطها بدساتير ومعادلات رياضية رصينة تدهش الألباب. ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾[1]. وجميع ما هنالك من قابليات وصفات، وطاقات ونظم وكفاءات في الجماد والنبات والحيوان والانسان وغيرها إنما هي من جانب الله تعالى وعظيم رفده وكمال لطفه.

لذلك يقول إمامنا ومولانا سيد الساجدين علي بن الحسين عليهما السلام في دعاء علمه أبا حمزة الثمالي مخاطباً رب العباد: «من أين لي الخير ولا يوجد إلا من عندك».

وبما أن الله تعالى لا نهائي، فليس لأي انسان مهما سما في عوالم القدس أن يعرف الله تعالى حق المعرفة. ذلك لأنه يستحيل على المحدود وهو الانسان: المحدود في جميع قابلياته وملكاته، أن يحيط بغير المحدود وهو الله تعالى.

لذلك يقول رسول الله (ص): «لا أحصي ثناءاً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك».

---

(١) سورة الملك: ٣.

وقال علي (ع): «الحمد لله الذي لا تدركه الشواهد، ولا تحويه المشاهد، ولا تراه النواظر ولا تحجبه السواتر، الدال على قدمه بحدوث خلقه وبحدوث خلقه على وجوده وباشتباههم أن لا شبه له».

فعبثاً يحاول المادي أن يرى الله تعالى في مختبره أو مخبرهTube وهو محدود في مختبره ومخبره وعقله وكفاءاته. إنما يعرف الله بعقله: ذلك العقل الذي قد أودع الله فيه غريزة السؤال والعلية والسببية، بحيث يسأل عن سبب حدوث كل شيء وعن الخواص والقوانين المترتبة بعضها على بعض. وكذلك عن المعادلات والدساتير الرياضية والقوانين التي تربط أجـزاء العالم من الـذرة فصاعداً بعضها ببعض فيعزو كل ذلك إلى الله المتعال، لو كان هذا العقل باقياً على فطرته، لم تفسده أو تحرفه نفس جامحة شريرة بذنوبها وآثامها، وإلا انقاد إلى ما يمليه عليه شيطانه، من الشكوك والريب والجحود، إلى ما هنالك.

﴿ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين. وأنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾(١).

﴿إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾(٢).

---

(١) سورة الزخرف: ٣٦ ـ ٣٨.

(٢) سورة الأعراف: ٢٧.

علي عليه السلام والتقويم

جاء أحد علماء بني اسرائيل علياً عليه الصلاة والسلام وسأل ما مؤداه:

لماذا جاء في قرآنكم أن مدة لبث أصحاب الكهف في كهفهم: ثلاث مائة سنين وازدادو تسعاً. من سورة الكهف. وذلك في الآية: ٢٥ ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً﴾ ولم يقل: ثلاث مائة وتسع سنين، وفي كتبنا أن مدة لبث أصحاب الكهف في الكهف: ثلاث مائة سنة فقط.

فأجاب علي (ع) دونما تفكير: «سنوكم شمسية وسنونا قمرية».

ومعنى ذلك أن الله جمع في عبارة موجزة بين نوعين من السنين، سنين شمسية وهي ٣٠٠ سنة وسنين قمرية المعادلة للسنين الشمسية وهي ٣٠٩ سنين.

توضيح ذلك: أن اليهود كانوا يعتبرون السنة الشمسية ٣٦٥ يوماً وان السنة القمرية تعتبر ٣٥٤ يوماً و ٨ ساعات و ٤٨ دقيقة.

وقد علم الأقدمون بعد تجارب عدة واختبارات شتى أن الفترة الزمنية بين هلالين متواليين هي ٢٩ يوماً و ١٢ ساعة و ٤٤ دقيقة. فعليه لو ضربنا هذه الفترة الزمنية بين هلالين في ١٢ أي:

١٢ × (٤٤ دقيقة/١٢ ساعة/ ٢٩ يوماً) = ٤٨ دقيقة/٨ ساعة /٤٥ يوماً وإن ٣٠٠ سنة على ما كان معتبراً عند اليهود لتعادل:

٣٠٠ × ٣٦٥ = ١٠٩٥٠٠ يوم.

و ٣٠٩ من السنين القمرية دون ملاحظة الكسر تساوي ٣٠٩× ٣٥٤ = ١٠٩٣٨٦ يوماً.

وبما أن ٨ ساعات و ٤٨ دقيقة تعادل $\frac{١١}{٣٠}$ من اليوم الواحد.

فلنكرر $\frac{١١}{٣٠}$ ، ٣٠٠ مرة أيضاً.

$٣٠٠ \times \frac{١١}{٣٠} =$ ١١٠ أيام.

وبما أن في السنوات القمرية تحسب السنة الثانية والخامسة والسابعة والعاشرة كبيسة أي عدد أيام سنتها ٣٥٥ يوماً، إذن في ٩ سنوات قمرية توجد ٤ سنين كبيسة، لأن السنة التاسعة أقرب إلى العاشرة إذن:

١٠٩٣٨٦ + ١١٠ + ٤ = ١٠٩٥٠٠ يوم.

وهكذا يكون عدد أيام ٣٠٠ سنة شمسية مساوياً لعدد أيام ٣٠٩ سنة قمرية دونما فرق[1].



(١) مترجمة عن مجلة (مكتب الاسلام) الصادرة في قم.

ليلة ميلاد الحسن عليه السلام

ما أبهجها من ليلة وما أسعدها. انها ليلة يولد فيها أول السبطين سيدي شباب أهل الجنة وريحانتي رسول الله (ص) وأحد الخمسة أصحاب العباء.

فلما ولد عليه السلام قالت فاطمة (ع) لعلي (ع): سمه. فقال: ما كنت لأسبق رسول الله (ص) في تسميته، فجاء النبي (ص)، فأخرج إليه في خرقة صفراء، فرمى بها وقال: ألم أنهكم ان تلفوا المولود في خرقة صفراء، وأمر أن يلف في خرقة بيضاء، وسرَّه (قطع سرته) وألباه بريقه[1] كما يصب اللبا في فم الصبي وقال: أللهم أني أعيذه بك وولده من الشيطان الرجيم، وأذن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى.

وعقَّ رسول الله (ص) عن الحسن بيده، وقال: بسم الله، عقيقة عن الحسن. وقال: أللهم عظمها بعظمه، ولحمها بلحمه، ودمها بدمه، وشعرها بشعره، أللهم اجعلها وقاءاً لمحمد وآل محمد، وتصدق بزنة شعره فضة.

وكان الحسن (على ما جاء في الارشاد للمفيد عليه الرحمة) أشبه الناس برسول الله (ص) خلقاً وهيأة وهدياً وسؤدداً.

وكان الحسن (ع) أعبد الناس في زمانه وأزهدهم وأفضلهم ومن أوسع الناس صدراً وأسجحهم خلقاً.

وكان عليه السلام، إذا حج حج ماشياً وربما مشى حافياً. وكان إذا ذكر الموت بكى وإذا ذكر القبر بكى وإذا ذكر البعث والنشور بكى وإذا ذكر العرض على الله تعالى شهق شهقة يغشى عليه منها، وإذا قام في صلاته ترتعد

---

(١) أي صبه في فمه.

فرائصه وكان إذا ذكر الجنة والنار اضطرب اضطراب السليم وسأل الله الجنة وتعوذ بالله من النار.

وكان لا يقرأ من كتاب الله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ إلا قال: لبيك، لبيك، أللهم لبيك.

وكان عليه السلام: إذا توضأ ارتعدت مفاصله واصفر لونه، فقيل له في ذلك، قال: حق على كل من وقف بين يدي رب العرش أن يصفر لونه وترتعد مفاصله وكان إذا بلغ باب المسجد، رفع رأسه وهو يقول: إلهي ضيفك ببابك، يا محسن قد أتاك المسيء، فتجاوز عن قبيح ما عندي بجميل ما عندك يا كريم... كل ذلك لأن النفس القدسية تخاف الله إلى حد بعيد، فتزداد علماً ومعرفة بالله تعالى وقد جاء في الحديث: «أعلمكم بالله أخوفكم له».

وكان رسول الله (ص) يحب الحسن والحسين حباً جماً، وهو القائل: من أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة.

وروى الترمذي بسنده عن أسامة بن زيد في حديث: أن الحسنين كانا على وركي رسول الله (ص) فقال: هذان ابناي وابنا ابنتي، أللهم أني أحبهما، فأحبهما وأحب من يحبهما.

وكان رسول الله (ص) يصلي، فإذا سجد وثب الحسن والحسين على ظهره، فإذا أرادوا أن يمنعوهما أشار اليهم أن دعوهما، فإذا قضى الصلاة وضعهما في حجره، فقال: من أحبني فليحب هذين.

وقد قال رسول الله (ص): ان الجنة تشتاق إلى أربعة: علي وفاطمة والحسن والحسين.

وإنَّ هذه الواقعة لتدل على ما للحسن والحسين من كرامة عند الله تعالى وذلك أن الحسن والحسين (ع) اصطرعا بين يَدَي رسول الله (ص) فقال رسول الله: أيها حسن خذ حسيناً، فقالت فاطمة: يا رسول الله أتستنهض الكبير على الصغير، فقال (ص): هذا جبرائيل يقول: إيها حسين، خذ حسناً.

وقال مدرك بن زياد لابن عباس وقد أمسك للحسن ثم للحسين بالركاب وسوى عليهما ثيابهما. أنت أسن منهما، تمسك لهما بالركاب، فقال: يا لكع وما تدري من هذان. هذان ابنا رسول الله (ص) أوَ ليس مما أنعم الله عليّ به أن أمسك لهما وأسوّي عليهما.

وإن هذه الحادثة تعلمنا آداب التعليم والجمال الأخلاقي وتوقير الكبير.

روي أن الحسن والحسين عليهما السلام مرّا على شيخ يتوضأ ولا يحسن الوضوء، فأظهرا تنازعاً، يقول كل منهما للآخر، أنت لا تحسن الوضوء. وقالا: أيها الشيخ كن حكماً بيننا، فتوضئا وقالا أينا يحسن الوضوء. فقال الشيخ: كلاكما تحسنان الوضوء، ولكن هذا الشيخ الجاهل هو الذي لم يحسن وقد تعلم الآن منكما وتاب على يديكما ببركتكما وشفقتكما على أمة جدكما.

ومن سخاء الحسن (ع) أنه قاسم الله ماله ثلاث مرات وخرج من ماله مرتين وقد روى ابن شهراشوب في المناقب: أن رجلاً سأله فأعطاه خمسين ألف درهم وخمسمائة دينار وقال إئت بحمال يحمل لك، فأتى بحمال، فأعطاه طيلسانه وقال: هذا كرى الحمال.

وقد خرج الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر حجاجاً ففاتتهم أثقالهم، فجاعوا وعطشوا فرأوا عجوزاً في خباء فاستسقوها، فقالت: هذه الشويهة، أحلبوها وامتذقوا لبنها ففعلوا واستطعموها، فقالت: ليس إلا هذه الشاة فليذبحها أحدكم، فذبحها أحدهم وكشطها، ثم شوت لهم من لحمها فأكلوا وقالوا[1] عندها. فلما نهضوا قالوا: نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه، فإذا عدنا فألمِّ بنا، فانا صانعون بك خيراً ثم رحلوا. فلما جاء زوجها أخبرته، فقال: ويحكِ، تذبحين شاتي لقوم لا تعرفينهم. ثم تقولين نفر من قريش، ثم مضت الأيام، فأضرت بها الحال فرحلت حتى اجتازت بالمدينة، فرآها الحسن (ع) فعرفها، فقال لها: أتعرفينني؟ قالت: لا. قال: أنا ضيفك يوم كذا وكذا، فأمر لها بألف شاة وألف دينار وبعث معها رسولاً إلى الحسين (ع) فأعطاها مثل ذلك، ثم بعثها إلى عبد الله بن جعفر فأعطاها مثل ذلك.

---

(١) أي ناموا عند الظهيرة.

ومن تواضعه عليه السلام أنه مرّ على فقراء قد وضعوا كسيرات على الأرض وهم قعود يلتقطونها ويأكلونها فقالوا له: هلمَّ يا ابن بنت رسول الله إلى الغداء، فنزل وقال: فان الله لا يحب المتكبرين وجعل يأكل معهم، حتى اكتفوا والزاد على حاله ببركته، ثم دعاهم إلى ضيافته وأطعمهم وكساهم.

وروى الصدوق في كتاب التوحيد: أنه جاء رجل إلى الحسن (ع) فقال له: يا بن رسول الله، صف لي ربك كأني أنظر اليه، فأطرق ملياً ثم رفع رأسه فقال: الحمد لله الذي لم يكن له أول معلوم ولا آخر متناه ولا قبل مدرك ولا بعد محدود ولا أمد بحتي ولا شخص فيتجزى ولا اختلاف صفة فيتناهى. ولا تدرك العقول وأوهامها، ولا الفكر وخطراتها ولا الألباب وأذهانها صفته. فنقول: متى، ولا بدىء مما ولا ظاهر على ما ولا باطن فيما ولا تارك فهلا. خلق الخلق فكان بدياً بديئاً، ابتدأ ما ابتدع وابتدع ما ابتدأ. وفعل ما أراد وأراد ما استزاد، ذلكم رب العالمين.

حقاً، إن ما جاء في كلام الامام هو غاية ما يقال في التوحيد فإذا كان ما خلق الله من عوالم لا يمكن استقصاؤها فكيف بخالقها ومبدعها.

وقد علم أخيراً أنه تعالى قد خلق من الأجرام والكواكب ما يبعد عنا آلاف الملايين من السنين الضوئية، والسنة الضوئية عشر مليون مليون كيلومتر[1] فيجب أن تمضي آلاف الملايين من السنين حتى تصل الينا أشعة تلك الأنجم وأما أرضنا هذه مع شمسنا وما يدور حولها من أنجم تسعة لا تعد شيئاً بالنسبة إلى ما خلق الله من أنجم وكرات. فأرضنا كهباءة ملقاة في الفضاء وهي من أنجم المجرّة المسماة بدرب التبانة التي نشاهدها فوق رؤوسنا في ليلة صافية كالسحابة، أنها ليست بسحابة وإنما ملايين النجوم تكدست واجتمعت بعضها إلى جنب بعض وإن مجموعتنا الشمسية هذه واقعة في مكان مدحور لا يعبأ به من هذه المجرة وهي تبعد عن مركز المجرة ٣٠٠٠٠٠ سنة ضوئية، ومن بداية هذه المجرة إلى نهايتها (٢٠٠,٠٠٠) سنة ضوئية ويوجد مثل هذه المجرة في هذا الكون الرحيب ملايين من المجرات وهي تتباعد

(١) ١٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ كيلومتر تقريباً.

بعضها عن بعض بسرعات هائلة، كذلك الأنجم كلها تتباعد بعضها عن بعض بسرعة مدهشة، قد تبلغ السرعة إلى (١٥٠٠٠٠) كيلومتر في الثانية أي بقدر نصف سرعة الضوء. وهكذا تتسع السماء، حتى أصبحت عشرة أمثال ما كانت عليه سابقاً، ولا تزال آخذة بالاتساع بسرعة هائلة ويتحقق قوله تعالى: ﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون﴾.

فينبغي أن لا يغتر هذا الانسان، ولا يتكبر فيسجد لله شكراً وتعظيماً وتقديساً، بعدما يرى هذه العظمة غير المتناهية في مخلوقات الله تعالى، انه تعالى يقول:

﴿يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك، في أي صورة ما شاء ركبك﴾.

نعم، حتى أن الطير في السماء تسبح الله تعالى وتقدسه، ولكنا لا نفهم هذا النوع من التسبيح، وهو القائل: ﴿وان من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾. ﴿ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه﴾. فللطير صلاة وتسبيح، فكيف بهذا الانسان ان لم يصلِّ ولم يسبح الله تعالى.

انه تعالى يقول: ﴿ما سلككم في سقر؟ قالوا: لم نكُ من المصلين ولم نكُ نطعم المسكين، وكنا نخوض مع الخائضين﴾.

فأهل النار أول ما يعترفون به، أنهم لم يكونوا من المصلين، ولم يكونوا من المسبحين، لم يشاركوا حتى الجماد في تسبيحه، على حد قوله تعالى: ﴿وان من شيء إلا يسبح بحمده﴾. وبعد ذلك يعترفون بأنهم لم يطعموا المسكين ولم يقدموا فضول أموالهم إلى الفقراء والمساكين ذلك لأن الله قد جعل قوت هؤلاء في أموال الأغنياء. ثم يعترفون بأنهم ولجوا فيما ولج فيه الناس من انحراف عن الطريق السوي وانغماس في شهوات وفساد وإفساد باسم التطور ومواكبة مفاهيم القرن العشرين هذه المفاهيم التي صنعتها اليد البشرية الأثيمة؟ مفاهيم لا يقرها الدين ولا العقل السليم ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال، فأنى تُصرفون﴾. (سورة يونس: ٣٢).

لقد حدث انفجار في الشمس (شمسنا هذه) سنة ١٩٥٦ م كان قد أولد طاقة تعادل طاقة ١٠٠ مليون قنبلة هيدروجينية دفعة واحدة، فأي قدرة أو طاقة قد أودع الله تعالى في شمسنا هذه، على أن الله تعالى قد خلق شموساً أخرى أعظم من شمسنا هذه آلاف المرات، تدهش الألباب. فما أعظم ما أودع الله من طاقات في هذا الكون الرحيب!.

أفلا يجدر بهذا البشر أن يسجد لله سجود خضوع، وتعظيم ﴿قتل الانسان ما أكفره، من أي شيء خلقه، من نطفة خلقه فقدّره، ثم السبيل يسره، ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره، كلا، لما يقض ما أمره﴾. (سورة: عبس).

* * *

ومما قال الحسن (ع) في الحكمة:

سئل عليه السلام: ما الغنيمة؟ فقال: الرغبة في التقوى والزهاد في الدنيا.

وقد عرف الله تعالى التقوى والمتقين بقوله جل من قائل:

﴿إن المتقين في جنات وعيون، آخذين ما آتاهم ربهم، إنهم كانوا قبل ذلك محسنين، كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، وبالأسحار هم يستغفرون، وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾[1].

فمن صفات المتقين: الاستغفار بالاسحار وجعل حق للسائل والمحروم في الأموال والتهجد في جوف الليل والاحسان إلى الناس أجمعين.

وفي الحديث: التقوى أن لا يراك الله حيث نهاك وأن لا يفقدك حيث أمرك...

---

(١) سورة الذاريات: ١٥ ـ ١٩

ثم يقول الله تعالى: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾[1].

ومن الآيات في الأرض: ان النمل الأبيض في أفريقيا يصنع بوصلة بالقرب من عمارته (بنيانه الرفيع) وهي سطحان متعامدان، أحدهما متجه نحو الشمال والجنوب ولا يحيد عن هذا الاتجاه قيد شعرة والسطح الآخر متجه نحو الشرق والغرب كذلك. وان المهندسين ليعتمدون على بوصلة يصنعها النمل الأبيض في أعمالهم الهندسية ويندهشون من هذه الهندسة العجيبة.

ويقول الله تعالى: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾. حقاً ان الانسان في تشكيلاته العضوية (عدا الروح) لشيء محير للألباب فان في جسم الانسان أكثر من ٢٠٠ عظم، لكل واحد منها شكل خاص ولولا هذا الشكل الخاص لما تمكنا من الحركة. وفي جسم الانسان ٥٠٠ عضلة كل منها تتغذى بمئات الأوردة والعروق، تديرها أعصاب كثيرة جداً. والقلب وهو بين هذه العضلات ينبض في السنة (٣٠) مليون مرة. وللعين طبقات: القرنية والعدسية والمائية والزجاجية وتنتهي بالشبكية. وان الشبكية لا تزيد عن ثخن الورقة وتتألف من تسع طبقات أبعدها تتألف من ٣ ملايين مخروط ونحو من ٣ ملايين أسطوانة. وقد حسب أحد العلماء فعلم أن المادة السنجابية التي في تلافيف الدماغ فيها نحو ٦٠٠٠,٠٠٠ خلية وكل خلية تتألف من ألوف الدقائق الظاهرة وكل دقيقة تتألف من ملايين الجواهر.

وقد علم أن في المخ (٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠) عصب، قد رتبت ترتيباً عجيباً ولكل فعاليته. فإذا جسّ أحد هذه الأعصاب حصلت حالة نفسية خاصة تختلف عن غيرها.

ومن حكمه عليه السلام أنه سئل: ما الغنى؟ فقال: رضى النفس بما قسم الله وإن قلّ وإنما الغنى غنى النفس.

وسئل: فما الفقر؟ قال: شره النفس إلى كل شيء

---

(١) الذاريات: ٢٠ ـ ٢١.

فما المجد؟ ان تعطي في الغرم وتعفو عن الجرم.

فما السؤدد؟ إتيان الجميل وترك القبيح.

فما الحزم؟ طول الأناة والرفق بالولاة، (والاحتراس من جميع الناس).

ومن كلامه عليه السلام: يا بني، لا تؤاخ أحداً حتى تعرف موارده ومصادره، القريب من قربته المودة وإن بعد نسبه، والبعيد من باعدته المودة وإن قرب نسبه.

ومن كلامه (ع): هلاك المرء في ثلاث: الكبر والحرص والحسد فالكبر هلاك الدين وبه لعن إبليس، والحرص عدو النفس وبه اخرج آدم من الجنة، والحسد رائد السوء ومنه قتل قابيل هابيل.

وقال: لا أدب لمن لا عقل له، ولا مروءة لمن لا همة له، ولا حياء لمن لا دين له.

ومن قوله عليه السلام:

يا ابن آدم، إنك لم تزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك فخذ مما في يديك لما بين يديك، فان المؤمن يتزود والكافر يتمتع.

فهذه الليالي المتبركة، ليالي شهر رمضان المبارك هي ليال يتزود فيها المؤمن لآخرة سعيدة، فيصلي ما شاء ويبتهل إلى الله بخشوع وخضوع ويسأله تعالى المغفرة والرضوان، فيخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه فيزداد إيماناً بالله وبعوالم الآخرة، فهذا الشهر شهر تطهير وتزكية، شهر تجلية وتصفية، فالنفوس بقدر خشوعها لله تتزكى وتتطهر. فلنحسن العبودية لله، فما من شيء في هذا الكون الرحيب إلا ويظهر العبودية لله تعالى والخشوع والخنوع.

﴿إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً، لقد أحصاهم وعدهم عداً، وكلهم آتية يوم القيامة فرداً﴾[(١)] [(٢)].

---

(١) سورة مريم: ٩٣ ـ ٩٥.

(٢) ألقيت هذه الكلمة في ليلة النصف من شهر رمضان المبارك في حسينية الهاشمية: سنة ١٣٨٦ هـ.

لماذا هذه الزلازل

سؤال يتشدق به كثير من الماديين وهم يريدون بسؤالهم هذا ان يصموا العالم بالتبلبل وعدم الانتظام وعدم التدبير من قبل خالق عالم بعواقب الأمور وبكل ما يحدث: منظم الكون إلى أقصى مرتبة من مراتب الانتظام.

إنهم يقولون: لماذا هذه الأوبئة التي لا تبقى ولا تذر، وهذه العواصف الهوجاء الهدامة للقرى والأرياف، وهذه الكوارث المميتة، ولقد سمعت أحدهم وهو على فراش المرض، يعزو العالم، لمرض أصابه بعدم الانتظام والبلبلة.

وكثيراً ما سمعت من بعض المثقفين بثقافة العصر: لماذا هذه الصواعق والفيضانات المدمرة والموت جوعاً في بعض الأحيان، ثم لماذا يسلب العقل من بعض الناس فيعيشون بين العقلاء عيشة البهائم. ولماذا يتنعم بعض الناس القلائل على حساب آلاف من الناس يكدحون ليل نهار لسد ما تحتاج إليه بطونهم على الأقل.

فهل هناك مفاضلة قبل أن يولد الانسان؟.

ثم هم يقولون: لا شك أن عقلاً جباراً قد خلق هذه الكائنات من جماد ونبات وحيوان وإنسان بحكمة فائقة وتدبير عال دقيق، والعالم سائر حسب قوانين محكمة تدل على عظمة خالقه ومبدعه. فلماذا هذه المفاضلات والفروق؟ ولماذا لم يحم الخالق هذا الانسان الضعيف من المفاجآت المهلكة الآنفة الذكر؟.

إن الاعتراف بحكمة المبدع: الباريء عز وجل لدليلٌ جلي على ان الحكمة المتجلية في كل ناحية من نواحي هذا الكون: في الذرة والتراكيب

الكيمياوية والتفاعلات بين العناصر وفي دساتير الفيزياء والفلك والميكانيك الرياضي والميكانيك السماوي وفي عالم الميكروبات والنباتات والحيوانات والانسان. . . . الخ: حكمة يعجز العقل البشري أن يحيط بها تمام الاحاطة وإنما يظفر ببعضها نتيجة جهد جهيد واختبارات متتالية وصدف متعاقبة بإلهام من الله، تفضلاً منه ورحمة.

فهذا الاعتراف بعظمة الخالق في العلم والقدرة والتدبير والحكمة البالغة المتجلية في أرجاء هذا الوجود لدليل ساطع على أن الحكمة متجلية أيضاً في حدوث الزلازل والنوائب والعواصف والفيضانات وهجوم الجراثيم المؤذية، المميتة، إلا أنه قد تخفى علينا الحكمة والسبب، وهذه الحكمة قد تنكشف للصلحاء من عباد الله من أنبياء وأوصياء ومؤمنين ابرار واخيار وتخفى على كثير من الناس، لأن نفوسهم لم تبلغ مرتبة من الكمال لتتجلى لهم الحقائق وتنكشف لهم الأسباب.

* * *

لو تتبعنا البلايا والنوائب لرأيناها على ضربين: منها ما هي مهذبة منبهة، مزكية لهذه النفوس، آخذة إياها إلى عوالم القدس. ذلك لأن البلايا والنوائب تصقل النفوس وتطهرها من أدناسها وأرجاسها.

فالدنيا أشبه شيء بمدرسة، فيها مواد امتحانية، وعلى طلابها اجتياز هذه الامتحانات، وموادها ليست بمواد مادية كالجبر والهندسة والفيزياء والكيمياء إلى ما هنالك، وإنما هي مواضيع تمس النفس الانسانية مباشرة، وتعمل في تربيتها وتهذيبها وتزكيتها. مواضيعها: الصبر ومخالفة الهوى والنفس الأمارة بالسوء، وترك الشهوات والموبقات والجلد أمام الملذات التي نهى عنها الشرع. موادها، العفة والعفاف والتقوى واحترام الوالدين وصلة الأرحام، ومواساة المؤمنين ومساعدة الفقراء والمساكين والتضحية والايثار في سبيل الخير، موادها: ترك الحسد والبخل، والتواضع والرفق بالآخرين، موادها: تفويض الأمر إلى الله والتوكل عليه وحسن الظن بالله، والاعتراف بالتقصير، والشكر الكثير وحسن الخلق، والصدق وأداء الأمانة والحياء وكظم الغيظ والعفو والحلم والصمت وحفظ اللسان، والحب في الله والبغض في الله والقناعة والزهادة والانصاف

والعدل، والاهتمام بأمور المسلمين والتراحم والتعاطف وزيارة الأخوان في الله وقضاء حوائج المؤمنين لوجه الله وترك المكر والغدر والخديعة والغيبة والنميمة، وسوء الظن والنفاق، موادها: الاستغفار ومحاسبة النفس، والتكفير عن الذنوب. ففي الحديث: «حُفت الجنة بالمكاره وحُفت النار بالشهوات».

ومن النوائب ما هي مبيدة لهذه النفوس كالزلازل التي لا تبقي ولا تذر والعواصف التي تغرق السفن والأوبئة التي تزهق الأرواح.

أما النوع الأول فهي امتحانات بسيطة يجتازها هذا الانسان ليسير سيره التكاملي.

وهي لا تتجاوز المرض والفقر ومشاكل عائلية واجتماعية وأمثالها وكلها مفيدة، تصقل النفوس البشرية وتجعلها (إن كانت مؤمنة) تتقرب إلى الله وترجو النجاة، فقد قال الله تعالى:

﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾[1] فالله تعالى يختبرنا ليعلم (وهو العالم قبلاً وبعداً) درجة مجاهدتنا مع نفوسنا الأمارة بالسوء ودرجة صبرنا، ولكي نعلم نحن درجتنا في الامتحان الآلهي العالمي، لننال عنده تعالى ما نستحق من المنازل الرفيعة: ﴿ولكل درجات مما عملوا، وما ربك بغافل عما يعملون﴾[2]. ﴿ولكل درجات مما عملوا، وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون﴾[3].

ويقول تعالى: ﴿ألم، أحسب الناس، أن يتركوا، أن يقولوا: آمنا، وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾[4].

فلا مناص حسب هذه الآية الكريمة من الاختبار والامتحان. فان

---

(١) سورة محمد (ص): ٣١.
(٢) سورة الأنعام: ١٣٢.
(٣) سورة الأحقاف: ١٩.
(٤) سورة العنكبوت: ٣.

الامتحان كان جارياً في الأمم الغابرة وهو جار في الأمم اللاحقة، ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾(١).

فيمتحن الفرد أو بالأحرى نفس هذا الفرد بأنواع البلايا والنوائب بالخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات. وهو القائل:

﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾(٢).

فالله يبشر الصابرين على البلايا والنوائب من فقد الأولاد والأرحام والثمرات والأموال بالأجر الجزيل، شريطة أن يقولوا حينما يدهمهم البلاء: إنا لله وإنا إليه راجعون، ويرجعوا أمرهم إلى الله المتعال ويعترفوا أن مآل أمرهم الآخرة، وحياة دائمة أخروية. فهؤلاء الذين يؤمنون بالآخرة ويرجعون مآل أمرهم إلى الله هم الذين اختصوا برحمة الله وعظيم رفده وهم السائرون نحو سبيل السلام.

ذلك لأنه ما من شيء من المواد الامتحانية التي يمتحن الله به عباده في هذه الدنيا هو كالصبر. وهو القائل: ﴿لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وأن تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور﴾(٣).

وفي الحديث: الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد. ولا جسد لمن لا رأس له، ولا إيمان لمن لا صبر له».

وفي حديث آخر، قال رسول الله (ص): «ما تجرع عبد قط جرعتين أحبّ إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها، ولا قطرت قطرة أحب الى الله تعالى من قطرة دم أهريقت في سبيل الله،

(١) سورة الأحزاب: ٦٢.
(٢) سورة البقرة: ١٥٧.
(٣) سورة آل عمران: ١٨٦.

وقطرة دمع في سواد الليل وهو ساجد لا يراه إلا الله، وما خطا عبد خطوتين أحب إلى الله تعالى من خطوة إلى الصلاة الفريضة وخطوة إلى صلة الرحم».

وروي أن المسيح (ع) قال للحواريين: «إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون». وقال رسول الله (ص): «الصبر نصف الايمان». وفي خبر آخر. الايمان نصفان: «نصف صبر ونصف شكر».

انه تعالى يقول: ﴿وجعلنا منهم أئمةً يهدون بأمرنا لما صبروا﴾[1] ﴿ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾[2]، ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾[3].

وقال رسول الله (ص): «أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس» ولا مراء أن الصبر في الدرجة الأولى في هذا المقام.

وقال رسول الله (ص): «الصبر ثلاثة: صبر عند المصيبة. وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية. فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء إلى الأرض، ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى العرش، ومن صبر على المعصية كتب الله له تسعمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش».

وقال (ص): «سيأتي على الناس زمان لا ينال الملك إلا بالقتل والجبر، ولا الغنى إلا بالغصب والبخل، ولا المحبة إلا باستخراج الدين واتباع الهوى، فمن أدرك ذلك الزمان فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى، وصبر على البغيضة وهو يقدر على المحبة، وصبر على الذل وهو يقدر على العز آتاه الله ثواب خمسين صديقاً ممن صدق بي». كل ذلك لأن النفس الانسانية تنصهر في

(١) سورة السجدة: ٢٤.
(٢) الأعراف: ١٣٧.
(٣) القصص: ٥٤.

تحمل المشاق والصبر عليها وتصقل في تحمل المكاره والنوائب. ولذلك يقول الله تعالى: ﴿إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾[1] فيجازى الصابر المحتسب جزاء موفوراً لا نهائياً خارجاً عن حدود الحساب والتقدير.

وقد قال رسول الله (ص): «إذا أراد الله بعبد خيراً، وأراد أن يصافيه، صبّ عليه البلاء صباً وثجه عليه ثجاً، فإذا دعاه قالت الملائكة: صوت معروف، وإذا دعاه ثانياً، فقال: يا رب، قال الله تعالى: لبيك عبدي وسعديك، ألا تسألني شيئاً إلا أعطيتك[2] أو رفعت لك ما هو خير، وأدخرت لك عندي ما هو أفضل منه، فإذا كان يوم القيامة جيء بأهل الأعمال، فوزنوا أعمالهم بالميزان: أهل الصلاة والصيام والصدقة والحج، ثم يؤتى بأهل البلاء، فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان، يصب عليهم الأجر صباً كما كان يصبُّ عليهم البلاء صباً، فيود أهل العافية في الدنيا لو أنهم كانت تقرض أجسادهم بالمقاريض، لما يرون ما يذهب به أهل البلاء من الثواب، فلذلك قوله تعالى: ﴿وإنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾.

وقد قال تعالى: ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة، أتصبرون وكان ربك بصيراً﴾. فقد أمرنا بالصبر في الفتن والبلايا والنوائب. لكي تظهر حقيقة النفس بهذا الجهاد المبين، فالجهاد مع النفس لهو الجهاد الأكبر على ما جاء على لسان سيد المرسلين (ص).

وقد قال الصادق (ع): «وإذا دخل المؤمن قبره كانت الصلاة عن يمينه، والزكاة عن يساره، والبر يطل عليه، ويتنحى الصبر ناحية، فإذا دخل عليه الملكان اللذان يليان مساءلته، قال الصبر للصلاة والزكاة والبر: دونكم صاحبكم، فإن عجزتم عنه فأنا دونه».

وقال (ع): «إذا كان يوم القيامة يقوم عنق من الناس فيأتون باب الجنة فيضربونه، فيقال لهم: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الصبر، فيقال لهم: على ما صبرتم؟ فيقولون: كنا نصبر على طاعة الله ونصبر عن معاصي الله.

(١) جامع السعادات: الجزء الثالث: ٢٨٨.

(٢) هكذا وجدناه في جامع السعادات. ج: ٣ ص: ٢٨٦، مطبعة النجف.

فيقول الله تعالى: صدقوا، ادخلوهم الجنة وهو قول الله تعالى: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾[1].

وقال عليه السلام: «من ابتلى من المؤمنين ببلاء فصبر عليه كان له مثل أجر ألف شهيد».

ومن علامات الصبر: أن يصلَ الانسان من قطعه، ويعطي من حرمه ويعفو عمن ظلمه، فقد قال رسول الله (ص): «صِل من قطعك وأعط من حرمك، وأعفُ عمن ظلمك».

وإن معيار الايمان الحقيقي هو الصبر على النوائب، فمن كان صبره اكثر كان إيمانه بعوالم الآخرة اكثر فأكثر.

* * *

يجدر بهذا الانسان أن يعمل في هذه الدنيا لينال درجات عالية ويذهب منها طاهراً مطهراً إلى آخرة سعيدة. ذلك لأن «الدنيا دار عمل ولا حساب، والآخرة دار حساب ولا عمل» ولا مجال هناك للتهيؤ لامتحان (الاكمال)، أي لا يكون الفرد مكملاً (كما في المدارس الحديثة) بعد الموت، فطوبى لمن هيأ نفسه لآخرة سعيدة قبل حلول الأجل.

فقد قال رسول الله (ص) في خطبة له عندما جمع الأقربين من قريش: «إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس ما كذبتكم ولو غررت الناس ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو: أني لرسول الله اليكم خاصة، وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالاحسان إحساناً وبالسوء سوءاً، وانها للجنة أبداً أو النار أبداً».

على أن هناك، كما في بعض الأخبار، نوع تطهير في عالم البرزخ من عذاب وتعذيب وتأديب، ليكون الفرد بذلك أهلاً لشفاعة الشافعين إذا أذن

---

(١) جامع السعادات، ج: ٣: ٢٨٩.

الله بذلك، وهو القائل: ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾(١) ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون﴾(٢).

والعاقل هو الذي يخرج في دنياه مما تدنس به من حرام وموبقات: في عالم الفرصة والملافاة.

فقد قيل: إن حاكماً جائراً أراد أن يتوب، فخرج من جميع ماله من مال ومنال وبيوت وعقار، قدم جميع ذلك إلى عالم البلد (العالم الديني) لتوزيعها على الفقراء والمساكين (لكونها مجهولة المالك) واستقرض من العالم الديني إزاراً يستتر به، وصار يعمل كحمال ثم ارتقى، فصار يكتسب كسباً بسيطاً ويكفر عن سيئاته بأعمال صالحات وعبادات يتخللها خشوع وخضوع: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات، ذلك ذكرى للذاكرين﴾(٣).

* * *

فالانسان إنما خلق للامتحان والابتلاء، ولا مفر له من اجتياز هذه الامتحانات الهادفة إلى إصلاح النفس مباشرة، ذلك لأن كماله النفسي ينحصر في اجتيازه امتحانات تصقل النفس وتهذبها أيما تهذيب وهو القائل: ﴿إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً، فمنّ الله علينا بالسمع والبصر كي نستفيد منهما للنجاح في الامتحانات النفسية.

فالغني يختبر بالفقير، والفقير يمتحن بالصبر، والولد يمتحن بإطاعة والديه، وصاحب الجاه يمتحن في قضائه حوائج الناس، فكل انسان مُذ نهوضه من نومه إلى ساعة منامه يختبر بأنواع الاختبارات، فطوبى لمن راقب نفسه في هذه الامتحانات النفسية وقدر لنفسه درجات عليها ليعلم منزلته في سيره التكاملي، كمن يقيس ضغط الدم من حين لآخر.

انه تعالى يقول: ﴿هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان

---

(١) سورة المدثر: ٤٨.
(٢) سورة الأنبياء: ٢٨.
(٣) سورة هود: ١١٥.

عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ فجعل الله علة خلقه هذه النفوس الابتلاء، أي أن الله إنما خلقنا ليبلونا ويختبرنا بمرض وسقم وعاهة وطاعة وصبر وغيرها.

فـ «إن عظيم الأجر مع عظيم البلاء، وما أحب الله قوماً إلا ابتلاهم»... الحديث.

وفي حديث آخر: «إذا أحب الله عبداً ابتلاه ليسمع تضرعه». ذلك لأن هذا التضرع مطهر لهذه النفوس من أدرانها وأوضارها.

ان الله يحب أن يتضرع العبد ويبكي على ذنوبه، وان هذا التضرع أو البكاء موصل الفرد إلى مقامات رفيعة من التقرب إلى الحق المتعال. فقد جاء في حديث قدسي، حيث يقول الله تعالى: ﴿أنين المذنبين أحب إليّ من تسبيح المسبحين﴾.

وكثيراً ما يكون الغنى سبباً لتسافل الانسان وتجبره وتكبره وتعجرفه وتحقيره للآخرين وكسره الخواطر والقلوب، فيزداد بعداً من الله تعالى مع إنفاقه وبذله في بعض الأحيان. ولذلك يقول جل من قائل: ﴿إن الانسان ليطغى ان رآه استغنى﴾، ويخاطب المترفين قبل غيرهم عند إرسال الرسل والأنبياء بقوله: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقَّ عليها القول، فدمرناها تدميرا﴾. ولذا كان الأنبياء والأولياء يكتفون بالكفاف، ويخشون الزيادة والترف فقد جاء في الحديث القدسي. حيث يقول الله تعالى: ﴿وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو صرفته إلى غيره لهلك﴾.

ذلك لأن هذه الدنيا، كما جاء في الحديث، مزرعة الآخرة، ومحل للتزود والتهيؤ لآخرة سعيدة وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

فمن أراد الله تعالى إنقاذه من نار جهنم وعذاب الآخرة، هيأ له أسباب هذا الفوز العظيم، بتعذيبه في دار الدنيا قبل الآخرة، لكي يطهر في دنياه ويذهب من هذه الدنيا نقي الثوب. وحاشا أن يبعض الله تعالى ويفرق بين عبد وعبد دونما سبب ويؤثر أحداً على آخر دون مرجح. ان الله تعالى أعلم بما قام به هذا العبد من أعمال، فإذا كانت أعماله السابقة أعمالاً تقربه إلى حد

ما إلى الله تعالى، هيأ الله تعالى له في دنياه الأسباب التي تطهره وتوصله إلى عاقبة محمودة بمرض وأقتار وأنواع البلايا حسب قابليته ومرتبته ودرجته. فقد جاء في حديث قدسي حيث يقول الله تعالى:

﴿ما من عبد أريد أن أدخله الجنة إلا ابتليته في جسده، فان كان ذلك كفارة لذنوبه، وإلا ضيقت عليه رزقه، فان كان ذلك كفارة لذنوبه وإلا شددت عليه الموت، حتى يأتيني ولا ذنب له، ثم أدخله الجنة. وما من عبد أريد أن أدخله النار إلا صححت جسمه، فإن كان ذلك تماماً لطلبته عندي وإلا أمنت له من سلطانه، فان كان ذلك تماماً لطلبته وإلا هونت عليه الموت، حتى يأتيني ولا حسنة له ثم أدخله النار﴾.

وإن الله تعالى لا يدخل عبداً النار إلا بعد إتمام الحجة عليه مرات ومرات، إلا بعد تزويده بالوسائل الهادية المرشدة إلى الصراط السوي مرات ومرات. فإذا أمسى جرثومة فساد وغواية وضلال لا تفيد فيه النصائح والبلايا والنوائب والأمراض لم تكن له عاقبة إلا النار، فتطهره من أدرانه وتعقمه من جراثيمه وأوضاره، وقد قال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾. ﴿ولله على الناس الحجة البالغة﴾.

فلم يترك الله تعالى شيئاً فيه ارتقاء البشر في النواحي الروحية إلا وقد بينه على لسان أنبيائه ولم يترك ما فيه تسافل النفس الانسانية إلا وقد فصله أنبياؤه وأوصياء أنبيائه (ع). ومع ذلك فقد أودع النفس الانسانية أصول المساوي والمبرات بقوله جل من قائل: ﴿ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها﴾، كل ذلك، ﴿لئلا يكون للناس على الله حجةٌ بعد الرسل﴾. (سورة النساء: ١٦٣).

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «إن الله عز وجل إذا كان من أمره أن يكرم عبداً وعليه ذنب ابتلاه بالسقم، فان لم يفعل ذلك به ابتلاه بالحاجة، فان لم يفعل ذلك به شدد عليه الموت ليكافيه بذلك الذنب. وإن كان من أمره أن يهين عبداً وله عنده حسنة صحح بدنه وإن لم يفعل ذلك به وسع عليه رزقه، فان لم يفعل ذلك به هون عليه الموت فيكافيه بتلك الحسنة».

وعن أبي عبد الله (ع) قال: إن العبد إذا كثرت ذنوبه ولم يكن عنده من العمل ما يكفرها ابتلاه الله بالحزن ليكفرها.

ولا مراء أن المقربين عند الله امتحاناتهم أشد وأصعب، فقد أوذي رسول الله (ص) كثيراً حتى قال: «ما أوذي نبي مثل ما أوذيت».

وإن الحسين (ع) بلغ الدرجة القصوى في تقبله الشهادة بشكل لم يسبق له مثيل ولن يرى الدهر مضحياً مثله في سبيل الدين أبد الآبدين.

وقد قال رسول الله (ص): إن أشد الناس بلاءاً النبيون، ثم الوصيون، ثم الأمثل فالأمثل وإنما يبتلى المؤمن على قدر أعماله الحسنة فمن صح دينه وحسن عمله اشتدَّ بلاؤه، ومن سخف دينه وضعف عمله قل بلاؤه، والبلاء أسرع إلى المؤمن التقي من المطر إلى قرار الأرض ذلك أن الله عز وجل لم يجعل الدنيا ثواب المؤمن ولا عقوبة الكافر، ولذلك يقول جل من قائل: ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون، ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون وزخرفاً، وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا، والآخرة عند ربك للمتقين﴾.

فالامتحان أو البلاء إما يكون لزيادة الدرجات وبلوغ المنازل الرفيعة وهذا خاص بالأنبياء والأوصياء (ع) ثم الأمثل فالأمثل. وإما أن يكون لتطهير النفوس مما علق بها من أدران وأوساخ، وذنوب وآثام فهو تكفير لما اجترحت الأيدي من ظلم وبغي ولما قامت به النفوس من حسد وغيبة وكل ما نهى عنه الدين.

فعلى كل فرد أن يحاسب نفسه من حين لآخر ويعمل في إزالة ما علق بها من أدران. وفي الحديث: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا» فعن أبي الحسن الماضي: (الامام موسى بن جعفر (ع): : «ليس منا من لم يحاسب نفسه كل يوم. فان عمل حسنة استزاد الله عز وجل، وإن عمل سيئة استغفر الله منها وتاب اليه».

فعلينا أن نعلمَ أنه كلما زدنا تقرباً إلى الله تعالى وكلما زيد في إيماننا ويقيننا

كلما زدنا بلاءاً ونوائب، وهجمت علينا هموم وغموم ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾. ولذلك يحدثنا الامام موسى بن جعفر (ع): «إن المؤمن بمنزلة كفتي الميزان، كلما زيد في إيمانه زيد في بلائه، ليلقى الله عز وجل ولا خطيئة له».

يحدثنا أبو عبد الله (ع) فيما يبتلى به المؤمن انه يقول: «أخذ الله ميثاق المؤمن على أن لا تصدق مقالته ولا ينتصف من عدوه وما من مؤمن يشفى نفسه إلا بفضيحتها، لأن كل مؤمن ملجم».

وفي حديث آخر: قال، قال رسول الله (ص): إن الله أخذ ميثاق المؤمن على بلايا أربع. أيسرها عليه مؤمن يقول بقوله[1] يحسده، أو منافق يقفو أثره أو شيطان يغويه، أو كافر يرى جهاده فما بقاء المؤمن بعد هذا».

ويقول أبو عبد الله (ع) أيضاً: «ما أفلت المؤمن من واحدة من ثلاث ولربما اجتمعت الثلاثة عليه، أما بعض من يكون معه في الدار يغلق عليه بابه يؤذيه، أو جار يؤذيه أو من في طريقه إلى حوائجه يؤذيه ويجعل الله له من إيمانه أنساً لا يستوحش معه إلى أحد»[2].

فالمؤمن في هذه الدنيا لا يخلو من أذى الآخرين لو كان مؤمناً حقاً إما بحسد أو نفاق أو عداء أو إغواء الشيطان. فعن أبي عبد الله (ع): أربع لا يخلو منهن مؤمن أو واحدة منهن: مؤمن يحسده وهو أشدهن عليه ومنافق يقفو

---

(١) أي يدين بدينه.
(٢) أصول الكافي ج: ٢: ص: ٢٥٠.
نتقل هنا ما جاء في حاشية أصول الكافي: الجزء الثاني ص: ٢٥٠.
ذكروا لتسليط الشياطين والكفرة على المؤمنين وجوهاً من الحكمة. الأول: أنه كفارة لذنوبه، الثاني: لاختبار صبره وادراجه في الصابرين. الثالث: لتزهيده في الدنيا لئلا يفتتن بها ويطمئن اليها فيشق عليه الخروج منها. الرابع: توسله إلى الحق سبحانه في الضراء وسلوكه مسلك الدعاء لدفع ما يصيبه من البلايا فترتفع بذلك درجته. الخامس: وحشته عن المخلوقين وأنسه برب العالمين. (راجع مرآة العقول ج ٢ ص: ٢٢٢).

أثره أو عدو يجاهده أو شيطان يغويه. فـ (إن الله عز وجل جعل وليه في الدنيا غرضاً لعدوه) كما جاء في الحديث.

يقول محمد بن عجلان، كنت عند ابي عبد الله (ع): فشكا اليه رجل الحاجة فقال: اصبر، فان الله سيجعل لك فرجاً، قال: ثم سكت ساعة، ثم أقبل على الرجل فقال: اخبرني عن سجن الكوفة كيف هو؟ فقال ـ أصلحك الله ـ ضيق، منتن وأهله بأسوء حال. قال: فإنما أنت في السجن، فتريد أن تكون فيه في سعة، أما علمت أن الدنيا سجن المؤمن.

وعن أبي عبد الله (ع) أنه قال: «المؤمن مكفر». أي أن الناس لا يشكرون له معروفه وإحسانه.

وفي خبر آخر: «ما من مؤمن إلا وقد وكل الله به أربعة: شيطاناً يغويه، يريد أن يضله وكافراً يغتاله ومؤمناً يحسده وهو أشدهم عليه ومنافقاً يتبع عثراته».

فالمؤمن في هذه الدنيا مسلوب الراحة، ممتحن لا محالة بأنواع الأذى والنوائب، فعن أبي عبد الله (ع) ما كان ولا يكون وليس بكائن مؤمن إلا وله جار يؤذيه، ولو أن مؤمناً في جزيرة من جزائر البحر لابتعث الله له من يؤذيه.

فكلما كان العبد إلى الله أقرب كان بلاؤه أشد وأصعب، فعن أبي عبد الله (ع): إن أشد الناس بلاءاً[1] الأنبياء ثم الذين يلونهم. ثم الأمثل فالأمثل.

وعن أبي عبد الله (ع) قال: سئل رسول الله (ص): مَن أشد الناس بلاءاً في الدنيا. فقال: النبيون، ثم الأمثل فالأمثل. ويبتلى المؤمن، بعد، على قدر إيمانه وحسن أعماله، فمن صح إيمانه وحسن عمله اشتد. بلاؤه ومن سخف إيمانه وضعف عمله قلّ بلاؤه».

فنرى أن زيادة البلاء تتناسب طردياً مع قوة الايمان، حتى أن الله تعالى يدفع عن المؤمن الحقيقي بعض المتع الدنيوية. فعن أبي عبد الله (ع): «ان

(١) ما يختبر ويمتحن به من خير وشر. أصول الكافي: الجزء الثاني. ط: طهران.

لله عز وجل عباداً في الأرض من خالص عباده، ما ينزل من السماء تحفة إلى الأرض إلا صرفها عنهم إلى غيرهم، ولا بلية إلا صرفها اليهم». وفي خبر آخر عن أبي عبد الله (ع) أنه قال ـ وعنده سدير ـ «إن الله إذا أحب عبداً غته بالبلاء غتاً، وأنا وإياكم، يا سدير، لنصبح به ونمسي».

وعن أبي جعفر (ع) قال: «إنما يبتلى المؤمن في الدنيا على قدر دينه ـ أو قال ـ على حسب دينه».

فلا بد للمؤمن من أحزان وهموم يطهر بها نفسه، حتى لا تتراكم عليه ذنوبه فيسوّد القلب على ما جاء في بعض الأحاديث. لذلك يقول إمامنا أبي عبد الله (ع): «المؤمن لا يمضي عليه أربعون ليلة إلا عرض له أمر يحزنه، يذكر به».

يقول ناجيه، قلت لأبي عبد الله (ع) ان المغيرة[1] يقول: ان المؤمن لا يبتلى بالجذام ولا بالبرص ولا بكذا ولا بكذا؟. فقال: إن كان لغافلاً عن صاحب ياسين، أنه كان مكنعاً[2] ثم رد أصابعه[3] فقال: كأني أنظر إلى تكنيعه أتاهم فأنذرهم، ثم عاد إليهم من الغد فقتلوه، ثم قال: إن المؤمن يبتلى بكل بلية ويموت بكل ميتة إلا أنه لا يقتل نفسه[4].

---

(١) هو المغيرة بن سعيدالذي روى الكشي روايات كثيرة تدل على لعنه وروى أن أبا الحسن الرضا عليه السلام قال انه كان يكذب على أبي جعفر (ع) فأذاقه الله حر الحديد.

(٢) (إن كان لغافلاً): ان مخففة من المثقلة، وصاحب ياسين هو حبيب بن اسرائيل النجار رضي الله عنه، وهو الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، وكان ممن آمن بنبينا (ص) وبينهما ٦٠٠ سنة وعن النبي (ص): «سباق الأمم ثلاثة، لم يكفروا بالله طرفة عين: علي بن أبي طالب وصاحب ياسين ومؤمن آل فرعون». وفي رواية هم الصديقون وعلي أفضلهم. والمكنع (بتشديد النون المفتوحة): أشل اليد ومقطوعها. وهو من رجعت أصابعه إلى كفه وظهرت مفاصل أصول الأصابع.

(٣) «ثم رد أصابعه» من كلام الراوي، أي رد عليه السلام أصابعه إلى كفه إشارة إلى تكنيعه.

(٤) نقلنا الحديث مع الشرح من أصول الكافي ج ٢ ص: ٢٥٤.

وقد قال أبو عبد الله (ع): إن في الجنة منزلة لا يبلغها عبد إلا بالابتلاء في جسده.

ويقول عبد الله بن أبي يعفور: شكوت إلى أبي عبد الله (ع) ما ألقى من الأوجاع، وكان مسقاماً، فقال لي يا عبد الله، لو يعلم المؤمن ما له من الأجر في المصائب لتمنى أنه قرض بالمقاريض.

وقال عليه السلام: «إن أهل الحق لم يزالوا منذ كانوا في شدة أما أن ذلك إلى مدة قليلة وعافية طويلة. وعن أبي جعفر (ع): إن الله عز وجل ليتعاهد المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل بالهدية من الغيبة ويحميه الدنيا كما يحمي الطبيب المريض (ويحميه الدنيا: أي يمنعه الدنيا). وعن أبي عبد الله (ع): لم يؤمن الله المؤمن من هزاهز الدنيا، لكنه آمنه من العمى فيها والشقاء في الآخرة. وقال (ع): «إن المؤمن من الله عز وجل لبأفضل مكان ـ ثلاثاً ـ إنه ليبتليه بالبلاء ثم ينزع نفسه عضواً عضوا من جسده وهو يحمد الله على ذلك.

وقال علي بن الحسين (ع): أني لأكره للرجل أن يعافى في الدنيا فلا يصيبه شيء من المصائب.

ذلك لأن من لا يبتلى بمصائب ونوائب بعيد عن رحمة الله، تركه الله تعالى ونفسه فتتراكم عليه ذنوبه ومآله النار ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ (التوبة: ٦٨). لذلك يخرج النبي (ص) كما في الحديث الآتي من بيت رجل لم يرزأ قط. فقد قال أبو عبد الله (ع): دعي النبي (ص) إلى طعام. فلما دخل منزل الرجل نظر إلى دجاجة فوق حائط قد باضت، فتقع البيضة على وتد في حائط فثبتت عليه، ولم تسقط ولم تنكسر، فتعجب النبي (ص) منها فقال له الرجل: أعجبت من هذه البيضة، فوالذي بعثك بالحق ما رزئت شيئاً قط (قال): فنهض رسول الله (ص) ولم يأكل من طعامه شيئاً، وقال: من لم يرزأ فما لله فيه من حاجة(١).

* * *

(١) أصول الكافي، ج ٢: ص: ٢٥٦.

ونعوذ بالله من استدراجه وترك العبد يلهو ويلعب لا يفكر في مصيره وما سوف يعذب به في آخرته. ذلك العذاب الذي يصفه الله تعالى بقوله: ﴿إذ الاغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم، ثم في النار يسجرون﴾ (سورة المؤمن: ٧١ - ٧٢) وهو القائل: ﴿والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون، وأملي لهم أن كيدي متين﴾ (سورة الأعراف: ١٨١) ﴿فذرني ومن يكذّب بهذا الحديث، سنستدرجهم من حيث لا يعلمون، وأملي لهم أن كيدي متين﴾ (٦٨: ٤٤).

وقد قال رسول الله (ص) في مقام تحذير الناس من استدراج الله تعالى: ﴿إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾ (الأنعام: ٤٤).

وروي أن نبياً من الأنبياء شكى إلى ربه فقال: «يا رب، العبد المؤمن يطيعك ويجتنب معاصيك، تزوي عنه الدنيا وتعرضه للبلاء، ويكون العبد الكافر لا يعطيك ويجتريء على معاصيك، تزوي عند البلاء وتبسط له الدنيا، فأوحى الله تعالى إليه: أن العباد إليّ والبلاء لي، وكل يسبح بحمدي، فيكون المؤمن عليه من الذنوب، فأزوي عنه الدنيا وأعرض له البلاء فيكون كفارة لذنوبه حتى يلقاني فأجزيه بحسناته. ويكون الكافر له من الحسنات، فأبسط له في الرزق وأزوي عنه البلاء فأجزيه بحسناته في الدنيا حتى يلقاني فأجزيه بسيئاته».

وقد سمعت نقداً كثيراً واعتراضات واهية بالنسبة إلى تنعم الكافر. والاقتار في الرزق بالنسبة إلى المؤمن، وأنا أدرس في جامعة استانبول، ولقد سمعت أخيراً أيضاً أن فلاناً كان في ضنك من العيش وهو يصلي ويصوم، فترك الصلاة والصوم فوسع عليه في رزقه، حتى أن البعض ينصح غيره بترك الدين وفرائضه ليعيش عيشة هنيئة ويبلغ مناصب دنيوية زائلة، وقد ذكرناه جواب للمعترض، ونستجير بالله من استدراجه.

وقال رسول الله (ص): لا حاجة لله في من ليس له في ماله وبدنه

نصيب. (ويراد بالنصيب هنا: النقص).

وعن أبي عبد الله (ع) قال: ان الله عز وجل يبتلي المؤمن بكل بلية ويميته بكل ميتة ولا يبتليه بذهاب عقله. أما ترى أيوب كيف سلط إبليس على ماله وعلى ولده وعلى أهله وعلى كل شيء منه ولم يسلط على عقله، ترك له ليوحد الله به.

وقال أيضاً: أنه ليكون للعبد منزلة عند الله، فما ينالها إلا باحدى خصلتين، أما بذهاب ماله أو ببلية في جسده.

وقال ايضاً: قال الله عز وجل: ﴿لولا أن يجد عبدي المؤمن في قلبه[١] لعصبتُ رأس الكافر بعصابة حديد لا يُصدع رأسه أبداً﴾.

وقال أيضاً: قال رسول الله (ص): مثل المؤمن كمثل خامة الزرع[٢] تكفئها[٣] الرياح كذا وكذا، وكذلك المؤمن تكفئه الأوجاع والأمراض ومثل المنافق كمثل الأرزبة المستقيمة التي لا يصيبها شيء حتى يأتيه الموت فيقصفه قصفاً[٤].

وعن أبي عبد الله (ع)، قال: قال رسول الله (ص) يوماً لأصحابه: ملعون كل مال لا يزكى، ملعون كل جسد لا يزكى ولو في كل أربعين يوماً مرة فقيل: يا رسول الله أما زكاة المال فقد عرفنا، فما زكاة الأجساد؟ فقال لهم: أن تصاب بآفة، قال: فتغيرت وجوه الذين سمعوا ذلك منه، فلما رآهم قد تغيرت ألوانهم قال لهم: أتدرون ما عنيت بقولي؟ قالوا: لا، يا رسول الله. قال: «بلى؟ الرجل يخدش الخدشة وينكب النكبة ويعثر العثرة ويمرض المرضة ويشاك الشوكة وما أشبه هذا، حتى ذكر في حديثه اختلاج العين»[٥].

---

(١) شكا أو حزناً شديداً.

(٢) أول ما نبت على ساق.

(٣) (بالهمزة) أي تقلبها. الأرزبة: عصبية من حديد.

(٤) قصف الشي: كسره.

(٥) الاختلاج: مرض من الأمراض وقد ذكره الأطباء وهو حركة سريعة متواترة غير عادية تعرض لجزء من البدن.

وقال أبو عبد الله (ع): إن المؤمن ليكرم على الله حتى لو سأله الجنة بما فيها أعطاه الله ذلك من غير أن ينتقص من ملكه شيئاً وإن الكافر ليهوّن على الله، حتى لو سأله الدنيا بما فيها أعطاه ذلك من غير أن ينتقص من ملكه شيئاً، وان الله ليعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الغائب أهله بالطرف[1]، وأنه ليحميه الدنيا كما يحمي الطبيب المريض.

وعن يونس بن عمار قال: "قلت لأبي عبد الله (ع): إن هذا الذي ظهر بوجهي[2] يزعم الناس أن الله لم يبتل به عبداً له فيه حاجة، قال: فقال لي: لقد كان مؤمن آل فرعون مكنع الأصابع[3]، فكان يقول هكذا ـ ويمد يديه ـ ويقول: «يا قوم اتبعوا المرسلين» ثم قال لي: إذا كان الثلث الأخير من الليل في أوله فتوضأ وقم إلى صلاتك التي تصليها، فإذا كنت في السجدة الأخيرة من الركعتين الأولين فقل وأنت ساجد: «يا عليّ يا عظيم، يا رحمن يا رحيم، يا سامع الدعوات يا معطي الخيرات، صلِ على محمد وآل محمد وأعطني من خير الدنيا والآخرة ما أنت أهله وأصرف عني من شر الدنيا والآخرة ما أنت أهله واذهب عني هذا الوجع ـ وتسميه ـ فأنه قد غاظني وأحزنني، والحَّ في الدعاء قال: فما وصلت إلى الكوفة حتى أذهب الله به عني كله.

* * *

على كل فرد أن يعتبر بما يراه من نقص في الآخرين، فإذا رأى رجلاً أعمى عليه أن يشكر الله الذي عافاه من العمى، وان رأى رجلا ألكن عليه أن يشكر الله على ما وهبه من طلاقة في اللسان وإن رأى سائلاً محتاجاً عليه أن يقدم له مع الامتنان من فضول ماله وان يشكر الله على ما أنعم عليه من غنى وعدم الحاجة إلى آخرين.

---

(١) الطرف: جمع طرفة وهي ما يستطرف أي يستملح. ويحميه: يمنعه.
(٢) الآثار التي ظهرت بوجهه كانت برصاً ويحتمل الجذام.
(٣) هو الذي وقعت أصابعه.

فعن أبي جعفر (ع) قال: إذا رأيت الرجل مرَّ به البلاء فقل: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به وفضلني عليك وعلى كثير من خلقه، ولا تُسمعه.

* * *

إن ما ذكرناه لحد الآن خاص بنوائب بسيطة لا تؤدي إلى الابادة والهلاك، لكن الزلازل تزهق النفوس وتبيد القرى، وكذلك العواصف الشديدة، والأوبئة وأمثالها، فان الله تبارك وتعالى يريد بهذا أن يعلم الناس أن الحياة والممات بيده ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، كي ينتبه هذا الانسان عن غوايته وطيشه، فلا يعصي الله في السر والعلن[1] ويترك ما عليه من فساد وإفساد في الأرض. ﴿والله لا يحب الفساد﴾ وهو القائل:

﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون، أوَ أمِن أهل القرى أن يأتيهم بأسُنا ضحىً وهم يلعبون، أفأمنوا مكر الله، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، أو لم يهدِ للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون﴾[2].

وفي استطاعته تعالى أن يبيد الأرض ومن عليها في طرفة عين وهو القائل: ﴿فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد﴾ (سورة هود: ٨٢، ٨٣).

﴿واخذ الذين ظلموا الصيحة، فأصبحوا في دارهم جاثمين، كأن لم يغنوا فيها، إلا أن ثمود كفروا ربهم، ألا بعداً لثمود﴾[3].

---

(١) انه تعالى يقول: ﴿وذروا ظاهر الاثم وباطنه، ان الذين يكسبون الاثم سيجزون بما كانوا يقترفون﴾ (سورة الأنعام: ١٢٠).

(٢) سورة الأعراف: ٩٦ - ٩٧.

(٣) سورة هود: ٦٧ - ٦٨.

وحاشَ لله أن يريد ظلماً بأحد من الناس. وهو القائل: ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾(١). ﴿وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾. (سورة الشورى: ٣٠).

فتارة تكون هـذه الزلازل للعقـاب أي أن الله يبيد قسمـاً من عباده العاصين لافسادهم في الأرض ولعدم تأثير النصح فيهم والامهال، بعد إتمام الحجج البالغة مع تنوعها وكثرتها.

وتارة تكون عبرة للآخرين ليعلموا: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ ولكي ينتهوا عما هم فيه من معاصٍ وإفساد في الأرض، ويتوجهوا إلى الحق المتعال. فإذا كان في من أبيدوا رجال صالحون، فسينالون أجرهم أضعافاً مضاعفة في آخرة سعيدة تستمر ملايين السنين. وإن كان أحد هؤلاء الذين تتتابعهم الزلازل أو يصيبهم الغرق من الصلحاء فقد فاز بدرجة الشهادة كما جاء في بعض الأخبار. وإن كان ممن «خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً» أي كانت له أعمال صالحة وأعمال سيئة، فهذا الغرق أو الحرق أو ابتلاع الأرض له يكون كفارة لذنوبه، فيكون بفضله تعالى من أصحاب الجنة فيصبح ما نعده نقمة، رحمة له.

فكم من أناس ينهدم عليهم سقف أو حائط فيموتون حالاً، ولكن هذا النوع من الموت رحمة، يجب على العبد أن يشكر الله عليه لأن مآله الجنة إن شاء الله، شريطة أن لا يكون هذا الشخص ممن كفر بأنعم الله أو جحد وجود الله!؟ فلا تطهره الحالات الخاصة من الكوارث والبلايا المهلكة!.

إذن، ليست الزلازل والعواصف على ما يظنه البعض، بلاءاً ونقمة، وإنما هي ألطاف ربانية ورحمة.

يحدثنا عبد الله بن سلام عن رسول الله (ص) قال: سألت رسول الله (ص) فقلت: أخبرني، أيعذب الله عز وجل خلقاً بلا حجة فقال: معاذ الله. قلت: فأولاد المشركين في الجنة أم في النار؟ فقال: الله تبارك وتعالى

(١) سورة النحل: ١١٨.

أولى بهم، أنه إذا كان يوم القيامة وجمع الله الخلائق لفصل القضايا. يأتي بأولاد المشركين فيقول: عبيدي وإمائي مَن ربكم وما دينكم وما أعمالكم قال فيقولون: أللهم أنت ربنا، أنت خلقتنا ولم يخلق شيئاً وأمتنا ولم نمت شيئاً، ولم تجعل لنا ألسنة ننطق بها ولا أسماعاً نسمع بها ولا كتاباً نقرؤه ولا رسولاً فنتبعه. ولا علم لنا إلا ما علمتنا، قال فيقول لهم عز وجل: عبيدي وامائي! إن أمرتكم بأمر تفعلوه، فيقولون: السمع والطاعة لك ربنا، قال: فيأمر الله عز وجل ناراً، يقال لها الغلق. أشد شيء في جهنم عذاباً، فيخرج من مكانها سوداء مظلمة بالسلاسل والاغلال،فيأمرها الله عز وجل أن تنفخ في وجوه الخلائق نفخة. فمن شدة نفختها تنقطع السماء وتنطمس النجوم وتجمد البحار وتزول الجبال وتظلم الأبصار وتضع الحوامل حملها وتشيب الولدان من هولها يوم القيامة. ثم يأمر الله تبارك وتعالى أطفال المشركين أن يلقوا أنفسهم في تلك النار. فمن سبق له في علم الله عز وجل أن يكون سعيداً ألقى نفسه فيها فكانت عليه برداً وسلاماً، كما كانت على إبراهيم (ع)، ومن سبق له في علم الله عز وجل أن يكون شقياً امتنع، فلم يلق نفسه في النار. فيأمر الله تبارك وتعالى النار فتلتقطه لتركه أمر الله وامتناعه من الدخول فيها، فيكون تبعاً لآبائه في جهنم، وذلك قوله عز وجل: ﴿فمنهم شقي وسعيد، فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق، خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد. وأما الذين سعدوا في الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك، عطاء غير مجذوذ﴾(١).

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: إذا كان يوم القيامة، احتج الله عز وجل على سبعة: على الطفل، والذي مات بين النبيين، والشيخ الكبير الذي أدرك النبي وهو لا يعقل، والأبله، والمجنون الذي لا يعقل، والأصم والأبكم. فكل واحد منهم يحتج على الله عز وجل، فيبعث الله عز وجل اليهم رسولاً، فيؤجج إليهم ناراً ويقول: إن ربكم يأمركم أن تثبوا فيها، فمن وثب فيها كانت عليه برداً وسلاماً ومن عصى سيق إلى النار».

---

(١) سورة هود: ١٠٩. غير مجذوذ: غير منقطع.

وقد علمنا الله تبارك وتعالى على لسان أنبيائه وأوصياء أنبيائه كيف ندرأ عنا العذاب فان الصاعقة لا تصيب المؤمن إذا كان ذاكراً لله تعالى لا ينفك عن ذكره.

فعن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عن ميتة المؤمن قال: «يموت المؤمن بكل ميتة: يموت غرقاً ويموت بالهدم، ويبتلى بـالسبع ويمـوت بالصاعقة ولا تصيب ذاكراً لله عز وجل».

وقد يعترض البعض: لماذا يبكي الطفل؟ ولقد ثبت أن هذا البكاء رياضة مفيدة لجوارح الطفل، فبكاؤه يؤدي إلى حركات مختلفة نافعة في أعضائه، في القلب والدم والرئة والحنجرة والأعصاب والعضلات والأطراف والوجه والبطن إلى ما هنالك. وهو نداء في بعض الأوقات لبعض حاجات الطفل وكلما تقدم هذا العلم المادي علم أن ما من شيء في تركيب جسم الانسان وسائر الحيوانات إلا عن حكمة بالغة، لم يقف عليها البشر لقلة معلوماته وجهله غير المتناهي وعدم تقدم العلم إلى درجة مرموقة، وقـد علموا أخيراً أن للزائدة الدودية واللوزتين آثارهما وفوائدهما.

إن الله قد يجعل الولد يولد أعمى، محروماً من البصر، وفي ذلك أسباب وحكم خفيت علينا، منها أن هذا الأعمى قد قبل في عالم الذر وارتضى أن يكون عديم البصر، حتى ينال في هذه الدنيا الموقتة مراتب تقربه إلى الله ومزيداً من المعارف الآلهية، ذلك لأن من أهم القربات تقبل الأذى والصبر على النوائب، وقد صبر هذا الأعمى طوال عمره على هذه المحرومية، ليكف عن نفسه تلك المعاصي الكثيرة التي يرتكبها بالباصرة. فأجره عظيم وثوابه جزيل، ولعله خير في عالم الذريين أن يكون مبصراً مع العصيان والكفر وسوء العاقبة، وبين أن يكون أعمى، متقرباً إلى الله مع حسن العاقبة، فاختار لصفاء في نفسه ولعقل أودعه الله فيه، الشق الأول، ففاز بحسن العاقبة وجنات عدن.

وأصبح بتقبله العمى عبرة للآخرين وموعظة للمبصرين، حتى يشكروا الله على ما منحهم من نعمة الابصار، وما أعظمها!...

فعلى المرء أن لا يغتر بأفكاره وما هو عليه من معلومات ضئيلة جداً بالنسبة لما أودع الله من قوانين وأنظمة مترابطة في هذا الكون الرحيب، ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، فارجع البصر هل ترى من فطور، ثم أرجع البصر كرتين، ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾[١].

وهو القائل: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾[٢].

ذلك، لأن الأرض التي نعيش عليها كهباءة ضئيلة في شعاع الشمس إذا دخل من نافذة في غرفة مظلمة. فإذا نسبنا حجم محبرة موضوعة على منضدة إلى الغرفة بل إلى البيت، بل إلى المدينة التي نعيش فيها بل إلى القطر الذي نعيش فيه، إلى القارة (آسيا) التي نحن من ضمنها لكانت نسبة حجم أرضنا إلى هذا الكون الرحيب، أقل بكثير من تلك النسبة. فما أوسع هذا العالم!.

ومعلوم أن أرضنا هذه ليست إلا واحداً من الكواكب السيارة التسعة، وهي تدور مع رفيقاتها (وهي بالترتيب): عطارد، الزهرة، الأرض، المريخ، المشترى، زحل، أورانوس، نبتون، بلوتو حول الشمس في منحنيات اهليليجية (قطع ناقص). وما أصعب رسم القطع الناقص في الهندسة، ومعادلته:

$$\frac{\text{س}^{2}}{\text{ب}^{2}} + \frac{\text{ص}^{2}}{\text{جـ}^{2}} = ١$$

(ب = نصف القطر الكبير، جـ = نصف القطر الصغير)

وإن هذه المجموعة الشمسية تضم فضلاً عن ذلك حوالي ١٦٠٠ كويكب صغير يتراوح قطر الواحد منها ما بين كيلومترين إلى ٨٠٠ كيلومتر

---

(١) سورة الملك: ٣ ـ ٤.

(٢) سورة لقمان: ٢٧ ما نفدت: ما انتهت.

تقريباً. وكل منها يدور في فلك خاص به، ولكنها جميعاً موجودة في الفضاء الواسع المحصور بين فلكي المريخ والمشترى.

وإن الأجرام السماوية التي نراها منتشرة بكثرة هائلة في السماوات ليست كلها نجوماً، كما نتحدث عنها في حياتنا العامة، بل أنها تضم أجراماً أخرى كثيرة من أهمها الكواكب وتوابعها من الأقمار، ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن نميز بسهولة بمجرد النظر إلى السماء بالعين المجردة بين الكواكب والنجوم لأنها جميعاً تبدو متشابهة إلى حد كبير. ولهذا السبب فان لنا كثيراً من العذر في أن نطلق عليها اسم: النجوم(١).

أما علماء الفلك فيمكنهم أن يميزوا النجوم عن الكواكب بواسطة المناظر المكبرة، وهم يقولون أن النجم(Star) يختلف عن الكوكب(Planet) من ناحيتين أساسيتين هما:

١ ـ إن النجم أعظم حجماً بكثير من الكواكب، فبينما نجد مثلاً أن قطر أكبر كوكب من كواكب المجموعة الشمسية وهو المشتري يبلغ حوالي (١٤٤) ألف كيلومتر، أو: (٩٠ ألف ميل) نجد أن قطر الشمس وهي النجم الذي تتبعه هذه الكواكب ١٣٨٤٠٠٠ كيلومتر (٨٦٥٠٠٠ ميل)، مع ملاحظة أن الشمس ليست هي أكبر النجوم بأي حال من الأحوال. فمن النجوم ما هو أكبر منها بكثير ومنها ما هو أصغر منها. ويطلق على الأولى اسم: النجوم العمالقة، بينما يطلق على الثانية اسم «النجوم الأقزام».

٢ ـ إن النجم يكون دائماً ملتهباً ومضيئاً إضاءة ذاتية، ويرجع ذلك إلى عظم حجمه لأن هذا العظم يترتب عليه ازدياد الضغط والحرارة في باطنه زيادة تؤدي إلى حدوث تفاعلات كثيرة تتولد عنها باستمرار طاقة هيدروجينية وذرية عظيمة جداً. أما الكوكب فان صغر حجمه نسبياً لا يساعد على تولد مثل هذه الطاقة، وذلك، فانه يكون دائماً معتماً وليس له ضوء خاص به. ولكن على الرغم من ذلك، فان الكواكب تبدو لنا مضيئة بسبب انعكاس ضوء النجوم على سطحها.

---

(١) أسرار غزو الفضاء: للدكتور عبد العزيز شرف.

وتوجد في الفضاء ملايين ملايين من النجوم والكواكب وعدد النجوم المعروفة لنا في الوقت الحاضر أكثر من ١٥٠ ألف مليون نجم بكثير وليست الشمس إلا واحداً منها. وتفصل النجوم بعضها عن بعض مسافات لا يمكن تصورها ولا يمكن تقديرها بوحدات القياس العادية، ولهذا السبب اتفق علماء الفلك على استخدام وحدة خاصة لقياس هذه المسافات[1]، وهذه الوحدة هي السنة الضوئية ويقصد بها المسافة التي يستطيع الضوء، وسرعته (٣٠٠,٠٠٠) كيلومتر في الثانية، أو (١٩٥٠٠٠) ميل أن يقطعها في سنة كاملة وهي تساوي على وجه التقريب (٩٤٦١٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠) كيلومتر أو (٥,٨٧٥,١٥٧,٠٠٠,٠٠٠ ميل).

أما البعد بين الكواكب السيارة بعضها عن بعض فتستخدم في قياسه وحدة أخرى أصغر من السنة الضوئية، ويطلق عليها اسم الوحدة الفلكية.

Astr onomical Unit ومقدارها هو متوسط البعد بين الأرض والشمس في الفصول المختلفة وهو ١٤٨ مليون كيلومتر: (٩٣ مليون ميل).

وإذا نظرنا إلى السماء في ليلة صافية لاحظنا أن بعض النجوم أكثر لمعاناً من بعضها الآخر، ولكن يجب أن لا نأخذ هذا اللمعان دائماً دليلاً على ضخامة النجم، لأن بعض النجوم قد تكون أكثر لمعاناً من نجوم أخرى أضخم منها، لا لشيء إلا لأن الأخيرة أبعد عن الأولى.

وربما يخيل إلى البعض منا أن النجوم مبعثرة في السماء دون أن يكون لها نظام ثابت، وفي هذا خطأ شديد. إذ الواقع أنها منظمة إلى أبعد الحدود، بحكمة الله جلت قدرته في مجموعات: هي التي تسمى بالمجرات. ومن أهمها بالنسبة لنا: المجرة التي نحن من أبنائها وهي تشتهر عندنا باسم (سكة التبانة)، بينما تشتهر عند الأوروبيين باسم: (السكة اللبنية Milky way) ويمكننا أن نميزها بسهولة إذا نظرنا إلى السماء حيث نجد أنها تمتد على شكل نطاق عظيم متصل لا نهاية له، وفي هذا النطاق تتزاحم النجوم بدرجة يجعل لونها يميل إلى البياض، وهذا هو السبب الذي أوحى

---

(١) قد شرحنا هذا الموضوع في بقية أجزاء التكامل شرحاً وافياً.

للعرب بأن يطلقوا عليه اسم: سكة التبانة، وفي هذه التسمية تشبيه بين النجوم الكثيرة المتناثرة وجزيئات التبن التي تتطاير على طول الطريق الذي يسير فيه بائعوه. وهو نفس السبب الذي أوحى للكتاب الغربيين أن يطلقوا عليه اسم: (طريق اللبن).

وليست شمسنا بكواكبها وأقمارها إلا جزءاً من هذه المجرة، ولكنه جزء ضئيل جداً لا يشغل منها إلا مساحة أشبه بالمساحة التي تشغلها حبة رمل واحدة من أراضي مصر كلها.

وبالاضافة إلى مجرتنا: سكة التبانة، خلق الله مجرات أخرى كثيرة جداً، بعضها أكبر من مجرتنا حجماً ويبلغ عدد المجرات المعروفة عندنا لحد اليوم مائة مليون مجرة تقريباً. ومن أقربها إلى مجرتنا مجرة: الأنروميدا، أو، المرأة المتسلسلة، وهي تبعد عنا بنحو ٧٥٠ ألف سنة ضوئية، ولهذا فليس من العجيب أن نراها ضئيلة في الفضاء، وهي تبدو على شكل سحابة صغيرة يبلغ طولها حوالي قطر قرص القمر عندما يكون بدراً، بينما يبلغ عرضها نصف ذلك تقريباً وهي ذات ذراعين بميزانها عن غيرها من المجرات.

وتفصل المجرات بعضها عن بعض مسافات شاسعة جداً من الفضاء يبلغ طولها في المتوسط حوالي مليونين من السنين الضوئية، وهي جميعاً تتبع نظاماً واحداً في حركاتها. فكل مجرة منها تدور حول نفسها كما يدور قرص الرحى، وكل نجم من نجومها يدور حول نفسه بنفس النظام وكل كوكب أو قمر من أقمارها يدور كذلك بنفس النظام وفي نفس الاتجاه ولكن بسرعات مختلفة، كما نشاهد ذلك في حركة الالكترونات حول البروتونات المتجمعة في بطن الذرة ولكن بسرعات مختلفة أيضاً. وهذا دليل على وحدة الخلق ووحدانية الخالق جلت عظمته ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾[١] ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة، ان الله سميع بصير﴾[٢].

---

(١) سورة الملك: ٣.

(٢) سورة لقمان: ٢٨.

ويبلغ قطر مجرتنا: (سكة التبانة) من أحد طرفيها حتى طرفها الآخر مائة ألف سنة ضوئية وتقع الشمس على بعد حوالي ٣٠ ألف سنة ضوئية من مركزها. وتدور الشمس حول هذا المركز مرة كل ٢٥٠ مليون سنة تقريباً: ﴿وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾[١]

وحتى في المجرة الواحدة تجد أن الأبعاد التي تفصل النجوم بعضها عن بعض شاسعة جداً، فالبعد بين شمسنا وبين أقرب النجوم الأخرى الينا يزيد على ٤١ مليون مليون كيلومتر أو: (٢٦ مليون مليون ميل) أي حوالي ٤,٤ سنة ضوئية. فلو أننا مثلنا الشمس بنقطة وأردنا أن نمثل أقرب نجم لها لمثلناه بنقطة أخرى تبعد عن الأولى بنحو ٦ كيلومترات!.

وهكذا نجد أننا بأرضنا وشمسنا وقمرنا وأقربائنا من الكواكب وتوابعها في عزلة تامة عن سائر الأكوان، ويفصل بيننا وبينها فضاء تام لا نعرف حتى الآن صفاته على وجه التحديد.

وشمسنا عبارة عن كرة ضخمة ملتهبة قطرها ١,٢٢٤٠٠٠ كيلومتر أو: (٨٦٥٣٨٠ ميلاً)، أما الأرض فقطرها بين القطبين ١٢٧١٤ كيلومتراً = (٧٩٠٠ ميل) ويزيد قطرها الاستوائي بنحو ٤٣ كيلومتراً. أما حجمها فلا يزيد على $\frac{١}{٣٣٣٤٠٠}$ فقط من حجم الشمس.

وتقدر درجة الحرارة على سطح الشمس بنحو ٦٠٠٠ درجة مئوية، أما في باطنها فترتفع إلى اكثر من ٢٠ مليون درجة. ويمكننا أن نقدر مدى هذه الحرارة إذا عرفنا أن الحديد ينصهر في ١٥٠٠ درجة مئوية فقط.

وتتولد حرارة الشمس وغيرها من النجوم نتيجة للانفجارات الذرية والهيدروجينية التي تحدث فيها باستمرار بسبب الضغط والحرارة العظيمين في باطنها من ناحية ووجود عنصري الهيدروجين والهيليوم بكثرة هائلة فيها من ناحية أخرى. فمن المعروف أن هذين العنصرين هما العنصران الأساسيان في توليد الطاقة الهيدروجينية، وفضلاً عن ذلك فقد ثبت أيضاً:

---

(١) سورة الحج: ٤٧.

أن اليورانيوم هو العنصر اللازم لتوليد الطاقة الذرية موجود هو الآخر بكثرة هائلة في الشمس ولكنه أقل نسبياً من الايدروجين والهيليوم.

وتنبعث من الشمس باستمرار إشعاعات قوية جداً ولكن لا يصل إلى أرضنا منها إلا ما يعادل ١/٢٢٠٠٠ مليون فقط. وهي ميزة لم يخص بها أي كوكب آخر، فلو أن الأرض اقتربت من الشمس اكثر مما عليه الآن لازدادت الأشعة التي تصل اليها بدرجة تؤدي إلى امتناع الحياة فوقها، كما هي الحال في عطارد والزهرة، ولو أنها ابتعدت عنها أكثر مما هي عليه الآن، لحدث العكس وقلت الأشعة وازدادت قسوة البرد بدرجة تؤدي كذلك إلى امتناع الحياة، كما هي الحال في المشترى وزحل وغيرهما من الكواكب التي تلي الأرض من الناحية البعيدة عن الشمس وهو القائل: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم، وانه لقسم لو تعلمون عظيم﴾[1].

فالله تعالى بعظيم حكمته وسريع حسابه اختص الأرض بهذا الموقع، وكذلك اختصها بميزة أخرى لم تكن الحياة لتقوم بدونها، وهذه الميزة هي أنها مغلفة تماماً بغلاف غازي كثيف يتكون من جميع العناصر الضرورية للحياة. وهذا بخلاف الحال بالنسبة لباقي الكواكب التي ليس لأي واحد منها غلاف هوائي كاف لظهور الحياة، وإن كان بعض علماء الفلك يعتقدون أن المريخ له غلاف غازي ولكنه رقيق جداً، وغير صالح للحياة لخلوه من الأوكسيجين، وان الزهرة لها كذلك غلاف غازي، ولكنه مكون في جملته من ثاني أوكسيد الكاربون مما يجعله هو الآخر غير صالح لظهور الحياة، وكذلك قمرنا المعروف له غلاف غازي ولكنه رقيق جداً وخال من العناصر الضرورية للحياة مثل الأوكسيجين.

وتدور الكواكب والكويكبات كلها حول الشمس في أفلاك إهليلجية (بيضاوية تقريباً) تقع كلها في مستوى واحد تقريباً، ولكنها تختلف في سرعة دورانها سواء حول الشمس أو حول نفسها. إلا أن سرعة دورانها تكون أكبر بصفة عامة كلما كانت أقرب إلى الشمس. فبينما يتحرك عطارد في فلكه

---

(١) سورة الواقعة: ٧٥ ـ ٧٦.

حول الشمس بسرعة ٤ كيلومترات في الثانية نجد أن سرعة الزهرة هي ٣٥ كم والأرض ٢٩,٥ كم والمريخ ٢٤ كيلومتراً في الثانية.

ومن المعروف أن جاذبيةالشمس هي العامل الرئيسي الذي يتوقف عليه نظام حركة الكواكب في أفلاكها، وما ذلك إلا لعظم حجم الشمس التي تستحوذ بمفردها على ٩٨,٨٦٦٪ من حجم المجموعة الشمسية كلها. أما بقية المجموعة بكواكبها وكويكباتها وأقمارها فتكون ١,١٣٤٪.

وإن المشترى أكبر الكواكب حجماً ويعادل حجم الأرض وحدها ٣١٨ مرة. وأقرب الكواكب إلى الأرض هي الزهرة التي يبلغ حجمها ٦/٥ من حجم الأرض، ويلي الزهرة في ذلك: المريخ ثم عطارد ويبلغ حجمهما ٩/١ و ٢٧/١ من حجم الأرض على الترتيب.

ويعتبر المشترى أكثر الكواكب أقماراً، إذ أن له أحد عشر قمراً ويليه في ذلك زحل وله تسعة أقمار.

وتضم المجموعة الشمسية، بالاضافة إلى الكواكب والأقمار التي سبق ذكرها عدداً كبيراً من المذنباتComets التي تدور حول الشمس في أفلاك مستقلة ليست لها علاقة واضحة بالأفلاك التي تدور فيها الكواكب السيارة. وأهم ما تتميز به المذنبات هو الغازات الملتهبة التي تنبعث منها وتظهر خلفها على شكل ذنب طويل قد يمتد لملايين الكيلومترات. وتخرج من رؤوس المذنباتكذلك أجسام مختلفة الأحجام من نوع الشهب، وتدور هذه الأجسام مع المذنب وكثيراً ما تحترق خصوصاً عندما يكون المذنب في أقرب وضع له من الشمس، فيساعد احتراقها هذا على زيادة حجم المذنب، وهناك عدد من المذنبات المعروفة التي من أشهرها المذنب هالي: Halley والمذنب مورهاوسMorehouse ويتميز هذا الأخير بأن له ذنبين.

ويجب أن نشير هنا أيضاً إلى تلك الأجسام الكونية التي تنتشر بكثرة هائلة في الفضاء وتشمل الشهب والنيازك والغبار الكوني، والشهبMoteors ليست إلا حريئات صغيرة جداً، قد لا يزيد حجمها على حجم حبات

الرمل. وهي تندفع باستمرار نحو الأرض بمعدل عدة آلاف يومياً. ولكنها لا ترى إلا عند اختراقها للغلاف الغازي المحيط بالأرض لأن احتكاكها الشديد بالهواء يؤدي إلى احتراقها وظهورها مضيئة.

ومنظر الشهب المحترقة في الجو منظر مألوف لنا جميعاً. ويمكننا أن نشاهده بكثرة في الليالي الصافية. ففي مثل هذه الليالي يستطيع المرء أن يحصي أكثر من عشرة من الشهب المتساقطة في الدقيقة الواحدة، وتكون سرعة هذه الشهب عند اختراقها للغلاف الغازي عظيمة جداً. بحيث تصل أحياناً إلى حوالي ٧٠ كيلومتراً في الثانية. ولهذا فان أغلبها لا يصل إلى الأرض بل يحترق ويتبخر في الفضاء. وهذا فضل من الله سبحانه وتعالى، فلولا ذلك، لكانت لهذه الشهب أخطار شديدة جداً على كل مظاهر الحياة على وجه الأرض. بسبب قوة اندفاعها التي تزيد على قوة اندفاع أقوى المقذوفات النارية على الرغم من صغر حجمها. ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون﴾[1].

أما النيازكMeteorites فلا تختلف في أصلها عن الشهب، وكل ما هنالك هو أنها لا تحترق ولا تتبخر تماماً في الجو بل تستطيع أن تصل إلى سطح الأرض. ويرجع ذلك غالباً إلى أنها تكون أكبر حجماً وأثقل وزناً من الشهب العادية، وليس هناك حجم أو وزن معين لهذه النيازك، فقد يبلغ وزن البعض منها عشرات الأطنان. وإذا ما سقطت مثل هذه النيازك على بقعة عامرة، فقد يترتب على سقوطها حدوث خسائر جسيمة، ولكن سقوطها نادر الحدوث جداً بفضله تعالى.

ومن أشهر النيازك التي سقطت على الأرض ذلك النيزك الذي سقط على سيبيريا سنة ١٩٠٨ واختفت بسببه الحياة النباتية اختفاءً تاماً من منطقة قطرها حوالي ٧٥ ميلاً، ثم النيزك الذي سقط على اريزونا وتكونت بسببه حفرة أشبه بفوهة بركان ضخمة قطرها حوالي كيلومتر ونصف وعمقها حوالي ١٨٠ متراً. ولا يزال هذا النيزك ظاهراً في قاع تلك الحفرة حتي الآن على

---

(١) سورة الأنبياء: ٣٢.

الرغم من تراكم الرمال فوقه.

أما الغبار الكوني Cosmic Dust فيتكون من جزيئات ميكروسكوبية تسبح بكثرة هائلة في الفضاء، وقد أجريت في روسيا والولايات المتحدة خلال السنوات الأخيرة عدة تجارب لدراسة أثر هذا الغبار على الأجسام الصلبة، حيث كانت تطلق في الفضاء إلى أقصى ارتفاع ممكن إطباق مصنوعة من معدن مصقول جداً (الأطباق الطائرة)، وقد تبين من اختبار هذه الأطباق بعد عودتها إلى الأرض أن بها آثاراً عديدة جداً لضربات الحبيبات الدقيقة للغبار الكوني، ولكنها عموماً آثار صغيرة جداً، لدرجة أن أغلبها لا يرى إلا بالميكروسكوب.

وقد تبين من بعض التجارب التي أجريت في الولايات المتحدة خلال سنة ١٩٥٣ والتي أطلقت فيها أطباق طائرة وصلت إلى ارتفاع يتراوح بين ٤٠ و ١٤٠ كيلومتراً في الفضاء، أن الضربات التي سجلت على هذه الأطباق من حبيبات الغاز الكوني كانت تحدث بمعدل ٤,٩ ضربة في الثانية على السطح الذي تبلغ مساحته متراً مربعاً واحداً.

وقد علم أخيراً أن هناك نوعاً آخر من الاشعاعات الخطرة في الفضاء على ارتفاع ٤٠٠ كيلومتر، وإن هذه الاشعاعات شديدة جداً لدرجة أنها كانت تؤدي إلى تعطيل عمل الأجهزة الخاصة بقياس الأشعة فوق البنفسجية.

* * *

على الانسان أن يتصاغر أمام عظمة الله تعالى، تلك العظمة التي تتجلى بعض مظاهرها في ما خلق من هذه العوالم اللانهائية وما فيها من أنظمة دقيقة ومعادلات رصينة ودساتير ثابتة، فإذا رأى حادثة لا يقوى على تفسيرها وكشف الحكمة فيها، فليصم نفسه بالجهل لقلة معلوماته عن هذا الكون الغامض. فمن شاهد لوحة تصوير في غاية الاتقان والبداعة ورأى في أسفلها بعض الخطوط والنقوش ولم يتمكن من تفسيرها وتعليلها فلا ينبغي أن يصم المصور الفنان بفقدان الذوق، بل عليه أن يتهم نفسه بعدم الفهم

بعد أن شاهد الروائع والكمال إلى أقصى حد ممكن في اللوحة بأسرها.

نعم، كان يقول (بوخنز) المادي: «بما أنا لا نعلم سبب وجود هذه النجوم بهذه الكثرة إذن ليس هناك هدف من خلق هذا العالم، وقد وجد هذا الكون بطريقة عشوائية!». حين أن الرجل لم يكن من المتضلعين في علم الهيئة والفلك والميكانيك السماوي، ولم يكن قد اكتشف في وقت قال فيه قولته الالحادية: علم الفلك اللاسلكي وخصائص الذرة ومعادلاتها الرصينة. نعم أن النفوس الحالكة لا يصدر منها إلا ما يناسبها. ﴿بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾. (وكل إناء بالذي فيه ينضح).

يقول (ويليام كروكس) وهو أحد أساطين علم الذرة: «أن اعتقادي بجهلي هو الذي ساعدني في دراساتي الروحية وكشف كثير من أسرار الطبيعة: تلك التي ما كنت أتوقع أن تنكشف لي أبداً».

ويقول (أوليفر لودج): وكانت له يد في كشف اللاسلكي: «إن ما أعلمه صفر تجاه ما لا أعلمه»، وقد يعترف البعض بجهلهم لا عن عقيدة راسخة، إلا أني أقول ذلك واعترف بجهلي عن عقيدة رصينة وإيمان كامل».

وكان يقول (أينشتاين) شيخ علماء العصر الحديث، بعد أن رماه بعض أعدائه بالكفر والالحاد نتيجة لما نشره من نظريات في علوم الطبيعة والكون: «كيف يتهمني هؤلاء الناس بالكفر والالحاد، وأنا الذي يزداد إيماني في كل يوم بوجود الله وعظمته، فكلما تعمقت في العلم تبين لي بجلاء أن هذا الكون بنظامه الدقيق لا بد أن يكون له خالق عاقل، له القدرة على تنظيمه والمحافظة على هذا التنظيم»[١].

ويقول العالم الامريكي (فون براون): «إن العالم الحقيقي هو الذي يزداد إيمانه بالله كلما تبحر في العلم، لأنه كلما تعمق في دراسة علوم الطبيعة مثلاً تبين له أن بعض التعبيرات الرنانة التي يستخدمها في دراساته مثل: الطاقة والمادة ما زالت في الواقع غير مفهومة له. وفضلاً عن ذلك،

---

(١) أسرار غزو الفضاء: ص: ٣ للدكتور عبد العزيز شرف.

فان هناك مشاكل كثيرة ما زال الانسان وسيظل دائماً عاجزاً عن تفسيرها وحل ألغازها ومن أهمها مشاكل الوراثة، ويكفي أن يعرف الانسان أنه يولد من أبوين لا يمكن أن يكون له أي دخل في اختيارهما».

* * *

فلله في خلقه شؤون، وهو خير محض وما يصدر منه خير محض وعن حكمة تامة، ليس لهذا البشر أن يحيط بجميعها، فيعزو لغروره الكوارث والنوائب والزلازل إلى البلبلة وعدم الانتظام والهدف في هذا الكون المنظم بدساتير رياضية وبحكمة بالغة إلى أبعد الحدود.

وعلينا أن نعلم أنه لم يؤت بنا إلى هذه الدنيا الموقتة لنخلد فيها ولكي ننعم بأنواع النعم والملذات، وإنما جيء بنا ها هنا لكي نقطع هذا الدور الامتحاني ونذهب منها حسب الدرجة التكاملية التي نحصل عليها بعملنا وحسب جهدنا وجهادنا: ﴿ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه﴾[1] ﴿وإن ليس للانسان إلا ما سعى، وان سعيه سوف يرى﴾[2]، ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين﴾[3].

* * *

أما موضوع الموت، فليس بالشيء الذي يقلق البال، وقد يكون موت هؤلاء الأطفال لزلزلة أو عاصفة شديدة وهم غير مثقلين بالذنوب خيراً لهم من أن يموتوا بعد عمر طويل وهم مليئون بأنواع الآثام والاجرام. وأنهم بهذا الموت الفجائي أقرب من غيرهم إلى رحمة الله تعالى. فالدنيا دار ممر والآخرة دار مقر. ويقول علي (ع): «ماذا يصنع بالدنيا من خُلق للآخرة».

﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو

---

(١) سورة العنكبوت: ٦.
(٢) سورة النجم: ٣٩ ـ ٤٠.
(٣) سورة العنكبوت: ٦٩.

كانوا يعلمون﴾[١].

* * *

وخلاصة القول: على الانسان أن يعلم أن لا شر من جانب الله تعالى، وكل ما يرد من جانب الله فهو إما رحمة أو تأديب أو عقاب دنيوي لسعادة أخروية دائمة، وإما مطهر لهذه النفس من ذنوبها وأدرانها، وأن يعلم ان الله غني عن هذا الانسان وعن ظلمه وتعذيبه. ولكنه وهو الكامل على الاطلاق يريد به الكمال، شأنه في كل ما خلق، لأن الكامل لا يصدر منه إلا الكمال. وقد يتوقف كمال هذا الانسان بما يطهره ويؤدبه، ونعم الأدب، أدب الله تعالى. فقد قال رسول الله (ص): «أدبني ربي فأحسن تأديبي»، وهو القائل: ﴿يعظكم لعلكم تذكرون﴾[٢].

والانسان لحرصه الكثير على الراحة وحبه للخير وميله إلى المادة يظن الكوارث أو بعض البلايا أو الأسقام شراً من الله تعالى، ﴿إن الانسان لربه لكنود، وأنه على ذلك لشهيد، وانه لحب الخير لشديد﴾[٣]. وهو القائل: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾[٤]. فكل خير منه تعالى والشر مما اجترحت أيدينا.

فالكارثة أو المصيبة إنما تأتي لتطهير النفس من ذنوب أدبرت لذاتها وأقامت تبعاتها، فهي رحمة وأيما رحمة، وقد أتم الله الحجة علينا بشتى الوسائل والمناسبات، وقد تكون لمزيد الأجر ونيل درجات رفيعة، وقد تضم الحادثة الواحدة بين جوانبها شتى التأثيرات. فرحمة لقوم ونعمة وعقاب لأخرين ونقمة، وعبرة لقوم وموعظة للمتعظين، كالطوفان والرياح والعواصف إلى ما هنالك.

فليعمل الانسان لنيل الدرجات العالية في عوالم القدس وليحسن الظن

---

(١) سورة العنكبوت: ٦٤.
(٢) سورة النحل: ٩٠.
(٣) سورة العاديات: ٦ - ٨.
(٤) سورة النساء: ٧٩.

بربه، ففي حديث قدسي عن الله تعالى: «أني عند حسن ظن عبدي».

﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾[1].

* * *

ولنذكر ها هنا بعض الأدعية التي لها أثرها الفعّال في تسكين النفس وإزالة بعض الهموم.

فعن الصادق (ع): «إذا حزنك أمر من سلطان أو غيره فأكثر من: «لا حول ولا قوة إلا بالله» فانها مفتاح الفرج. وكنز من كنوز الجنة.

وقد روي أن من صلى ركعتين بعد صلاة الظهر من يوم الجمعة، يقرأ في كل ركعة بعد الحمد سبع مرات سورة الاخلاص (قل هو الله أحد) ويدعو بعدهما بهذا الدعاء:

«أللهم اجعلني من أهل الجنة التي حشوها البركة وعمارها الملائكة مع نبينا محمد صلى الله عليه وآله وأبينا إبراهيم عليه السلام» لم يَرَ بلاءاً أو فتنةً إلى الجمعة الآتية ويجمع الله بينه وبين محمد (ص) وإبراهيم (ع).

وعن أبي حمزة قال: قال محمد بن علي عليهما السلام: يا أبا حمزة، ما لك إذا أتى بك أمر تخافه أن لا تتوجه إلى بعض زوايا بيتك - يعني القبلة - فتصلي ركعتين، ثم تقول: «يا أبصر الناظرين ويا أسمع السامعين ويا أسرع الحاسبين ويا أرحم الراحمين» سبعين مرة، كلما دعوت بهذه الكلمات (مرة) سألتَ حاجة[2].

وعن إسماعيل بن جابر، عن أبي عبد الله (ع) في الهم، قال: تغتسل وتصلي ركعتين وتقول: يا فارج الهم، يا كاشف الغم، يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، فرج همي واكشف غمي، يا الله الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، اعصمني وطهرني واذهب

---

(١) سورة التوبة: ١٠٦.

(٢) أصول الكافي ج ٢ ص: ٥٥٦.

ببليتي. واقرأ آية الكرسي والمعوذتين. (سورة قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس).

كان علي بن الحسين عليهما السلام يقول: ما أبالي إذا قلت هذه الكلمات لو اجتمع عليّ الأنس والجن: بسم الله وبالله ومن الله وإلى الله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله (ص)، أللهم اليك أسلمت نفسي واليك وجهت وجهي واليك الجأت ظهري واليك فوضت أمري. اللهم احفظني بحفظ الايمان من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي ومن تحتي ومن قبلي[1] وادفع عني بحولك وقوتك، فأنه لا حول ولا قوة إلا بك[2].

وخاتمة المقال: علينا أن نعلم أن النوائب والكوارث بأنواعها المتعددة رحمات وألطاف ربانية تهدينا إلى الصراط السوي وتزيل عنا ما علق بنا من أدران، فتطهر نفوسنا وتجعلها قمينة لمعرفة الله المتعال، وهي غاية الغايات.

﴿وما الله يريد ظلماً للعباد﴾[3].

﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾[4].

﴿وما أنا بظلام للعبيد﴾[5].

﴿ذلك بما قدمت أيديكم، وأن الله ليس بظلامٍ للعبيد﴾[6].

﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق، ذلك بما قدمت أيديكم، وان الله ليس بظلام للعبيد﴾[7]. ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب

(١) في بعض النسخ (وما قبلي).
(٢) نفس المصدر ص: ٥٥٩.
(٣) سورة المؤمن: ٣١.
(٤) سورة حم ـ سجدة: (٤٦).
(٥) سورة ق: ٢٩.
(٦) سورة آل عمران: ١٨٢.
(٧) سورة الأنفال: ٥٠ ـ ٥١.

منير، ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله، له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق، ذلك بما قدمت يداك وان الله ليس بظلام للعبيد﴾[1].

﴿ووضع الكتاب، فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ووجدوا ما عملوا حاضراً، ولا يظلم ربك أحداً﴾.[2]

﴿ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور. ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني، انه لفرح فخور، إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير﴾[3].

ونسأل الله أن نكون ممن صبروا على النوائب والمحن وعملوا الصالحات. فنالوا أجراً ومغفرة من الله المتعال ولم يكونوا من الآئسين من رحمته تعالى إذا نزعت منهم رحمته لحكمة ربانية خفيت علينا، وان لا نكون فرحين فخورين، إذا مَنَّ الله علينا بنعماء بعد ضراء، فنكون ممن استثناهم الله في ما سبق من آيات بينات، بقول جل من قائل: ﴿إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير﴾.



(١) سورة الحج: ٨ ـ ١٠.

(٢) سورة الكهف: ٤٩ ـ ٥٠. مشفقين: خائفين.

(٣) سورة هود: ٩

إسلام روجيه في بروكسل[1]

بدأ والد روجيه حياته المبكرة عامل كهرباء عند أحد المتعهدين الذين يتولون تمديد الأسلاك، وتوقيع مرافقها المختلفة... ولكنه كان من الفطنة ونفاذ النظر بحيث لا يفوته أن ينتفع بكل لحظة وكل سانحة، لذلك لم يكد يستوثق من قدرته الذاتية وخبرته المكتسبة حتى عمد إلى الاستقلال بعمله، فأحدث لنفسه مركزاً صغيراً في أبرز شوارع انفرس... ثم لم يمض سوى القليل من الزمن حتى عرف لدى أصحاب الانشاءات بأنه من أبرع العاملين في هذه المهنة وأكثرهم إخلاصاً واتقاناً. ومن هنا شق الطريق إلى قمة النجاح، حتى أصبح اليوم من أكبر تجار الأدوات الكهربائية، ليس فقط في إنفرس بل في مختلف الأنحاء من بلجيكا وما يجاورها من المدن الهولندية والفرنسية.

ولعل من حسن حظ (روجيه) أن يلده هذا العصامي الناجح، وأن يتولى هو نفسه تربيته وتنشئته، بالدقة نفسها التي اعتاد أن يبذلها في ميدان العمل والتجارة، وكان من الأسس الأولى لهذه التربية أن يحرر مواهب ولده من كل ضروب التقييد، فيفسح له مجال البحث في كل شيء. ويمكنه من الاطلاع على كل ما من شأنه مساعدة هذه المواهب على الانطلاق. وقد تعمد بوجه خاص أن يقوي في ولده جانب الاعتماد على النفس، فلم يكرهه على اتجاه محدد. حتى في نطاق الدراسة ترك له أن يقف عند حدود الشهادة الاعدادية دون أن يضغط عليه لملازمة المدرسة... وربما كان غرضه من ذلك أن يجعله أقرب إلى عمله هو... الذي لا يتطلب منه انقطاعاً إلى الدراسة، التي قد تحيد به إلى أي اتجاه آخر.

على أن انقطاع (روجيه) عن المدرسة لم يصرفه عن مواصلة الدرس بطريقته الخاصة، فلقد أقبل على المطالعة الحرة يلتهم بها كل ما وصلت إليه

---

(١) للأستاذ محمد المجذوب، من مجلة حضارة الاسلام، للسنة الرابعة شوال: ١٣٨٣.

يده من الكتب، ولا سيما في موضوعات الأدب والتاريخ والآثار القديمة، وقد ركز ذهنه في هذا الطريق عناية والده بالسياحات الدورية، إذ كان شديد الحرص على هذه الهواية يخصص لها من كل عام شهراً كاملاً، فما أن تشرق شمس الربيع حتى يشحن سيارته الخاصة بضروري الأمتعة وطيب الزاد، ثم ينطلق مع ولده إلى الجهة المقررة. فلا يزالان يتنقلان بين آثارها حتى يأتيا على اجازتهما، فيعودا وقد ملآ أعينهما، واترعا صدرهما بالمتع التي لا تنسى. وحتى الآن لم يدعا جانباً هاماً من أوربا دون أن يأخذا بحظ من مشاهدته وتملي آثاره... وها هما ذان يتمان طوافهما بين آثار اليونان وقد انتهت بهما الرحلة إلى جزيرة (رودس) حيث مضى عليهما قرابة الأسبوع.

كان التقدير المبدئي أن لا تزيد إقامتهما في رودس عن اليومين، ولكن رغبة روجيه في تمديدها، واهتمام والده بتحقيق رغبته، فرضا على الوالد أن يعدل تخطيطه السابق، ليتيح لولده أن يستكمل مشاهدته في الجزيرة اليونانية.

وكان روجيه يقوم بجولة منفردة في بعض شوارع رودس حين وجد نفسه أمام مسجدهاالوحيد... ورأى هيكل المسجد شيئاً طريفاً تقع عليه عيناه لأول مرة خارج نطاق الرسوم السياحية... فلم يشأ أن يبارح ذلك الموقع قبل أن يطل على داخ‌ا ، ويشهد حالة رواده أثناء بعض العبادات... واتفق ان حدث ذلك ظهر يوم الجمعة، إذ رأى أفواج المصلين يتجهون نحو المسجد فلم ينتبه لنفسه إلا وهو بينهم متجهاً إلى مدخله وهناك خلع نعليه بالطريقة التي رآها من الناس، ثم جلس كما جلسوا، وصمت كما صمتوا، ولما نهضوا الى الصلاة وجد نفسه يفعل فعلهم، ولكنه اكتفى بالوقوف ينظر اليهم دون أن يعلم ماذا ينبغي أن يفعل...ولما جلسوا يستمعون الى الخطيب شاركهم في الاصغاء دون أن يفهم حرفا مما يسمع.

وانتظر روجيه حتى غادر معظم المصلين المسجد... فتقدم صوب المحراب حيث كان الامام الخطيب لا يزال يستقبل الدعاء فما أن احس هذا باقترابه حتى أنهى دعاءه ونهض ليصافحه! وكان من حسن حظ روجيه أن الرجل يحسن الفرنسية إلى حد كان كافياً للتفاهم معه، وبهذه اللغة دارت بينهما المحاورة القصيرة التالية:

ـ أنا بلجيكي من آنفرس. . . أقوم بسياحة مع والدي وقد استهواني منظر هذا المعبد الشرقي فدخلته وشهدت صلاة الناس فيه.

ـ ألف مرحباً. . هل سرك ما رأيت؟

ـ بل استهواني.

ـ وبماذا؟.

ـ بهذه البساطة وذلك الخشوع الذي رأيته يغمر الناس. . وراح روجيه يجيل عينيه في جدران المسجد ثم تابع: ان خلو هذه الجدران من الرسوم مما يساعد النفس على الاستغراق في أعمق الخشوع، لأنها لا تجد حولها ما يصرفها عن الله.

ولقد رأيتك تتحدث من أعلى المنبر إلى الناس في هيئتك العادية دون مساعدة من المغنين، ودون استعانة بالبخور. . فتتجاوب معك نفوسهم حتى لتسيل دموع الكثيرين منهم دون تصنع. . . وهذا ما لا يكاد المصلون الآخرون يحسونه في معابدهم التي أحالتها أيدي الفنانين متاحف تشغل الناظر عن نفسه وما جاء من أجله. . . ثم أصارتها حركات الكهنة وجوقات المغنين شبه مسارح، لا يكاد المشاهد يفرق بينها وبين أي مسرح للتمثيل!!.

هو امتياز الاسلام. . . لأنه الدين الذي أنزله خالق العباد لاسعاد عباده، فطبيعي ألا يكون بينه وبين الفطرة البشرية أي تباين.

ـ يؤسفني أن لا أعرف شيئاً ذا بال عن هذا الاسلام.

ـ أكثر ما يعرف هذا الاسلام من خلال سلوك المسلمين. . . وهذا ما يتعذر على الأوربي أن يدركه، وهو الذي لا يعرف هذا الدين إلا من خلال أكاذيب أعدائه!.

ـ حقاً. . ان هناك أشياء سيئة قرأتها عنه في بعض كتب «لامانس» المبشر اليسوعي البلجيكي، وكم أود لو يتاح لي قضاء بعض الوقت في وسط اسلامي صحيح، لأتبين الحقيقة التي لا تتيسر معرفتها إلا من خلاله.

ـ كم يسرنا أن نستقبلك ضيفاً كريماً في ما بيننا. . . فلعلك بذلك واقف على بعض ما تشاء من هذا الأمر، مع العلم بأننا لا نعتبر أنفسنا أهلاً لتمثيل فضائل الاسلام على الوجه الذي يقتضيه.

وصحب روجيه امام المسجد إلى والده الذي كان ينتظره في حديقة الفندق وهناك قر الرأي على أن يكون الابن في ضيافة الشيخ أياماً ثلاثة، وبهذا قدر لروجيه أن يعيش أحب أيام حياته، في أوساط تلك الجالية التي تعرف من سلوكها وأخلاقها ومعاملاتها الكثير من حقائق الاسلام.

ـ ٢ ـ

لا يتذكر روجيه أنه عاد من رحلة ما خلال عشر سنوات مضت بمثل الشعور الذي يخالجه هذه الأيام التي أعقبت عودته من بلاد اليونان.

كان فيما مضى إذا رجعَ من رحلة أعاد النظر في مذكراته، يرتبها وينقح عبارتها، ويتحقق من صحتها، ثم يطويها فلا يعود اليها إلا في الأحيان المتباعدة، عندما يريد التحدث عن مشاهداته إلى أحد، أو عندما يقع في مسمعه خبر عن أحد هذه الأماكن التي ألم بها أثناء هذه الرحلات، وكلما أوغل الزمن في الكر على هذه الأحداث أسرع النسيان بدوره إلى آثارها في ذهنه، حتى تصبح أخيراً اشتاتاً من الذكريات، لا تستيقظ في صدره إلا تحت ضغط المناسبات المشابهة.

على أن رحلته الأخيرة كانت شيئاً جديداً في وجوده، أشبه بالبذرة الحية صادفت الجو المخصب، فإذا هي تربو وتنمو ثم تمد ساقها وتطلق أوراقها، ولا تزال تنتشر هنا وهناك، حتى تمسي دوحة ذات كيان وظل وجمال. . ولقد ضمرت في ذهنه آثار (الكروبول) وعبر (بومبي) وتماثيل الآلهة وروائع الطبيعة في البندقية وصقلية، حتى كادت تغيب أو تمحى. . . ولكنْ شيئاً واحداً من بقايا هذه الرحلة ظل، على بساطته، ثابتاً لا تزيده الأصباح والامساء إلا تعميقاً وامتداداً.

ذلك هو مشهد المسجد بقبته المستديرة البيضاء، وبمنارته القائمة في الهواء

تشد أعين الناس لتذكرهم بما تحتها من خشوع لله لا يشوبه شاغل من زخارف الدنيا. . . ثم ذلك الانسان العجيب الذي ترك حديثه واطمئنانه وسمو روحه في أعماق روجيه ما لا يمكن زواله على مر الأيام، وتتابع الأحداث. انه ليتذكر هيكله الفارغ، ونظراته الرحيمة وعمامته الناصعة البياض كقلبه النقي فتتفاعل نفسه بالمعاني التي لا يسعه تحديدها، ولم يكن له بمثلها عهد من قبل. . . وتستتبع ذكريات الشيخ صور الأسر التي عاش في ظلها تلك الأيام الثلاثة، ينتقل من ضيافة كريمة إلى أخرى مثلها، وكأنه يعيش في جنة من غير هذا العالم. لا تقع منها العين على سوء، ولا يمس السمع ما يجرح أو يخجل. وإنما هي خلوات سعيدة يغمرها روح الايمان الذي يستولي على قلوب أفرادها فيصفيهم من الخطيئة حتى في الضمير، فإذا هم آية في نقاء الخاطر، وسلامة الفطرة وطهارة اليد، لا يأتون أمراً ولا يذرون شيئاً إلا على ضوء من روح إيمانهم، الذي نظم علاقتهم بما حولهم على أساس من تعاليم السماء، فما من شيء إلا وله في تعاليمهم هذه حكم الحلال والحرام. . . وقد بات انسجامهم مع هذه النظم شيئاً طبيعياً كالملكة الأصيلة لا سبيل إلى عصيانها، بل انه ليجدون أقل انحراف عن سبيلها باعثاً لأكبر الشقاء.

وشيء آخر لا يقل في الروعة عن كل أولئك: هو ذلك التفتح الروحي الذي يمدهم بالحل المرضي لكل معضلاتهم، فهم يقبلون على أعمال الدنيا بأحفل طاقات النشاط البشري، وأتم ما يملكون من وسائل الاتقان، فإذا ما انتهوا إلى ثمرات جهودهم تناولوها شاكرين راضين لا يحسد فقير منهم غنياً، ولا قروي مدنياً، بل اعتبروا ذلك غاية ما قدر لهم ربهم في عالم الغيب، ومع ذلك فليس ثمة موسر يضن بالمعونة على معسر، بل أنهم ليعتبرون ثرواتهم الخاصة حقاً للجميع، ينال منها كل متخلف ما يعوزه عند الحاجة. ويكاد لا يوجد بينهم فرد لا يحفظ حكمة نبيه العربي: «ليس منا من يبيت شبعان وجاره جائع وهو يعلم به. . .» ومن هنا كان مجتمعهم لوناً جديداً لا مثيل له بين المجتمعات التي يعرفها روجيه، أو يقرأ عنها، فلا حقد، ولا بغضاء، ولا تحاسد، بل اخوة سعيدة تنتظم الكل في تناغم عجيب، يجعل الجميع كالجسد الواحد، لكل فرد منه منزلة العضو الحي. ولا شك أن مثل هذه الجماعة أغنى الناس عن هاتيك النظريات الفلسفية والاقتصادية التي تتمخض بها أوربا

بأجمعها فتفكك الجماعات، وتضرب الأفراد، وتثير حرب الطبقات، حتى لتجعل الحياة كلها أشبه بالكرة في كف عفريت فلا يستريح فيها الفرد إلى واقعه ولا يطمئن إلى مستقبله! لا بل أن روجيه ليتذكر ما أحسه من سعة الشقة بين واقع هذه الجماعة وواقع الطوائف الأخرى ممن يجاورها في رودس نفسها، إذ ما يكاد الانسان يخرج من نطاقها إلى غمار أولئك حتى يخيل اليه أنه انتقل من عالم إلى عالم. من عالم كل شيء فيه متجه إلى الله مرتبط بتعاليمه، إلى عالم لا يكاد يذكر الله إلا في أوقات العبادة المعينة، حتى إذا تفلت من طقوسها انطلق إلى أخرى من العبادات... مركزها المال والجسد وألوانُ الشهوات!.

ولقد بات قلب روجيه مرتعاً خصباً لموحيات تلك البيئة، فهو اليوم يعيش الكثير من احساساتها وكأنه زود من هنالك بطاقة من نوع غريب، فيها يطل على الحياة فيرى منها ما لم يكن يرى، ويسمع منها ما لم يكن يسمع... أنه اليوم ليقف أمام الزهرة من حديقته فيتفاعل صدره بألوان المشاعر، وينظر إلى أشعة الشمس تنسكب على الأفق وتشحن الوجود بعوامل النشاط... فإذا قشعريرة لاذة تنساب في كيانه، فيخطفه ذلك إلى ما فوق واقع التراب، حتى ليخيل إليه أنه يسمع من خلال صوت الله أو يشاهد في اليقظة وجهه!.

أجل... انها لعين ثالثة لا يعرف مكانها من جسده، ولكنه يحس فعلها في أعصابه وخياله... هي التي جعلته قادراً على تذوق الحياة وتلقي اشاراتها الخفية على هذا الوجه الذي لا يحسن له تحديداً ولا تفسيراً.

لقد أصبح على أتم اليقين أن الكون بما فيه من الناس شيء تافه يبعث السأم، ويهيج الغثيان حين ينفصل عَن نور الله، ولكنه بهذا النور وحده يتحول إلى سمفونية ساحرة. تنشيء الغبطة، وتنبت السعادة، وتفجر الالهام، وتنشر في أعماق البشر روح الأخوة والمحبة والسلام... وانه لادراك لا عهد له بمثله قبل أيام رودس، بل قبل الساعة التي جمعه القدر فيها بشيخ رودس!.

ولكم يؤسف روجيه أن لا يجد في يده أي كتاب عن الاسلام، يفصل له

المزيد من حقائقه، ويجيبه على الكثير من أسئلته!... لقد كانت أيامه في رودس محدودة لا تتسع لكل ما يجب معرفته... إذ كل ما حصل عليه من هناك هو كلمات ذلك الامام التي لا تزال تعمل في قلبه عملها... وتلك المشاهد السلوكية التي تبينها في حياة قومه فعلمته الكثير من فضائل ذلك الدين... لقد أيقظت هذه المؤثرات في كيان روجيه عطش التطلع إلى الحق... فلم يعد قادراً على الاكتفاء بما انتهى إليه، بل قد استحالت مبادىء المعرفة هذه عوالم دفع تحثه أبداً للمزيد من الاستكشاف.

إن شيخ رودس قد وصله بأسس الايمان القائمة على الاقرار بوجود الله واحداً لا شريك له ولا ولد، وبالكتب التي أنزلها على أنبيائه، وبالنشور لأداء الحساب على الأعمال، فلا يضيع سعي مهما يصغر، ولا تغفل ظلامة مهما تستر... ثم بسلطان الله على الكائنات جميعاً بحيث لا يقع في الكون كله شيء إلا وفق قوانينه التي هي صورة العدل المطلق.

وأنه ليستشعر الاطمئنان الكامل إلى هذه الأسس، لأن عقله لا يتصور الانكار لخالق العالم، إلا إذا أمكن العقل أن يتصور إنكار نفسه وما يحس به من حوله.. وهو لم يقتنع قط بأن هذا الخالق يمكن أن يكون له ند أو ولد، ما دام بحقيقته مخالفاً لأجناس الحوادث وما دام كل موجود غيره خاضعاً للعناصر نفسها التي يتألف منها كل مخلوق من سفليات الكون وعلوياته... وأما الايمان بالكتب والنبيين فإنما هو إيمان بوحدة الدين ووحدة الانسانية، ولا سبيل إلى الاسلام إلا عن طريق هاتين الوحدتين. ثم ليس في العقل حقيقة اكبر من النشور والحساب، لأنهما السبيل الوحيد إلى ضبط النفوس البشرية ضمن حدود الفضيلة العليا، ومن ثم إلى تحقيق العدل المطلق الذي كثيراً ما تنصرف النفوس البشرية عن جادته تحت ضغط الأهواء والمنافع الزائلة... وأخيراً أي جدوى من الدين كله لو رفعت سلطة الله عن مخلوقاته؟ أو ترك هذا الكون فوضى لا تضبطه سنة ولا قانون؟.

غير أن هذا كله ـ على جلالة قدره ـ لا يروي ظمأ روحه.. فهو يريد أن يعلم بتفصيل تام أوامر الله ونواهيه، لأنه مستيقن ان الانسان أعجز من أن يعرف طريق الحق الخالص، إذا لم يهتد إلى التعاليم الآلهية التي تحدد له

معالمه... ولا سيما بعد التعقيد الكثيف الذي طمس بـه الانسان دروب الحياة، وكاد يحجب مسالكها عن العقل المجرد.

- ٣ -

وقرأ روجيه ذات يوم نبأ حرك فضوله، نبأ يتحدث عن نشاط مسلم هندي اسمه بشير، يقيم في لاهاي، وقد جعل من داره مركزاً ثقافياً جامعاً، يرتاده أساتذة الجامعات، وطلاب المعرفة... وتدعوه بين الحين والحين بعض جامعات هولندة للمحاضرة في قضايا الاسلام والتعريف بعقائده.

وقد قرأ هذا في صحيفة بلجيكية معروفة بالتعصب، فهي إذن لم تنشر ذلك الخبر خدمة للعلم، أو تقديراً لعمل هذا الهندي، وإنما تريد بذلك إنذار من يهمهم الأمر من دعاة التبشير ورجال الاستشراق ليأخذوا حذرهم بأزاء هذه البادرة غير المأمونة!.

وساورته الرغبة في زيارة ذلك الهندي، وكانت رغبة قويـة لم يستطع مقاومتها، فلم يتردد إلا ريثما أعلن أباه الأمر، ثم قاد سيارته (البويك) عبر الحدود.

ولم يجد صعوبة في العثور على الرجل إذ ألفى بين عملاء أبيه في لاهاي من يعرفه ويشهد مجالسه، فأخذ هذا بيده إليه، وفي منزل الرجل شاهد روجيه كل مظاهر العلم والثقافة العالية، وحسب الزائر أن يلقي نظرة عابرة على تلك الكتب المذهبة، المالئة جدران قاعة الاستقبال، حتى يدرك أنه تلقاء رجل غير عادي، على أنه لم يلبث هناك إلا قليلاً حتى صدمته الخيبة. فعاد إلى أنفرس في اليوم نفسه، وفي صدره شعور موجع بمرارة الاخفاق!.

لقد عبر الحدود إلى لاهاي وفي نفسه لهفة إلى روح كريم، يتعهد مشاعره المتوهجة بمدد من الخير الذي قبس أضواءه لأول مرة في رودس... ولكن سرعان ما فقد ذلك الحلم لأنه وجد في لاهاي العلم ولم يجد الروح... وجد رجلاً يملك زمام البلاغة فيرد على كل سؤال، ويجول في كل ميدان، ولكنه يعجـز عن مـلامسـة القلوب الـظمـأى إلى الاطمئنـان والحب![1]

---

(١) كان الرجل قاديانياً من صنايع الاستعمار.

ويغلب على ظن روجيه أن موضع النقص في الرجل إنما يتجلى في غروره بوجه خاص، فهو شديد الثقة بنفسه، قوي الاعتزاز بمعرفته لمذاهب الفلاسفة وأصحاب النحل، يتحدث إلى زائريه في كبرياء الكهنة لا في تواضع الربانيين... وكان هذا وحده كافياً ليملأ نفس روجيه بالنفرة من هذا الانسان، الذي في وسعه أن يعثر بأمثاله في كل مكان من هذا العالم... المترع إلى حلقه بأساطين المنطق المادي ممن لا يستطيعون مجتمعين أن يمنحوه لحظة من الاشراق الروحي الذي هو بحاجة إلى المزيد منه!.

كان روجيه غارقاً في غمرة هذه التصورات، وهو يقود سيارته في شوارع انفوس تجاه متجر أبيه، عندما لمحت عينه ذلك البناء الشرقي الضخم الذي يحمل اسم (مطعم قرطاجنة)... وفي انسياق عفوي وجد نفسه يميل إلى ساحة المطعم ليقف سيارته. ثم يعرج إلى داخله ليأخذ كأساً من الشاي المبرد... وعندما همّ بمغادرة المطعم خالجته فكرة فاقترب من صاحبه التونسي ليجري معه ـ بعد تردد خجول ـ هذا الحوار:

ـ أنت مسلم...؟.

ـ طبعاً... والحمد لله!.

ـ ألا تعرف مركزاً أو جماعة يعملون لعرض الاسلام في هذه البلاد؟.

وأطرق التونسي ملياً قبل أن يجيب على سؤال روجيه هذا. ثم قال:

وهل لي أن أعلم الباعث لسؤالك؟.

ـ انها رغبة خالصة في تعرف هذا الدين.

ـ هل قرأت عنه شيئاً؟.

ـ قليلاً... ولكني اتصلت ببعض أتباعه من سكان رودس، فاستهواني ما رأيت لديهم من فضائله.

ـ إذن فسأرشدك إلى شابين من الشام يدرسان في جامعة بروكسل وأني لأرجو أن تجد لديهما ما ينقصك معرفته عن الاسلام.

وأخذ التونسي يحدد لروجيه الشارع والمنزل والاتجاه. وذكر له رقم الهاتف الذي يوصله بمسكن الشابين، وأشار عليه بكتابته. ولكن الغبطة أعجلت روجيه عن كتابة أي شيء، ومضى إلى سيارته وهو يردد إسم الشارع، ورقم الهاتف واسم الشاب الذي لقنه إياه.. واستمر على ذلك حتى دخل بروكسل، غير أنه ما كاد يغيب في زحامها حتى فقدت ذاكرته كل علامة ورقم واسم، وراح يدور كاللولب في دائرة مغلقة على غير هدى أو تعيين.. وكان مستحيلاً أن يستعين بأحد لمعرفة ما يريد، ما دام هو نفسه لا يملك أي اشارة تساعد على تعيين ما يريد!.

وبعد تجوال طويل وقف سيارته في زاوية أحد المفارق من شارع (١٠ فيلان ١٩)، وفي نيته أن يتصل بهاتف المطعم، ليستعيد من صاحبه التونسي صورة المكان ورقم الهاتف... وبينما هو متجه ناحية المكتبة المجاورة لاستعمال هاتفها إذا هو بفتى يغادرها، وفي سمرته الجذابة هويته العربية... فجمد قليلاً يتبين ملامحه، كأنه يستعيد بعض الصفات التي سمعها من صاحب المطعم... ورأى الفتى يبتسم له ثم يحييه، فلم يتمالك أن دنا منه، ثم صافحه كأنه صديق قديم، وقال في أدب بالغ:

«إنني أفتش عن فتيين من الشام يدرسان في جامعة بروكسل. وكنت أردد قبل قليل اسم أحدهما، غير أنني نسيته في زحام الشوارع ونسيت معه صورة المسكن الذي ينزلانه!!».

فابتسم الفتى مجدداً.. وقال: «... وأنا شامي... فلعلي أستطيع مساعدتك على الاجتماع بمن تقصد... ألا تذكر بعض حروف الاسم الذي أضعته؟».

- بلى... أنه أ... أ... «الحرف الذي ليس في لغة الأوربيين».

- حرف العين!. عدنان مثلاً؟..

وصاح روجيه بمثل فرحة الانسان الذي استرد مفقوداً عزيزاً:

- أدنان!... هو نفسه.

- وأنا أيضاً اسمي عدنان.

ومرة أخرى يحدق روجيه في وجه الفتى... وفي نشوة آسرة جعل يهز يده بكلتا راحتيه وهو يقول: «يجب أن تكونه.. أنك هو حتماً!».

وضحك عدنان مشاركة للفتى... وقال: أرجو أن أكونه... فلنمضِ إذن إلى المسكن... أنه قريب... في هذه البناية المقابلة.

- ٤ -

لم يراود روجيه أي شعور بالغربة وهو يلج مع عدنان مدخل الدورِ العلوي بل لقد صعد الدرج الحجري الأنيق يده في يده كأن بينهما وداً قديماً، يسقط معه كل تكليف، ولما صارا إلى قاعة الاستقبال راح يصافح الحضور بالروح نفسها التي دخل بها المنزل.

وقدم عدنان إليه كلا من هؤلاء باسمه وجنسيته: هذا أخي محمد يستعد لاجازة الدكتوراه في الكيمياء والصيدلة. وهذا السيد... عامل من لاجئي الالبان الهاربين بدينهم من الشيوعية، وهذه هدى أخت لنا في الله، فرنسية الأصل بلجيكية المولد. قد شرح الله صدرها للاسلام، وهذه الأخت فاطمة ابنة سفير السنغال، وهذه أخت لنا أخرى أندونيسية واسمها فاطمة أيضاً».

وأخذ روجيه محله في المقعد الذي أخلي له في صدر القاعة. وهنا قدم نفسه للجميع بهذه الكلمات البسيطة روجيه بن... تاجر الأدوات الكهربائية في شارع... من انفرس.. أساعد والدي في تجارته، ولكن مشغلتي الكبرى في هذه الأيام البحث عن الحق.

وجواباً على بعض الاستيضاحات قص روجيه على الجماعة حكايته في ايجاز بليغ ثم قال: أني في التاسعة عشرة من سني الزمن، ولكن حياتي الروحية والعقلية لم تبدأ إلا منذ ربيع العام الفائت منذ أيام رودس... التي قدحت في صدري جذوة القلق... فأصبحت ثائر الشوق مرهف الشعور إلى حد لا أجد معه قراراً.

ولم ينس أن يحدثهم عن سفره إلى لاهاي، والخيبة التي مني بها هناك حتى هداه القدر إلى سؤال التونسي صاحب مطعم قرطاجنة... وختم ذلك بقوله:

لقد بت على يقين أن يداً خفية تقود خطاي إلى مواطن الخير الذي أنا بحاجة اليه، ولعل عثوري ـ بعد يأس ـ بمقركم هذا من طلائع التوفيق إلى هـذا الخير. . . «وتصاعدت أصوات الحضور في انسجام حنون: إن شاء الله»!

وكان كل ما في القاعة مساعداً على التركيز حـول الهدف الـروحي الأعلى: الكتب المرصوفة على النضد النصفي، والمصحف في غلافه الحريري الشرقي ذي الوشي المذهب معلقاً في صدر القاعة. . . وبجواره تلك القطعة الفنية الأنيقة مرسوماً على جانب منها بخط عـربي ساحـر آية من القـرآن الكريم، وعلى جانب آخر ترجمتها الفرنسية التي تعني (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم).

وليست مظاهر الحضور دون ذلك كله إيحاء. . . ولا سيما أولئك النسوة الثلاث اللواتي أضفين على المجلس فيضاً من المعاني الساميـة ضاعف من روعته. . . ولقد وجد روجيه نفسه مدفوعاً إلى التفكير بهؤلاء النسوة ما يوحيه منظرهن. . . اكثر من أي شيء يتعلق بأولئك الحضور من الرجال.

إن أول ما لفت نظره منهن تلك الوجوه الملائكية التي خلت من كل أثر للصنعة، فبدت نسيج وحدها، في بلاد تحرم حضارتها على وجه الأنثى أن يواجه الناس بصورته الطبيعية. . ثم أرديتهن السابغة التي تشبه إلى حد بعيد أردية الرواهب الكاثوليكيات. . . لا تكشف منهن أي جزء خـارج حدود الوجه والكفين. وهي ظاهرة قد تكون مألوفة بالنسبة للأندونوسية والسنغالية بوجه خاص، بما حملتاه من تقاليد.

ولكنها شيء لا يصدق بالنسبة إلى تلك الفرنسية التي سلخت الأربعين من السنين في مجتمع يعتبر التبرج، بل التعري، أول معالم الأنوثة الراقية!.

وطبيعي أن يعجب روجيه لهذه المظاهر الغريبة في محيطه، ولكن عجبه لم يكن ليحجب عن وعيه موطن العبـرة. . . فقد تحقق لـديه حتى الآن أن الاسلام نظام كامل متميز، لا يأتلف مع التلفيق والترقيع، يصفي النفس من كل انحراف عن الله، ويؤلف بينها وبين تعاليمه، حتى يصبحا معاً وحدة لا سبيل إلى تجزئتها. . وبذلك يكون اعتناق الاسلام نقطة البدء في هجرة تامة

من عالم إلى عالم... من عالم الظلام الذي تمحى فيه معالم الحقائق وينتهي السالك فيه إلى الضياع، إلى عالم النور الذي وضع فيه كل شيء وفق قوانين الفطرة، فكل سالك في ضوئه موقن أنه على بينة من ربه... وليس هذا التستر الذي يشهده الساعة في ثياب هذه الفرنسية، إلا توكيداً لهذه الحقيقة، حقيقة الهجرة إلى فضائل الاسلام وهي بذلك تقرر لكل ناظر فلسفة هذا الدين، من حيث نظره إلى المرأة ككيان انساني كامل، عليها من المسؤولية نحو المجتمع مثل الذي على أخيها الرجل، وذلك على النقيض من هذه الحضارة الأوربية التي زيفت طبيعة الانسان، حتى جعلت من المرأة أداة للتسلية الفاجرة، فشغلت الرجل عن مواهبها وفضائلها بماعرته لعينه من جسدها ومفاتنها!.

وشيء آخر لا يقل عن ذلك أثراً في قلب روجيه... أنه الانسجام الذي يطالعه بين هذه الأجناس التي يتألف منها مجتمع القاعة... ان هنا الأسود والأبيض، والأصفر، في وحدة أخوية لا يشوبها شيء مما يجيش به مجتمع البيض خارج هذا المكان... وهي صورة طالما غُذي بالنفور منها، بعد أن اقتنع بنظرية (مونتسكيو) التي تؤكد أن الله قد حمل الجنس الأبيض رسالته إلى الأرض، فهو وحده الجنس السيد، أما الآخرون فلا يعدون منزلة الحيوانات والحشرات كل مهمتهم خدمة البيض، وتوفير الوسائل المحققة لهناءتهم، حتى إذا ما فاضوا عن حاجتهم كان من حق السادة أن يتخذوا الوسائل الممكنة للتقليل من وجودهم إلى الحد الضروري كما صنع رجال الدين المسيحي في هنود أمريكا، إذ قتلوا الكثير منهم بواسطة الحصبة التي قدموا اليهم جراثيمها في الأعطية الموبوءة!.

أجل... انه لانسجام مدهش... ومخالف لكل ما قرأه روجيه وما لقنه، ولكنه ـ على غرابته ـ أصبح شيئاً مقبولاً في قلبه الذي بات فريسة للارتياب في كل ما جاءه عن طريق هؤلاء الأوربيين من فلاسفة أو رجال دين!.

ـ ٥ ـ

وتناول الدكتور محمد الحديث فقال موجهاً الكلام إلى الضيف:

اليوم الاثنين... وهو موعدنا الأسبوعي لقراءة بعض ما ينبغي معرفته عن الاسلام... وما يفتريه خصومه من المبشرين والمستشرقين وموضوعنا الآن حول النبوة في كتاب (الوحي المحمدي) المترجم إلى الفرنسية... ولكنه لا بأس أن نؤخر هذه الحصة إذا شئت لنجعل منها فرصة لما عندك من الاستيضاحات... فلعلنا واصلون بالتعاون إلى الخير الذي افتقدته عن ذلك (القادياني) في لاهاي!. وشكر روجيه للمتكلم اهتمامه واخوانه... وأعلن أن حاجته لا تنحصر في سؤال أو جواب، ولكنها واسعة تتطلب الالمام بكل ما أمكن الالمام به من حقائق هذا الدين. ولا شك أن موضوع الوحي من أوليات هذه الحقائق لأنه من الغوامض التي قلما يعيها العقل الأوربي المحبوس في نطاق المادة!. ولهذا فهو يؤثر الآن المشاركة في الاستماع إلى ذلك البحث.

ولقد كان البحث شائقاً وممتعاً تناول موضوع (الوحي) الآلهي بطريقة لا تدع مجالاً للريبة في حقيقته، إذ تعتمد بالدرجة الأولى على موازين الفطرة الانسانية بكل ما فيها من قوى الفكر والحدس والتخيل، حتى ليحس السامع والقارىء أنهما يتحدثان إلى نفسيهما من خلال البحث نفسه، فلا يلبثان أن يستروحا نفحات الاطمئنان، ثم يخرجا من الحديث وقد أيقنا أن الوحي الآلهي إلى محمد واخوانه من سابقي الأنبياء إنما يمثل ذروة الشرف بالنسبة إلى الجنس البشري، لأنه المظهر الأسمى لعناية الله به، ورعايته لمصالحه، واهتمامه بهدايته.

وعلى الرغم من قوة المؤلف في عرض الموضوع، لم يشأ القوم أن يتلقوا بالاستسلام بل كانت الخطة أن يقرأ أحدهم البحث، ثم يعمد آخر إلى تقسيم فقراته وفق الفكر الرئيسية، ثم يأخذون في مناقشتها جزءاً جزءاً.

وكان الباب مفتوحاً لكل مستوضح... فلم يحجمهم روجيه عن اقتحامه بما خالجه من تساؤلات لم تخل من الفائدة.

ولما آذنت حصة البحث بالانتهاء نهض الحضور ليؤدوا صلاة العصر في جماعة، وخيَّره الدكتور بين أن يستريح قليلاً بانتظارهم، أو ينتقل معهم إلى القاعة الأخرى ليشهد صلاتهم، ولكن روجيه لم يستطع إلا أن يعرب للدكتور عن شوقه الحار إلى مشاركتهم في تلك العبادة التي طالما شهدها في رودس

فاستهوت لبه، وأسرت قلبه.

وهنا أفتر ثغر الدكتور عن ابتسامة سعيدة وقال لروجيه: «... ذلك حق كل انسان عندما يقتنع بحقائق هذا الدين».

فقال روجيه في حماسة لم يطق كتمانها: «... انني مقتنع... فما السبيل إلى إعلان هذا الاقتناع؟».

- الشهادتان... ثم تغتسل وبذلك تتهيأ للدخول في الصلاة... التي لا تصلح إلا مع الطهارة.

وسرت رعشة بارزة في جسد روجيه... ثم نظر إلى محدثه بعينين تتوهجان بروعة الحزن، ومضى يقول: «أود لو أستطيع ذلك لفوري فأنني لأخشى أن يدركني الأجل وأنا على هذه الحال!».

وخرجت كلماته هذه في غصة مؤثرة، لم تلبث أن هزت أعصاب الحضور جميعاً، فإذا هي تلهب مشاعرهم، وتفجر في أعماقهم منابع الغبطة، حتى غلبت بعضهم دموعه، فراح يذرفها في صمت وخشوع.

ولم يجد محمد في لسانه القدرة على الكلام في هذا الجو المشحون بالانفعال، فاكتفى بأن تأبط ذراع روجيه، ثم مضى به نحو حمام المنزل وفي جهد استطاع أن يقول له وهو يمسح جفونه: «تستطيع أن تستحم، وسآتيك بثوبين داخليين طاهرين... ولسوف تجدنا بانتظارك للصلاة».

وفي تلك القاعة التي طالما ضمت صفوف المصلين، والمتهجدين... أعلن روجيه اسلامه على مسمع من شهود جمعتهم أخوة الاسلام، من مختلف أقطار الدنيا وأجناسها... واختار لنفسه اسم (إسماعيل) جد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم أخذ مكانه من الصف، في أول صلاة قام بها لله، على نحو من الخشوع لم يحلم بمثله قبل اليوم.

صلة الأرحام والكمال النفسي

إن الاسلام دين متكامل يعالج جميع النواحي الحياتية معالجة جذرية معالجة لا تشبه معالجات الفلاسفة وعلماء النفس المحدثين في شيء، ذلك لأن ما يسنه هؤلاء، وما يقترحونه إنما هو بشري حالك، تنم عن نفس صاحب النظرية. ونفوس الفلاسفة وعلماء الاجتماع أو علماء النفس نفوس ناقصة وإن سموا أنفسهم فلاسفة وحملوا ألقاباً مختلفة ومنحوا لقب الدكتوراه لتلاميذهم خريجي الجامعات.

فالنفس الناقصة لا يترشح منها إلا شيء ناقص مبتور، كيف لا تكون هذه النفوس ناقصة، وهي تحلل حرمات الله في أرضه: بسكر أو فسق أو فجور أو أكل الربا أو الحرام أو إفساد في الأرض ﴿والله لا يحب الفساد﴾[1]. كيف لا تكون هذه النفوس بعيدة عن الله وهي تتبع الهوى: ﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾[2].

لذلك: كان من فضل الله على البشر أن لا يتركهم وشأنهم يملي عليهم دساتير الكمال! (هذا الكمال الناقص أو المفسد) من هم على شاكلتهم من حيث النقص، وإن دعوا على لسان البعض: فلاسفة وعلماء... الخ «فأرسل رسولاً ليزيل به علتهم»[3]: يملي عليهم دساتير الكمال، تلك الدساتير التي لا شائبة فيها ولا نقص، لأنها جاءت من عين صافية وضاءة، جاءت من وراء الحجب، جاءت من جانب الله تعالى على لسان أنبيائه (ع).

يقول (هوكنج) أستاذ الفلسفة بجامعة (هارفرد) في كتابه: روح السياسة

(١) سورة البقرة: ٢٠٥.

(٢) سورة النجم: ٢٣.

(٣) من كلام لعلي عليه السلام.

العالمية: «إن سبيل تقدم الممالك الاسلامية ليس في إتخاذ الأساليب الغربية التي تدعي أن الدين ليس له أن يقول شيئاً عن حياة الفرد اليومية وعن القانون والنظم السماوية، وإنما يجب أن يجد المرء في الدين مصدراً للنمو والتقدم».

وقد شبه غوته (كوته) شاعر ألمانيا الشهير الدين الاسلامي بالنبع الذي تدفق فشكل النهر الكبير وبعد ذلك صبَّ في البحر الواسع: الأوقيانوس.

وقد قال العلامة (سانتيلانا): «إن في الفقه الاسلامي ما يكفي المسلمين في تشريعهم المدني إن لم نقل أن ما فيه يكفي الانسانية كلها».

ومن جملة تلك الدساتير أو سنن الكمال: صلة الأرحام، ذلك لأن الاسلام دين اجتماعي وليس بدين إنزواء ورهبنة، دين يريد من الناس أن يتقربوا بعضهم من بعض، بالمعونة والمساعدة والألفة والتحابب والتعاطف.

ولا مراء أن كل مجتمع مؤلف من عوائل، والعائلة مؤلفة من الأرحام والأقارب، فلو كانت العلاقات بين أفراد العائلة علاقات متينة على أساس الحب والولاء والمحبة سعدت هذه العائلة في الدنيا وبسعادتها تسعد الأمة إذ لا مفهوم للأمة عدا أنها مؤلفة من عوائل عدة وأسر متعددة، فبسعادة هذه الأسر تسعد الأمة وبشقائها تشقى.

لذلك حثّ الدين الاسلامي على صلة الأرحام وجعل ذلك من أفضل القربات، وذلك بقوله جل من قائل: ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾. فذكر الله جل جلاله لفظ الأرحام بعد اسم الجلالة مباشرة لما هنالك من خطورة فائقة.

فالله تبارك وتعالى يأمرنا أن نتقي الله في قطيعة الأرحام. فالمراد بالتساؤل في قوله تعالى: ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾ سؤالُ بعض الناس بعضاً بالله، يقول أحدهم لصاحبه: أسألك بالله أن تفعل كذا وكذا. فكما يجب أن نتقي الله تبارك وتعالى في أعمالنا كذلك يجب أن نتقي الله في قطيعة الرحم: بأن لا نقطعها وأن نصلها بأنواع المحبة والمودة والتزاور والتعاطف.

فقد قال رسول الله (ص): من ضمن لي واحدة ضمنت له أربعة يصل رحمه. فيحبه الله ويوسع عليه في رزقه ويزيد في عمره ويدخله الجنة التي وعده.

وقد قال رسول الله (ص): «صلوا أرحامكم ولو بالسلام عليهم».

وقال (ص): الرحم إذا وصلت ثم قطعت قطعها الله.

وقال (ص): بلوا أرحامكم ولو بالسلام.

وقال (ص): برّ الوالدين وصلة الرحم يهونان الحساب.

وقال (ص): حسنوا أخلاقكم والطفوا بجيرانكم وأكرموا نساءكم تدخلوا الجنة بغير حساب[1].

وقال (ص): صلة الأرحام وحسن الجوار زيادة في الأموال.

* * *

ثم أنه تعالى يقول: ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾[2]. فجعل (الاحسان بالوالدين) في المرتبة الثانية، أي بعد عبادته تعالى وتقديسه وتوحيده.

فإذا كان للوالدين هذا المقام الرفيع فيجب أن يكون لمن يتصل بهما من اخوان واخوات وجدود وجدات وأعمام وعمات وأخوال وخالات وغيرهم من الأرحام مقام يناسبهم. فالعطف عليهم والقيام بخدمتهم خدمة للوالدين وموجب لادخال السرور عليهما. كل ذلك لما للوالدين من حق كبير على الأولاد. فلا يمكن أن يؤدى شكر هذا الحق إلا بخدمة الأرحام خدمة صادقة. لذلك جاء في خبر عن الرسول (ص): «نظر الولد إلى والديه حباً لهما عبادة»، ذلك لأن هذا الحب الذي ملؤه الاخلاص والولاء مقرّب العبد إلى الله، وكل ما يقرب العبد إلى الله عمل عبادي.

* * *

---

(١) ذكرت هذا الحديث في غير محله لأهميته.

(٢) سورة الاسراء: ٢٣.

وفي حديث آخر: «ووالديك فبرّهما وأطعهما حيين وميتين. فان أمراك أن تخرج من أهلك ومالِك فافعلَ. فان ذلك من الايمانَ».

فعلى الانسان أن يبر والديه حيين كانا أم ميتين. وأن يطعهما كذلك، فالبر بهما حيين هو إطاعتهما والقيام بشؤونهما وتحقيق آمالهما المشروعة.

حتى ان الله تعالى أمرنا أن نصاحبهما في الدنيا بالمعروف وان امرانا بالشرك بالله تعالى، لا سمح الله. ﴿وإن جاهداك على ان تشرك بي ما ليس لك به علم، فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً، واتبع سبيل من أناب إليّ﴾[1]. ومعلوم أنه لا ظلم أشد من الشرك بالله، وان الله قد يغفر لعباده ذنوباً عظاماً، ولكنه لا يغفر لمن يشرك به أبداً. وهو القائل: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾[2]. ذلك لأن الشرك يضاد الفطرة ويخالفها لما جبل عليه الانسان من توحيد الله. فـ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾[3] وما يشرك بالله إلا من أمسى جرثومة فساد وإفساد وعصارة الشرَ والبغي والظلم مع نفس متحجرة، مدلهمة، لا تصلحها إلا النار! وهيهات أن تصلح وإن خلد في السعير.

والبر بالوالدين ميتين، هو التصدق عنهما والاستغفار لهما وتلاوة القرآن على مرقديهما وسورة الفاتحة والاخلاص كذلك، وكذلك تلاوة القرآن في أوقات مختلفة وجعل ثوابها على روحيهما.

فقد قال رسول الله (ص): «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا عن ثلاث، صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له».

يقال: قد مرّ عيسى (ع) بقبر، فرأى بنظر النبوة: أن من فيه يُعذب، ثم مرّ بعد سنة على ذلك القبر فرأى من فيه قد رفع عنه العذاب. فسأل الله تعالى عن السبب، فجاءه الوحي: أن ولد هذا الرجل قد سوى طريقاً وأكسى يتيماً، فرفع الله العذاب عن والده.

---

(١) سورة لقمان: ١٥.

(٢) سورة النساء: ٤٨.

(٣) سورة لقمان: ١٣.

وكم يرى الناس الآباء والأمهات في منامهم بعد وفاتهم وهم يطلبون إلى أبنائهم وبناتهم أن يتصدقوا عنهم أو يقوموا بعمل عبادي ليرفع عنهم العذاب.

ويقال عن مغنية كانت قد توفيت قبل أمها، تأتي في منام أمها تلتمس أن تشتري جميع الأسطوانات التي تخص صوتها وتحرقها جميعاً، لأنها تعذب، كلما خرج صوتها في آلة المكرامافون أو غيرها.

وإن كثيراً من الناس يحفظون كثيراً من هذه الاحلام واستغاثة الموتى بالأحياء لقيام الاحياء بعمل. لعل الله تعالى يرفع عنهم العذاب في عالم البرزخ، وقد ذكرت بعضها في الجزء الثالث من هذا الكتاب.

وأني أذكر هنا من تلك الأحلام حلماً واحداً:

كان لي صديق من الأخيار رحمه الله، وقد توفى صديق له، وان هذا الصديق الحي كان يقرأ كل يوم بالنيابة عن صديقه المتوفي (زيارة عاشوراء). ويجعل ثواب ذلك على روح صديقه. ثم أنه ترك هذا العمل أياماً، فجاءه صديقه المتوفي في منامه كئيباً حزيناً معاتباً، يلتمسه أن يثابر على عمله وان لا ينقطع عن زيارة عاشوراء بالنيابة عنه، لاحتياجه الشديد إلى هذا العمل العبادي المكفر عن ذنوبه والرافع عنه العذاب.

وقد نقل لي أحد الأخيار: أنه كلما تعسرت أموره وقتر في رزقه جاء إلى قبر والده يقرأ الفاتحة وسوراً من القرآن، فيفرج الله عنه عاجلاً، ويوسع عليه في رزقه.

* * *

انه تعالى يقول: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى﴾[1].

فالاحسان بالوالدين من الأهمية بمكان. لذلك يذكرهما الله تعالى بعد توحيده وعدم الشرك به. لما لهما من حقوق عظيمة ومقام رفيع.

---

(١) سورة النساء: ٣٦.

وخص الله تعالى حال الشيخوخة بمزيد من الحنو والترفق والاكرام والتوقير، فهي المرحلة التي يجني الوالدان فيها ثمار الكدح ويتوجان بتاج الكفاح ويجزيان جزاء الجهاد والدأب، انه تعالى يقول:

﴿أما يبلغن عندك الكبرَ أحدُهما أو كلاهما، فلا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة، وقل رب أرحمهما كما ربياني صغيراً﴾(١).

وتلك مشاعر الفطرة نحو من لم يشب إحسانهما غرض، ولم يبغيا بجهادهما أجراً، بل بذلا الرعاية الموصولة والحنان الغامر قربة وفطرة فلا أقل من التقدير والعرفان، حفظاً على الوفاء وصيانة للانسانية من آفات الجحود والنكران.

ثم انه تعالى يقول: ﴿وإذا أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى﴾(٢).

فجعل الله تعالى للوالدين حق البر والعطف والرعاية والرحمة واكد هذا الحق بأن قرنه بحقه تعالى.

فإن عقوق الوالدين (أي الاساءة اليهما) وجحد إحسانهما من كبائر الذنوب، إذ هو قرين الشرك بالله تعالى، وإن رضا الوالدين طريق للجنة، فإذا حازه فقد بلغ الغاية وأدرك في الكمال النفسي النهاية.

* * *

ولا بأس بذكر هذا الحديث، لنتعلم منه دستوراً قيماً في خدمة الوالدين.

يقول زكريا بن إبراهيم، قال: كنت نصرانياً، فأسلمت وحججت فدخلت على أبي عبد الله (ع) فقلت: اني كنت على النصرانية واني أسلمت فقال: وأي شيء رأيت في الاسلام؟ قلت: قول الله عز وجل، ﴿ما كنت

(١) سورة الاسراء: ٢٤.
(٢) سورة البقرة: ٨٣.

تدري ما الكتاب ولا الايمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من يشاء﴾. فقال: لقد هداك الله ثم قال: أللهم اهده - ثلاثاً - سل عما شئت يا بنى، فقلت: إن أبي وأمي على النصرانية وأهل بيتي، وأمي مكفوفة البصر، فأكون معهم وآكل في آنيتهم فقال يأكلون لحم الخنزير قلت: لا، ولا يمسونه. فقال: لا بأس. فانظر أمك فبرها. فإذا ماتت فلا تكلها إلى غيرك، كن أنت الذي تقوم بشأنها، ولا تخبرن أحداً أنك أتيتني حتى تأتيني بمنى إن شاء الله.

قال: فأتيته بمنى والناس حوله كأنه معلم صبيان. هذا يسأله وهذا يسأله فلما قدمت الكوفة ألطفت لأمي وكنت أطعمها وأفلي ثوبها ورأسها وأخدمها فقالت لي: يا بني ما كنت تصنع بي هذا وأنت على ديني، فما الذي أرى منك منذ هاجرت فدخلت في الحنيفية، فقلت: رجل من ولد نبينا أمرني بهذا فقالت: هذا الرجل هو نبي؟ فقلت: لا، ولكنه ابن نبي. فقالت: يا بني، إن هذا نبي، إن هذه وصايا الأنبياء. فقلت: يا أمه، انه ليس يكون بعد نبينا نبي، ولكنه ابنه. فقالت: يا بني دينك خير دين، أعرضه علي، فعرضته عليها، فدخلت في الاسلام، وعلمتها فصلت الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة، ثم عرض لها عارض في الليل فقالت: يا بني، أعد عليّ ما علمتني، فأعدته عليها. فأقرت به وماتت فلما أصبحت كان المسلمون الذين غسلوها وكنت أنا الذي صليت عليها ونزلت في قبرها[1].

* * *

وفي حديث آخر عن أبي عبد الله (ع) قال: جاء رجل إلى النبي (ص) فقال: يا رسول الله، من أبرّ؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أباك.

وعن أبي ولاد الحناط قال:

سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله عز وجل: «وبالوالدين إحساناً». ما هذا الاحسان؟ فقال: الاحسان: أن تحسن صحبتهما وان لا تكلفهما ان

---

(١) أصول الكافي. ج: ٢ ص: ١٦٠.

يسألاك شيئاً مما يحتاجان إليه وإن كانا مستغنيين أليس يقول الله عز وجل: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ قال: ثم قال أبو عبد الله (ع): وأما قول الله عز وجل: ﴿أما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما﴾ قال: إن أضجراك فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما إن ضرباك. قال: ﴿وقل لهما قولاً كريماً﴾ قال: إن ضرباك. فقل لهما: غفر الله لكما. فذلك منك قول كريم. قال: ﴿وأخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾. قال: لا تملأ عينيك من النظر إليهما إلا برحمة ورقة، ولا ترفع صوتك فوق أصواتهما ولا يدك فوق أيديهما ولا تتقدم قدامهما[1].

وقد سئل رسول الله (ص) ما حق الوالد على ولده؟ قال: «لا يسميه باسمه، ولا يمشي بين يديه ولا يجلس قبله ولا يستسب له»[2]. . . (أصول الكافي. ج: ٢ ص: ١٥٩).

* * *

ذكر لي أستاذي في الفقه أني زرت الحسين (ع) يوم عرفة، فقلت في نفسي: أزور زيارة عرفة مرة أخرى بالنيابة عن جدي، حتى إذا رجعت إلى النجف الأشرف قال لي أبي: وما الذي قمت به بالأمس؟ قلت: زرت زيارة عرفة بالنيابة عن جدي. فقال: قد رأيت ليلة البارحة جدك في المنام وقد نزل من أعلى جواده وهو يقول: ها إني راجع من حج بيت الله الحرام. فعلمت: أن زيارة عرفة تعادل عند الله من الأجر بقدر حج بيت الله الحرام.

* * *

وعن معمر بن خلاد قال: قلت لأبي الحسن الرضا (ع): أدعو لوالديَّ إذا كانا لا يعرفان الحق؟ قال: أدع لهما. وتصدق عنهما وان كانا حيين لا يعرفان الحق فدارهما، فان رسول الله (ص) قال: «إن الله بعثني بالرحمة لا بالعقوق»[3].

---

(١) أصول الكافي: ج: ٢. ص: ١٥٨.
(٢) أي لا يفعل ما يكون سبباً لسب الناس له ولوالديه.
(٣) أصول الكافي: ج ٢ ص: ١٦٠.

وعن جابر عن أبي عبد الله (ع) قال: أتى رجل رسول الله (ص) فقال: يا رسول الله اني راغب في الجهاد نشيط. قال: فقال له النبي (ص): فجاهد في سبيل الله، فأنك إن تقتل تكن حياً عند الله ترزق. وإن تمت فقد وقع أجرك على الله، وإن رجعت رجعت من الذنوب كما وُلدت، قال يا رسول الله: إن لي والدين كبيرين يزعمان أنهما يأنسان بي ويكرهان خروجي. فقال رسول الله (ص): فقر مع والديك، فوالذي نفسي بيده لأنسهما بك يوماً وليلة خير من جهاد سنة»[1].

عن عمار بن حيان، قال: خبرت أبا عبد الله ببر إسماعيل ابني بي فقال: لقد كنت أحبه وقد ازددت له حباً. ان رسول الله (ص) أتته أخت له من الرضاعة[2] فلما نظر اليها سرّ بها وبسط ملحفته لها، فأجلسها عليها ثم أقبل يحدثها ويضحك في وجهها، ثم قامت وذهبت وجاء أخوها، فلم يصنع به ما صنع بها. فقيل له: يا رسول الله صنعت بأخته ما لم تصنع به وهو رجل؟ فقال: «لأنها كانت أبرّ بوالديها»[3].

وفي أصول الكافي عن عنبسة بن مصعب عن أبي جعفر (ع) قال: ثلاث لم يجعل الله عز وجل لأحد فيهن رخصة: أداء الامانة إلى البر والفاجر، والوفاء بالعهد للبر والفاجر، وبر الوالدين برين كانا أو فاجرين»[4].

وقد قال أبو عبد الله (ع): من السنة والبر أن يكنى الرجل باسم أبيه»[5]

وعن أبي عبد الله (ع) قال: جاء رجل وسأل النبي (ص): من برّ الوالدين، فقال: إبرر أمك، إبرر أمك، إبرر أمك، إبرر أباك، إبرر أباك، إبرر أباك، ويدأ بالأم قبل الأب[6].

---

(١) أصول الكافي: ج ٢ ص: ١٦٠.
(٢) أخته وأخوه صلى الله عليه وآله من الرضاعة هما ولدا حليمة السعدية.
(٣) أصول الكافي: ج: ٢ ص: ١٦١.
(٤) أصول الكافي: ج: ٢ ص: ١٦٢.
(٥) أصول الكافي: ج ٢ ص: ١٦٢.
(٦) أصول الكافي: ج ٢ ص: ١٦٢.

وقد قال رسول الله (ص): «كن باراً واقصر على الجنة، وإن كنت عاقاً فاقصر على النار»[1].

وقد قال أبو جعفر (ع) قال رسول الله (ص) في كلام له: «إياكم وعقوق الوالدين. فان ريح الجنة توجد من مسيرة ألف عام، ولا يجدها عاق ولا قاطع رحم ولا شيخ زانٍ ولا جار أزاره خيلاء، إنما الكبرياء لله رب العالمين» وقال أيضاً: «من أصبح مسخطاً لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى النار»[2].

وقد قال الصادق (ع): من نظر إلى أبويه نظر ماقت وهما ظالمان له لم يقبل الله له صلاة[3].

وقال الصادق (ع): إذا كان يوم القيامة كشف غطاء من أغطية الجنة، فوجد ريحها من كانت له روح من مسيرة خمسمائة عام إلا صنفاً واحداً، فقيل له: من هم؟ قال: العاق لوالديه.[4]

وقال (ع): لو علم الله شيئاً هو أدنى من أفّ، لنهى عنه وهو من أدنى العقوق. ومن العقوق أن ينظر الرجل إلى والديه فيحد النظر إليهما.

وفي حديث قدسي: «بعزتي وجلالي وارتفاع مكاني لو أن العاق لوالديه يعمل بأعمال الأنبياء جميعاً لم أقبلها منه».

وروي أيضاً: «إن أول ما كتب الله في اللوح المحفوظ أني أنا الله لا إله إلا أنا، من رضي عنه والداه فأنا منه راض، ومن سخط عليه والداه فأنا عليه ساخط»[5]

وقد ورد عن رسول الله (ص) أنه قال: «كل المسلمين يروني يوم القيامة إلا عاق الوالدين وشارب الخمر ومن سمع اسمي ولم يصلِّ عليّ».

(١) عق الولد والده: عصاه وترك الشفقة عليه والاحسان إليه واستخف به فهو عق وعاق.
(٢) جامع السعادات ج ٢ ص ٢٥٧.
(٣) جامع السعادات ج ٢ ص ٢٥٧.
(٤) جامع السعادات ج ٢ ص ٢٥٨.
(٥) جامع السعادات ج ٢ ص ٢٥٨.

كما أنه ثبت من الأخبار والتجارب أن دعاء الوالد على ولـده لا يرد ويستجاب البتة[1].

وفي الأخبار أن من لا ترضى عنه أمه تشتد عليه سكرات الموت وعذاب القبر، وقد يموت كافراً.

فقد ورد أن رجلاً قد حضرته الوفاة، فلقن الشهادتين، فأبى أن يقر بهما. فأخبر رسول الله (ص) بذلك. فقال (ص) أحضروا لي أمه فأحضرت بين يدي رسول الله (ص) فقال لها (ص) هل بينك وبين ولدك شيء؟ قالت: ان ولدي كان يداريني ويحسن إلي ويتفقدني حتى إذا تزوج تركني ولفظني ولم يسأل عني. فقال رسول الله (ص) يا بلال احضر الحطب واضرم فيه النار. فقالت الأم، لم يا رسول الله فقال (ص) حتى أريك كيف يحرق ولدك إذا مات وأنت غير راضية عنه. فقالت: أشهد الله ورسوله وملائكته أني قد رضيت عنه. فقال رسول الله (ص) يا بلال، إذهب ولقنه الشهادتين. فذهب بلال ولقنه الشهادتين، وإذا به يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله[2].

وقال رسول الله (ص) رضا الله مع رضا الوالدين، وسخط الله مع سخط الوالدين[3].

وقال (ص): ما من ولد بار ينظر إلى والديه نظر رحمة إلا كان له بكل نظرة حجة مبرورة، قالوا يا رسول الله، وإن نظر كل يوم مائة مرة؟ قال: نعم، الله أكبر وأطيب.

وقال رسول الله (ص): من بر والديه زاد الله في عمره.

وقال الصادق (ع): من أحب أن يخفف الله عنه سكرات الموت فليكن بقرابته وصولاً وبوالديه باراً، فإذا كان كذلك هون الله عليه سكرات الموت ولم يصبه في حياته فقر أبداً.

---

(١) جامع السعادات ج ٢ ص ٢٥٨.

(٢) من كتاب محمد المثل الكامل، بتصرف.

(٣) من كتاب مصابيح الهداية للسيد عبد الحسين الحائري ج ٢ ص ٦٨.

وعن الباقر (ع) قال: سئل رسول الله (ص) من أعظم حقاً على الرجل؟ قال: والداه.

* * *

وقد قال رسول الله (ص): بر الوالدين أفضل من الصلاة والصوم والحج والعمرة والجهاد في سبيل الله[1].

وقال (ص) من أصبح مرضياً لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة[2].

وقد ورد أن رجلاً أتى النبي (ص) فقال يا رسول الله أوصني فقال: «لا تشرك بالله شيئاً وإن حرقت بالنار وعذبت إلا وقلبك مطمئن بالايمان ووالديك فأطعمهما وبرهما حيين كانا أو ميتين، وإن أمراك أن تخرج من اهلك ومالك فافعل، فان ذلك من الايمان»[3].

* * *

انه تعالى يقول: ﴿ووصينا الانسان بوالديه، حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين، أن أشكر لي ولوالديك إلي المصير﴾... سورة لقمان: ١٤.

وفي آية أخرى: ﴿ووصينا الانسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً، وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾... سورة الأحقاف: ١٥.

إن الولد جزء من الأم حملته في الأحشاء وغذته من الغذاء، فلما خرج إلى الدنيا حضنته وسهرت عليه وربطت حياتها به، تتحمل الأثقال وتنهض بالأحمال عن رضا وفرحة، فهل يسوغ أن يذهل الانسان عن تلك المضحية من أجله، المنهكة في سبيله. فقد جاء في الحديث: «الجنة تحت أقدام الأمهات».

---

(١) جامع السعادات ج ٢ ص ٢٥٩.

(٢) نفس المصدر.

(٣) ذكرنا هذا الحديث من جامع السعادات ج ٢ ص ٢٥٩ بشكل آخر لما فيه من زيادة.

إن إطاعة الوالدين واجبة وطلب رضاهم حتم، فيجب أن لا يرتكب الولد شيئاً من المباحات والمستحبات بدون اذنهما. حتى أن الفقهاء قد أفتوا أنه لا يجوز السفر لطلب العلم إلا باذن الوالدين، ويستثنى من ذلك سفر الولد لطلب علم الفرائض من الصلاة والصوم وأصول العقائد إذا لم يكن في بلده من يعلمه.

وروي أن رجلاً هاجر من اليمن إلى رسول الله (ص) وأراد الجهاد. فقال له رسول الله (ص): «إرجع إلى أبويك، فاستأذنهما، فإن أذنا فجاهد، وإلا فبرهما ما استطعت فان ذلك خير مما كلف به بعد التوحيد». وجاء آخر اليه للجهاد فقال: ألك والدة؟ قال: نعم. قال: فألزمها، فان الجنة تحت قدمها[1]. وجاء آخر وطلب البيعة على الهجرة إلى الجهاد قال: ما جئتك حتى أبكيت والديَّ. قال (ص): إرجع اليهما، فأضحكهما كما أبكيتهما».

ويجدر بمن أراد أن يبر والديه بعد موتهما:

١ ـ أن يصلي هذه الصلاة في أوقات فراغه وإن أمكن ففي كل يوم.

وهي ركعتان، يقول في الركعة الأولى بعد الحمد[2] عشر مرات «ربنا[3] اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب».

ويقول في الركعة الثانية بعد الحمد عشر مرات: «رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات».

ويقول بعد التسليم (بعد الانتهاء من صلاته) عشر مرات: «رب ارحمهما كما ربياني صغيراً».

٢ ـ وأن يتصدق عنهما.
٣ ـ وان يقضي ما فاتهما من صلاة وصوم.
٤ ـ وان يقضي ما عليهما من ديون.

---

(١) جامع السعادات ج ٢ ص ٢٦٢.
(٢) سورة الفاتحة.
(٣) في القرآن: ربنا، وفي المفاتيح: رب.

٥ ـ وأن يحج عنهما.
٦ ـ وأن يزور المراقد المتبركة عنهما ويدعو لهما في تلك المشاهد المشرفة وفي صلاة الليل وليالي الجمعة.

فإن فعل ذلك فقد فتح على نفسه أبواب الرحمة والسعادة في النشأتين وختمت أعماله بحسن العاقبة وذلك غاية الغايات.

* * *

إن المدنية الحاضرة لتحجرها وغلبة النزعة المادية عليها باعدت بين الآباء والأبناء، فلا ترى كثير علقة بين الأبناء وآبائهم. وقد لا يجتمع الولد بوالده أو أمه إلا قليلاً، لذلك عمدت بعض الجمعيات الدينية كجمعية الشبان المسيحيين إلى الجمع بين الآباء والأبناء في مجلس واحد وإيجاد التآلف والمحبة بينهم.

وقد رأيت أن مؤسس جمعية الشبان المسيحيين: Y. M. C. A. في أستانبول يفتخر لقيام الجمعية المذكورة بالجمع بين ٤٠٠ ولد ووالد في مجلس واحد. لتقوى أواصر المحبة بينهم.

إن الحياة الميكانيكية المجردة عن الروح والعواطف والمحبة ترجع بالفرد إلى جاهلية جهلاء، بل أشد من ذلك. فلا يشعر الفرد إلا بمنافعه الذاتية ولا يرى وراء المادة شيئاً، والحضارة الحقيقية هي التي تحقق رغبات الروح والجسم في وقت واحد فلا يضحى بالكمال النفسي على حساب عمارة الجسم وتطمين شهواته ونزواته، فـ «حضارة الاسلام» هي الحضارة الحقة لجمعها بين عمارة الروح والبدن في وقت واحد.

صلة الأرحام

إن الله تعالى قد أمر في آيات جمة بصلة الرحم وأكد ذلك رسول الله (ص) في مواضع عدة، ذلك لأن الأسرة أساس المجتمع، فان سعدت الأسرة سعد المجتمع، انه تعالى يقول:

﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى﴾[1]. وفي آية أخرى يقول الله تعالى: ﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرؤون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن. . .﴾[2].

فالله أمرنا في الآية المتقدمة بصلة الرحم. فصلة الرحم واجبة وجوب الصلاة ولا يدخل قاطع الرحم الجنة.

وقال رسول الله (ص): «أوصي الشاهد من أمتي والغائب ومن في أصلاب الرجال وأرحام النساء إلى يوم القيامة أن يصل الرحم وإن كانت منه على مسيرة سنة، فان ذلك من الدين»[3].

وجاء في كتاب أنوار الهداية[4] قال النبي (ص): من مشى إلى ذي قرابة بنفسه في ماله ليصل رحمه أعطاه الله عز وجل أجر مائة شهيد وله بكل خطوة أربعون ألف حسنة ومحى عنه أربعون ألف سيئة. ورفع له من الدرجات مثل ذلك وكأنما عبد الله مائة سنة صابراً محتسباً.

---

(١) سورة النساء: ٣٦.
(٢) سورة الرعد: ٢١ ـ ٢٢.
(٣) جامع السعادات ج ٢ ص ٢٥٤.
(٤) نقلاً عن كتاب: مصابيح الهداية. للسيد عبد الحسين الحائري ج ٢ ص: ٦٩.

وعن الحسين بن علي (ع) أنه قال: من سره أن ينسأ في أجله ويزاد في رزقه فليصل رحمه.

وقال رسول الله (ص): بر الوالدين وصلة الرحم يهونان الحساب ثم تلا: ﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب﴾.

وقال رسول الله (ص): عن جبرائيل عن الله عز وجل قال: «أنا الرحمن، شققت الرحم من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته».

وقال رسول الله (ص) إن أعجل الخير ثواباً صلة الرحم، وقال: «من سره النساء[1] في الأجل والزيادة في الرزق فليصل رحمه». وقال: «إن القوم ليكونون فجرة ولا يكونون بررة. فيصلون أرحامهم فتنمى أعمالهم وتطول أعمارهم، فكيف إذا كانوا أبراراً بررة»[2].

وقال (ص): الصدقة بعشرة. والقرض بثمانية عشر وصلة الاخوان بعشرين، وصلة الرحم بأربعة وعشرين».

سُئل رسول الله (ص) أيّ الناس أفضل؟ فقال: «أتقاهم لله وأوصلهم للرحم، وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر».

وقال (ص): أفضل الفضائل أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك[3].

وقال (ص): «من سرَّه أن يمد الله في عمره وأن يبسط في رزقه، فليصل رحمه، فان الرحم له لسان يوم القيامة ذلق، تقول: يا رب، صِل من وصلني، واقطع من قطعني. فالرجل ليرى بسبيل خير، إذا أتته الرحم التي قطعها فتهوى به إلى أسفل قعر في النار».

---

(١) النساء: طول العمر. نَسأ الله أجله: أخره.
(٢) جامع السعادات ج: ٢ ص: ٢٥٤.
(٣) جامع السعادات ج: ٢ ص: ٢٥٥.

وقال الباقر (ع): «إن الرحم متعلقة يوم القيامة بالعرش تقول: اللهم صِل من وصلني، واقطع من قطعني». وهذا تمثيل للمعقول بالمحسوس وإثبات لحق الرحم على أبلغ وجه، وتعلقها بالعرش كناية عن مطالبة حقها بمشهد الله[1].

وقال (ع): «صلة الأرحام تحسن الخلق وتسمح الكف وتطيب النفس وتزيد في الرزق، وتنسىء الأجل». وقال أيضاً: «صلة الأرحام تزكي الأعمال وتنمي الأموال وتدفع البلوى وتيسر الحساب وتنسيء في الأجل».

وقال الصادق (ع): صلة الرحم والبر ليهونان الحساب ويعصمان من الذنوب، فصلوا أرحامكم وبروا بإخوانكم ولو بحسن السلام ورد الجواب.

وقال عليه السلام: «صلة الرحم تهون الحساب يوم القيامة وهي منسأة في العمر وتقي مصارع السوء» وقال أيضاً: «صلة الرحم وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الأعمار». وقال أيضاً: «ما نعلم شيئاً يزيد في العمر إلا صلة الرحم، حتى أن الرجل يكون أجله ثلاث سنين، فيكون وصولاً للرحم، فيزيد الله في عمره ثلاثين سنة، فيجعلها ثلاثاً وثلاثين، سنة ويكون أجله ثلاثاً وثلاثين سنة... فيكون قاطعاً للرحم، فينقصه الله تعالى ثلاثين سنة ويجعل أجله إلى ثلاث سنين»[2].

وفي أصول الكافي ج ٢ ص: ١٥٠: إن رجلاً أتى النبي (ص) فقال يا رسول الله أهل بيتي أبوا إلا توثباً علي وقطيعة لي وشتيمة، فأرفضهم؟ قال: إذن، يرفضكم الله جميعاً قال فكيف أصنع؟ قال: تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، فأنك إذا فعلت كان لك من الله عليهم ظهير.

وعن أبي الحسن الرضا (ع) قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «صل رحمك ولو بشربة من ماء، وأفضل ما توصل به الرحم كفّ الأذى عنها،

---

(١) جامع السعادات ج: ٢ ص: ٢٥٥.
(٢) جامع السعادات ج: ٢ ص: ٢٥٦.

وصلة الرحم منسأة في الأجل ومحبة في الأهل».

قال أبو ذر رضي الله عنه، سمعت رسول الله (ص) يقول: حافتا الصراط يوم القيامة الرحم والأمانة، فإذا مرّ الوصول المؤدي للأمانة نفذ إلى الجنة، وإذا مرّ الخائن للأمانة القطوع للرحم لم ينفعه معهما عمل وتكفأ به الصراط في النار»[1].

وعن أبي جعفر (ع) قال: قال رسول الله (ص): وإن أعجل الخير ثواباً صلة الرحم.

وعن عبد الله بن سنان، قال: قلت لأبي عبد الله (ع) إن لي ابن عم أصله فيقطعني وأصله فيقطعني، حتى لقد هممت لقطيعته إياي أن أقطعه قال: إنك إذا وصلته وقطعك وصلكما الله جميعاً. وإن قطعته وقطعك قطعكما الله»[2].

وعن داود بن فرقد قال: قال لي أبو عبد الله (ع): اني أحب أن يعلم الله أني قد أذللت رقبتي في رحمي وأني لأبادر أهل بيتي، أصلهم قبل أن يستغنوا عني.

عن عمر بن يزيد قال: سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله عز وجل: الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل فقال: قرابتك.

عن الجهم بن حميد، قال: قلت لأبي عبد الله (ع) تكون لي القرابة على غير أمري. ألهم علي حق؟ قال: نعم، حق الرحم لا يقطعه شيء، وإذا كانوا على أمرك لهم حقان: حق الرحم وحق الاسلام.

وقال أبو عبد الله (ع): صلة الرحم تهون الحساب يوم القيامة وهي منسأة في العمر وتقي مصارع السوء وصدقة الليل تطفيء غضب الرب».

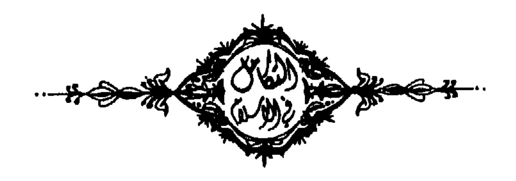
* * *

---

(١) أي تقلب.
(٢) أصول الكافي ج ٢ ص ١٥٦.

ويراد بالرحم مطلق القريب المعروف بالنسب، وإن بعدت النسبة وجاز النكاح، فهذه الرحم يحرم قطعها وتجب صلتها ولو وهب لها شيء لا يجوز الرجوع عنه.

والمراد بقطع الرحم إيذاؤها بالقول والفعل أو منعها مما تحتاج إليه من مسكن وملبس ومأكل مع وجود زيادة عن قدر الحاجة أو عدم دفع ظلم الظالم عنها مع القدرة، أو هجرها غيظاً وحقداً.



قطيعة الرحم

ولنورد ها هنا بعض ما جاء في قطيعة الرحم، فان قطيعة الرحم كما يستفاد من الأخبار والآثار تؤدي إلى قصر العمر والضيق في الرزق وتفكك أواصر الأسرة والتحلل الاجتماعي وان الاسلام يحثه على صلة الرحم والتزاور والتعاطف والتراحم وعيادة المرضى وتشييع الجنائز دين اجتماعي بكل ما في الاجتماع من معنى سام رفيع.

انه تعالى يقول: ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾[1].

وقد قال رسول الله (ص): «أبغض الأعمال إلى الله: الشرك بالله ثم قطيعة الرحم، ثم الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف».

وقال (ص): «لا تقطع رحمك وإن قطعتك».

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام في خطبته: «أعوذ بالله من الذنوب التي تعجل الفناء، فقام إليه عبد الله بن الكوى اليشكري فقال: يا أمير المؤمنين، أوَ تكون ذنوب تعجل الفناء؟ فقال: نعم، ويلك: قطيعة الرحم، إن أهل البيت ليجتمعون ويتواسون وهم فجرة، فيرزقهم الله وأن أهل البيت ليتفرقون ويقطع بعضهم بعضاً فيحرمهم الله وهم اتقياء»[2]. وقال (ع): «إذا قطعوا الأرحام جعلت الأموال في أيدي الأشرار».

(١) سورة الرعد: ٢٥.
(٢) جامع السعادات ج: ٢ ص: ٢٥٣.

وقال الباقر (ع): في كتاب علي صلوات الله عليه، ثلاث خصال: لا يموت صاحبهن أبداً حتى يرى وبالهن: البغي وقطيعة الرحم، واليمين الكاذبة يبارز الله بها، وإن أعجل الطاعات ثواباً لصلة الرحم، ان القوم ليكونون فجاراً، فيتواصلون، فتنمي أموالهم ويثرون. وان اليمين الكاذبة وقطيعة الرحم لتذران الديار بلاقع من أهلها، وتنقل الرحم، وان نقل الرحم انقطاع النسل[1].

وقال الصادق (ع): اتقوا الحالقة[2] فأنها تميت الرجال، قيل: وما الحالقة؟ قال: قطيعة الرحم.

«جاء رجل إليه (ع) فشكى أقاربه فقال له: «اكظم وافعل» فقال: انهم يفعلون ويفعلون. فقال: أتريد أن تكون مثلهم، فلا ينظر الله اليكم».



(١) جامع السعادات ج: ٢ ص: ٢٥٣.
(٢) الحالقة: هي الخصلة التي من ؛ أنها أن تحلق أي تهلك وتستأصل الدين كما يستأصل الموسى الشعر.

أثر صلة الأرحام في الايمان بالله

كان لي صديق شاهدته بعد مدة مديدة، فألفيته قد ترك صلاته وتسبيحه واندمج في العالم الجديد. وصرت أنصحه وأوجهه إلى عالم العبادة والتقوى، إلى عوالم القدس والصفاء. فرأيته ذات يوم في حرم الكاظمين عليهما السلام يصلي، وقال لي: انه يصلي في الأسبوع مرة واحدة يوم الجمعة عند زيارته مرقد الامامين (ع).

ثم زدت في النصيحة له وصرت أقرأ عليه بعض الأشعار العرفانية وشرحت له فلسفة الصلاة وكيف أنها تطهر النفوس وتزيل الأدران، وكيف أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق. وان الانسان لا يصلحه إلا الصلوات الخمس لطرد الشيطان ووساوسه في فترات متقاربة، ولئلا يستفحل أمره، فتتراكم الذنوب ويسوّد القلب، ذلك لأن الذنوب تسد على الانسان أبواب السماء.

دعاني صديقي هذا يوماً إلى طعام الظهر، ذهبت إلى بيته فاستقبلني أخوه قلت: أين أخوك؟ قال: ذهب إلى مسجد قريب، ليصلي صلاة الظهر. ثم أنه حضر بعد دقائق فقال: آليت على نفسي أن لا أتنعم بنعمة من نعم الله إلا وقد أديت واجب الشكر قبلاً.

وعلمت من حاله، أنه كان يأخذ أمه العرجاء كل مساء حاملاً إياها على ظهره إلى السطح العالي وينزلها على ظهره إلى قاعة الدار كل صباح، ويخدمها خدمة صادقة[1] فعلمت أن إيمان الرجل إنما هو نتيجة تلك الخدمة الصادقة نحو أمه العجوز.

---

(١) عن ابراهيم بن شعيب قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ان أبي قد كبر جداً وضعف، فنحن نحمله إذا أراد الحاجة، قال: إن استطعت أن تلي ذلك منه، فافعل ولقمه بيدك «فأنه جنة لك غداً». . . من أصول الكافي ج: ٢ ص: ١٦٢.

عرفت رجلاً كان قد استولت عليه أفكار غربية وكان متأثراً إلى حد بعيد بأخلاق الغرب وعاداته وحضارته المادية وحياته الاجتماعية ويقدرها أيما تقدير. ويرى أن إصلاح الشرق إنما يتم باتباع الغرب في حياته الاجتماعية، ومع ذلك ما كان لينقطع عن صلاته وتلاوة القرآن كل صباح وعن الصوم في شهر رمضان المبارك. فكان مسلماً متطرفاً بعيداً عن كثير من حقائق الاسلام، يجهل الآداب الاسلامية التي فيها حياة القلوب وسعادة الدارين.

ولكن الله تعالى أراد أن يمنّ عليه بتوفيق الهداية، فأتيح له أن قام بخدمة صادقة نحو خالته العجوز، التي كادت أن تصاب بالعمى من جراء رمد شديد. فاهتم اهتماماً بالغاً في شفائها وصرف مبالغ لا يستهان بها وشفيت خالته ونجت من العمى، فرأى الشاب بعد ذلك في نفسه توجهاً عجيباً نحو تفهم الدين الاسلامي من منابعه وتطبيق بعض المستحبات التي فيها جلاء القلوب وتزكية النفوس. وإذا به يقف على مواطن الضعف في الحضارة الغربية المادية ويزيفها بأدلة رصينة من نواح شتى ويتضح له أنها حضارة شهوات ونزوات في جميع المجالات حتى في الكنائس! إنها جاهلية جهلاء بكل ما في الجاهلية من تسافل مرير. أنها جاهلية القرن العشرين جاهلية أشد خطراً على البشر من الجاهلية الأولى من الدور الجاهلي قبل الاسلام.

وقد جاء في الحديث ما مؤداه: أن رجلاً أتى رسول الله (ص) قائلاً يا رسول الله، ما من ذنب إلا وقد ارتكبته فما هو خير عمل أقوم به لكي يغفر الله لي؟.

فقال رسول الله (ص): «هل لك أم، اخدمها يغفر الله لك. قال الرجل: كلا. إنها توفيت. فقال رسول الله: هل لك خالة؟ قال الرجل: نعم. فقال رسول الله: اخدمها، يغفر الله لك.

* * *

هذه دساتير اجتماعية جاءتنا من جانب الله تبارك وتعالى على لسان الرسول والأئمة من بعده عليهم أفضل الصلاة والسلام، لو عمل بها البشر

﴿لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾[1] ولنالوا سعادة النشأتين.

* * *

ولنختم هذا المقال بما جاء في رسالة لمولانا وإمامنا زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام بشأن حق الأم وحق الأب وحق الولد وحق الأخ من الأقارب والأرحام.

يقول عليه السلام: وأما حق أمك: أن تعلم أنها حملتك حيث لا يحتمل أحد أحداً. وأطعمتك من ثمرة قلبها ما لا يطعم أحد أحداً. ووقتك بجميع جوارحها، ولم تبال أن تجوع وتطعمك وتعطش وتسقيك وتعرى وتكسوك وتضحي وتظلك وتهجر النوم لأجلك ووقتك الحر والبرد لتكون لها. وأنك لا تطيق شكرها إلا بعون الله وتوفيقه.

وأما حق أبيك، فأن تعلم أنه أصلك فأنه لولاه لم تكن، فمهما رأيت من نفسك ما يعجبك فاعلم أن أباك أصل النعمة عليك فيه. فاحمد الله واشكره على قدر ذلك ولا قوة إلا بالله.

وأما حق ولدك: فان تعلم أنه منك ومضاف اليك في عاجل الدنيا بخيره وشره. وانك مسؤول عما وليته من حسن الأدب والدلالة على ربه عز وجل والمعونة على طاعته. فاعمل في أمره عمل من يعلم أنه مُثاب على الاحسان اليه ومعاقب على الاساءة إليه.

وأما حق أخيك: فأن تعلم أنه يدك وعزك وقوتك، فلا تتخذه سلماً على معصية الله ولا عدة للظلم لخلق الله ولا تدع نصرته على عدوه والنصيحة له، فان أطاع الله، وإلا فليكن الله أكرم عليك منه، ولا قوة إلا بالله.

* * *

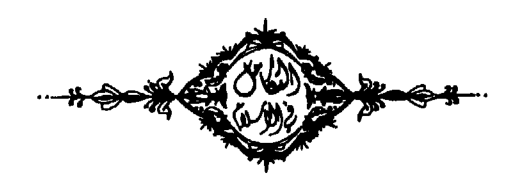
فحقوق الوالدين والأرحام ليست من قبيل التزين بالأدب الاجتماعي بل هي فروض وواجبات وعزائم، إذا أداها المرء فقد أبرأ ذمته من تبعة المسؤولية

---

(١) سورة المائدة: ٦٦.

بين يدي الله، وإذا لم يؤدها فلن تنفعه صلاة ولا صيام ولا غير ذلك من أعمال البر والطاعة. فالاسلام لا يحب أن يخرج للمجتمع إلا انساناً دقيق الحس، مرهف الوجدان، يفيض قلبه بالبر والمواساة والحب، ولا شك أن الوالدين هما أول من يجب أن يمسه نفح ذلك الود بما أسلفاه من جميل ومن بعدهما الأرحام.

هذه دساتير لها قيمتها الاجتماعية والتوجيهية، فبتطبيقها تعمر البلدان ويسعد الناس فيشد بعضهم أزر بعض بالتواصل والتعاطف والتراحم والحب والولاء، كما يؤدي تطبيقها إلى الايمان الرصين وإزالة الشكوك والأوهام، يؤدي إلى الايمان بالله وملائكته واليوم الآخر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والخمس وبقية الحقوق، ويؤدي إلى سعادة أبدية، سعادة الآخرة، وهي التي تدوم ملايين السنين في ﴿جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين﴾[1].



(١) سورة آل عمران: ١٣٢.

سؤال عن حكم شرعي

يسأل أحد الأطباء: لماذا البول نجس والعرق طاهر؟ وهما شيء واحد. ذلك، لأن البول يخرج مع العرق في الصيف، فيقل البول، وفي الشتاء يكثر البول لعدم خروج العرق من البدن.

بسم الله الرحمن الرحيم

الجواب:

أخي الدكتور، زاده الله تعالى توفيقاً،

بعد تقديم خالص التحية والتقدير لشخصيتكم المؤمنة، أبدي:

إن أحكام الشرع توقيفية، يجب اتباعها على ما جاء من الشارع سواء ظفرنا ببعض العلل الطبية أو الاجتماعية أو لم نظفر، وان العلم الحديث فتح علينا أبواباً لتفهم علل كثير من الأحكام الشرعية، على أن العلل قد لا تنحصر في ما اكتشفه العلم الحديث، ووراء هذا الكشف علل وعلل قد خفيت علينا وسوف نظفر بها مع تقدم العلم، غاية ما هنالك أن ما جاء من أحكام في الشريعة الاسلامية لا يمجها العقل إن جهل بعض الأسباب أو كلها. لذلك يقال: كل ما حكم به الشرع حكم به العقل، أي يراه العقل مستساغاً وإن جهل العلة، ولا عكس أي لا كل ما حكم به العقل البشري حكم به الشرع، لأن العقل البشري قد لا يستوعب الأحكام ويرى الأمور من ناحية أو ناحيتين وتبقى بقية النواحي خافية عليه، والله هو المحيط بالحكم والأسباب والنتائج.

أما الجواب على سؤالكم: من الواضح أن مقدار البول يقل في الصيف لخروج قسم من السائل بشكل عرق دون الشتاء، فيزداد مقدار البول. ولكن هل أن كل ما في البول لدى التحليل من عناصر وجراثيم وميكروبات و(كاست): Casts وبلورات يوجد في العرق. ذلك لأن رائحة البول تختلف كثيراً عن رائحة العرق وهذا دليل على الاختلاف والفرق في العناصر والكميات والجراثيم إلى ما هنالك وليس في العرق إلا الماء والملح ومواد دهنية.

فالبول، وهو الذي تفرزه الكليتان في المثانة ثم يخرجه الانسان بالارادة على الأغلب يشتمل على مواد وأملاح كثيرة منها مادة فوسفات وحامض الصوديوم وحامض اللاكنيك ومواد عطرية وعناصر جامدة واكسانتين وكرانتين وحامض الأيبوريك وحوامض دسمة ومواد ملونة وملح الطعام والفوسفات القلوية وفوسفات النورة وفوسفات المنيزي والسلفانات القلوية وحامض السليك والأمونياك وغيرها ومادة الأورة.

وتكون غالباً في البول بنسبة ثلاثين إلى ألف وأربعمائة من مجموع البول ومادة تسمى حامض الأوريك ونسبتها إلى مجموع البول أقل من نسبة الواحد إلى الألف إلا أنها سامة قوية التأثير جداً تقرح الجلد وتخدش ما اتصل به، والمواد البولية بتراكيبها سامة مضرة. وما دامت في بدن الانسان لا تضر، لأن تأثيرها ضعيف أو معدوم فإذا مسها الهواء بعد خروجها اشتد ضررها كماء الاستنجاء، ويزداد ضررها كلما طال زمن إتصالها في الهواء ولا تخلو من لزوجة.

وبول المرأة يختلف عن بول الرجل من حيث المواد، كما أن بول الصبي قبل أن يأكل شيئاً من الطعام كالخبز وغيره يختلف عن بوله بعد أن اعتاد الأكل، لذلك تختلف كيفية التطهير من البول في أبوال من ذكرنا، وإن الطب والفسلجة ليؤيدان ذلك.

وبما أن العرق يختلف عن البول من حيث التحليل والوزن النوعي والرائحة ومروره ببعض أعضاء الجسم الانساني لا يكون ضاراً كي يصب

عليه الماء بعد الخروج من الجلد، كما في البول.

وبالختام أتمنى لتلك النفس الطاهرة التي أخذت على عاتقها خدمة هذا الدين في النواحي العلمية سعادة أبدية، سعادة الدنيا ونعيم الآخرة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *



إسلام عائشة بردجت هني(١)

Aisha Bridget Honey

يعرف المسلمون في بريطانيا عائشة المسلمة بنشاطها المتوقد، وكتاباتها التي تدل على فهمها الاسلامي ووعيها حقيقة هذا الدين الحنيف، فهي عضو في لجنة تحرير «رسالة الأخبار» التي يصدرها شهرياً اتحاد الجمعيات الطلابية الاسلامية في المملكة المتحدة وإيرلندا... وهي عضو في الجمعية الاسلامية بمدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن... وهي كذلك أمينة سر جمعية النساء المسلمات في بريطانيا Moslem women Association وهي تساهم في جميع وجوه النشاط الاسلامي الذي تنظمه جمعيتها أو اتحاد الجمعيات الاسلامية. تعرض عائشة قصة اسلامها ووجهة تفكيرها، وهذه هي الاسئلة وإجابات عائشة عليها:

س ١ ـ متى أسلمت؟ وكم كان عمرك عندها؟.

ج ـ هداني الله للاسلام منذ ثلاث سنوات ونصف، وقد كنت عندها في الحادية والعشرين.

س ٢ ـ هل لك أن تروي لنا قصة اعتناقك الاسلام؟

ج ـ نشأت في أسرة هي في رأيي مثل للأسر البريطانية اليوم من حيث نظرتها للدين... فوالدتي نصرانية غير أنها لا تمارس أياً من العبادات النصرانية... ووالدي لا يؤمن بأي دين من الأديان. وقد سجلت في طفولتي باحدى مدارس الأحد «وهي مدارس دينية تشرف عليها الكنيسة» وتلقيت علوم

---

(١) من مجلة حضارة الاسلام للسنة السادسة (٣ ـ ٤) (جمادي الأول والآخرة عام ١٣٨٥).

مدارس الكنيسة الانكليزية[1] غير أن أحاديثنا في المنزل لم تكن تتعرض للدين من قريب أو بعيد. ولا أستطيع أن أتذكر يوماً واحداً من أيام طفولتي سمعت فيه اسم الله يذكر في منزلنا.

لم أستطع في خلال سنوات دراستي في مدرسة الكنيسة أن اقتنع ببعض الأفكار الجوهرية في النصرانية، وخصوصاً فكرة التثليث وفكرة الفداء... «وهي ان الله ـ أو المسيح ـ قد افتدى الناس وكفر عنهم سيئاتهم عندما صلب» ولكم نوقشت هاتان الفكرتان... ولكم دارت الأحاديث حولها... إلا أن كل ما سمعته عنها، كان في رأيي مجانباً للحقيقة التي حيرتني معرفتها... والتي طال شوقي اليها. لقد كانت مدرستي مدرسة نصرانية إلا أنني تخرجت منها ملحدة.

كنت محبة للفلسفة، مغرمة بها وكنت في شوق لمعرفة الحقيقة فقرأت وأنا في الخامسة عشرة كتاب تاوته تشنغ Taoteh Ching الذي يضم أوائل الكتابات في الفلسفة التاوية الصينية، وقد تأثرت بنظرة الكتاب تأثيراً عميقاً. وسمعت عن البوذية، وأخذت أقرأ بنهم عن هاتين العقيدتين الفلسفيتين وعزمت على تعلم اللغة الصينية والذهاب إلى الصين غير أن هذا لم يكن بالأمر السهل بالنسبة لفتاة في الخامسة عشرة من عمرها، لا مال لديها ولا مؤهلات لذا ذهبت عندما بلغت السابعة عشرة إلى كندا حيث عملت مدة سنتين وجمعت مبلغاً من المال يكفيني لمتابعة دراستي كي أحصل على الشهادة الثانوية وأدخل الجامعة لدراسة اللغة الصينية.

وفي كندا عرفت الفلسفة الهندية، وقرأت الكتب الهندوسية المقدسة ولقد وجدت في كتب العقائد الفلسفية الثلاث التي عرفتها ـ التاوية والبوذية والهندوسية ـ جمالاً وسمواً وعمقاً... غير أنها جميعاً لم تكن لترضي تفكيري وإحساسي. فلقد أخطأت جميعها الوصول إلى توازن بين الكون الواسع العظيم من جهة، ومتطلبات الحياة اليومية الاجتماعية والعملية من جهة

---

(١) أوجدت الكنيسة الانكليزية بأمر ملكي. بعد أن برم القصر بالخلافات الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت وغيرهم.. وهي بمثابة حل وسط يجمع بين المتناقضات.

أخرى.. بل مالت جميعها إلى إهمال الأخيرة أو نبذها. ويروى أن صاحب التاوية ومنشئها هام على وجهه في أرجاء الأرض كصوفي زاهد. كما هجر بوذا زوجته وأسرته كي يبحث عن الحقيقة أما الكتب الهندوسية فهي كتب أخلاقية في جوهرها فهل ترى كل الأواصر الانسانية والحياة الاجتماعية أوهام وخيالات لا معنى لها؟.

أزعجني هذا السؤال وأقض مضجعي طويلاً، ولم أستطع أن أؤمن بأي من هذه العقائد... وعشت في حيرة... بماذا أؤمن؟ ما هي غاية الحياة؟ أهي مجرد مصادفة كما يقول البعض؟ إن كانت كذلك فالموت أفضل منها ألف مرة! وزادت حيرتي، وزاد أرقي.

لذا كان نجاحي في امتحانات الثانوية العامة وقبولي في جامعة لندن لدراسة اللغة الصينية انتصاراً هزيلاً فارغاً لا معنى له... صحيح أنني حققت طموحي بدراسة الصينية إلا أن الحقيقة التي كنت أنشدها بدت أبعد مما كانت.

جاء تعرّفي بالمسلمين بعد التحاقي بالجامعة... ولم أكن قد سمعت أو قرأت شيئاً عن الاسلام من قبل، بل لقد كان لدي ما لدى كل الغربيين من أحقاد ومفاهيم خاطئة عن الاسلام. ولقد شرح لي الطلبة المسلمون مبادىء دينهم بصبر وأناة، وأجابوا على كل ما اعترضت عليه، وأعطوني بعض الكتب لاقرأها.. وقد كنت في البدء أتصفح هذه الكتب تصفحاً سريعاً إرضاء لبعض فضولي، وكنت أنظر اليها على أنها مدعاة للضحك والسخرية... إلا أن الشذرات التي قرأتها جعلت شكي في سمو الاسلام يتلاشى شيئاً فشيئاً، وبدأت أقرأ الكتب بعناية واهتمام... فأذهلني الوضوح الرائع في أسلوبها. وأخذت بقوة الحجة والمنطق التي تعتمد عليهما في نظرتها للخلق والخالق وتأكيدها حقيقة البعث بعد الموت.

ثم أعطاني الطلبة المسلمون القرآن مترجماً للانكليزية... ولست مستطيعة مهما حاولت أن أعبر عن مدى تأثير هذا الكتاب في نفسي فقبل أن أنتهي من قراءة السورة الثالثة سجدت لله تعالى وكانت هذه أول مرة في حياتي أصلي فيها لله... ومنذ تلك اللحظة أصبحت بحمد الله مسلمة.

اعتنقت الاسلام ولما تمض ثلاثة شهور على بدء معرفتي به، وطبيعي أنني لم أكن أعرف منه إلا الأفكار الأساسية. وبدأت بعدها سلسلة طويلة من الأسئلة أطرحها على اخوتي المسلمين وأناقشها معهم في جزئياتها وتفصيلاتها.

يسألني كثير من الناس عن الأسباب الرئيسية التي دعتني إلى اعتناق الاسلام، وهذا سؤال يصعب علي أن أجيب عليه إجابة مقتضبة إذ أن مثل الاسلام ـ كما يقول أحد المسلمينالأوربيين ـ كمثل عمل هندسي متكامل رائع كل جزء فيه يتمم الأجزاء الأخرى ويجملها. وهذه الظاهرة في الاسلام هي الشيء الذي يترك في النفوس أروع أثر عن الاسلام. فإذا ما نظرت اليه عن بعد أخذت بعمق نظرته للأشياء وسحرتك روعة تشريعاته بشمولها أهداف وأعمال وطبيعة الدولة المسلمة. ولئن بحثت في جزئياته فانك واجد الطريقة المثلى للحياة الاجتماعية المبنية على الخلق القويم. ورأيت أن كل عمل يقوم به المسلم يذكره بالله. . . وعندما يذكر الله يراجع نفسه ويحاول البلوغ بعمله ذاك مرتبة الكمال. . . وهكذا يزول ما كان بين متطلبات الحياة اليومية ومتطلبات الدين من صدع، ويصبح الطرفان متكاملين متناسقين.

س ٣ ـ ماذا كان رد الفعل عند أسرتك وأصدقائك عندما عرفوا باعتناقك الاسلام؟.

ج ـ تقبل والدي اعتناقي الاسلام دون كبير عناء، واعتقد أنهم أول الأمر ظنوا إسلامي مجرد «فكرة غريبة» أخرى من أفكاري التي تبدو شاذة لبعض الناس ـ كتعلمي الصينية ـ وأنها ستنطفىء بهجتها وتزول مع الأيام. . . إلا أنهم بعد ذلك بدأوا ينحون علي باللائمة خاصة بعد أن وجدوا أن ظنهم قد خاب وأن إيماني يزداد رسوخاً مع الأيام إلى حد أن تأثيره لم يقتصر على طريقة تفكيري بل امتد إلى عاداتي وطريقة حياتي فغيرها وقد كرهوا أن يروني امتنع عن شرب الخمور وأكل لحم الخنزير. . . كما كرهوا أن يروني ملتفعة بخماري، وأضعه على رأسي في كل مكان وأعتقد أن اهتمامهم ينصب على آراء الناس وماذا يقولون عني، دون أن يهتموا بالعقيدة والايمان.

أما أصدقائي الانكليز فأمرهم مختلف. . . إذ أنهم على استعداد للمناقشة

ومحاولة التفهم... فهم عاقلون متقبلون للمنطق وعندما أناقشهم في نظرة الاسلام ومبادئه في الحياة الاجتماعية مثلاً أرى لديهم استعداداً للاعتراف بحكمة النظرة الاسلامية وأصالتها. وأذكر مرة دار فيها نقاش بيني وبين بعض صديقاتي حول نظرية تعدد الزوجات وحدودها التي وضعها الاسلام... والحلول التي تقرها الحضارة الغربية... فاعترفن جميعاً ـ وبينهن فتاة مجازة في علم اللاهوت النصراني ـ بأن تعدد الزوجات المحدود بشروطه الاسلامية أفضل الحلول لمشكلات الزواج.

س ٤ ـ هل لاقيت أية مضايقة أو إيذاء نتيجة إسلامك؟.

ج ـ إن الذين لم يؤتوا درجة طيبة من العقل والفهم هم بصورة عامة متحاملين على الاسلام يكنون له في صدورهم الأحقاد والضغائن، وهم دواماً يسخرون من المسلمين ويهزؤون بهم، ولئن اخفوا سخريتهم في حضور أحد المسلمين فهم لا شك ساخرون منه في غيبته هازئون به غامزون منه ومن دينه. وهؤلاء لا يعبؤون بالملحدين بل يحترمونهم لتفكيرهم «الحر» كما يقولون، لكنهم متحاملون حاقدون على الاسلام والمسلمين. ومع أني شخصياً لم ألق أية مضايقة جدية نظراً لأنني طالبة في الجامعة في مدرسة الدراسات الافريقية والشرقية واختلاطي دواماً بأناس يعرفون شيئاً من الأديان والمعتقدات، إلا أنني أعلم ما يقاسي غيري من المسلمين.

س ٥ ـ ماذا قمت به من دراسات إسلامية منذ اعتناقك الاسلام؟ وكيف تتطور مشاعرك كلما ازدادت معلوماتك عن هذا الدين الحنيف؟.

ج ـ إنحصرت دراساتي عن الاسلام في قراءة ما وصل إلى يدي من كتب إسلامية، وفي أسئلة أوجهها إلى بعض المسلمين ذوي المعرفة الجيدة به، وفي مناقشات تدور حول بعض التعاليم والآراء الاسلامية، بيني وبين من أعرف من المسلمين الذين ينتسبون إلى مختلف الأمصار الاسلامية. ولقد سعدنا في العام الماضي بوجود طالب سوداني أوتي معرفة كبيرة بالفكرة الاسلامية والفلسفة الغربية على السواء، وقد دعا هذا الطالب إلى عقد اجتماع دوري أسبوعي كان ذا فائدة كبيرة... فقد حصر الحضور بعشرة أشخاص كي تتركز

الفائدة وتتسع. وقد كانت طريقتنا في هذه الندوة ان ندرس أهم ترجمات القرآن بالانكليزية ونقارنها بالأصل العربي لنصل إلى أقرب معنى للآية[1] ثم نناقش المعنى معتمدين على مختلف التفاسير بصورة عامة وتفسير الطبري بصورة خاصة. كما نناقشها من زاوية فهمنا ولكنه يؤسفني أن أقول أنه منذ رحيل هذا الأخ السوداني لم نستطع أن نجد في لندن شخصاً عنده مثل معرفته ورغبته في مواصلة هذا الجهد القيم والعمل النافع.

س ٦ ـ هل تعتقدين أن الاسلام يستطيع التأثير في الحضارة الحديثة؟ وبأية طريقة؟.

ج ـ لا شك ان الاسلام يستطيع كبح جماح الحضارة الحديثة وتوجيهها الوجهة الصحيحة. فالعالم الغربي يعيش اليوم في عماوة لا يكاد يرى فيها بصيص أمل ينير له الطريق لسعادة النفس والروح... وأن من يعرف حقيقة المجتمعات الأوربية ليرى الفراغ الهائل الذي يختفي تحت ستار براق خداع من الرقي والازدهار ان القلق النفسي قد عم الجميع... والناس اليوم يبحثون عن منفذ يخلصون منه من مشاكلهم ولكن بلا جدوى والطريقة الوحيدة التي تبدو أمامهم هي أن يزيدوا في سرعة سيرهم نحو الهاوية... فالتحلل الجنسي الواسع أدى إلى إقامة مستعمرات العراة، وإلى انتشار الشذوذ الجنسي والاسلام يستطيع بما يوفره من توازن رائع بين متطلبات الجسم ومتطلبات الروح أن يوجه الحضارة الحديثة في الوجهة التي تستطيع أن توفر للانسان سعادته وتجعله يحس الغاية من وجوده في هذه الحياة كما تجعله يسعى حثيثاً للفوز برضاء الله الكبير المتعال كي يسعد في حياته الأخرى اللهم اجعلنا جميعاً من سعداء الدارين.

س ٧ ـ ما هي في رأيك أفضل طريقة لنشر الاسلام؟.

ج ـ قبل أن نفكر في نشر الاسلام علينا أن نحاول أن نكون في حياتنا

(١) إن التراجم الانكليزية لمعاني القرآن ـ على كثرتها ـ تختلف اختلافات كبيرة في إعطاء المعنى المراد. ومن المؤسف أنه لا توجد بعد ترجمة واحدة يمكن أن يقال عنها: أنها وافية وجيدة. «المترجم»

وأعمالنا على المستوى الذي يطلبه منا هذا الدين الحنيف. ان الله تعالى يقول: ﴿أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ فالمفروض فينا أن نكون دعاة للاسلام، لا نشرك فيه أية فكرة أخرى... إلا أن علينا أن نكون داعين له عالمين به بحيث نستطيع أن نجيب على سؤال من يسأل واعتراض من يعترض. ولا شك أن توفر بعض الكتب الجيدة عن الاسلام يفيد كثيراً في الدعوة إليه إذ عندما نعير كتاباً لشخص غير مسلم يقرؤه بتمعن أكثر من تمعنه في مناقشة شفهية. غير أن من المؤسف أن الكتب الاسلامية الجيدة المتوفرة باللغة الانكليزية قليلة.

ولكني أعود فأركز على أهمية المثل الحي إذ لا شيء يترك في النفوس انطباعاً أقوى من المثل الحي فعلينا أن نكون في حياتنا أمثلة للانسان المسلم كما يتطلب منا القرآن.

س ٨ ـ ماذا يحتاج المسلمون البريطانيون خاصة؟.

ج ـ يعتنق بعض البريطانيين الاسلام لدى زواجهم أو زواجهن بنساء مسلمات أو رجال مسلمين. وهؤلاء يجدون عادة الحياة العائلية الاسلامية ويسعدون بها... أما غير المتزوجين الذين يعتنقون الاسلام بالاقتناع الشخصي وحده سواء كانوا فتياناً أو فتيات.. نساء أو رجالاً فأنهم يواجهون بعض المشكلات. فهم إلى حد ما لا يشعرون بأن جو المجتمع البريطاني جوهم ولا هو مجتمعهم... وهم في نفس الوقت لا يعيشون في مجتمع إسلامي... وهم يجدون عنتاً في المحافظة على الصلاة والصيام في مواقيتها... الخ لذا فان القضاء على الشعور بالعزلة عند المسلمين الجدد أمر متوقف على العائلات الاسلامية الموجودة هنا.. ويسعدني أن أقول أن معظم الأسر الاسلامية هنا تقوم بواجبها من هذه الناحية خير قيام.

كذلك فاننا نحتاج ـ كما ذكرت آنفاً ـ إلى مدرسين ذوي ثقافة إسلامية جيدة كي يساعدوا المسلمين الجدد في فهم القرآن. فكثير من المسلمين الجدد يتوقون إلى فهم القرآن فهماً جيداً إلا أنهم لا يستطيعون ذلك... ويؤسفني أن أقول أن المركز الثقافي الاسلامي في لندن لا يقوم بأي نشاط من هذا القبيل

وإنما ينحصر مثل هذا العمل بالطلاب الذين لا يستطيعون تكريس جزء كبير من وقتهم لهذا العمل نظراً لانشغالهم بدراساتهم.

س ٩ ـ هل زرت بعض الأقطار الاسلامية؟ وما هي انطباعاتك عنها؟

ج ـ لقد سعدت بزيارة لمصر قمت بها منذ عامين بدعوة من أسرة مصرية كريمة... وقد أعجبت إعجاباً كبيراً... وأخذت بكرم الشعب هناك... غير أني أعيب على الشعب المصري المسلم أن معاملته للخدم وللحيوانات ليست من الاسلام في شيء... فلئن كان ديننا قد أوصى بحسن معاملة الرقيق والحيوان فان علينا ـ نحن المسلمين ـ أن ننفذ أوامره ووصاياه... وفي هذا أذكر حديثين شريفين فقد قال رسول الله (ص): «إخوانكم خولكم. جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس». وقال: «إذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته». فإذا كانت المعاملة الطيبة وإراحة الحيوان مطلوبة ساعة قتله فهي مطلوبة في حياته. وإذا كان من الواجب علينا معاملة العبيد كأخوان لنا، فأن معاملة الخدم كأخوة أمر مفروض أيضاً.

كذلك آخذ على الشباب انبهارهم ببعض المظاهر الزائفة في الحضارة الغربية فهم ينخدعون ببريقها الوهاج دون أن يعرفوا زيفها.

وأحب هنا أن أسطر اعجابي بقوة الأواصر العائلية وبالحياة الاجتماعية الكريمة التي إن قورنت بالحياة الاجتماعية في الغرب بدت في القمة فكيف بالحياة الاجتماعية الاسلامية الحقة؟ أللهم اجعلنا مسلمين حق الاسلام.

جاهلية الغرب

إن شبابنا المتعلم عندما يذهب إلى الغرب ويتصل بالعلم المادي وما فيه من دقة متناهية وحسابات دقيقة ومعادلات رصينة، ودساتير متنوعة وكتب أنيقة ومختبرات عديدة ومعامل تطبيقية مدهشة، يزعم بل يوقن أن الغرب قد بلغ مرتبة الكمال في كل شيء وأن لا سبيل لنجاة الشرق إلا باتباع أساليب الغرب الحضارية في كل شيء.

وقد فاته أن الموضوع ذو فرعين مستقلين: (١) عمارة الأوضاع المادية. (٢) عمارة النفس الانسانية. وان العلم المادي لا يؤثر في عمارة النفس وصناعتها. وهو يجتمع مع الموبقات وأنواع الفحشاء وما يؤدي إلى تحطيم النفس وإبعادها عن خالقها والازدراء بالمقدسات وعوالم الآخرة.

إذ لا علاقة بين حل المعادلات التفاضليةEquations différentielles والتخلق بالأخلاق الكريمة والتجنب عن الفحشاء والظلم والبغي والخشوع لله المتعال وتقديسه وتسبيحه بأنواع التسبيح. ولا رابطة بين تحضير واستحصال حامض الكبريتيك: (H2 SO4) والكمال النفسي كما لا علاقة بين تحطيم الذرة والحصول على طاقة ذرية تقدر بـ(MC2) مربع سرعة الصوت في الكتلة، وبين كف النفس عن هتك الحرمات وتجنب المحارم، هما من واديين مختلفين.

فالعلم المادي ينمو سواء أكان الفرد العامل في نموه فاسقاً أو مؤمناً والله تعالى يقول:

﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون﴾. (سورة: حم سجدة ١٨).

ولأجل هذا السبب نفسه لم يعن الأنبياء عليهم السلام بالعلوم المادية وحصروا همهم في تكميل النفوس وتطهيرها، إصلاحها وتزكيتها، ذلك لأن

العلم المادي ينمو نتيجة قابليات وملكات أودعها الله تعالى في العقل الانساني: من تجربة ومشاهدة واستقراء واستنتاج إلى ما هنالك.

إلا أن هذا العقل نفسه لا يصل، لكونه أسيراً بين أيدي الشهوات والنزوات والميول الحيوانية إلى جميع ما من شأنه تكميل النفس. فوجب إذن تعمياً لسنة الكمال في هذا الكون المتكامل في النواحي المادية ان يتعلم هذا العقل أصول تكامل النفس عما وراء الطبيعة: عن الرسل سلام الله عليهم أجمعين.

فعندما ترك الغرب اتباع أوامر الرسل (ع) لغرورهم العلمي وقولهم: العلم يغزو الفضاء! والعلم وحده يوصلنا إلى الكمال المنشود وتطبيقهم الطريقة العلمانية Laicisme في معزل عن الله تعالى، انطمس في جاهلية جهلاء ورجع القهقرى في حقل الكمال النفسي وهو، دون ريب أهم الحقول وغاية الغايات لتحقق انسانية هذا الانسان، وأهم من اختراع قنبلة ذرية أو هيدروجينية، سواء استخدمت للهدم والبطش أو في أمور عمرانية.

ونحن ها هنا نورد نماذج من جاهلية الغرب، لكي يعلم شبابنا ـ حفظهم الله من مضلات الفتن ـ ان الغرب أخذ يتردى يوماً بعد يوم. وإن هذه الحضارة المادية بجميع أساليبها آئلة إلى انهيار، ولا نجاة لهذا العالم إلا بالتمسك بروحيات صحيحة إلهية وبما يؤدي إلى خشوع النفوس تجاه خالقها وبارئها، فما من شيء في هذا الكون إلا ويسبح الله تبارك وتعالى، حتى الطير في السماء.

﴿ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطيرُ صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون﴾[1].

* * *

---

(١) سورة النور: ٤١.

(البروفو) الذين يريدون تحطيم كل شيء

برزت في هولندا في الآونة الأخيرة حركة تمرد غريبة يقوم بها الشباب الجانح المتمرد الذي يشتبك مع البوليس بمناسبة أو بدون مناسبة بحيث تطور الأمر إلى قذف قنابل الدخان على موكب الملكة مؤخراً. ويطلق هؤلاء على أنفسهم اسم (البروفو) أو الساخطين الذين ملوا كل الأوضاع القائمة!! والمقال التالي هو تحليل طريف لتصرفات هؤلاء الشبان الذين يغرقون في الانحلال والضياع والفوضى.

كان الأسبوع الماضي حافلاً بالنشاط المحموم للشباب الهولندي المتمرد وهم بدون شك من أكثر أحداث العالم المنحرفين إثارة ومتعة، وقد يتصور الناس أنهم يثيرون السخرية والضحك، غير أن هؤلاء الشبان يزعمون أنهم فنانون يتمتعون بقوة سياسية بحيث يتمكنون من تدبير مظاهرة سيرالية[1]

---

(١) السيريالية: هي حركة فنية أدبية نشطت في مطلع القرن العشرين. وقد أخذت وجهاً سياسياً في الفترة الأخيرة قوامها الثورة المطلقة، والعصيان التام والتخريب المنظم، وعبادة اللامعقول، انها دعوى ضد كل شيء، ورفض لكل الحدود والقيود بإصرار وتحدٍ. تنكر وتهدم كل قيمة وكل موروث في كل ما وصل إليه الانسان في كل الميادين. تنظر إلى الانسان على أنه رغبة، لذلك تسعى إلى تحرير هذه الرغبة تحريراً مطلقاً، تقدس التناقض وعدم المعنى، لهذا كان المذهب العقلي أعدى أعداء السيريالية.

تحاول السيريالية أن تدمر الأدب بالأدب والرسم بالرسم، فهي تحاول أن تحقق العدم عن طريق امتلاء الكينونة الطافح، بواسطة حذف (الأنا) حذفاً رمزياً بالتناوم والكتابة الآلية، وحذف المواضيع حذفاً رمزياً بإنتاج موضوعات تتلاشى تدريجياً، وحذف اللغة حذفاً رمزياً بإنتاج معانٍ مضللة، ويعتبر كل أثر من آثارها بألوانه المتقلبة على سطحه عدم وليس هو إلا ذبذبة للمتناقضات لا نهاية لها. =

لتحطيم السيارات في الشوارع! ففي لاهاي ـ عاصمة هولندا ـ قاموا قبل أيام بمهاجمة موكب الملكة (جوليانا) أثناء شق طريقه إلى البرلمان لافتتاح دورته الجديدة رسمياً. فقذفوا قنابل الدخان على الموكب وكانت النتيجة أن ألقت سلطات البوليس القبض على (٨١) مشاغباً منهم! وفي يوم الأربعاء الماضي صرح أحد قادتهم بأنهم سيقومون برش مسحوق قابل للانفجار في كل نافورة للزينة بامستردام ولكن يبدو أن الخطة أحبطت قبل التنفيذ ولهذا لم يتدفق الزبد الأبيض في الشوارع!.

وفي يوم الخميس هتف (روبرت جاسبر غروتفليد) الزعيم البارز بين هؤلاء المنحرفين والذي كان هو مدبر معظم حوادث الشغب هتف بالمتمردين قائلاً: هيا وتدفقوا للتفرج على الحادث المثير في قارب البروفو. أما الحادث المثير الذي قصده فكان جلوس (٥٠) من هؤلاء الناقمين للتفرج على أفلام تلفزيونية سبق التقاطها أثناء ممارستهم الفوضى في الشوارع وأماكن تجمعاتهم، وتضمنت المشاهد هؤلاء الفتيان وهم يتصارعون فوق الوسائد في الصالة الخافتة الاضاءة بينما كانت المخدرات تنتقل من يد إلى يد!.

ويقول الزعيم الفوضوي غروتفليد:

«إننا مجتمع مُدمن على العقاقير وعبيد للظروف، وقد سببت المواصلات

= يتجسد أمل السيريالية البعيد في إدراك نقطة موهومة تكف فيها متناقضات الحياة والموت الواقعي والخيالي، الماضي والمستقبل، القابل الايصال وغير القابل الايصال. العالي والداني.

وقد أشادت السيريالية بالقتل والانتحار، واعتقد «كرفيل» ان هذا الحل: «صحيح ونهائي على أرجح احتمال»... وانتحر «كرفيل» مثل الشاعرين الفرنسيين السيرياليين: (ريفو، فاشيه) اللذين سبقاه إلى الانتحار وقد قال (أندريه بريتون) زعيم السيريالية: (إن أبسط عمل يقوم به السيريالي هو النزول إلى الشارع بمسدس في اليد. وإطلاق النار على الجماهير حيثما إتفق)(١).

(١) من مجلة حضارة الاسلام العدد العاشر السنة السادسة من مقال للأستاذ غازي التوبة بعنوان: الحضارة الغربية.

الحديثة تفسخنا، كما أن السجاير تسبب السرطان. ثم يأخذ بالقهقهة بشكل جنوني!.

وفي الساعات المبكرة من صباح السبت الماضي وتحت تأثير المخدرات وضع المستر (روب ستولك) وهو أحد قادة الساخطين، إجراء خطة لهؤلاء البروفو حتى الآن: وهي الاستيلاء على ميدان (دام) الذي هو الميدان الرئيسي في امستردام، استناداً إلى أن هذا الميدان كان قد بيع قبل عشرين عاماً إلى مواطني امستردام بثمن رمزي هو (غليدر) واحد لكل سانتيمتر مربع واحد. وذلك لجمع المال اللازم لاقامة نصب تذكاري لضحايا الحرب، وما زالت وثائق البيع موجودة لدى المواطنين الذين احتفظوا بها كأثر تذكاري. والآن ينوي البروفو الحصول على هذه الوثائق بواسطة الاستجداء والاستعارة أو حتى السرقة بحيث يتجمع لديهم منها ما يكفي للادعاء بأن ميدان دام أصبح ملكهم ومن ثم يبادرون إلى منع جميع مواطنيهم الآخرين والذين يكبرونهم سناً من دخول الساحة، ورغم غرابة الفكرة إلا أن خيال (البروفو) الخصب فيه متسع للعمل على تنفيذ مثل هذا المشروع الجنوني!!.

ومن الطبيعي أن كل هذا ما هو إلا سخف صادر عن احداث جانحين، ومع ذلك فانه يجسد ثورة من لدن الشباب، ذات مظهر سيريالي مضحك، ثم أنهم يزدادون قوة ونفوذاً!.

ففي امستردام تمّ انتخاب المستر (برنـاردي بيرز) مـرشح (البـروفو) لعضوية مجلس المدينة بأغلبية ١٣٠٠٠ صوت. ويزعم البروفو أنهم يتمتعون بمساندة ٤٠٠٠٠ شاب على الأقل في الجامعات والمدارس، ممن هم في السن التي تخولهم حق الانتخاب، وإذا علمنا أن عدد سكان امستردام لا يتجاوز المليون شخص فان رقم مساندي البروفو لا يستهان به[١].

---

(١) مجلة حضارة الاسلام، شعبان: ١٣٨٦.

شبان مخنثون يغرقون السويد ويزحفون إلى كل الغرب

استكهولم - موضة شاذة جديدة تزحف اليوم بسرعة لتغرق المجتمعات الغربية (الراقية). أنها موضة الشبان الذين يتخنثون فيطيلون شعر رؤوسهم ويستعملون أحمر الشفاه والبودرة ويزججون حواجبهم ويعمدون إلى تقليد الأساليب النسائية كلها، ويعرف هؤلاء باسم (البوب) أو الشبان أصحاب الشعر الطويل.

وتعتبر السويد - وعاصمتها استكهولم على الأخص - المركز الرئيسي لهؤلاء المخنثين!.

منذ سنوات كانت هذه الظاهرة أمراً شاذاً... أما اليوم فقد أصبح التخنث فلسفة وطريقة خاصة في الحياة كما يزعم المخنثون ويجاهرون بذلك بكل فخر انهم يتركون شعورهم تتدلى ويتزينون بالمجوهرات، ويتطيبون بالعطور النسائية ويرتدون أيضاً الألبسة النسائية الداخلية. وهم يفاخرون بتخنثهم ويقولون: إن تشبههم بالنساء يزيد من شعورهم برجوليتهم... أما كيف ذلك... فإن المخنثين يؤكدون أنها فلسفة خاصة أما علماء النفس فانهم يرفضون هذه الفلسفة ويحتارون كيف يصنفون هؤلاء الشبان المتأنثين، ولكن قد يكون تفسير فلسفتهم وزعمهم هو أن تخنثهم جعلهم صنفاً مرغوباً من قبل النساء كما ثبت ذلك في ليالي السويد الماجنة، بل حتى في الحدائق والمنتزهات وفي الشوارع أيضاً، وفي كل وقت، فهنا الحرية الاباحية!![1].

* * *

---

(١) مجلة حضارة الاسلام: ربيع الأول ١٣٨٦.

جاء في مقال نشر في مجلة Stern الصادرة في همبورغ في ألمانيا الغربية بتاريخ ١ أيلول ١٩٦٣ برقم: ٣٥.

«إن الأولاد الصغار بين ١٤ و١٦ سنة الذين يتأهلون للعمل يقولون حينما يبحث أمر الزواج أمامهم: أنا أتزوج؟! لماذا؟! أنني أستطيع الحصول من أي فتاة في العمل على كل ما أريد دون أن أتزوجها».

إن إتصال المرأة الدائم بالرجال أثناء العمل قد فل من حدة شعورها الحقيقي تجاه الرجل، فلم يعد عندها شوق اليه، وأصبح الرجل عندها شيئاً عادياً، وكذلك الرجل، فأنه لم يعد يتشوق للمرأة لأنها تحت نظره في كل لحظة وسهلة التناول، وكما أنه لم يعد يشعر بالاحترام نحوها، لأنها أصبحت رخيصة، إن شباب اليوم لم يعودوا يتحرجون من الخوض في مواضيع أو نكات جنسية عميقة بمحضر من زميلاتهم[1].

* * *

ويقول المتتبعون: أن بريطانيا تنغمس اليوم في الفجور إلى حدود مذهلة، حتى أن الدعوة إلى إباحة الشذوذ الجنسي بين الرجال استطاعت أن تظفر بالاباحة من مجلسي اللوردات والنواب، وبارك هذه الاباحة معظم الشعب الانكليزي وعلى رأسه أساتذة الجامعات والأطباء والمفكرون بل حتى رجال الكنيسة!!.

لقد انتشر الانهيار الخلقي في ربوع بريطانيا على نحو يفوق كل تصور. ويجعل من العاصمة البريطانية ـ بدون مبالغة ـ ماخوراً كبيراً للدعارة والموبقات! فقد أصبح الشذوذ الجنسي هو موضة اليوم التي يباركها المسؤولون الكبار، وأصبح من الصعب التمييز بين الشبان والفتيات. لأن الشبان أصبحوا يطيلون شعورهم ويرتدون الملابس النسائية ويطلون وجوههم بالأصباغ والمساحيق، كما أن البغاء في لندن قد انتشر ولم يعد محصوراً في المحترفات ببيع الفجور ولكن أصبحت تمارسه نساء وفتيات من مختلف الفئات والطبقات.

---

(١) حضارة الاسلام: العدد السابع، السنة الرابعة.

وقد جاء في تقرير اللجنة الذي رفعته إلى البرلمان: ان كثيراً من الزانيات في لندن لسن من المحترفات المتفرغات لهذه المهنة القذرة، وإنما هن من صغار الموظفات أو من طالبات الجامعات أو من المعاهد، اللواتي يمارسن البغاء إلى جانب أعمالهن ليحصلن على دخل إضافي يمكنهن من الانفاق عن سعة على الثياب المغرية وعلى مستحضرات التجميل.

ولذلك كله، فقد نشأ الجيل الجديد في بريطانيا وقد اهتزت جميع القيم وانهارت لديه ولم يؤمن بشيء إلا بالبحث عن المتعة وعن المال الذي ييسرها له، بأي ثمن وأي طريقة! ولذلك فقد انتشرت جرائم الأحداث في بريطانيا، وأصبح البغاء مهنة تمارسها الطبقة المتوسطة والطبقة العاملة على أوسع نطاق[1].

* * *

وفي خبر: أن الدكتور رسلي باري أسقف (نوتنجها مشبر) دعا رجال التعليم ورؤساء اتحادات الطلبة والمسؤولين إلى حضور مؤتمر لمناقشة مشكلة ما سماه «انهيار مستوى الأخلاق» بين الأطفال والمراهقين من سن العاشرة إلى سن التاسعة عشرة.

وفي خبر آخر: وافق مجلس النواب الأمريكي على اعتماد ٢٢ ألف دولار لتزويد سفارات أمريكا في أفريقيا بالويسكي. وقال النائب الديموقراطي جون روني: ان الويسكي هو (عدة الشغل) في سفارات أمريكا!.

وفي تقرير أنه تتصدر التكساس قائمة أكثر الولايات الأمريكية من حيث الجرائم، ففي كل ٣ دقائق و ٤ أعشار الدقيقة ترتكب فيها جريمة جنائية وفي خلال السنوات الأربع التي سبقت ١٩٦١ فاق عدد جرائم القتل المرتكبة في التكساس ١٠٨٠ شخصاً أي ضعف عدد من قتلوا في نيويورك.

ومن بين مدن التكساس تبرز (دالاس) في عـدد الجرائم والمجـرمين.

(١) حضارة الاسلام، جمادي الأول: ١٣٨٦هـ.

فجرائم القتل في (دالاس) يفوق عددها جرائم القتل في بريطانيا كلها.

وفي خبر أن عالماً نفسانياً أعلن: أن ربع عدد البالغين في بريطانيا يعانون من الشذوذ العقلي.

* * *

وجاء في تقرير لوزارة الداخلية البريطانية عام ١٩٦١ أن عصابات النساء والمراهقات زادت زيادة خطيرة مما يهدد الأمن العام. وقد ألقي القبض على ٧٤٢ ألف فتاة وسيدة خلال العام الماضي بتهمة السطو والسرقة و ١٠٠٠٠ فتاة تحت سن العشرين بتهمة الدعارة والتسكع والتحريض على الفسق.

أصدرت إدارة إحدى المؤسسات الأمريكية منشوراً تحرم فيه على الموظفات لبس الفساتين القصيرة. جاء فيه: «محظور أن تكون ركبتا العاملات بالمؤسسة عاريتين وهن جالسات إلى مكاتبهن» وقد ثارت ثائرة الجمعيات النسائية هناك لهذا القرار وبعثت احداها لادارة المؤسسة تقول: «إن هذا أمر تعسفي... وتقول أن جو العمل سوف تنقصه متعة كبيرة إذا لم تكن الركبتان مرئيتين».

جنيف ٨ آذار ١٩٦٤ ـ أعلنت منظمة الصحة العالمية المجتمعة الآن في جنيف بأن أهم مشكلة صحية تعانيها أوروبا هي انتشار الأمراض الجنسية ـ التناسلية بين الشباب الأوروبي بصورة مخيفة. ولقد وصلت نسبة الاصابات بمرض (السفلس) حداً قياسياً منذ الحرب العالمية الثانية حتى اليوم. وتقول هذه المنظمة في تقريرها: بأن الأمراض الجنسية هذه تنتشر أيضاً فيما عدا بين الشباب، بين التجار والعمال الأجانب والعاهرات والغانيات والمصابين بالشذوذ الجنسي.

في إحصائية لمكافحة تهريب المخدرات في أمريكا جاء أن ٦٥٪ من الرجال والشباب يدمنون المخدرات وأن النسبة في فرنسا ٥٥٪ وان النساء والفتيات تشترك فيها وفي انكلترا تبلغ النسبة ٢٥٪ من الرجال و١٥٪ من النساء المدمنات أما في إيطاليا فلا تزيد على ٧٪ فقط.

جاء في تقريرلرجال التربيةفي أمريكا: أن الطفل الأمريكي أصبح كسولاً

مائعا وغير مطيع. وقد علق الرئيس الأمريكي المتوفى - كنيدي - على هذا التقرير: إن الطفل الأمريكي أصبح أيضاً: رخواً وناعماً ويعمل والداه على تسمينه.

وفي نبأ أنه يموت في فرنسا كل دقيقة شخص واحد بسبب إدمانه على الخمر ويبلغ متوسط ما يشربه الفرد في فرنسا كل عام ٧ غالونات من الكحول النقي. وتحاول الحكومة الفرنسية معالجة المدمنين ويبلغ ما تنفقه على علاج المدمنين ١٧٠ مليون دينار.

تعاني وزارة الداخلية في أمريكا مشكلة معقدة للغاية وهي العمل على منع رجل البوليس الأمريكي من التحول إلى لص أو مجرم بعد أن كثرت في الآونة الأخيرة حوادث سرقة وقتل، كان أبطالها من رجال البوليس أنفسهم، وآخر هذه الحوادث هو إقدام أحد الضباط الكبار في وزارة الداخلية الأمريكية على سرقة بضائع ومجوهرات قيمتها ثلاثون ألف دولار. وفي المحكمة العسكرية المختصة اعترف (وليام مارلو) الضابط السارق بجريمته. وقام بتمثيل الحادثة. إلا أنه اتهم في نهاية المحاكمة عدداً من زملائه الضباط ورجال البوليس العاديين بالاشتراك معه في هذه العملية، كما اعترف بأنه قام هو وزملاؤه بحوادث مماثلة في العام الماضي!!.

يقول الدكتور: ألكسيس كاريل في كتابه: الانسان ذلك المجهول:

«إن المادية البربرية التي تتسم بها حضارتنا لا تقاوم السمو العقلي فحسب، بل أنها تسحق أيضاً الشخص العاطفي واللطيف والضعيف والوحيد وأولئك الذين يحبون الجمال ويبحثون عن أشياء أخرى غير المال (ص: ٣٧١)».

ويقول في مقام آخر:

«يكاد المجتمع الحديث أن يهمل الاحساس الأدبي اهمالاً تاماً، بل لقد كبتنا مظاهره فعلاً، فقد أشربنا جميعاً الرغبة في التخلص من المسؤولية. أما أولئك الذين يميزون الخير من الشر، والمرأة التي انجبت عدة أطفال وأوقفت نفسها على تعليمهم، بدلاً من الاهتمام الخاص بها تعتبر ضعيفة العقل، وإذا

ادخر رجل بعض المال لزوجته وتعليم أولاده سرق منه هذا المبلغ بواسطة الماليين أصحاب المشروعات أو أخذته الحكومة». ص: ١٨٥.

ويقول:

«الانسان نتيجة الوراثة والبيئة وعادات الحياة والتفكير التي يفرضها المجتمع العصري، وقد وصفنا كيف تؤثر هذه العادات في جسمه وشعوره وعرفنا أنه لا يستطيع تكييف نفسه بالنسبة للبيئة التي خلقتها «التكنولوجيا»[١].

وإن مثل هذه البيئة تؤدي إلى انحلاله. وإن العلم والتكنولوجيا ليسا مسؤولين عن حالته الراهنة. وإنما نحن المسؤولون لأننا لم نستطع التمييز بين الممنوع والمشروع. لقد نقضنا القوانين الطبيعية فارتكبنا بذلك الخطيئة العظمى. الخطيئة التي يعاقب مرتكبها دائماً. ان مبادىء «الدين العلمي» والآداب الصناعية قد سقطت تحت وطأ غزو «الحقيقة البيولوجية»... فالحياة لا تعطي إلا إجابة واحدة حينما تُستأذن في ارتياد الأرض المحرمة... هي أضعاف السائل... ولهذا فان الحضارة آخذة بالانهيار. لأن علوم الجماد قادتنا إلى أرض ليست لنا، فقبلناهداياهاجميعاً بلا تمييز ولا تبصر. ولقد أصبح الفرد ضعيفاً، متخصصاً، فاجراً، غبياً، غير قادر على التحكم في نفسه ومؤسساته».



(١) التكنولوجيا: Technologie مبحث الفنون والصنايع.

من خرافات الغرب

كل عقيدة أو عمل لا يستند إلى ركن وثيق: إلى نص سماوي صحيح أو تجارب علمية صحيحة، فهو خرافة يجب أن يلفظها الانسان، لو كان تابعاً للمنطق الصحيح، بعيداً عن الوساوس الشيطانية.

وإن الغرب يصم الشرق بأنه منبع الخرافات والأوهام كي يلفظ الشرقي معتقداته الدينية ويظنها خرافة يأباها العقل والمنطق. اما المستشرقون والقسيسون الذين قاموا بتأسيس مدارس تبشيرية في الشرق ليحققوا بذلك أغراضاً سياسية واقتصادية وتبشيرية. فهم إن لم يستطيعوا تنصير الشاب المسلم، فلا أقل يجعلونه عدواً للاسلام والمسلمين!.

ولقد سمعت منذ أربعين عاماً ممن كان قد رجع من دراسته في الجامعة الأمريكية ببيروت: ان الشرق منبع الخرافات، وبلاء الشرق دينه فلو لفظ الشرق هذا الدين فهناك التقدم وهناك الازدهار! فالصلاة خرافة والصوم خرافة والحج خرافة... إلى ما هنالك. والمدنية القائمة في الغرب هي التي يجب أن تُتبع، ففيها الحياة والنجاة من عقائد بالية وأفكار خرافية لا تلائم مفاهيم القرن العشرين: عصر النور والثقافة والتقدم المطرد.

وإن شبابنا بجهله معالم دينه وحقائق الاسلام وحكمه وتجرده من كل خرافة وكل ما لا يسنده المنطق غير المغلوب بشهوات النفس ونزواتها، يتقبل ما يملى عليه من قبل أعداء الاسلام، بل الانسانية، ظناً منه أنه قد خرج من الظلمات إلى النور، من عالم رجعي إلى آخر تقدمي، وهو يأسف على ما كان فيه من رجعية مريرة وخرافات وسخافات!.

ونحن ها هنا نورد بعض خرافات الغرب ولا نتطرق إلى ما في المسيحية

من خرافات أولدته اليد البشرية الأثيمة، فسمته ديناً سماوياً، مع العلم أن ما يأتينا من جانب الله تعالى مجرد عن كل خرافة، ومطابق للمنطق الصحيح إلى أبعد الحدود، شريطة أن لا تمسه يد التحريف والاهواء.

١ ـ كان (دوبربويل) البريطاني فيزياوياً مشهوراً وكيمياثياً معروفاً، يحمل معه دائماً جمجمة إنسان ظناً منه أنه لا يبتلي بحمله هذه الجمجمة بنزيف دموي في أنفه.

٢ ـ باسكال(Blaise Pascal) الفرنسي من أشهر الفلاسفة الرياضيين، كان قد خاط في قسم من لباسه قطعة من جلد الغزال، ظناً منه أن هذا العمل ينجيه من كل ريب وخيبة.

٣ ـ كان السحر رائجاً في أوربا في القرون الوسطى إلى حد بعيد. فالعجائز كن يتعاطين السحر وكن يحتفظن في بيوتهن بسنور أسود وبومة. وقد تفاقم أمر السحرة في أوربا في ذلك الحين حتى أحرق منهم عدد كبير من قبل القسيسين.

٤ ـ إن القرويين في فرنسا لحد اليوم يخافون من حيوان موهوم لا يرى بالعين رأسه كرأس الذئب وبدنه كبدن الانسان. يدعى: بـ(لوكارو) وهم يضعون الطلاسم في بيوتهم للتخلص من شرور هذا الحيوان الخيالي!.

٥ ـ وفي القرون الوسطى كانوا يلقون المتهم في حوض ماء كبير، فإن طاف على سطح الماء، ولم يغرق فهو بريء وإلا فهو مجرم يستحق العقاب!.

٦ ـ ولا يزال في الغرب من يتفاءل إذا التقطت دجاجة بسرعة ما يلقى لها على الأرض من حبوب، وكذلك إذا صادف أحدهم طيراً يطير نحو اليمين أو صادف نحلة أو نملة أو سمع أحداً يعطس قبيل الظهر. أو إذا اضطرب جفن العين اليمنى.

وعلى العكس يتشاءم الغربي إذا رأى سنوراً أو قرداً أو ذئباً أو ثعلباً أو حية، أو دجاجة لا تلتقط ما يلقى لها على الأرض من حبوب. أو إذا تعلق ثوبه بمسمار الكرسي، فيصيب الغربي في كل هذه الحالات حزن وأسى.

٧ ـ إن الغربي ليعتقد أن العدد ١٣ عدد نحس وشؤم وتعس، ولذلك لا يجلسون حول منضدة الطعام إذا كانوا ١٣ شخصاً. حتى ان الشرقي صار يقلد الغربي، فلا يكتب على باب غرفته ١٣ وإنما يكتب ١٢ + ١. دفعاً لشرور العدد المنحوس وشؤمه!.

٨ والأوربيون لا يمرون من تحت السلم ويتشاءمون من ذلك. كما أنهم يحملون معهم نعل الفرس كطلسم السعادة! ويهابون السنور الأسود والبومة كذلك.

٩ ـ ولقد رأيت قبل حوالي أربعين عاماً مفتشاً للمعارف بريطانيا كان إذا نظر في أوائل الشهر إلى الهلال أغمض عينيه حتى يفتحهما على شيء أو رجل يتفاءل من النظر إليه، كي لا يرى في ذلك الشهر إلا خيراً.

ولكن نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم يخاطب علياً في هذا المقام قائلاً:

«يا علي إذا رأيت الهلال فكبر ثلاثاً. وقل: الحمد لله الذي خلقني وخلقك وقدرك منازل وجعلك آية للعالمين».

فنبينا محمد (ص): لا ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى. والأدب الاسلامي يهدف دائماً إلى توحيد الله وتجليله وتقدير ما خلق كي يزداد الفرد إيماناً بالله فمعرفة، وهي غاية الغايات. فلا ترى عملاً في الدين الاسلامي يمجه العقل أو يأباه إلا إذا كان العقل قد انسحب نتيجة الاسراف والسفه والآثام، فيرى الحق باطلاً والباطل حقاً.

وقد نهى الاسلام عن كل خرافة بقوله: ﴿ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾[1].

١٠ ـ في ضواحي باريس(Paris) محل يدعى: لورد. وان امرأة من أهالي لورد ادعت ذات يوم قبل حوالي تسعين عاماً أنها رأت في الغار بالقرب منها: مريم عليها السلام. وأعلمت الناس بذلك فهرع الناس أفواجاً إلى ذلك

(١) سورة الحشر. آية: ٧.

المحل يقدسونه ويتبركون به وهكذا في كل سنة، في يوم معين.

وإن قسماً من المسيحيين يعلقون مجسمات الحيوانات في رقابهم للحفظ!

* * *

وفي لندن توجد محلات خاصة بالفقراء: قذرة مملوءة بالأوساخ والذباب وأنواع الميكروبات والباعة ألبستهم قذرة وهم في فقر مدقع.

فانك لو ذهبت إلى حارة (كوي ليفربول) لشاهدت أزقة ضيقة، مملوءة بالأوساخ ومزدحمة بالسكان وهم بأشكال غريبة. وباعة السمك والمخضرات والفواكه جالسون بعضهم جنب بعض ينادون بأصوات مزعجة لجلب الناس إلى شراء بضائعهم وفيها النتنى، وهناك حمالون يحملون البضائع على رؤوسهم وظهورهم وعليها الذباب!.

وتجري في تلك الأزقة مياه نتنة[1] ملوثة بدم الخنزير والسمك وترى هناك أطفالاً مشردين متسكعين عراة، يجولون ها هنا وها هنا حرفتهم السرقة ونهب الجيوب.

وليس لأحد من الأجانب أن يصور هذا المنظر ويستعمل جهاز التصوير فان البوليس له بالمرصاد.

وهناك حارة أخرى في لندن تسمى (كونت كاردن) يباع فيها المخضرات والفواكه، فإذا دخلت فيها لشاهدت عدداً لا يستهان به من الحمالين بثياب رثة وسخة، كما أن هناك قرى أخرى أطراف لندن سكانها كسكان المغارات والحفر الجبلية.

ولقد قرأت قبل حوالي خمسة وعشرين عاماً مقالاً لعراقي كان قد ذهب إلى ألمانيا لينال درجة الدكتورا في الكيمياء. جاء فيه: انه اتفق أن قال لامرأة أنها ستلد ولداً بعد سنة، وشاء الله أن تلد هذه الامرأة ولداً فشاع الخبر وإذا بنساء كثيرات يراجعن هذا العراقي ليبشرهن بمولود، ويطلبن منه بعض الأدعية والطلاسم.

---

(١) مؤنث نتن: نتنى، وما تعارف عليه الناس نتنة.

فالمأمول من شبابنا أن لا ينظر إلى كل ما في الغرب نظرة تجليل وإكبار، فليس كل ما في الغرب كمالاً وجمالاً، أنهم ركزوا جهودهم نحو الحياة المادية وخواص المادة واهملوا النواحي النفسية وما يؤدي إلى سعادة النفس في النشأتين. وان المادية لتجتمع مع كل خرافة، والاسلام بعيد عن كل خرافة. لأنه آت من منبع صاف نمير. لا كدر فيه ولا انحراف. لذلك ينهي عن الظن ويأمر بالتدبر والتفكر: «أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها»[1].

﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير. أفلا تتفكرون﴾[2].

﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾[3].

﴿قل الله يهدي للحق، أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يُهدى. فما لكم كيف تحكمون. وما يتبع أكثرهم إلا ظناً، ان الظن لا يغني من الحق شيئاً، ان الله عليم بما يفعلون﴾[4].

﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾[5].

فلا تكامل لهذا الانسان إلا بنبذ الظنون الباطلة والخرافات المضلة وجاهلية القرن العشرين الملوثة بمادية عمياء وإتباع العقل المجرد عن الشهوات وتطبيق سنة سيد المرسلين وأولاده المعصومين عليه أفضل الصلاة والسلام.

إنتهى، والحمد لله، الجزء السادس، وسيليه، إن شاء الله تعالى، الجزء السابع.

---

(١) سورة محمد (ص): ٢٤.

(٢) سورة الأنعام: ٥٠.

(٣) سورة آل عمران: ١٩١.

(٤) سورة يونس: ٣٦.

(٥) سورة النجم: ٢٣.

فهرس الجزء السادس

الموضوع الصفحة

التكامل في الإسلام

بقلم
أحمد أمين
خريج كلية التربية وجامعة إسطنبول
الرياضيات العامة والفيزياء الرياضية العالية

الجزء السابع

دار المعرفة
بيروت - لبنان

- بسم الله الرحمن الرحيم -

فبعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالحق، ليخرج عباده من عبادة الأوثان إلى عبادته[1]، ومن طاعة الشيطان إلى طاعته، بقرآن قد بيّنه وأحكمه، ليعلم العبادُ ربهم إذ جهلوه، وليقرّوا به إذا جحدوه. وليثبتوه بعد إذ أنكروه، فتجلى لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه، بما أراهم من قدرته، وخوفهم من سطوته، وكيف محق من محق بالمثلات واحتصد من احتصد بالنقمات.

وأنه سيأتي عليكم من بعدي زمان ليس فيه شيء أخفى من الحق، ولا أظهر من الباطل، ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله!! وليس عند أهل ذلك الزمان سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حق تلاوته، ولا أنفق[2] منه إذا حرف عن مواضعه، ولا في البلاد شيء أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر، فقد نبذ الكتاب حملته، وتناساه حفظته، فالكتاب يومئذ وأهله طريدان منفيان وصاحبان مصطحبان في طريق واحد لا يؤويهما مؤوٍ!! فالكتاب وأهله في ذلك الزمان في الناس وليسا فيهم ومعهم. لأن الضلالة لا توافق الهدى وان اجتمعا فاجتمع القوم على الفرقة وافترقوا عن الجماعة، كأنهم أئمة الكتاب وليس الكتاب إمامهم، فلم يبق عندهم منه إلا اسمه ولا يعرفون إلا خطه وزبره»[3]. . . الخ.

---

(١) من كلام لمولانا ومقتدانا علي أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام نهج البلاغة، الجزء الثاني، ص: ٤٠ - ٤١.

(٢) أنفق منه: أروج منه.

(٣) الزبر «بالفتح»: الكتب، مصدر كتب.

بسم الله الرحمن الرحيم

تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيرا(١)

البروج تطلق على مجموعات النجوم وتكدساتها كما تبدو للناظرين من الأرض. أما السراج فهو الشمس التي نعيش في كنفها غير بعيد عنها نسبياً. وهي نجم هائل يزيد قطره على مليون وثلث مليون من الكيلومترات، أي أن قطر الشمس اكثر من قطر الأرض مائة مرة. والشمس كالسراج أو المصباح الذي يرسل نوراً وحرارة. ولكن يبلغ درجة حرارة جوها أو غازها الخارجي نحو ٦٠٠٠ درجة مئوية (سانتيكراد). وتزداد هذه الحرارة سريعاً بازدياد القرب من المركز حيث تصل إلى أكثر من ٢٠ مليون درجة مئوية. وذلك نظراً لما تعانيه مكوّنات المركز من ضغوط هائلة تفوق حدود الوصف والخيال وتتكرر معنى الشمس كسراج في قوله تعالى في سورة نوح: ﴿وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً﴾.

وتندلع من الشمس، لذلك، نافورات من غازات ملتهبة إلى ارتفاعات تقدّر بآلاف الكيلومترات، ومن هذه النافورات ما يعرف باسم البقع الشمسية، وهي أعاصير جبارة في جو الشمس، وقد يبلغ قطر الاعصار فيها نحو ٥٠ ألف كيلومتر. وفي العادة يتبع ظهورها انتشار أمواج من المغناطيسية والكهربائية في الفضاء لا تلبث أن يصحبها عواصف مغناطيسية على الأرض تفوق أعمال الراديو واللاسلكي عموماً.

---

(١) سورة الفرقان: ٦١

ويحتوي الاشعاع الشمسي قبل دخوله جو الأرض نسباً متباينة من الاشعاعات الأثيرية ذات الموجات المختلفة الأطوال أو الصفات إلا أنه يمكن حصر السواد الأعظم منها في حزمة تحدها موجتان هما نحو ٠,١٧ ميكرون ونحو ٤ ميكرون. والميكرون وحدة لقياس الأطوال الصغيرة وهي تساوي جزءاً من عشرة آلاف جزء من السانتيمتر الطولي المعروف أي $\frac{١}{١٠٠٠٠٠٠}$ من المتر.

وتقدر نسب الطاقة في طيف الشمس، أي مقدار ما يفد منها لكل ١٠٠ وحدة على النحو الآتي:

١ - حوالي ٩٪ أشعة فوق البنفسجية. وهي تكون حزمة تنحصر أطوال أمواجها ما بين ٠,١٧ ثم نحو ٠,٣٣ ميكرون. وهذه الأشعة التي لا تميزها الأعين لها تأثيرات عظمى على الخلايا الحية. ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون﴾[(١)].

٢ - حوالي ٥٠٪ أشعة مرئية (ضوء)... وهو الذي جعل الشمس ضياءاً والقمر نوراً. وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق، يفصّل الآيات لقوم يعلمون﴾[(٢)].

والأشعة المرئية أو الضوء حزمة من الاشعاعات تكاد تنحصر أطوال أمواجها ما بين ٠,٣٤ ميكرون ونحو ٠,٨ ميكرون. هذه الحزمة التي تدركها الأعين هي مصدر النور في جو الأرض وعلى سطحها أثناء النهار. ولذلك فالشمس سراج ينير الأرض وجوّها على حد تعبير الآية الكريمة. ويصل التنوير نهايته العظمى عند انتصاف النهار. وهو في فصل الصيف ضعف قيمته في فصل الشتاء. ولضوء الشمس اتصال وثيق جداً بنمو النباتات وترهيرها. إذ أن التزهير يتطلب قدراً معيناً من الاضاءة لا بد من توفره.

٣ - نحو ٤١٪ أشعة تحت الحمراء أو حرارية، وهي تكون حزمة طويلة تمتد أطوال أمواجها من نحو ٠,٨ ميكرون إلى أكثر من ٤ ميكرون.

---

(١) سورة الحاقة: ٣٨.

(٢) سورة يونس: ٥

وتبلغ كثافة الاشعاع الشمسي على السنتيمتر المربع الواحد خارج جو الأرض في المتوسط نحواً من سعرين حراريين في الدقيقة ويطلق على هذا المقدار من الحرارة اسم: (الثابت الشمسي)[1].

ويتناقص الاشعاع الشمسي بعض الشيء بدخوله جو الأرض لأسباب عديدة في جو الأرض نفسه، منها ظاهرة التشتت أو التناثر بجزيئات الهواء وما يعلق في الجو من جسيمات صغيرة. كما أن منها ظاهرة الامتصاص وخاصة بالأوكسيجين الذري في الطبقات العليا، ثم بواسطة غاز الأوزون على أبعاد تمتد من نحو ١٥ إلى ٤٥ كيلومتراً. ومن أهم ما يسبب تناقص الطاقة الشمسية في جو الأرض الانعكاس من السحب والرمال التي تثيرها البراكين والعواصف. فهي ترد إلى الفضاء جزءاً من الاشعاع الشمسي كل يوم.

وظاهرة التشتت أو التناثر كما قدمنا هي مصدر إنارة جو الأرض. أو ما نسميه ضوء النهار. ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة، من آله غير الله يأتيكم بضياء، أفلا تسمعون﴾[2].

ولو أننا خرجنا من الجو إلى الفراغ أو الفضاء الكوني لوجدناه مظلماً رغم بزوغ الشمس وبروزها في أي ركن من أركان السماء! وكأنما سلخ النهار من الليل سلخاً وهكذا يخيم الأصيل وهو الظلام. أما النهار فهو طارىء، يتم حدوثه بتلك العملية، (أو تشتت ضوء الشمس) التي لا تجري إلا في جو الأرض وما على شاكلته من أجواء الكواكب، وهو قوله تعالى:

﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون﴾[3]. ﴿الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور. ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾[4].

---

(١) السعرة أو السعر الحراري هي: كمية من الحرارة اللازمة لرفع درجة حرارة غرام واحد من الماء درجة واحدة مئوية (سانتيكراد).

(٢) القصص: ٧١

(٣) سورة يس: ٣٧.

(٤) سورة الأنعام: ١.

فقدم سبحانه وتعالى: الظلمات، على النور. ويعلم من هنا أنه تعالى قد خلق النور بعد خلقه الظلمات.

* * *

قد استخرج (إسحق نيوتن) قبل أن نعرف المسافة إلى أي نجم بزمن بعيد، أن النجوم شموس بعيدة، ولكنها على مسافات سحيقة جداً بحيث ما كان يمكن رؤية سطوحها خاصة باستخدام تلسكوبات ذلك العصر. وحتى في عصرنا هذا لا يمكن رؤية سطوح النجوم، وان الشمس هي النجم الوحيد الذي يمكن أن نرى سطحه.

ويمكن الحصول على منظر الشمس أكثر قرباً بالنظر اليها خلال التلسكوب مع أخذ الاحتياطات الكافية لوقاية العينين، وإلا فمن الممكن فقد البصر كلية. وإن سطح الشمس بعيد كل البعد عن النعومة، بل انه مشقق إلى آلاف عديدة من الخلايا ويقول أغلب الفلكيين الآن ان تلك الخلايا المضيئة هي قمم لأعمدة غازية ساخنة تنتقل من الأعماق «الشمسية» إلى السطح بمعدل سريع، وتبدأ في الهبوط عندما تأخذ بالبرودة. ويكون تأثير البرودة هو أن تفقد لمعانها وتظهر مظلمة بالتباين مع الأعمدة الساخنة الصاعدة، ويبدو ان سطح الشمس على شكل مجموعة متناثرة من النافورات ذات البريق الآخذ بالابصار. تشغل كل منها مساحة قدرها ١٠٠ ألف ميل مربع. وتثير بعنف كل بضع دقائق.

وتحدث على سطح الشمس فورانات أعظم من السابقة وغالباً ما تغطى هذه الأوهاج أو البقع الساخنة عدة ملايين من الأميال المربعة من سطح الشمس.

والوهج شيء شبيه بما يمكن أن نظنه انفجاراً في خزان طاقة شمسية.

وما أشبه حالة الشمس وهي تتحول إلى طاقات هائلة مع انفجارات مدهشة إلى جهنم خلقها الله للعاصين من عباده حيث يقول: ﴿إنطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. إنطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب، لا ظليل ولا يغنى من

اللهب، إنها ترمي بشرر كالقصر، كأنه جمالة صفر، ويل يومئذ للمكذبين﴾. (سورة المرسلات).

عندما يكون نشاط الشمس أكثر من المعتاد، ينهال على الأرض وابل من الجسيمات المشحونة البالغة الفتك بالحياة والتي يقينا الجو من خطرها[1]. ولكن خطورتها تصبح ذات أهمية خاصة بالنسبة للانسان المسافر خارج الأرض دون غطاء من الهواء يحميه.

ومعلوم أن الشمس تسطع وان توهجها يكافىء توهج ألف مليون مليون مليون مصباح كهربائي قدوته ١٠٠٠ وات. وتتدفق الطاقة من الشمس بمعدل يبلغ ٤×١٠^{٣٣} ارك[2] في الثانية، ولقد ظلت تفيض بهذه الطاقة عدة ملايين وربما بلايين من السنين ويعتقد الفيزياويون ان الشمس سوف تواصل عملها هذا لفترة اخرى تساوي الفترة السابقة طولاً، إلا إذا شاء الله تبديل الشمس بشمس أخرى والسماوات بسماوات أخرى. على حد قوله تعالى:

﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات، وبرزوا لله الواحد القهار﴾[3]. وهو القائل:

﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾[4].
﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن، فيكون﴾[5].

* * *

إن ضوء الشمس ضوء نجمي وتتدفق من بلايين النجوم الأخرى طاقة مماثلة بكميات قد تزيد أو تقل عن الطاقة الشمسية وفقاً لدرجات حرارة تلك النجوم وأحجامها. وتبعث تلك النجوم التي تحتل قمة سلم اللمعان طاقة بمعدل يفوق ما تبعث به الشمس آلاف المرات.

---

(١) ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون﴾ (سورة الأنبياء: ٣٢).
(٢) آرك: =Erg وحدة الطاقة.
(٣) سورة إبراهيم: ٤٨.
(٤) سورة القمر: ٥٠.
(٥) سورة يس: ٨٢.

لكن ما السبب في سطوع النجوم على الاطلاق وما مصدر طاقتها؟.

إننا نعلم من الفيزياء النووية ومن القنبلة الايدروجينيـة: أن تسخين الايدروجين إلى درجة حرارة عالية علواً كافياً تبلغ ١٥ مليون درجة حرارية مـطلقة تحت ضغط متناه في العلو ينشأ عن تحـول عنصري. إذ يتحـول الايدروجين إلى الـ (هليوم). ولهذه العملية ناتج إضافي مهم جداً هو انطلاق كميات هائلة من الطاقة.

اننا إذا أردنا أن نحصل على كميات كبيرة من الطاقة بثمن بخس عن طريق تسخين الايدروجين، فعلينا أن نحصل على فرن وكمية كبيرة جداً من الايدروجين ثم نبدأ بالتشغيل، لكننا نجد أن الفرن يتبخر ويتلاشى قبل أن نصل إلى درجة الحرارة اللازمة التي تبلغ ١٠ أو ١٥ مليون درجة مطلقة، وتحل هذه المشكلة بصنع فرن كبير جداً وان نضع فيه كمية وفيرة جداً من الايـدروجين بحيث إذا ذابت جـدران الفرن فـان الكتلة العـظيمـة من الايدروجين تبقى متماسكة مع بعضها بفعل جاذبيتها، وما النجم إلا فرن طاقة نووية ايدروجينية عظيم الكتلة بحيث أنه متماسك مع بعضه من تلقاء نفسه.

ومن المعلوم أن الطاقات متنوعة. طاقة كهربائية وطاقة ميكانيكية وطاقة حرارية، وقد توصل العلم قبل برهة من الزمن إلى تحويل الطاقة الكهربائية إلى طاقة ميكانيكية. وتحويل الطاقة الميكانيكية إلى طاقة حرارية وبالعكس بأي نسبة من النسب وإذا قمنا بإجراء عمليات حسابات مضبوطة لوجدنا أن كمية الطاقة التي بدأنا بها تظل ثابتة تماماً.

ثم جاء أينشتين وبرهن على أن قانون الكتلة والطاقة هما في الحقيقة قانون واحد. فالمادة والطاقة تتحولان إحداهما إلى الأخرى تحت ظروف فيزيائيـة ملائمة طبقاً لمعادلة اكتشفها أينشتين (ط = ك س^{٢}).

أي أن الطاقة المتحررة من تحطيم الذرة (ذرات الكتلة) تساوي مربع سرعة الضوء مضروباً في الكتلة: ك.

س = سرعة الضوء = ٣٠٠٠٠٠ كيلو متر في الثانية.

أو ٣٠٠٠٠٠ × ١٠٠٠ = ٣ × $١٠^{٨}$ متر.

أو ٣ × $١٠^{٨}$ × $١٠^{٣}$ = ٣ × $١٠^{١٠}$ سانتيمتر.

ومربع هذا المقدار = ٩ × $١٠^{٢٠}$ سم/ثانية.

والضوء النجمي عبارة عن طاقة تتولد في بواطن النجوم بكميات هائلة جداً بحيث لا يمكن تفسيرها بالتفاعلات الكيميائية. إذ أن الضوء لو كان ناتجاً من انطلاق الطاقة في التفاعلات الكيميائية العادية لكانت النجوم قد أصبحت رماداً منذ زمن بعيد. وعلى ذلك فلا بد أن الطاقة النجمية ناتجة عن تحول كميات من مادة النجم ذاته إلى طاقة.

وإن الشمس تبعث في كل ثانية (كما قلنا) بطاقة قدرها ٤ × $١٠^{٣٣}$ أرك: (Erg) ولكن كيف يتأتى أن نعرف ذلك. لقد عرف ذلك بقياس كمية الطاقة التي تتلقاها وحدة المساحات من سطح الأرض قياساً دقيقاً، ثم ضرب هذه القيمة في عدد وحدات المساحة التي تكون سطح كرة نصف قطرها وحدة فلكية واحدة[١].

وقد علم اعتماداً على دستور اكتشفه أينشتين: (الطاقة = مربع سرعة الضوء في الكتلة): أن أربعة ملايين ونصف مليون طن من كتلة الشمس تتحول إلى طاقة في الثانية الواحدة وتصل هذه القيمة إلى حوالي ١٥٠ مليون طن سنوياً. فلا بد أنها استهلكت ١٥٠ ألف مليون مليون مليون طن خلال فترة قدرها بليون سنة.

وبحساب قوة جذب الشمس للأرض نجد أن الشمس تمثل كتلة قدرها ٢ × $١٠^{٣٣}$ غرام.

* * *

وزيادة في التوضيح نقول: إن استمرار وصول الطاقة الشمسية منذ ملايين السنين بدرجة معتدلة إلى الأرض يعزى إلى انحلال الذرة وانشقاق الذرة. ذلك: أن ذرة الراديوم تنحل. ومن بعض انتاجات انحلالها غاز

(١) الوحدة الفلكية هي متوسط بعد الأرض عن الشمس وتساوي ٩٣ مليون ميل تقريباً.

الهليوم. وهي تنحل فتشع فتخرج الطاقة، وقد استدلوا أنّ في الشمس مقداراً كبيراً من الراديوم. فاستدلوا على أن الشمس تتجدد طاقتها من انحلال الراديوم وحصول الهليوم نتيجة انحلاله.

ولانشقاق ذرة اليورنيوم وكذلك الايدروجين أثر فعال في حدوث طاقات هائلة.

فالشمس أتون من نار، يجري فيه مثل ما يجري في ملايين الملايين من قنابل ايدروجينية، يتحول فيها الايدروجين إلى هليوم وإلى عناصر أكثر تركيباً من الهليوم. فالايدروجين هي اللبنة التي بني منها الكون بأمر من الله تعالى جلت قدرته.

ولا شك أن الله جعل حياتنا متعلقة بحياة الشمس. فالحياة بحاجة إلى ماء والنبات بحاجة إلى ماء والحيوان بحاجة إلى الماء وكذلك الانسان، وماء البحر مالح والشمس هي التي تحيله باذن الله وعظيم تدبيره إلى ماء فرات فترشه على النبت مطراً أو تجريه في مسارب الأرض أنهاراً والدفؤ من الشمس، فاننا نحرق الخشب وما الخشب إلا خزائن الطاقة الشمسية، وحياة الدواب متوقفة على الشمس وكذلك النفط والبانزين فهي طاقات شمسية مدخرة بلطف من الله تعالى. كما أن الفحم طاقة شمسية مخزونة في أعماق الأرض.

فكل حيّ مصباح دافىء ينير، فإذا أطفِّئت الشمس انطفأت كل هذه المصابيح على الأرض ويسود الظلام ومن بعده البرد، برد فيه الهلاك والفناء لكل حي على وجه الأرض، وقد قال جل من قائل بالنسبة إلى أمارات يوم القيامة:

﴿إذا الشمس كورت، وإذا النجوم انكدرت، وإذا الجبال سُيرت، وإذا العشار عطلت، وإذا الوحوش حشرت، وإذا البحار سجرت[1].

(١) سورة التكوير: ١ ـ ٦. (كُورّت: ذهب نورها وانطفأت انكدرت: انقضت وتساقطت ـ العشار: النوق الحوامل ـ عطلت: تركت بلا راع ـ حشرت: جمعت بعد البعث ـ سجرت: أوقدت فصارت ناراً.

فالشمس، كما قلنا، كرة هائلة من غازات متقدة متوهجة إلى أبعد الحدود. قطرها (٨٦٥٣٨٠) ميلاً على وجه التقريب. ولو أننا صففنا على هذا القطر كرات أرضية، مثل كرتنا الأرضية، لبلغ عددها ١٠٩.

وقلنا أن درجة حرارة الشمس على سطحها ٦٠٠٠ درجة مئوية وأما درجة الحرارة في أوسط الكرة الشمسية تقدر بـ(٢٠,٠٠٠,٠٠٠) درجة مئوية وان السانتيمتر المربع الواحد من سطح الشمس يشع فيعطي في الدقيقة الواحدة ٨٩٠٠٠ سعر حراري. وسطح الشمس كله يعمل في اشعاعه عمل (٥٨٠) ألف مليون مليون مليون حصان. ونصيب الأرض من هذا الاشعاع كله يبلغ نحواً من جزء من ٢٢٠٠ مليون جزء. ونصيب الميل المربع على سطح الأرض منه يعادل في المتوسط ٥ ملايين من الأحصنة: الأحصنة الميكانيكية: التي تتخذ وحدة للطاقة أو للقدرة.



وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً

قلنا سابقاً إن الله تعالى قد عبر عن الشمس بالسراج:

﴿وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً﴾(١).

﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً﴾(٢).

﴿وبنينا فوقكم سبعاً شداداً، وجعلنا سراجاً وهاجاً﴾(٣).

ولا ريب أن نور الشمس أو بالأحرى ضياءه هو بعض إشعاعها وضوء الشمس أضوأ من القمر نصف مليون مرة، وان السانتيمتر المربع الواحد في سطح الشمس يعطي من الضوء ما يعادل (٥٠,٠٠٠) شمعة.

وضوء الشمس أبيض اللون، هكذا أثره في العين. ولكن لو أرسلنا شعاع الشمس إلى منشور ثلاثي من الزجاج انكسر الشعاع مرتين وتحلل إلى ألوان سبعة مختلفة، أي يدخل الشعاع إلى الزجاج من سطح ليخرج من سطح آخر من أسطحه الثلاثة. أنه لا يخرج أبيض كما دخل وإنما يخرج وقد تفرق إلى شعاعات كثيرة بألوان مختلفة: الأحمر، والبرتقالي، والأصفر والأخضر والأزرق والنيليّ والبنفسجي. ولو أنك جمعت هذه الشعاعات السبعة الملونة مرة أخرى فخلطتها، لخرجت شعاعاً واحداً، وكان شعاعاً أبيض كالذي كان أول مرة.

وبهذا التحليل أمكن معرفة أمور كثيرة عن طبيعة منبع الضوء بدرس نوع

(١) سورة نوح: ١٦.
(٢) سورة الفرقان: ٦١.
(٣) سورة النبأ: ١٣.

الضوء الذي يشعه. وقد أدى ذلك إلى اختراع عناصر كيميائية جديدة ومعرفة معلومات قريبة عن الشمس وبقية الكواكب وأدى أيضاً إلى التحري عن الخواص المختلفة لأنواع الضوء المختلفة وتأثير بعض أنواع الضوء على صحتنا.

إن الضوء عندما يسير بين الشمس والأرض، أو بين أحد النجوم وبين أرضنا هذه، فأنه يسير بنفس السرعة. ولكن الضوء عندما يسير في وسط آخر، أي عندما يسير داخل الزجاج أو الماء أو المواد الشفافة الأخرى يسير بسرعات (سرع: سرعة) مختلفة مثلاً: ألضوء الأزرق يسير أبطأ من الضوء الأحمر.

وبما أن مقدار انكسار الضوء عند دخوله في المنشور الزجاجي أو خروجه منه يتوقف على مقدار التغيير في سرعة الضوء ينتج من ذلك أن الأنواع المختلفة للضوء تنكسر بمقادير مختلفة أيضاً في أية مادة شفافة. وعندما ينثني أو ينكسر الضوء مرتين في منشور ثلاثي فنشعر إذ ذاك بتفرق الأنواع المختلفة للضوء لاختلاف ألوانها. فيظهر لنا أن الانكسارات المختلفة للألوان السبعة من ضوء الشمس إنما هي لاختلاف سرعة كل من هذه الألوان الضوئية عند سيرها في وسط زجاجي أو وسط آخر.

فالشعاعات الحمراء تميل عن مجراها الأول، أي، عن مجرى الضوء الأبيض، قليلاً. والشعاعات البرتقالية التي تليها تميل عن ذلك المجرى الأول أكثر، لأن طول موجتها أصغر، والشعاعات الصفراء التي تليها تميل عن الشعاعات البرتقالية لأن موجتها أصغر منها، وتلي الشعاعات الصفراء: الخضراء. فالزرقاء فالنيلية فالبنفسجية.

سبعة ألوان تميزها العين فيما نرى من الطيف، تصغر موجاتها كلما ذهبنا من الطرف الأحمر من الطيف إلى الطرف البنفسجي منه.

وإن الأشعة التي يتركب منها شعاع الشمس ليست بسبعة، وإنما هي آلاف!! يندمج بعضها في بعض، ويتدرج بعضها إلى بعض في موجات تتراوح أطوالها ما بين ٧٠٠٠ إلى ٣٩٠٠ وحدة، لا سبيل إلى وصفها باللون.

وهذه الوحدة صغيرة جداً، إنها جزء من عشرة ملايين من أجزاء تقسم اليها المليمتر الواحد.

فأطول موجة تشعر بها العين هي موجة الضوء الأحمر، بينما أصغرها (من حيث رؤية العين) موجة الضوء البنفسجي.

ويظهر من الجدول الآتي الأطوال الموجية التقريبية والترددات لبعض الألوان (الأشعة) الطيفية.

	الموجة الطولية بالسانتيمترات	الترددات بمليون المليون من الأمواج في الثانية
الأحمر (أطول موجة تُرى)	٠,٠٠٠٠٧٦	٣٩٠
البرتقالي	٠,٠٠٠٠٦٢	٤٨٠
الأصفر	٠,٠٠٠٠٥٧	٥٣٠
الأزرق	٠,٠٠٠٠٤٧	٦٤٠
الأخضر	٠,٠٠٠٠٥٢	٥٨٠
البنفسجي (أقصر موجة ترى)	٠,٠٠٠٠٣٨	٧٩٠

ومعلوم أن السرعة (أو سرعة الموجة): تساوي طول الموجة في عدد الترددات في ثانية واحدة أي س = لا × ت.

والتردد عبارة عن عدد الهزات الكاملة التي يتمها جزء صغير من الوسط في الثانية الواحدة أو أنه عدد الموجات التي تمر في نقطة معينة في الثانية الواحدة.

* * *

﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون﴾[1].

إن الله تبارك وتعالى يقسم بما خلق مما يمكن إبصاره وما لا يمكن إبصاره، وإن الانسان ما كان يعلم عن الأشياء المادية ما لا يمكن إبصاره، وهو موجود حقاً، فصار قسم من الشذاذ، ممن أظلمت نفوسهم بما اجترحت أيديهم من

(١) سورة الحاقة اية ٣٨ ـ ٣٩.

أنواع البغي والفسوق ينكر ما لا يمكن إبصاره بالعين المجردة ويراه غير موجود. فترشحت من هذه النفوس الأثيمة بضلالها وغوايتها المسلك المادي الالحادي الزائف، الذي يفنده العلم الحديث.

ومن جملة ما لا يمكن إبصاره وهو موجود حقاً هي الأشعة التي تأتي في الطيف الشمسي بعد الأشعة البنفسجية، فهي مما لا تراه العين.

فهي شعاعات أصغر موجة، إنها الأشعة المعروفة بـ(فوق البنفسجية) = Ultra — Violet إنها الأشعة التي تؤثر في اللوح الفوتوغرافي العادي وتعطينا الصور الفوتوغرافية وبالفوتوغراف نحن نصورها.

وما وراء الأشعة فوق البنفسجية أشعة أخرى أصغر منها موجة. ومنها الأشعة السينية(R.X.) وهي التي تنفذ في الأجسام وتؤخذ بها صور من داخل أجسامنا. ونكشف بواسطتها العوارض والأمراض. وبعد الأشعة السينية تأتي أشعة كاما = جاما، تلك التي منها ما يبلغ جزءاً صغيراً من هذه الوحدة المتناهية الصغر التي بها نقيس موجات الضوء، وهي الأشعة التي تخرج عند انفلاق الذرة فتضر بالناس ضرراً وأي ضرر. وقد تؤدي إلى الهلاك والبوار.

وهناك أيضاً أشعة هي وراء الأشعة الحمراء وأكبر منها موجة، وتعرف بأشعة ما تحت الأحمر. وليس من ذنبها أن العين لا تراها، فهي موجودة والعين محدودة القابلية والملكات. هي من القابليات يقدر ما أودع الله فيها، وبهذا استدل دكارتRené Descartes على وجود الباري جل جلاله. ذلك لأن الانسان لو كان صانعاً نفسه لما أودع فيها (في بدنه) من نقائص ولأعطاه قابلية فائقة، ذلك لأن الانسان يحمل فكرة الكمال والتكامل. فوجوده بهذا المقدار من القابليات، ووجوده مع هذه النقائص دليل على أن صانعه كامل، كامل على الاطلاق، وليس للانسان أي تصرف في صنع نفسه.

فهذه الأشعة: الأشعة ما تحت الأحمر هي الأشعة الحرارية (الحرارة) التي نحس بها أجمعين.

ومن بعد هذه الأشعة تأتي الأشعة اللاسلكية وطول موجتها قد يكون جزءاً من عشر من المليمتر. وقد يبلغ أميالاً طوالاً.

فالطيف الشمسي يتألف من موجات مختلفة منها الأمواج الضوئية ومنها الأمواج الحرارية ومنها الأمواج السينية ومنها الأمواج الكاموية أو الجيمية ومنها الأمواج اللاسلكية وكلها شيء واحد في طبيعته. لا اختلاف فيما بينها إلا من حيث طول الموجة.

وكل هذه الأمواج مظهر من مظاهر الطاقة فالطاقة تتجلى بأشكال شتى ولكن في هذه الصور المختلفة من الطاقة تدرك الوحدة. هي بعض وحدة الكون: ـ فالضوء، والحرارة والأشعة السينية، واللاسلكية... الخ. كلها شيء واحد في طبيعته.

وهناك غاية أخرى من حديث الطيف الشمسي: هي أن نعلم ما في الشمس من عناصر... وان نعلم العناصر التي قد تكونت منها هذه النجوم. فما الكون إلا نجوم. ويفيدنا هذا البحث لايضاح الوحدة الكاملة الشاملة في هذا الكون: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾[1].

* * *

ويشاهد على سطح الشمس بقع سوداء ولكنها ليست سوداء، انها أقل توهجاً لأن درجة حرارتها أقل من أماكن أخرى على سطح الشمس، لهذا يظهر فيها إعتام بالنسبة لما حولها من إطار أنصع. ولعلها أعاصير تخرج بها الغازات من بطن الشمس فوارات.

وإن ظهور هذه البقع على وجه الشمس واختفاءها يؤثر على المجالات المغناطيسية في الأرض، وكذلك في اذاعاتها اللاسلكية وان هذه البقع تظهر دائماً على الشمس وتختفي دائماً، إنها تثور لتهدأ وتهدأ لتثور من جديد. وإن هذه البقع على وجه الشمس لدليل أن الشمس كرة غازية ملتهبة وهي في جيشان وثوران.

ويسمى سطح الشمس الخارجي بالغلاف الضوئي أو الطبقة المرئية، لأن من هذه الطبقة يخرج النور أو الضوء الينا. فنرى الشمس والطبقة المرئية طبقة

---

(١) سورة الملك: ٣.

رقيقة جداً، ذلك لأن قطر الشمس يساوي (٨٦٥٣٨٠) ميلاً[١] على وجه التقريب كما ذكرنا.

وبدراسة طيف الشمس نتعرف إلى العناصر التي أودعها الله تعالى في الشمس، وهكذا بدراسة طيف الأشعة الواردة الينا من بقية النجوم نتعرف إلى ما في سائر النجوم من عناصر. من معادن، وأشباه معادن، ولقد علم أن في جسم الشمس ٧٠ عنصراً تقريباً. ولعل هناك عناصر أخرى سوف يكشف لنا العلم الحديث. على أن عدد العناصر التي كشفت لحد الآن (١٠٢) عنصر[٢].

ففي الشمس توجد العناصر الآتية وهي التي موجودة في أرضنا هذه: الايدروجين، الهليوم، البورون: (على هيأة أوكسيد)، الكاربون، النتروجين: (الأزوت)، الأوكسجين، الفلور: (على هيأة فلوريد السيلسيوم)، الصوديوم، المغنسيوم، المنيوم، السيليسيوم، الفوسفور، الكبريت، البوتسيوم، الكلسيوم، الكروميوم، المانكانيز، الحديد، الكوبلت، النيكل، النحاس، الزنك، الرصاص، القصدير، الذهب، البلاتين، الفضة.

والكيماويون اليوم يستدلون في معاملهم بتحليل الطيف أو الأطياف على ما تحتويه المواد الأرضية من عناصر. فيتعرفون إلى نوعها ومقدارها وأكثر العناصر كثرة في الشمس: الايدروجين ومن بعده: الهليوم. وإلى الايدروجين تعزى حرارة الشمس العظيمة. وللايدروجين شأن عظيم في تفسير وحدة الكون.

ففي الشمس من العناصر ما نشاهده في الأرض، وفي النجوم من

---

(١) قد سئل علي عليه أفضل الصلاة والسلام عن قطر الشمس. فأجاب: ٩٠٠ في ٩٠٠ ميل. وبما أن الميل في صدر الاسلام كان يساوي ٤٠٠٠ ذراع من ذراع رجل متوسط القامة، فلو قسنا ذراع رجل متوسط القامة بالاينجات وحولنا الاينجات إلى أقدام، فياردات، فأميال، لكان الناتج ٨٦٥٣٨٠ ميلاً. وقد ذكرنا ذلك في الجزء الثاني من التكامل.

(٢) ذكرنا ذلك في نهاية الجزء الثالث من كتاب (التكامل في الاسلام).

العناصر ما نراه في الأرض، وكل ذلك يدل على وحدة الكون وأن الصانع له واحد، عظيم، لا تتناهى عظمته، ولا تحد آفاق قدرته. والعناصر كلها تتألف من الكترون أو الكترونات تدور بسرعة فائقة حول البروتون أو البروتونات، فالكون كله، قوى كهربائية موجبة وسالبة، ذكر وأنثى. فالزوجية ضاربة بأطنابها في هذا الكون الرحيب مع وحدة الصنع لتنحصر الواحدانية في الله الذي جلت آلاؤه وتناهت ألطافه. وهو القائل: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾(١).

﴿وهو العزيز الغفور، الذي خلق سبع سماوات طباقاً، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، فارجع البصر، هل ترى من فطور، ثم ارجع البصر كرتين، ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾(٢).

فبعظمة الكون، هذا الكون الذي لا يمكن أن يوصل إلى غوره بالفكر والخيال، هذا الكون الذي فيه من النجوم ما لا يصل شعاعها الينا إلا بعد عشرات الآلاف من الملايين من السنين الضوئية(٣). هذا الكون اللانهائي الواسع الأرجاء، نتعرف إلى عظمة خالقنا، ونحن الأصغر غير المتناهي في الصغر بالنسبة إلى ما خلق الله من عوالم.

أفلا يستحي المادي الجاهل حين يتشدق ويقول أين الله؟ أنه مع اعترافه بضآلة نفسه بالنسبة إلى هذا العالم اللانهائي يريد أن يرى خالق اللانهائي وهو الله المتعال بعينه وهو لا يعلم من خواص العين ومعادلاتها إلا الشيء الضئيل، وذلك بعقل ليس من صنعه ولا تدبيره. وهو القائل:

﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾(٤).

﴿ما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور﴾(٥).

---

(١) سورة الذاريات: ٤٩.

(٢) سورة الملك: ٢ ـ ٤.

(٣) السنة الضوئية = ١٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ كيلومتر تقريباً أي عشر مليون مليون كيلومتر.

(٤) سورة العنكبوت: ٤٩.

(٥) سورة لقمان: ٣١، ختار: غدار.

ـ الشكر ـ

الشكر صفة سامية رفيعة في النفس به تتجلى درجة صفائها وتقديرها لما يُملى عليها من لطف رباني وعطف صمداني.

الشكر معيار سمو النفس وعلوها، الشكر انجذاب من ناحية العبد إلى ساحة المعبود، وبالشكر ينال الانسان مزيداً من اللطف الآلهي وهو القائل:

﴿ولئن شكرتم لأزيدنكم﴾.

فمن لا شكر له لا سمو له وهو في أسفل السافلين، إنه بهيمة على شكل انسان، بهيمة تتقمص نفس الآدميين وهي ليست من الانسانية في شيء.

الشكر الحقيقي معيار كمال النفس وسموها ولا يقوى على الشكر الحقيقي إلا الأقلون. وهو القائل:

﴿وقليل من عبادي الشكور﴾(١). والايمان الحقيقي يتجلى في الشكر والصبر ولذلك جاء في الحديث: الايمان نصفان: نصف شكر ونصف صبر».

ومن يقوى على أداء شكر نعم الله تعالى وهي التي لا تعد ولا تحصى ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾(٢) ذلك، لأن في البدن الانساني من حركات وتفاعلات لا تعد. وحياته مرتبطة بما لا يتناهى من حركات وتفاعلات ومفاعلات: في المنظومة الشمسية وفي عالم الجماد والنبات والحيوان، عدا ما في عالم النفس والعقل من قوى وطاقات وارتباط بعضها ببعض بدساتير وقوانين ومعادلات لا يعلمها ولا يحصيها إلا الله.

---

(١) سورة النور: ١٣.

(٢) سورة إبراهيم: ٣٤.

فإذا كانت النعم لا تُحصى، وهي غير متناهية. فكيف يؤدى حق غير المتناهي بالمتناهي وهو شكرنا. إلا أن الله لجليل لطفه وعظيم رحمته يتقبل منا هذا القليل من الشكر ويزيدنا تقرباً وكمالاً بمنه. وواضح أن نسبة المتناهي إلى غير المتناهي صفر: أي $\frac{\text{ب}}{\infty} = ٠$

فمهما بالغنا في الشكر فهو صفر بالنسبة إلى نعم الله غير المتناهية.

حقاً، ليس لأحد أن يبلغ مرتبة الشكر الحقيقي، ذلك، لأن نعم الله لا تعد ولا تحصى، وإن كلام مولانا زين العابدين عليه السلام، في هذا المقام، غاية الكلام. إنه يخاطب رب العباد فيقول: «فكيف لي بتحصيل الشكر، وشكري إياك يفتقر إلى شكر، فكلما قلت: لك الحمد، وَجَبَ عليّ، لذلك، أن أقول: لك الحمد». وهذا دليل على أن الشكر يتسلسل ولا حد له فلا يقوى الانسان على أدائه.

ويقول عليه السلام في مقام آخر: «آلهي وعزتك وجلالك وعظمتك، لو أني منذ بدعتَ فطرتي من أول الدهر عبدتك دوام خلود ربوبيتك بكل شعرة في كل طرفة عين سرمدَ الأبد بحمد الخلائق وشكرهم أجمعين، لكنت مقصّراً في بلوغ شكر خفيَ نعمة من نعمك عليَّ، ولو أني كربت معادنَ حديد الدنيا بأنيابي وحرثت أرضها بأشفار عيني وبكيت من خشيتك مثل بحور السماوات والأرضين دماً وصديداً لكان ذلك قليلاً من كثير ما يجب من حقك عليّ، ولو أنك (إلهي) عَذبتني بعد ذلك بعذاب الخلائق أجمعين وعظمت للنار خلقي وجسمي وملأت طبقات جهنم مني حتى لا يكون في النار معذَّب غيري ولا يكون لجهنمَ حَطب سواي لكان ذلك بعدلك عليَّ قليلاً في كثير ما استوجبه من عقوبتك». . .

* * *

وإن الحكمة الالهية تتجلى في شكر العبد لله تعالى، فكلما كان العبد أكثر شكراً لله تجلت له الحكمة الالهية في هذا الكون أكثر فأكثر.

﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة أن أشكر لله﴾[١].

(١) سورة لقمان: ١٢

فإن كانت المعارف الآلهية والحكمة الحقيقية تتجلى في شكر العبد، فكلما كان العبد أشكر لله تجلت لديه المعارف الآلهية والحكمة الحقيقية أكثر فأكثر.

وإن الفلسفة الحقيقية بالنسبة إلى الكون والحياة ووجود هذا الانسان لا تتجلى إلا بالشكر. وبالشكر تصفو النفس فتلهم من جانب الله الحقائق التي لا غبار عليها في فلسفة الوجود. وليس التعبد والتهجد والنوافل والأوراد والأذكار والأعمال الصالحة بجميع أنواعها إلا نوع شكرٍ لله تعالى، بها يكون العبد أعلى مرتبة من الملائكة.

ولقد جاء في الحديث: «عبدي أطعني أجعلك مثلي تقول للشيء: كن، فيكون».

ويقول جلَ من قائل في حديث قدسي:

« ما يتقرب إليَّ عبدي بشيء أحبّ مما افترضته عليه. وإنه ليتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنتُ أسمعه الذي يسمعُ به وبصره الذي يُبصر به ولسانه الذي ينطق به ويَده التي يبطش بها، وان دعاني أجبَته وإن سألني أعطيته».

وهكذا كانت تظهر الخوارق والمعاجز على يد الأنبياء ومن بعدهم الأوصياء صلوات الله عليهم أجمعين. وكانت تظهر الكرامات عملاً بالحديث المتقدم على أيدي الأولياء والأبدال من عباد الله الصالحين.

فلا حكمة بلاّ شكر. وما يُبديه بعض فلاسفة الغرب، هؤلاء الذين جرّدوا من عوالم الشكر ومن أعمال صالحة يتحقق بها الشكر، من آراء وفلسفة، إنما هي فلسفة زائفة، مُضلِلَة، بشرية، حالكة، لا نور فيها ولا صفاء. إنها فلسفة ما أنزل الله بها من سلطان، إن هي إلا إملاء شيطاني يُمليه الشيطان على هذا الفرد من الناس باسم الفلسفة! لاغواء الناس.

فلا فلسفة بعد القرآن وأحاديث الرسول وأهل العصمة عليهم الصلاة والسلام. فلا بدَّ من نفس صافية، متفتحة، خاشعة لله، مصقولة بعبادات

وأعمال صالحات كي تميز بين الفلسفة الزائفة والفلسفة الحقة الناصعة أو الحكمة الآلهية التي نقرأها في هذه الآية الكريمة:

﴿ولقد أتينا لقمان الحكمة أن أشكر لله﴾[1].

ثم إن الله تعالى يزيد في معرفة الانسان لهذا الكون وفلسفة الحياة كلما ازداد شكراً لله تعالى. وهو قوله جل من قائل: ﴿ولئن شكرتم لأزيدنكم﴾. فهذه الزيادة ليست في القسم المادي من الحياة فحسب، بل في المعارف الآلهية والوصول إلى حكمة الوجود.

فمن أراد الفلسفة الحقيقية، لا يجدها في مطالعة كتب الفلسفة من القرون الأولى إلى القرن المعاصر، بل يجدها في نفسه نتيجة عبادة خالصة، وتزكية للنفس وتحليتها بمكارم الأخلاق والقيام بصالح الأعمال لوجه الله المتعال.

نرى أن الفيلسوف في الغرب يظع نظرية مغلوطة فيبني عليها فلسفته ويُملي كتباً عدة تطبيقاً على تلك النظرية الخاطئة، فيتبعه كثير من الناس ممن هم على شاكلته من ظلمات في النفس وبُعد عن الله تعالى. انه يؤسس نظرية: «تأثير البيئة أو المحيط على التشكيلات الجسمية»... وهي نظرية مغلوطة (ولا مؤثر إلا الله ولا مؤثر إلا بإذن الله». فيعمها على الأخلاق والدين والذكاء... الخ، فالأساس مغلوط والتعميم كذلك وهكذا.

* * *

ومن لم يتذوق معرفة الله بخشوع وخنوع وبكاء، جوفَ الليل وأطراف النهار، بكاء على ما سبق من ذنوب، بكاء فرح لهذا الاتصال اللاهوتي وهذا الحب الآلهي، لم يتذوق الحياة الحقيقية، ولم يعلم سر وجوده في هذه الفترة الزمنية من هذه الدنيا الموقتة، دار العمل والتهيؤ لآخرة سعيدة.

نعم، إن رجلاً كهذا قد جاء إلى هذه الدنيا وذهب كما تذهب البهائم.

---

(١) سورة لقمان: ١٢.

فالحياة الحقيقية تتجلى في هذا الخشوع والمثول بين يدي رب السماوات والأرض، لا سيما في وقت هدأت فيه الأصوات وهجعت العيون.

الانسان يعيش بقلبه، ومن لا قلب له لا حياة له، والقلب الذي لا يتوجه إلى خالقه هو كالحجارة لا نبض فيه ولا حياة، أنه قلب ميت، أنه قلب أعمى لا يبصر الحق ولا يراه.

﴿فانها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾(١).

فالحياة الحقيقية تتجلى في تسبيحات هذا القلب الذي تعلق بخالقه واتصل بمعبوده اتصالاً وثيقاً جعله يذكر الله على الدوام، جعله يفرح بذكر الله تعالى إلى أبعد الحدود.

﴿يا أيها الذين آمنوا: أذكروا الله ذكراً كثيراً وسبِّحوه بكرة وأصيلا﴾(٢).

والميزة الفارقة بين الحياة في الغرب والحياة عند المسلمين، أن الغربيين لا يذكرون الله تعالى في تعارفاتهم ومكالماتهم، بينما المسلمون لا يفترون عن ذكر الله، في تحياتهم وسلامهم وتعارفاتهم وحوارهم، بقولهم: السلام عليكم ورحمة الله، عليكم السلام ورحمة الله وبركاته، يرحمكم الله، أثابكم الله، الحمد لله، الشكر لله، إن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون... الخ.

من هنا يعلم أن الصفة الغالبة عند الغربيين هي الصفة المادية والتمسك بالمادة الصماء، العمياء إلى أبعد الحدود. وهذا اللجوء إلى المادة إنما جاء من جراء الفسوق والآثام، من جراء ترك ذكر الله في حياتهم العملية، فالتعلق بالمادة منذ القدم متأصل عند الغربيين. وهذه الفلسفة المادية كانت سبباً لأنواع الفحشاء والمنكرات وهذه بدورها أولدت فلسفات زائفة، باطلة،

---

(١) سورة الحج: ٤٦.
(٢) الأحزاب: ٤١.

كالفلسفة الحسية، والمادية، والماركسية، والوجودية، إلى ما هنالك... فكل إناء بالذي فيه ينضح!.

* * *

وكل عمل عبادي يقوم به المسلم إنما هو لأداء واجب الشكر تجاه بعض نِعم الخالق جلّ جلاله:

فالصلاة من أهم أنواع الشكر، لما فيها من حركات تدل على خشوع العبد نحو خالقه.

والصوم شكر لما تفضّل الله على هذا الانسان خلال السنة، من عظيم النِعم عدا ما فيه من فوائد بدنية وروحية.

والزكاة شكر لما تفضل الله به على هذا العبد من مال يربو على حاجته وكذلك الخمس.

والحج نوع شكر لما منّ الله به على هذا الانسان من استغنائه عما في أيدي الناس ومنحه الاستطاعة، ليقفَ تلك المواقف القدسية، لينال الزلفى من مقامات القدس ويتطهر من ذنوبه كلها أو بعضها بمقدار ما فيه من توجه وإقبال.

ولكل عضو من أعضاء هذا البدن شكر يتناسب مع ذلك العضو. فشكر العين أن تمنعها من النظر إلى ما حرَم الله، «فالأولى لك والثانية عليك» على ما جاء في الحديث. وشكرها: أن تتلو القرآن بإمعان وتناجي ربّك بالأدعية الواردة عن الأئمة المعصومين من أهل البيت عليهم الصلاة والسلام بخشوع وخضوع وبكاء، بقلب متصل بمقامات القدس.

وشكر اليد أن تمسح بها على رأس اليتيم وتقوم بها بأعمال خيرية لوجه الله وأن تخدم الدين كتابة وتساعد الفقراء بها إلى أبعد الحدود.

وشكر الرجلين أن تذهب بهما إلى المشاهد المتبركة وإلى المساجد للتقرب إلى الله تعالى، تذهب بهما لقضاء حوائج الناس ودفع المكروه

عنهم. وقد أوصى النبي صلى الله عليه وآله وسلم علياً عليه السلام بهذه الوصية:

«سِرْ ميلاً عُدْ مريضاً، سِرْ ميلين شيع جنازة، سِر ثلاثة أميال أجب دعوة، سِر أربعة أميال زُرْ أخاً في الله. سِرْ خمسة أميال أجِب دعوة الملهوف، سِرْ ستة أميال أُنصر المظلوم وعليك بالاستغفار».

وشكر الأذن أن تسمع بها تلاوة القرآن الكريم، فيخشع قلبك فتتصل بسماع هذا الصوت اللاهوتي بمقامات القدس ويعرج بقلبك إلى الملكوت الأعلى حيث الصفاء المحض والطمأنينة التامة: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[1]، وشكرها أيضاً: أن تمنعها سماعَ ما حرَم الله من الأغاني التي تلوث النفس وتُبعدها عن عوالم القدس وترجع بها إلى جاهلية جهلاء، وتمنعها أيضاً من استماع الغيبة والنميمة.

وشكر اللسان أن تتلو القرآن والأدعية المقربة إلى الله، وتهدي الآخرين إلى الاسلام العظيم وترشدهم إلى الصراط المستقيم، شكر اللسان: أن تمنعه من الغيبة وهتك أعراض الناس، وفي الحديث: «إيّاكم والغيبة، فأنها أشد من الزنا، لأن الرجل يزني فيتوب. فيتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له إلا إذا غفرها صاحبها».

وقال (ص): مررتُ ليلة أسري بي إلى السماء على قوم يخمشون وجوههم بأظفارهم، فسألت جبرائيل عنهم، فقال: هؤلاء الذين يغتابون الناس.

والحاضر للغيبة ولم ينكرها شريك فيها، ومن أنكرها كان مغفوراً له، وقد قال رسول الله (ص): «من ردّ عن عرض أخيه كان حقاً على الله أن يعتقه من النار».

* * *

وأما طرق تحصيل الشكر فيتلخص فيما يلي:

---

(١) سورة الرعد: ٣٠.

١ ـ التفكر في عظيم نِعم الله التي لا تعد ولا تحصى، فكل ما خلق الله من كواكب لا تعد ومجرات لا تحصى من الـذرة إلى الكرات العظام لها أثرها في حياتنا وهي أجلّ من أن تحصى. فكتب الفيزياء والكيمياء والحيوان والنبات وطبقات الأرض والهيأة والمكـانيك السمـاوي والأرضي وعلم الفلك اللاسلكي وغيرها وما أودع الله فيهـا من معادلات ودسـاتير وقوانين وخواص كل أولئك لها تأثيرها في حياة هذا الانسان وفي الروح وفيما لا يرى من قوى وطاقات، وهو القائل: ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون﴾.

٢ ـ أن ينظر الانسان إلى مَن هو دونه في مُتع الدنيا من حيث المال والأثاث والمسكن والمأكل والمشرب... الخ. وان ينظر إلى مَن هو أعلى منه في الدين، وفي عوالم التقوى والورع والعبادة.

٣ ـ الذهاب إلى المقابر والتدبر في لسان حال الموتى، حيث يتحسرون للرجوع إلى الدنيا للعمل جلباً لمرضاة الله وملافاة لما قاموا به من تضييع أوامر الله وعدم إطاعته عندما كانوا أحياء، فيبادروا إلى مزيد الشكر فيما بقي من العمر.

٤ ـ أن يتذكر الانسان بعض ما أصيب من بلايا وأمراض مستعصية كادت أن تودي بحياته، فأنجاه الله تعالى منها، ويحسب أنه بُعث من جـديد وأعطي حياة جديدة، فيشكر الله تعالى على ذلك، فيبادر إلى العمل الصالح والشكر الكثير.

٥ ـ أن يشكر الله في كل بلية أو مصيبة أصيب بها في الدنيا، ذلك، لأن الله كان باستطاعته أن يبتليه بأشد منها وأنه لم تصبه مصيبة في الدين. فقد قال عيسى عليه السلام: «اللهم لا تجعل مصيبتي في ديني»[١].

وقال رجل لبعض العرفاء: «دخل اللص في بيتي وأخذ متاعي». فقال له: أشكر الله، لو كان الشيطان يدخل بدله في قلبك، ويفسد توحيدك ماذا كنت تصنع؟.

---

(١) جامع السعادات: ج: ٣، ص/٢٧٠.

ولا رَيبَ أن كل مصيبة إنما هي عقوبة لذنب سابق، فإذا أصيب بهذه المصيبة أمِن من عذاب الآخرة، فقد قال رسول الله (ص): «إن العبد إذا أذنب ذنباً فأصابته شدة أو بلاء في الدنيا، فالله أكرم مِن أن يعذبه ثانياً». وبهذا المضمون أحاديث كثيرة عن الأئمة المعصومين عليهم الصلاة والسلام. فليشكر العبد على تعجيل العقوبة وعدم إرجائها إلى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

ولا شك أن من تواردت عليه النعم في الدنيا على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء أو مصيبة تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا والركون اليها والأنس بها، فيعظم بلاؤه عند الموت ويصعب عليه مفارقة هذه الدنيا، ولكن لو تواردت عليه المصائب اشمئزت نفسه عن الدنيا ولم يركن اليها وسهل عليه مفارقة الدنيا وزينتها، فقد قال رسول الله (ص): الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر.

فمصائب الدنيا مطهرات لهذه النفوس وموجهة إياها إلى عالم الخلود، إلى ما لا عين رأت أو أذن سمعت أو خطر على قلب بشر. فعلينا أن نشكر الله تعالى على ما أصابنا من بلايا ومحن، تزكو بها النفس فتذهب إلى عالم سرمدي طاهرة مطهرة نقية زكية، كما أنه من الواجب علينا أن نصبر على ما ينتابنا من مصائب، فكل بلية بحاجة إلى صبر وشكر في نفس الوقت، صبر لنيل الأجر وشكر على التطهر من الذنوب والآثام، من الرجس والأدران.

ولا بأس بذكر هاتين الواقعتين لنعلم كيف أن الشيطان لهذا الانسان بالمرصاد إلى آخر لحظة من حياته، يغويه ويغريه.

يقال: إن رجلاً قد حضرته الوفاة، وكان معروفاً بالتقى والصلاح، فلقن الشهادتين وإذا به يبصق ولا يقوَى على أدائهما. ثم أن الله أراد به الرجوع إلى الدنيا، فصحا وعادت إليه نفسه، وسئل لِمَ أبيت التلفظ بالشهادتين؟ قال: قد بلغ بي العطش إلى حد لا يوصف، فتمثل لي رجل وبيده قدح فيه ماء بارد نمير، فقال: لا تقل بالشهادتين لأرْويك من هذا الماء البارد. فأني صرت أبصق في القدح لئلا أستسيغ الماء. وقد مَنّ الله عليّ أن أنجاني من الشيطان وكيده.

وإن رجلاً آخر قد حضرته الوفاة، لُقن الشهادتين فصار ينظر إلى زاوية من الغرفة بالقرب من السقف، ولا يكرر الشهادتين! فتعجب الحاضرون من أمره، ولكن الله تعالى أراد به أن لا يموت دون الاقرار بالشهادتين، فعادت اليه نفسه وسئل عن عدم إقراره بالشهادتين فقال: كان لي إناء مرصع في الرف بالقرب من السقف، ورأيت شخصاً رافعاً الاناء ويقول لو أقررت بالشهادتين لأكسرنَّ هذا الاناء. فاني حرصاً على سلامة الاناء لم أقلْ بالشهادتين!.

* * *

ثم ان الله تعالى، لما للشكر من أهمية بالغة، قرن الشكر بالذكر في كتابه المجيد بقوله جل من قائل: ﴿فاذكروني أذكركم وأشكروا لي ولا تكفرون﴾(١)، فالله تعالى جلّ أن يعذبنا إن شكرنا وآمنا. وهو القائل: ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾(٢). فطوبى للمؤمنين الشاكرين فهم إلى روح وريحان.

وفي الكافي(٣) عن الصادق عليه السلام: «الطاعم الشاكر له من الأجر كأجر الصائم المحتسب، والمعافى الشاكر له من الأجر كأجر المبتلى الصابر، والمعطي الشاكر له من الأجر كأجر المحروم القانع».

وبهذا الاسناد قال رسول الله (ص): «ما فتح الله على عبد باب شكر فخزن عنه باب الزيادة».

وفي الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «مكتوب في التوراة: أشكر من أنعم عليك وأنعم على من شكرك، فأنه لا زوال للنعماء إذا شكرت ولا بقاء لها إذا كُفرت، الشكر زيادة في النعم وأمان من الغير».

وعن أبي جعفر عليه السلام، قال: كان رسول الله (ص) عند عائشة

---

(١) سورة البقرة: ١٥٢.

(٢) النساء: ١٤٦.

(٣) أصول الكافي: ج ٢/٩٥.

ليلتها، فقالت: يا رسول الله، لِمَ تتعب نفسك، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً. قال: وكان رسول الله صلى الله عليه وآله، يقوم على أطراف رجليه، فأنزل الله سبحانه وتعالى: طه، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى.

وعن عبيد الله بن الوليد قال: سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: ثلاث لا يضر معهن شيء، الدعاء عند الكرب والاستغفار عند الذنب والشكر عند النعمة.

وعن أبي عبد الله (ع) قال: ما أنعم الله على عبد من نعمة فعرفها بقلبه وحمد الله ظاهراً بلسانه فتم كلامه حتى يأمر له بالمزيد.

وعن أبي عبد الله (ع) قال: شكر النعم اجتناب المحارم وتمام الشكر قول الرجل: الحمد لله رب العالمين.

عن أبي بصير، قال: قلت لأبي عبد ا له (ع): هل للشكر حد إذا فعله العبد كان شاكراً؟ قال: نعم. قلت: ما هو؟ قال: يحمد الله على كل نعمة عليه في أهل ومال وإن كان فيما أنعم عليه في ماله حق أدّاه ومنه قوله عز وجل: ﴿سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾[1]. ومنه قوله تعالى: ﴿ربِّ أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين﴾[2]. وقوله: ﴿ربِّ أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾[3].

وعن أبي الحسن صلوات الله عليه: من حمد الله على النعمة فقد شكره وكان الحمد أفضل من تلك النعمة[4].

وعن أبي عبد الله (ص) قال: من أنعم الله عليه بنعمة فعرفها بقلبه. فقد أدى شكرها.

---

(١) سورة الزخرف: ٣٣.

(٢) المؤمنون: ٢٩.

(٣) سورة أسرى: ٨٠.

(٤) فتوفيق الحمد من أكبر النعم.

وعن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله (ع): إن الرجل منكم ليشرب الشربة من الماء، فيوجب الله له بها الجنة، ثم قال: أنه ليأخذ الاناء فيضعه على فيه، فيسمي ثم يشرب فينحيه وهو يشتهيه فيحمد الله، ثم يعود فيشرب، ثم ينحيه فيحمد الله، ثم يعود فيشرب، ثم ينحيه فيحمد الله فيوجب الله عز وجل بها له الجنة».

عن عمر بن يزيد قال: قلت لأبي عبد الله (ع): إني سألت الله عز وجل أن يرزقني مالاً فرزقني، وإني سألت الله أن يرزقني ولداً فرزقني ولداً وسألته أن يرزقني داراً فرزقني وقد خفت أن يكون ذلك استدراجاً[1]. فقال: أما والله، مع الحمد، فلا.

وعن مثنى الحناط، عن أبي عبد الله (ع) قال: كان رسول الله (ص) إذا ورد عليه أمر يسره. قال: الحمد لله على هذه النعمة، وإذا ورد عليه أمر يغتم به، قال: الحمد لله على كل حال».

عن حماد بن عثمان قال: خرج أبو عبد الله (ع) من المسجد، وقد ضاعت دابته، فقال: لئن ردها الله عليّ لأشكرنَّ الله حق شكره. قال: فما لبث أن أُتي بها. فقال: الحمد لله، فقال له قائل: جعلت فداك، أليس قلت: لأشكرنَّ الله حقَّ شكره، فقال أبو عبد الله (ع): ألم تسمعني قلت الحمد لله.

وعن أبي بصير عن أبي جعفر (ع) قال: تقول ثلاث مرات إذا نظرت إلى المبتلي من غير أن تسمعه: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به ولو شاء فعل، قال: من قال ذلك، لم يصبه ذلك البلاء أبداً.

وعن أبي عبد الله (ع)، قال: ما مِن عبد يرى مبتلي فيقول: الحمد لله الذي عدل عني ما ابتلاك به وفضلني عليك بالعافية، اللهم عافِني مما ابتليته به، إلا لم يُبْتَلَ بذلك البلاء.

---

(١) في القاموس: استدرجه: خدعه. واستدراجه تعالى العبد: أنه كلما جدّد خطيئة جدّد له نعمة وأنساه الاستغفار.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا رأيت الرجل وقد ابتلي وأنعم الله عليك، فقل: أللهم أني لا أسخر ولا أفخر، ولكن أحمدك على عظيم نعمائك علي.

وقال رسول الله (ص): إذا رأيتم أهل البلاء فاحمدوا الله ولا تسمعوهم فان ذلك يحزنهم.

وعن أبي عبد الله (ع) قال: إن رسول الله (ص) كان في سفر يسير على ناقة له، إذ نزل فسجد خمس سجدات فلما أن ركب قالوا يا رسول الله، إنا رأيناك صنعت شيئاً لم تصنعه، فقال: نعم، استقبلني جبرئيل عليه السلام فبشرني ببشارات من الله عز وجل، فسجدت لله شكراً، لكل بشرى سجدة.

وعن أبي عبد الله عليه السلام: إذا ذكر أحدكم نعمة الله عز وجل فليضع خده على التراب، شكراً لله، فإن كان راكباً فلينزل فليضع خده على التراب وإن لم يكن يقدر على النزول للشهرة، فليضع خده على قربوسه وإن لم يقدر فليضع خده على كفه. ثم ليحمد الله على ما أنعم الله عليه.

عن هشام بن أحمر قال: كنت أسير مع أبي الحسن (ع) في بعض أطراف المدينة، إذ ثنى رجليه عن دابته، فخرَّ ساجداً، فأطال وأطال، ثم رفع رأسه وركب دابته، فقلت: جعلت فداك، قد أطلت السجود، فقال: أنني ذكرت نعمة أنعم الله بها علي، فأحببت أن أشكر ربي.

عن أبي عبد الله (ع) قال: فيما أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام: يا موسى، أشكرني حقَّ شكري، فقال: يا ربِّ، وكيف أشكرك حق شكرك، وليس من شكر أشكرك به إلا وأنت أنعمت به عليّ، قال: يا موسى، الآن شكرتني حين علمت أن ذلك مني.

عن إسماعيل بن الفضل قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: إذا أصبحت وأمسيت، فقل عشر مرات: أللهم ما أصبحت بي من نعمة أو عافية في دين أو دنيا فمنك وحدك، لا شريك لك، لك الحمد ولك الشكر بها عليّ يا رب حتى ترضى، وبعد الرضا، فأنك إذا قلت ذلك كنت قد أديت شكر ما أنعم الله به عليك في ذلك اليوم وفي تلك الليلة، وعن أبي عبد الله عليه

السلام، قال: كان نوح عليه السلام يقول ذلك إذا أصبح، فسمِّي بذلك: عبداً شكوراً، وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من صدق الله نجا.

وعن عمار الدهني، قال: سمعت علي بن الحسين عليهما السلام يقول: إن الله يحب كل قلب حزين ويحب كل عبد شكور. يقول الله تبارك وتعالى، لعبد من عبيده يوم القيامة: أشكرت فلاناً. فيقول: بل شكرتُك يا ربِّ. فيقول: «لم تشكرني إذ لم تشكره». ثم قال: أشكركم لله أشكركم للناس.

وقد قال رسول الله (ص): «إن للنعم أوابد كأوابد الوحش، فقيدوها بالشكر». [الوبد: سوء الحال، المتوبد: الشديد الاصابة بالعين].

وقال (ص): ينادي منادٍ يوم القيامة: ليقوم الحمادون، فيقوم زمرة، فينصب لهم لواء، فيدخلون الجنة، فقيل: من الحمادون؟ فقال: الذين يشكرون الله على كل حال».

* * *

ولا مراء أن الشكر من أفضل الأعمال وهو ينتظم من علم وحال وعمل[1]. فالعلم هو الأصل، فيورث الحال، والحال يورث العمل والعلم هو معرفة النعمة من المنعم، والحال هو الفرح الحاصل بانعامه تعالى، والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان.

وعلى من يريد الشكر أن يعلم أن النعم كلها من الله تعالى، والوسائط في إيصال النعمة اليه إنما هم مسخرون من جانب الله، فألقى الله تعالى في قلوبهم من الرأفة والرحم حتى صاروا مضطرين إلى إيصال النعمة إليه، وهذا شكر بالقلب.

وأما الفرح بالنعم مع هيأة الخضوع والتواضع فهو أيضاً في نفسه شكر على حدة. كما أن المعرفة شكر. فان كان فرحك من حيث أنك تقدر النعمة على التوصل إلى القرب من المنعم فهو المرتبة العليا من الشكر. وعلامة ذلك:

(١) الأخلاق: للعلامة الحجة: السيد عبد الله شبر. ص/٢٣٨.

أن لا تفرح بنعم الدنيا، إلا من حيث أنها مزرعة الآخرة ومعينة عليها وتفرح بهذا المقدار وتحزن بكل نعمة تلهيك عن ذكر الله، وهذا أيضاً شكر بالقلب.

وأما العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم. فهو يتعلق بالقلب واللسان والجوارح.

أما بالقلب: فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق.

وأما باللسان فبإظهار الشكر لله بالتحميدات الدالة عليه، واما بالجوارح: فاستعمال نعم الله في طاعته والتوقي من الاستعانة بها على معصيته، حتى أن شكر العينين أن يستر كل عيب يراه بمسلم (كما قلنا)، وشكر الأذنين أن يستر كل عيب يسمعه لمسلم.

بل قال أرباب المعرفة: ان من كفر نعمة العين، فقد كفر نعمة الشمس أيضاً، إذ الابصار إنما يتم بها، وإنما خُلقتا ليبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه ويتقي بهما ما يضره فيهما، بل المراد من خلق الأرض والسماء وخلق الدنيا وأسبابها أن يستعين الخلق بها على الوصول إلى الله، ولا وصول إليه إلا بمحبته والأنس به في الدنيا والتجافي عن غرورها، ولا أنس إلا بدوام الذكر، ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر، ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا ببقاء البدن، ولا يبقى البدن إلا بالأرض والماء والهواء، ولا يتم ذلك إلا بخلق الأرض والسماء وخلق سائر الأعضاء، وكل ذلك لأجل البدن، والبدن مطية النفس، والراجع إلى الله هي النفس المطمئنة بطول العبادة والمعرفة، فكل من استعمل شيئاً في غير طاعة الله فقد كفر بنعمة الله في جميع الأسباب التي لا بد منها لاقدامه على تلك المعصية، ولذا كان الشاكر الحقيقي قليلاً. قال تعالى: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾[1] كما ذكرنا سابقاً.

ولا شك أن فائدة الشكر تعود إلى الانسان نفسه والله هو الموفق للشكر، وهو المعطي من الملكات والجوارح لأداء هذا الشكر، فأنى لهذا الانسان أن يقوم بواجب الشكر، وأنى له أن يشكر نعمته بنعمته. فلا يمكن شكر الشكر

(١) الأخلاق: للعلامة الحجة: السيد عبد الله شبر. ص/٢٣٩.

إلا بنعمة أخرى وفي حديث آخر يخاطب الله موسى (ع): وشكري لك نعمة أخرى منك توجب الشكر لك، فقال تعالى: إذا عرفت أن النعم مني رضيت منك بذلك شكراً».

وعن السجاد عليه السلام: أنه كان إذا قرأ هذه الآية: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾، قال: سبحان مَن لم يجعل في أحد من معرفة نعمه إلا المعرفة بالتقصير عن معرفتها كما لم يجعل في أحد من معرفة إدراكه اكثر من العلم بأنه لا يدركه.

فالشكر مركب من علم وعمل فأما العلم أن يعـرف الله ويتفكر في مصنوعاته وينظر إلى من هو أدنى منه في أمور الدنيا فيشكر الله على ما هو فيه وينظر إلى من هو أعلى منه في الدين فيجتهد للوصول إلى مرتبته. ويشكر الله تعالى في المصائب على أنه لم يصب بأكبر منها وان ما أصيب به لم تكن مصيبته دينية بل كانت مصيبته دنيوية وانه قد عجلت عقوبتها ولم تدخر للآخرة ويعلم أن ثواب هذه المصيبة الدنيوية خير له وأنها تنقص من قلبه حب الدنيا بل ربما بغضت الدنيا في نظره، ذلك لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة، فالمصائب هي نعم توجب الشكر ولا ريب أنه لا تخلو مصيبته عن تكفير خطيئته أو رياضة نفس أو رفع درجة.

وعلى الانسان أن يسأل الله تعالى العافية، فالعافية خير من البلاء. فكان النبي والأئمة عليهم السلام يستعيذون بالله من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة وكانوا يقولون: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة» وكانوا يستعيذون من شماتة الأعداء ومن سوء القضاء ومن حلول البلاء. قال رسول الله (ص): «سلوا الله العافية، فما أعطي عبد أفضل من العافية إلا اليقـين». وأشار باليقين إلى عافية القلب من مرض الجهل[1].

* * *

ويجدر بالانسان الشاكر أن يقرأ ما جاء في مناجاة الشاكرين من كلام لعلي بن الحسين زين العابدين عليه السلام:

---

(١) الأخلاق: للعلامة المرحوم السيد عبد الله شبر.

ـ مناجاة الشاكرين

ـ بسم الله الرحمن الرحيم ـ

آلهي اليك اشكو نفساً بالسوء أمارة، وإلى الخطيئة مبادرة، وبمعاصيك مولعة، ولسخطك متعرضة، تسلك بي مسالك المهالك، وتجعلني عندك أهون هالك، كثيرة العلل، طويلة الأمل، إن مسّها الشر تجزع، وإن مسها الخير تمنع، ميالة إلى اللعب واللهو، مملوءة بالغفلة والسهو، تسرع بي إلى الحوبة، وتسوفني بالتوبة. آلهي اشكو اليك عدواً يضلني وشيطاناً يغويني. قد ملأ بالوسواس صدري، وأحاطت هواجسه بقلبي، يعاضد لي الهوى، ويزين لي حب الدنيا، ويحول بيني وبين الطاعة والزلفى. آلهي اليك أشكو قلباً قاسياً مع الوسواس متقلباً وبالرين والطبع متلبساً وعيناً عن البكـاء من خوفـك حامدة، وإلى ما تسرها طامحة.

آلهي لا حول لي ولا قوة إلا بقدرتك، ولا نجاة لي من مكاره الدنيا إلا بعصمتك، فأسألك ببلاغة حكمتك، ونفاذ مشيئتك أن لا تجعلني لغير جودك متعرضاً ولا تصيرني للفتن غرضاً، وكن لي على الأعداء ناصراً وعلى المخازي والعيوب ساتراً ومن البلاء واقياً، وعن المعاصي عاصماً، برأفتك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

ـ الشكر عند الأكل والشرب ـ

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام، إذا مددت يدك إلى الأكل فقلْ: «بسم الله والحمد لله رب العالمين» ويستحب أن تقول ذلك على كل إناء على المائدة وإن اتحدت أنواع الطعام ومن نسي التسمية على كل لون، فليقل:

«بسم الله على أوله وآخره»

ومما ينبغي أن يقال عند الشروع في الأكل[1]:

الحمد لله الذي يُطعم ولا يطعَمَ ويجير ولا يُجار عليه، ويَستغني ويُفتقر اليه. (أللهم) لك الحمد على ما رزقتنا من طعام وأدام في يسر وعافية من غير كد منا ولا مشقة. بسم الله خير الأسماء، بسم الله رب الأرض والسماء، بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء. وهو السميع العليم. (أللهم) أسعدني في مطعمي هذا بخيره وأعِذني من شرَه، وأمتعني بنفعه وسلمني من ضرَه.

وأن يقول بعد الفراغ من الأكل على ما روي عن الصادق عليه السلام:

«الحمد لله الذي أطعمنا في جائعين وسقانا في ظامئين، وكسانا في عارين وهدانا في ضالين وحملنا في راجلين، وآوانا في ضاحين وأخدمنا في عانين وفضَلنا على كثير من العالمين».

ويستحب أن يقول عند شرب الماء:

«الحمد لله منزل الماء من السماء، ومصرف الأمر كيف يشاء، بسم الله خير الأسماء».

ويقول بعد شربه:

«الحمد لله الذي سقاني ماءاً عذباً ولم يجعله مِلحاً إجاجاً بذنوبي. (الحمد لله) الذي سقاني فأرواني وأعطاني فأرضاني وكافأني وعافاني وكفاني. (أللهم) اجعلني ممن تسقيه في المعاد من حوض محمد صلى الله عليه وآله وتسعده بمرافقته برحمتك يا أرحم الراحمين».

ـ سجود الشكر ـ

يستحب السجود للشكر لتجدد كل نعمة أو دفع نقمة أو تذكّرهما مما

---

(١) مفتاح الفلاح: ص/١٣٣.

كان سابقاً أو للتوفيق لأداء فريضة أو نافلة، فيسجد عقيبهما، والأولى كونه آخر التعقيب، ويجوز فعله أثناء التعقيب، ويجوز القيام بسجدة الشكر بعد الصلاة بلا فصل.

ويستحب السجود للشكر لفعل خير ولو مثل الصلح بين اثنين.

ويكفي في سجود الشكر: مجرد وضع الجبهة مع النيّة، ويلزم إباحة المكان.

ولا يشترط في سجود الشكر: الذكر. لكنه يستحب أن يقول ثلاث مرات: «شكراً لله». ويستحب الزيادة بغير تحديد أو يقول: «شكراً شكراً» ١٠٠ مرة و«عفواً عفواً» ١٠٠ مرة.

يجوز الاقتصار على سجدة واحدة، ويستحب أن يسجد مرتين، ويتحقق التعدد بالفصل بين السجدتين بتعفير الخدين أو هما مع الجبينين مقدماً الخدَّ الأيمن على الأيسر ثم وضع الجبهة ثانياً.

والأحوط وضع الجبهة في سجدة الشكر على ما يصح السجود عليه ووضع سائر المساجد على الأرض ولا بأس بالتكبير قبلها وبعدها لا بقصد الخصوصية.

إذا حصل سبب لسجود الشكر وكان له مانع من السجود على الأرض فليوم برأسه ويضع خدّه على كفّه، وإن كان راكباً فليضع خدّه على قربوس السرج، فان لم يقدر فعلى كفه.

ويظهر من بعض الأخبار تحقق سجود الشكر بوضع الخد فقط بدون الجبهة.

ـ السجود تعظيماً وتذللاً لله ـ

يستحب السجود بقصد التذلل والتعظيم لله تعالى بل السجود لله راجح في نفسه وعبادة من أعظم العبادات وآكدها. وما من عمل أشد على إبليس

من أن يرى ابن آدم ساجداً. لأنه أمر بالسجود فعصى، وهذا أمر به فأطاع ونجا. وأقرب ما يكون العبد إلى الله وهو ساجد.

يستحب إطالة السجود، فإن إطالته من سنن الأوابين. ويحرم السجود لغير الله.

ـ صلاة الشكر ـ

ومن الصلوات المستحبة صلاة الشكر لله تعالى عند تجدد النعم ودفع النقم وبعد قضاء الحوائج وهي ركعتان والأفضل أن يقرأ في الركعة الأولى بعد الحمد سورة الاخلاص: (سورة قل هو الله أحد) وفي الركعة الثانية بعد الحمد سورة الجحد (سورة قل يا أيها الكافرون)، ويقول في ركوع الركعة الأولى وسجودها: «الحمد لله شكراً شكراً وحمداً حمداً» سبع مرات. وأن يقول في ركوع الركعة الثانية وسجودها: «الحمد لله الذي استجاب دعائي وأعطاني مسألتي».

ـ نموذج من نماذج الشكر ـ

وإذا أردت أن تعلم في أي مرتبة أنت من مراتب الشكر فاقرأ ما يلي:

سأل داود النبي الله تعالى عن قرينه في الجنة، فأوحى الله إليه أنه: متَى أبو يونس. فجاء مع سليمان لزيارته، فرأياه إذ أقبل، وعلى رأسه وقر من حطب. فباعه واشترى طعاماً، ثم طحنه وعجنه وخبزه، فأخذ لقمة وقال: بسم الله. فلما ازدردها قال: الحمد لله، ثم فعل ذلك بأخرى وأخرى. ثم، شرب الماء فذكر اسم الله. فلما وضعه، قال: الحمد لله: يا ربِّ، مَن ذا الذي أنعمتَ عليه وأولَيته مثلَ ما أوليتني، قد صحَحت بصري وسمعي وبدني وقوّيتني حتى ذهبت إلى شجر لم أغرسه ولم أهتم لحفظه، جعلته لي رزقاً وسُقتَ إليَّ مَن اشتراه مني، فاشتريتُ بثمنه طعاماً لم أزرعه وسخرّت لي النار فأنضجته وجعلتني آكله بشهوة أقوى بها على طاعتك، فلك الحمد، ثم بكى.

قال داود، يا بنيَّ، قم، فانصرف بنا، فاني لم أرَ عبداً قط أشكر لله من هذا.

* * *

وختاماً يستشعر الانسان عندما يقرأ آداب الشكر في الاسلام ويعمل بها، كيف أن العبد يتقرّب بالشكر إلى الله المتعال، وكيف يتحبّب إليه تعالى وينغمر في حبه وكيف ترتفع نفسه بهذا الشكر إلى الملكوت الأعلى فتتجلّى له حقائق الكون والملكوت وكيف يبلغ مرتبة قاصيةً من التقرب اليه تعالى حتى يكون كأنه يرى الله علانية، وهو أجل من أن يرى[1]، ويرى نفسه إذ ذاك ذائبة في حبّ الله، منغمرة في عوالم القدس فرِحةً فرحاً لا تضاهيه أفراح هذه الدنيا الدنية، مسرورة سروراً لا يشبه المسرات المادية في شيء. بعيداً عن حدود الوصف والبيان، فيا لها من نعمة عظمى، لا تضاهيها أية نعمة!.

إن رجلاً هذه صفته وتلك ملكاته يعلم بل يوقن ـ بعد قطعه هذه المراحل القدسية ـ أن دين الاسلام هو دين الله في أرضه دين أنزله الله رحمةً للعالمين على لسان نبيه بني الرحمة سيد الرسل وخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وإن ما عداه من الأديان الباقية على وجه البسيطة زائف منحرف لا روح فيه ولا صفاء.

---

(١) يقول علي (ع): «لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الايمان».

[سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى
يتبين لهم أنه الحق]

«قرآن كريم»

الأسماء المباركة

التي توسل بها نوح (ع)

ترجم عن الأوردو

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾.

(القرآن الكريم)(١)

إن لمحمد (ص) ولأهل بيته (ع) مكانة عند الله تعالى لم يتوصل اليها أحد، ولم يعرف قدرها إلا الرسل والأنبياء المعصومون (عليهم السلام).

فلقد دلت الأخبار الواردة عن أهل البيت (ع) بأن الأنبياء توسلوا إلى الله تعالى بالخمسة أصحاب الكساء في ساعات المحن التي تعرضوا لها، فلقد توسل بهم آدم (ع) بعد خروجه من الجنة، ونوح (ع) عند الطوفان، وإبراهيم ـ عليه السلام ـ عندما ألقاه النمرود في النار وهكذا بقية الأنبياء (ع).

وقد أنجاهم الله تعالى من المحن التي تعرضوا لها بواسطة هؤلاء الخمسة المعصومين (ع).

وأخيراً ظهرت هذه الحقيقة نتيجة للبحث والتنقيب. حيث نشرت [البذرة] النجفية التي تصدرها ثانوية منتدى النشر الأهلية في عدديها الثاني والثالث بتاريخ شوال ـ ذي القعدة ١٣٨٥ هـ بحثاً مترجماً عن كتاب إليا والذي نشرته دار المعارف الاسلامية بلاهور ـ (باكستان)(٢).

---

(١) سورة التوبة آية: ٣٢.

(٢) نقلاً عن ما نشرته الجمعية الخيرية الاسلامية بكربلاء.

أسماء مباركة

(توسل بها نوح (ع))

ـ مترجم عن الأوردية ـ

في تموز عام ١٩٥١م حينما كان جماعة من العلماء السوفيت المختصين بالآثار القديمة ينقبون في منطقة بوادي قاف عثروا على قطع متناثرة من أخشاب قديمة متسوسة وبالية مما دعاهم إلى التنقيب والحفر أكثر وأعمق فوقفوا على أخشاب أخرى متحجرة وكثيرة كانت بعيدة في أعماق الأرض!.

ومن بين تلك الأخشاب التي توصلوا إليها نتيجة التنقيب خشبة على شكل مستطيل طولها ١٤ عقداً وعرضها ١٠ عقود سببت دهشتهم واستغرابهم حيث لم تتغير فلم تتسوس ولم تتناثر كغيرها من الأخشاب الأخرى.

وفي أواخر سنة ١٩٥٢ أكمل التحقيق حول هذه الآثار فظهر أن اللوحة المشار اليها كانت ضمن سفينة النبي نوح (ع)، وأن الأخشاب الأخرى هي أخشاب جسم سفينة نوح.

ومما يذكره المؤرخون أن سفينة نوح (ع) استوت على قمة جبل قاف. وشوهد أن هذه اللوحة قد نقشت عليها بعض الحروف التي تعود إلى أقدم لغة.

وهنا ألفّت الحكومة السوفيتية لجنة بعد الانتهاء من الحفر عام ١٩٥٣ قوامها سبعة من علماء اللغات القديمة ومن أهم علماء الآثار هم: ـ

١ ـ سوله نوف أستاذ الألسن في جامعة موسكو.
٢ ـ إيفاهان خنيو عالم الألسن القديمة في كلية لولوهان بالصين.
٣ ـ ميشانن لو مدير الآثار القديمة.
٤ ـ تانمول كورف أستاذ اللغات في كلية كيفزو.
٥ ـ دي راكن أستاذ الآثار القديمة في معهد لينين.
٦ ـ أيم أحمد كولاد مدير التنقيب والاكتشافات العام.
٧ ـ ميجر كولتوف رئيس جامعة ستالين.

وبعد ثمانية أشهر من دراسة تلك اللوحة والحروف المنقوشة عليها:

إتفقوا على أن هذه اللوحة كانت مصنوعة من نفس الخشب الذي صنعت منه سفينة نوح (ع) وان النبي نوح عليه السلام كان قد وضع هذه اللوحة في سفينته للتبرك والحفظ.

وكانت حروف هذه اللوحة باللغة السامانية وقد ترجمها إلى الانكليزية العالم البريطاني ايف ماكس أستاذ الألسن القديمة في جامعة مانجستر وهذا نصها مع تعريبها:

يا إلهي ويا معيني	O my God my helper
	Keep my hands with
برحمتك وكرمك ساعدني	mercy
ولأجل هذه النفوس المقدسة	And with your holy
	bodies:
محمد	Mohamed
إيليا	Alia
شبر	Shabbar
شبير	Shabbir
فاطمة	Fatma
	Thay are all Biggest and
الذين هم جميعهم عظماء ومكرمون	Honourables.

The world established for them.	العالم قائم لأجلهم
Help me by their names.	ساعدني لأجل أسمائهم
you can reform to Right	أنت فقط تستطيع أن توجهني نحو الطريق المستقيم

وأخيراً بقي هؤلاء العلماء في دهشة كبرى أمام عظمة هذه الأسماء الخمسة ومنزلة أصحابها عند الله تعالى حيث توسل بها نوح (ع) إليه تعالى.

واللغز الأهم الذي لم يستطع تفسيره أي واحد منهم هو عدم تفسخ هذه اللوحة رغم مرور آلاف السنين عليها. وهذه اللوحة موجودة الآن في متحف الآثار القديمة في موسكو.

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾.

ورأيت بهذه المناسبة أن أنقل هنا بعض الأحاديث التي تناسب المقام بشأن أهل البيت الكرام عليهم أفضل الصلاة والسلام:

* * *

١ ـ أخرج أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن المغازلي الواسطي الشافعي في كتابه المناقب بسنده عن سلمان الفارسي، قال: سمعت حبيبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم يقول: كنت أنا وعلي نوراً بين يدي الله عز وجل يسبّح الله ذلك النور ويقدسه قبل أن يخلق الله آدم بأربعة عشر ألف عام، فلما خلق آدم، أودع ذلك النور في صلبه فلم نزل أنا وعلي شيئاً واحداً حتى افترقنا في صلب عبد المطلب، ففيَّ النبوة وفي عليّ الامامة[1].

٢ ـ وعن أبي ذر، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: كنت أنا وعلي نوراً عن يمين العرش بين يدي الله عز وجل يسبح الله ذلك النور ويقدسه قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام، فلم نزل أنا وعلي شيئاً واحداً حتى افترقنا في صلب عبد المطلب فجزء أنا وجزء علي[2].

---

(١) ينابيع المودة: ١٠ (الطبعة الأولى).

(٢) ينابيع المودة: ص/١٠ (الطبعة الأولى).

٣ ـ وفي المناقب عن اسحاق بن اسماعيل النيشابوري عن جعفر الصادق عن أبيه عن جده علي بن الحسين قال حدثنا عمي الحسن، قال: سمعت جدي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: خُلقت من نور الله عز وجل وخُلق أهل بيتي من نوري وخلق محبّوهم من نورهم وسائر الناس في النار[١].

٤ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إني تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وأهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»[٢].

٥ ـ وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إني أوشك أن أدعى فأجيب. وإنا تارك فيكم الثقلين، كتاب الله عز وجل وعترتي: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وان اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[٣].

وقد حديث آخر: «فلا تقدّموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا، ولا تعلّموهم فأنهم أعلم منكم».

٦ ـ وقد قال (ص): «ألا أن مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح، من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق»[٤].

٧ ـ وقال (ص): «إنما مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق، وإنما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطة بني إسرائيل من دخله غفر له»[٥].

---

(١) ينابيع المودة: ص/١٠ (الطبعة الأولى).
(٢) أخرجه الحاكم في ص/١٤٨ من الجزء الثالث من المستدرك.
(٣) أخرجه الامام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري.
(٤) أخرجه الحاكم بالاسناد إلى أبي ذر ص/١٥١ من الجزء الثالث من صحيحه المستدرك.
(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط عن أبي سعيد.

٨ ـ وأخرج الطبراني في الكبير والرافعي في مسنده بالاسناد إلى ابن عباس. قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من سره أن يحيا حياتي، ويموت مماتي، ويسكن جنة عدن غرسها ربي، فليوالِ علياً من بعدي، وليوالِ وليّه، وليقتدِ بأهل بيتي من بعدي، فانهم عِترتي، خُلقوا من طينتي ورُزِقوا فهمي وعلمي، فويل للمكذبين لفضلهم من أمتي، القاطعين فيهم صلتي، لا أنا لهم الله شفاعتي».

٩ ـ وأخرج مطيرو الباردي وابن جرير وابن شاهين، وابن منده، من طريق إسحاق، عن زياد بن مطرف، قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من أحبّ أن يحيا حياتي ويموت ميتتي ويدخل الجنة التي وعدني ربي، وهي الجنة الخلد، فليتولَّ علياً وذريته من بعده، فأنهم لن يخرجوكم من باب هدى ولن يدخلوكم باب ضلالة»(١).

١٠ ـ وقال (ص): «واجعلوا أهل بيتي منكم مكان الرأس من الجسد، ومكان العينين من الرأس. ولا يهتدي الرأس إلا بالعينين»(٢).

١١ ـ وقال (ص): «إلزموا مودّتنا أهل البيت، فأنه من لقي الله وهو يودّنا دخل الجنة بشفاعتنا، والذي نفسي بيده لا ينفع عبداً عمله إلا بمعرفة حقنا»(٣).

١٢ ـ وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «معرفة آل محمد براءة من النار، وحُبّ آل محمد جواز على الصراط، والولاية لآل محمد أمان من العذاب»(٤).

١٣ ـ وقال (ص): لا تزول قدما عبد ـ يوم القيامة ـ حتى يسأل عن

---

(١) المراجعات، ص/٥٦.

(٢) أخرجه جماعة من أصحاب السنن.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط.

(٤) أخرجه الطبراني.

أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن جسده فيما أبلاه، وعن ماله فيما أنفقه ومن أين اكتسبه وعن محبتنا أهل البيت[1].

١٤ ـ وقال (ص): «فلو أن رجلاً صفن ـ صفّ قدميه ـ بين الركن والمقام، فصلّى وصام، وهو مبغض لآل محمد دخل النار»[2].

١٥ ـ وقال (ص): «مَن مات على حُب آل محمد مات شهيداً، ألا وَمن مات على حبّ آل محمد مات مغفوراً له، ألا ومن مات على حبّ آل محمد مات تائباً، ألا ومن مات على حبّ آل محمد مات مؤمناً مستكمل الايمان، ألا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها، ألا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره بابان إلى الجنة، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة، ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه: آيس من رحمة الله. . .»[3].

١٦ ـ وقد قال أمير المؤمنين علي عليه أفضل الصلاة والسلام: «فأين تذهبون وأنى تؤفكون، والأعلام قائمة والآيات واضحة، والمنار منصوبة، فأين يُتاه بكم، بل كيف تعمهون وبينكم عترة نبيكم وهم أزمّة الحق، وأعلام الدين، وألسنة الصدق، فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن وردوهم ورود الهيم العطاش، أيها الناس خذوها من خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم. إنه يموت من مات منا وليس بميت ويبلى من بلي منا وليس ببالٍ[4]، فلا تقولوا بما لا تعرفون، فإن أكثر الحق فيما تنكرون، واعذروا من لا حجة لكم عليه وأنا هو. ألم أعمل فيكم بالثقل الأكبر وأترك فيكم الثقل الأصغر[5] وركزت فيكم راية الايمان. . .»[6].

---

(١) أخرجه الطبراني.
(٢) أخرجه الطبراني والحاكم.
(٣) أخرجها الامام الثعلبي في تفسير آية المودّة.
(٤) لبقاء روحه ساطعة النور في عالم الظهور، هكذا قال الشيخ محمد عبده وغيره.
(٥) القرآن والعترة.
(٦) كما في صفحة ١٨٩ من النهج من الخطبة: ٩٣.

١٧ ـ وقال عليه السلام: «أنظروا أهل بيت نبيكم، فالزموا سمتهم واتبعوا أثرهم، فلن يخرجوكم من هدى ولن يعيدوكم في ردى، فان لبدوا فالبدوا وإن نهضوا فانهضوا، ولا تسبقوهم فتضلوا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا». وذكرهم عليه السلام مرة فقال: «هم عيش العلم وموت الجهل، يخبركم حلمهم عن علمهم، وظاهرهم عن باطنهم، وصمتهم عن حكم منطقهم، لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه، هم دعائم الاسلام، وولائج الاعتصام، بهم عاد الحق في نصابه، وانزاح الباطل عن مقامه، وانقطع لسانه عن منبته، عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية لا عقل سماع ورواية فان رواة العلم كثير ورعاته قليل»[1].

١٨ ـ وقال عليه السلام في خطبة أخرى[2]: «عترته خير العِتر، وأسرته خير الأُسر، وشجرته خير الشجرة، نبتت في حرم وبسقت في كرم، لها فروع طوال، وثمرة لا تُنال».

١٩ ـ وقال (ع)[3]: «نحن الشعار والأصحاب والخزنة والأبواب، ولا تؤتى البيوت إلا من أبوابها، فمن أتاها من غير أبوابها سميّ سارقاً. . . (إلى أن قال): ﴿فيهم كرائم القرآن وهم كنوز الرحمن. إن نطقوا صدقوا، وإن صمتوا لم يسبقوا﴾ فليصدق رائد أهله، وليحضر عقله».

٢٠ ـ وقال عليه السلام[4]: نحن شجرة النبوة ومحطّ الرسالة، ومختلف الملائكة، ومعادن العلم وينابيع الحكم، ناظرنا ومحبنا ينتظر الرحمة وعدّونا ومُبغضنا ينتظر السطوة».

٢١ ـ وقال (ع): «أين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا كذباً وبغياً علينا أن رفعنا الله ووضعهم، وأعطانا وحرمهم، وأدخلنا وأخرجهم، بنا يُستعطى الهدى ويُستجلى العمى، إن الأئمة من قريش غرسوا في هذا

---

(١) كما في صفحة ٢٥٩ من الجزء الثاني من النهج.

(٢) كما في صفحة ١٨٥ من الجزء الأول في النهج.

(٣) كما في صفحة ٥٨ من الجزء الثاني من النهج.

(٤) ص: ٣١٤ من الجزء الأول من النهج.

البطن من هاشم لا تصلح على سواهم، ولا تصلح الولاة من غيرهم». إلى أن قال عمن خالفهم: «آثروا عاجلاً وأخروا آجلاً وتركوا صافياً وشربوا آجناً. . .»[1].

٢٢ ـ وقال (ع)[2]: «فأنه من مات منكم على فراشه، وهو على معرفة حق ربه وحق رسوله وأهل بيته، مات شهيداً ووقع أجره على الله واستوجب ثواب ما نوى من صالح عمله، وقامت النية مقام إصلاته لسيفه».

٢٣ ـ وقال عليه السلام: «نحن النجباء وأفراطنا أفراط الأنبياء، وحزبنا حزب الله عز وجلّ، والفئة الباغية حزب الشيطان، ومن سوّى بيننا وبين عدوّنا فليس منا»[3].



(١) من كلام له (ع) صفحة ٣٦ من الجزء الثاني من النهج.
(٢) من كلام له (ع) صفحة ١٥٦ من الجزء الثاني من النهج.
(٣) في الصواعق ص: ١٤٢.

ما علة وجودنا في هذا الكون

سؤال يتبادر إلى ذهن كثير من الناس. وكل يجيب حسب ما بلغت نفسه من مراتب التكامل. فإذا كان متوغلاً في المادة الصماء: في الشهوات والنزوات والملذات غير المشروعة متبنياً المسلك المادي أو الفلسفة الحسية، يقول:

إنما خلقنا للعناء والتزود من الملاذ الدنيوية إلى أقصى حد ممكن وليس وراء ذلك شيء.

وإذا كان ممن صفت نفسه وصلحت سريرته وحسنت أعماله فيقول:

إنما خلقنا لنتكامل، فنزداد معرفة بالله تعالى لنذهب من هذه الدنيا الموقتة دار العمل والامتحان إلى حياة دائمة خالدة إلى روح وريحان إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

ثم يقول: إن الذي خلق السماوات وهذه الكواكب التي لا تعد ولا تحصى بهذه الدقة التي لا يمكن استقصاؤها وبهذه المعادلات التي تتحكم في حركاتها، هذه المعادلات والدساتير التي لم يبلغ الفلكيون إلا إلى جزء ضئيل منها، لا يخلق شيئاً عبثاً، وإن الغاية لتتناسب مع عظم الموجد وهو الله تعالى، فالغاية من خلقنا غاية رفيعة، سامية، غاية يريد بها تكميل هذه النفوس وتقريبها إلى الله المتعال، غاية يريد بها اختبار هذا الانسان في هذه الفترة الزمنية من عالم الدنيا ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾[1].

وهو القائل: ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور﴾[2].

---

(١) سورة الأنفال: ٤٣.

(٢) سورة الملك: ٣.

إن الله تعالى قد وصف نفسه في آيات جمة (بالرحمن الرحيم)، وهو القائل: ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾، فكل ما صدر عن الله تعالى، إنما هو لتكميل هذا البشر الناقص وإبلاغه أسمى مراتب الكمال البشري. وهو القائل: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾. (الأعراف: ١٥٥).

وبديهي أنه لا يصدر من الرحمن الرحيم إلا الرحمة.

فخلقه تعالى لكل شيء رحمة ولطف، وأما خلقه الانسان فرحمة ما بعدها رحمة، ولو علم الانسان ما يبلغ اليه من مراتب رفيعة وقدسية فائقة ومقامات تفوق مقام الملائكة المقربين نتيجة الطاعة والامتثال لعلم أن خلقه من جانب الله رحمة لا تتناهى ولا تحد.

وقد قال جل من قائل: ﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون﴾[1]، فقد خُلقنا حسب قوله تعالى لعبادة الله تعالى، ذلك، لأنه بالعبادة تخشع النفس الانسانية وتتطهر مما ألم بها من دنس ورجس فتكون قمينة بأن تحلّ فيها معرفة الله تعالى. ذلك لأن معرفة الله لا تكون من نصيب النفوس التي مُلئت جوراً ونفاقاً، ملئت رجساً ودنساً، معرفة الله تعالى بحاجة إلى صقع زكي نقي لا كدر فيه ولا فساد. فالعبادة تأخذ بهذه النفس فتصقلها وتذهب بما بها من أدران. عند ذلك تتجلى فيها المعارف الالهية.

وما إرسال الرسل إلا لتحقيق هذه المعرفة، معرفة الله تعالى وتركيز الحب الالهي في النفوس وهو القائل: ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾[2].

وإن المعرفة الحقيقية والعلم الحقيقي أي المعارف الالهية لا تحصل إلا نتيجة العبادة والتهجد والمثول بين يدي الله تعالى خاشعاً خاضعاً جوف الليل، وهو القائل: ﴿أمَّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر

(١) سورة الذاريات: ٥٦.
(٢) سورة فاطر: ٢٤.

أولوا الألباب﴾[١]. فما هو هذا العلم الذي لا يستوي فيه العالم والجاهل؟.

هو علم يترشح من قنوت واستغفار جوف الليل، من قيام لوجه الله والناس نيام! فالعبادة بكل خشوع لها آثارها في النفوس وإبلاغها أسمى مراتب الكمال، وبدرجة هذا الكمال تتجلى المعارف الآلهية في النفوس وتتحقق سر الخلق وتظهر علة وجودنا في هذا العالم.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن البيوت التي يصلى فيها بالليل ويتلى فيها القرآن، تضيء لأهل السماء كما يضيء الكوكب الدرّي لأهل الأرض».

ولا مراء أنه ما يتقرب العبد المؤمن بقربان اعظم عند الله وأفضل من صلاة الليل والتسبيح والتهليل بعدها، ومناجاة ربه العزيز الحميد والاستغفار من الذنوب وقراءة الأدعية الواردة في صلاة الليل وبعدها ببكاء وخشوع، ثم تلاوة القرآن إلى طلوع الفجر وإيصال صلاة الليل بصلاة النهار: (صلاة الفجر).

فإن من آثار صلاة الليل سعة الرزق في الدنيا من غير كد ولا تعب ولا نصب وبعافية شاملة في جسده، وأما في الآخرة فله النعيم في قبره من الجنة ويضاء قبره بنور صلاته تلك إلى يوم حشره وان الله تعالى لا يحاسبه ويأمر الملائكة بادخاله الجنة في أعلى عليين في جوار محمد وأهل بيته الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين، فيا لها من فرصة سانحة، ما أحسن عاقبتها إذا خلت من الرياء والعجب.

ولا مراء أن المواظبة على صلاة الليل تؤدي بالفرد أن تكون أخلاقه سامية، حميدة، تؤدي به إلى مراقبة نفسه في كل أمر جزئي، لعلمه أن مخالفة بسيطة توجب حرمانه عن صلاة الليل ومناجاة ربه الجليل.

فقد روي: «أن الرجل يكذب الكذبة فيحرم بها صلاة الليل، فإذا حرم صلاة الليل حرم بذلك الرزق».

---

(١) سورة الزمر: ٩.

فعلى الانسان أن يتقدم في معرفة الله تعالى وأن يعمل في تقوية هذه المعرفة والبلوغ إلى الغاية التي خلق لأجلها، فقد قال رسول الله (ص):

«مَن استوى يوماه فهو مغبون، ومَن كان غده شراً من يومه فهو ملعون، ومَن لم يتفقد النقصان في عمله كان النقصان في عقله، ومن كان نقصان في عمله وعقله فالموت خير له من حياته».

وليعلم هذا الانسان أن لله ملكاً ينادي: يا أبناء الخمسين: زرع قد دنا حصاده! ويا أبناء الستين ماذا قدمتم لأنفسكم من العمل الصالح وماذا أخرتم من أموالكم لمن لا يترحم عليكم! يا أبناء السبعين، عدوا أنفسكم من الموتى! ليت الخلائق لم يخلقوا، وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا.

فنحن خلقنا لمعرفة الله تعالى وفي الحديث القدسي، يقول الله تعالى: ﴿كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق لكي أعرف﴾. وان معرفة الله تعالى تجر بالفرد إلى جنة عرضها السماوات والأرض وهو القائل:

﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾[1].

فهذه المعرفة التي نالها الانسان في هذه الدنيا نتيجة العمل الصالح والعبادة الخالصة (بجميع أنواعها) لوجهه الكريم: أكرم الوجوه وأعز الوجوه، تكون نوراً يهدي هذا الانسان إلى روح وريحان، إلى جنات عدن. وهو قوله تعالى:

﴿يوم ترى المؤمنين يسعى نورهم بين أيديهم وبايمانهم، بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار، خالدين فيها، ذلك الفوز العظيم﴾[2].

فلا قيمة لهذه الدنيا، لأنها دار من لا دار له ولها يعمل من لا عقل

---

(١) سورة الحديد: ٢١.

(٢) سورة الحديد: ١٢.

له[1]، إلا إذا كان يريد بعمله هذا وجه الله تعالى وخدمة الآخرين لوجه الله والأخذ بيد المحتاجين والبائسين جلباً لمرضاة الله، وإنما هذه الفترة الدنيوية التي نحن فيها هي فترة عمل لنيل المعارف الالهية وحصول اليقين نتيجة تزكية النفس وعبادة خالصة وأخلاق كريمة والقيام بحوائج الناس وخدمة الوالدين وصلة الأرحام ومساعدة المعوزين ونشر معالم الدين، دين الاسلام الحنيف في أرجاء العالم والتضحية في هذا السبيل. فان لكل عمل صالح أثره الفعال في ازدياد معرفة الفرد بالله تعالى، لينال مرتبة اليقين بفضله. ومن يبلغ تلك المرتبة التي بلغها أمامنا علي عليه أفضل الصلاة والسلام حيث يقول: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً».

فلنكن من أولئك المتفكرين الذين يجعلون هذه الآية المباركة دستوراً لعملهم في هذه الحياة الدنيا وهو قوله جل من قائل:

﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس. كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾[2].

ولا بأس بذكر ما قاله علي عليه السلام كدستور للزهد ليقتدي به مَن مَنَّ الله عليه فأبعده عن زينة الدنيا وزبرجها، وان هذا الابعاد والانصراف عن زخارف الدنيا رحمة من رحمات الله، انه عليه الصلاة والسلام يقول:

«والله لقد رقعت مدرعتي هذه، حتى استحييت من راقعها، وقال لي قائل: «ألا تنبذها» فقلت أعزب عني، عند الصباح، يحمد القوم السرى».

وقال (ع): الزاهدون في الدنيا ملوك الدنيا والآخرة والراغبون فيها فقراء الدنيا والآخرة.

* * *

---

(١) كما جاء في منطوق حديث.
(٢) سورة يونس: ٢٤.

وبعد أن علمنا أن علة وجودنا في هذه الدنيا في هذه الفترة الزمنية إنما هي معرفة الله تعالى: بدرجة ما تبلغ إليه النفس من مراتب الكمال والتكامل، يجدر بنا أن نذكر ما يؤدي إلى هذه المعرفة التي هي غاية الغايات:

١ ـ العبادة بجميع ما في العبادة من معانٍ مختلفة. ومنها الأعمال الصالحة وقضاء حوائج الناس.

٢ ـ إرشاد الناس وهدايتهم إلى الاسلام العظيم والمجاهدة في هذا السبيل والتضحية إلى أبعد الحدود.

٣ ـ الزهادة في هذه الدنيا.

٤ ـ الكون بين الخوف والرجاء.

٥ ـ الصمت إلا عما يفيد الناس من وعظ وإرشاد.

٦ ـ المبادرة إلى التوبة بجميع أنواع التوبة[1].

٧ ـ ذكر الله على كل حال والتوكل عليه والبكاءمن خشية الله لا سيما جوف الليل والتسليم والرضا بما أراد الله والقناعة والصبر على النوائب ومراقبةالنفس الأمارة بالسوء. فقد قال النبي (ص) لبعض أصحابه: «أعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك».

٨ ـ الاكثار من الشكر بأنواع الشكر وأن يقول كل يوم ٣٦٠ مرة: الحمد لله رب العالمين.

٩ ـ حسن الخلق والجود والسخاء فيما يحبه.

١٠ ـ الابتعاد عن الرياء والحسد والبخل والكبر، فأنها من أصول الكفر.

وأختم هذا المقال بهذه الموعظة التي لا تثمن لعظمتها وكثرة فوائدها ونسأل الله أن نتعظ ونعمل بمضمونها كي نزداد معرفة بالله تبارك وتعالى ونبلغ الغاية التي أوجدنا الله لأجلها، وذلك هو الفوز المبين.

---

(١) ذكرنا ذلك في الجزء الثاني من كتاب التكامل في الاسلام.

أوصى رسول الله معاذ بن جبل[1]. فقال له: أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث وأداء الأمانة وخفض الجناح والوفاء بالعهد وترك الخيانة وحسن الجوار وصلة الأرحام ورحمة الأيتام ولين الكلام وبذل السلام وحسن العمل وقصر الأمل وتوكيد الايمان والتفقه في الدين وتدبر القرآن وذكر الآخرة والجزع من الحساب وكثرة ذكر الموت، ولا تسب مسلماً ولا تطع آثماً، ولا تقطع رحماً، ولا ترضَ بقبيح تكن كفاعله، واذكر الله عند كل شجر ومدر وبالاسحار على كل حال يذكرك، فان الله تعالى ذاكر من ذكره وشاكر من شكره، وجدّد لكل ذنب توبة، السر بالسر والعلانية بالعلانية».

«واعلم أن أصدق الحديث كتاب الله، وأوثق العرى التقوى، وأشرف الذكر ذكر الله تعالى، وأحسن القصص القرآن، وشر الأمور محدثاتها وأحسن الهدى هدى الأنبياء (ع)، وأشرف الموت الشهادة، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى، وخير العلم ما نفع، وشر العمى عمى القلوب، واليد العليا خير من اليد السفلى، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى، وشر المعذرة عند الموت وشر الندامة يوم القيامة، ومن أعظم خطايا اللسان الكذب، وخير الغنى غنى النفس وخير الزاد التقوى، ورأس الحكمة مخافة الله تعالى في السر والعلانية، وخير ما ألقي في القلب: اليقين».

«وإن جماع الاثم الكذب والارتياب، والنساء حبائل الشيطان، والشباب شعبة من الجنون وشر الكسب الربا، وشر المآثم أكل مال اليتيم، والسعيد من وعظ بغيره، وليس لجسم نبت على الحرام إلا النار، ومن تغذى بالحرام فالنار أولى به، والسكينة مغنم وتركها مغرم. وعلى العاقل أن تكون له ساعة يناجي فيها ربه وساعة يتفكر فيها في صنع الله وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتخلى فيها لحاجته من حلال، وعلى العاقل أن لا يكون ساعياً إلا في ثلاث، تزود لمعاد ومرمة لمعاش ولذة في غير محرم، وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه».

تلك هي أصول الكمالات التي يتحلى بها الانسان ليكون أعلى مرتبة

(١) من كتاب: إرشاد القلوب، للديلمي عليه الرحمة ص: ٨٩.

من الملائكة وليعلم بعد ذلك سر وجوده في هذه الدنيا، فيشكر الله تعالى على عظيم ما منَّ وجزيل ما أنعم، ولا موفق إلا الله، ولا راحم إلا هو.

﴿وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو، وأن يردك بخير فلا رادَّ لفضله، يصيب به من يشاء من عباده، وهو الغفور الرحيم﴾[1].



(١) سورة يونس: ١٠٧.

أثر الآلام في تكامل النفس

سؤال: [1]

هل صحيح أن الآلام التي يعانيها الانسان ترجع إلى أن الحرية لم تتحقق بعد على الوجه الأكمل ولماذا؟.

الجواب:

لا علاقة بين ما يعاني الانسان من آلام وبين تحقق الحرية على الوجه الأكمل. الانسان حر في حدود معينة عينها الشرع، حر شريطة أن لا يتعدى على بني نوعه، والله هو القائل: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾[2]، وقد جاء الاسلام بشريعة سمحاء: ﴿وما جعل الله عليكم في الدين من حرج، ملة أبيكم إبراهيم، هو سمّاكم المسلمين من قبل﴾[3].

وقد قال عز من قائل: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾.

وإن الميول البشرية والشهوات الطاغية والأطماع غير المشروعة تؤدي إلى الضغط على حريات الآخرين وهذا الضغط بدوره يؤدي إلى آلام وأحزان، فيظن من لا يزن الأمور بميزان الشرع الشريف، أن هناك ضغطاً على الحرية، وأن الحرية لم تتحقق، بل بالعكس، إن الحرية كل الحرية في إعطاء الحق للآخرين كي يتمتعوا بحرياتهم في حدود مشروعة.

---

(١) السائل المحترم هو علي حسان الشوملي ـ بغداد ـ بياع رقم الدار: ١٤/٨٨.
(٢) سورة البقرة: ١٩٤.
(٣) سورة الحج: ٧٨.

أنـه تعالى يقـول: ﴿يا أيهـا الانسان إنـك كادح إلى ربـك كدحـاً فملاقيه﴾[١].

فالانسان متعب في هذه الدنيا لنيل سعادة الآخرة، وشيء من سعادة الدنيا. وقد وجد هذا الانسان كي يقطع هذه المراحل الـدنيويـة بنجاح ويذهب إلى عالم الخلود مع طهارة نفسية ونفس قدسية، وقد جـاء في الحديث: «الدنيا مزرعة الآخرة». «الدنيا دار عمل ولا حساب والآخرة دار حساب ولا عمل» والعمل فيها لا يخلو من المشاق والمتاعب والآلام ولا بد لهذا الانسان أن يتحمل هذه المشـاق والآلام لينال سعـادة أبديـة. ففي الحديث حُفَّت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات.

فإذا كان الخلو عن الآلام هو الحرية فهذا محال لانسان يريد أن يقطع المراحل الدنيوية التي تؤدي إلى ما لا عين رأت أو أذن سمعت أو خطر على قلب بشر، إلى ﴿جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين﴾.

فالحرية المنطقية التي يرتضيها الله لعباده هي حرية محدودة بحدود الشرع، وإن هذه الحرية المحـدودة لا بد وأن يـرافقها كثيـر من الآلام والأحزان. إذ تصطدم هذه الحرية بحريات الآخرين فلا تتحقق ويؤدي عدم التحقق إلى آلام يظن أنها ترجع بالمآل إلى عدم تحقق الحرية بصورة كاملة على وجه الأرض.

فما نراه من شذوذ جنسي واستهتار علني وهتك للحرمات وإغراء وإفساد في عالم الغرب ليس من الحرية المشروعة في شيء... وإنما هو إفساد في الأرض: ﴿والله لا يحب الفساد﴾[٢]. ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون﴾[٣].

فآراء بعض فلاسفة أوربا مستقاة من بيئة أوربا الموبوءة بأنواع الفسوق

---

(١) سورة السجدة: ١٨.
(٢) سورة البقرة: ٢٠٥.
(٣) سورة الحج: ١٨.

والعصيان، ولا قيمة لهذه الآراء في ميزان الشرع والفلسفة الاسلامية الحقة، ذلك لأن فلسفة الاسلام الحقة آتية من وراء المادة، من جانب الله تعالى، خالق هذا البشر والعالم بطبائعهم، وما يصلحهم ويفسدهم. فلسفة ناصعة حقة، لا شائبة فيها ولا اضطراب، ولا يعلم حقيقة ذلك إلا من صفت نفسه، وتزكى باطنه. وأين الفيلسوف الغربي المربى في أحضان المادةالصماء من هذا الصفاء الباطني والتزكية النفسية.

﴿فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾(١).

فالآلام رحمة من الله تعالى على عباده، يكفر العبد بها عن ذنوبه ويتزكى بها من أدرانه وأوساخه ليذهب من هذه الدنيا نقي الثوب، طاهر الضمير. وفي الحديث:

«إذا أحب الله عبداً ابتلاه ليسمع تضرعه». وفي حديث قدسي عن الله تعالى حيث يقول: «أنين المذنبين أحبّ إليَّ من تسبيح المسبحين».

وعن أبي عبد الله (ع) وعنده سدير، قال: «إن الله إذا أحب عبداً غته بالبلاء غتاً، وانا وإياكم يا سدير، لنصبح به ونمسي».

وعن أبي عبد الله (ع): «ما من مؤمن إلا وقد وكل الله به أربعة: شيطاناً يغويه، يريد أن يضله، وكافراً يغتاله، ومؤمناً يحسده وهو أشدهم عليه ومنافقاً يتبع عثراته».

فالمؤمن في هذه الدنيا مسلوب الراحة، ممتحن لا محالة وهو في اجتيازه الامتحانات يتطهر ويتزكى. وهو القائل: ﴿قد أفلح من زكاها وقد خاب من دسّاها﴾(٢).

وأختم هذا المقال بهذا الحديث العظيم فليعتبر المتعبرون:

قال رسول الله (ص): «ما تجرع عبد قط جرعتين أحب إلى الله من

---

(١) سورة الحج: ٤٦.

(٢) سورة الشمس: ٩ ـ ١٠.

جرعة غيظ ردها بحلم، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها. ولا قطرت قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دمع في سواد الليل وهو ساجد ولا يراه إلا الله. وما خطا عبد خطوتين أحب إلى الله تعالى من خطوة إلى الصلاة الفريضة وخطوة إلى صلة الرحم».



فلسفة الهدى والضلال

إن موضوع الهدى والضلال لمَن أهم المواضيع التي يجب أن يعنى به الانسان ويهتم به غاية الاهتمام. لأنه قضية حياة ومماة بالنسبة إلى هذا الانسان. ولا أظن أن هناك موضوعاً يُهِمُّ هذا الانسان كهذا الموضوع. وهو القائل: ﴿فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذِرين﴾[1].

﴿فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومَن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل﴾[2].

﴿من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها، ولا تزر وازرة وزر أخرى، وما كنا معذّبين حتى نبعث رسولاً﴾[3].

﴿ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه، إن الله لَغني عن العالمين﴾[4].

﴿ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه، وإلى الله المصير﴾[5].

﴿فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضلّ فإنما يضل عليها، وما أنت عليهم بوكيل﴾[6].

﴿مَن عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها، وما ربك بظلام للعبيد﴾[7].

---

(١) سورة النمل: ٩٢.
(٢) سورة يونس: ١٠٨.
(٣) سورة الاسراء: ١٥.
(٤) سورة العنكبوت: ٦.
(٥) سورة فاطر: ١٨.
(٦) سورة الزمر: ٤١.
(٧) سورة حم ـ سجدة: ٤٦.

وإن الله تعالى قد أتمّ على عباده الحجة بأن غرس فيهم أصول المعارف الآلهية والهمهم ما يدنس النفس الانسانية وما يزكيها، إتماماً للحجة على جميع الناس، من بلغته دعوة الأنبياء (ع) ومن لم تبلغه الدعوة. وقد أخذ الله على العباد اعترافهم بربوبيته ووحدانيته في عالم الذرّ وعالم الأرواح وذلك بقوله جل من قائل:

﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم: (ألستُ بربكم)، قالوا بلى، شهدنا، أن تقولوا يوم القيامة: انا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا: إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنّا ذرّية من بعدهم، أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾[1].

فكل نفس من النفوسِ البشرية قالت: بلى... في عالم الذر عندما سألهم ربنا المتعال: «ألستُ بربكم» وإنما فعل الله ذلك: لئلا يقول قائل: يا ربنا، لِمَ أدخلتنا نار جهنم وقد كنا غافلين عن هذا الأمر، أو يقول: لا ذَنْب لنا، والذنب ذنب آبائنا الذين أشركوا قبلنا، وقد كنا ذرية ضعفاء من بعدهم، فلا ينبغي أن تهلكنا بذنوب غيرنا.

وقد غرس الله تعالى أيضاً أصول الهداية في النفس الانسانية، فالانسان لولا ذنوبه وآثامه يهتدي بصورة فطرية نحو الله المتعال والأعمال الصالحات، وهو القائل:

﴿وهديناه النجدين، فلا أقتحم العقبة؟﴾[2] أي أن الله هدانا في عالم الأرواح وبصورة فطرية إلى طريقي الخير والشر أي أنه أعلمنا طريقي الخير والشر، لنسلك طريق الخير ونجتنب طريق الشر، فلا عذر للمعتذر إن ضل عن الطريق السوي. إنما يسلك الطريق المعوج لسوء اختياره وإتباعه أمر الشيطان الغاوي وقد نهاه الله عن ذلك وحذره أيما تحذير: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾[3].

---

(١) سورة الأعراف: ١٧٢ ـ ١٧٣.

(٢) سورة البلد: ١٠ ـ ١١.

(٣) سورة فاطر: ٦.

فالانسان بصورة فطرية يتوجه إلى الله المتعال، حتى وإن نما وترعرع في محل ناء بعيد عن كل انسان، وهو القائل: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

وقد ألهم الله عباده ما يؤدي إلى سعادتهم وشقائهم، أي غرس فيهم أصول السعادة والشقاء فهو يقسم بالشمس والقمر والنهار والليل والسماء والأرض والنفس، ثم يقول بعد إقسام عدة: ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾(١)، أي أن الله تعالى قد ألهم النفس الانسانية قبل أن تحل في هذا البدن ما به التقوى وما به الفجور. إتماماً للحجة: ﴿قل فلله الحجة البالغة﴾(٢). وقد فعل الله ذلك: ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة﴾(٣).

وفي الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة». فالفطرة تسوق الانسان إلى الاعتراف بالله تعالى وتوحيده وتقديسه، إلا أن ما اجترحته الأيدي من المظالم والموبقات تتجسم في نفسه وتكون حجاباً حاجزاً دون رؤية الحق وهو القائل: ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً﴾(٤). وان يروا كل أية لا يؤمنوا بها. وهذه الأكنة أو الأغطية هي الذنوب والآثام، فهي تضاد الفطرة وتغطيها فلا تعمل الفطرة إذ ذاك عملها، فيؤدي إلى الشكوك والريب أولاً ثم إلى ظلمات بعضها فوق بعض ثم إلى الالحاد والشرك بالله!!...

وقد قال عزَّ من قائل: ﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾(٥).

﴿ولقد أنزلنا اليك آياتٍ بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾(٦).

(١) سورة الشمس: ٨.
(٢) الانعام: ١٤٩.
(٣) سورة النساء.
(٤) سورة الانعام: ٢٥.
(٥) سورة يونس: ٣٣.
(٦) سورة البقرة: ٩٩.

﴿ثم إن هؤلاء الفاسقين يعدون تعاليم السماء أساطير، تسلية لنفوسهم وتقوية لضلالهم. ﴿حتى إذا جاؤوك يجادلونك، يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين. وهم ينهون عنه وينأون عنه، وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾[1].

وكم لهذه الآية المباركة من مصداق في يومنا هذا في عالم الاباء والأولاد: ﴿والذي قال لوالديه: أفٍّ لكما أتعدانِني أن أُخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله: ويلك آمن، ان وعد الله حق، فيقول: ما هذا إلا أساطير الأولين﴾[2].

﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا، لو تشاء لقلنا مثل هذا، إن هذا إلا أساطير الأولين﴾[3]. ﴿قالوا أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون، لقد وُعدنا نحن وآباؤنا من قبلُ، إن هذا إلا أساطير الأولين﴾[4].

فالتاريخ يعيد نفسه، فإن رأينا في زماننا هذا استهزاء بالمقدسات، فلقد استهزىء بها من ذي قبل، ذلك لأن الشيطان كان يرافق الانسان منذ أن خُلق والنفس الأمارة بالسوء كانت تعمل عملها. وهو القائل: ﴿ولقد استُهزىء برسل من قبلك، فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون﴾[5].

﴿ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين. وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن. كذلك نسلكه في قلوب المجرمين. لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين﴾[6].

---

(١) سورة الانعام: ٢٦.
(٢) سورة الأحقاف: ١٧.
(٣) سورة الانفال: ٣١.
(٤) سورة المؤمنون: ٨٣ ـ ٨٤.
(٥) سورة الأنعام: ١٠.
(٦) سورة الحجر: ١٠ ـ ١٣.

فالاجرام يكون حجاباً حاجزاً دون رؤية الحق ومانعاً عن الاعتراف بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لولا أن الشياطين يحومون إلى قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات والأرض» ولكن الله تعالى منعنا عن اتباع إغواءات الشيطان وأضاليله وليس للشيطان سبيل على الصلحاء من عباده. وهوالقائل: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾[١]. فمن تحققت فيه العبودية لله فلا سلطان للشيطان عليه. وهو القائل أيضاً: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً﴾[٢]. ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾[٣].

فمن توكل على الله فهو حسبه وهو من الناجين. فالدنيا دار غربلة وامتحان. فطوبى للفائزين في هذا الامتحان العالمي: الامتحان الآلهي، ﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾[٤].

﴿لتُبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذىً كثيراً وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور﴾[٥].

فالعزم كل العزم أن يصبر الانسان في النوائب والمصائب والكوارث وأن يتقي الله في شهواته ونزواته. ويحق للتربية الحديثة أن توجه العزم نحو طاعة الله والصبر والتقوى. لينال الفرد سعادة النشأتين. إذ أن تربية العزم في

---

(١) سورة الحجر: ٤٢.
(٢) سورة الاسراء: ٦٥.
(٣) سورة النحل: ٩١-١٠٠.
(٤) سورة آل عمران: ١٨٥.
(٥) سورة آل عمران: ١٨٦.

الأمور المادية فحسب دون الالتفات إلى التقوى ونبذ الشهوات تربية فاشلة خاسرة. إنه تعالى يقول:

﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً. الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾[1].

إن الله تعالى لعظيم رفده وجليل رحمته قد نبهنا ما للشيطان من عداوة فاحشة مع عباده وقد عهد الينا أن لا نعبد الشيطان وأن لا نطيعه في إغوآآته وتسويلاته وهو القائل: ﴿ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان. إنه لكم عدو مبين﴾[2] وقد أرانا الله الطريقة التي بها نتمكن من التخلص من كيد الشيطان ومكره وهي أن لا نعمى ولا نغفل عن ذكر الله وإطاعة الله، فإذا ذكر الله فرّ الشيطان من وجهه ويئس من كيده ومكره وهو قوله تعالى:

﴿ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن نقيِّض له شيطاناً فهو له قرين وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون. حتى إذا جاءنا قال: يا ليت بيني وبينك بُعد المشرقين فبئس القرين﴾[3] وكم نرى ممن تثقف بثقافة العصر يحسب نفسه قد بلغ مرتبة قاصية من الكمال، حين أنه ألعوبة بيد الشيطان لعنه الله وقد صدّه عن سبيل الهداية وما يوصله إلى عقبى محمودة وجنّة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

* * *

فالشيطان يلعب دوراً خطيراً في إغواء الانسان وجعله من أصحاب النار. وأول عمل يقوم به: هو إبعاده عن ذكر الله وقد يوحي إليه أن ذكر الله خرافة يتلهى به العاطلون والعاجزون! يوحي اليه أن الغربيين بلغوا ما بلغوا من هذا الرقي المادي دون اللجوء إلى ذكر الله، وهل لرجل العصر في يومنا هذا من الوقت مع تزاحم الأعمال ليذكر الله تعالى؟!.

---

(١) سورة الكهف: ١٠٤.

(٢) سورة يس: ٦٠.

(٣) سورة الزخرف: ٣٦ ـ ٣٨، يعشو: يتعامى ويعرض لفرط اشتغاله بالدنيا.

وقد سمعت من أحدهم وهو يستهزىء بالذاكرين ربهم أوقات فراغهم، يقول: ما فائدة: (بس بس) ويريد بـذلك قـول المؤمن: «سبحان الله، سبحان الله...» أنه كان يريد أن يجاري المتحضـرين بحضارة العصـر ويماشي ما هم عليه من إغفال ذكر الله، ذلك لأنك ترى: أن في ضيافات كبيرة وموائد عامرة يجلس عليها رجال العصر الحاضر لا يذكرون الله ولا يشكرونه، ولعل من يريد ذكر الله، وقد بقي لديه صبابة من إيمان، يخجل ممن يتّهمه بالرجعية أو الخرافة! نعم، أصبحنا في عصر أمسى فيه شكر المنعم خرافة! وهو القائل:

﴿هل جزاء الاحسان إلا الاحسان﴾، ﴿وإن تطع اكثر مَن في الأرض يضلوك عن سبيل الله، إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾ (سورة الأنعام: ١٦).

وكم كنت أرى رجالاً من المؤمنين وأنا طفل صغير لا يفترون عن ذكر الله تعالى، كانوا: ذبل الشفاه من ذكر الخالق المتعال.

ففي الحديث: «ما من قوم قعدوا في مجلس ثم قاموا فلم يذكروا الله عز وجل فيه إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة».

وقال رسول الله (ص): إتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً، ولا تكثر من الضحك، فان كثرة الضحك يميت القلب»!.

فترك الذكـر يؤدي إلى هجوم الشيـطان وهجوم الشيـطان يؤدي إلى الضلال وسوء العاقبة. ﴿ومن يكن الشيطان له قريناً، فساء قريناً﴾. ولذلك حثنا الله تعالى على ذكره جل جلاله في آيات جمة، منها: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلا﴾[1].

ولا شك أن ذكر المنعم وهو الله، وتسبيحه وتقديسه من كمال العقل، فالذاكرون ربهم جل جلاله في حالات شتى هم أولو الألباب.

---

(١) سورة الأحزاب: ٤١ ـ ٤٢.

انه تعالى يقول:

﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأولي الألباب: الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، ربّنا ما خلقت هذا باطلاً، سبحانك فقنا عذاب النار﴾[1].

وهو القائل: ﴿واذكروه كما هداكم. وان كنتم من قبله لمن الضالّين﴾.

وإن في ذكر الله تعالى بإخلاص انجذاباً روحياً بين العبد والمعبود، يشعر به من اتخذ التقوى شعاراً واختلى بربه جوف الليل يريد وجهه بكل انقطاع وابتهال، وهو القائل:

﴿الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء﴾[2].

ما أعظم ما وعد الله عباده، بقوله:

﴿فأذكروني أذكركم﴾[3].

وقد جاء في بعض الكتب السماوية:

«أهل ذكرى في ضيافتي وأهل طاعتي في نعمتي، وأهل شكري في زيادتي، وأهل معصيتي لا أؤيّسهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم وان مرضوا فأنا طبيبهم، أداويهم بالمحن والمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب»[4].

وفي الحديث: «من أكثر ذكر الله عز وجل أظله الله في جنته».

---

(١) سورة آل عمران: ١٩٠ - ١٩١.
(٢) سورة الزمر: ٢٢.
(٣) سورة البقرة: ١٥٢.
(٤) إرشاد القلوب للديلمي: ص ١٠١.

وعن أبي عبد الله (ع) قال: إن الله عز وجل يقول: من شغل بذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي من سألني.

وقال (ع): إن العبد ليكون له الحاجة إلى الله عز وجل، فيبدأ بالثناء على الله والصلاة على محمد وآل محمد حتى ينسى حاجته فيقضيها الله له من غير أن يسأله إياها.

وفي حديث قدسي: «من ذكرني سراً ذكرته علانية».

وفي حديث آخر: قال الله عز وجل لعيسى (ع): «يا عيسى اذكرني في نفسك أذكرك في نفسي. واذكرني في ملائي أذكرك في ملاء خير من ملاء الآدميين، يا عيسى، ألِن لي قلبك واكثر ذكري في الخلوات واعلم أن سروري أن تبصبص إليّ وكن في ذلك حياً ولا تكن ميتاً». (أصول الكافي. ج ٢، ص: ٥٠٢).

وعن أبي عبد الله (ع) قال: الذاكر لله عز وجل في الغافلين كالمقاتل في المحاربين.

وقد قال رسول الله (ص)، ذاكر الله في الغافلين كالمقاتل عن الفارين والمقاتل عن الفارين له الجنة.

وكان رسول الله (ص) إذا أصبح قال: «الحمد لله رب العالمين كثيراً على كل حال، ٣٦٠ مرة، وإذا أمسى قال مثل ذلك».

وعن أبي عبد الله (ع) قال: من قال أربع مرات إذا أصبح: الحمد لله رب العالمين، فقد أدى شكر يومه، ومن قالها إذا أمسى، فقد أدى شكر ليلته[1].

وفي الحديث: «أكثروا من التهليل والتكبير فأنه ليس شيء أحب إلى الله عز وجل من التهليل والتكبير»[2].

---

(١) أصول الكافي ج ٢، ص ٥٠٣.
(٢) أصول الكافي ج ٢، ص ٥٠٦.

وعن أمير المؤمنين (ع): التسبيح نصف الميزان والحمد لله يملأ الميزان والله أكبر يملأ ما بين السماء والأرض[١].

وعن رسول الله (ص): «خير العبادة قول: لا آله إلا الله».
ومع ذكر الله ينذحر الشيطان وييأس من إغواء المؤمن الذاكر.

ولهذا نهى الاسلام عن كل عائق عن ذكر الله كالغناء ومجالس اللهو والسهر في الباطل، إلى ما هنالك. ففي الحديث: «الغناء مجلس لا ينظر الله إلى أهله».

فأساس الضلال هو اتباع هذا الشيطان، فقد قال الله تعالى:

﴿إنْ يدعون من دونه إلا أناثا، وانْ يدعون إلا شيطاناً مريداً، لعنه الله، وقال: لأتخذنَّ من عبادك نصيباً مفروضاً، ولأضلَّنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الانعام ولآمرنَّهم، فليغيرنَّ خلق الله، ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله، فقد خسر خسراناً مبيناً. يعدهم ويمنيهم، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾[٢].

وفي آية أخرى: ﴿ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً﴾[٣].

فالناس فريقان: مهتدٍ وضال. والضلال إنما يأتي من اتباع اغواآت الشيطان لعنه الله، ولا سلطة له علينا، إنما مهمته الدعوة والاغواء، فلا جبر في المقام.

وقال الشيطان:

﴿ما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي﴾[٤].

---

(١) أصول الكافي ج ٢، ص ٥٠٦.
(٢) سورة النساء: ١١٧ ـ ١٢١.
(٣) سورة النساء: ٥٩.
(٤) سورة إبراهيم: ٢٢.

والمهتدي من لم يطع الشيطان في اغواءاتـه وخشي الله تعالى في خلواته وجميع حالاته.

وهو القائل:

﴿فريقاً هدى وفريقاً حقَّ عليهم الضلال أنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون﴾[1].

وإن الصلاة المقبولة نوع ذكر لله تعالى وأداء لواجب الشكر وهي التي تبعد عن هذا الانسان الشيطان ووساوسه: «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. ولذكر الله اكبر». وعن ابن عباس: «من لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله إلا بعداً». الا أن المواظبة على الصلاة تجر الفرد إلى أن ينتهي عن السيئات يوماً ما. فقد روى أنه قيل لرسول الله (ص): إن فلاناً يصلي بالنهار ويسرق بالليل، فقال: «إن صلاته لتردعه».

وإن الصلاة رأس الحسنات وهي ماحية للسيئات لقوله تعالى:

﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليـل، ان الحسنات يـذهبن السيئات، ذلك ذكرى للذاكرين﴾ (سورة هود: ١١٤).

ولا سبيل لهذا الشيطان على المخلصين من عباد الله وهو القائل:

﴿ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾[2] والمخلصون هم المؤمنون حقاً الذين أخلصوا لله ولم تتخلل عبادتهم أية شائبةٍ من ريـاء وعجب وطمع.

ولا شك أن الصلوات الخمس المفروضة تذكر هذا الانسان بعوالم الآخرة ومراتب التقوى، ففي الحديث: «الصلاة صابون الخطايا» أي أن الصـلاة المقبولة تكون سبباً لمحو الذنوب وتصفية النفس من أدرانها وأوساخها فتكون قمينة لمعرفة الله تعالى.

---

(١) سورة الرعد: ٢٢.

(٢) سورة الأعراف: ٣٠.

وإن «ذكر الله عز وجل حسن على كل حال» كما جاء في الحديث.

وفي حديث آخر: «يا موسى، إن ذكري حسن على كل حال» وعن أبي عبد الله (ع): «ما من شيء إلا وله حد ينتهي إليه إلا الذكر، فليس له حد ينتهي».

وقال (ع): «شيعتنا الذين إذا خلوا ذكروا الله كثيراً».

وقال رسول الله (ص): «من أكثر ذكر الله عز وجل أحبه الله ومن ذكر الله كثيراً كتبت له براءتان: براءة من النار وبراءة من النفاق».

وإن تسبيح فاطمة الزهراء (ع) من الذكر الكثير الذي قال الله عز وجل: «إذكروا الله ذكراً كثيراً».

وقد جاء في آداب التخلي، من المستحبات: أن يقال عند الدخول:

«أللهم اني أعوذ بك من الرجس والنجس الخبيث المخبث الشيطان الرجيم».

وأن يقول بعد التخلي: «أللهم أرزقني الحلال وجنبني الحرام».

وأن يقول عند رؤية الماء: «الحمد لله الذي جعل الماء طهوراً ولم يجعله نجساً».

وأن يقول عند الاستنجاء: «أللهم حصِّن فرجي وأعِفَّه واستر عورتي وحرِّمني على النار ووفقني لما يقرِّبني منك يا ذا الجلال والاكرام».

وأن يقول عند الفراغ من الاستنجاء:

«الحمد لله الذي عافاني من البلاء وأماط عني الأذى».

* * *

فإذا أراد هذا الانسان أن ينجو من مكائد الشيطان ويتخذ سبيل الرشد سبيلاً: أن يكثر من ذكر الله وأن يدعو الله للتخلص من كيد الشيطان ومكره في مواطن يستجاب فيها الدعاء.

فعن أبي عبد الله (ع): يستجاب الدعاء في أربعة مواطن: في الوتر وبعد الفجر وبعد الظهر وبعد المغرب. وقد قال رسول الله (ص): «خير وقت دعوتم الله عز وجل فيه: الأسحار».

وعن علي بن إبراهيم: عن أبيه، عن أبي عمير، عن عمر بن أذينة قال سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: «إن في الليل لساعة ما يوافقها عبد مسلم ثم يصلي ويدعو الله عز وجل فيها إلا استجاب له في كل ليلة، قلت: أصلحك الله، وأيّ ساعة هي من الليل؟ قال: إذا مضى نصف الليل وهي السدس الأول من أول النصف»[1].

وإن للبكاء والتضرع أثرهما في استجابة الدعاء والسير في سبيل الهدى والابتعاد عن طرق الضلال. ففي الحديث: «إن أقرب ما يكون العبد من الرب عز وجل، وهو ساجد باكٍ»[2].

فعن أبي عبد الله (ع) قال: «ما من عين إلا وهي باكية يوم القيامة إلا عيناً بكت من خوف الله، وما اغرورقت عين بمائها من خشية الله عز وجل إلا حرّم الله عز وجلّ سائر جسده على النار ولا فاضت على خدِّه فرهق ذلك الوجه قتر ولا ذلَّة وما من شيء إلا وله كيل ووزن إلا الدمعة، فان الله عز وجل يطفىء باليسير منها البحار من النار، فلو أن عبداً بكى في أمة لرحم الله عز وجل تلك الأمة ببكاء ذلك العبد»[3].

فطوبى للبكائين الفائزين إلى جنات عدن، وهي غاية الغايات من وجود هذا الانسان في هذه الدنيا الموقتة. وقد وصفهم الله تعالى بقوله:

﴿ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً﴾[4].

﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع

---

(١) أصول الكافي، جـ ٢، كتاب الدعاء، ص ٤٧٨.
(٢) أصول الكافي، جـ ٢، كتاب الدعاء، ص ٤٨٣.
(٣) أصول الكافي، جـ ٢، كتاب الدعاء، ص ٤٨٢.
(٤) سورة الاسراء: ١٠٩.

نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً﴾.

(سورة مريم: ٥٨)

* * *

ولا شك أن بذكر الله تعالى يتفتح القلب ويذهب عنه صدأ الذنوب والقساوة الناشئة من الظلم والآثام فيلين أكثر فأكثر إلى ذكر الله في جميع الحالات فيكون مصداق هذه الآية الكريمة:

﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله. ذلك هدى الله يهدي من يشاء. ومن يضلل الله فما له من هادٍ﴾. (سورة الزمر: ٢٣).

وإن المواظبة على الذكر يؤدي إلى انشراح القلب بنور الايمان وهو نور يمن الله به على الذاكرين من عباده الأبرار:

﴿أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله، أولئك في ضلال مبين﴾. (سورة الزمر: ٢٢).

ونستجير بالله من مرض القلب ومن قسوة القلب، فهما حجابان حاجزان عن رؤية الحق والواقع، وأساسهما الظلم والاثم.

انه تعالى يقول:

﴿ليجعل ما يُلقي الشيطان فِتنةً للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم، وان الظالمين لفي شقاق بعيد﴾. (الحج: ٥٣).

وقد يكون القلب بالمعاصي والآثام أقسى من الحجارة وهو قوله تعالى:

﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك، فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة، وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وان منها لما يهبط من خشية الله، وما الله بغافل عما تعملون﴾

(البقرة: ٧٤).

اختلف الناس من حيث العقيدة في مسألة الهدى والضلال، كل حسب تكامله وصفاء نفسه.

فمن النـاس من يقول: (١) لـو شاء الله لاهتـديت، ولكنت رجـلاً صالحاً. (٢) وان الله هوالذي أراد بي ما أنا فيه من عصيان وغواية.

ويستـدل لمقالـه الأول بقولـه تعالى: ﴿لـو يشاء الله لهـدى النـاس جميعاً﴾(١). ﴿يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾(٢). و﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم، فيضلّ الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم﴾(٣).

ويستدل لقوله الثاني: ﴿ولا تطع مَن أُغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً﴾(٤).

﴿أفرأيت من اتخذ آلهه هواه وأضلّه الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة، فمن يهديه من بعد الله، أفلا تذكرون﴾(٥).

﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا﴾(٦).

(٣) ومن الناس من لا ينسب إلى الله تعالى إلا الخير. مستدلاً بهذه الآية المباركة: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾(٧).

(٤) ومن الناس من ينسب إلى الله تعالى الخير والشر معاً، ويستدل

---

(١) سورة الرعد: ٣٣.
(٢) سورة النحل: ٩٣.
(٣) سورة ابراهيم (ع): ٤.
(٤) سورة الكهف: ٢٨.
(٥) سورة الجاثية: ٢٣.
(٦) سورة الاسراء: ٤٦.
(٧) سورة النساء: ٧٨.

بقوله تعالى: ﴿قل كل من عند الله﴾[1]. وبقوله: ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾[2].

(٥) ومن الناس من يحصر رحمة الله تعالى في إعطاء الأموال، فإذا حرم منها اتهم الله في سلطانه ونسب اليه تعالى عدم العدالة فيما وهب الناس واستدل بقوله تعالى: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا. ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾[3]. ﴿واما إذا ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربّي أهانن﴾[4]. ﴿يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾[5].

(٦) ومن الناس من يقول بعدالة الله تعالى وأنه قسم ما قسم بحكمة ما بعدها حكمة ومنح كلا من عباده فوق ما يستحق وأعطاه بمقدار ما فيه صلاح نفسه وحسن عاقبته وسعادته الأخروية. ويستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض، ولكن ينزّل بقدر ما يشاء، أنه بعباده خبير بصير﴾[6].

﴿إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى﴾[7].

ويستدل بالحديث القدسي: «وإنَّ من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر، ولو صرفته إلى غيره لهلك».

(٧) ومن الناس من يرى أن الله إنما يجزي عباده حسب أعمالهم ويستدل بالآية: ﴿إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾[8]. ﴿ولتجزى كل نفس بما

---

(١) سورة النساء: ٧٧.
(٢) سورة الدهر: ٣٠.
(٣) سورة الزخرف: ٣٢.
(٤) سورة الفجر: ١٦.
(٥) سورة الرعد: ٢٦.
(٦) سورة الشورى: ٢٧.
(٧) سورة العلق: ٧.
(٨) سورة الطور: ١٦.

تسعى﴾(١). ﴿كذلك نجزي من شكر﴾(٢). ﴿وكذلك نجزي كل كفور﴾(٣). ﴿وكذلك نجزي من أسرف﴾(٤).

(٨) ومن الناس من يرى أن الله تعالى قد يعذب المحسن فيدخله جهنم! وقد يثيب العاصي فيدخله الجنة. ويستدل بقوله تعالى: ﴿لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون﴾(٥).

(٩) ومن الناس من لا يرى ما يراه الفريق الثامن ويقول أن عدالة الله وحكمته الفائقة تأبيان ذلك ويستدل بقول الله تعالى: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾(٦).

ويقوله: ﴿من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة، يرزقون فيها بغير حساب﴾(٧).

(١٠) ومنهم من يقول: قد كتب في اللوح المحفوظ ما سيقع إلى يوم القيامة وان علم الله أزلي لا يقبل التغيير وثابت لا يمحى والله عالم بما سيقع، فلا محيص من تحقق هذا العلم ووقوع ما سُطر في اللوح المحفوظ، فالانسان مضطر إلى ما يصدر منه ويستدل بقوله تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها﴾(٨).

(١١) ومنهم من يقول عكس ذلك: ان الله أجل وأعلى من أن ينهى عن الفسق ثم يحقق الفسق كرهاً وجبراً على يد عبد من عباده ثم يعاقبه

---

(١) سورة طه: ١٨.
(٢) سورة القمر: ٣٥.
(٣) سورة فاطر: ٣٦.
(٤) سورة طه: ١٢٧.
(٥) الأنبياء: ٢٣.
(٦) الأنبياء: ١٧.
(٧) سورة المؤمن: ٤٠.
(٨) سورة الحديد: ٢٢.

ويدخله الجحيم، فالانسان مختار في ما يختاره وحر فيما يعمل ويرتكب وأنه يعاقب ويثاب في حدود ما أعطي له من اختيار. ويستدل بقوله تعالى:

﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين، ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾[1].

* *

وإنما جاءت هذه الاختلافات في العقيدة على ما أعتقد من تفاوت في صفاء النفوس ودرجة كمالها فان العقيـدة مرآة النفس من حيث الصفـاء والكدورة.

ثم إن النفس في أية درجة كانت تستدل على صحة ما ذهبت إليه بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية مؤولةً إياها تأويلاً يؤدي إلى صحة ما تعتقد ظاهراً تاركة بعضها دون بعض أو دون عـرض بعضها على البعض الآخر لتثبت ما ذهبت إليه من عقيدة. حين أن القرآن يفسر بعضه بعضاً وكذلك الأحاديث النبوية وما أثر عن المعصومين عليهم السلام، فلا تصل التوبة إلـى التأويل وترك جزء من آية والتمسك بجزء آخر منها بغية تقوية مذهب من المذاهب، أي لا حاجة إلى التأويل مع وجود نصوص كافية توضح لنا السبيل.

ولنَعُدْ لنقد المذاهب المذكورة واختيار المذهب الحق على ضوء ما جاء في القرآن كله دون اللجوء إلى التأويل، جاعلين العقل الانساني حكماً في صحة ما نذهب إليه:

(١) أما قول القائل: لو شاء الله لاهتديت، وان ما أنا فيه من ضلال إنما هو بارادة الله، ولولا إرادة الله لكنت من الهادين، فنقول رداً عليه:

إن الله وهو الكامل على الاطلاق قد خلق كل ما خلق من جماد ونبات وحيوان في غاية الكمال. وخلق الانسـان وقد أودع فيـه أسس الهدايـة

---

(١) سورة الدخان: ٣٨ ـ ٣٩.

والمعارف الآلهية. بقوله تعالى في عالم الذر: ﴿ألست بربكم. قالوا: بلى، أن تقولوا: إنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا: إنما أشرك أباؤنا وكنا ذرية من بعدهم، أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾[1]. فكل منا قد اعترف بوحدانيته تعالى في عالم الذر، قبل أن تلج هذه الأرواح في الأبدان، ولا يجوز عند الانحراف (الناتج عن آثامنا) أن نتذرع بدين آبائنا وشركهم وأن نقول، قد انحرفنا كما انحرف آباؤنا من قبل. فليس لأحد أن يقول في هذا المقام: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون﴾[2] بل كل منا مسؤول يوم القيامة، بما أودع الله فيه من جذور الاعتراف به تعالى وبالمعارف الآلهية وبالنبوات والامامة على حد قوله جل من قائل: ﴿وهديناه النجدين﴾[3] أي طريقي الخير والشر وقوله: ﴿ونفسٍ وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها﴾[4].

فقول المشركين: ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا﴾ قول عارٍ عن الصحة، لأن الله تعالى لا يحب الفساد، وهو القائل: ﴿والله لا يحب الفساد﴾[5]. وبقوله: ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، أم نجعل المتقين كالفجار﴾[6] ولا خطيئة أعظم من خطيئة الشرك، فان خطيئة الشرك لا تغتفر أبداً وهو القائل: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾[7].

فكل من لم تبلغه الرسالة، كمن هو في (آلاسكا) مثلاً، فقد أودع في قرار نفسه جذور التوحيد وأسس الأعمال الصالحة والأعمال الفاسدة

(١) الأعراف: ١٧٢.
(٢) سورة الزخرف: ٢٣.
(٣) سورة البلد: ١٠.
(٤) سورة الشمس: ٧ ـ ٨.
(٥) سورة البقرة: ٢٠٥.
(٦) سورة ص: ٢٨.
(٧) سورة النساء: ٤٨.

والأخلاق التي يرتضيها الله تعالى والتي لا يرتضيها، فهو مسؤول تجاه ربه، بعقله: ﴿قل فلله الحجة البالغة﴾[1].

كل ذلك، ليتكامل هذا الانسان: «اما بعقله، لو كان من الذين لم تبلغهم الدعوة، وأما، باتباع أوامر الأنبياء عليهم السلام إن كان من الذين بلغته الدعوة، ولذلك كله، قد جعل الله أول من خلق آدم (ع) نبياً، كي يسبق أمر الهداية (لأهميته) خلق من خلق من أناسي، من ذكر وأنثى. كي تكون لله تعالى على الناس الحجة البالغة، فلا لهو في عالم الخلق ولا اختلال. وهو القائل: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾[2].

فالذي يزيغ عن الصراط إنما يزيغ من جراء ما تقوم به نفسه من معاصي وآثام وظلم وإجرام وعقوق[3] وأكل الحرام إلى ما هنالك.

انه تعالى يقول: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[4].

فهؤلاء الذين زاغوا، إنما زاغوا لفسقهم، وان أعمالهم السلبية كانت سبباً لزيغهم وانحرافهم.

ولقد قست قلوبهم من جراء بخلهم وعدم إعطائهم حقوق الأرحام والفقراء والمساكين فصارت لا تهتدي إلى الصراط المبين. فقسوة القلب تؤدي إلى العمى والعمى يؤدي إلى الضلال.

وحاشا، ان الله، وهو مُريد الكمال لهذا الانسان، أن يُزيع أحداً، ذلك لأن الكامل على الاطلاق وهو الله لا يصدر منه إلا الكمال، والزيغ يضادّ الكمال وهذا ما لا يصدر عن الكامل وهو الله تعالى. إذن الفرد هو الذي

---

(١) الانعام: ١٤٩.
(٢) سورة الأنبياء: ١٧.
(٣) عقّ الولد والده: عصاه وترك الشفقة عليه والاحسان اليه واستخف به فهو عاق.
(٤) سورة الصف: ٤.

يقوم بتلويث نفسه بأنواع الفسوق، فتزيغ النفس بأمره تعالى، ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل﴾[1]. وإن الله تبارك وتعالى إنما يزيغ قلوب هؤلاء عن اتباع الصراط السوي لعلمه أنهم بلغوا مرتبة من التسافل لا تفيد معهم أية هداية، أنهم أصبحوا أمواتاً وجرثومة فساد. وهو القائل: ﴿وما أنت بمسمعٍ من في القبور﴾.

ذلك لأن الله تعالى، قبل أن يسد على هؤلاء أبواب الهداية قد هيأ لهم فرصاً كثيرة وأرسل اليهم مرشدين متعددين، هيأ لهم كل ما يمكن أن يعتبروا ويتعظوا به، إلا أنهم أبوا وخالفوا بدلاً من أن يستجيبوا وصاروا يستهزئون: ﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا﴾. (سورة البقرة: ٢١٢).

وحاشا ان الله يضل من يضل إلا لأنه أصبح في درجة من التسافل لا تفيد معه أية نصيحة وأي توجيه: ﴿كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب﴾[2] ﴿والذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم، كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا. كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾[3] وفي آية أخرى: ﴿إن المسرفين هم أصحاب النار﴾[4] وفي آية أخرى: ﴿ولقد انزلنا آيات بينات، وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾[5].

فترون: إن هذه الآيات البينات كلها تجعل فعل الانسان الذي كان باختياره سبباً حقيقياً للضلال والزيغ والانحراف.

وأما قوله تعالى: ﴿ولو شاء الله لهدى الناس جميعاً﴾ فيشير إلى مدى قدرته تعالى ولكن الله لا يشذ عن سنة سنها، ﴿ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حي عن بينة﴾.

---

(١) سورة الأحزاب: ٦٢.
(٢) سورة المؤمن: ٣٤.
(٣) سورة المؤمن: ٣٥.
(٤) سورة المؤمن: ٤٣.
(٥) سورة البقرة: ٩٩.

وقوله جل من قائل: ﴿يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء﴾ يفسره قوله تعالى: ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾ ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾[1]. ﴿وما الله يريد ظلماً للعباد﴾[2]. ﴿وما أهلكنا من قرية إلا لها مُنذرون ذكرى وما كنا ظالمين﴾ (الشعراء: ٢٠٩). ﴿من عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساءَ فعليها، وما ربّك بظلام للعبيد﴾. (سورة حم ـ سجدة: ٤٦). فالله جلّ أن يلهو، فيشاء ما به فساد العالم، فيقرب العاصي ويبعد المطيع. وهو الذي نهى عن الفساد بقوله: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً، إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾[3]. وقوله: ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض، قالوا إنما نحن مصلحون﴾. فالله تعالى إنما يسدّ أبواب الهداية، على مَن أصبح جرثومة فساد لا يفيد معه الاصلاح. فمعنى قوله تعالى: يضلّ من يشاء، أي يسد على من أمسى مجموعة فسوق واجرام أبواب الهداية والرشاد، حتى يلقى جزاءه. وبديهي أن الله قد فتح له أبواب الهداية والرشاد مرات ومرات وأرسل إليه من يهديه ويرشده مرات ومرات ولكنه زاد تعنتاً وفساداً وإفساداً في الأرض. فلا يصلحه إلا النار!.

* * *

٢ ـ وأما قول القائل: إن الله هو الذي أراد بي الغواية والضلال، فهو في غاية الضلال، أنه تعالى يقول: ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها، قل أن الله لا يأمر بالفحشاء، أتقولون على الله ما لا تعلمون[4]. قل أمر ربي بالقسط...﴾. ولا شك أن الضلال أساسه الفحشاء، والفحشاء يؤدّي إلى ظلمات في النفس والظلمات مؤدية إلى

---

(١) الكهف: ٤٩.
(٢) سورة آل عمران: ١٠٨.
(٣) الأعراف: ٥٥.
(٤) سورة البقرة: ١١.
(٥) الاعراف: ٢٨.

الضلال والعمى، وبما أن الله تعالى قد نهى عن الفحشاء فقد نهى بذلك عن الغواية والضلال.

وأما قوله تعالى: ﴿ولا تُطِع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً﴾(١). فالله تعالى جلّ أن يغفل قلب أحد عن ذكره إلا بعد إتمام الحجة عليه بأنواع متعددة وتماديه في غيه وفساده وإفساده وعصيانه، بحيث لا تفيد معه أي إصلاح وأية نصيحة حتى يكون مصداق هذه الآية: ﴿ولو رُدوا لعادوا لما نهوا عنه﴾(٢).

حاشا أن الله تعالى يسدّ على أحد أبواب الهداية حتى يكون الفرد هو الذي يسدّ على نفسه أبواب الرشاد بأنواع الفسوق والآثام وذلك لطغيانه وعدم انتهائه عن غلوائه مع تعدد مراتب الارشاد والنصيحة من ضمير يؤنبه ومحيط يرشده ومؤثراتٍ أخرى لا تعد ولا تحصى.

وأما قوله تعالى: ﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم، فمن يهدي من أضلّ الله﴾(٣) دليل واضح على أن الظلم كان سبباً لاتباع الأهواء واتباع الأهواء كان سبباً للغواية والضلال، فهذه مراتب طبيعية رتبها الله وسنها، ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾(٤). فلا مفر منها. فان الله تعالى قد هداه بصورة فطرية إلى معالم التوحيد وما يقربه اليه، لكنه خالف وظلم وأفسد، فتراكمت عليه ذنوبه حتى كان مصداق هذه الآية: ﴿ثم كان عاقبةالذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾(٥) فصار لا يؤمن بالبعث وبنار جهنم حتى يكون في يوم هو المخاطب لهذه الآية: ﴿أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون﴾(٦).

---

(١) سورة الكهف: ٢٨.

(٢) الأنعام: ٢٨.

(٣) سورة الروم: ٢٩.

(٤) سورة الأحزاب: ٦٢.

(٥) سورة الروم: ١٠.

(٦) سورة الطور: ١٥.

وإن قوله تعالى: ﴿وما يضلّ به إلا الفاسقين﴾. الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، أولئك هم الخاسرون. دليل على أن الفسق هو سبب الضلال والانحراف عن الصراط السوي.

وإن غير الفاسق فسائر نحو مراتب التكامل قاطعاً مساره التكاملي، لأنه لم يهدم آثار الفطرة بفسوقه وفجوره. ولذلك، كل ما جاء من نظم ودساتير في الدين الاسلامي تعمل في سد طرق الفسق وزوايا الفجور حفظاً لسلامة الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

وكم رأينا آباءاً متدينين ابتلوا بأولاد منحرفين لم تفد فيهم نصائح الآباء وشفقتهم وعطفهم وازدادوا تعنتاً وجفاءاً، فلم يَرَ الآباء بداً إلا أن ينفصلوا عن أبنائهم ويتركوهم وشأنهم، فهل الآباء والحالة هذه مسؤولون عن انحراف الأبناء بعد إتمام الحجة عليهم مراتٍ ومرات، كذلك الحال دونما تشبيه بالنسبة إلى هداية الله العباد وإتمام الحجة عليهم بأن أودع في نفوسهم فطرة تسوقهم إلى العمل الصالح وتنفرهم عن العمل السيء، وتلهمهم الخير وما هو شر وإرساله الرسل مبشرين ومنذرين ثم ابتلائه إياهم مرات بما ينبههم على خطاياهم وتهيئته لهم ما يعتبرون به، ولكن كل ذلك لم يؤثر، بل ازداد هؤلاء طغياناً وظلماً وعُتواً، وأوجبوا على أنفسهم النار.

وأما قوله تعالى: ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً﴾(١) فقد جاء في صدر الآية: ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه﴾(٢) أي أن الله تعالى قد ذكر هذا المنحرف بآياته مراراً ومراراً ولكنه أبى وامتنع عن الطاعة لما قدمت يداه من إجرام وفسوق. فلا يجتمع الاجرام مع الاسلام على حد قوله تعالى: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين، ما لكم كيف تحكمون﴾(٣) فالله تعالى يتمّ الحجة أولاً ثم إذا

---

(١) سورة الكهف: ٥٧.

(٢) الكهف: ٥٧.

(٣) سورة القلم: ٣٥.

لم ينته المجرم عن إجرامه يعذبه بما يستحق من العذاب ويخفض هذا العذاب تخفيضاً يتناسب مع رحمته. ذلك لأن عذاب الله أقل دائماً من المقدار الذي يستحقه المجرم بدرجات. وهو القائل: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً، وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها، ففسقوا فيها فحق عليها القول، فدمرناها تدميراً﴾[1]. فالله لا يعذب أحداً حتى يتم الحجة ببعث الرسل، ولا يهلك قرية ظالمة إلا بعد أن يرسل أنبياء ورسلاً مبشرين ومنذرين، فيأمرون المترفين منهم لأنهم أكثر الناس إفساداً في الأرض، يهدونهم ويعظونهم. أما من بلغ من الترف والفسق مرتبة قاصية حتى صار جرثومة فساد وإفساد، لا يؤثر فيه الوعظ ولا النصيحة ولا ينتهي عما هو فيه، يستحق العذاب بعد إتمام الحجة ويحق عليه القول، فيدمر باذن الله تعالى وجل الله أن يأمر المترفين بالفسق وهو ينهى عنه. وهو القائل:

﴿وما كان الله ليضلَّ قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون، ان الله بكل شيء عليم﴾[2].

وهذه الآية صريحة في أن الله لا يظلم فرداً من الأفراد حتى يبيِّن لهم ما به التقوى والصلاح بأنواع البيان. وجل الله أن يظلم فرداً من الأفراد وهو غني عنهم والفرد هو الذي يُغوي نفسه ويرديها بسوء عمله ويبعدها عن ساحة القدس بسوء اختياره وإطاعته أوامر الشيطان الذي قد عرفه الله إياه بقوله: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً﴾[3].

نعم، قلّ من ينسب النقص إلى نفسه إذا تردى وتسافل بسوء عمله، إلا المتقين التائبين الذين اتخذوا التقوى شعاراً والورع دثاراً وعملوا في تكميل نفوسهم وإرجاعها إلى الفطرة بعد الانحراف.

«إن الله تعالى يحب النفس الآخذة بالتكامل بعد الانحراف»: النفس اللوامة التي تلوم ذاتها لما أسلفت من معاص وآثام حتى أنه تعالى يقسم بها

---

(١) سورة الأسراء: ١٦.

(٢) سورة التوبة: ١١٥.

(٣) سورة فاطر: ٦.

إجلالاً لشأنها وذلك بقوله: ﴿ولا أقسم بالنّفس اللوامة﴾(١) فتكون هذه النفس: «النفس اللوامة» موضع عناية الله ورفده، وهو القائل: ﴿إنه غفور شكور﴾، ﴿إن الله غفور شكور﴾(٢)، ﴿والله شكور حليم﴾(٣).

* * *

٣ ـ قلنا إن قسماً من الناس لا ينسب إلى الله المتعال إلا الخير. وكل ما هو في صالح هذا الانسان ودليله على ذلك: ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾(٤).

وهذا القول هو القول الصحيح من بين جميع الأقوال والمزاعم الباطلة. لأن الله تعالى غني عن خلقه غني عن ظلمهم وعن إغوائهم وهو الذي منع عن الظلم وأرسل هداة مهديين لهداية الناس أجمعين: ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾(٥). وإن لله على الناس (كما في الحديث) حجتين، حجة باطنة وهي العقل وحجة ظاهرة وهم الأنبياء والمرسلون، فعن الكاظم (ع): «إن لله على الناس حجتين، حجة ظاهرة وحجة باطنة، فأما الظاهرة فالأنبياء والرسل وأما الباطنة فالعقول». كل ذلك ليهتدي هذا الانسان إلى الطريق الذي يؤدي به إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين. فمن لم تبلغه الرسالة إنما يؤاخذ بما يمليه عليه عقله. فـ(العقل ما عُبد به الرحمن واكتسب به الجنان)... الحديث... فكل ما يصدر عن الله تعالى إنما هو خير محض، يدرك ذلك من صفت نفسه وتقرّب إلى الله المتعال بأعمال صالحات؛ ولكن النفس التي لم تنل قسطها من الكمال تظن أو تعتقد أن الشر (كذلك) من الله تعالى، حين أن الآلام والبلايا والنوائب وكل ما يكرهه هذا الانسان ليس بشر في واقع الأمر وإنما هو تطهير وتكفير وامتحان واختبار وزيادة في الدرجات.

(١) سورة القيامة: ٢.
(٢) الشورى: ٢٣.
(٣) سورة التغابن: ١٧.
(٤) سورة النساء: ٢٨.
(٥) سورة الروم: ٣٦.

وهو القائل: ﴿وان تصبهم سيئة بما كسبت أيديهم إذا هم يقطنون﴾[١].

فهناك أحاديث جمة تدل على أن البلايا والنوائب إنما هي رحمات من جانب الله لتطهير النفوس من أدرانها وأوساخها ولتقطع مراتب الكمال في هذا السير الدنيوي لتذهب إلى آخرة سعيدة ولا درن عليها. ذلك، لأن الدين الاسلامي بما فيه من تعليمات وأحكام وعقود وايقاعات مُزَكٍ لهذه النفوس مبلّغ إيّاها أعلى مراتب الكمال.

ومن الروايات المشهورة قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» فيتراءى لمن يجهل حكمة الوجود أن السجن معناه الشر، بل نعيم الآخرة أو الحياة السرمدية السعيدة متوقف على أن تكون الدنيا سجناً للمؤمن، يُطهر فيها نفسه، فتسير في مدارج الكمال: ﴿يا أيها الانسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾[٢].

وفي حديث آخر: «إن الله عز وجل إذا أحبَّ عبداً غته بالبلاء غتاً»[٣].

وعن الصادق (ع): إنما المؤمن بمنزلة كفة الميزان، كلما زيد في إيمانه زيد في بلائه.

وعن الباقر عليه السلام: ان الله عز وجل ليتعاهد المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالهدية من الغيبة ويحميه الدنيا كما يحمي الطبيب المريض.

وعن الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله (ص): لا حاجة لله فيمن ليس له في ماله وبدنه نصيب.

وفي العلل عن علي بن الحسين عن أبيه عليه السلام: قال رسول الله (ص): «ولو كان المؤمن على جبل لقيض الله عز وجل له من يؤذيه ليأجره على ذلك». فهذا ليس بأذى وإنما زيادة في الدرجات.

---

(١) سورة الروم: ٣٦.

(٢) سورة الانشقاق: ٦.

(٣) غته: غمه، غت الشيء في الماء = غطّه، غمسه.

وفي كتاب التمحيص عن الصادق (ع) قال: لا تزال الهموم والغموم بالمؤمن حتى لا تدع له ذنباً.

وعنه عليه السلام قال: لا يمضي على المؤمن أربعون ليلة إلا عرض له أمر يحزنه يذكر به.

وقال علي (ع) في النهج: لو أحبني جبل لتهافت.

وقال عليه السلام: «من أحبنا أهل البيت فليستعد للبلاء جلباباً».

وقد جاء في شرح النهج مما قاله ابن أبي الحديد: قد ثبت أن النبي (ص) قال لعلي (ع): «لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق». وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن البلوى أسرع إلى المؤمن من الماء إلى الحدور.

وتدلّ الأحاديث المذكورة أن المؤمن كلما كان أقرب إلى الله تعالى كانت بليته أعظم.

ففي الكافي بإسناده عن عبد الرحمن بن الحجاج قال: ذكر عند أبي عبد الله عليه السلام: البلاء وما يخص الله به المؤمن، فقال: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله: من أشد الناس بلاءاً في الدنيا؟ فقال: النبيون، ثم الأمثل فالأمثل، ويبتلى المؤمن بعد على قدر إيمانه وحسن أعماله، فمن صح إيمانه وحسن عمله اشتد بلاؤه ومن سخف إيمانه وضعف عمله قلّ بلاؤه.

وفي تفسير العياشي عن صفوان بن يحيى عن أبي الحسن عليه السلام قال: قال الله تعالى: يا ابن آدم، بمشيئتي كنت، أنت الذي تشاء وتقول، وبقوتي أديت إليّ فريضتي، وبنعمتي قويت على معصيتي، ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك، وذاك أني أولى بحسناتك منك، وأنت أولى بسيئاتك مني، وذاك أني لا أُسأل عما أفعل وهم يُسألون.

فقوله تعالى: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله﴾ أي ما أصابك من الصحة والسلامة وسعة الرزق وجميع نعم الدين والدنيا فمن الله.

﴿وما أصابك من سيئة﴾ أي من المعاصي! (فمن نفسك) أي ما أصابك من المحن والشدائد والآلام والمصائب، فبسبب ما تكسبه من الذنوب وقد قال تعالى: ﴿ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾ وقوله تعالى: (فمن نفسك) أي فبذنبك.

وقد فسر ذلك أبو القاسم البلخي بقوله: ما أصاب المكلف من مصيبة فهي كفارة ذنب صغير أو عقوبة ذنب كبير أو تأديب وقع لأجل تفريط.

وقد قال النبي (ص): «ما من خدش بعود ولا اختلاج عرق ولا عثرة قدم إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر».

وفسر أيضاً قول الله تعالى: ﴿فمن نفسك﴾ أي: من فعلك.

فكل ما يصدر من جانب الله تعالى رحمة وأية رحمة وكل ما يصدر من جانب العبد إما طاعة أو معصية بسوء اختياره، ثم يقول مسلياً نفسه: إن الله هو الذي أراد بي أن أعصيه وحاشا أن الله يريد بأحد سوءاً وهو الكامل على الاطلاق. وهو القائل: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[1]. وقوله جل من قائل: ﴿ذلك بأن الله لم يكُ مغيراً نعمةً أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾. (الأنفال: ٥٣).

فتحديد الرزق لا يكون إلا عن مصلحة لا يرتضيها العبد، وهو القائل: ﴿وان من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ (الحجر: ٢١).

وقوله تعالى: ﴿ولو بَسَط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض، ولكن ينزل بقدر ما يشاء، انه بعباده خبير بصير﴾. (الشورى: ٢٧).

فالله أعلم بمصالح العباد وما يفيدهم وما يضرهم، ولكن العبد يظن أو يعتقد أن ما ينغِّص عيشه أو يؤلمه سيِّئة جاءته من جانب الله، حين أنها رحمة، كالدواء المر الذي لا يستسيغه المريض وفيه شفاؤه.

وهكذا بالنسبة إلى بقية النوائب والكوارث. وقد فصلنا ذلك في الجزء السادس من هذا الكتاب تحت عنوان: «لماذا هذه الزلازل؟».

---

(١) الرعد: ١١.

٤ ـ قلنا في المقدمة: إن من الناس من ينسب إلى الله تعالى الخير والشر معاً، ويستدل بقوله تعالى: ﴿قل كل مِن عند الله﴾. وبقوله: ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾.

أما قوله تعالى: ﴿قل كل من عند الله﴾ فجواب لقولهم، حين قالوا: ﴿وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله، وأن تصيبهم سيئة يقولوا هذه من عندك﴾ وهذا قول المنافقين. إن أصابهم خصب ومطر قالوا هذا من عند الله وإن أصابهم قحط وجدب قالوا هذا من شؤم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فرد الله عليهم قائلاً: ﴿قل كل من عند الله﴾ أي جميع ما مضى ذكره من الموت والحياة والخصب والجدب من عند الله وبقضائه وقدره لا يقدر أحد على رده ودفعه ابتلى بذلك عباده ليعرضهم لثوابه بالشكر عند العطية والصبر عند البليّة. ولذلك قال تعالى: ﴿فمالِ هؤلاء القوم (أي المنافقين) لا يكادون يفقهون حديثاً﴾.

وأما استدلالهم بهذه الآية: ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾ لاسناد الشر إلى الله المتعال ففي غاية الوهن، ذلك لأن الله تعالى لا يريد بالناس إلا الخير والرحمة ولذلك أرسل أنبياء ومرسلين لهداية الناس وركز أصول الهداية في العقل الانساني. وأتمّ الحجة على العباد. فلا يكون الشر من جانب الله تعالى. وان ما يعترض الانسان من بلاء وفقر ومرض إنما هو لتهذيب هذا الانسان وإصلاحه وتوجيهه إلى معالم القدس، لتزكو نفسه، فيكون قميناً لما لا عين رأت أو أذن سمعت أو خطر على قلب بشر.

ومعنى: ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾ أي أنك لو قصدت أمراً والله لا يريد تحقّق ذلك (لمصلحة خفيت عليك) فلا يقع ذلك الأمر. أي كل أمر منوط وقوعه بمشيئة الله تعالى. والله قادر أن يحول بينك وبين ما تريد: ﴿والله يحول بين المرء وقلبه﴾(١).

ولكن حاشا أن الله تعالى يريد بك الغواية والضلال، فليس لك أن تنسب ما تفعله من معاصٍ وآثام إلى مشيئة الله تعالى وتستدل بالآية

---

(١) الأنفال: ٢٤.

المتقدمة. ذلك، لأن الله تعالى هو الذي نهى على لسان أنبيائه (ع) وبنفس ألهمها فجورها وتقواها عن ارتكاب المعاصي واقتراف الذنوب والظلم والبغي... الخ.

فمعنى: ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾: أن الأمور لا تتحقق إلا بمشيئته وإرادته وقدرته، فالقدرة والطاقة كلها من جانب الله، ولا تأتي القدرة والطاقة إلا بمشيئته: ﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده، إنه كان حليماً غفوراً﴾(١) فلو سلب الله تعالى الطاقات منا فلا أثر لمشيئتنا. فبالمال لا تتحقق الأمور إلا بمشيئة الله تعالى. ولكن الله جل أن يلهو وان يريد بالناس الغواية والضلال والانحراف، وهو القائل: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾(٢). وقال أيضاً: ﴿أن تكفروا فان الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكم، ولا تزر وازرة وزر أخرى، ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون، انه عليم بذات الصدور﴾.

فالله جعلك مختاراً في ما تعمل من عمل صالح أو سيِّء ويكافئك ويعاقبك في حدود هذا الاختيار ولكن لحكمة ما قد يحول بينك وبين ما تريد.

* * *

وفي تحف العقول للحسن بن علي بن شعبة، قال أبو حنيفة: حججت في أيام أبي عبد الله الصادق (ع) فلما أتيت المدينة، دخلت داره فجلست في الدهليز انتظر إذنه إذ خرج صبي، فقلت ما اسمك؟ فقال: أنا موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فقلت: يا غلام مِمَّن المعصية؟ فقال: إن السيئات لا تخلو من إحدى ثلاث: إما أن تكون من الله وليست منه: فلا ينبغي للرب أن يعذب العبد على ما لا يرتكب، وإما أن تكون منه ومن العبد وليست كذلك، فلا ينبغي للشريك القوي أن

(١) فاطر: ٤١.

(٢) الأنبياء: ١٧.

يظلم الشريك الضعيف، وإما أن تكون من العبد، وهي منه، فإن عفا فكرمه وجوده، وإن عاقب فبذنب العبد وجريرته.

والشر سواء عبروا عنه (بأمر عدمي) على ما يقول بعض فلاسفة الشرق أو عبروا عنه بتعبير آخر هو حادث من الحوادث والله تعالى أمرنا أن نستعيذ به من شر الشيطان عند تلاوة القرآن بقوله جل من قائل: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾.

وهناك سورتان تسميّان بالمعوّذتين: سورة الفلق وسورة الناس. فالله يعلمنا أن نتعوذ به: فنقول بسم الله الرحمن الرحيم، قل أعوذ بربّ الفلق، من شر ما خلق، ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات في العُقد ومن شر حاسد إذا حسد.

وأيضاً: بسم الله الرحمن الرحيم، قل أعوذ برب الناس، ملك الناس آله الناس من شرّ الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس. وهناك أدعية كثيرة للاستعاذة من كلّ شر: منها: بسم الله الرحمن الرحيم، لا آله إلا الله، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم. ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، أشهد أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً، أللهم إني أعوذ بك من شر نفسي ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، ان ربي على صراط مستقيم.

* * *

٥ ـ وأما قوله تعالى: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾. إن الله تعالى قسم المعايش في الحياة الدنيا بين الناس حسب الحكمة والمصلحة، فهناك من يضره البذخ والوفور فيقتر عليه رزقه وهناك من يضره التقتير فيوسع عليه رزقه وهناك من يستحق لخصائص فيه وجهد واجتهاد درجاتٍ فوق من دأبه الخمول والكسل وديدنه الاهمال وعدم الاتكال على الله.

ففي الحديث القدسي: «وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر فلو

صرفته إلى غيره لهلك، وان من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ولو صرفته إلى غيره لهلك».

فالله أعلم بطبائع الناس وما يصلحهم وقد يقدر على أحد عباده رزقه ليختبره ويطهره، ولكن العبد يتجرأ على الله تعالى فيقول: ربي أهانن، على حد قوله جل من قائل: ﴿وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول: «ربي أهانن» فالله تعالى: ﴿يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ حسب المصلحة وتخفى هذه المصلحة على الناس إلا الأولياء منهم والصلحاء.

فقد يكون التقصير في الرزق رحمة والتوسعة نقمة، وهو قوله تعالى: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم أن كيدي متين﴾ ونستجير بالله من هذه المرحلة.

فالانسان إذا لم يتعظ بأوامر الله تعالى تركه الله ونفسه وأغدق عليه وأخذه أخذ عزيز مقتدر، وهو القائل: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مُبلسون﴾. (الأنعام: ٤٤، مبلسون: آيسون من الرحمة أو مكتئبون).

فعلى الانسان أن يرضى بالوضع الذي هو فيه وان يشكر الله كثيراً، لأن الله تعالى قد أعطاه فوق ما يستحقه لو تدبر وتعمق: ﴿وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾. وأن يسأل الله تعالى المزيد بطرق مشروعة إن كان ممن يريد المزيد، (ورب زيادة وبال!)، وقد قال جلّ من قائل:

﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض، للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن، واسألوا الله من فضله، ان الله كان بكل شيءٍ عليماً﴾[1].

وبما أن الناس مختلفون في مراتب الطاعة والشكر والسعي والتوكل على الله وتفويض الأمر إليه تعالى فما يصيبهم في هذه الدنيا من النعم والعطاء والتأديب والعقاب مختلف أيضاً، ولو أمعن النظر أي فرد من أفراد

---

(١) سورة النساء: ٣١.

البشر فيما هو فيه من نعم وقاس طاعته وما يقوم به من أعمال تجاه تلك النعم لعلم أن الله قد عامله بفضله ولم يعامله بعدله.

وإن من ضِعة النفس أن تصف الله جل جلاله بالعدل بل هو المتفضل المنان، عامل الناس جميعاً بفضله ولم يعاملهم بعدله.

﴿ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة!﴾[1].

* * *

٦ ـ وأما الطائفة السادسة فهي الطائفة المحقة التي ادركت عدالة الله وأنه مُعطٍ كل ذي حق حقه وزيادة، وأدركت تفسير الآية: ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض، ولكن ينزِّل بقدر ما يشاء، انه بعباده خبير بصير﴾، فقد قرأنا في أحوال الماضين من الأمم ما يحقق منطوق الآية. وكل فساد آتٍ من الطغيان والبذخ والترف، وهو القائل: ﴿إن الانسان ليطغى، أن ر آه استغنى﴾... ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها أنا بما أرسلتم به كافرون﴾. (سورة السبأ).

٧ ـ وأما الطائفة السابعة وهي التي ترى أن الله إنما يجزي عباده حسب أعمالهم مستدلاً بهذه الآية المنيفة: ﴿إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾، حقاً إن الانسان يجزى بمقدار سعيه، ولكن الله جلّت قدرته، رحمته لا تتناهى وعطفه لا يحد فلو قام الانسان قبل موته بتطهير نفسه وتزكيتها من أوساخها وأدرانها وأرجع إلى الناس حقوقهم وقام بأداء الفرائض وملافاة ما فاته منها بقدر المستطاع فالله يمحو بلطفه وعظيم رفده تلك السيئات على حد قوله جل من قائل: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات، ذلك ذكرى للذاكرين﴾[2]. وهو القائل: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً، أنه هو الغفور الرحيم، وأنيبوا إلى ربكم واسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون[3]، واتبعوا أحسن ما

---

(١) سورة النحل: ٦١.

(٢) سورة هود: ١١٤.

(٣) سورة الزمر: ٥٣ ـ ٥٤.

أنزل اليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون. أن تقول نفس يا حسرتي على ما فرّطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين. أو تقول: لو أن الله هداني لكنت من المتقين، أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرةً فأكون من المحسنين، بلى، قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين. ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة، أليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾[1].

فمن تدبر الآيات المذكورة علم فلسفة الهدى والضلال وأن الله قد أتمّ الحجة على عباده وكيف يتحسر الانسان الذي لم يتبع سبيل الهدى الناصعة (يوم القيامة) قائلًا: ﴿يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله﴾، وكيف أن الله يغفر الذنوب إذا تاب العاصي وأناب.

وكم من أناس ينجون من نار جهنم بشفاعة الشافعين، مع العلم أن ليس لأحد أن يشفع إلا باذنه تعالى: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون﴾. ﴿ومن ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾، ﴿ما من شفيع إلا من بعد اذنه﴾، ولكن الله لعظيم رحمته قد يأذن لأنبيائه وأوليائه وخيار خلقه بالشفاعة للمذنبين إن لم يبلغ الذنب أو الظلم مرتبة الشرك، ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾، ولا يبلغ مرتبة الشرك إلا من أمسى جرثومة فساد وإفساد بعيداً عن الاصلاح بُعد السماء عن الأرض.

* * *

٨ ـ أما الطائفة الثامنة وهم الأشاعرة ترى أن الله تعالى أن يعذب المحسن فيدخله جهنم ويثيب المعاصي فيدخله الجنة، ودليلهم على ذلك قوله تعالى: ﴿لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون﴾. ولكن لا يصدر عن الله وهو الكامل على الاطلاق ما يتنافى مع الحكمة وهو القائل: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾، ﴿وما خلقنا السماوات

---

(١) سورة الزمر: ٥٣ ـ ٦٠.

والأرض وما بينهما لاعبين، ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾[١]

وتستدل هذه الطائفة بهذه الآية: ﴿ربكم أعلم بكم ان يشأ يرحمكم أو ان يشأ يعذبكم﴾ ولكن الله تعالى لا يعذب إلا من يستحق العذاب وقد يعفو ان كان العاصي له من أعمال صالحات يستحق بها العفو. ويرحم من يشاء ولا يرحم من بَلَغ من الظلم والتسافل حتى آل أمره إلى الشرك، أو أفسد في الأرض من القتل والنهب والفساد والافساد حتى كان جرثومة فساد لا تصلحه إلا النار.

وتستدل هذه الطائفة أيضاً بهذه الآية: ﴿يعذب من يشاء ويرحم من يشاء﴾ والله لا يعذب إلا العاصي ويرحم من يستحق الرحمة من العصاة الذين لهم من الأعمال الصالحة ما يستوجبون رحمة الله وكانوا مصداق هذه الآية: ﴿خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾. (سورة التوبة: ١٠٣).

وأما قوله تعالى: ﴿من يُصرف عنه يومئذ فقد رحمه﴾[٢] ذلك لأن الناس عدا المعصومين لهم من الذنوب ما الله به أعلم. ﴿أحصاه الله ونسوه﴾[٣] فلا يُصرف العذاب عن انسان عدا المعصومين إلا برحمة منه تعالى.

والمعتزلة نظروا في هذه المسألة لله من ناحية أنه عادل لا يظلم أحداً شيئاً مما عمل، ومن ناحية أن ما أخبر به يجب أن يتحقق ليكون جل جلاله صادقاً في خبره، وقد أخبر في القرآن بثواب المطيع وعقاب العاصي[٤].

وقد فسر الزمخشري: ﴿وما أنا بظلام للعبيد﴾ بان الله يريد أن يقول: «لو عذبت من لا يستحق العذاب لكنت ظالماً مُفرطاً في الظلم».

---

(١) سورة الدخان: ٣٨ ـ ٣٩.

(٢) سورة الانعام: ١٦.

(٣) سورة المجادلة: ٦.

(٤) الاسلام وحاجة الانسانية اليه، للدكتور: محمد يوسف موسى.

والدليل على أن الله لا يعذب المحسن ولا يكافىء العاصي إلا بعد التوبة أو الشفاعة وأعمال أخرى صالحات: الآيات التالية:

١ ـ ﴿وأما الذين آمنوا فيوفيهم أجورهم، والله لا يحب الظالمين﴾.

٢ ـ ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾.

٣ ـ ﴿يستبشـرون بنعمـة من الله وفضـل، إن الله لا يضيـع أجـر المؤمنين﴾.

٤ ـ ﴿وما كان لنبي أن يغلّ، ومن يغلّ يأت بما غلّ يوم القيامة، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾.

٥ ـ ﴿وما يفعلوا من خير فلن يكفروه﴾.

٦ ـ ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾.

٧ ـ ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾.

وهنا آيات تدل على وجوب العقاب وان شمول الرحمة والعفو لا يكون إلا لاستحقاق سابق. من عمل صالح كان يقوم به هذا العاصي فيخفف الله عليه العقاب وتشمله الرحمة.

١ ـ ﴿ومن يعصِ الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها﴾.
٢ ـ ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها﴾.
٣ ـ ﴿ومَن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾.
٤ ـ ﴿ومن جاء بالسيئة فكُبّت وجوههم في النار﴾.
٥ ـ ﴿هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾.

وأما الخلود في النار فمحقق إن لم يتب الشخص من جريمته ولم يخلط عمل السيء بعمل صالح ولم تنله الشفاعة لبعض الأعمال الحسنة التي قام بها لوجهه تعالى. وهو القائل: ﴿يا بنيَّ أنها إن تك مثقال حبَّة من خردل فتكن في صخرة أو في السماء يأت بها الله، إن الله لطيف خبير﴾ (سورة لقمان: ١٦).

فكل خصلة من الاساءة والاحسان إن تكن زنة حبة من خردل في أخفى موضع كجوف الصخرة أو أعلاها كـالسماوات أو أسفله كـالأرض يحضرها الله فيحاسب عليها فالله نافذ القدرة خبير بكل خفي.

وفي الحديث: «إياكم ومحقرات الذنوب، فان لها من الله طالباً، وأنها لتجتمع على المرء فتهلكه». فالكمال أن يكون الانسان في هذا المقام بين الخوف والرجاء. وقد قال لقمان (ع) لابنه: «يا بني، خف الله خوفاً لو أتيته بعمل الثقلين خفت أن يعذبك، وارجه رجاءاً لو أتيته بذنوب الثقلين رجوت أن يغفر لك».

* * *

٩ ـ أما الطائفة التاسعة فمعها كل الحق، إذ أنها تقول بعدالة الله وهي صفة الكامل على الاطلاق بحكم العقل. لأن الكمال لا يتم إلا بالعدل وإعطاء كل ذي حق حقه من الصلحاء والطيبين، وجل أن يلهو ربنا، لأن اللهو يتنافى مع صفة الكمال، وهو القائل: ﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرّتهم الحياة الدنيا﴾(١).

﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، قالوا ان الله حر مهما على الكافرين. الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا، فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون﴾(٢).

وقد حقّر ربنا الدنيا ووصفها باللهو واللعب، بقوله: ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب، وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ فكيف يلهو ويلعب وهاتان صفتان تنافيان الكمال ولا تليقان بحكيم عادي فكيف بالله المتعال.

* * *

(١) الانعام: ٧٠.
(٢) الأعراف: ٥٣.

١٠ ـ وأما الطائفة العاشرة التي تقول: بأنه سيقع حتماً ما سُطر في اللوح المحفوظ، فإذا سطر سعادة فرد فأنه سعيد لا محالة وان سطر شقاء فرد فانه شقي لا محالة، مستدلة بهذه الآية: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها﴾، فإن كان يريد الجبر وسلب الاختيار من هذا الانسان في ما يعمل فهو في غاية الضلال والزيغ، وهذا معناه: نسبة الظلم إلى الله الرؤوف الرحيم. أي أن الله يجبر بعض الأفراد أن يظلموا أو يكفروا فيدخلهم النار ويجبر قسماً آخر أن يتقوا ويصلحوا فيدخلهم الجنة، والله وهو الغني عن عبادة من عبد وكفر من كفر خلق الانسان مختاراً، وهداه سواءالسبيل بالفطرة وإرساله الرسل مبشرين ومنذرين ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة﴾[1]. فليس الانسان مضطراً إلى ما يصدر منه بعد اراءة الطريق وإعطاء الاختيار ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة﴾[2]. إلا أن الله جل جلاله لكماله الـذي لا يضاهيه أي كمال ولعلمه الذي لا يتناهى ولا يحد يعلم ما سيقع من أول الخليقة إلى يوم القيامة وبعد يوم القيامة. يعلم أن هذا الفرد سيختار طريق الهدى والصلاح، فيكون من المتقين ويجتنب المحرمات ويعمل حسبما يُمليه عليه الفطرة والعقل السليم ويتبّع سبيل الأنبياء (ع)، فمآله الجنة، ويعلم أن الفرد الآخر يخالف ما يمليه عليه عقله يخالف مُعطيات الفطرة، يرفض ما أملاه عليه الأنبياء والصالحون من عباد الله، يبغي في الأرض فساداً، يظلم ويفجر، فتتحجر نفسه، وتتدنس روحه، فلا يصلحها إلا النار ومآله جهنم، وليس هذا العلم الذي هو من كمال الله تعالى، العلم بما سيقع بمجبر هذا الانسان ليختار هذا السبيل وأن لا يختار سبيلاً آخر، أي ليس علم الله تعالى بسالب اختيار هذا الانسان ومجبر إياه على اتباع طريق سبق في علم الله تحققه، وإنما الله تعالى لكماله يعلم ما سيقوم به هذا الفرد من أعمال صالحة أو غير صالحة. وهو القائل: ﴿وما الله يريد ظلماً

---

(١) سورة النساء: ١٦٤.

(٢) الأنفال: ٤٣.

للعباد﴾[1]، ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بـالحق، وما الله يـريد ظلمـاً للعالمين﴾.

﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون، ان الله بكل شيء عليم﴾[2].

فالفرد بكبريائه وإسرافه وجبروته وطغيانه وطيشه وظلمه وبغيه يسد على نفسه طريق الهداية والاهتداء، فيتذرع تسلية لنفسه اللئيمة قائلاً: سبق في علم الله أن أكون من الضالين ولو شاء الله لاهتديت، ولا يلتفت إلى ما هو فيه من صفات ذميمة وفجور وفسوق وهتك الحرمات وأنواع البغي والظلم. وحاشا أن الله يجبر أحداً على هتك الأعراض وهو الذي نهى عن الزنا وحدّ له حدوداً من جلد وقتل ورجم إلى ما هنالك[3]. وهو القائل:

١ ـ ﴿كذلك يضلّ الله من هو مسرف مرتاب﴾. (المؤمن: ٣٤).

٢ ـ ﴿كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾. (المؤمن: ٣٥).

٣ ـ ﴿قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم، بل كنتم قوماً مجرمين﴾ (سورة السبأ).

٤ ـ ﴿فان تولوا، فان الله عليـم بالمفسدين﴾. (آل عمران).

٥ ـ ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾. (القصص: ٥٠).

٦ ـ ﴿إن الله لا يهدي القوم الفاسقين﴾. (المنافقون: ٦).

٧ ـ ﴿إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب﴾ (المؤمن: ٢٨).

٨ ـ ﴿ولقد أنزلنا اليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾. (سورة البقرة).

٩ ـ ﴿وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾. (العنكبوت: ٤٩).

١٠ ـ ﴿وإن المسرفين هم أصحاب النار﴾. (سورة المؤمن).

---

(١) المؤمن: ٣١.

(٢) سورة التوبة: ١١٥.

(٣) راجع الجزء الثاني من هذا الكتاب: الكبائر.

١١ - ﴿يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾. (سورة المؤمن).

وقد يستدل الغاوي بهذه الآية:

﴿والله خلقكم وما تعملون﴾[١].

إن عمل الانسان على أنواع، منها ما يقوم به من اختراعات واكتشافات، ولا شك لولا الصدف التي يهيئها الله لهذا الانسان والدماغ المفكر الذي وهبه اياه والالهام والحدس (كما جاء في تاريخ العلوم والمخترعات) لما تمكن هذا الانسان من صنع أية آلة واختراع أي جهاز.

فهذه الأجهزة والاختراعات على تنوعها هي من مخلوقات الله تعالى، ولم يشكر الانسان ربه تجاه هذه النعم بل ازداد تعنتاً وكفراً، ﴿إن الانسان لربه لكنود وأنه على ذلك لشهيد، وأنه لحبّ الخير لشديد﴾[٢].

ومنها ما يقوم به من عمل صالح وما يقوم به من أعمال سيئة، فكل ذلك بالمآل من مخلوقات الله تعالى. أما العمل الصالح، كإطعام الفقراء وإكساء الأيتام والبؤساء وإيوائهم فلا يتحقق إلا بطاقات أودعها الله في هذا الانسان، وهداية الله إياه بإرساله الرسل والفطرة الملهمة لصالح الأعمال. وأما العمل السيء أيضاً لا يتحقق إلا بطاقات أودعها الله في الانسان فبالمآل يظن الفرد أنه من مخلوقات الله وليس لمرتكبه حصة في الانجاز. ولكن الله أرشد هذا الانسان بعقل[٣] يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي وبإرساله الأنبياء والمرسلين والوعاظ الصالحين، لكنه خالف العقل وسخر من وعظ الواعظين، وأوغل في الفساد والافساد، فلوث نفسه فعمي قلبه: ﴿فأنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾

---

(١) سورة الصافات: ٩٦.

(٢) سورة العادات: ٦ - ٨.

(٣) العقل ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان.

فليس لأحد أن يقول: «ان الله هو الذي أراد بي هذا الطريق الغاوي لأنه خالق لكل ما نعمل، ذلك لأن الغاوي استعمل الطاقات التي أودعها الله تعالى فيه في ما لا يرضى الله، فيما يوجب سخط الله مع وخز الضمير الفطري وتنبيه العقل الفطري.

١١ ـ أما الطائفة الأخيرة فعلى حق صريح، حيث نفت الاغواء والاضلال عن الله، ونفت اللهو واللعب عن الحكيم الخبير، فالله الذي كتب على نفسه الرحمة حاشا أن ينهى عن الفسق ثم يُجري الفسق كرهاً على أيدي بعض العباد ثم يعاقبهم عليه.

ولو تتبع الانسان حياته وتذكر ما قام به من المعاصي والآثام (وما أكثرها!) لعلم أنه قد سد عليه كثيراً من أبواب الرحمة ونعماً لا تعدّ ولا تحصى ولولا تلك الذنوب لجمع بين سعادة الدنيا ونعيم الآخرة، فتاريخ أكثر البشر تاريخ مظلم ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾[1].

﴿وان تُطِع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾[2] فلكل عامل في سبيل الخير والطاعة درجات ومقامات يضيِّعها الانسان بسوء اختياره بظلمه وجفائه، وهو القائل: ﴿ولكل درجات مما عملوا، وما ربك بغافل عما يعملون﴾. (سورة الأنعام: ١٣٢)، فان رحمة الله مكتوبة للمتقين الذين يتفقدون المساكين والبؤساء، وهو القائل:

﴿ورحمتي وسعت كل شيء، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾. (الأعراف: ١٥٦).

حقاً إن الضلال إنما يتأتى من عمل الانسان نفسه، أي أن الضلال يترشح من سوء الأعمال والظلم والبغي. وهو القائل:

﴿قل إن ضللتُ فإنما أضل على نفسي، وإن اهتديت فبما يوحي إلي ربي، أنه سميع قريب﴾. (سورة سبأ: ٥٠).

---

(١) سورة يوسف (ع): ١٠٣.
(٢) سورة الانعام: ١١٦.

فالتكذيب بآيات الله يترشح من نفس معتدية أثيمة:

﴿ويل يومئذ للمكذبين، الذين يكذبون بيوم الدين، وما يكذب به إلا كل معتد أثيم، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾[1].

نعم إن التكذيب إنما هو نتيجة دعّ اليتيم وعدم الحض على طعام المسكين. وهو القائل:

﴿أرأيت الذي يكذب بالدين. فذلك الذي يدع اليتيم، ولا يحض على طعام المسكين﴾[2].

فالاهتداء يتناسب تناسباً طردياً مع عدم الظلم، أي كلما كان الفرد أبعد عن الظلم (أي ظلم) كلما كان إلى الاهتداء أقرب. وهو القائل:

﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾[3].

فهناك تنافٍ بين الظلم والهداية، كما أن هناك تضاداً بين الاجرام والاسلام بالمعنى الصحيح:

﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون﴾[4].

﴿كذلك سلكناه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم﴾. (سورة الشعراء: ٢٠٠).

فالظلم هو الذي يؤدّي إلى الطيش والضلال واتباع الهوى، وهو قوله تعالى:

---

(١) سورة المطففين: ١١ ـ ١٥.
(٢) الماعون: ٢ ـ ٤.
(٣) الانعام: ٨٢.
(٤) سورة القلم: ٣٦.

﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم، فمن يهدي من أضلّ الله، وما لهم من ناصرين﴾. (سورة الروم: ٢٩).

فالظلم يؤدي إلى اتباع الهوى وإتباع الهوى يؤدي إلى الضلال وبما أن هذا الضلال هو نتيجة سنّة سنّها الله تعالى فنسبه إلى نفسه، بقوله تعالى: ﴿فمن يَهدي مَن أضلّ الله﴾ والظلم نتيجة الظلمات، ففي الحديث: «اتقوا الظلم، فأنه ظلمات يوم القيامة».

* * *

عوامل الاهتداء أو الهدى

هناك عوامل تؤدي إلى الاهتداء وإتباع الطريق السوي وعدم الانحراف وليس هناك إلا صراط واحد وهو الصراط الوحيد المؤدّي إلى حسن العاقبة وجنة عرضها السماوات والأرض، لذلك، أمرنا الله أن نقول في كل ركعة من الصلاة: «إهدنا الصراط المستقيم» لأن هذا الصراط لا يتعدّد، ولكن الطرق المعوجة والمنحرفة كثيرة ومتعددة، ونستجير بالله تعالى منها:

١ ـ التقوى والهداية: إن التقوى هي أساس الاهتداء وهي الوسيلة المؤدية إلى صراط مستقيم. والتقوى: أن لا يراك الله حيث نهاك، وأن لا يفقدك حيث أمرك. فمن اجتنب المحرمات وأطاع الله تعالى في السر والعلن وقام بأداء الفرائض من صلاة وصوم وزكاة وخمس وحج وأعطى حقوق الفقراء والمساكين وكان دأبه الانصاف والترحّم على الضعفاء والبؤساء فهو واصل لا محالة إلى الطريق السويّ الذي ارتضاه الله لعباده.

أ ـ انه تعالى يقول:

ـ يا أيها الذين آمنوا أن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم، والله ذو الفضل العظيم[1].

---

(١) سورة الأنفال: ٢٩.

فبالتقوى يُلهمك الله ماتفرق به بين الحق والباطل ويكفر عنك ما قمت به من أعمال سيئة ثم يغفر لك ذنوبك، والله ذو الفضل العظيم، لأنه يبتدىء بالنعم قبل استحقاقها. وإن درجة الاهتداء لتتناسب مع درجة التقوى، فالايمان محصلة التقوى كما في تركيب القـوى (في علم الميكانيك). أي أن الايمان عصارة التقوى. فمن كان يعتقد اعتقاداً ينحرف عن الاعتقاد الصحيح الذي يسنده العقل الفطري والنصوص الصريحة الواضحة، ففي تقواه شيء من الضعف ولم يبلغ الدرجة الكافية من مراتب التقوى، وان هذا الضعف في التقوى جعله لا يميز بين الحق والباطل تمييزاً يؤدي به إلى المحجة البيضاء. فتفاوت الناس في العقائد والوصول إلى الواقع إنما هو بتفاوتهم في مراتب التقوى، وكلما كان الانحراف أكثر، فالبعد عن الصلاح والتقوى اكثر فأكثر. ولذلك قال جلّ من قائل: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

ب ـ بسم الله الـرحمن الرحيم ـ الم، ذلـك الكتـاب لا ريب فيـه هـدىً للمتقين.

فحصر الله سبحانه الهدى بالمتقين، دون غيرهـم، أي لا يهتدي بهدى القرآن إلا من كان تقياً، اتخذ التقوى ديدناً وشعاراً. ثم يصف الله تعالى المتقين بقوله: ﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون﴾. ثم يؤكد الله تعالى قائلاً: ﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾.

جـ ـ وقال تعالى: ﴿وتزودوا، فان خير الزاد التقـوى﴾، ﴿واتقون يـا أولي الألباب﴾.

ذلك لأن التقوى طريق الهداية والنجاة، وبها يهدي الله الانسان إلى ما به النجاة والخلاص.

د ـ ﴿إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون﴾[1].

فلا يعتبر بآيات الله تعالى ويقوي بها إيمانه ويقينه إلا المتقون، وكم في الغرب من تعمق في الفلك والمكانيك السماوي وما أودع الله في السماء من معادلات وقوانين وتعمق في علم طبقات الأرض وعلم الأنواء ولكنه ومع الأسف ضعيف الايمان أو مسلوب الايمان لعدم كونه من المتقين، فالتقوى أساس الهداية. التقوى تنير القلب ويكون إذ ذاك محلاً للفيوضات الربانية فيبلغ مرتبة اليقين بلطفه تعالى.

٢ ـ الخشية طريق الهداية، ذلك لأن من يخشى الله تعالى: لا يعصيه ومن لا يعصى تتوجه نفسه بصورة طبيعية نحو الطريق المؤدي إلى الجنة. ولا يهتدي من لا يخشى الله تعالى. وهو القائل:

أ ـ ﴿وسواء عليهم، أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون، إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب، فبشره بمغفرة وأجر كريم﴾[2] فلا يستفيد من إنذار الرسل إلا من كان يخاف الله في خلواته وحركاته. ولا يؤمن من كان لا يخشى الله تعالى ولا يتقيه.

ب ـ ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية، جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، رضي الله عنهم ورضوا عنه، ذلك لمن خشي ربه﴾.

ذكر الله تعالى مقام من يخشاه وما ينال من الأجر وهم خير البرية، والخشية مقدمة التقوى، فالتقوى نور الايمان، وبها يصل الانسان إلى خير السبل، وانجع الطرق، وجنة عرضها السماوات والأرض أعِدّت للمتقين.

* * *

(١) سورة يونس: ٦.

(٢) سورة يس: ١٠ ـ ١١.

٣ ـ الانابة: هي الرجوع إلى الله تعالى بالقلب والانقياد والاطاعة لله المتعال.

فالله تعالى ﴿يهدي اليه من أناب﴾[(١)]، و﴿يهدي اليه من ينيب﴾[(٢)].

وقد حصر التذكر بآيات الله والاتعاظ بمن ينيب وذلك بقوله: ﴿ولا يتذكر إلا من ينيب﴾[(٣)].

وقوله تعالى أيضاً: ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كلّ زوج بهيج، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب﴾[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد، هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ، من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب﴾[(٥)].

﴿قل ان الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب﴾. (الرعد: ٢٧) فالضلال خاص بغير المنيبين.

* * *

٤ ـ الضلال والشيطان. إن الله قد أمرنا أن لا نتبع الشيطان ولا نطيعه. بقوله: ﴿إن الشيطان لكم عدو، فاتخذوه عدواً، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾[(٦)].

﴿وقال الشيطان لما قُضي الأمر أن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم، وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي، إني كفرت بما أشركتمونِ من قبل. ان الظالمين لهم عذاب أليم﴾. (سورة الرعد: ٢٢).

---

(١) سورة الرعد: ٢٩.
(٢) الزخرف: ١٣.
(٣) الشورى: ١٣.
(٤) سورة ق: ٨.
(٥) سورة ق: ٣٣ (أوّاب: رجاع إلى الله بالتوبة).
(٦) فاطر: ٦.

ثم إن الشيطان لا يسيطر إلا على من يعمى عن ذكر الله تعالى، ولا يطيعه، وهو القائل:

﴿ومَن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين، وإنهم ليصدّونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون. حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بُعد المشرقين، فبئس القرين﴾ (سورة الزخرف: ٣٦ ـ ٣٨).

﴿هل أنبئكم على من تنزّل الشياطين، تنزل على كل أفّاك أثيم، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون﴾. (سورة الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٢).

فمن لم يكن أفّاكاً (كثير الكذب) أثيماً لا يقترب منه الشيطان!.

ثم ان الشياطين هم أولياء الذين لا يؤمنون، أي للكافرين الذين لا يؤدّون واجب الشكر تجاه نعمه تعالى. وهو القائل:

﴿يا بني آدم لا يفتِننّكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة، ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما، أنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾[(١)]

﴿ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً﴾[(٢)].

﴿فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة، إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون﴾[(٣)].

﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين، وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك، وربك على كل شيء حفيظ﴾. (سورة سبأ: ٢٠ ـ ٢١).

فالله تعالى يختبر عباده مع علمه بمصيرهم إتماماً للحّجة، فيقول: يوم

---

(١) الاعراف: ٢٧، السوأة: العورة.
(٢) سورة النساء: ٦٠.
(٣) الأعراف: ٣٠.

القيامة من عمي عن الحق: ﴿ربِّ لم حَشَرتَنِي أعمى وقد كنت بصيراً. قال: كذلك، أتتك آياتنا فنسيتها، وكذلك اليوم تُنسى﴾[1].

وليس للشيطان أي سلطان على عباد الله إلا إذا كان من الضالين وهو قوله تعالى: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبّعك من الغاوين﴾.

أما الذين أخلصوا لله جل جلاله في الطاعة فهم بعيدون عن إغواءِ الشيطان وتسويلاته: ﴿قال ربِّ بما أغويتني لأزيننّ لهم في الأرض ولأُغوينّهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾.

ونستعيذ به تعالى من شر الشيطان وكيده ومكره ونسأله أن يجعلنا من عباده المخلصين بفضله ومنّه.

* * *

٥ ـ الضلال والظلم. إن الظلم أعظم عامل في صدّ الإنسان عن الطريق السويّ وأكبر حجاب حاجز دون رؤية الحق والواقع، ذلك لأن الظلم ظلمات. ولولا الظلم لكان الناس أمة واحدة، يعبدون الله تعالى ويوحدّونه وما كنت ترى للشرك سبيلاً.

وقد قال الله تعالى: ﴿ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير﴾[2].

﴿وما تفرّقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من ربّك إلى أجل مسمى لقضي بينهم، وان الذين أورثوا الكتاب مِن بعدهم لفي شكٍ منه مريب﴾[3].

﴿ومن الناس مَن يتخذ من دون الله أنداداً يحبّونهم كحبّ الله، والذين

(١) سورة طه: ١٢٥ ـ ١٢٦.
(٢) الشورى: ٨.
(٣) الشورى: ١٣.

آمنوا أشد حباً لله، ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوّة لله جميعاً، وان الله شديد العذاب﴾[1].

ونتيجة الظلم الكفر:

﴿أوَ لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض قادرٌ على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه، فأبى الظالمون إلا كفوراً﴾. (سورة النمل: ٩٩).

ونتيجة الظلم الجحود:

﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم﴾. ﴿وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾. (سورة العنكبوت: ٤٩).

وعاقبة الظلم الهلاك:

﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم مَوعداً﴾. (الكهف: ٥٩).

الاعتداء (أو الظلم) نتيجة التكذيب بآيات الله البينات:

﴿ويلٌ يومئذ للمكذبين، الذين يكذبون بيوم الدين، وما يكذب به إلا كل مُعتدٍ أثيم، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾.

والاساءة نوع ظلم ونتيجتها التكذيب بآيات الله تعالى:

﴿ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾. (الروم: ١٠).

ومن الاساءة الكذب وهذا بدوره يؤدي إلى الضلال: ﴿إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار﴾. (سورة الزمر: ٣).

﴿بل اتبع الذي ظلموا أهواءهم بغير علم، فمن يهدى من أضلّ الله وما لهم من ناصرين﴾. (الروم: ٢٩).

---

(١) سورة البقرة: ١٦٥.

﴿بل الظالمون في ضلال مبين﴾. (لقمان: ١١).

﴿أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله، بل أولئك هم الظالمون﴾[١].

﴿والله لا يهدى القوم الظالمين﴾. (البقرة: ٢٥٨).

﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدى القوم الظالمين﴾[٢]. وكم لهذه الآية من مصاديق في عصرنا الحاضر!.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض، والله لا يهدى القوم الظالمين﴾. (المائدة: ٥١).

﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضلّ الناس بغير علم. إن الله لا يهدى القوم الظالمين﴾. (الأنعام: ١٤٤).

﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله، لا يستوون عند الله، والله لا يهدى القوم الظالمين﴾. (سورة التوبة: ١٩).

﴿أفمن أسّس بنيانه على تقوى من الله ورضوان، خيرٌ أمْ من أسس بنيانه على شفا جرف هار، فانهار به في نار جهنم، والله لا يهدي القوم الظالمين﴾. (سورة التوبة: ١١٠).

﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم، ومن أضلّ ممن اتبع هواه بغير هدىً من الله، ان الله لا يهدي القوم الظالمين﴾. (سورة القصص: ٥٠).

﴿قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون، فأنهم لا يكذبونك، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾. (سورة الانعام: ٣٣).

---

(١) سورة النور: ٥٠.
(٢) سورة آل عمران: ٨٦.

﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم بـه وشهد شـاهد من بني إسرائيل على مثله، فآمن واستكبرتم، إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾. (الأحقاف: ١٠).

﴿ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الاسلام، والله لا يهدي القوم الظالمين﴾. (سورة الصف: ٧).

﴿مثل الذين حملوا التـوراة، ثم لم يحملوها كمثـل الحمار يحمـل أسفاراً، بئس مثل القوم الذين كذبوا بـآيات الله، والله لا يهـدي القوم الظالمين﴾. (سورة الجمعة: ٥).

﴿قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم، والله أعلم بالظالمين﴾[١]. أي أن ظلمهم صَدَّهم عن اتباع الطريق السويّ.

إن الجحود من الآثار الطبيعية للظلم، لقوله تعالى: ﴿قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون، فأنّهم لا يكـذّبونـك، ولكنّ الظالمين بـآيات الله يجحدون﴾. (الأنعام: ٣٣).

﴿وإن كثيـراً ليُضلون بـأهـوائهم بغيـر علم، إن ربـك هـو أعلم بالمعتدين﴾. (سورة الانعام: ١١٩).

فالاعتداء كان سبباً للضلال والاضلال.

﴿وقد يكون الظلم سبباً للاشراك بالله: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبّونهم كحبّ الله والذين آمنوا أشد حباً لله، ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وان الله شديد العذاب﴾.

ومن شروط الايمان الصحيح أن لا يلبس بظلم وإلا فهو زائل. وهو قوله تعالى:

﴿الـذين آمنوا ولم يلبسـوا إيمـانهم بـظلم، أولئـك لهم الأمن وهم مهتدون﴾. (الانعام: ٨٢).

---

(١) الأنعام: ٥٨.

وللظالم أن يتوب بأنواع التوبة ويطهر نفسه، فتتفتح بصائر قلبه ويهتدي إلى السبيل القويم باذنه تعالى. وهو القائل:

﴿فمن تابَ من بعد ظلمه وأصلح فان الله يتوب عليه، إن الله غفور رحيم﴾. (المائدة: ٢٩).

﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع باذن الله، ولو أنهم إذ ظلموا أنْفسَهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول، لوجدوا الله تـواباً رحيمـاً﴾. (سورة النساء: ٦٤).

الظلم نتيجته الضلال، لقوله تعالى:

﴿بل الظالمون في ضلال مبين﴾. (لقمان: ١١).

وإن نتيجة الظلم الكفر أيضاً. لقوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلّة ولا شفاعة، والكافرون هم الظالمون﴾. (سورة البقرة: ٢٥٤).

وقد يبلغ بالانسان التسافل مرتبةً وضيعةً لا تفيد معه أية رحمة أو عطف لاسوداد القلب بدرجة متناهية. مع العلم أن ﴿لو يشاء الله لهـدى الناس جميعاً﴾[1]، ولكن الله لا يخرق ما سنّه لانتظام هذا العالم وقد وسعت رحمته كلَّ شيء، وهو القائل:

﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضرٍّ للجّوا في طغيانهم يعمهون﴾. (سورة المؤمنون: ٧٦).

* * *

(٦) الضلال والفسق:

ومما يؤدي إلى الضلال والفسق وإدلهمام النفس: الفسق والفجور، فيسود بهما القلب ولا يرى الحق والواقع.

---

(١) سورة الرعد: ٣١.

وهناك آيات جمّة تدلّ دلالةً واضحة على أن .الانسان بفسقه وفجوره يسدّ على نفسه أبواب النفحات القدسية والفيوضات الآلهية، فتكون نفسه مُدلهمّة لا ترى إلى معالم القدس طريقاً، فلا تهتدي إلى سبيل الحق.

١ ـ ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم، كأنهم يوم يرونَ ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار، بلاغ، فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾. (الأحقاف: ٣٥).

٢ ـ والآية الآتية تدل على أن من لا يهتدي فهو فاسق، وإن فسقه منعه من الاهتداء.

﴿ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب، فمنهم مهتد، وكثير منهم فاسقون﴾. (سورة الحديد: ٢٦).

٣ ـ وإن الزيغ والانحراف آتيان من الفسق:

﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾. (سورة الصف: ٥).

٤ ـ قد سدّ الله تعالى طريق الهداية على الفاسقين وذلك بقوله جل من قائل:

﴿وإذا قيل لهم تعالوا، يستغفر لكم رسول الله. لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون، سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، لن يغفر الله لهم، ان الله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ (سورة المنافقون: ٥ ـ ٦).

٥ ـ لا يضل إلا الفاسق، وهو قوله تعالى:

﴿وأما الذين كفروا فيقولون، ماذا أراد الله بهذا مثلاً، يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين﴾ ثم يصفهم الله تعالى بقوله:

﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، أولئك هم الخاسرون﴾. (سورة البقرة: ٢٦ ـ ٢٧).

٦ ـ وقد حصر الله تعالى الكفر بآياته بالفاسقين بقوله: ﴿ولقد أنزلنا اليك آيات بينات، وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾. (البقرة: ٩٩).

٧ ـ ﴿فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ (آل عمران: ٨٢). والفسق هو الخروج عن طريق الحق والصلاح نتيجة ارتكاب المعاصي والآثام.

٨ ـ إن الله تعالى قد أغلق على الفاسقين أبواب الايمان بقوله جل من قائل: ﴿فذلكم الله ربكم الحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال، فأنى تصرفون، كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾ (سورة يونس: ٣٢ ـ ٣٣).

٩ ـ ﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النار، كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها. وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾.

(سورة السجدة: ٢٠).

١٠ ـ ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار، أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون﴾. (سورة الأحقاف: ٢٠). ونستجير بالله من الكبرياء والفسوق.

١١ ـ ﴿فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون﴾. (البقرة: ٥٩). ففسقهم كان سبباً لنزول العذاب.

١٢ ـ ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون﴾ (سورة الحشر: ١٩). فمآل الفسق أن لا يفكر الانسان في آخرته ومآل أمره أن ينسى إصلاح نفسه وتزكيتها من أدرانها، كل ذلك لأن الفاسقين نسوا الله وتمادوا في فسوقهم وفجورهم وغيهم.

١٣ ـ ﴿واتقوا الله واسمعوا، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ (سورة المائدة: ١٠٨).

١٤ ـ ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخـوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾. (سورة التوبة: ٢٤).

١٥ ـ ﴿إستغفر لهم أو لا تستغفر لهم، ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم، ذلك بأنهم كفـروا بالله ورسـوله، والله لا يهـدي القوم الفاسقين﴾. (سورة التوبة: ٨٠)

فقد سد الفاسق بفسقه على نفسه أبواب الهداية وأبعد نفسه عن رحمة ربه بسوء اختياره.

١٦ ـ ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض، يأمرون بالمنكر وينهون عن المعـروف ويقبضون أيـديهم، نسـوا الله فنسيهم، إن المنـافقين هم الفاسقون﴾ (سورة التوبة: ٦٧).

١٧ ـ الفسق كان مانعاً عن إيمان فرعون وملأه. لقوله تعالى:

﴿اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء، وأضمم اليـك جناحك من الرهب، فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه، أنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ (سورة القصص : ٣٢).

١٨ ـ ﴿سواء عليهم، استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، لن يغفر الله لهم، ان الله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[١] وقد يبلغ الفسق بفرد من الأفراد حتى يسد على نفسه باب الشفاعة وإستغفار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ونستجير بالله من سوء العاقبة. فالفسق الكثير المتواصل هو الذي سدّ على هذا الفرد سبيل الهداية والوصول. . .

١٩ ـ ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل، فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وكثير منهم فاسقون﴾. (سورة الحديد: ١٦).

---

(١) سورة المنافقون: ٦.

فالذين أوتوا الكتاب من قبل قد قست قلوبهم بسبب فسقهم، فالفسق يؤدي إلى قسوة القلب، فإذا قسا القلب فلا اهتداء ولا إيمان. وفي الحديث: «إن أعمى العمى عمى القلب». وفي حديث آخر: «ما ضرب ابن آدم بعقوبة أشد من قسوة القلب».

* * *



الضلال والأجرام

لاريب أن الأجرام ظلم وأي ظلم، وكل ظلم وإعتداء يسد على النفس الأنسانية أبواب الفيوضات الالهية فيعمى القلب فلا يهتدي الى سبيل الحق حتى يتوب توبة نصوحاً. والآن إقرأ معي الآيات التي تدل على أن الأجرام مؤد الى الضلال والعمى ونستجير بالله منها.

١ ـ ﴿ هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون. يطوفون بينها وبين حميم آنٍ ﴾. (سورة الرحمن: ٤٣ ـ ٤٤).

٢ ـ ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم: ربنا أبصرنا وسمعنا، فإرجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون ﴾ (سورة السجدة: ١٢).

٣ ـ الأجرام يؤدي الى الاعراض عن آيات الله ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيـات ربه فأعرض عنها، إنا من المجرمين منتقمون ﴾ (سورة الم سجدة: ٢٢).

٤ ـ ﴿كذلك سلكناه في قلوب المجرمين لايؤمنون به حتى يروا العذاب الاليم، فيأتيهم بغتة وهم يشعرون ﴾ (سورة الشعراء).

وهذه الآية صريحة في أن الله تعالى يسد على المجرم أبواب الايمان حتى يلقى العذاب الاليم، إن لم يعقب بتوبة نصوح.

٥ ـ ﴿ كذلك نسلكه في قلوب المجرمين. لايؤمنون به وقد خلت سنة الأولين ﴾ (سورة الحجر ١٢ ـ ١٣).

٦ ـ يصرح الله تعالى في الآية التالية ان المجرم في ضلال بسبب إجرامه!

﴿ إن المجرمين في ضلال وسعر، يوم يسحبون في النار على وجوههم،

ذوقوا مس سقر ﴾ (سورة القمر: ٤٧ ـ ٤٨). أي إن المجرمين في ضلال عن الحق في الدنيا وسعير جهنم في الآخرة. ونستجير بالله من ذلك.

٧ ـ إن المجرمين بعيدون عن الاسلام أيما بعد، لأن هناك تضاداً بين الاسلام والأجرام فلا يجتمعان. وهو قوله تعالى:

﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين، مالكم كيف تحكمون ﴾. (سورة القلم ٣٥ ـ ٣٦).

٨ ـ المجرم لايؤمن بأمر من الله تعالى، جزاء لأجرامه.

﴿ وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها، وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون. وإذا جاءتهم آية، قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله، الله أعلم حيث يجعل رسالته، سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ﴾ (سورة الانعام: ١٢٣ ـ ١٢٤).

٩ ـ المجرم ضال ومضل، إنه تعالى يقول:

﴿ وما أضلنا إلا المجرمون، فما لنا من شافعين ولاصديق حميم ﴾ ونستجير بالله من هذه المرحلة حيث لاشفيع ولاصديق.

١٠ ـ الاجرام يؤدي الى الكفر حتى بعد الايمان. وهو قوله تعالى:

﴿ لاتعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم، ان نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين ﴾ (سورة التوبة: ٦٦).

١١ ـ ومن رشحات قلب المجرم المظلم أن يستهزىء بالمؤمن وكم نرى في هذا الزمان من الذين عميت قلوبهم نتيجة إجرامهم يستهزئون بالمؤمنين متهمين إياهم بالرجعية والخرافة، وأعظم خرافة في هذا الكون هو العدول عن ذكر الله وتقديسه وتسبيحه، وهذه هي الرجعية أو الرجوع الى جاهلية جهلاء بالمعنى الصحيح. إنه تعالى يقول:

﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون. وإذا مروا بهم يتغامزون وإذا إنقلبوا الى أهلهم إنقلبوا فكهين. وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ﴾ (سورة المطففين: ٢٩ ـ ٣٢).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٢ ـ ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا، كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾[١].

١٣ ـ ﴿ فمن أظلم ممن إفترى على الله كذباً أو كذب بآياته، إنه لايفلح المجرمون ﴾[٢].

فالضال عن الطريق بالمعنى الصحيح هو الذي لايؤمن بالله واليوم الآخر بسبب إجرامه وآثامه. فالجرم يكون حجاباً حاجزاً دون رؤية الحق لسنة ثابتة أودعها الله هذا الكون الرحيب.



---

(١) سورة يونس: ١٣.

(٢) سورة يونس: ١٧.

الكبر والضلال

ومن أهم الخصال التي تؤدي الى الضلال هي الكبر والخيلاء. ففي الحديث:

أصول الكفر ثلاثة ـ الحسد والبخل والكبر. فالله تبارك وتعالى يصد المتكبر عن الايمان به وهو القائل:

١ ـ ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق، وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها، وإن يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ (سورة الاعراف: ١٤٦).

٢ ـ إن الله يطبع على قلب المتكبر فلا يرى طريقاً للايمان جزاء لكبريائه وخيلائه بغير الحق. وهو القائل:

﴿ الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم، كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ (سورة المؤمن: ٣٥).

٣ ـ كما أن الكبر يؤدي إلى الضلال، فإن عدم الكبر كذلك يؤدي إلى الايمان. وهو قوله جل من قائل:

﴿ إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لايستكبرون تتجافى جنوبهم عن المضاجع، يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون ﴾ (سورة ألم سجدة: ١٦).

٤ ـ ﴿ إن الكبر يؤدي الى الضلال والضلال يؤدي الى الكفر والكفر مؤد الى نزول العذاب، وهو قوله تعالى: ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل

والضفادع والدم آيات مفصلات، فإستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾ (سورة الاعراف: ١٣٣).

٥ ـ المتكبر لايؤمن بيوم الحساب.

﴿ وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لايؤمن بيوم الحساب ﴾. (المؤمن: ٢٧).

٦ ـ جزاء المتكبر النار، والكبر هو الذي أدى به الى جهنم وبئس المصير.
﴿ فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها. فلبئس مثوى المتكبرين ﴾. (سورة النحل: ٢٩).

٧ ـ الكبر مانع عن الايمان باليوم الآخر:

﴿ الهكم اله واحد، فالذين لايؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ﴾ (سورة النمل: ٢٢).

٨ ـ الكبر مؤد الى التكذيب بآيات الله وإسوداد الوجه، وهو قوله تعالى:
﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة، أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ﴾ (سورة الزمر: ٦٠).

﴿ وسيق الذين كفروا الى جهنم زمراً، حتى اذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا، قالوا: بلى، ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين. قيل أدخلوا أبواب جهنم خالدين فيها، فبئس مثوى المتكبرين ﴾ (سورة الزمر: ٧١ ـ ٧٢).

٩ ـ ﴿ ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون، أدخلوا أبواب جهنم خالدين فيها، فبئس مثوى المتكبرين ﴾ (سورة المؤمن: ٧٦).

١٠ ـ ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم، إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾[1] (سورة المؤمن: ٦٠).

---

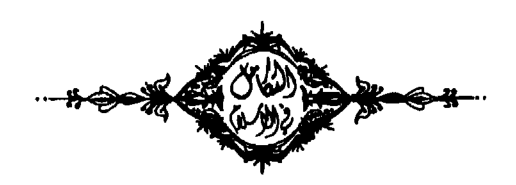
(١) داخرين: صاغرين أذلاء.

١١ ـ ﴿ وأقسموا بالله جهد إيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً إستكباراً في الأرض ﴾ (سورة فاطر: ٤٢) [نزلت في كفار مكة].

١٢ ـ الكبر مانع عن إتباع أوامر الرسل عليهم السلام. قال نوح (ع): ﴿ وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم وأستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا إستكباراً ﴾ (سورة نوح (ح): ٧).

١٣ ـ الكبرياء مانع عن إتباع آيات الله تبارك وتعالى: ﴿وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها، كأن في أذنيه وقراً، فبشره بعذاب أليم ﴾. (لقمان: ٧).

١٤ ـ ﴿ وإذا قيل لهم تعالـوا يستغفر لكم رسـول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون ﴾ (المنافقون: ٥).



الافساد والضلال

الافساد كبقية الرذائل والموبقات والجرائم يؤدي الى الكفر وعدم إتباع الحق. وهو قوله تعالى:

١ - ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾ (سورة النحل: ٨٨).

٢ - الفساد مانع عن التقوى وإتباع أوامر الله تعالى: ﴿ وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد. وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالأثم، فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾ (البقرة: ٢٠٦).

٣ - ﴿ إن هذا لهو القصص الحق، وما من إله إلا الله، وإن الله لهو العزيز الحكيم، فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين ﴾ (سورة آل عمران: ٦٢ - ٦٣).

٤ - إن الآيات التالية تدل على أن الافساد كان سبباً لعدم الايمان والضلال:

﴿ وإذا قيل لهم لاتفسدوا في الأرض، قالوا إنما نحن مصلحون، إلاّ أنهم هم المفسدون ولكن لايشعرون. وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء، إلا أنهم هم السفهاء ولكن لايعلمون ﴾ (سورة البقرة: ١١ - ١٣).

٥ - ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا الى فرعون وملائه فظلموا بها، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ (الاعراف: ١٠٢).

٦ - عاقبة الافساد الجحود:

﴿ وجحدوا بها وإستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً. فأنظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ (النمل: ١٤).

٧ ـ المفسد لايؤمن إلا إذا تاب:

﴿ ومنهم من يؤمن به ومنهم من لايؤمن به، وربك أعلم بالمفسدين ﴾ (يونس: ٤٠).

٨ ـ العصيان والافساد يؤديان الى عدم الايمان.

﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً. حتى إذا أدركه الغرق، قال: آمنت أنه لااله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين. الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴾. (سورة يونس: ٩٠ ـ ٩١).

١٠ ـ إن الله تعالى يسد باب الهداية على الظالم الفاسق الذي لايرجى فيه الخير وقد أصبح جرثومة فساد لاتصلحه إلا نار جهنم. وهو القائل:

﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين، إن تحرص على هداهم فإن الله لايهدي من يضل ومالهم من ناصرين ﴾[1].

﴿ ومن يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له أولياء من دونه، ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً، مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾ (الاسراء: ٩٧).

---

(١) النحل: ٣٦.

البخل والضلال

ومن جملة العوامل المانعة عن الاهتداء وتوجه الفرد الى الله المتعال: البخل، وهو القائل:

١ ـ ﴿ ولايحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم، بل هو شر لهم، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة، ولله ميراث السماوات والأرض، والله بما تعملون خبير ﴾ (سورة آل عمران: ١٨٠).

٢ ـ ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين. فلما آتاهم من فضله، بخلوا به وتولوا وهم معرضون. فأعقبهم نفاقاً الى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون. ﴾ (٧٥ ـ ٧٧).

٣ ـ البخل نتيجته الكفر.

﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله، واعتدنا للكافرين عذاباً مهينا ﴾ (النساء: ٣٧).

٤ ـ ﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل، ومن يتول فأن الله هو الغني الحميد ﴾ (الحديد: ٢٤).

﴿ ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله، فمنكم من يبخل، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه، والله الغني وأنتم الفقراء، وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم، ثم لايكونوا أمثالكم ﴾ (محمد (ص): ٣٨).

* * *

ومن عوامل الضلال: الحسد، وهو قوله تعالى:

١ ـ ﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً[1] أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، فباؤوا بغضب على غضب، وللكافرين عذاب مهين ﴾ (البقرة: ٩٠).

٢ ـ ﴿ كان الناس أمة واحدة، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعدما جاءتهم البينات بغياً بينهم، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ﴾ (البقرة: ٢١٣).

٣ ـ ﴿ إن الدين عند الله الاسلام، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعدما جاءهم العلم بغياً بينهم، ومن يكفر بآيات الله، فإن الله سريع الحساب ﴾. (سورة آل عمران: ١٩).

فالحسد حسب الآية المتقدمة مؤد الى الكفر.

٤ ـ ﴿ وآتيناهم بينات من الأمر، فما اختلفوا الا من بعدما جاءهم العلم بغياً بينهم، إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ (سورة الجاثية: ١٧).

* * *

---

(١) بغياً: حسداً.

الضلال ودع اليتيم وعدم الحض على طعام المسكين

١ ـ إنه تعالى يقول: أرأيت الذي يكذب بالدين، أي أخبرني من الذي يكذب بالدين؟ أي من هو يجحد الجزاء لأنكاره البعث؟ فالله يجيب قائلاً: ذلك: هو الذي يدفع اليتيم عن حقه دفعاً عنيفاً ولا يحث، على طعام المسكين ولا يهتم، إن شخصاً كهذا هو الضال الذي ينكر عوالم الآخرة لما اجترحت يداه من دعه لليتم وعدم اهتمامه بطعامه.

فإن الاسلام اهتم إهتماماً لامزيد عليه بأمر اليتيم.

٢ ـ فقد ذكر الله بعد الايمان به تعالى الحض على طعام المسكين، فعدم الحض على طعام المسكين يؤدي الى تكذيب آيات الله البينات وهو قوله تعالى:

﴿ إنه كان لايؤمن بالله العظيم ولايحض على طعام المسكين ﴾ (سورة الحاقة: ٣٣ ـ ٣٤).

٣ ـ وهو القائل: ﴿ كلا، بل لاتكرمون اليتيم. ولاتحاضون على طعام المسكين ﴾ (الفجر: ١٨ ـ ١٨).

٤ ـ إلا أصحاب اليمين، في جنات يتساءلون، عن المجرمين، ما سلككم في سقر؟ قالوا لم نك من المصلين، ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين ﴾ (سورة المدثر: ٣٩ ـ ٤٦).

فالأجرام يؤدي الى دخول جهنم وعدم إقامة الصلاة وعدم إطعام المسكين والخوض مع الخائضين المنحرفين والتكذيب بيوم الدين.

* * *

١٤ ـ الهداية من الله تعالى وبأذنه والله لايهدي الا التقي الصالح والمستغفر التائب.

١ ـ ﴿ قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فيما يوحي الي ربي، إنه سميع قريب ﴾[1].

٢ ـ ﴿ وأقسموا بالله جهد إيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها، قال إنما الآيات عند الله، وما يشعركم أنها اذا جاءت لايؤمنون، ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة، ونذرهم في طغيانهم يعمهون، ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون ﴾ (سورة الانعام: ١٠٩ ـ ١١١).

٣ ـ ﴿ إنا أنزلنا عليك الكتاب بالحق، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل ﴾. (الزمر: ٤١).

٤ ـ ﴿ الله يجتبى اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب ﴾ (سورة الشورى: ١٣).

٥ ـ ﴿ قالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم، مالهم بذلك من علم، إن هم إلا يخرصون ﴾ (سورة الزخرف: ٢).

٦ ـ ﴿ أفرأيت من إتخذ إلهه هواه، وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة، فمن يهديه من بعد الله، أفلا تذكرون ﴾ (الجاثية: ٢٣).

٧ ـ ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصّعّد في السماء. كذلك يجعل الله الرجس على الذين لايؤمنون. ﴾ (الأنعام: ١٢٥).

٨ ـ ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت، فمنهم من هدى الله، ومنهم من حقت عليه الضلالة، فسيروا في الأرض، فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين، إن تحرص على هداهم، فإن الله لايهدي من يضل ومالهم من ناصرين ﴾ (سورة النحل: ٣٦ ـ ٣٧).

---

(١) سورة سبأ: ٥٠.

ولاتحق الضلالة إلا على المجرم الباغي الفاجر دون غيره.

٩ - ﴿ ومن يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه، ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصما، مأواهم جهنم، كلما خبت زدناهم سعيرا ﴾ (الأسراء: ٩٧).

١٠ - لاسلطان لابليس إلا على الضالين:

﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين، وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك، وربك على كل شيء حفيظ ﴾. (سورة سبأ: ٢٠ - ٢١).

١١ - الايمان نور من الله تعالى:

﴿ أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله، أولئك في ضلال مبين ﴾ (الزمر: ٢٢).

١٢ - ومن آثار الخشية الايمان الصحيح:

﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء، ومن يضلل الله فماله من هاد ﴾ (الزمر: ٢٣).

١٣ - أما قوله تعالى: ﴿ ولو شاء الله ما أشركوا، وما جعلناك عليهم حفيظاً، وما أنت عليهم بوكيل ﴾ (الأنعام: ١٠٧).

يثبت لنا ان الله قادر على أن يقلب القلوب ويوجهها اليه رغم ما عليها من رين ورجس، ولكن الله لايقرب الظالم الجاني المتناهي في البغي والفساد، ولايوجهه اليه أبداً.

١٤ - ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ماأشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا، إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون - قل فلله الحجة البالغة، فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ (الأنعام: ١٤٨ - ١٤٩).

١٥ ـ ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا، والله أمرنا بها، قل إن الله لايأمر بالفحشاء، أتقولون على الله مالاتعلمون ﴾. (الاعراف: ٢٨).

الهداية تسبق الضلال:

﴿ وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون، إن الله بكل شيء عليم ﴾ (التوبة: ١١٥).

١٦ ـ ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة. فاختلفوا، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون ﴾ (سورة يونس: ١٩).

أي أن الناس من لدن آدم (ع) الى نوح (ع) كانوا على الاسلام وعلى الحق، ثم اختلفوا.

١٧ ـ الضلال إنما هو نتيجة العمل السيىء:

﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً، فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾ (سورة فاطر: ٨).

١٨ ـ الايمان بإذنه تعالى ولا يأذن الله بالايمان إلا للنفس الصالحة التائبة النادمة على ما اجترحت من سيئات.

﴿ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله، ويجعل الرجس على الذين لايعقلون ﴾ (يونس (ع): ١٠٠).

* * *

للايمان درجات كما أن للهداية أيضاً درجات، ومعنى ذلك، أن الايمان بالله بالنسبة الى التقرب اليه تعالى ـ على درجات، ولكن الله لعظيم لطفه يزيد في هدى الفرد لو استمر على الطاعة وراقب نفسه، وهذا أيضاً لطف منه تعالى.

وهو القائل: ١ ـ ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾. (سورة محمد (ص): ١٧).

٢ ـ ﴿ إنهم فتية آمنوا بربهم، وزدناهم هدى ﴾ (الكهف: ١٣).

٣ ـ ﴿ ويزيد الله الذين اهتدوا هدى، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير مردا ﴾ (سورة مريم: ٧٦).

وفي الحديث: ﴿ والذين عملوا بما علموا لنهدينهم الى مالا يعلمون. . .

٤ ـ ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، واذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون: الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون: أولئك هم المؤمنون حقاً، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾[١].

٥ ـ ﴿ إنما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوابحمد ربهم وهم لايستكبرون. تتجافى[٢] جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون ﴾[٣].

وهكذا مرض القلب يؤدي الى تسافل متواصل ونستجير بالله من ذلك: ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون. وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾ (سورة التوبة: ٢١٤ ـ ١٢٥).

* * *

ومن المفسدين في الأرض الذين يظهرون الأيمان خداعاً. ويقولون بألسنتهم ماليس في قلوبهم. وقد وصفهم الله تعالى بقوله:

---

(١) الأنفال: ٢ ـ ٤.

(٢) ترتفع وتتنحى للعبادة.

(٣) ألم ـ سجدة: ١٦.

﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون. في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون. واذا قيل لهم لاتفسدوا في الأرض، قالوا إنما نحن مصلحون، إلا أنهم هم المفسدون ولكن لايشعرون. واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء، إلا انهم هم السفهاء ولكن لايعلمون ﴾. (البقرة: ٨ - ١٣).

وهكذا نرى بالختام أن الهداية نور ولطف من الله سبحانه، مَنَّ الله بها على الصلحاء من عباده وعلى الذين هم في طريق الصلاح وإصلاح النفس، والضلال ظلمات تترشح من النفس الأثيمة، فتظلم بها النفس، فلا تبصر ولاتعي، ﴿ بل إتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم. فمن يهدي من أضل الله، وما لهم من ناصرين[١] ﴾، فأنه لايترشح من الأجرام إلا نكران الحق ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين ﴾[٢]، فيكون إذ ذاك إله المجرم هواه، ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه، أفأنت تكون عليه وكيلا ﴾[٣] وما أعظم قوله تعالى حين يقول:

﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن، بل آتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون ﴾[٤].

وقد يبلغ بالأنسان الضلال حتى يكون مصداق الآية الآتية ونستجير بالله من هذه المرحلة:

﴿ فإنك لاتسمع الموتى ولاتسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين، وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم، إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾[٥].

---

(١) سورة الروم: ٢٩.
(٢) الفرقان: ٢١.
(٣) الفرقان: ٤٣.
(٤) المؤمنون: ٧١.
(٥) النمل: ٨٠.

فطوبى لأولئك الذين يرحلون من بلد لاتتيسر فيها العبادة وإقامة شعائر الدين الحنيف الى بلد آخر يتيسر فيها المثول بين يدي الله جل جلاله وإطاعة أوامره وإجتناب نواهيه، عملاً بهذه الآيات البينات: ﴿ يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة، فإياي فأعبدون ﴾[1].

﴿ قل يا عبادِ الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة، وأرض الله واسعة، إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾[2].

﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم، قالوا فيم كنتم؟ قالوا كنا مستضعفين في الأرض، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، لايستطيعون حيلة ولايهتدون سبيلا ﴾[3].

فطوبى لمن فكر في آخرته، وضحى بكل مالديه لنيل سعادة أبدية سرمدية في مالاعين رأت أو أذن سمعت أو خطر على قلب بشـر!، للوصول الى رضوان الله تعالى فإن رضوان الله لهذا الانسان غاية الغايات.

﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين، جزاء بما كانوا يعملون ﴾ (سورة الم سجدة: ١٧).

فما بعد القرآن من هدى وشفاء، فلنتمسك بالقرآن الكريم هدى وشفاءاً لأمراضنا الروحية ودستوراً خالداً للكون والحياة:

﴿ يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور. وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾.

﴿ ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته، أأعجمي وعربي، قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء. والذين لايؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى، أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ (سورة حم ـ سجدة: ٤١).

(١) العنكبوت: ٥٦.
(٢) سورة الزمر: ١٠.
(٣) النساء: ٩٧ ـ ٩٨.

رب المشرقين ورب المغربين[1]

لاشك أن الارض تدور حول نفسها مرة في كل ٢٤ ساعة تقريباً، وأن الأرض كروية وتدور حول محورها. فلو فرضنا أننا في الاعتدال الربيعي، فنحن نشعر بشروق الشمس في الساعة ١٢ (عربية) على مسافة من درجات الطول ٩٠، ثم نشعر بصورة خاطئة: أن الشمس تتحرك من الشرق إلى الغرب (حين أن الأرض تدور من الغرب إلى الشرق) وبعد مضي ٦ ساعات تكون الشمس على خط نصف النهار وأمامنا تماماً، وبعد مضي ٦ساعات تدور الشمس أيضاً ٩٠ درجة (خطأ) ونشعر بغروب الشمس، ولكن في الوقت الذي نحن نشعر بشروق الشمس، فالنقطة المقابلة لنا في الطرف الآخر من الأرض تشعر بغروب الشمس (ظاهراً)، فالنقطة التي كانت بالنسبة الينا شرقاً، أصبحت في نفس الوقت غرباً بالنسبة الى النقطة المقابلة لنا من الطرف الآخر من الأرض (في أمريكامثلاً). والنقطة التي كانت بالنسبة الينا غرباً كانت بالنسبة للنقطة المقابلة في الجهة الآخرى من الأرض، شرقاً. والنقطة التي تقابل موقعنا نحن على الأرض في الجهة الثانية من الأرض تعين بأن يوصل بين موقعنا وبين مركز الأرض بمستقيم تخيلي ويمد هذا المستقيم التخيلي الى الجهة المقابلة من أرضنا هذه، كمن يأخذ ابرة طويلة ويثقب بها البرتقالة شريطة أن تمر هذه الابرة من مركز البرتقالة الى الجهة الأخرى.

فالنقطة التي تكون على سطح الأرض بالنسبة الينا شرقاً، تكون في الوقت نفسه بالنسبة الى النقطة المقابلة الينا في الجهة الأخرى، غرباً، والنقطة التي تكون بالنسبة الى موقعنا غرباً تكون في الوقت نفسه بالنسبة الى النقطة

---

(١) جواب على سؤال.

المقابلة في الجهة الاخرى شرقاً. فكل نقطة شرق وغرب في نفس الوقت، وعند الاعتدال الربيعي والاعتدال الخريفي تكون المدة بين وقت مرور الشمس من دائرة نصف النهار وشروق الشمس أو غروبها متساوية. لعل الله تعالى يريد بقوله: ﴿رب المشرقين ورب المغربين﴾ وقوع الشمس بالنسبة الى الشروق والغروب بمسافات متساوية.

وبما أن الكواكب التسعة التي تدور حول الشمس لها دورانها حول محاويرها في مدد مختلفة، فلها أيضاً مشارق ومغارب، ولذلك يحلف الله تعالى بقوله: ﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب﴾.

وفي كل مجرة من مجرات هذا الكون الرحيب، شموس كثيرة جداً تعد بالملايين ولكل شمس توابعها وكواكبها ودورانها حول محاويرها، وشروقها وغروبها. والمجرة عبارة عن مجتمع من مجموعات شمسية تعد بالملايين، وللمجرة أيضاً حركتها الدورانية حول محورها ولابد لها بالنسبة الى مركز العالم (العالم الذي يضم ملايين ملايين من المجرات) من شروق وغروب.

فالمشارق والمغارب بعد الاطلاع على سعة العالم التي لاتتناهى ظاهراً ولاتحد بحدود لاتعد ولاتحصى بل لاتتناهى. فيحق لله جل وعلا أن يقول:

﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب، إنا لقادرون على أن نبدل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين[1]، فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون، يوم يخرجون من الأجداث[2] سراعاً كأنهم الى نصب[3] يوفضون[4]، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة، ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون﴾[5].

---

(١) مسبوقين: مغلوبين

(٢) الأجداث: القبور.

(٣) علم نصب لهم.

(٤) يوفضون: يسرعون.

(٥) سورة المعارج: ٤٠ - ٤٤.

أسئلة وأجوبة

هل التشاؤم مصدره الطبيعة كما يدعي (مالتس) العالم الانكليزي؟[1]

التشاؤم: مصدره عدم الاعتماد على الله واليأس من رحمة الله تعالى. إنه تعالى يقول: ﴿ إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾. وإن الله تعالى ﴿ وسعت رحمته كل شيء ﴾. فلو أقبل الأنسان على الله تعالى بكل طاقاته وأطاع الله تعالى في جميع حالاته ذهب عنه التشاؤم وصار مؤملاً لرحمة الله المتعال. إنه تعالى يقول: ﴿ وإن ليس للانسان إلا ما سعى. وأن سعيه سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾.

أما بعض الغربيين الذين لاصلة لهم بالله تعالى والذين يفسرون الأمور إضطراراً على ضوء الطبيعة العمياء يعزون كل شيء الى الطبيعة، فإذا كان المصدر هي الطبيعة فمن أين جاء التفاؤل. فالتشاؤم والتفاؤل مصدرهما عمل الانسان. وكل خير بيده تعالى. وقد جاء جواباً لهذه الأسئلة في كلام إمامنا زين العابدين (ع): « من أين لي الخير ولايوجد إلا من عندك ».

هل الطبيعة تكرم وهي مصدر الخيرات والثروة

الطبيعة عميـــاء، لاتكرم وهي قد تكون مصدر الخيرات بلطفه تعالى وقد تكون مصدر الشرور لأستحقاقنا العقاب، أو لمزيد الأجر أو لتطهير بعض النفوس. الطبيعة لاتعي ولاتشعر ولاتفكـر في مستقبل الأمـور. وإن هذه

(١) السائل لهذه الأسئلة هو: علي حسان الشويلي، بغداد ـ بياع: ٨٨/١٤.

النزعة: النزعة الطبيعية، نزعة مادية، يقول بها الماديون دونما دليل، وإذا نزل بأحدهم بلاء عنيف التجأ الى ماوراء الطبيعة، بحكم الفطرة[1].

﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية، لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾[2].

هل الطبيعة مصدر الآلام كما يقول: مالتس؟

هذه نزعة مادية كما قلت. إن الآلام لابد منها في الحياة، فالآلام قد تحفز الانسان على العمل المتواصل وقد تؤدي الى تكفير ذنوب أدبرت لذاتها وأقامت تبعاتها. وقد تسبب مزيد الأجر والدرجات، والطبيعة عمياء، ليس لها أن تؤلم من تلقاء نفسها أو تفرح وإنما الأمور بيد الله المتعال. والتوسل الى الله المتعال والانقطاع اليه والابتهال اليه تعالى تؤدي الى دفع الآلام بلطفه ورحمته، وهناك أدعية وصلاة خاصة في كتب الأدعية من واظب عليها ذهبت عنه آلامه بإذن الله تعالى. وقد لاتزول بسرعة ليمن الله تعالى على الداعي بدرجات لاينالها إلا الصابرون.

سؤال: هل صحيح أن ما تنتجه الأرض (الطبيعة) لايكفي لأعاشة جميع الأفراد، فتؤدي الى إثراء طبقة على حساب الطبقات الأخرى ولماذا؟

إن ما تنتجه الأرض وترسله السماء بإذن الله يكفي لأفراد البشر جميعاً، لاسيما وأن الله قد أودع في الكون من القوى والطاقات ما يحير الألباب. وأن العلم الحديث يكشف لنا ذلك بلطف من الله تعالى، فالطاقات الذرية، والطاقات الحرارية والأشعة الكونية وما الى ذلك، لم تكن معروفة قبلاً وعرفت بلطف من الله تعالى وتفيد الانسان في حضارته وإمرار معاشه. فالله أعلم بما خلق. إنه تعالى يقول: ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين، ما

---

(١) يرجى مراجعة الجزء الثاني من كتاب (التكامل في الاسلام).

(٢) سورة الانعام: ٦٣.

خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لايعلمون ﴾[1]. فالعلم كفيل بإذن الله تعالى أن يهيء للبشر وسائل معايشهم. وفي مؤدى بعض الأحاديث ان الله تعالى ما خلق حياً إلا وخلق له ما يحقق حياته ومعيشته.

وأما إثراء البعض على حساب الآخرين فهذا: أما أن يكون من ظلم البعض لآخرين، وعدم إعطائهم ما أمر الله من حقوق، كالخمس والزكاة والأنفاق والزكاة المستحبة ورد المظالم، وأما هو لطف من الله تعالى. إنه تعالى يقول: ﴿ ولاتتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض، للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما إكتسبن، وإسألوا الله من فضيله ﴾، وأما إستدراج وترك العبد وشأنه فلأنه أصبح جرثومة لاتصلح، ويقتر الله رزق بعض العباد لحكمة وقد يوسع عليهم لحكمة، وهو القائل: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك، نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات، ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾[2]. إنه تعالى يؤكد أن رحمته تعالى، تلك الرحمة التي يوجه العبد الى الله المتعال ويمن عليه بمعرفته تعالى وبالمثول بين يديه خاشعاً، خاضعاً، مستغفراً منيباً، تائباً هي خير مما يجمعه هذا الانسان من متع الدنيا وزينتها وزبرجها الزائل. ذلك لأن هذا الانسان إنما خلق لمعرفة الله تعالى. ولاتنال المعرفة الا بعبادة الله، وهو القائل: ﴿ وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون ﴾[3].

(هل البؤس ناشىء عن زيادة السكان)

هل صحيح أن البؤس ناشيء عن زيادة السكان ولماذا؟

هذه نعرة غربية من لايؤمن بأن الله وسعت رحمته كل شيء. فالله تعالى

---

(١) سورة الدخان: ٣٨ ـ ٣٩.

(٢) سورة الزخرف: ٣٤.

(٣) سورة الذاريات: ٥٦.

يقول: ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾[١]. فالله تعالى ما يخلق خلقاً إلا وقد هيأ لهم قبل خلقهم رزقاً واسعاً طيبا، وإذا قتر عليهم فلعلة وحكمة. وإن أصاب قوماً مجاعة فلعلة: أما لعقوبة أو إختبار أو زيادة درجات، وهو القائل: ﴿ أدعوني أستجب لكم ﴾ فبالدعاء يدفع البلاء، شريطة أن لايكون الداعي مفسداً في الأرض غير مطيع لأوامر الله تعالى.

فلا بؤس من زيادة السكان، خلافاً لما يتكهنه بعضهم ممن لايعترف بعظمة الله تعالى وجليل رحمته، فالامساك والسعة بيده تعالى: ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك، فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ﴾[٢].

ويقول جل من قائل: ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله، قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله، إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته، قل حسبي الله، عليه يتوكل المتوكلون ﴾[٣].

فالله برحمته الواسعة يوسع الرزق على عباده على كثرة عددهم من حيث لايحتسبون. فيلهم عباده العلماء باكتشاف طرق جديدة للاقتصاد ووفور المؤن والمواد الغذائية إلى ما هنالك. ﴿وهو خير الرازقين﴾[٤]. ﴿لهو خير الرازقين﴾[٥]. ﴿والله خير الرازقين﴾[٦].

إن الله يخبرنا في كتابه أنه لطيف بعباده وهو القادر المتعال. فاذا كثرت النفوس فتح عليهم أبواب الرحمة وهو القائل: ﴿ الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز ﴾[٧] وقد يرى العالم المتتبع انه قد نفذ علمه للعثور

(١) سورة الذاريات: ٥٨.
(٢) سورة فاطر: ٢.
(٣) سورة زمر: ٣٨.
(٤) سورة المؤمنون: ٧٣.
(٥) سورة الحج: ٥٨.
(٦) سورة الجمعة: ١١.
(٧) سورة الشورى: ١٩.

على أبواب جديدة للرزق وما يحتاجه الناس من وسائل العيش، فيفتح عليه الله تعالى أبواباً جديدة من العلم لم تكن بالحسبان ليرزق الناس من حيث لا يحتسبون. وهو القائل: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، إن الله بالغ أمره، قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾(١).

وهو القائل: ﴿ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاق، نحن نرزقهم وإياكم﴾(٢).

وقد يقتر الله الرزق على بعض عباده لحكمة قد تخفى علينا، وقد يكون لاصلاح العبد والحد من طغيانه، كل بحسبه ﴿إن الانسان ليطغى، إن رآه إستغنى﴾ وهو القائل: ﴿إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾(٣). وفي الحديث القدسي: ﴿وإن من عبادي من لايصلحه الا الفقر ولو صرفته الى غيره لهلك».

فما على الانسان عند إشتداد الأمر إلا أن يبتغي عند الله الرزق.

﴿فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له، اليه ترجعون﴾(٤).

وقد قال جل من قائل: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾.

وأضيف لمزيد التأكيد مذكراً قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون. وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين، وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾.

والبحار على ما اكتشف حديثاً مورد هام لتغذية الانسان بما فيها من جماد

---

(١) سورة الطلاق: ٣.

(٢) سورة الاسراء: ٣١. الاملاق: الفقر.

(٣) سورة الاسراء: ٣٠.

(٤) سورة العنكبوت: ١٧.

وأحياء وستكشف موارد جديدة أخرى بلطف من الله كما اكتشفت الطاقة الذرية بالهام منه تعالى.

هل المجاعة والأمراض عقاب؟

هل الموانع العقابية (الرادعة) كالبؤس والمجاعة والأمراض والحروب هي التي تعاقب الانسان على الجرم الذي يرتكبه ولماذا[1]؟

كل ما يصيب الانسان من بؤس وجوع ومرض وكوارث أخرى كحروب لا تبقي ولاتذر هو أما لتطهير هذا الانسان مما ألم به من أدران وأرجاس أو لابتلائه وإمتحانه واختباره لنيل الدرجات العالية إن صبر وشكر أو لردعه عما هو فيه من ظلم وطيش إن انتبه من سكرته أو لعقابه في العاجل كي يرتدع الآخرون وينتهي هو عن غيه ويهتدي الى الطريق السوي إن كان من أهل الاهتداء[2].

إنه تعالى قال: ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ (سورة الأسراء: ١٥).

فالله يتم الحجة على عباده فإن أبوا وتمادوا في غيهم وطيشهم وأفسدوا في الأرض ولم يتوبوا رغم الانذار عاقبهم ببؤس وجوع وإبتلاءات أخرى لعلهم يرجعون الى رشدهم.

فالله تعالى وسعت رحمته كل شيء، ولايسلب رحمته عن عباده ولايدعهم في دياجير الضلال حتى يبين لهم ما يتقون على حد قوله جل من قائل: ﴿ وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون، إن الله بكل شيء عليم ﴾[3].

---

(١) السائل، هو الأخ: علي بن حسان الشويلي، بغداد ـ بياع.
(٢) راجع الجزء السادس من كتاب التكامل في الاسلام: لماذا هذه الزلازل؟
(٣) سورة التوبة: ١١٦.

وهو القائل: ﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله، لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولاً فتتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى﴾[1].

فالله تعالى لايظلم أحداً ولايعاقب إنساناً إلا بعد إتمام الحجة مرات ومرات. وهو القائل: ﴿وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها[2] رسولاً يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾[3].



(١) سورة طه: ١٣٤.
(٢) في أمّها: في أصلها التي هي من توابعها.
(٣) سورة القصص: ٥٩.

القرآن والعلم الحديث

وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام

كلما تقدم العلم الحديث واكتشفت معالم الذرة وما أودع الله فيها من قوانين رياضية رصينة ومعادلات متقنة وخواص مدهشة وتقدم علم الفلك اللاسلكي كلما تقربنا بنفس المقدار لتفهم ما أودع الله تعالى في كتابه الذي ﴿ لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه ﴾، من عصارات العلوم وخلاصة المكتشفات ونتائج الابحاث العلمية الدقيقة. وإن الآيات الكونية الواردة في القرآن تدل على عظمته وإنه منزل من جانب الله العظيم وقد فسرنا البعض منها على ضوء العلم الحديث في أجزاء «التكامل في الاسلام» وها نحن نفسر الآية الآتية: ﴿ وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ﴾[1].

فنقول: لايعلم مدى طول هذه الأيام إلا الله تعالى. ذلك لأن هناك أياماً مختلفة الأطوال اختلافاً شاسعاً. تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فنحن نعرف يومنا الأرضي والآيات الكريمة تخبرنا عن نوعين آخرين أحدهما أطول من يومنا بمئات الألوف من المرات والآخر أطول بملايينها. هكذا يستفاد من الآية: ﴿ يدبر الأمر من السماء الى الأرض، ثم يعرج اليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾. فالسرعة التي يسير فيها أمر الله تعالى سرعة لاتقدر!!..

واليوم في الحقيقة بالنسبة لكوكب ما: هو المدة التي يقضيها هذا الكوكب في دورانه حول نفسه دورة واحدة، وهذه المدة تختلف من نجم الى آخر. فاليوم في الأرض أربع وعشرون ساعة، وهو في المريخ أطول من اليوم الأرضي بـ (٣٧) دقيقة، ويبلغ يوم القمر قريباً من تسعة وعشرين يوماً أرضياً، ويختلف يوم الشمس من منطقة الى أخرى، فهو في خط استوائها يبلغ حوالي خمسة

---

(١) سورة هود: ٧.

وعشرين يوماً أرضياً، بينما يتجاوز الثلاثين يوماً أرضياً بالقرب من قطبيها. وهذا بسبب عدم صلابتها. ويوم عطارد يساوي ٨٨ يوماً أرضياً أما الشموس الأخرى فمجهولة أيامها، كما يتعذر علينا معرفة أيام مجرتنا، إذ أننا نجهل الزمن اللازم لتدور حول نفسها دورة واحدة. وكل ما يقال عن ذلك، فهو من الظن الذي لايغنى عن الحق شيئاً. ولكنه قد يقاس بمئات الالوف من السنين الارضية. وقد يكون أكثر وقد يكون أقل. وكذلك بقية المجرات. ولاندري ما سيأتي به المستقبل. ويختلف يوم المجرة من منطقة الى أخرى بسبب عدم تماسك نجومها. وهكذا نرى أن لكل كوكب يومه، كما أن لكل تجمع نجمي صغر أم كبر يومه. ولاندري عن اليوم الذي مقداره ألف سنة مما تعدون واليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة، هل هما بالنسبة لشّيء في كوننا أم بالنسبة لكون آخر؟.

* * *

لأنا نقدر طول اليوم بحركة الأرض حول نفسها ولم تكن قبل خلق الله العوالم المادية أرض أو شمس. وهو القائل: ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾[1].

تدل الآية المتقدمة (٢) ان بناء الكون قد استغرق وقتاً معيناً لايمكن تقديره بما لدينا من حسابات عادية.

ويثبت القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً، أي أنه ابتدأ منذ لحظة بالذات، فهناك انتقال مستمر في الحرارة من الأجسام المادية الساخنة إلى الأجسام الباردة، ولا يمكن أن تعكس هذه العملية، أي لايمكن أن تعود الحرارة فتزيد من الأجسام الباردة الى الاجسام الساخنة. ومعنى ذلك أن الكون يتجه أو يسير نحو حالة تتساوى فيها درجات حرارة جميع الأجسام وينضب فيها معين الطاقة. وعند ذلك تقف العمليات الكيميائية والطبيعية كعمليات الأشعاع وتبادل الطاقة

(١) سورة الحج: ٤٧.
(٢) ﴿خلق السماوات والأرض في ستة أيام﴾.

الحرارية بين الاجسام وتندثر مظاهر الحياة في هذا الكون. ﴿كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام﴾[١] ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات، وبرزوا لله الواحد القهار﴾[٢].

ولكن لما كانت الحياة لاتزال قائمة، والعمليات الكيميائية والطبيعية لاتزال تسير في طريقها، فإن النتيجة المنطقية لذلك، إن هذا الكون لايمتد ابتداؤه الى مالانهاية خلافاً لما يقوله الماديون! وإلا لاستهلكت جميع الطاقات فيه بمضي الزمن الكافي وتوقف كل نشاط في هذا الوجود.

وهكذا نرى وجهة نظر الديناميكا الحرارية إن لهذا الكون بداية لاتمتد الى اللانهاية، وإنما هي بداية محدودة بلحظة بالذات قدرها العلماء من وجهات نظر أخرى عديدة بنحو ٤ الى ٥ آلاف مليون سنة، كما أثبتوا أن الكون لايزال يخضع لعملية انتشار مستمر تبدأ من مركز نشأته. وإن حدود السماء من حول هذا المركز تقع في وقتنا الحاضر علىٰ أشبه شيء بالسطح الكروي الذي يتمدد والذي يبلغ نصف قطره في وقتنا هذا بين

٤×١٠^{٢٧} الى ٥×١٠^{٢٧} سانتيمتر

أي ٤,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠, ٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠٠٠٠ سنتيمتر

أو ٥,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠ سانتيمتر

ويمكن للضوء أن يقطع هذه المسافة في مدة قدرها ٤ أو ٥×١٠^{٩} من السنين. ولقد حسبت كتلة هذا الكون بما تجمع فيه من مادة وطاقة بما يعادل نحو ٥×١٠^{٥٦} غرام، [أي خمسة متبوعة بستة وخمسين من الأصفار!]. مع العلم أن: (البرت أيشنتاين) قد عدل عن حساب كتلة الكون، لما رأى أن هناك أنجماً وكواكب تتشكل من جديد وتخلق بأمر من الله تعالى وان الهايدروجين يخلق خلقاً لتتشكل منه نجوم جديدة ومجرات أخرى جديدة وهكذا: ﴿كل يوم هو في شأن﴾[٣].

---

(١) سورة الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧.
(٢) سورة ابراهيم عليه السلام: ٤٩.
(٣) سورة الرحمن: ٢٩.

فسبحان الذي لا تتناهى عظمته. سبحان الله خالق كل شـيء، سبحان الله خالق ما يرى وما لا يرى، سبحان الله مداد كلماته، سبحان الله رب العالمين، سبحان الله الذي ينشىء السحاب الثقال ويسبح الرعـد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ويرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته. . .



(العلمانية)[١]

كانت القرون الوسطى في أوروبا قروناً مملوءة بالظلام والجهل وكانت الكنيسة تقوم بأنواع الظلم والتنكيل بشأن من لا يوافقها في معتقداتها ومزاعمها الباطلة، فتقتل وتحرق وتعذب وتسجن من لا يوافقها في الرأي بالنسبة إلى العلوم الكونية التي تستند على التجربة والمشاهدة والاستقراء والاستنتاج، وقد ألفت الكنيسة كتاباً في علم الجغرافية كله أباطيل وخرافات أسمته الجغرافية المسيحية: Christian geography وفي هذا الكتاب: أن الأرض مركز العالم وهي ثابتة لا حراك لها، وتؤكد على ما دوَّنه (بطليموس) اليوناني في علم الهيأة والفلك ومن حالف فهو كافر بنظر الكنيسة. ولكن المنجم اللهستاني (كوبرنيك) قام برصد الكواكب ثلاثين سنة وعلم علم اليقين أن هيأة بطليموس هيأة باطلة وان الكواكب ومن جملتها الأرض تدور حول الشمس وليست الأرض بمركز للعالم وإنما هي كأحد الكواكب التي تدور حول الشمس. وبما أن الحقائق التي لمسها (كوبرنيك) في كشفياته كانت تخالف أباطيل الكنيسة دوَّن رسالته في الفلك باللغة اللاتينية مع شيء من الابهام والتورية، لا يطلع على مقصوده إلا من اشتغل بعلم الهيأة. ولكن (جردانو برونو)[٢] العالم الايطالي الجريء صار يصرح بما قاله (كوبرنيك) فحكم عليه من قبل كنيسة روما: أن يحرق حياً وقد أحرق، ولكن بعد ٣٠٠ سنة نصبوا له في الساحة التي أعدم فيها تمثالاً تخليداً لذكراه.

حتى جاء كاليله[٣] (غاليليو) بمرقبه الذي كان يقرب البعيد ويسهل للراصد مشاهدة مسافات بعيدة، فوجه تلسكوبه لأول مرة نحو السماء وإذا به

---

(١) السائل المحترم هو: محمد ملا ديوان الربيعي.

(٢) Jiordano Brune

(٣) Galilée

يشاهد لأول مرة أن للمشتري أربعة توابع: أقمار، وتدور كلها حوله. وشاهد جبالاً شاهقة في قمرنا هذا وتمكن من قياس ارتفاع تلك الجبال استناداً على ما لها من ظلال.

إن اكتشافات (كاليله) كانت ضربة قاضية على هيأة بطليموس الخاطئة وأيدت نظريات (كوبرنيك) الهيئي اللهستاني. ففندت نظريات بطليموس وأرسطوا!.

فقامت قيامة الكنيسة والمخالفين ضد (كاليله) وقالوا: إن تلسكوبه إنما هو جهاز شيطاني وهو من قبيل السحر فانعقدت نتيجة هذه المخالفات محكمة تفتيش العقائد في روم بشأن (كاليله): (غاليليو) فاضطر كاليله أن يتنازل عن عقيدته التي تؤيدها الآلات والتجارب وأن يتوب من قولته الالحادية! بشأن الأرض والسماء أمام (الباب)، فخضع في توبته للباب وركع وانحنى بكل خضوع ومع ذلك أرسل إلى بيته ومنع من أن يلاقيه أحد وأن محاكم التفتيش صارت تراقبه مراقبة شديدة طوال حياته.

وقد أعدمت الكنيسة رجالاً كثيرين من علماء العلوم الطبيعية والكونية لأن تجاربهم العلمية كانت تعطي من النتائج ما يتنافى مع معتقدات الكنيسة الخرافية، فحصل شجار بين الكنيسة والعلم الحديث، فقال علماء أوروبا المحدثون: أن هناك تنافياً بين الدين والعلم، والعلم لا يوافق الدين: (الكنيسة) في شيء. وقد تفاقم هذا العداء بين الدين والعلم في أوروبا حتى قالوا: لا حاجة لنا إلى الدين في تسيير أمورنا الاجتماعية والاقتصادية والقضائية وإن علم البشر كاف لسن القوانين وتنظيم الأنظمة في شتى المجالات!!؟ ونبذ هؤلاء الكنيسة لظلمها الفاحش ومخالفتها للعلم المادي الصريح الذي تؤيده التجارب والمختبرات. وبنبذ الكنيسة نبذ الدين من أصله وظهر قوم يرون أن العلوم البشرية كافية لتسيير شؤون البشر في جميع الحقول وحدثت نظرية فلسفية جديدة سميت بـ(Laicisme) أي الطريقة المادية أو الجسمانية أو الطريقة الدنيوية البحتة وLaique باللغة الفرنسية أي ما هو غير منسوب إلى الرهبان والرهبنة وLaicité أي عدم الانتساب إلى طريقة الرهبنة أو الرهبان، وقد ترجمت هذه الطريقة البشرية التي تعتمد على العلم البشري

غير المستمد من السماء بالطريقة «العلمانية» أي تلك الطريقة التي تعتمد على ما يضعه البشر من نظم وقوانين في شتى الحقول، في حقل القضاء والعقوبات والقصاص والسياسة إلى ما هنالك دون استناد إلى ما جاء في الدين.

ولقد ترشحت هذه الفكرة: (العلمانية) من الغرب إلى الشرق نتيجة قياس مغلوط ومقايسة نظريات الكنيسة المغلوطة بحقائق الاسلام الناصعة التي فيها حياة البشر في الدنيا والآخرة، فصار يقول قسم من أبناء الطبقة المثقفة: ان الدين لا حق له في التدخل في شؤون الحياة السياسية.

وبما أن لفظ «العلمانية» يقترن في أذهان الناس بـ(التقدم)، فان كل اقتراح لتنظيم الشؤون السياسية وتخطيط المناهج الاقتصادية والاجتماعية على أساس الدين ينظر إليه على أنه حركة رجعية، أو على أحسن الفروض، نظرية مثالية بعيدة عن مجال التطبيق العملي.

إن هناك أسباباً خاصة بالغرب وحده جعلت أهله على غير وفاق مع الدين ـ دينهم هم ـ ومثل هذا الخلاف تنعكس آثاره على الاضطراب الأخلاقي والاجتماعي والسياسي الذي يسود اليوم أجزاء واسعة من العالم. وبدلاً من أن يخضع الغربيون سلوكهم وأفعالهم لمعايير القانون الأخلاقي الذي هو ـ على أية حال ـ الغاية القصوى لجميع الأديان[١]، أصبحت «المصلحة» في اعتبار القوم هي القانون الوحيد المهيمن، الذي يجب أن تعالج على ضوئه كافة الشؤون العامة وحيث أن وجهات النظر فيما تنطبق عليه صفة «المصلحة» تختلف عادة من جماعة إلى جماعة ومن أمة لأخرى، فان النتيجة الطبيعية لذلك هي ما نراه اليوم من اصطدام مروع بين المصالح المختلفة في الحقل السياسي. وهذا أمر طبيعي، فان ما يبدو من الناحية العملية البحتة مقيداً لطائفة من الناس أو أمة من الأمم لا يجب أن يكون ـ وفي الأغلب لا يكون ـ مفيداً لطائفة أو أمة أخرى. وعلى هذا فانه ما لم يخضع البشر تصرفاتهم في هذه الحياة الدنيا لتوجيه غاية من الغايات الأدبية أو لاعتبار

(١) منهاج الاسلام في الحكم ـ لمحمد أسد النمساوي، الذي اعتنق الدين الاسلامي وأصبح من دعاته.

خلقي معين، فان مصالحهم الخاصة لا بد أن تتصادم في نقطة أو أخرى، وكلما احتدم النضال بينهم تباعدت مصالحهم أكثر فأكثر، واختلط عليهم الأمر في معرفة الخير والشر في معاملة بعضهم بعضاً[1].

وإذا كانت المصالح لا ترتبط إلى مبدء واحد، تصادمت، ونشأت مذاهب شتى: الاشتراكية والرأسمالية وغيرهما من الأنظمة، فلو رجع البشر كلهم إلى دستور أخلاقي وأحكام يعينها الله تعالى من فوق عرشه وهو أعلم بمصالح البشر وما يصلحهم في الدنيا ويسعدهم في الآخرة لم يحدث أي خلاف أو اختلاف ولعاش البشر بهناء.

وإن الدين الذي لم تمسه اليد البشرية المحرفة بسوء هو دين الاسلام: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون﴾، فلا يسعد البشر في شرق الأرض وغربها إلا بالتمسك بدين الاسلام وتطبيق قواعده وقوانينه المنطقية التي لا تصطدم مع المكتشفات الحديثة في شيء، فلا يحدث في الدين الإسلامي ما حدث في الغرب من عداء بين الدين ومكتشفات العصر الحديث في حقول المادة، بل في القرآن الكريم والأحاديث النبوية كنوز هي عصارة العلم الحديث. ولم يبتعد الاسلام عن المنطق الصحيح بحال، منطق لم تلوثه الشهوات والنزوات.

فنجاة العالم إنما هي باعتناق الدين الاسلامي وجعله ديناً عالمياً ونبذ العصبية العمياء والانانية المهلكة وحب الرئاسة إلى ما هنالك من شهوات نفسانية لا تدع للعقل مجالاً للحكم الصحيح واختيار ما هو أصلح لدنيا موقتة وآخرة دائمية أبدية.

﴿فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب﴾[2].

---

(١) منهاج الاسلام في الحكم: محمد أسد. ص: ٢٢.

(٢) سورة الزمر: ١٨.

﴿يا أيها الـذين آمنوا استجيبـوا لله وللرسول إذا دعـاكم لما يحييكم، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون﴾[٢].



(١) سورة الأنفال: ٢٤.

ـ الامتناع عن الزواج ـ

س ١ : هل يعتبر خطأ إذا استمر الشاب في امتناعه عن الزواج مع العلم أنه يتمكن من جميع الجهات من أن يتزوج؟.

التوقيع : حسن شاكر

كركوك : ناحية تازه خورما

الجواب: إن الدين الاسلامي يحث الناس على الزواج إلى حد لا مزيد عليه. وهو القائل: ﴿وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم، ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله. والله واسع عليم﴾.

وعن النبي (ص) على ما عليه الفريقان: «النكاح سنتي، فمن رغب عن سنتي فليس مني!».

وعن الصادق (ع): «قال تزوجوا، فان رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من أحب أن يتبع سنتي فان من سنتي التزويج.

وفي النبوي: «ما بنى بناء أحب إلى الله تعالى من التزويج».

وعن النبي (ص): من تزوج أحرز نصف دينه فليتق الله في النصف الآخر.

وفي بعض الأخبار أن الزواج موجب لسعة الرزق ففي خبر (إسحق بن عمار) قلت لأبي عبد الله (ع) الحديث الذي يرويه الناس حق؟

إن رجلاً أتى النبي (ص) فشكا إليه الحاجة، فأمره بالتزويج، حتى أمره ثلاث مرات. قال أبو عبد الله (ع): انه حق، ثلاث مرات، ثم قال (ع): الرزق مع النساء والعيال.

كما أنه: يستفاد من بعض الأخبار كراهة العزوبة فمن النبي (ص): رذال موتاكم العزاب.

فالنكاح واجب شرعاً لمن يقع في الضرر لو لم يتزوج أو يبتلي بالزنا.

فيستحب للرجال والنساء استحباباً مؤكداً. ويجب إذا خيف العنت والغرور والوقوع في المحرم.

وترك الزواج أما مكروه شرعاً أو حرام، إذ في تركه جناية على النسل، واضرار بالأبدان وحرمان من أكبر اللذات المشروعة واحتمال الوقوع في الزنا أو في ما حرّم الله وتعطيل الأعضاء التي خلقها الله تعالى في الانسان لغايات معينة مقصودة.

س ٢ : هل يمكن وضع رسوم في البيت وخاصة الأئمة (ع) مع العلم أني سمعت أن قسماً من الناس يقولون أنه حرام شرعاً؟.

الجواب: في هذه المسألة خلاف بين الفقهاء وعلى كل مقلد أن يراجع من يقلده مع العلم أن الاسلام حرم التصوير بقوله:

«إن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورين... الحديث»

وقد حمل هذا الحديث: على التصوير بالقلم واليد، أي التنقيش أو النقش، لا بآلة التصوير.

ومنع الاسلام عن نحت أو صنع الشكل الآدمي. ومنع صنع المجسمات على شكل إنسان. كل ذلك ابتعاداً عن عبادة الأوثان.

لذلك، تكره الصلاة مقابل تمثال ذي روح مجسماً كان أو غيره، وتزول الكراهة بالتغطية أو بنقصه نقصاً يخرجه عن صدق الصورة بل ورد أنه لا بأس إذا كان بعين واحدة. وتكره الصلاة في بيت فيه تمثال وان لم يقابله.

وتكره الصلاة مقابل النار ولو غير مضرمة ابتعاداً عن عبادة المجوس لأنهم كانوا يعبدون النار. وإذا كانت النار عالية كالقنديل فالكراهة أشد.

وتكره الصلاة أمام السراج كذلك، فالاسلام يسعى لابعاد الناس عن عبادة كل شيء سوى الله المتعال.

ـ من جاهلية الغرب[1] ـ

لندن ـ سانا ـ في نبأ لرويتر أنه عثر على رئيس شركة استثمار، رأسمالها ٨ ملايين جنيه استرليني كانت قد انهارت، عثر عليه مقتولاً بالرصاص مع زوجته وطفليه في منزلهم أمس.

وعثر البوليس على مسدس تحت جثة الرجل ويدعى هنري بوين ديفيس. وكان قد قال لدائنيه بعد انهيار شركته في وقت سابق من هذا العام ان جميع أملاكي رهن تصرف المسؤول عن التصفية.

ويقدر عدد المستثمرين في الشركة بنحو ٧٠٠٠ شخص.

فرنسيان ينتحران بإغراق سيارتهما في البحر

نيس ـ سانا ـ قالت صحف باريس أن فرنسيين انتحرا باغراق سيارتهما في ميناء (نيس) بعد أن أغلقا جميع الأبواب ولم يتمكن الغطاسون من كسر الأبواب لانقاذهما. فماتا على الفور.

ويقول شهود عيان: ان الرجلين كانا يجلسان داخل العربة في منتهى الهدوء، ويبلغ عمر الأول ٦٣ سنة والثاني ٥٣ سنة.

كل يوم جريمة في ألمانيا

بون ـ سانا ـ ذكرت مجلة (كويك) التي تصدر في ميونيخ من ألمانيا الغربية

(١) من مجلة حضارة الاسلام، العدد: ٤,٣ السنة الثامنة.

في تقرير لها عن الاجرام في ألمانيا الغربية: أنه لا يمر يوم في ألمانيا الغربية دون أن تقترف جريمة، أو ينتحر أحد المواطنين. ومضت اللجنة تقول: انه اغتيل بطريقة ما ٤٤٢ شخصاً في عام ١٩٦٣ وارتفع الرقم إلى ٥٣٥ في عام ١٩٦٦، ويبدو أن الرقم في ارتفاع مطرد هذا العام أيضاً.

واختتمت المجلة تقريرها بقولها: إن الأرقام التي لا نعرفها قد تكون أعلى بكثير من هذه الأرقام المعروفة.

التنانير القصيرة

باريس ـ سانا ـ قال بوليس باريس أمس أن سبب موجة حوادث الاغتصاب الحاضرة هو التنانير القصيرة.

وصرح ناطق باسم البوليس بأن الملابس «المثيرة» التي ترتديها الفتيات تجعلهن فريسة مختارة للغوغاء.

وقد تعرضت خمس فتيات بينهن سائحتان أمريكيتان عمر كل منهن ١٦ سنة للاعتداء في شوارع باريس خلال الأيام العشرة الماضية.

وقال الناطق أن هناك عاملاً آخر هو موجة الحر التي تجتاح فرنسا. فقد وصلت الحرارة إلى ٣٨ درجة مئوية في جنوب غرب فرنسا أمس.

والسحرة أيضاً لهم مؤتمرهم

نيويورك ـ سانا ـ ذكرت وكالة رويتر أن «مؤتمر السحرة الدولي» السنوي الأول سيعقد هنا في شهر آب.

وسيكون بين الذين سيحضرون المؤتمر في ١٩ آب و٢٠ منه هواة ومبصرون وقارئو أفكار ومنجمون وقارئو بخت.

الأزواج التعساء يقطعون الطريق على القانون

نيويورك ـ سانا ـ يتوجه ألوف من سكان نيويورك ممن حطمت التعاسة

زواجهم بسرعة إلى المكسيك الآن للحصول على طلاق عاجل قبل أن يسرى مفعول قانون جديد للطلاب في ولاية نيويورك في أول أيلول القادم لاعتقادهم بأن القانون الجديد ربما أنهى الاعتراف بالطلاق الذي تقره المكسيك إلا أن الخلاف على تفسير القانون كما تقول وكالة رويتر ترك المحامين هنا غير متأكدين مما سيحدث عند تطبيق القانون.

ولذلك فان الكثير من أهالي نيويورك الذين يصرون على الطلاق يتوجهون الآن إلى مدينة خواريس المكسيكية التي تقع عبر ريوغراندي من الولايات المتحدة ويمكن الحصول على الطلاق في هذه المدينة خلال ٢٤ ساعة على أساس اتفاق الطرفين وعلى أساس تنافر شخصيتي المتزوجين.

مستعجل... للجحيم

شنق فلاح فرنسي نفسه في بلدة (اميان) على دعامة خشبية وترك رسالة قصيرة قال فيها: إن المطر المستمر وتأخر المحصول جعلا الحياة مستحيلة بالنسبة له.

ماذا فقدت

اهتز الرأي العام (الفرنسي) في شهر (آب) لعدة جرائم تقشعر لها الأبدان. ففي بداية هذا الشهر، وخلال أسبوع وقعت أربع جرائم مريعة راحت ضحيتها ثلاث فتيات وطفلة، وقد توفين كلهن أثر اعتداء أثيم عليهن.

ثم اجتاحت فرنسا موجة من الاعتداءات الجنسية على السائحات اللاتي ملأن شوارع باريس، وبلغت هذه الاعتداءات أقصاها هذا الأسبوع إذ بلغت ثمانية عشر اعتداء على الفتيات خلال ٤٨ ساعة فقط. وكان أبشعها ذاك الذي وقع على فتاة لا يزيد عمرها على ١٤ سنة. إذ اعتدى عليها، في يوم واحد، إثنا عشر شاباً... والغريب أنها توجهت إلى قسم الشرطة لتبلغه عن فقدانها.. لمحفظتها!! وبعد معرفة الحادث انتشر رجال الشرطة يبحثون عن الجناة المجرمين.

ما السبب

أعلن رئيس البوليس في باريس أن السبب في (ازدياد الجرائم الأخلاقية) لا يكمن في موجة الحر الشديد التي تجتاح فرنسا الآن. ولا في الفراغ الذي يتلو نهاية السنة الدراسية. ولا هو بتأثير الكميات الهائلة التي استهلكت من الخمور أثناء أعياد ١٤ تموز (سقوط الباستيل).

إنما المسؤول الأول هو هذا السيل الكبير من السائحات الفاتنات اللاتي يزحفن بلا انقطاع نحو العاصمة الفرنسية منذ بداية الشهر مرتديات (الميني جوب) أو (الميكرو جوب) التي تبدو وكأنها تتقلص مع حرارة الشمس.

إلى السائقين

في الطرقات والشوارع في باريس إعلانات إلى سائقي السيارات ان ينظروا أمامهم بدلاً من أن يحملقوا في السيقان العارية.

أخلاقية لندن(١)

تدل الاحصائيات لسنة ١٩٦٦، أن واحدة من كل خمس من الانجليزيات اللواتي تجاوزن سن الخامسة عشرة لا تزال عذراء، ويتوقع علماء الاجتماع في السنة ١٩٦٧ أن تفقد العذرية معناها في انكلترا كما تقول مجلة «بنتهاوس» وقد لا يزداد عدد الأطفال غير الشرعيين عما هو عليه الآن لأن حبوب منع الحمل والأغشية الواقية متوفرة بثمن زهيد، ليس فقط في الصيدليات بل وفي قسم كبير من علب الليل.

بدأوا يدركون إنحلالهم

وقعت في أميركا وفي بريطانيا عدة جرائم قتل جنسية، آخرها في بريطانيا

(١) نقلاً عن مجلة حضارة الاسلام، العدد السابع، للسنة الثامنة، سنة: ١٣٨٧ هـ.

جريمة كان ضحيتها شاباً عمره ١٧ سنة اسمه بيرنارد آوليفار، وقد بدا للشرطة من طريقة قتل الضحية وتوزيع الجثة أن القاتل من المختصين بتشريح الأجسام أو أنه ممن يتقنون الجراحة، وقد نشرت «الصنداي ميرور» بقلم نورمان لوكاس تقريراً عن هذه الجريمة جاء في آخره:

«جاءت هذه الجريمة ضمن سلسلة من الجرائم التي تعصف ببريطانيا الآن بسبب التدهور الأخلاقي الذي يعاني منه الغرب، ويعتقد علماء المجتمع المختصون أن تزايد الجريمة في بريطانيا يؤكد أن ثمة هبوطاً في المستوى الأخلاقي ولكن لماذا يحدث كل هذا؟ ومن هو المسؤول عن هذا التيار العارم»؟.

يؤكد البعض على أن تفسخ العائلة هو السبب في كل ذلك غير أن اندفاع المراهقين، وطيشهم هما أساس هذا الانهيار. وتؤكد سجلات البوليس أن الجرائم، وخاصة الاغتصاب والقتل ترتفع يوماً بعد يوم، وما من شك أن الشرطة البريطانية، وخاصة سكوتلنديارد تحاول بذل قصارى جهودها. غير أن ذلك لا يمكن أن يتم بدون تغيير للأسس التي تستند عليها اخلاقية الغرب الجديدة.

نادي تبال الزوجات الأمريكي

ضبط رجال البوليس في اتلانتا بولاية جورجيا الأميركية نادياً تنتشر فروعه في كبريات المدن الأمريكية، وهو يدير عمليات تعارف غير مشروع بين أعضائه من الرجال والنساء كما تتم عن طريقة عمليات تبادل مؤقت للزوجات، وقال رجال البوليس أن للأعضاء أرقاماً سرية ويجب على كل مشتركة فيه أن تعطي مقاييس جسمها للادارة.

جمعية هولندية تدعو لالغاء الزواج

كوبنهاغن - تمّ افتتاح جمعية هولندية تدعو إلى الحرية الجنسية، وقد قام بتأسيسها ٢٢ من الشباب وستقوم الجمعية بالدعوة إلى إلغاء الزواج وإباحة الاجهاض والعلاقات الجنسية الشاذة!!.

الأخلاق الانجليزية

جـريـدة نيـويـورك ديـلي نيـوز شنت هجـومـاً عنيفـاً عـلى الأخــلاق الانجليزية... الهجوم في رسالة كتبتها سيدة أمريكية عادت من جولة في أوربا. الرسالة تقول:

إن بريطانيا التي كانت ذات يوم دولة كبرى حولت اليوم كل إمكانياتها وجهودها للجنس والمقامرة. ان الانكليز أناس بدون أخلاق والمرأة الأجنبية التي تزور بريطانيا مع زوجها عليها أن تلازمه طوال الأربع والعشرين ساعة لتحميه من النساء البريطانيات.

إدمان المخدرات يزداد بين طلبة الانكليز

لندن ـ أثار مجلس اللوردات البريطاني في جلساته الأخيرة مشكلة انتشار إدمان المخدرات بين طلبة المدارس في بريطانيا وتبين من الاحصائيات التي ذكرت خلال هذه الجلسات أن عدد الطلبة المدمنين بلغ ٩٢٧ طالباً بزيادة قدرها ٢٣ في المائة.

الحلاق يقص شعره الطويل...
والفتى يشنق نفسه

سيدني ـ رويتر ـ سانا ـ عثر على فتى في الرابعة عشرة مشنوقاً في منزلـه بسيدني بعد أن هرع من دكان حلاق حيث كان من المقرر أن يقص شعر رأسه الذي كان يتدلى على كتفيه.

وكانت أمه قد ناشدت المدرسة أن تساعدها في معالجة مشكلة شعر ابنها.

جمعية الأزواج المضطهدين تكونت في أسبانيا

مـدريد ـ سـانا ـ تـأسست في أسبـانيـا جمعيـة اسمهـا ـ جمعيـة الأزواج

المضطهدين - مقرها مدريد، أعضاء هذه الجمعية هم الأزواج الذين يتولون مهام - ربة البيت - في بيوتهم أي الذين يؤدون الأعمال المنزلية من كنس وطهي وغسل الأطباق والملابس، كما يتولون أيضاً رعاية الأطفال، وقد قررت الجمعية أن تمنح كل شهر وساماً إلى - أتعس زوج - أول زوج حصل على هذا الوسام ضابط أمريكي كان يقضي شهر العسل مع عروسه في أسبانيا.

هوايتهما القتل ومصيرهما السجن

باريس - سانا - ذكرت وكالة رويتر أن البوليس الفرنسي اعتقل متسكعين هما رجل وامرأة يعتقد أنهما قتلا ١٠ أشخاص على الأقل خلال السنوات القليلة الماضية.

ويقول رجال البوليس أن الرجل والمرأة وهما في العقد الخامس كانا يدفعان بضحيتهما إلى نهر السين بعد أن يقدما لها الخمر ويستوليا على ما تحمله من مال.

المطالبة بإباحة تعاطي المخدر في بريطانيا

لندن - سانا - في نبأ لرويتر أن فريق المغنين البيتلز واثنين من أعضاء البرلمان والمؤلف غراهام غرين كانوا بين عدد من كبار الشخصيات دعت إلى سياسة جديدة إزاء الأشخاص الذين يتعاطون مخدر الماريجوانا في بريطانيا.

أكلة دجاج وسط جثث بشرية(١)

فيتوريا البرازيل - سانا - ذكر البوليس أن رجلاً وزوجته تناولا عشاء من الدجاج وهما محاطان بجثث أسرة قتل أفرادها بوحشية بسبب خلاف على دين تقل قيمته عن جنيه استرليني واحد.

وبدأت المتاعب منذ أيام عندما طالب ايفو سنترا وعمره ٣٥ عاماً صديقه

---

(١) من مجلة حضارة الاسلام. العدد: ١، ٢، السنة الثامنة.

فاليفينو لورنكو دي شوسا وعمره ٢٨ عاماً وهما يصطادان السمك معاً بإيفاء الدين.

وثار غضب فالديفينو فقتل صديقه بسكين كبيرة ثم قام بمساعدة زوجته التي تبلغ السادسة عشرة بقتل زوجة إيفو وأطفاله الثلاثة بالرصاص والضرب بالهراوات والمدي.

وقالت رويتر أن الزوجين ذبحا بعد ذلك أفضل دجاجات الأسرة وتناولا العشاء وهما محاطان بالجثث ثم دفنا القتلى بعد حلول الظلام.

وقال البوليس أن الزوجين اعترفا عندما' اعتقلا بأن أحد الأطفال وهو أنادير الذي يبلغ الثانية كان لا يزال حياً ويئن عندما دفناه.

حل مشكلة التسول بإلقاء المتسولين في النهر

ريو دي جانيرو ـ سانا ـ أعلن مسؤول في ريو دي جانيرو بأنه تمّ العثور على جثث ٦٥ متسولاً في نهر جوردا في البرازيل خلال الأشهر الثلاثة الماضية. وأعرب المسؤولون عن قلقهم من أن يكون رجال البوليس يساهمون في حل مشكلة التسول بإلقاء المتسولين في النهر وقدم أربعة من رجال البوليس للمحاكمة.

واعترف أحدهم بأنه أغرق وأطلق الرصاص علي ١٤ متسولاً.

أين تكون الجنة والنار؟

سألني أحد الناس سؤالاً مدهشاً ومثيراً بالنسبة لي. قال: هل تعرف أين تكون الجنة وأين تجمع أرواح البشر وأين توجد النار وعلاوة على ذلك فقد قال لي: هل تعتقد أن الجنة والنار في السماء أم في الأرض؟

التوقيع: السيد مهدي صالح الحسني

الجواب: إن علم الفلك الحديث، لا سيما علم الفلك اللاسلكي قد أثبت أن ما خلق الله من عوالم: من كواكب وشموس وأقمار ومجرات لا تعد ولا تحصى، وتأتينا اشارات لاسلكية من أنجم بعيدة عنا آلاف الملايين من السنين الضوئية، والسنة الضوئية، هي المسافة التي يقطعها الضوء بسرعته المدهشة: (٣٠٠,٠٠٠ كيلومتر في الثانية) خلال سنة واحدة، وتقدر بعشر مليون مليون كيلومتر. وكلما تكاملت آلات الرصد كلما عثرنا على أنجم وكرات وراء ما عثرنا عليه الآن، وإن هذه الأنجم والمجرات التي تستوعب ملايين ملايين من الأنجم تتباعد بعضها عن بعض بسرعة هائلة، أي بسرعة ١٥٠,٠٠٠ كيلومتر في الثانية في بعض الأحيان وتتسع السماء بسرعة مدهشة ولا يمكن لفلكي أن يحدد سعة السماء، وهو قوله تعالى: ﴿والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون﴾[1].

لا نتمكن من تعيين موقع الجنة أو موقع جهنم بالضبط لعدم تناهي الأبعاد. إلا أنا بعد أن ثبت لدينا نبوّة نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالمعاجز الكثيرة والبراهين الساطعة وبقرآن أنزل عليه، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، نصدق بكل ما جاء في الكتاب المنزل من جانب رب العالمين.

---

(١) سورة الذاريات: ٤٧.

فإن الجنة حسب هذه الآية المباركة كانت مخلوقة حيث هبط نبينا، آدم، أبو البشر عليه السلام.

على حد قوله تعالى:

﴿فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى، إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى، فوسوس اليه الشيطان، قال: يا آدم هل أدلّك على شجرة الخلد وملك لا يبلى، فأكلا منها، فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربّه فغوى، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى، قال اهبطا منها جميعاً، بعضكم لبعض عدوّ، فاما يأتينكم مني هدى، فمن اتبع هداي، فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكرى، فان له معيشة ضنكاً، ونحشره يوم القيامة أعمى، قال: رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً، قال: كذلك أتتك آياتنا فنسيتها، وكذلك اليوم تنسى﴾(1).

﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ (سورة البقرة: ٣٥).

فالجنّة مخلوقة وكذلك جهنم لهذه الرواية: يقول الصادق عليه السلام: «بينما كان رسول الله (ص) ذات يوم قاعداً إذ نزل جبرئيل كئيباً حزيناً، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: يا أخي جبرئيل، ما لي أراك كئيباً حزيناً؟ فقال: كيف لا أكون كذلك وقد وضعت منافيخ جهنم اليوم. فقال: وما منافيخ جهنم؟ قال: ان الله أمر بالنار، فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة، ظلمات بعضها فوق بعض، فلو أن حلقة من السلسلة التي طولها سبعون ذراعاً وضعت على الجبال لذابت من حرها. ولو أن قطرة من الزقوم والضريع قطرت في شراب أهل الدنيا لمات أهلها من نتنها، فبكى رسول الله (ص) وبكى جبرئيل (ع)، فأوصى الله اليهما قد أمنتكما أن تذنبا ذنباً تستحقان به النار. ولكن هكذا كونا».

---

(1) سورة طه: ١١٧ - ١٢٦.

لذلك كان ابراهيم عليه السلام يسمع منه أزيز كأزيز المرجل من خوف الله تعالى في صدره وكذلك نبينا نبي الرحمة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله.

ومما أسلفنا يُعلم أن الجنة والنار هما في السماء. على أن في باطن الأرض من المعادن المذابة في درجات عالية من الحرارة جداً ولكنها ليست بجهنم التي ينذر الله بها عباده، قائلاً: ﴿يا عبادِ، فاتقونِ﴾[1].

وأما اجتماع أرواح البشر ففي السماء ولعلها السماء الرابعة أو غيرها. وان المشتغلين في عوالم الأرواح وإحضار الأرواح يخبروننا ان الأرواح في احدى السماوات السبع من العالم الأثيري، تختلف كل سماء عن غيرها حسب درجة اهتزاز الأثيروطول الموجة، يُرجى مراجعة كتاب على حافة العالم الأثيري: والله العالم بحقائق الأمور. فـ(الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا).



(١) سورة الزمر: ١٦.

ماذا كان في الدنيا قبل خلق الأرض[1]؟

عندما انفصلت الأرض عن الشمس كانت قطعة ملتهبة في درجات عالية من الحرارة. ما كان يعيش عليها أي كائن حى حتى إذا بردت بأمر الله تعالى وأمطرت السماء بأمره تجمد سطحها لوجود معادن مذابة في باطنها في درجات فائقة من الحرارة، لذلك أمسى سطح الأرض منخفضاً في مكان ومرتفعاً في مكان آخر بجنبه، فالمرتفعات أصبحت جبالاً والمنخفضات بحاراً ملئت بمياه الأمطار الغزيرة. وقد وجد أول ما وجد الكائن الحي في الماء على ما ثبت في علم الاحياء ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾.

وهكذا تعددت الكائنات الحية من نبات وحيوان. وهبط على الأرض الانسان من الجنة. على حد قوله تعالى: ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[2].

أي شيء يبقى على وجه الأرض

عندما تقوم الساعة؟

أنه تعالى يخبرنا في قرآنه الحكيم:

﴿كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام﴾[3]

فيفنى كل ما على الأرض ولا تبقى أرضنا هذه. بل تتبدل إلى أرض أخرى. تتحول بادىء ذي بدء إلى طاقات هائلة، ثم هذه الطاقات تتحول بأمره تعالى إلى أرض أخرى وهكذا شأن السماوات، وهو قوله تعالى:

---

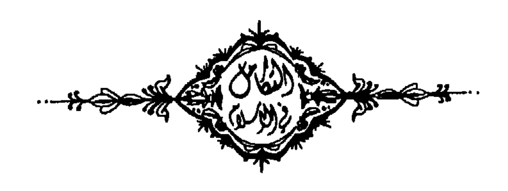
(١) السائل المحترم هو عبد القادر سليمان، تلعفر، محلة القلعة.

(٢) سورة البقرة: ٣٨.

(٣) سورة الرحمن: ٢٦، ٢٧.

﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات. وبرزوا لله الواحد القهار﴾(1)

ويعرض الناس إذ ذاك على الله للحساب: ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية. فأما من أوتي كتابه بيمينه، فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه. أني ظننت أني ملاقٍ حسابيه. فهو في عيشة راضية. في جنة عالية. قطوفها دانية. كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية. واما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه. ولم أدر ما حسابيه ياليتها كانت القاضية. ما أغنى عني ماليه. هلك عني سلطانيه. خذوه فغلوه...﴾(2).



(1) سورة ابراهيم (ع): ٤٨.

(2) سورة الحاقة: ١٨ ـ ٣٠.

الاعالة والزواج

س ١: هل صحيح هذا الرأي وهو رأي «مالتس»: ان الرجل يجب أن لا يقدم على الزواج إلا عندما يجد في نفسه المقدرة على إعالة أولاده ولماذا؟.

علي بن حسان الشويلي

بغداد بياع ٨٨ ـ ١٤

الجواب: إن الزواج أمر ضروري لشبابنا اليوم، لئلا يقعوا في المهاوي والمهالك وكبائر الذنوب والآثام: ذلك لأن المغريات في هذا العصر حتى في البلاد الاسلامية أضعاف ماكانت عليه في العصور الغابرة.

ففي الطريق والكتب والمجلات والجرائد والسينما والتلفزيون والراديو أنواع المغريات مما يجعل الشاب مضطرباً قلقاً إلى أبعد الحدود إلا من عَصم الله تعالى، إلا من كان مبتهلاً إلى الله جوف الليل وفي أطراف النهار، بتهجد وتبتل وتحميد وتسبيح، وهذا النوع من الشباب يكاد أن يكون معدوماً أو نادراً جداً في يومنا هذا.

وليس هناك شيء يورث الشكوك والريب ويبعد الانسان عن ساحة القدس الالهية ككبائر الذنوب ومن أخطرها الزنا واللواط. وهو قوله تعالى: ﴿ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾[١].

وفي آية أخرى: ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[٢] ولقد أنزلنا اليك

---

(١) سورة الروم: ١٠.

(٢) سورة الصف: ٥.

آيات بينات، وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾[1]. فمآل الفسق: الكفر والجحود. والكافر لا محالة في النار.

وفي الحديث: «أما والله لولا النساء لعبد الله حقاً حقاً».

وفي خبر آخر رواه الاصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: تظهر في آخر الزمان واقتراب الساعة ـ وهو شر الأزمنة ـ نسوة كاشفات عاريات متبرجات خارجات من الدين، داخلات في الفتن، مائلات إلى الشهوات، مسرعات إلى اللذات، مستحلات للمحرمات في جهنم داخلات خالدات».

لذلك شدد الدين الاسلامي النكير على مرتكبي الكبائر دفعاً لسوء العاقبة وهو الكفر. شدد النكير بأن جعل عقاب الزاني غير المحصن[2] ١٠٠ جلدة وعقاب الزاني المحصن الرجم وعقاب كل من اللائط والملوط: القتل أو الحرق أو الرجم[3] سواء كان كل منهما محصناً أو غير محصن.

وجعل جزاء شارب الخمر ثمانين جلدة. كل ذلك: حفظاً لحسن العاقبة وابتعاداً عن الكفر أو الشرك، وفي الحديث: شارب الخمر كعابد وثن.

فحري بالشاب إن أراد المحافظة على عقيدته ودينه أن يبكر في الزواج وأن يتوكل على الله المتعال في رزقه ورزق عياله.

انه تعالى يقول: ﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون، ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾[4].

ويقول جل من قائل: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون. فورب السماء والأرض أنه لحق، مثل ما أنكم تنطقون﴾[5].

---

(١) سورة البقرة: ٩٩.

(٢) المحصن هو المتزوج والمحصنة هي المتزوجة.

(٣) يراجع الجزء الثاني من كتاب التكامل في الاسلام ص: ١٢٦.

(٤) سورة الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨.

(٥) سورة الذاريات: ص ٢٢ ـ ٢٣.

فليتوكل الشاب على الله تعالى وليثق بوعده ويبكر في الزواج كي يستريح من ويلات هذا العصر المدلهم ويرى أنوار الايمان الناصعة كيف تشرق في نفسه، فيلتذ بهذا الاتصال الروحي: بالمبدأ الأعلى والعروج إلى معالم القدس. حيث الغاية القصوى من وجودنا في هذه الحياة الدنيوية المؤقتة، حياة الاختبار والتهيؤ لآخرة سعيدة لجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

انه تعالى يقول: ﴿وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم، ان يكونوا فقراء يغنِهم الله من فضله والله واسع عليم﴾.

فالله أمر الناس بالزواج ووعدهم بالغنى ورفع الفاقة عنهم «ومن أصدق من الله قيلاً». فليعتمد الشاب على قوله تعالى ووعده الذي لا خلاف فيه، وليتزوج بطريق اقتصادي، دونما تكلف من ناحيتي الزوج والزوجة.

وكم سمعنا من أناس أتيحت لهم الفرص لزواج مبكر ولكنهم رفضوا وأغواهم الشيطان وأغراهم بطول الأمل فولجوا في حضيض الشهوات ومزالق الفسق. فتدنست نفوسهم وضعفت نتيجة ذلك عقائدهم. واعترتهم الشكوك من حيث لا يحتسبون. فصاروا ينكرون بعض ضروريات الدين ويستهزئون ببعض المقدسات. ﴿ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾.

ثم أنه تعالى يقول: ﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً. حتى يغنيهم الله من فضله﴾[1] فعلى الشاب أن يأخذ التعفف والعفاف شعاراً ويسأل الله أن يمن عليه بمال يتمكن معه من الزواج.

وقد قال جل من قائل: ﴿أدعوني استجب لكم﴾ فكم من أعمال عبادية: من صلاة وذكر تؤدي إلى استجابة الدعاء»[2].

وإن الشاب الذي لم يرتكب الذنوب أقرب إلى الله من غيره. فيستجيب الله دعاءه عاجلاً بمنه ولطفه.

---

(١) سورة النور: آية ٣٣.

(٢) ذكرنا البعض منها في نهاية الجزء الخامس من كتاب التكامل في الاسلام.

وكم يشعر العبد بفرح لا مزيد عليه عندما يرى لطف الله يشمله ويستجيب الله دعاءه ويقضي حاجته نتيجة بعض الأعمال العبادية البسيطة. فهو فرح بأنه تعالى جعله موضع عنايته ولطفه وكرمه.

وقد يؤخر الله استجابة دعاء العبد لمصلحة هناك، خفيت علينا. فعلى العبد أن يزداد خشوعاً وتوسلاً. فالله أراد أن يقربه اليه اكثر فأكثر وعليه أن لا ييأس من روح الله ورحمته ويلح في الدعاء. فان الله يحب الملحين في المسألة والدعاء. والله تعالى يستجيب دعاءه ويمن عليه بزوجة صالحة بعد تهيئة أسباب الزواج بلطفه وكرمه.

وكم سمعنا ورأينا معاجز في استجابة الدعاء وتهيئة الله تعالى العوامل التي بها تقضى الحاجات. فنعم العبد عبد دعا الله فاستجاب دعاءه وقضى بمنه حاجته.

وفي النبوي: «النكاح سنتي، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

وفي النبوي أيضاً: «ما بُنِيَ بناء أحب إلى الله تعالى من التزويج».

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من تزوج أحرز نصف دينه. فليتق الله في النصف الآخر».

وفي حديث آخر: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج. فأنه أغض للبصر وأحصن للفرج. ومن لم يستطع فعليه بالصوم فأنه له وجاء».

معنى الباءة هنا مؤنة النكاح ومعنى أحصن للفرج أي اشد منعاً للشاب من الوقوع في الفاحشة.

وتسمية الصوم في الحديث (وجاءاً) من باب الاستعارة لعلاقة المشابهة. لأن الصوم لما كان مؤثراً في ضعف شهوة النكاح شبه بالوجاء.

وفي بعض الأخبار أن النكاح موجب لمزيد الرزق.

ففي خبر اسحق بن عمار. قلت لأبي عبد الله عليه السلام، الحديث الذي يرويه الناس حق؟ أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فشكا

إليه الحاجة. فأمره بالتزويج حتى أمره ثلاث مرات. قال أبو عبد الله (ع): نعم هو حق. ثم قال (ع): الرزق مع النساء والعيال.

* * *

إن الانسان إنما خلق لآخرة سعيدة إن كان من الصالحين. فليعمل للبلوغ إلى سعادة الآخرة وما قيمة عمر قضي في الشهوات والملاذ غير المشروعة إذا كانت العاقبة الخلود في نار: سجرها ربها لغضبه.

وقد قال علي عليه السلام: «ماذا يصنع بالدنيا من خلق للآخرة». وقال: «إنما الدنيا دار مجاز والآخرة دار قرار فخذوا من ممركم لمقركم». وقال: «أخرجوا من الدنيا قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم. ففيها اختبرتم ولغيرها خلقتم».

لشاب أن يقول من أين أءتي بالمال للزواج فالشاب لو كان مخلصاً في نيته ومتوجهاً بكله إلى الحق المتعال يعرض قضية زواجه إلى بعض الاخيار والصلحاء فالله يهيىء له الوسائل حتماً.

وإن بيت مال المسلمين كان يعمل في تزويج العزاب فيما مضى. ويا حبذا لو تشكلت جمعية من خيار التجار وجعلوا مهمتهم تزويج العزاب وتهيئة عمل لهم فقد سمعت أن أحد خيار التجار كان قد تصدى إلى تزويج ٧٠ علوياً. وكان ممن حسنت عاقبته وذهب إلى روح وريحان قرير العين.

وقد يخشى الشاب من كثرة الأولاد والبنات وصعوبة تربيتهم وإعاشتهم. وله أن يمنع الولادة بطريق مشروع وأن يعزل برضاء زوجته. وان يحدد عدد الأولاد والبنات.

على أن الله تبارك وتعالى ما خلق خلقاً إلا وقد هيأ له رزقه ووسائل حياته قبل خلقه وبهذا المضمون أحاديث كثيرة.

وفي القرآن كما ذكرنا: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والأرض أنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾[١] فلا ينبغي أن يخشى الإنسان من

---

(١) سورة الذاريات: ٢٢ ـ ٢٣.

كثرة الأولاد والبنات فالله رازقهم وإذا تعسر الرزق أحياناً فلمصلحة واختبار وامتحان ومزيد أجر وتكفير للذنوب، وما على العبد إلا أن يتضرع إلى الله تعالى ويسعى السعي الحثيث لطلب الرزق، فهو الجهاد كما جاء في منطوق بعض الأحاديث.

قال رسول الله (ص): «تناكحوا تناسلوا فأني اباهي بكم الأمم يوم القيامة ولو بالسقط» وإن لكثرة النفوس أثرها المرموق في بسط نفوذ الاسلام في العالم.

قال الصادق عليه السلام: ركعتان يصليهما المتزوج أفضل من سبعين ركعة يصليها العزب.

قال رسول الله (ص): رذال موتاكم العزاب.

وقال أيضاً: «لم يرسلني الله بالرهبانية وإنما بعثني بالحنيفية السمحة أصوم وأصلي وألمس أهلي، فمن أحب فطرتي فليستن بسنتي ومن سنتي النكاح».

قال رسول الله (ص): من ترك التزويج مخافة العيلة فقد ساء ظنه بالله عز وجل ان الله عز وجل يقول: ﴿أن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله﴾.

وقال (ص): «تزوجوا للرزق، فان فيهن البركة».

وقال (ص): «من عمل في تزويج بين مؤمنين حتى يجمع بينهما زوجه الله ألف امرأة من حور العين».

وقال الصادق (ع): «إذا تزوج الرجل الامرأة لجمالها أو لمالها وكل إلى ذلك. وإذا تزوجها لدينها رزقه الله المال والجمال».

ويستحب عند إرادة التزويج (قبل تعيين المرأة وخطبتها) صلاة ركعتين والدعاء بعدهما بالمأثور، وهو «أللهم أني أريد أن أتزوج، فقدر لي من النساء أعفهن فرجاً واحفظهن لي في نفسها ومالي وأوسعهن رزقاً وأعظمهن بركة وقدر لي ولداً طيباً تجعله خلفاً صالحاً في حياتي وبعد موتي».

وسدَّ الدين الاسلامي طرق تفريغ الشهوة بأشكال غير مشروعة على

الانسان تعمياً للزواج ولئلا تبقى نساء غير متزوجات فيؤدي ذلك إلى فساد في الأرض ﴿والله لا يحب الفساد﴾.

فمن وطأ بهيمة عزر وإن عاد يقتل في المرة الرابعة والبهيمة إن كانت مأكولة اللحم حرم لحمها ولحم نسلها بعد الوطء بل تذبح وتحرق ويغرم الواطيء قيمتها لصاحبها وان لم تكن صالحة للأكل كالخيل وغيره بيعت في بلد آخر ويتصدق بثمنها والغرامة على الواطيء أيضاً.

وحد المساحقة هو حد الزنا لكل من الفاعلة والمفعولة أي مائة جلدة، وتقتلان في المرة الرابعة، وإن كانتا محصنتين «متزوجتين» فتقتلان في المرة الأولى.

والذي يقوم بالقيادة أي يجمع بين فاعلي الفاحشة كاللواط أو الزنا أو المساحقة يضرب خمساً وسبعين جلدة ويحلق رأسه ويشهر في البلد وينفى عنه إلى غيره من الأمصار ويعزر المستمني من ذكر وأنثى حسب نظر الامام أو نائبه.

ونكرر حد شارب الخمر مزيداً للفائدة. فمن شرب خمراً أو فقاعاً أو عصيراً[1] قبل ذهاب ثلثيه أو نحوها من أنواع المسكرات القديمة منها والحديثة، عالماً عامداً بالغاً: يضرب ثمانين جلدة عارياً على كتفه وظهره دون وجهه ومذاكيره ضرباً مؤلماً. ولو عاد إليه يقتل في المرة الرابعة ولو شربها مستحلاً فهو مرتد يجب قتله. وبايع المسكرات يستتاب فان تاب فهو، وإلا يقتل.

هذه هي سنن الله القويمة، الصالحة في الأرض تقلع بها جذور الفساد لو طبقت، وتصلح بها النفوس وتتوجه بكلها إلى بارئها فتأخذ في دورها التكاملي، لتفوز بسعادة النشأتين.

وهذا الفوز هو فلسفة الوجود والحياة، فلسفة يقرها العقل والمنطق الصحيح. لو بقي العقل على صفائه ولم يتلوث بالذنوب والآثام.

---

(١) عصير العنب.

﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون﴾[1].

﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون، أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون. واما الذين فسقوا فمأواهم النار، كلما أرادوا أن يخرجوا منها اعيدوا فيها، وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾[2].



(١) سورة القلم: ٣٥ ـ ٣٦.
(٢) ألم سجدة: ١٨ ـ ٢٠.

حركة الشمس

السؤال الأول: ما تفسير هذه الآية[١]:

﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾.

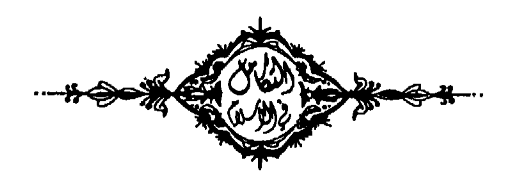
الجواب: إن هذه الآية من الآيات التي تبرهن على إعجاز القرآن، فقد نزلت في وقت لم يكن علم الفلك إلا كألف باء بالنسبة إلى ما بلغ اليه علم الفلك في الوقت الحاضر، نزلت في وقت كان يقول فيه علماء اليونان: أن الأرض مركز العالم وكل الكواكب والأنجم تدور حولها. حتى إذا كان القرن السادس عشر الميلادي وجاء الفلكيان كوبرنيك وكبلر وجاء غاليله بمرقبه وتقدمت الرياضيات العالية والميكانيك الأرضي والسماوي، ثبت لدى الفلكيين أن الأرض تدور حول الشمس على شكل اهليليجي وان لا حركة للشمس وأن الكواكب تدور حولها، على شكل منحنٍ معادلته:

$$\frac{س^{٢}}{ب^{٢}} + \frac{ص^{٢}}{حـ^{٢}} = ١$$

حتى كان القرن العشرون الميلادي وتقدمت الرياضيات العالية بما فيها الميكانيك السماوي، وصنعت مراقبTelescopes كبيرة جداً وعلم أن للشمس حركة خاصة بها، وهي تسير بسرعة ٢٠ كيلومتراً تقريباً في الثانية أي بسرعة (٧٠٠٠٠) كيلومتر على وجه التقريب في الساعة على شكل لولبي سائرة نحو نجمة تسمى بـ(النسر الواقع)، تُرى ثابتة لبعدها السحيق. وهي تستقر بعد

(١) السائل المحترم هو: مهدي نجل المرحوم الشيخ صالح الأسدي ـ جلولاء.

قطع هذه المراحل حيث شاء الله تعالى وأغلب الظن أن هذا الاستقرار سيكون قبل يوم القيامة، ﴿يوم تُبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبـرزوا لله الواحد القهار﴾.



أوقات الصلاة

السؤال الثاني: نرجو شرح أوقات الصلوات الخمس، الظهر ٤ ركعات، العصر ٤ ركعات، المغرب ٣ ركعات، العشاء ٤ ركعات، الصبح ٢ (ركعتان) ولماذا قسمت بهذا التقسيم؟ وهل هذا التقسيم يدل على شيء أراد الله سبحانه وتعالى إثباته للبشر؟.

جَ: عزيزي السائل حفظه الله، ما من حكم من أحكام الله تعالى في الشريعة الاسلامية إلا وله حكمة وفوائد جمة قد يجلو لنا البعض منها ويخفى عنا الكثير منها. فالله تعالى إنما جعل عدد ركعات الظهر ٤، لأن الانسان له من النشاط قبيل الظهر ما يجعله أن يؤديها، على أن أداء ٤ ركعات لا يستغرق شيئاً من الوقت ولا يتعب هذا الانسان، ثم أنه تعالى يريد بالانسان أن يذكره بين فترة وفترة، لئلا يتغلب عليه الشيطان. ولئلا تتراكم عليه ذنوبه. فالله يريد بعبده أن يذكره في وسط النهار حيث تتراكم الأشغال كي لا تتغلب عليه دنياه فتبعده عن ساحة القدس. ولذلك يقول جل من قائل:

﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾.

وقد فسرت: الصلاة الوسطى، بصلاة الظهر. وأما صلاة العصر فللانسان نشاطه بعد شيء من الراحة، فيؤدي ٤ ركعات حتى أن نوافل الظهر ٨ ركعات جُعلت قبل أداء صلاة الظهر، وكذلك نوافل صلاة العصر ٨ ركعات قبل صلاة العصر. ذلك لأن الانسان في ضوء النهار له من النشاط ما يمكنه من أداء النوافل.

وأما صلاة المغرب، فقد جعلها الله تعالى ٣ ركعات كحد وسط بين تعب النهار وراحة الليل. ثم بعد شيء من الراحة تأتي صلاة العشاء: ٤ ركعات وقد جعلت صلاة الصبح ركعتين، لأن الانسان يشعر بشيء من الكسل عند نهوضه من النوم صباحاً.

أما الأوقات: فوقت الظهرين من الزوال إلى الغروب وتختص الظهر من أوله بمقدار أدائها بحسب حاله والعصر من آخره كذلك.

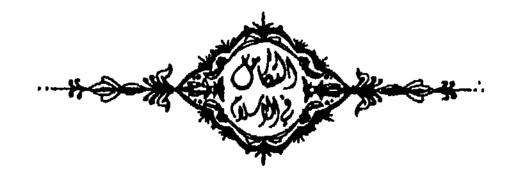
ولكن وقت فضيلة الظهر من الزوال إلى بلوغ الظل الحادث بعد الانعدام أو الانتهاء مثل الشاخص. ووقت فضيلة العصر من المثل إلى المثلين على المشهور. والأحوط في إحراز الفضيلة تأخير العصر إلى القدمين أي سبعي الشاخص.

ووقت العشائين (صلاة المغرب والعشاء) من الغروب إلى نصف الليل وتختص المغرب من أوله بمقدار أدائها والعشاء من آخره كذلك مع الاختيار أما للمضطر لنوم أو نسيان أو حيض أو نحو ذلك فيمتد وقتهما إلى طلوع الفجر وتختص العشاء من آخره بمقدار أدائها. (يرجى مراجعة المجتهد المقلّد في ذلك).

ووقت فضيلة المغرب من الغروب إلى ذهاب الحمرة المغربية، ووقت فضيلة العشاء من ذهاب الشفق إلى ثلث الليل.

ووقت صلاة الصبح ما بين طلوع الفجر الصادق إلى طلوع الشمس.

ووقت فضيلة صلاة الصبح من طلوع الفجر الصادق إلى ظهور الحمرة المشرقية على المشهور.



المتعة

السؤال الثالث: إن المتعة في حكم القرآن حلال مما يدل عليه الآية: ﴿فما استمتعتم به منهن فآتوهنَّ أجورهن﴾. نرجو شرح الآية مع العلم أن بعض المذاهب الاسلامية تحرم المتعة. نرجو الدليل على ذلك وعلى تحليلها؟.

الجواب: إن الآية المذكورة على ما جاء في مسند ابن حنبل - امام الحنابلة - نزلت في متعة النساء:

إلا أن عمر قد حرم المتعة بقوله: «متعتان كانتا على عهد رسول الله (ص) وعلى عهد أبي بكر (رض) وأنا أنهى عنهما».

مع العلم أن حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة.

وقد روى الجاحظ والقرطبي والفخر الرازي وغيرهم من أعلام السنة أن عمر قال في خطبته: «متعتان كانتا على عهد رسول الله (ص) وأنا أنهي عنهما وأعاقب عليهما: متعة الحج ومتعة النساء».

وإنما شرعت متعة النساء لئلا يقع الشاب في مزالق الزنا ومهابط الفجور. فان الفسق مؤدٍّ إلى ذهاب الايمان. وهو القائل:

﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾(١).

إن الاسلام دين الواقع، يعالج المشاكل الاجتماعية معالجة جذرية فيها من التقوى والطهارة ما لا يدع مجالاً لتلوث النفس الانسانية.

فقد يسافر الشاب إلى بلاد نائية وليس معه زوجته أو هو أعزب، ولا يقوى على كبح شهوته. فيفتش عن زوجة يتزوجها بزواج موقت. لا يختلف

---

(١) سورة البقرة: ٩٩.

عن الزواج الدائم إلا بتحديد الوقت وانقضاء مدة الزواج بانقضاء الوقت المؤجل. ولا توارث بين الزوج والزوجة إلا بشرط ضمن العقد (على قول) وأما صيغة العقد الشرعي: فتقول المرأة (بعد تعيين المهر والأجل) للرجل: «متعتك نفسي على المهر المعلوم في المدة المعلومة» أو تقول: زوجتك نفسي على المهر المعلوم في المدة المعلومة، أو تقول انكحتك نفسي على المهر المعلوم في المدة المعلومة. ويقول القابل وهو الرجل (للزوجة):

قبلت المتعة... أو

قبلت التزويج... أو

قبلت النكاح...

ويتم كل شيء ويخرج الشاب من دنس الحرام إلى طهارة الحلال[1]. ولا تبين الزوجة المتمتع بها بالطلاق حيث لا طلاق لها وإنما تبين بانقضاء مدتها أو أن يهب الرجل باقي المدة لها. فان لم يدخل بها فليس لها عدة وإن كان قد دخل بها فان كانت غير بالغة أو كانت يائسة فلا عدة عليها وإلا فعليها العدة وهي حيضتان وإن كانت لا تحيض وهي في سن من تحيض فعدتها خمسة وأربعون يوماً. وأما إذا كانت حاملاً فعدتها إلى أن تضع حملها على أشكال والأحوط مراعاة أبعد الأجلين من وضع الحمل ومن انقضاء خمسة وأربعين يوماً أو الحيضتين. وإن عدتها لوفاة زوجها فهي كالزوجة الدائمة أربعة أشهر وعشرة أيام إذا لم تكن حاملاً، وإن كانت حاملاً فبأبعد الأجلين.

---

(١) فان لم تتمكن الزوجة المتمتع بها من إجراء الصيغة باللغة العربية مع القصد وفهم المعنى فحسب رأي بعض المجتهدين لها أن تجري الصيغة بلغة أخرى أو بلغتها، كالفارسية أو الانكليزية أو الفرنسية مع القصد. وللرجل أن يقبل بلغة تفهمها المرأة المزمع زواجها بزواج موقت أو دائم فلا بد من القصد وفهم المعنى. وفي كل هذه المسائل يراجع المجتهد المقلد لأنها خلافية.

العلق في قوله تعالى
﴿خلق الانسان من علق﴾ . . . الخ[1]

جاء في كتب اللغة، ان العلق: دويبة سوداء تمتص الدم. وقد ثبت في عام ١٧٦٨ م: أن في المنيّ حوينات تشبه العلق. ولم تعرف قبل هذا العام الحيوانات المنوية بأنها خلايا متحركة بشرية. وهذه الخلايا تشبه العلق في حركتها المنوية بأنها خلايا متحركة بشرية. وهذه الخلايا تشبه العلق في حركتها ولها رأس مفرطح وعنق قصير وذيل طويل. وتتحرك بلولبية ذيلها. وقد قرر العلم أن الله قد أمد هذه الخلايا بقوة-من المقاومة تستطيع بها حفظ النوع البشري، إذ أنها في الأجواء غير الملائمة تستكن الحياة فيها وتفقد مظاهر نشاطها، فإذا ما وجدت الوسط المناسب عادت لها حيويتها ونشاطها وتستمر في حياتها لعدة أيام متوالية في انتظار البويضة التي يفرزها مبيض الأنثى، وهو جهاز التناسل فيها، ليؤدي إخصابها، ويتم كل ذلك بالهام من الله تعالى. إذ لا دخل لأية قوة كائنة ما كانت، كيمياوية أو حيوية في توجيه الحيوان المنوي (أي العلق) إلى بويضة الأنثى.

يجتمع المني في محل معين فتصطدم الحيوانات المنوية بعضها ببعض، وبعد أن تتم عملية اللقاح في الرحم تتبدل النطفة إلى علقة.

ويتكون من العلق الغضروف، فيكسو الغضروف اللحم والأعصاب والعروق ويتكون الجنين بعد ذلك بصورة تدريجية. وهو قوله تعالى:

﴿ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة، فجعلنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا العظام لحماً، ثم أنشأناه خلقاً آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين﴾.

---

(١) السائل المحترم هو: أكرم موسى جعفر ـ طوزخورماتو.

هل الأكثرية في النار[1]؟

جاء في كتابكم: أن أكثر نفوس العالم غير مسلمين، فهل هذه الأكثرية في النار؟.

عزيزي، إن الله رؤوف بعباده رأفة لا تقاس بها أية رأفة. وقد جعل لهذا الانسان عقلاً وجعل هذا العقل نبياً باطنياً لمن لم تبلغه الرسالة. وقد قال إمامنا موسى بن جعفر عليه السلام:

«إن لله على الناس حجتين: حجة ظاهرة وحجة باطنة، فأما الظاهرة فالأنبياء والرسل والأئمة وأما الباطنة فالعقول».

فمن كان مثلاً في الاسكا ولم تبلغه رسالة الاسلام، فهو مسؤول تجاه الحجة الباطنة أي تجاه عقله وقد ألهم الله تعالى البشر أصول الخير والشر قبل بعث الرسل. بقوله جل من قائل: ﴿ونفس وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها﴾. وبقوله: ﴿وهديناه النجدين﴾: أي عرفنا الانسان طريق الخير وطريق الشر.

وقد غرس الله تعالى أساس التوحيد في العقل الانساني في عالم الذرّ: في عالم الأرواح قبل حلول الروح في الجسد الانساني: بقوله عز من قائل:

﴿وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى، شهدنا، أن تقولوا: إنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا: إنما أشرك آباؤنا من قبل، وكنا ذرية من بعدهم، أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾.

فكل من يولد يعترف بحكم الفطرة، بعد سنين، بوحدانية الله تعالى.

---

(١) جواب على سؤال..

وهو، بالفطرة، (إن لم تبلغه رسالة الأنبياء أو رسالة الاسلام منذ ١٤ قرناً) يجتنب المحرمات الرئيسية ويقوم بالفطرة بالأعمال الخيرية: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ فيتقرب إلى الله المتعال ويكون مصيره الجنة.

وهو القائل: ﴿ولله على الناس الحجة البالغة﴾. ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾. ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾. ﴿ووسعت رحمته كل شيء﴾.

ولا يخلد في النار إلا من بلغ الدرجة القصوى من الظلم ولم يتب ومن خالف الفطرة وأشرك بالله، ولا يكون الفرد، لا سمح الله، مشركاً إلا إذا أمسى جرثومة فساد وإفساد، لا يصدر منه إلا الشر، ولا يفكر إلا في الشر لكثرة ذنوبه وآثامه السابقة التي ارتكبها مخالفاً للفطرة، وضارباً بايعازات الفطرة وأجراسها وتنبيهاتها عرض الجدار، وهو القائل: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾.

وقد فتح الله باب التوبة لعباده وما أوسعه! وللمذنب أن يتوب قبل موته بساعات. وفي الحديث: «التائب عن الذنب كمن لا ذنب له» وقال تعالى: ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، ان الله يغفر الذنوب جميعاً﴾.

وقد أخبرنا الله تعالى بما نراه اليوم وحتى في الغد أن الأكثرية من الناس غير مؤمنين وذلك بقوله جل من قائل: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾. وبقوله: ﴿وإن تطع اكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾. وقد نعت المسلمين بالقلة والكافرين بالكثرة بقوله: ﴿وقليل ما هم﴾. و﴿قليل من عبادي الشكور﴾. وبقوله: ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾. وهذا لا يتنافى مع نجاة المعذَّبين في النار وشملهم رحمة الله ودخولهم بعد العذاب والتطهير: جنات عدن، بفضل الله رحمته وجزيل رفده.

﴿هذا خلق الله، فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾[1].

---

(١) سورة لقمان: ١١.

الدماغ!

جاء في مجلة ا(الأسبوع العربي) عدد ٤٤٦ سنة ١٩٦٧ على الرغم من تشعب أبحاث الدماغ وتعدد مراكز العلماء المتخصصين في هذا الموضوع فان المعلومات المتوفرة عن الدماغ تكـــاد لاتزيد كثيراً عن المعلومات الكلاسيكية المعروفة.

نعرف اليوم مثلاً، ان الدماغ الذي يزن أقل من اثنين بالمائة من الجسم، يحتاج إلى ٢٠ بالمئة من الدم الذي يضخه القلب و ٢٥٪ من الاكسجين الذي يجمعه الدم. وللدماغ نظام معقد للتغذية والحماية، وهو مؤلف من حوالي عشرة آلاف خلية عصبية وحوالي مائة مليـار خلية «غليـولي» وسواهـا من الخلايا. وهو أشبه بآلة بيو-كهربائية هائلة تنتج وتستهلك تياراً يقدر ببضعة جزيئات من واحد على ألف من الفولت لكل خلية، كما نعرف جيداً تشريحه وتركيبه الكيميائي، لكنا لا نعرف تماماً وظائفه ونعرف بدرجة أقل أمراضه وطرق معالجتها.

* * *

لكن الدماغ بالنسبة للعلم لا يزال تلك «العلبة السوداء» المقفلة التي لا يعرف محتواها. توصل العلم اليوم إلى تحديد مراكز الخيوط الدمـاغية التي تتحكم بالحركة والشعور. لكن العالم البريطاني-غراي ولتر-أثبت أنه من المستحيل إعادة بناء الدماغ الانساني بواسطة المعلومات التكتيكية الحالية.

ولو أراد الانسان « خلق » د ماغ بشري لاحتاج الى حجم هائل وتكاليف باهظة خيالية. فهو يحتاج مثلاً الى ٢٧ ميلمتراً مكعباً للخلية الواحدة. أي حوالي نصف مليون متر مكعب لاستيعاب عشرة مليارات خلية.

وحاول والتر حساب تكاليف إنشاء مثل هذا الدماغ بالجنيه الاسترليني

(قبل تخفيض سعره). وتبين له أن سعر الخلية، إذا لم يزد على شلن واحد، فإن مجموع ثمن الخلايا يقدر بحوالي نصف مليار جنيه إسترليني (بالسعر القديم). أما تكاليف إنتاج الياف الاعصاب الدماغية فقد بلغت رقماً خيالياً هو واحد والى يمينه ١٨ صفراً. ومثل هذا الدماغ البشري الاصطناعي سيحتاج الى مليون كيلوات من الكهرباء لتسييره بينما لايحتاج الدماغ البشري العادي الى أكثر من ٢٥ وات فقط! وعلى هذا فإن نفقات إنشاء وإستهلاك الدماغ الاصطناعي كفيلة بإبتلاع ميزانيات كل دول العالم في سنة واحدة، وهو فضلاً عن ذلك لن يكون أكثر من دماغ بدائي ناقص.

ويجهل العلماء تماماً اليوم ثلثي وظائف الدماغ. والثلث الباقي يحيط به الكثير من الشكوك، منذ تعداد شخصيات أبيقراط الأربع (الانفعالي، البارد، السوداوي، اللمفاوي)، مروراً بإكتشافات بافلوف الى تجارب برغر حول النشاط الكهربائي للدماغ. ومنذ أبيقراط والى يومنا الحاضر، تعتبر المسافة التي قطعها العلم نحو إكتشاف الدماغ قصيرة جداً. وطرق تدخل العلم وتأثيره على الدماغ لاتزال محدودة وهي تقتصر على العامل السلبي أي منع الدماغ من العمل أو شل فعاليته. لكن الناحية الايجابية، لايزال العلم يقف أمامها حائراً. ونعرف مثلاً المراكز الدماغية التي تتحكم بالحركة والنطق، لكن تاريخ الطب مليء بالاستثناءات، ومنها حالة مريض استمر في القيام بوظيفة معينة رغم تدمير المركز الدماغي الذي يوجه تلك الوظيفة.

غراي والتر يؤكد أن الدماغ لايخضع للقوانين الحسابية التي يصعب تطبيقها على هذا الاوقيانوس الضخم من الخلايا العصبية. ولعل هذه هي الصعوبة الاساسية التي تواجه علم الالكترون الذي يأمل العلماء عن طريقه الوصول الى حقيقة الدماغ، بتقريب التشابه بين خطوط الأدمغة الالكترونية وخطوط الأدمغة الانسانية، إذا أمكن تحقيق التشابه في مجالات النشاط العادي كالمشي والركض. إلا أن ترجمة الخيال الخلاق بخطوط على الورق لاتزال ضرباً من الخيال إذ ما من عالم على استعداد لتناسي هذه الحقيقة الجوهرية الفارق بين الخلية الحية والتيار الكهربائي.

منذ قرن تقريباً، أي منذ أن أدخل ريتشارد كاتون في ليفربول لأول مرة

قطباً كهربائياً في دماغ فأر، والعلماء يستعملون تسجيل الموجات الدماغية على انها النظام الأكثر دقة لأكتشاف مجاهل الدماغ.

ويتناسى العلماء أحياناً انهم نقلوا مبدأ الآلات الحاسبة الالكترونية عن الدماغ الانساني، فيشبهون الدماغ نفسه بعقل الكتروني ضخم أقوى بعشرة آلاف مرة عن أي دماغ الكتروني بنوه حتى الآن، بوسعه تخزين أكثر من مليون مليار من المعلومات التي يتلقاها الانسان طوال سني عمره.

لكن هذا التشبيه في غير محله، ففي الحلم أو نوبات داء النقطة ومناسبات أخرى غيرها، نرى الموجات الدماغية واضحة للقراءة وإن تبدل خط سيرها. بل إن العلم يعرف اليوم الأوزان الدماغية: الفا، بيتاً، دلتا.. التي يمكن تغييرها بواسطة إثارة مفاجئة أو شعور عنيف.

وقبل ٣٠ سنة، أي في أيام برجيه، كان يأمل العلماء بكشف ميكانيكية عمل الدماغ نهائياً، لكنهم أدركوا اليوم أن الوصول الى مثل هذه النتيجة مستحيل، عن هذه الطريق على الأقل.

ويعتبر غراي والتر من جامعة بريستول الاميركية، من أشهر منقبي الدماغ الأحياء. فالى أين وصل في أبحاثه؟

لقد وصل الى هذه النتيجة: إن دراسة الموجات الدماغية، وحدها لا تفيد، ولا يمكن الاستفادة منها إلا بربطها بسائر الدراسات عن الدماغ. إذن؟ النتيجة واضحة: العمل الالكتروني حسن، لكن على الباحث الالكتروني عدم التخلي عن البيولوجيا. وأكثر الخيبات أتته من خلال حالات الاختلال العقلي، ودراسة الاحلام.

وفي مؤسسة مونريال العصبية توقف وايلدر بنفيلد عن العمل منذ وقت طويل، ويعود تاريخ آخر اكتشافاته الى ٣٠ سنة خلت. لكن لم يستطع أي عالم، منذ ذلك التاريخ، إكمال الشوط الذي بدأه وسار فيه بنفيلد.

كان هذا العالم الكندي يعالج داء النقطة بطريقة جريئة: كان يفتح القفص الدماغي، ويصدم الدماغ بشحنات كهربائية متقطعة. وكان المريض

يحتفظ بكامل وعيه لأن العملية غير مؤلمة. وذات يوم، وبينما كان القطب الكهربائي يقوم بعمله في الجهة المقابلة للصدغ من دماغ امرأة شابة، إذ بها تسأل فجأة: هل وضع أحد ما موسيقى في الصالة؟

وكانت المعزوفة التي تخيلت المرأة إنها تسمعها في الصالة، معزوفة شهيرة قبل ذلك بعشر سنوات. وكانت المرأة تعاود سماع النغم نفسه كلما كان القطب يمس النقطة ذاتها من الدماغ.

أعاد بنفيلد التجربة مراراً وخرج بنتائج مثيرة. كان المرضى يتذكرون فجأة أحداثاً وذكريات قديمة العهد. ومرة تذكر أحد المرضى حدثاً وقع له أثناء طفولته. وآخر كان يسمع صوت أمه وكأنها تناديه من مكان قريب.. كما لو أن تلك الأصوات التي كانت مدفونة لثوان خلت في خلايا الدماغ، قد عادت اليها الحياة بواسطة الصدمات الكهربائية. فهل تعنى هذه النتائج إن الذاكرة متمركزة في القسم الصدغي من الدماغ؟ هل يمكن إثارتها بواسطة الاقطاب الكهربائية؟ وهل تقيم الذكريات القديمة في تلافيف الدماغ، وفي مكان أعمق من الذكريات الحديثة العهد؟ ولماذا تعود الذكريات؟

شريط لا نهاية له...

يؤكد بنفيلد ان كل ما يلتقطه الدماغ، يختزن فيه طوال العمر، وكأنه شريط سينمائي لانهاية له. وتوقف بنفيلد عند هذه النقطة، ولم يعقبه أحد لأكمال تجاربه ونظرياته.

وخطا بعض العلماء خطوة صغيرة الى الامام عندما توصلوا الى إثبات الحقيقة التالية، وهي أن وقوع حدث ما يقترن بتيار كهربائي في الدماغ، ويتوزع الحدث الواحد على أماكن متعددة في الدماغ الانساني. والجانب الصدغي من الدماغ مخصص لحفظ «تيار الذكريات» الى الوقت الذي توضع فيه نهائياً في خزان الذكريات (أو إلى أن تزول اذا كان استنتاج بنفيلد خطأ).

لكن النظرية الأكثر انتشاراً اليوم لتفسير الذاكرة (التي أصبحت الحدود الجديدة لعلم الدماغ) هي النظرية البيوكيميائية. وقد انتشرت هذه النظرية

الى الحد الذي يسمح بقبولها كحقيقة واقعة، لكن الاثبات الذي لايقبل الجدل لايزال بعيداً.

تقول هذه النظرية إن الذاكرة تتركز في مادة أسيد (حامض) الخلايا الدماغية. نشأ هذا الاعتقاد بعد أن تبين أن زيادة أسيد الخلايا يجعل الذاكرة تزداد قوة. وقد أخذ العلماء هذا الأسيد من دماغ فأر حسن التدريب وإضافة الى دماغ فأر معدوم الخبرة. وكانت النتيجة الى الفأر الثاني إكتسب جميع خبرات الفأر الأول.

كما قام عالم آخر هو ماك دونيل بتجربة غدت شهيرة: قدم دونيل جثث ديدان مدربة، طعاماً لديدان غير مدربة، وكانت النتيجة أن الديدان المفترسة إكتسبت جزئياً تجارب الديدان الضحية.

فهل يعني هذا أن للذاكرة أساساً كيميائياً أم كهربائياً؟

أحد أكبر خصوم النظرية البيوكيمائية لتفسير الذاكرة، وهو العالم لدربرغ الحائز على جائزة نوبل للبيوكيمياء والمتخصص في الدماغ الانساني والالكتروني، يقر ويعترف بأن الاثباتات المقدمة للأصول الكيميائية للذاكرة هي إثباتات مقنعة، لكنه يستدرك قائلا إن استمرار الابحاث على هذه الطريق يعتبر خطأ، ويقول: «هناك علماء كثيرون على استعداد للتخصص في دراسة سيكولوجية الانسان، لكن القليلين منهم ينصرفون الى دراسة الدماغ، مع أنه ـ على نقيض السيكولوجي ـ مادة فيزيائية ملموسة ينتظر من يخضعه لتجارب فيزيائية وكيميائية».

ومنذ فترة وجيزة، تمكن العالم ستيفن زامنهوف من تكبير حجم دماغ فأر بواسطة هرمونات لاتزال سرية تنتجها الغدد البلغمية. فما هي نتيجة تكبير حجم الدماغ على الشخصية الانسانية؟

الأجوبة الأولى غير قاطعة. لنتائج الاختبارات الانكليزية والاميركية تقول أن زيادة حجم الدماغ تحدث زيادة مماثلة في الذكاء.

وها هو السؤال يطرح من جديد: ماهو الدماغ أهو آلة الكترونية أم مختبر كيميائي؟ كيف نتعلم، وكيف نتذكر؟

إن صلة التعلم بالذاكرة صلة وثيقة. ومن الثابت اليوم أن التعلم يمر بعدة مراحل، وبعدة طرق... فهناك تعلم بواسطة التكرار وآخر بواسطة التحليل وثالث بواسطة التجميع والتوارد.. لكننا نعرف أيضاً أن الذاكرة هي الجهاز الوحيد الذي بوسعه ان يتعلم. ولانعرف أين يتم خزن المعلومات ولاكيفية ارتباط رسالة برسالة أخرى. كما نجهل كيف يتكون الكلام، وكذلك نجهل ماهو الذكاء الذي كان بعض العلماء يعتبرونه لوقت قريب مجرد موهبة وراثية.

في جامعة كاليفورنيا لجأ الدكتور ويتمان الى المخدر لهزم الادمان على الكحول، مغلقاً بذلك تياراً قديماً في الطب. وقد نجح بشفاء مرضاه من المدمنين على الكحول بإعطائهم كميات قليلة من مخدر الـ L S D تحت إشرافه. وكانت النتيجة أن بدأ مرضاه يعودون تدريجياً الى حالتهم الطبيعية.

ولائحة المخدرات الكلاسيكية تستضيف كل إسبوع أسماً جديداً. إن المخدرات اليوم أحدثت ثورة في المستشفيات وعيادات المعالجة النفسية، هي أشبه بثورة البنسلين قبل عشر سنوات.

إلا أن استعمال المخدر بقصد العلاج يجب أن يخضع للاشراف الطبي المباشر، ثم أن المخدر يعتبر محدود الفائدة في عمليات كشف أسرار الدماغ، وتأثيره على الدماغ طارىء، ومحدود ويصعب قياسه. وحتى الـ L S D الذي يعتبر من أقوى المخدرات تأثيراً يزول مفعوله بعد ساعات قليلة ويتراوح تأثيره على الدماغ بين حالتين محدودتين: الخوف والفرح.

وعلى كل حال، فإن معالجة الدماغ تسير على طريق قد تتيح كشف المزيد من أسراره. وقد ساعدت بعض المهيجات أمثال الستركنين والبيكروتوسين على جعل الدماغ أكثر فعالية وعمقاً كما سهلت أعمال الذاكرة.

لكن كلما فتح باب من أبواب أسرار الدماغ فتحت في وجوه العلماء سراديب طويلة فيها عشرات الأبواب المغلقة.

آثار الصلاة

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين ﴾، وفي الحديث: الصلاة عمود الدين، إن قبلت قبل ما سواها وإن ردت رد ما سواها». «الصلاة قربان كل تقي»، «إن أول مافرض الله: الصلاة، وآخر ما يبقى عند الموت: الصلاة، وآخر ما يحاسب به يوم القيامة: الصلاة، فمن أجاب فقد سهل عليه ما بعده، ومن لم يجب فقد اشتد عليه ما بعده»، «بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة».

وقد حذرنا الله تعالى بقوله: ﴿ ويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾. وإن أول ما يعترف به من يلقى في نار جهنم من الخطايا والذنوب هو ترك الصلاة، بقوله تعالى: ﴿ ما سلككم في سقر، قالوا لم نك من المصلين ﴾.

فالصلاة مناجاة الروح بين العبد وربه يبث اليه ما انتابه من آلام ونوائب، بخشوع وخضوع، وتذلل فيلهم من الصبر والارتياح النفسي ما يخفف عنه تلك الآلام أو يزيلها. فقد ثبت في الطب الحديث أن لعرض الآلام والكوارث وبثها أثراً هاماً في تخفيفها، على أن الله تعالى هو القادر المتعال على إزالة ما يصيب الانسان من مصائب وقضاء ما له من حوائج. وهو القائل: ﴿ أدعوني أستجب لكم ﴾.

وفي صلاة الجماعة من آثار اجتماعية وروحية عظيمة، فيتفقد المؤمنون حالات بعضهم البعض ويقوم المستطيع منهم بدفع حاجة الضعيف، وتتحقق الأخوة الاسلامية بين المؤمنين: ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾.

الشعور بالمساواة:

يقول الكاتب: (هراس ليف): «ما كان شيء في العالم ليقنعني بأن أي

دين من الأديان يدعو الى المساواة بين الناس، ولو أن بعضها يتظاهر بهذه الدعوة. فقد زرت كثيراً من الكنائس والمعابد فرأيت التفريق بين الطبقات داخل المعابد كما هو خارجها، وكان اعتقادي بالطبع أن الأمر لابد كذلك داخل المساجد الاسلامية، ولكن ما كان أشد دهشتي حينما رأيت الشعور بالمساواة على أتمه بين المسلمين في عيد الفطر في مسجد (ووكنج) بلندن. هنالك وجدت أجناساً مختلطين على اختلافهم في المراتب اختلاطاً لك ان تسميه بحق أخوياً، ولم أكن شاهدت مثل ذلك. ترى في المسجد نوبياً من بلاد (ممباسا) يصافح عظيماً من رجال الاعمال المصريين أو سياسياً من بلاد العرب. وقد ارتفعت الكلفة بين الجميع، فلا يأنف أحدهم مهما عظم قدره من أن يجاوره في الصلاة أقل الناس شأناً. وأنك لاتجد أقل محاولة لتخطي الصفوف الى مكان ممتاز بالمسجد، لأنه ليس هنالك أي مكان ممتاز، فالكل عند الله سواء، وعندما صرح لي إمام المسجد بأن المسلمين يعتقدون رسالة جميع الأنبياء ويؤمنون بما أنزل اليهم كدت لاأصدق أذني، وكان هذا جديداً إستفدته عن الاسلام، لذلك لم أعد أشك في أن هذا الدين يصلح لأن يكون ديناً عاماً.

ويقول الاستاذ (عبد الله كوليم) المسلم: «إنه حينما كان مسافراً على ظهر باخرة الى طنجة في بلاد المغرب، إذ بعاصفة قد هبت وأشرفت السفينة على الغرق وأخذ الركاب يحزمون أمتعتهم ويهرولون في كل اتجاه وقد اضطربوا ونزل بهم الهول، فلا يدرون ماذا يصنعون. . . واذا بـه يرى جمـاعة من المسلمين قد استوت في صف واحد يكبرون ويهللون ويسبحون. . فسـأل أحدهم: ماذا يفعلون؟ فقال: نصلي لله. . فسأل: ألم يلهكم أشراف السفينة على الغرق؟ قال: لا. . إننا نصلي لله الذي بيده وحده الأمر. إن شاء أحيا، وإن شاء أمات. . . ».

وقد كان هذا الحادث سبباً في بحثه عن الدين الاسلامي وهدايته للاسلام وأصبح من كبار دعاة الاسلام وقد أسلم على يديه الكثير.

ومعلوم أن الصلاة لو قبلت تدفع عن هذا الانسان الفحشاء والمنكر: ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ وما أحوج الانسان الى عمل يبعده

عن الفحشاء ويطهره من الدنس والرجس ويدخله في عالم قدسي كله جمال وكمال. فلم يؤت بهذا الانسان الى عالم الوجود الا ليتكامل نفسياً، ولاشيء يؤدي الى هذا التكامل كالصلاة المقبولة، صلاة يتخللها خشوع وخضوع وبكاء من خوف الله تعالى: ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾(١).

فالانسان أشبه شيء بخليطة من المعادن، فيها المعدن الخسيس كالحديد والألمنيوم والنحاس الى ما هنالك وفيها الذهب الخالص، فبالصلاة تذوب وتزول الادران والأوساخ المعنوية وتظهر الحقيقة الانسانية وتتجلى الفطرة الواقعية، فتتعرف النفس الى ربها تعرفاً يؤدي بها الى اليقين بمنه تعالى، وهو غاية وجودنا في هذه الدنيا الموقتة في هذا الحقل العملي الامتحاني من حياتنا. فقد جاء في حديث قدسي عن الله تعالى وعن سر خلقنا ووجودنا حيث يقول جل من قائل: ﴿ كنت كنزاً مخفياً، فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق لكي أعرف ﴾.

فالصلاة طريق لمعرفتنا ربنا، وتتفاوت هذه المعرفة بمقدار مافي هذه الصلاة من خشوع وإقبال وخضوع، وهو القائل: ﴿ ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً ﴾.

ـ راحة الضمير ـ

وفي الصلاة اطمئنان للنفس وخروج عن هموم الدنيا والقلق النفسي، فإن هذا القلق يتفاقم يوماً بعد يوم في هذا العالم المزدحم بالكوارث والنوائب والآلام.

فلابد لهذا الانسان من متنفس يزيح به عنه همومه وآلامه. والصلاة خير وسيلة لأعادة النفس الى حالتها الطبيعية. وهو قوله تعالى: ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾.

---

(١) سورة المؤمنون: ١.

يقول الطبيب النفساني: الدكتور هانرى لنك[1] في كتابه: العودة الى الايمان: ص ٢٦:

«من يعتنق ديناً أو يتردد على دار العبادة يتمتع بشخصية أقوى وأفضل ممن لادين له، أولايزاول أية عبادة».

ثم يقول: «الدين هو الايمان بوجود قوة ما كمصدر للحياة. هذه القوة هي قوة الله: مدبر الكون، خالق السماوات، وهو الاقتناع بالدستور الخلقي الالهي الذي سنه الله في كتبه المتعاقبة[2]. واعتبار التعاليم السماوية أثمن كنز تغترف منه الحقائق الدينية التي هي أسمى في مرماها من العلوم كلها مجتمعة والقيم الخلقية التي هي أقوى في أساسها من نظرية العقل أو السببية».

ثم يقول: «الدين الذي أتكلم عنه ليس ملجأ الضعفاء. ولكنه سلاح الأقوياء فهو وسيلة الحياة الباسلة التي تنهض بالانسان ليصير سيد بيئته المسيطر عليها لافريستها وعبدها الخانع»[3].

وهو يقول أيضاً (ص ٣٢): وقد صارحني عدد جم من الناس قائلين: لاتظننا نشك في وجود الخالق، بل نحن نؤمن به وبقدرته جل وعلا، لكنه إيمان من نوع جديد، لم يأت عن طريق ترديد الخلف قول السلف. فكلنا

(١) كان الدكتور: لنك، ملحداً، ثم رأى حوادث جمة ووقائع هامة أثبتت له وجود الله تبارك وتعالى، فصار يؤمن بالله ويعالج مرضاه على ضوء التعليمات الدينية وهو يقول في كتابه المذكور الذي قد طبع منه خمسون طبعة في مدة وجيزة: «ولما تخرجت في هذه الجامعة بعد أن نلت شهادة: (في بيتا كابا: Phi Beta Kapa) كنت ملحداً عنيفاً ومقتنعاً تمام الاقتناع بالحادي ومستعداً لاقناع غيري به. وهكذا في العشرين سنة التالية كنت أبالغ في احتقار التعاليم الكنسية وأومن بأن الدين هو ملجأ العقول الخاملة».

(٢) ليته أسلم حتى يعلم آخر ما أنزل من السماء. وهو القرآن الكريم، فيه الكمال النفسي وإبلاغ الفرد إلى أسمى مراتب السمو الانساني.

(٣) نفس المصدر: ص/٢٩ ـ إن ما يريده الدكتور لا يتحقق إلا في الدين الاسلامي الحنيف الذي به تتم سعادة الدارين.

يمقت الكنيسة ويتجنبها لما تثيره فينا نظرياتها ومبادئها بل ورجالها من النفور والأشمئزاز، فكنت أومي برأسي علامة الموافقة على هذه الاعترافات، لأنها تؤيد مبادئي تأييداً مطلقاً ».

ويقول الدكتور: ص ٨١: « فلن نهتدي الى حل شاف لمشكلات الحياة العويصة، ولن ننهل من مورد السعادة عن طريق تقدم المعلومات والمعرفة العلمية وحدها، فارتقاء العلم معناه ازدياد الارتباك واضطراد التخبط، ومالم يتم توحيد هذه العلوم كلها تحت راية حقائق الحياة اليومية الواضحة وإخضاعها، فلن تؤدي هذه العلوم الى تحرير العقول التي إبتدعتها وإبتكرتها. بل ستقود حتماً الى إنهيار هذه العقول وتعفنها، كما أن هذا التوحيد لابد أن يأتي عن طريق آخر غير طريق العلم: وأعني به طريق الايمان. الايمان ببعض قيم الحياة الجوهرية التي لايستطيع المنطق إزاحتها أو زعزعتها ».

ويقول أيضاً: ص ٨٤: « فالواقع: أن عبادة العقل[١] والاحتقار الفكري للديانات قد جعلا الانسان فريسة سهلة بين يدي تلك النظريات شبه العلمية التي لاتقوم اليوم الا لتموت في الغد. ولقمة سائغة بين براثن أدعياء الطب، وتلك المذاهب السياسية التي أصبحت اليوم تحير عقله وتبلبل فكره.

القلق والانتحار

وهذا القلق النفسي المسيطر على العالم الغربي اليوم أدى الى مزيد الانتحارات لضعف الايمان وعدم الثقة بالله المتعال في حل المشكلات. فإن عدد الانتحارات في الثلاثين سنة الأخيرة يزيد على ٤٠ مليون منتحر، ولقد تسرب ضعف الايمان من الغرب الى الشرق فكانت نتيجة ذلك أن قد حدث خلال ٦ أشهر في بلد إسلامي في الشرق ٢٠٠٠ حادثة انتحار!

ومعلوم أن الدين يحرم الانتحار ويعده من أعظم المعاصي والكبائر وان المنتحر مخلد في النار. فقد قال الصادق عليه أفضل الصلاة والسلام.

---

(١) ويراد به العلوم الحديثة.

«من قتل نفسه متعمداً، فهو في نار جهنم خالداً فيها» ولقد ثبت أن المنتحر أما، لاايمان له أو هو ضعيف الايمان جداً.

إن الـدين الاسلامي قـد حرم إيـذاء البدن وإيجـاد نقص فيه فكيف بالانتحار!

فضعف الايمان بالله واليأس من رحمة الله هما الباعثان القويان للانتحار. ولذلك لاتجد في بلاد الشرق في وقت كان الايمان فيه قوياً والناس متعبدون أثراً للانتحار.

يقول: الدكتور بريل: «إن المتدين لايصاب بأمراض نفسية، وجميـع الأمراض الجسمية (فضلاً عن النفسية) كقرحة المعـدة، واختلال الجهـاز الهضمي، وضربات القلب وغيرها ناتجة عن القلق النفسي والاضـطرابات الروحية واليأس من رحمة الله تعالى: وهو القائل: ﴿ولا تيأسوا من روح الله، إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾[1].

وإن عدم التوجه في المشاكل الى الخالق المتعال، وعدم المثول بين يدي رب العباد بتضرع وابتهال عند طروء المشاكل والنوائب أديا الى إنتحار فظيع في أمريكا. ففي أحد الاحصائيات، أن في أمريكا ينتحر في كل ٣٥ دقيقة شخص واحد، ويبتلى بالجنون في كل دقيقتين شخص واحد.

أثر الصلاة في قضاء الحاجات

وهناك صلوات خاصة لقضاء الحاجات ودفع القلق والاضطراب وما قد يؤدي الى الانتحار ذكرناها في الجزء الخامس من هذا الكتاب ص ١٨٣، فإن العبد لو توجه بكله الى الله المتعال بانقطاع يعلوه خشوع وخضوع، لاستجاب الله دعاءه وقضى حاجته، بلطفه الذي لايحدو رفده الذي لانهاية له، فليجرب المجربون.

---

(١) سورة يوسف: ٨٢.

وكمثال لعدم اليأس من رحمة الله نذكر هذه القصة الحقيقية[1]، وذلك أن فتاة غربية، أسمها: « ماي باولز »، خلقت كسيحة لاتستطيع المشي، وقد أحبها إبن الجيران،، وتقدم لخطبتها، وأسرعت الفتاة لأمها تزف البشرى. ولكن الأم أغرقت في البكاء، لأن الاطباء قالوا لها: أن ابنتها اذا تزوجت فلن ترزق بأولاد، وأنها ستعيش طوال عمرها عاقراً، فقالت الأم لابنتها: يجب أن تصارحي الشاب بهذه الحقيقة.

وقالت الفتاة: ولكني سأصلي كل ليلة، وأطلب من الله أن يمنحني أولاداً.

قالت لها الأم: لاتتعلقي بآمال كاذبة، لقد أكد أكبر الأخصائيين انك ستعيشين عاقراً، ومن السذاجة أن تتشبثين بالسماء، يجب أن يعرف خطيبك الحقيقة كاملة.

وصارحت الفتاة الشاب، برأي كبار الاخصائيين. فأصر على الزواج.

وبعد أن تم كانت الكسيحة تدعو ربها في كل ليلة، وتقول « الهي حرمتني نعمة المشي، فهل يرضيك، أن تحرمني نعمة الامومة التي تتمتع بها ملايين الامهات اللائي يمشين على أقدامهن؟ أتعطي غيري النعمتين، ولاتعطيني واحدة منها.

واستمرت تدعو هذا الدعاء من أعماق قلبها مدة أربعة عشر عاماً لاتكل ولاتمل، ولاتفتر ولاتقنط ولاتيأس، وبعد هذه السنوات الطوال وضعت ثلاثة أولاد في حمل واحد. وعاشوا جميعاً بكامل الصحة.

الغضب

وقد يكون الانتحار نتيجة غضب شديد وتهيج عصبي مرير ولكن الله تعالى قد أمرنا بكظم الغيظ، (ولاموفق الا الله) وهو القائل: ﴿ والكاظمين

---

(١) بين الله والانسان: تأليف العلامة: الشيخ محمد جواد مغنية نقلاً: عن جريدة الأخبار المصرية عدد ٢٤ أيار سنة ١٩٦٤.

الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ (سورة آل عمران: ١٢٨). ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾.

ومن كلام لعلي عليه أفضل الصلاة والسلام: « أحمل نفسك من أخيك عند ضره على الصلة، وعند صدوده على اللطف، وعند جموده على البذل وعند تباعده على الدنو، وعند شدته على اللين ».

وإن الله تعالى قد عظم أمر « الصبر » في النوائب: حتى قال: ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾[1].

* * *

وإقرأ معي هذه المناجاة لمولانا وامامنا زين العابدين عليه السلام، لتقف على الصلاة الكاملة:

« اللهم صل على محمد وآل محمد، وقفنا فيه على مواقيت الصلوات الخمس بحدودها التي حددت، وفروضها التي فرضت ووظائفها التي وظفت، وأوقاتها التي وقتت، وأنزلنا فيها منزلة المصيبين لمنازلها الحافظين لأركانها، المؤدين لما في أوقاتها على سنة عبدك ورسولك صلوات الله عليه وآله في ركوعها وسجودها، وجميع فواضلها على أتم الطهور وأسبغه وأبين الخشوع وأبلغه ».

ثم أنظر كيف يخاطب الله، إمامنا علي بن الحسين سيد الساجدين عليه السلام قائلاً:

« يا الهي، لو بكيت اليك، حتى تسقط أشفار عيني، وأنتحبت حتى ينقطع صوتي، وقمت لك حتى تنتثر قدماي، وركعت لك حتى ينخلع صلبي، وسجدت إليك، حتى تتفقأ حدقتاي، وأكلت تراب الأرض طول عمري، وشربت ماء الرماد آخر دهري، وذكرتك في خلال ذلك، حتى يكل لساني، ثم لم أرفع طرفي الى آفاق السماء إستحياء منك ما أستوجبت بذلك محو سيئة واحدة من سيئاتي، وإن كنت تغفر لي حين

---

(١) سورة الزمر: ١٠.

إستوجبت مغفرتك وتعفو عني حين أستحق عفوك، فأن ذلك غير واجب لي، ولا أنا أهل له باستيجاب».

وإن آل الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم يفعلون ما يقولون، ولايقولون مالا يفعلون، فقد تواتر عند أهل السير والتاريخ أن الامام زين العابدين عليه السلام كان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة، تماماً كجده أمير المؤمنين عليه السلام. وكان يصلي صلاة مودع، أي كما لو علم أنه لايبقى بعدها. وكان اذا حضرت الصلاة اقشعر جلده واصفرّ لونه، وارتعد كالسعفة خشية من الله، وقد انخرم أنفه من كثرة السجود وثفنت جبهته وركبتاه. ومع هذا كان يكرر في مناجاته، ويقول: «سبحانك ما عبدناك حق عبادتك»[1].

أنوار قدسية

ثم أن الصلاة لو كانت مستجمعة للشروط الباطنة من حضور وخشوع وتعظيم وهيبة وحياء، بعيدة عن كل عجب، مجردة عن كل رياء وحب الظهور وآفات أخرى، فهي تضفي على قلب صاحبها أنواراً قدسية، يقف المصلي بسببها على علوم باطنه وحقائق فلسفية، «فالعلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء».

وكم من أناس كانت صلاتهم صلاة عادية ميكانيكية، فلا يلتذون بها ولايتصلون بسببها الى عوالم الملكوت، ولاينالون ذلك الفرح الناصع الذي لايشبه افراح الدنيا الملوثة في شيء، فرح الاتصال بمعالم القدس، فرح تتجلى فيه علة وجود الانسان في هذا الكون الرحيب، حتى اذا من الله عليهم بلطفه الأبدي، فتوجهوا اليه تعالى في صلاتهم بكلهم وتعلقت قلوبهم بخالقهم وانجذبوا نحو المبدء الاعلى أيما انجذاب، تفتحت امام أعينهم حقائق جمة عن معالم الدين ووقفوا على فلسفة الكون والحياة وعلة الوجود، فعاشوا بهذا العلم الناصع والنور الالهي الساطع حياة روحية سامية، بعيدة عن براثن المادية

---

(١) بين الله والانسان. ص/٩٥، للعلامة الشيخ محمد جواد مغنية.

الهوجاء، وصاروا ينظرون الى عظمة الله بعين ملئت من أنوار القدس، وجمال الخالق المتعال منغمرين في معرفة صفات الله و وحبه وكمالـه. وانه ليفيض على قلب كل مؤمن من أنوار القدس بمقد 'في صلاته من توجه وخشوع واخلاص.

فعن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: « إن العبد اذا قام في الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبين عبده، وواجهه بوجهه، وقامت الملائكة من لدن منكبيه الى الهواء، يصلون بصلاته، ويؤمنون على دعائه، وإن المصلى لينشر عليه البر من أعنان السماء الى مفرق رأسه، ويناديه مناد: لو علم المصلي من يناجي ما التفت، وأن أبواب السماء تفتح للمصلين، وان الله يباهي ملائكته بصدق المصلي ».

وورد في التوراة: يا إبن آدم لاتعجز أن تقوم بين يدي مصليا باكيا، فأنا الذي اقتربت من قلبك، وبالغيب رأيت نوري »[١].

* * *

وللايمان آثار وموازين كما للاشياء المادية موازين ومقاييس ومن موازين الايمان أنك تحب الصلحاء من عباد الله وتود مجالستهم، فاذا أردت ان تعلم ما أنت عليه من الايمان، فأنظر الى قلبك واقرأ ما يقوله الامام الباقر بن الامام السجاد عليه السلام[٢]:

إنه يقول: « اذا أردت أن تعلم أن فيك خيراً، فأنظر الى قلبك، فإن كان يحب أهل طاعة الله ويبغض أهل معصيته ففيك خير، والله يحبك، واذا كان يبغض أهل طاعة الله ويحب أهل معصيته فلا خير فيك، والله يبغضك، والمرء مع من أحب».

وإني أذكر هنا دعاءاً لعلي عليه السلام لأهميته:

«أللهم أني أعتذر اليك من مظلوم ظلم بحضرتي فلم أنصره، ومن

---

(١) جامع السعادات. ج: ٣ ص/٣٥٥.

(٢) المصدر السابق.

معروف أسدي إليّ فلم أشكره، ومن مسيىء اعتذر إليّ فلم أعذره، ومن ذي فاقة سألني فلم أوثره، ومن حق ذي حق لزمني فلم أوفره، ومن عيب مؤمن ظهر لي فلم أستره، ومن كل أثم عرض لي فلم أهجره».

فللصلاة اهمية عظمى، وان المستخف بها يحرم من شفاعة أهل البيت عليهم الصلاة والسلام يوم ﴿يفر المرء من اخيه وامه وأبيه، وصاحبته وبنيه﴾. فلقد قال الامام موسى بن جعفر عليه السلام: «لما حضرت أبي الوفاة، قال لي يابني: أنه لاينال شفاعتنا من استخف بالصلاة»[(1)].

فالصلاة مفتاح لمزيد الدرجات والتقلب في أطوار الكمالات والبلوغ الى أسمى المقامات، فطوبى للخاشعين الذين يرثون الفردوس وهم فيها خالدون:

﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون. والذين هم عن اللغو معرضون، والذين هم للزكاة فاعلون. والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت إيمانهم فأنهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، والذين هم على صلواتهم يحافظون، أولئك هم الوارثون، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾[(2)].

فطوبى لأولئك الذين خشعوا في صلاتهم وبكوا على ذنوبهم شوقاً الى لقاء الله[(3)]، بكاءاً يتخلله حب الهي واعتراف بعظيم نعمه وهدايته وتوفيقه، فساروا في عوالم القدس، فشملهم راحة الضمير وحبور لايشبه مسرات الدنيا الدنية في شيء. طوبى لهم وحسن مآب.

* * *

انتهى الجزء السابع والحمد لله

---

(1) جامع السعادات. ج: ٣ ص/٣٥٤.

(2) سورة المؤمنون: ١ ـ ١١.

(3) هو اللقاء المعنوي والتقرب إلى ساحة القدس.

فهرس الجزء السابع

الموضوع	الصفحة







